



الجمهورية العربية السورية

وزارة التعليم العالي

جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

# العلوم العسكرية بين النظرية والتطبيق في العصر المملوكي الأول

٦٤٨ - ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ م - ١٣٨٢ م

أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام

إعداد الطالب

محمود سالم العلي

إشراف الأسناذ الدكتور

سهيك زكار

١٤٣٦ هـ / ٢٠١٤ م

(( بسم الله الرحمن الرحيم ))

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ

وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝

. (( صدق الله العظيم )) .

. سورة العلق الآيات من ١ - ٤ .

(( الإهداء ))

إلى ابنتي الغالية (( ريم )) التي لا أملك لها من الله نفعا ولا ضرا إلا  
الدمعة الحرّى اللهم اجعلها من الصابرين الصادقين يا ربّ العالمين

.

## بطاقة شكر

عميق الشكر والامتنان والتقدير والعرفان إلى الأستاذ الدكتور سهيل زكار الفارس الإنسان الذي تعلمت منه الكثير ولا أزال والذي أغنى البحث بالكثير الكثير من بحر علمه الزاخر، وآرائه السديدة ، وملاحظاته الدقيقة ، الذي لم يبخل بمصدر ، أو مرجع أو كتاب ، ولم يدخر جهدا في النصح والتوجيه والتعليم ، فله من الشكر وافره ، ومن التقدير جله ، ومن الامتنان كله . أطال الله عمره ، وأبقاه سندا لكل طالب علم .

كما أتقدم بجزيل الشكر لكل من ساعدني بفكرة أو بتقديم كتاب أو بكلمة نصح، وأقول لهم :

من يصنع الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهب العرف بين الله والناس

## الفهرس

م	المضمون	من	إلى
أولاً	مقدمة	٩	١٨
ثانياً	تعريف بأهم مصادر البحث	١٩	٣٣
ثالثاً	تمهيد	٣٤	٤١
رابعاً	<p>الفصل الأول .</p> <p>العلوم في الدولة المملوكية الأولى .</p> <p>١- عوامل تطور العلوم في الدولة المملوكية الأولى .</p> <p>أ- دور سلاطين وأمراء المماليك .</p> <p>ب- الموروث الحضاري .</p> <p>ج- العوامل السياسية .</p> <p>د- العوامل الاقتصادية .</p> <p>هـ- العوامل الاجتماعية .</p> <p>و- انتشار المدارس .</p> <p>٢- العلوم المساعدة للعلم العسكري .</p> <p>أ- علم الهندسة</p> <p>ب- علم الكيمياء .</p> <p>ج- علم الطب .</p> <p>هـ- علم الجغرافية .</p>	٤٢	٧٧
خامساً	<p>الفصل الثاني .</p> <p>العلوم العسكرية والتقنيات الحربية في العصر المملوكي الأول</p> <p>١- مقدمة .</p>	٧٨	١٢٦

		<p>٢- السلاح المستخدم في العصر المملوكي الأول .</p> <p>٣- أهم الدين كتبو في موضوع السلاح .</p> <p>٤- العوامل المساعدة لتطوير تقنيات السلاح .</p> <p>٥- السلاطين وصناعة الأسلحة .</p> <p>٦- أهم التطورات التي حصلت على الاسلحة في العصر المملوكي الأول .</p>	
١٧٠	١٢٧	<p>الفصل الثالث .</p> <p>التدريب العسكري للجيش في العصر المملوكي الأول .</p> <p>١- تعريف التدريب .</p> <p>٢- التدريب كما جاء في مصادر العصر المملوكي الأول .</p> <p>٣- اعداد القادة .</p> <p>٤- اعداد الكتربين .</p> <p>٥- القاعدة التدريبية .</p> <p>٦- مناهج التدريب .</p> <p>٧- مواد التدريب أو التدريب الاختصاصي .</p> <p>٨- طرق وأساليب التدريب .</p> <p>٩- صفات التدريب .</p>	سادساً
٢٠٩	١٧١	<p>الفصل الرابع .</p> <p>فن الحرب في العصر المملوكي الأول .</p> <p>١- مقدمة .</p> <p>٢- مكونات فن الحرب .</p> <p>٣- الإستراتيجية في الجيش المملوكي .</p> <p>أ- مجلس الحرب .</p> <p>ب- إستراتيجية الجيش المملوكي في معاركه مع</p>	سابعاً

		الصلبيين . ج - إستراتيجية الجيش المملوكي في معاركه مع المغول	
٢٤٥	٢١٠	الفصل الخامس . فن ادارة العمليات القتالية في الميدان ( التكتيك القتالي ) ١- تعريف التكتيك . ٢- المسير التكتيكي عند الممالك . ٣- الاستطلاع عند الجيش المملوكي . أ- دور الاستطلاع في مواجهة الغزو المغولي ، ب- دور الاستطلاع في مواجهة الصليبيين . ٤- الاستطلاع عند الجيش الصليبي . ٥- الاستطلاع عند المغول . ٦- القتال من المسير .	ثامناً
٢٧٧	٢٤٦	الفصل السادس . فن ادارة عمليات الحصار . ١- حصار القلاع وأهم التطورات التي حصلت على القلاع . ٢- معركة تحرير صفد ( كأنموذج ) . ٣- التعبئة في العصر المملوكي . ٤- القيادة والسيطرة في الميدان .	تاسعاً
٢٨٨	٢٧٨	خاتمة البحث .	عاشراً
٢٩١	٢٨٩	ملخص في اللغة الانكليزية .	حادي عشر
٣٠٧	٢٩٢	ملاحق توضيحية .	ثاني عشر
٣٣٠	٣٠٨	المصادر والمراجع	ثالث عشر

## الإختصارات

ت : توفى .

تر : ترجمة .

تح : تحقيق .

م : مجلد .

ج : جزء .

ق : قسم .

ط : طبعة

د . م : دون مكان .



## المقدمة :

يمثل عصر الدولة المملوكية الأولى ( البحرية ) بما ترك للإنسانية من تراث عظيم ، وموروث ثقافي واسع ، وأوابد صارعت عاديات الزمن ، وبما وُجّه إليه من سهام النقد والإتهام بأنه عصر تخلف وانحطاط مجالا ثرا للدراسة والبحث ، فمن الصراع بين المتناقضات تنشأ أشياء جديدة قابلة للحياة ، قابلة للنقد ، قابلة للنقاش لتتجدد بها الحياة . ما تركه العصر المملوكي الأول من تراث يستحق الوقوف عنده ، فتلك الأوابد كيف بنيت وما هو الدافع إلى بنائها ؟ وما تركه من موروث ثقافي يجب النظر والتدقيق فيه ، ويجب أن ينسب إلى عصره . أما عن النقد الذي وجه إلى ذلك العصر هو الآخر يجب الوقوف عنده ، والنظر فيه مرة أخرى والبحث عن الدوافع الكامنة وراء كل رأي مهما كان ايجابي ، أو سلبي، والإنطلاق من القاعدة التي تقول : إن تغطية الشيء ، أو عدم رؤيتك له لا يعني بالضرورة أنه غير موجود ، فالعلوم نتاج إنساني حضاري يجب أن تتاح لكل الناس لسببين :

الأول : أنه ملك إنساني من حق الجميع الاستفادة منه ، والبناء عليه .

الثاني : إنه سمة ونتاج عصر يجب أن يسمى باسمه .

السؤال المهم هو : ماهي سمة العصر المملوكي الأول ؟ هل كان عصر علم ؟ أو أنه عصر جهل .

مباشرة لا يمكن اصدار حكم قطعي بالإجابة بنعم كإحتمال أول ، وليست لا كإحتمال ثاني ، لكن بعد الدراسة النقدية ، والتحليل الموضوعي لابدّ من إجابة تشكل إطارا عاما لسمة غالبية للعصر المملوكي الأول هي أحد الإحتمالين إما العلم ، أو الجهل .

لقد وجهت أصابع الاتهام من قبل الكثير من المستشرقين في الشرق ، والغرب على حد سواء لهذا العصر بأنه عصر جهل وتجهيل ، وانحطاط في الوقت الذي تم فيه توصيف الصليبيين بأنهم قوة خير وعلم وحضارة جاءت لتخلص قبر السيد المسيح من الحفاة العراة الجهلة .

لكن السؤال المهم هو كيف لمخالب الجهل ، والتخلف ، والإنحطاط أن تتغلب على قوة الخير والعلم ، والحضارة ؟

هذه اشكالية بحث تستدعي من كل ذي عقل سليم النظر ، والتدقيق ، والتحليل والتركيب واستقراء المعلومات المجهولة من خلال المعلومة حتى يتم التوصل إلى الحقيقة العاقلة البعيدة عن التحيز ، والهوى ، والنقد الهدام الذي لا يرى من الألوان إلا اللون الأسود لغاية في نفس يعقوب .

هذا أمر ، والأمر الآخر أن الدولة المملوكية الأ ولى امتلكت جيشا قويا منظما مجهزا بأفضل الأسلحة ، وإلا كيف يمكن أن تحل شيفرة انتصارات الجيوش المملوكية التي صارعت الصليبيين والمغول في الوقت نفسه ، هل كان يمكن أن يتم ذلك دون الإستناد إلى سياسة فاعلة واقتصاد قوي ، وجيش مبني على أسس وقواعد علمية مدروسة ؟ انطلاقاً من مقولة فاقد الشيء لايعطيه .

أما الأمر الثالث فهو : هل الانتصار يمكن أن يتحقق من خلال إغلاق منافذ العلم ، والتطور وركوب أمواج التخلف والانحطاط ؟

أليس للنصر إعداداته وتحضيراته ، وأسبابه ، ومتطلباته ! .

هل يمكن تحقيق النصر بسلاح متخلف أكل الدهر عليه وشرب ؟

هل يمكن تحقيق النصر بدون تدريب الجيوش تدريبا علميا نوعيا على فنون القتال والإستفادة من الخبرات ، والتجارب ؟

هل يمكن تحقيق النصر مع عقلية متخلفة لا تؤمن بالحركة والتطور والتخطيط ؟

هل يمكن تحقيق النصر مع عقلية متخلفة لا تعرف فن الحرب ، وعلم الحرب ، ولم تخبر ميادين الحرب ؟

جميع هذه القضايا تحتوي على كم هائل من المتناقضات تشكل إشكاليات بحث لا بدّ من فك رموزها وتلمس خيوطها وصولاً إلى الحقيقة .

## الأسباب والأهداف المتوخاة :

الأسباب التي دفعت للبحث في هذا الموضوع كثيرة منها :

١- إنّ موضوع العلوم العسكرية في الدولة المملوكية الأولى بين النظرية والتطبيق جديد في بابها وهو موضوع جدير بالبحث كونه يشكل نافذة جديدة يمكن الوقوف منها من زاوية جديدة على تاريخ العصر المملوكي بشكل عام ، والعلوم في العصر المملوكي الأول .

٢- إن العلوم العسكرية جزء من العلوم العامة تستند إليها في كثير من التطبيقات والتكتيكات لأجل الجزء الأهم من العلوم العامة ، وهذا الموضوع ما زال بكرة لم ينل ما يستحق من الدراسة والبحث ، مما يشكل دافعا لدراسة هذا الموضوع المهم .

٣- أتهم العصر المملوكي بالجهل والانحطاط ، ومن المعروف أن الدول عندما تدخل في مرحلة الجهل ، والانحطاط تكون قد تسارعت في نفق الإنهيار ، فكيف استطاعت الدولة المملوكية الأولى بما وصفت به من جهل وتخلف وانحطاط أن تتغلب على المغول ، وأن تقتلع الدويلات الصليبية من الأرض العربية ؟ ألا يشكل هذا المشهد دافعا كبيرا للدراسة والبحث ؟

٤- إن العصر المملوكي الأول لا يمكن النظر إليه بدون المقدمات التي أدت إلى قيامه ولا بدون العصر الذي قبله أو اللاحق له من حيث التأثير والتأثير ، و العلوم يشكل عام نتاج إنساني ، وعمل تراكمي يعتمد التقدم فيه على ما سبق انجازه في هذا المجال وكانت العصور السابقة لهذا العصر أنجزت الكثير من العلوم التي شكلت قاعدة يمكن البناء عليها في هذا العصر أم أن سلاطينه حملوا معاول الهدم والجهل وهدموا كل ما بناه من أتى قبلهم ؟ معرفة ذلك ألا تشكل دافعا قويا للوقوف على حقيقة ذلك العصر وأهم سماته.

٥- هل يمكن أن نجد علاقة موضوعية بين الانتصارات التي حققها العصر المملوكي الأول على الصعيد العسكري وبين العلوم بشكل عام ؟

٦- إذا لم يكن هناك علاقة موضوعية ، أو روابط بين الإنتصارات وبين العلوم ، فهل يمكن أن نجد تلك الروابط بين الإنتصارات وبين الجهل والتخلف ؟

هل الجهل قادر على أن يبني قوة ، ويبني دولة ، ويبني حضارة ؟ هذا مخالف

### لمنطق الأشياء ومنطق التاريخ !

هذه الأسباب ، وأخرى كثيرة لم نستطع أن نتلمس خيوطها جديرة بالبحث عن أجوبة علمية موضوعية لها ، وهذا هو الهدف والغاية ، وهذا بدوره يحتاج إلى العودة من جديد إلى التاريخ ومصادره ، وأوابده للبحث والتنقيب والقراءة والفهم لتتكون لدينا أرضية صالحة للبحث العلمي ودليلاً هادياً للوصول إلى الحقيقة التاريخية التي أرقّت العلماء على مرّ العصور ، وما زالت ، وستستمر .

### الصعوبات التي اعترضت البحث : عديدة منها :

الصعوبات المتعلقة بجمع المادة العلمية عن موضوع العلوم العسكرية بين النظرية والتطبيق فأكثر المؤرخون لم يتحدثوا عن تقنيات السلاح ، وتفصيل تلك التقنيات وتطوير الأسلحة بل كان يتم الاكتفاء بالتلميح .

المخطوطات التي تشير إلى تلك الأمور ( التقنيات الحربية ) مازالت بدون تحقيق تنتظر أن تمتد إليها أيدي الرجال وعزيمة الشباب لتخرج إلى الحياة من جديد .

هناك صعوبات تتعلق بطبيعة عملي تغلبت عليها بالصبر والأناة والعزيمة إضافة إلى صعوبة التنقل من مكان إلى آخر بسبب الظروف العامة .

### خطة العمل :

بدأت خطة العمل في هذه الدراسة بعد المقدمة بتعريف أهم مصادر البحث ، والمراجع المعتمدة . تلا ذلك تمهيد عن الأوضاع العامة للدولة المملوكية الأولى ( في حقبة البحث ) وكيفية قيام هذه الدولة فجاء التمهيد توطئة لصلب الرسالة التي قسمت إلى ستة فصول وقسم كل فصل إلى نقاط بحث صغيرة تحسبنا في البناء المنهجي ، وجاء التبويب على الشكل التالي

الفصل الأول : عالج الفصل الأول بعض العلوم التطبيقية ، و العلوم الأخرى التي لها علاقة مباشرة بالعلم العسكري الذي يتطور بتطور هذه العلوم ، ويزدهر بازدهارها ، وقد بدأ الفصل بالبحث في عوامل تطور هذه العلوم ، أو الامور التي كانت تشكل تربة خصبة لتطور هذه العلوم ، ومنها دور السلاطين المماليك ، وقد تبين أنهم فتحوا للعلم أبواباً ، فازدهرت الزراعة في معظم أوقات عصر الدولة المملوكية الأولى ، ونمت الصناعة ، وراجت التجارة ، فانتعش الاقتصاد وكثرت الأسواق ، وازدهمت فيها المنتجات ، والبضائع ، واستند كل ذلك إلى

موروث حضاري علمي متراكم للمعارف ، والخبرات عبر العصور السالفة التي مهّدت بالنقل ، وإعمال العقل بما خبرته الشعوب ، ووصلت إليه الإنسانية في مجال العلوم .

ساعد في ذلك اتساع رقعة الدولة ، والاستقرار السياسي فيها ، وعلاقتها المتشعبة مع الدول والشعوب الأخرى المعاصرة لها ، ولا يكون ذلك إلا من خلال الرؤية الإستراتيجية لقدرة البناء السياسي الصحيح والمتكافئ للدولة مع الدول والشعوب المعاصرة ، والإيمان بأن العلوم هي نتاج فكري إنساني حضاري لكل البشر يساعد في تطويرها بيئة مستقرة ، واقتصاد قوي قادر على تأمين متطلبات البحث ، وتأمين القاعدة الأساسية لذلك من دور علم ، ومدارس وكتاتيب ومكتبات إلى غير ذلك .

وقد تم البحث فيه في بعض العلوم التطبيقية مثل :

١- الهندسة التي تطورت تطورا ملحوظا في العصر المملوكي الأول وتم ملاحظة ذلك من خلال العمائر ، والمنشآت ، والأوابد العمرانية التي أقيمت في ذلك العصر ، ثم تم تبيان علاقة الهندسة بالعلوم العسكرية من خلال احتياج فن الحرب لعلم الهندسة واعتباره أحد الأسلحة المهمة سواء في معارك الدفاع ، أو الهجوم .

وللتدليل على تطور ذلك العلم تم سرد لائحة ببعض الأسماء التي لمعت في هذا العلم واشتغلت به ، وأهم ماتركوا من كتب ومؤلفات في هذا العلم .

٢- الكيمياء وهو علم الصناعة ، أو تحويل الأشياء والصبغ الكيميائية إلى صبغ أخرى بمواصفات جديدة تختلف كل الإختلاف عن الأصل ، وكان الاهتمام جليا في هذا العلم من خلال ما تم ملاحظته من تصنيع للدخاخين ، والنيران ، والمواد السامة ، والغازات ، وتغيير مواصفات المعادن للوصول إلى أفضل صناعة ( وقد شمل ذلك كل الأسلحة ) .

٣- علم الطب وتم البحث في أهم ما توصل إليه العلم في هذا المجال الإنساني ، حيث تبين انتشار المعارف الطبية ، وبناء البيمارستانات ، وتطور عملية التفكير التي أفصحت عن ذاتها عبر اكتشافات علمية باهرة مازالت ، وستبقى عنوانا عريضا لذلك العصر الذي قال عنه بعض المؤرخون في هذا المجال : « إذا كان اسم العصر الذهبي قد أطلق على الأيام التي ظهر فيها أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ، حقّ لنا بكل فخر واعتزاز أن نطلق على عصر ابن النفيس العصر الماسي للطب العربي » .

٤- علم الجغرافية : كما تم البحث في علم الجغرافية لما له من علاقة مباشرة بالعلوم العسكرية ، وتطبيقات فن الحرب من حيث دراسة مسرح العمليات ، وأهم ما تقدمه الأرض ، والطبيعة لخدمة هدف المعركة ، فالأرض من حيث الإخفاء والتمويه ، وطبيعة تكوين التضاريس من حيث توفر المياه القابلة للشرب ، والأعشاب اللازمة لأطعام الدواب ، والحطب اللازم للوقود والطهي .. إلى غير ذلك ، وللمناخ وعناصره تأثير مباشر على طبيعة الأعمال القتالية ، فالأمطار ، والثلوج تعيق تحرك القوات والرياح والأمطار أيضا لها تأثيرها على رمي النشاب .

الفصل الثاني : عالج التقنيات الحربية ، أي ما يتعلق بتطور الأسلحة ، وتم التعرض فيه إلى السلاح المستخدم في العصر المملوكي ، وأهم التطورات التي جرت عليه ، ومن هم أهم المؤرخين الذين تناولوا هذا الموضوع .

بدأ في هذا الفصل الحديث عن صناعة الأسلحة بشكل عام ، وما هي المواد الأولية اللازمة لهذه الصناعة ، ومدى توفرها في أراضي الدولة المملوكية الأولى وكيف كان يتم الحصول عليها واستيرادها من الخارج ، وهل كان للسلطين دور ايجابي في هذه الصناعة ، ثم جرى تقسيم البحث في الأسلحة إلى :

أسلحة فردية : وهي دفاعية وهجومية ، ومن ثم جرى ذكر أنواع تلك الأسلحة ، وأهم التطورات التي حصلت عليها ، فالسيوف على سبيل المثال تم التركيز على أنواع السكايات وذكر أنواع كثيرة منها ، أما الرماح ، فتم التركيز على نوع الخشب الذي يصنع منه الرمح وشكله ، وسنانه الذي صار يركب عليه مواد حارقة والاقواس حيث تم التركيز على الطريقة العلمية لتصنيع تلك القسي التي كانت تخضع لقوانين علمية كان يُظن أنها تصنع هكذا بدون قواعد ، أو أسس تخضع لقوانين العلم ، فقد جاء في البحث على سبيل المثال أنه يجب بالضرورة أن يكون طول الوتر في القوس يساوي ١٢ / ١ من طول القوس كله ومثال آخر يجب أن يكون وزن النصل الذي يركب على رأس السهم ٧ / ١ من وزن السهم مع النصل ، وبطبيعة الحال إذا حصل خلل في ذلك ستكون نتيجة الرمايات هي الإخفاق حتما ، ثم تم التطرق إلى أنواع القسي وأنواع السهام التي ترميها .

أما الأسلحة الدفاعية فذكر منها الخوذة التي تلبس على رأس المقاتل ، وكانت تسمى البيضة والترس ، والدرع الذي يلبسه المقاتل ، وبطبيعة الحال تمت دراسة أهم التطورات التي حصلت على تلك الأسلحة .

أما الأسلحة الجماعية : تم البحث في أبراج الحصار والعرادة والمنجنيق الذي تطور تطورا ملحوظا نتيجة المحاكاة بين الدفاع والهجوم في معارك الحصار .

أما ما يلفت النظر ، فهو وجود بعض الأسلحة الجديدة والمتطورة التي لم تكن معروفة من قبل ومنها :

المدفعية التي تحدث عنها البعض بشكل عابر مثل القلقشندي الذي سماها المكاحل وتطورت صناعاتها ، حيث صارت تصنع من الحديد والرصاص ، ولحسن الحظ وجد من كتب عن هذا السلاح ، ووثق كتابته بالصور مثل ابن منكلي ، وابن أرنبغا الزردكاش الذي صور لنا قنذاق مكحلة وشرح طريقة استخدامها وهذا تطور علمي هائل يسجل لذلك العصر .

سلاح النيران : عولج بشكل تفصيلي ، وتمت العناية بدراسته من بداية ظهوره وصولا إلى التطورات التي حصلت على هذا السلاح .

كما تم البحث في أنواع جديدة من الأسلحة لم تكن معروفة قبل ذلك العصر مثل :

١- القنابل المؤقتة زمنياً : وهي نوع من المواد المحرقة ، أو المتفجرة كانت توضع في مكان ما ، وبعد مدة زمنية تحترق ، أو تنفجر ، وتؤدي إلى حريق المكان الموجودة فيه .

٢- الدخاخين والغازات السامة : ، وقد ذكرت عشرات التراكيب التي تؤدي إلى صناعة مثل ذلك السلاح .

٣- صناعة سلاح بحري جديد سموه الرعدة ، أو البيضاء : وهو سلاح يمشی على وجه الماء ويتوجه إلى السفن المعادية ويفجرها ، أو يحرقها .

وجود مثل تلك الأسلحة في العصر المملوكي الأول يؤكد أن ذلك العصر لم يكن يتراجع على الخلف نحو الهاوية ، أو يراوح في المكان يجتر ماضي الأمة ويقف على أطلال حضارتها وينشد أشعارها بعد كل هزيمة ، إن تصديه لجيوش المغول وهزيمتها واقتلاع بقايا الصليبيين من الأرض العربية لم تكن تراجعاً إلى الخلف ، بل انطلاق من صلب المعاناة دائماً إلى الأمام في الصناعة والتصنيع ، ومن قال أنه عصر انحطاط عليه اثبات ذلك بالحجة والبرهان ، فالعلم نهر ومياه النهر لاتعرف السكون أبداً ، فهي في جريان دائم .

الفصل الثالث : عالـج موضوع التدريب في الجيش المملوكي ، و التدريب العسكري عمل علمي بحث وهو يتعلق بعوامل ثلاثة المدرب ، والمتدرب ، ووسائل التدريب والمدرب والمتدرب بشر ، والتعامل مع الطبيعة الإنسانية يحتاج إلى العلم ، وأحدث نظرياته أما وسائل التدريب وطرقه لايمكن الوثوق بها إلا إذا كانت مبنية على أحدث نظريات العلوم ومن هنا تبدأ المعالجة ، والبحث أي من الركائز الثلاثة : المدرب ، واعداد القادة الذين سيقودون العملية التدريبية في البداية ، ثم الأعمال الحربية في الميدان ، حيث تم التركيز على صفات القائد التي يجب أن تتوفر فيه .

المحور الثاني ، أو العامل الثاني هو اعداد المتدربين ( الكوادر ) ، وهم حطب المعركة و عدة النصر الذي لن يتحقق أبداً إلا باعدادهم اعداداً نوعياً متميزاً ، وإكسابهم المعارف والمهارات والخبرات ، ولايكون ذلك إلا من خلال مادة التدريب ، والقاعدة التدريبية المبنية على المناهج المتطورة ، وهذا هو جوهر العامل الثالث الذي تم بحثه . من خلال : دراسة الطباق ، وإدارة العمل فيه ، وشكل تلك الإدارة ، ومنهج التعليم ، والتدريب التي قسّمت إلى مرحلتين قبل البلوغ ، وبعد البلوغ يتبعها مرحلة رئيسية ، وهي الأهم ، وهي التدريب في الميادين من خلال الإستعراضات ، ومن خلال الاحتفالات ، ومن خلال حلقات الصيد .

ثم تم البحث في أنواع التدريب ، وكيف كان يتم ، والأساليب ، والطرق التي كان ينفذ من خلالها التدريب مثل طريقة الإقناع ، وطريقة التمرين والتمرن ، وطريقة المكافأة ، وهي طرق مبنية على أسس ، وقواعد علمية مازالت تستخدم في أيامنا الحاضرة لا بل تعد من ركائز التدريب النوعي الحديث والمتطور .

ثم تم الحديث عن صفات التدريب في العصر المملوكي الأول ، وتم التركيز على عدة نقاط كثيرة بينها البحث .

الفصل الرابع: عالج مسائل أساسية في فن الحرب ، وبدأ بمقدمات ، وتعريف لمكونات فن الحرب ول بعض المصطلحات مثل الإستراتيجية ، ونشأتها – امتداداتها الإقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية ، وتم الوقوف عند أسماء بعض الذين كتبوا في الإستراتيجية وفن الحرب .

ثم تم البحث في أنواع الإستراتيجية • المباشرة ، وغير المباشرة ) ، وأهم العوامل التي يتعلق بها هذا المصطلح .

بعدها تم الإنتقال إلى البحث في الإستراتيجية عند الجيش المملوكي ، وتم التنويه إلى أن هذه المصطلحات لم تكن معروفة بصيغها اللغوية في العصر المملوكي لكنها كانت تمارس بشكل فعلي في الحياة العملية عند الجيوش المملوكية ، والجيوش المعاصرة لها مثل جيوش المغول و جيوش الصليبيين ، فعند الجيش المملوكي كان يعقد مجلسا للحرب يبحث في أمور كثيرة مهمة بينها البحث .

بعدها تم الإنتقال إلى البحث في :

١- إستراتيجية الجيش المملوكي في معاركه مع الصليبيين . وقد استخدم نوعا الإستراتيجية المباشرة ، وغير المباشرة ، وحسب الظروف السياسية ، والإقتصادية والعسكرية السائدة .

٢- إستراتيجية الجيش المملوكي في معاركه مع المغول ، حيث كانت في البداية إستراتيجية دفاعية ، ثم تحولت إلى دفاعية هجومية في الوقت نفسه .

الفصل الخامس : بحث في الجزء الثاني من فن الحرب وهو التكتيك ، حيث بدأ البحث بمقدمة وتعريف لهذا الجزء من فن الحرب ، وهو جزء مهم لأن التكتيك هو الذي يترجم الإستراتيجية إلى لغة حية من خلال التطبيق ( الحركة والنار ) ، ثم تم توضيح بعض الأمور التنظيمية التي تسبق تنفيذ المعارك التي عادة ما تبدأ بمسير تكتيكي للقوات الغاية منه الوصول إلى أرض المعركة في أعلى جاهزية قتالية لملاقاة العدو ، وهذا ما بدأ البحث فيه ، ثم تم الانتقال إلى البحث في طبيعة مسير القوات ، وكيف كان يشكل رتل المسير ، وكيف كان يُؤمن من خلال إرسال مجموعات إستطلاعية ، وقد تم التركيز على هذه النقطة من حيث :

- الأهداف التي كانت تحدد لتلك المجموعات .

- قيادة المجموعة وصفات قائدها وثقافته ومعارفه العامة والعسكرية .

- التعليمات التي كانت تعطى لمجموعات الإستطلاع من قبل القائد .

- طرق الحصول على المعلومات ، وتم التركيز في هذه النقطة على الجاسوسية وما صفات الجاسوس .

بعدها تم البحث في دور الإستطلاع والجاسوسية في الحرب .

ثم تم الإنتقال إلى بحث موضوع الإستطلاع في الجيوش الصليبية ، ودورها في محاربة الجيوش المملوكية ، وكذلك عن دور الإستطلاع عند المغول .

ثم تم الإنتقال إلى البحث في القتال من المسير ، وفيه تم التركيز على أهم الميزات التكتيكية التي كان يتمتع بها الجيش المملوكي ، وتم التركيز على :

- القدرة على الاشتباك من حالة المسير مع عدو مهاجم ( وهي حالة تسمى اليوم بالمعركة التصادمية ) .

- القدرة على التقدير ومعرفة نقاط الضعف في جيوش العدو والهجوم عليها ( مثل مراكز النقل ) .

- استدراج القوات المعادية إلى المكان المناسب ، أو إلى منطقة الكمين ( أو ما يسمى في أيامنا هذه مناطق القتل ) .

- البراعة في استخدام الحيل ، أو ما يسمى اليوم الحرب النفسية .

- الرمي من الحركة عن الخيل دون توقف ، أو تباطؤ .

- التأمين القتالي المادي ، والطبي ، والفني .

الفصل السادس : تابع البحث في موضوع التكتيك القتالي ، ولكن من باب آخر ، وهو تكتيك حصار القلاع لاسيما وأن الصليبيين اعتمدوا على القتال من القلاع ، والحصون ، وفي المدن من خلف الأسوار ، وتم التركيز في هذا البحث على نقاط أهمها : تقنيات التحصين والحصار .

بعدها تم التركيز على دور القائد في استعراض القوة وإظهار القدرة لتخويف العدو والنيل من الروح المعنوية .

وفي الفقرة ما قبل الأخيرة تم التحدث عن التعبئة وأشكالها وطرقها التي كانت سائدة في العصر المملوكي الأول .

في الفقرة الأخيرة تم البحث في موضوع القيادة والسيطرة أثناء القتال في الميدان وما هي الوسائط المستخدمة في ذلك .

هذا وقد أنهيت الرسالة بخاتمة أشير فيها إلى أهم النتائج التي خلص إليها البحث ، ثم تلا الخاتمة ملاحق وخرائط تخدم موضوع البحث ، وقائمة للمصادر والمراجع التي تمت العودة إليها في كتابة البحث على أمل أن يقدم هذا الجهد فائدة علمية للدارسين والباحثين .

وختاماً كل الشكر والإمتنان إلى كل من مد يد العون لانجاز هذا العمل ولاسيما الرجل الفاضل شيخ المؤرخين الأستاذ الدكتور سهيل زكار الذي كان سخياً في رفق هذا العمل بما احتاجه من مصادر ومراجع ، وكل المحبة والتقدير لكل الزملاء والأصدقاء الذين وقفوا إلى جانبي وساعدوا ، وأعانوا .



وهاهي ذي الأطروحة بين أيديكم السادة أعضاء لجنة الحكم الموقرين لإبداء ملاحظاتكم المهمة تقويماً وتصحيحاً لها ، والتي ستكون موضع الإهتمام والتقدير لأنها سترسم لهذا البحث طريق النور .

أكرر شكري لكم أيها السادة ، والله ولي التوفيق .

## تعريف بأهم مصادر ومراجع البحث

تنوعت المصادر المعتمدة في هذه الأطروحة من تاريخية ، وجغرافية ، ودينية ، ولكن الحرص كان شديداً على تتبع المعلومات بخصوص عناوين البحث ( العلوم العسكرية بين النظرية والتطبيق ) ولاسيما مايتعلق بتقنيات السلاح من المصادر التي عاصرت مرحلة البحث غير أنها كانت ظنينة في الكثير من الأحوال في ذكر التفاصيل التي ارتكزت إليها الانتصارات في الكثير من المعارك التي كان يخوضها الجيش المملوكي بل كانت تكتفي بالربح أو الخسارة لهذه المعركة ، أو تلك ، وقد يكون سبب ذلك أن معظم المؤرخين لم يكونوا من رجال الجيش ذوي المعارف والخبرات ، والمهارات اللازمة لإعادة الأشياء إلى أسبابها الحقيقية كنوعية السلاح وتقنياته ، أو التدريب النوعي ومرتكزاته العلمية أو القائد ومهاراته وتجاربه وخبراته ، أو هذه الأسباب مجتمعة .

ولحسن الحظ كشف مؤخرا عن بعض ما سمي بالرسائل الحربية التي كتبها رجال عسكريون مجربون ، أو قادة لهم باع طويل في هذا الميدان ، أو مقربين منهم ساعدت في تفسير الكثير من الإشكاليات ، وأفصحت عن الأسباب الحقيقية التي فسرت هذه الحادثة أو تلك .

لذلك ستقتصر الدراسة التعريفية على أهم المصادر المعاصرة لزمن البحث والزمن الذي يليه مباشرة مرتبة ترتيباً معجمياً على الشكل التالي :

- المصادر المعاصرة لزمن البحث .

- المصادر التالية لزمن البحث .

### 1- المصادر المعاصرة لزمن البحث :

1 - ابن أرنيجا ( الزردكاش ) لا يعرف الكثير عن اسمه ولا عن حياته إنما من خلال تلك الكنية أو اللقب ( الزردكاش ) يبدو أنه كان عسكرياً مسؤولاً عن خزينة السلاح ، وله اهتمامات بجمع المعلومات عن الأسلحة التي كانت في تلك الخزائن ، ومن مؤلفاته :

كتاب الأنيق في المنجنيق : وهو كتاب محقق من قبل إحسان الهندي لصالح معهد التراث العلمي العربي في حلب ، وهو كتاب فائق الأهمية لما احتوى من معلومات ليس عن الأسلحة التي كانت في خزائن السلاح فقط إنما عن طبيعة التطورات التي حصلت على تلك الأسلحة ، وانفرد هذا الكتاب مع كتاب ابن منكلي ( الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ) في ذكر معظم تلك التطورات .

وقد أفيد منه في معرفة أهم التطورات التي حصلت على سلاح المنجنيق ، لكن الأهم من ذلك هو ما ورد في هذا الكتاب عن المدفع ، أو المكحلة وعن أجهزة التسديد الفائقة الدقة للرمي وهذا ما انفرد به الزردكاش دون غيره ، أما الأمر الآخر فقد وصف الزردكاش سلاح جديد هو الرعدة الذي ذكره أيضا ابن منكلي في كتاب الحيل في الحروب ، وهو

سلاح صاروخي بحري مضاد للسفن ، وإذا ما تيسر وأميط اللثام عن مخطوطات أخرى حول هذا الموضوع سيكون فتحاً علمياً رائعاً يسجل لذلك العصر بأحرف من نور .

كما أفيد من هذا الكتاب في البحث عن أنواع السيوف وسقاياتها ، وهذا أمر مشترك بين الكثير من المصادر التاريخية التي تحدثت عن ذلك العصر .

كما أفيد منه أيضاً في إغناء البحث عند تناول موضوع النيران ، وأشكال تلك الأسلحة ولاسيما القدور وأنواعها . كما أفيد منه عند دراسة موضوع التدريب .

ب - الأقسرائي ( محمد بن عيسى بن إسماعيل بن خسرو شاه الأقسرائي الحنفي الرومي ، ت ١٣٤٩ / ٥٧٥٠ م )<sup>١</sup> .

كان فقيهاً متمكناً ، وكان محدثاً ، وله ميول صوفية ، حيث أكثر من النقل عن كتاب السير لمحمد بن الحسن الشيباني إضافة إلى أنه كان مصنفاً مغرماً بفنون القتال والسلاح وكان يعود إلى ذوي الاختصاص من جند دمشق ، ويبيّن بأن الله تعالى وهبه المعرفة بآلات الفروسية ، ومطالعة كتب الأوائل ، وقال إن موضوع الفروسية موضوع خطير ومهم لكنه بات مهملاً في أيامه ، لذلك أقدم على التصنيف فيه .

ومن كتبه في هذا المجال كتاب السؤل والأمنية في تعلم أعمال الفروسية .

ويبدو أنه امتلك عدداً من كتب الرماح نجم الدين الأحذب ، ورسائله ، وقد اقتبس بعض الرسائل كاملة في هذا الكتاب .

وعلى الرغم من ذلك يقول سهيل زگار أنه وبحسب أكثر من نسخة توفرت له من الممكن القول من دون غلو : أن كتاب السؤل والأمنية هو أشبه بموسوعة مثل زبدة ما توصل إليه العرب حول الجهاد ، واستخدام الرمح ، والسيوف ، وحول فنون السوقية والعسكرة . لذلك فقد جاء هذا الكتاب جامعاً للكثير من المعارف ، والخبرات ، والمهارات التي لا بدّ منها للفارس وقد تمت الإفادة منه في :

- معرفة أنواع الأسلحة ، ولاسيما الهجومية منها ، وطرق تصنيعها ، فقد ذكر في هذا الكتاب أكثر من عشرة أنواع ، أو طرق لسقايات السيوف .
- أنواع النيران ، ووصف لها ، وكيفية تحضيرها .
- كما تمت الإفادة منه في الفصل الثالث الذي تحدث عن التدريب على مختلف أنواع الأسلحة ، ويعد هذا الكتاب مصدراً لا بد من العودة إليه في هذا المجال ، ولاسيما في قواعد الرمي ، وهي من الأمور العلمية التي يركز إليها التدريب بشكل عام .
- والإفادة الكبيرة هي في معرفة أن القادة في العصر المملوكي الأول كانوا يستخدمون علم النفس العام ، وعلم النفس التربوي ، وإن كان هذا العلم غير معروف بالاسم [ علم النفس ] إنما كان يمارس بشكل حقيقي وفعلي ، فقد أورد الأقسرائي فصلاً كاملاً في

<sup>١</sup> - حاجي خليفة (مصطفى ، ١٠٦٧هـ / ١٦٥٧م) : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، دار الفكر ، ط٢ ، بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ج٢ ، ص١٩٨٨ . ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي) : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ج٤ ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م ، ج٤ ، ص١٣٢ .

علم الفراسة والتي تعتمد على المعارف و العلوم النفسية ، وأكد الأقسراي أن القائد العسكري يجب أن يكون خبيراً بهذا العلم .

ج - البكلميشي ( طمرغا الاشرفي ، ت ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م ) : أي أنه عاش في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري ، وبالتالي فقد عاصر نزوح الدولة المملوكية الأولى ، وكان شاهداً على انحدار خطها البياني .

يبدو أنه كان أستاذاً في رمي النشاب ، أو خبيراً بذلك لأن معظم مؤلفاته تدور حول القسي وأنواعها ، ورمياتها ، وطرق وأساليب التدريب عليها . ومن أهم مؤلفاته :

- كتاب بغية الرامي وغاية المرامي ، وهو ما زال مخطوطاً مؤلف من ٢٨١ صفحة يدور مضمونه حول الرمي بالقوس ، والنشاب والبنندق ، وقد أفيد منه في معرفة أنواع القسي ، ومكوناتها ، وكيفية تصنيعها الذي اعتمد بشكل أو بآخر على المعرفة الدقيقة بعلم الزوايا ، والنسب ، والعزوم في محاولة علمية إلى تقليل نسبة الخطأ في الرميات إلى أدنى درجة ممكنة كما أفيد منه في معرفة العلاقة النسبية بين نتائج الرمي ، ومستوى التدريب ، فكلما ارتفع مستوى التدريب كلما قلت أخطاء الرمي وكانت نتيجة الرماية أفضل . وأفيد منه في معرفة طرق وأساليب التدريب على الأسلحة ، وقد لوحظ أنه ركز على طريقتين هما : التدرج في التعليم ، والثانية هي الابتعاد عن النقد المباشر وتوجيه الإهانات للمتدربين . بل اعتمد على تشجيع المتدرب ، وهي أفضل الطرق لايجاد الحوافز والدوافع عند المتعلم .
  - الكتاب الثاني هو : غنية الطلاب في معرفة الرمي بالنشاب . أفيد من هذا الكتاب في معرفة قواعد الرمي ، وأهمية التدريب في التعامل مع القوس وأن النجاح في ذلك لا يتأتى إلا بالمران .
  - الكتاب الثالث هو : بغية المرام وغاية الغرام في رمي السهام ، والكتاب عبارة عن قصيدة نونية تتحدث عن الرمي بالسهام ، وهذا يدل على الثقافة الواسعة للبكلميشي إضافة إلى أنه أستاذاً في الرمي ، وعسكري متميز ، وقد حقق هذا الكتاب في دمشق من قبل عارف أحمد عبد الغني ونشرته دار كنان ، ودار سعدالدين للنشر ، والكتاب أحد المصادر المهمة التي تم الاعتماد عليها في دراسة قواعد رمي النشاب .
- ومن مؤلفاته:

كتاب بعنوان الفروسية .  
كتاب الجهاد والفروسية وفنون الآداب الحربية  
كتاب الرمي بالقوس والنشاب ، وهو ما زال مخطوط ، وقد أفيد منه في معرفة قواعد وأصول وأساليب الرمي .

د- جوانفيل ( جين ، ت ٧١٧هـ / ١٣١٧م ) : فرنسي الأصل ، وهو سليل أسرة اقطاعية فرنسية وهو صاحب جوانفيل ، وهي مقاطعة فرنسية ، ونايب صاحب مقاطعة شامبين<sup>٢</sup> الفرنسية أيضاً لايعرف الكثير عن حياته إلا من خلال كتابه الذي أرخ فيه لحياة الملك الفرنسي لويس التاسع .

<sup>٢</sup> - زكار ( سهيل ) : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ط ١ ، دمشق ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م ، ج ٣٥ ، ص ١٧ .

قال لويس التاسع عن جوانفيل (( لديه عقل نبهه وذكي )) . وقد رافق جوانفيل الملك الفرنسي في حملته على مصر سنة ٦٤٩هـ / ١٢٥٠م . من مؤلفات جوانفيل كتاب سماه حياة القديس لويس ، وقد أفيد منه كثيرا عند دراسة عن الأسلحة النارية ، فهو أول من أعطى وصفا دقيقا لاستعمال هذا السلاح عندما قال : (( وبدت النار الإغريقية وهي تمر مقذوفة باتجاهنا مثل برميل من القار ، وكان ذيل النار المشتعل خلفه مثل قناة رمح طويل ، وكان الصوت الذي يثيره وهو قادم مثل الرعد الساقط من السماء ))<sup>٣</sup> ، كما أفيد من الكتاب في تدقيق ، وضبط بعض المعلومات التاريخية عن بدايات دولة المماليك الأولى ، وعن بعض الأسلحة التي كانت مستخدمة في الجيش المملوكي مثل العرادة .

هـ - ابن خلكان ( شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم البرمكي الأربلي ، ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م ) . ولد ابن خلكان في مدينة أربل في العراق سنة ٦٠٨هـ / ١٢١٢م ، ثم انتقل سنة ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م إلى مدينة حلب لتلقي العلم فيها خاصة على يد بهاء الدين ابن شداد صاحب صلاح الدين الأيوبي والمؤرخ لحياته ، ثم انتقل من حلب إلى دمشق ، واستقر فيها حيث أكمل تحصيله العلمي ، وفيها تسلم منصب قاضي القضاة .

من مؤلفاته كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ويعد من أهم كتب التراجم العامة وأشهرها . صنف من ترجم له حسب ترتيب حروف المعجم ( ألف باء .. ) ، ودعاها بوفيات الأعيان<sup>٤</sup> على أساس أن معظم الشخصيات لا تعرف بالتأكيد سنة ولادتهم بل سنوات وفاتهم لأنهم يحظون بالاهتمام بعد نيلهم الشهرة<sup>٥</sup> . أفيد من هذا الكتاب من خلال ضبط تراجم الكثير من الشخصيات التي وردت في البحث

و - الرشيدى ( محمد بن محمد ) . لم يتم الحصول على ترجمة لهذه الشخصية في المصادر المتوفرة لكن من خلال دراسة كتابه ( تفريج الكروب في تدبير الحروب ) الذي ألفه للسلطان فرج بن الظاهر برقوق المقتول سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م . قال في مقدمة هذا الكتاب : (( كنت ممن نظر في كتب التاريخ على اختلافها ، وتدبير وقائع الحروب على تباين أصنافها وما رتبته في ذلك أهل التدبير من رؤسائها ، وما اقتضاه كل من مشايخ الحرب ، وعلمائها ، وما أورده أفاضل الكتاب في وصايا المقدمين على العساكر ، وما وقع لدهاة الحروب من حيلة محتال ، ومكر ماكر دعاني ذلك أن أخدم خزانته الشريفة ... بكتاب في تدبير الحروب .. ))<sup>٦</sup> وبالتالي يكون الرشيدى قد عاش أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع للهجرة . أما نسبة الرشيدى فهي إلى بلد رشيد في مصر.

<sup>٣</sup> - جوانفيل ( جين ، ت ٧١٧هـ / ١٣١٧م ) : حياة القديس لويس ، عن زكار ( سهيل ) : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣٦ ، ص ٨٥ .

<sup>٤</sup> - البرزالي ( علم الدين ، ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٩م ) : المقفى على الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي ، ج ٤ ، تح عمر عبد السلام التدمري ، المكتبة العصرية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م ، ج ٢ ، ص ١٢ .

<sup>٥</sup> - السخاوي ( شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م ) : الذيل التام على دول الإسلام ، تح حسن مروة دار ابن العماد ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ، ص ١٠٥ ؛ أبو الفداء ( الملك المؤيد إسماعيل ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م ) : المختصر في أخبار البشر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، د . ت ، ص ٣٠ .

<sup>٦</sup> - تفريج الكروب في تدبير الحروب ، تح عارف أحمد عبد الغني ، دمشق ، دار كنان ، ط ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م ، ص ١٣ .

من مؤلفاته : كتاب تفريخ الكروب في تدبير الحروب حققه عارف أحمد عبد الغني ، ونشرته دار كنان للطباعة والنشر في دمشق . لكن سبق وأن ترجم هذا المخطوط إلى اللغة الانكليزية وحقق من قبل الدكتور جورج سكانلون في الجامعة الأمريكية بالقاهرة سنة ١٣٨٢هـ / ١٩٦١م . الكتاب يتناول جانبا مهما من تاريخ فن الحرب في العصر المملوكي ، وقد عالج المؤلف هذا الموضوع من خلال عشرين بابا ، وكل باب عدة فصول ، وقد أفيد منه في اغناء موضوع الإستطلاع والعيون والجواسيس وأهمية ذلك .

ومن الباب الرابع في اغناء موضوع الحيل الحربية ، ومن الباب الخامس في الإستراتيجية وفن الحرب ، ومن الباب السادس في التدريب ومن السابع والسابع عشر في مجال التكتيك وفن الحرب ، ومن الأبواب الثامن والتاسع والعاشر في إغناء بحث المسير والطلائع وأحكامها واختيار مواقع النزول . ومن الباب الحادي والثاني عشر في اغناء موضوع التعبئة ومن الباب التاسع عشر والعشرون في موضوع فتح الحصون . وهكذا يكون هذا الكتاب مصدرا مهما لا بد من الرجوع إليه عند البحث في فن الحرب في العصر المملوكي .

ز - الرمّاح ( نجم الدين حسن بن أيوب الأحدب ، ت ٦٩٥هـ / ١٢٩٦م ) أي أنه عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري ، وبالتالي يكون قد عاصر بداية ونهوض الدولة المملوكية الأولى . كان عسكريا متميزا رماحا ، وأستاذا في هذا الفن كتب فيه وأبدع . من أهم ما كتبه في هذا المجال :

- كتاب الفروسية والمناصب الحربية : وهو من أهم ما كتبه الرماح ، جاء في مقدمة هذا الكتاب « في كل ما يحتاجه الأستانون - وهم بطبيعة الحال إما قادة ، أو مدربون - لمعرفة الرماح والذبابيس والمنجنيق والاحراقات » ، وخصّ الرماح بجزء وافر من هذا الكتاب شرح فيه من خلال ثلاثين بابا كيفية الطعن ( الهجوم ) والتبديل ( التبديل يعني التصدي لضربات الخصم وابطال مفعولها - الدفاع ) . تمت الإفادة من هذا الكتاب في معرفة أنواع الأسلحة ، وخاصة الرماح والنيران والأصماغ ، وأنواعها وكيفية تحولاتها ، وتصنيعها ، وذكر في ذلك طرق عديدة . كما تمت الإفادة منه بشكل كبير في الفصل الثالث الذي بحث في التدريب ، وإعداد المقاتلين حيث ذكر أكثر من سبعين طريقة مختلفة للطعن بالرمح . إضافة إلى التفصيل في طرق ووسائل التدريب التي كانت سائدة في العصر المملوكي الأول . ومن مؤلفاته أيضا ألعاب المبارزة .

- كتاب عمل الرمح على الأرض والفرس .

- كتاب البنود في معرفة الفروسية واللعب بالرمح .

- كتاب علم الفروسية برسم العمل به .

ح - ابن شاکر الكتبي ( صلاح الدين محمد بن شاکر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاکر بن هارون الدارني<sup>٧</sup> المولد الدمشقي الدار ، ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣ )<sup>٨</sup> . كتبي ، ومؤرخ ، وخازن سمع من ابن الشحنة والمزي وغيرهما من العلماء الذين قرأ عليهم والتقى بكثير منهم ، وأكثر

<sup>٧</sup> - الدارني : نسبة إلى بلدة داريا قرب دمشق .  
<sup>٨</sup> - ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٧١ . ابن كثير ( أبي الفداء إسماعيل ، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م ) : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، تح حامد أحمد طاهر ، دار الفجر للتراث ، ط ١ ، القاهرة ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٢م ، ج ١٤ ، ص ٣٠٣ = حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١١٨٥ .

ثقافته فيما يبدو كانت من الوراثة ، وتجارة الكتب التي كان يستفيد منها علما ، وثقافة ، ومالا ، وقد كان شديد الفقر قبل أن يتعلم حرفة الوراثة ، فلما غدا كتيباً توفر له من عمله مالا وافرا . ولعل جودة خطه ، ووضوحه كفل له إقبال الناس على ما ينسخه من كتب . وصف أنه كان ذا مروءة في معاملته ، اطلع على الكثير من الكتب والمصادر لعل ببعض الباحثين لم يروها لأنه وراق ، ولم يشغله ولد ، فعوضه الله عنه بالتأليف ، ويبدو لمن يطلع على كتابه فوات الوفيات أنه لا يكثر كثيرا بمراعاة القواعد النحوية واللغوية ، وقد ذكر حاجي خليفة أن ابن شاعر الكتبي في كتابه عيون التواريخ أخذ عن ابن كثير لاسيما في الحوادث ، لكن التشابه في العبارات لا يدل على هذا فإن ابن كثير توفي بعد ابن شاعر بعشر سنوات ، وقد يكون العكس هو الصحيح ، أو لعل مؤلف كشف الظنون وهم ، فكتب ابن كثير بدلا من ابن الأثير لأن ابن شاعر نقل عن ابن الأثير في الكامل في التاريخ خصوصا كثيرة . من مؤلفاته كتاب فوات الوفيات ، وقد أفيد منه في تدقيق تراجم بعض الشخصيات .

ط - الطرابلسي ( محمد بن لاجين ، ت ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م ) عاش محمد بن لاجين في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، وبالتالي يكون قد عاصرنهايات الدولة المملوكية الأولى . لا يعرف الكثير عن حياته ، أو سيرته الذاتية إلا من خلال مؤلفاته ومنها :

- كتاب بعنوان غاية المقصود في العلم والعمل بالبنود ، وهو مازال مخطوطا يوجد صورة عنه في مكتبة الدكتور سهيل زكار ، وفي هذا المخطوط الكثير من المعلومات المهمة وخاصة ما يتعلق بسلاح النيران . تم الإستفادة منه في معرفة القدر وكيفية تحضيرها ، ووصف المقادير المكونة منها ، والكفيات ( قنابل ترمى باليد ) وكيفية اعدادها ، وأساليب رميها ، وبالتالي فهو مصدر مهم جدا لا يستغنى عنه عند البحث في سلاح النيران (( ورد اسم الكتاب عند الزركلي في الأعلام ، وعند عواد في مصادر التراث العسكري ))<sup>٩</sup>

- ومن مؤلفاته رسالة اسمها : الفروسية برسم الجهاد وما أعده الله للمجاهدين من العباد : وهو كتاب في غاية الأهمية لإعداد الفارس ، وتدريبه .

تمت الإفادة منه في ذكر المنجنيق ، والرماح ، وأساليب رميها، وشرح بأكثر من ثلاثين بابا في هذه الرسالة طرق الطعن والتبديل . كما أفيد منه في الحديث عن التدريب في الفصل الثالث منه حيث فصل في أمرين أساسيين في غاية الأهمية هما : التدرج في التعليم ، وهذا ما أكدته أحدث النظريات العلمية في العصر الحديث . أما الأمر الثاني فهو : التأكيد على أسلوب الإقناع في التعامل مع المتدربين ، وذلك كما قال : (( بقرن القول والعمل )) .

<sup>٩</sup> - حاجي خليفة : ج ٢ ، ص ٥ .

<sup>١٠</sup> - الزركلي ( خير الدين ) : الأعلام ، ج ١٠ ، دار العلم للملايين ، ط ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م ، ج ٧ ، ص ٢٣٧ .  
عواد ( كور كيب ) : مصادر التراث العسكري عند العرب ، ج ٣ ، مطبعة المجمع العلمي ، بغداد ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ص ٦٤ .

ويعد هذا الكتاب مصدرا مهما جدا لتدريب الفارس ، وإعداده ابتداء من تعليمه كيفية الركوب على الفرس والنزول عنه بسلاح ، أو بدون سلاح وصولاً إلى تعليمه أنواع الرماية وهو على ظهر الفرس ( أي الرماية من الحركة وهي أصعب أنواع الرميات )

- ومن مؤلفاته أيضا كتاب بغية القاصدين بالعمل في الميادين : وهو كتاب كتبه الطرابلسي محمد بن لاجين للأمير سيف الدين المارديني صاحب حلب<sup>١١</sup> .

- كتاب بعنوان الرماح<sup>١٢</sup> .

ي - أبو الفداء ( الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي صاحب حماة ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م ) ولد في مدينة دمشق سنة ٦٧٢هـ / ١٢٧٤م<sup>١٣</sup> ، وتعلم فيها .

التحق بخدمة الملك الناصر محمد بن قلاوون وأخلص له ، فجعله أميراً على مدينة حماة ولقبه بالملك المؤيد، وقد خلدت حماة ذكراه ، فغالبا ما يطلق عليها مدينة أبي الفداء<sup>١٤</sup> . كان أبو الفداء عالما بالفقه ، والطب ، والفلسفة ، والتاريخ ، والأدب ، ومن مؤلفاته : المختصر في أخبار البشر ، وهو اختصار لكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير مع تذييل عليه ، وقد أفيد منه في اغناء البحث ببعض المعلومات التاريخية .

وكذلك كتاب تقويم البلدان ، وقد أفيد منه في معرفة بعض مواقع المدن والبلدان ، وقد ورد فيه أيضا بعض المعلومات التاريخية التي أفادت البحث وأغنته .

ك - ابن فضل الله العمري ( شهاب الدين أبو العباس بن فضل الله بن أحمد بن يحيى ، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م ) وينتهي نسبه إلى عمر بن الخطاب ، ومن هنا جاء تلقيبه بالعمري .

ابن فضل الله العمري دمشقي المولد ولد في الثالث من شوال سنة ٧٠٠هـ / ١٣٠٠م وتلقى تربيته الأولى في دمشق ، ثم ارتحل إلى القاهرة حدثا ، درس بها واتخذها موطناً وموتلاً . مال إلى التخصص في علوم الفقه ، وبرع في الكتابة والإنشاء ، وتقلد في البلاط القاهري عدة مناصب مهمة أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون في ولايته الثانية ٧٠٩-٧٤١هـ / ١٣٠٩-١٣٤١م وانتهى إلى تقلده ديوان الإنشاء والرسائل .

وظل العمري إلى جانب اضطلاع به بأعباء المناصب العامة رجل البحث والدرس ، واعتنى بشكل خاص بدراسة الجغرافية ، والطبيعية ، والسياسة ، أو الممالك ، وطبائعها وخواصها ودرس تواريخ الأمم ، وأحوالها وعجائبها ، ولاسيما أمم الشرق النائية مثل أمم التتار والهند والصين ، ودرس الفلك ، ولم يكتف بقراءة المصادر ، والمصنفات القديمة ، ولكن قرن الدراسة النظرية بنوع من الدراسة العملية ، فتجول في أنحاء الشام ، والأناضول ، والحجاز وبعض الممالك الإسلامية الأخرى حسب ما أشار في مقدمة كتابه الموسوعي مسالك الأبصار في ممالك

<sup>١١</sup> - الزركلي : الأعلام ، ج ٧ ، ص ٢٣٧ ؛ عواد ( كوركيس ) : مصادر التراث العسكري عند العرب ، ج ٦ ، ص ١٠٠ .

<sup>١٢</sup> - الزركلي : الأعلام ، ج ٧ ، ص ٢٣٧ . زيدان ( جورجي ) : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ .

<sup>١٣</sup> - أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٣ .

- السخاوي : الذيل التام ، ص ١٠٥ .

<sup>١٤</sup> - أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٣ .



الأمصار ، واستعان في تعرف أحوال الأمم والممالك التي لم يزرها بأقوال العارفين والثقة ممن زاروها ، ودرسوا أحوالها حتى اجتمعت له مادة غزيرة تمتاز في كثير من الأحيان بالدقة .

كان العمري إماما في البلاغة ، والبيان ، فجاءت مؤلفاته غاية من الروعة في بحر من العلوم ومن مؤلفاته في التاريخ : - مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، وهو من أهم آثار العمري وأضخمها ، وهو موسوعة تملأ حوالي سبع وعشرون مجلدة . تأثر فيها بالنويري صاحب كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب من حيث الشكل ، أما من حيث المضمون ، فإنه اتخذ مسارا مختلفا ففي الوقت الذي أسبغ النويري على كتابه صبغة أدبية تاريخية علمية في حدود الوصف إذ بالعمري يسبغ على موسوعته صبغة جغرافية تاريخية .

وقد أفيد من هذا الكتاب ، ولاسيما الجزء السابع والعشرون بما أورد فيه من تفاصيل حول المعارك مع الصليبيين والمغول .

أما كتابه الثاني فهو : التعريف بالمصطلح الشريف فقد تمت الإفادة منه في معرفة الكثير ولاسيما في مجال الوظائف ، والمهام بما ذكره من تفاصيل عن ذلك كما تمت الإفادة منه في معرفة بعض الأسلحة التي كانت تستخدم في بعض المعارك ، ولاسيما ما أشار إليه عن سلاح مصنوع من المعدن عند فتح قلعة المرقب ، ويبدو أنه كان يشير إلى المدفع كسلاح غير ذائع الصيت ، أو غير معروف آنذاك .

يبدو أن العمري استفاد من وظيفته كناظر لديوان الإنشاء والرسائل في تأليف هذا الكتاب .

ل - ابن منكلي ( محمد ، ت ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م ) . عاش في النصف الثاني من القرن الثامن للهجرة ، وبالتالي يكون قد عاصر الدولة المملوكية الأولى ولاسيما أيامها الأخيرة . لا يعرف الكثير عن حياة ابن منكلي سوى أنه كان أحد مقدمي الحلقة السلطانية ، ثم نقيا للجيش المملوكي أيام السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ٧٦٤ - ٧٧٨هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٦م .

إذا ابن منكلي كان قائد عسكرياً متمرسا بمعرفة فنون الحرب وحيلها ، لذلك ألف فيها الكثير من الكتب والرسائل منها :

(( كتاب الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب )) ، وتمت الاستفادة منه في معرفة أنواع الأسلحة ، والتطورات التي حدثت عليها حيث ذكر عدة طرق لسقايات السيوف وكيفية تصنيع الأصماغ ، وتحويلها إلى مواد مشتعلة ، وطرق تحول النفط من شكل إلى آخر أكثر اشتعالاً ، أو طرق تغيير مواصفات الإشتعال ، وهذا ما لم تتطرق إليه أكثر مصادر ذلك العصر . كما تمت الإفادة من هذا الكتاب في معرفة وسائل رمي النيران في ذلك العصر وفي معرفة طرق ، وأساليب التدريب المتبعة ، وأهمية التدريب ، وبيّن أن ضعف التدريب يعني الإخفاق في تحقيق المهام . كما تمت الإفادة في إغناء موضوع التطور الذي حصل على علوم فن الحرب عندما تحدث عن الاستطلاع ، والصفات التي يجب أن تتوفر عند الرجل المكلف بتلك المهمة . كما تمت الإفادة منه عند التحدث عن الحيل حيث ذكر بابا كاملا في الحيل الحربية ، كما عالج وفي باب كامل موضوع قيادة الجيوش وطرق ووسائل القيادة .

(( أنس الملا بوحش الفلا )) وهو كتاب يبحث في الصيد أيام الدولة المملوكية الأولى

وحلقات الصيد كانت تستخدم للتدريب على حسن الرقابة ، ورفع اللياقة ، وعلى إتقان بعض الحركات التكتيكية وحسن استخدام السلاح الفردي .

(( التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية )) . تمت الاستفادة من هذا الكتاب في معرفة الأسلحة الدفاعية ووسائل الوقاية مثل التروس والخوذ ، أشكالها وطرق تصنيعها كما تمت الإفادة منه في التعرف على طريقة تفكير المسؤولين عن التصنيع الحربي حيث كانوا يصرون على مبدأ حصر المعرفة بهذا المجال بعدد محدد من الناس وهذا يفسر عدم ذكر أكثر المصادر التاريخية للتفاصيل أو الأمور الفنية في صناعة الأسلحة . كما تمت الإفادة من هذا الكتاب في معرفة أن المماليك كان لديهم القدرة على صنع المرايا المحرقة . اما في مجال التدريب فقد تحدث هذا الكتاب عن إعداد المدرب والمتدرب ، وفي فن الحرب فقد فصل في أمور تكتيكية على قدر كبير من الأهمية ولاسيما في مجال الاستطلاع القتالي .

(( المنهل العذب لورود أهل الحرب )) .

(( الرسالة المرضية في صناعة الجندي )) .

(( منكر سر العدد )) .

(( العقد المسبوك فيما يلزم جليس الملوك )) .

(( رسالة التحقيق في صورة التفويق )) (وهي رسالة عن السهم) .

(( الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية )) . تمت الإفادة من هذا الكتاب في معرفة أنواع القسي المستخدمة في العصر المملوكي الأول ، وأفضل أنواع الخشب لتصنيعها .

(( الأدلة الرسمية في التعابي الحربية )) وهذا الكتاب له أهمية خاصة لأنه يبحث فقط في أمور التعبئة ، وأهميتها ومكانها وزمانها وأشكالها وضرورتها .

م - النويري ( شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٣ م ) .

درس النويري في القاهرة وتخصص في دراسة الحديث والتاريخ والأدب . ظهر بكفائاته الأدبية واتصل ببلاط الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثانية ٦٩٣ - ٧٠٨هـ / ١٢٩٤ - ١٣٠٩م ثم الثالثة ٧٠٩ - ٧٤١هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤١م ، ونال عطفه وحظوته . تقلب في عدة وظائف إدارية ، ومالية ، وعتدّ النويري بعض هذه الوظائف في مقدمة كتابه الموسوعي نهاية الأرب في فنون الأدب فقال : أنه مارس الكتابة ، وبسط الخرائط ، وتولى أعمال الحسبة والمقايسات ، والمحاسبة ، والتحصيلات ، والنظر في الغلات ، والاعتصار ( عصر الزيتون أو العنب ) ، والعلوفات وغيرها<sup>١٥</sup> . قال ابن حجر في الدرر الكامنة إن الملك الناصر وگل النويري في بعض أموره وأنه باشر نظر الجيش في طرابلس<sup>١٦</sup> ، وهي وظيفة عسكرية مهمة ، ولاريب أن

<sup>١٥</sup> - النويري ( شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٣ م ) : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ٣١ ج ، تح محمد مصطفى زيادة وفؤاد الصياد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، د . ت ، ج ١ ، ص ٣ .

<sup>١٦</sup> - ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

هذا المزاج والتباين في نواحي الحياة الأدبية ، والعلمية كان له أثر كبير في التكوين الثقافي للنويري وتوسيع معارفه العامة .

بعدها تطلع إلى الأدب والانقطاع له ، فألف كتابه الموسوعي نهاية الأرب في فنون الأدب حيث أعطاها طابعها الأدبي ، فالنويري لم يعالج في موسوعته إلا ما كان له علاقة بالأدب بأوسع المعاني ، فالأدب المحض ، والتاريخ ، والجغرافية ، والسياسة ، والبيان والبديع والأمثال مما يفيض به النويري . أما العلوم التطبيقية مثل الطب ، والهندسة ، والرياضيات والكيمياء ، فقد ابتعد عن التحدث فيها ، وإن تطرق إلى موضوع علمي مثل أنواع الحيوان والنبات ، فإنه يعالجه من الناحية الوصفية ، والأدبية .

تمت الإفادة من الأجزاء ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ - من موسوعة النويري .

س - ابن واصل ( جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل ، ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م ) .

ولد ابن واصل في حماة سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٨م وتوفى فيها . زار ابن واصل مدن بلاد الشام وبغداد ، والقاهرة ، والحجاز ، وأقام بالقاهرة عدة سنوات أيام الصالح نجم الدين أيوب وعاش سقوط الحكم الأيوبي في مصر ، ثم توفى في الشام ، وكان قد تأسست له صلات متينة بالسلطان الظاهر بيبرس .

كان ابن واصل موسوعي المعارف كتب في الأدب ، والهندسة ، والجغرافية ، والطب والتاريخ ، واختص بالتأريخ لبني أيوب ، وأهم ما كتبه من كتب التاريخ هو كتاب : (( مفرج الكروب في أخبار بني أيوب )) ، وهو مؤلف من ستة أجزاء استخدم الجزء الأول ، والخامس السادس في إغناء البحث ، والجزء الخامس تح حسنين محمد ربيع ، والسادس تح عمر عبد السلام التدمري وله أيضا كتاب آخر في التاريخ (( كتاب التاريخ الصالحي ))<sup>١٧</sup> .

وألف ابن واصل في الهندسة التي كانت من اهتماماته الأساسية لكن معظم ما كتبه في هذا المجال قد ضاع ، وأخبر أبو الفداء أنه زاره مرارا فقال : كنت أعرض عليه ما أجله من إشكال كتاب اقليدس<sup>١٨</sup> ، وترك ابن واصل كتابا في الهندسة سماه شرح اشكال التأسيس في الهندسة لاقليدس<sup>١٩</sup> .

## ٢-المصادر اللاحقة لزمن البحث :

١ - ابن تغري بردي ( جمال الدين يوسف بن تغري بردي ، ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م ) :

<sup>١٧</sup> - البرزالي : المقتفى على الروضتين ، ج ١ ، ص ١٦٢ ؛ ابن العماد ( أبو الفلاح عبد الحي ، ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩م ) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ٨ ، ط ١ ، القاهرة ، ١٣٥٩هـ / ١٩٣١م ، ج ٥ ، ص ٥٨ . ابن شاعر الكنتي ( محمد بن شاعر بن أحمد ، ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م ) : فوات الوفيات ، القاهرة ، مطبعة بولاق ، ط ١ ، ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م ، ج ١ ص ٢٥٧ - ٢٥٩ . ابن الجزري ( محمد بن إبراهيم ) : تاريخ حوادث الزمان وأينائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه ، تح عمر عبد السلام التدمري ، بيروت ، المكتبة العصرية ، د . ت ، ج ١ ، ص ٤٠٩ .

<sup>١٨</sup> - أبو الفداء : المختصر ، ج ٧ ، ص ٤٧ .  
<sup>١٩</sup> - حميدان ( زهير ) : أعلام الحضارة الإسلامية ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، ج ٤ ، ص ٢٣٧ .

ولد في القاهرة أواخر سنة ٨١٢هـ / ١٤٠٩م في حي الأمراء بالقرب من القلعة أيام الملك الظاهر برقوق ، وكان أبوه مملوكا رومي الجنسية على حد قوله اشتراه الملك الظاهر واعتقه وقربه لذكائه ، ورفعته تباعاً إلى أرقى المناصب حتى صار أتاكبا للعسكر<sup>٢٠</sup> ، وهو أرفع مناصب الجيش ، واختاره مع من اختار لوصاية السلطنة بعد وفاته ، وفي أوائل أيام الملك الناصر ابن الظاهر ثار نائب الشام ، وحالفه على الثورة جماعة من قادة الجيش منهم تغري بردي فحاربهم الناصر ، وفرقهم ، وفر تغري بردي ، واختفى حيناً في المشرق ، وفي أثناء غيبته تزوج الناصر من ابنته فاطمة أخت المؤرخ صاحب الترجمة ، ثم عفا عنه ، واستقدمه في سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م ، وأنعم عليه .

توفي تغري بردي سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م ، وولده المؤرخ طفلاً لم يبلغ فطامه ، فرباه زوج أخته الثانية قاضي القضاة ناصر الدين بن محمد العديم ، فلما توفي تولى تربيته زوجها الثاني قاضي القضاة جلال الدين البلقيني .

حفظ ابن تغري بردي القرآن في صغره ، ودرس الفقه ، والكلام ، والنحو ، والبيان على جماعة من أعيان العصر منهم ابن حجر العسقلاني ، وبدر الدين العيني ، وشهاب الدين بن عرب شاه مؤرخ تيمورلنك ، غير أنه شغف بالتاريخ منذ حداثة ، وكان من حسن طالع أنه درس على المقرئزي ، وصادقه ، ولأزمه ، واقتبس من مناهجه ، واساليبه في البحث والرواية ، ودرس التاريخ أيضاً على العيني .

كانت حياته الهادئة الناعمة ، ونشأته في حجر الإمارة ، والجاه والثراء ، واتصاله بالمصاهرة والصداق مع رجال الدولة من أهم العوامل التي ساعدته على إطلاق العنان لشغفه بالبحث والدرس ، فابذع أيما إبداع ، وترك آثاراً عظيمة في العلم ، والفكر تجلت في مؤلفات كثيرة منها :

((نجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة )) ، وهو موسوعة ضخمة في تاريخ مصر الإسلامية ، وهو أجلّ ، وأنفس ما كتبه ابن تغري بردي ، وطريقته في الكتابة فيه أنه جعل زمن كل ملك ، أو سلطان فصلاً قائماً بذاته ، وذكر السنين وحوادثها تباعاً من غير أن يجعل لها عناوين مستقلة باستثناء أنه أشار إلى هلالها على أنه حادثة من الحوادث حتى إذا توفي الملك ، أو السلطان أتى على أخباره مرة أخرى في ترجمة متصلة ، وتفصيل أكبر ، وقد أغنى هذا الكتاب البحث في الكثير من المعارف ، وضبط الأحداث التاريخية ، والمعارك التي دارت بين المماليك ، والصليبيين من جهة ، وبين المماليك ، والمغول من جهة أخرى .

(( المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي )) : وهو كتاب ضخم نشر في ستة أجزاء . ترجم فيه لأعلام الإسلام منذ أوائل الدولة المملوكية حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي / التاسع الهجري ، وهو مرتب على حروف المعجم ، وقد أفيد منه في ترجمة الكثير من الشخصيات السياسية ، والاجتماعية والعلمية التي عاصرت الدولة المملوكية الأولى .

<sup>٢٠</sup> - ابن طولون (شمس الدين محمد ، ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م) : إعلام الوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، تح محمد دهمان ، دار الفكر ، ط ٢ ، دمشق ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ص ٣٤ .

(( حوادث الدهور على مدى الأيام والشهور )) ، ويبدو فيه أن ابن تغري بردي قد قام بإكمال كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك لأستاذه المقرئزي، حيث بدأ فيه من حيث انتهى المقرئزي في كتاب السلوك ، ورتبه على السنين والشهور والأيام .

وليس هذا كل ما تركه ابن تغري بردي في مجال الفكر والتأليف ، فقد كتب كتاب سماه (( مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة )) ، وكتب أيضاً (( الذيل الشافي على المنهل الصافي )) ، وهو مختصر المنهل . كما كتب (( البحر الزاخر في علم الأوائل والأواخر )) ، وحلية الصفات في الأسماء والصناعات ، وكل هذه الكتب في التاريخ لكن بعضها ، أو أجزاء منها مازال مخطوطاً في دور الكتب ، ولم يطبع منها سوى مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة في كمبردج سنة ١٢٠٧هـ / ١٧٩٢م ، كذلك البحر الزاخر في مجلدين .

ب - ابن قاضي شهبة ( محمد بن أبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن عبد الوهاب ، ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م ) ولد في طلوع فجر الأربعاء ثاني صفر سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٦م في دمشق .

تفقه على يد أبيه وغيره ، وأسمعه أبوه على عائشة ابنة عبد الهادي ، والشهاب ابن حجي وابن الشرائحي وغيرهم .

ارتحل إلى القاهرة بعد أبيه ، وحضر مجلس ابن حجر ، وتناظر مع البرهان بن ظهيرة بين يديه فكان الظفر للبرهان . برع في الفقه استحضارا ونقلًا ، ودرّس في الكثير من مدارس دمشق مثل الظاهرية ، والناصرية ، والجوانية ، وغيرها . ولي إفتاء دار العدل ، وناب في القضاء حيث استنابه قاضي القضاة ابن حجي ، وكان ذلك سنة ٨٢٩هـ / ١٤٢٦م .

وفي آخر أمره انتهت إليه رئاسة العلم بالبلاد الشامية ، حتى لم يبق بها من يضاهيه في هذا الأمر ، وصار هو المشار إليه في مشيخة العلم والتدريس ، والمعول عليه في الإشكالات والفتاوى ، ورحل الناس إليه من الآفاق للقراءة عليه .

أحب الكتابة ولزمها ، وكتب الكثير بخط يده لدرجة أنه قيل : أنه بلغ ما كتبه بخط يده نحو مائة مجلدة منها ما هو نسخ ومنها ما هو تأليف وهو الأكثر .

من مؤلفاته :

(( تاريخ ابن قاضي شهبة )) ، وهو مؤلف ضخيم يضم أربعة مجلدات كبيرة مطبوعة وقد خفقت من قبل عدنان درويش ، ونشرها المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، وقد أفيد من المجلد الثالث في ضبط بعض التراجم للعلماء ولا سيما في علم الهندسة .

ج - القلقشندي ( شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد ، ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م ) . ولد بقلقشنده إحدى قرى قلوب ، ودرس بالقاهرة ، والإسكندرية على أكابر شيوخ العصر ، وتخصص في الأدب والفقه ، وبرع في علوم اللغة ، والبلاغة ، والإنشاء الأمر الذي أهله بالعمل في ديوان الإنشاء في أيام السلطان الظاهر برقوق ، واستمر في هذا العمل حتى سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٩م أو بعد ذلك بقليل ، وقد استفاد من المحفوظات التي كانت تغص في عصره بمختلف الوثائق

والمراسلات السلطانية ، والدبلوماسية التي تكدست في ديوان الإنشاء خلال المدد المتعاقبة وقد استفاد أيضا من كتب من سبقوه ، ومن ذلك كتاب التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري ، وكتاب البيان لعلي بن خلف من كتّاب الدولة الفاطمية ، وكتاب معالم الكتابة لابن شيبة ، وكتاب الأوائل لأبي هلال العسكري وغيرهم من الكتّاب .

من مؤلفاته كتاب : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، وهو كتاب موسوعي كبير رتبته في مقدمة وعشر مقالات ملأت أربعة عشر مجلدا كبيرا . وتمت الإفادة من هذا الكتاب إفادة كبيرة في جميع فصول البحث .

ومن مؤلفاته (( نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب )) ، وقد تمت الإفادة منه عند التحدث عن قبيلة زبيد التي سكنت غوطة دمشق ، وأطراف الجزيرة ، وكان لها دور في الحروب مع المغول .

وله كتب أخرى مثل كتاب (( قلائد الجمان في قبائل العربان )) ، ووضع كتاب مختصر لكتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، وعنوانه (( ضوء الصبح المسفر وجني الدوح المثمر )) ، وله في الفقه كتاب (( الغيوث الهوامع في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع )) .

د - المقرئزي ( أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد بن أبي الحسن بن عبد الصمد بن تميم التقي أبو العباس بن العلاء المحيوي الحسيني العبيدي المتوفى سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤١م ) :

قال السخاوي : أن جده كان من بعلبك الشام ، وكان من كبار المحدثين بها ، فتحول ولده إلى القاهرة ، وولي بها بعض الوظائف القضائية ، وكتب التوقيع بديوان الإنشاء ورزق بولده أحمد صاحب هذه الترجمة<sup>٢١</sup> .

ولد بالقاهرة سنة ٧٦٦هـ / ١٣٦٥م ، ونشأ فيها ، ودرس في الأزهر على أساتذة ذلك العصر وشيوخه ، وكان من شيوخه جده لأمه الشمس بن الصايغ الحنفي ، والنجم بن زين الدين والبرهان الأسدي ، وأبو اسحق التتوخي ، وزين الدين العراقي وغيرهم ، وتخصص في الفقه والحديث ، وعلوم الدين ، ومهر في الأدب ، وأجاد النثر والنظم ، وعين مرارا في وظائف الوعظ وقراءة الحديث ، وولي الحسبة في القاهرة غير مرة . زار الشام والحجاز ، لكنه أحب مصر وألف في تاريخها .

من مؤلفاته : ١- (( المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار )) : وهو أثر فريد في نوعه غزير في مادته وافر في الطلاوة ، والإمتاع ، ويمكن وصفه بأنه تاريخ مصر والقاهرة ومجتمعاتها وتطوراتها الجغرافية ، وشوارعها ، وأسواقها ، وأحيائها ، ومساجدها ، ورياضها ومدارسها ، وكل ما احتوت من صروح ، وقد أخذ المقرئزي فيه عن سبقوه في هذا المجال لكنه طور في الشكل والمضمون ، فجاء الكتاب ثمرة يانعة تفوح عطرا وفائدة ، وقد أفيد من غاية الفائدة ،

<sup>٢١</sup> - السخاوي ( شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م ) : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ج ١٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١ ، القاهرة ، ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م ، ج ٢ ، ص ٢١-٢٥ .

وأغنى البحث ، ولاسيما فيما يتعلق بدور العلم ، والمدارس ، والطباق<sup>٢٢</sup> والساحات ، وأماكن التدريب ، وغير ذلك .

٢- (( السلوك لمعرفة دول الملوك )) : وهو تاريخ دولة المماليك في مصر بما فيها من انتصارات وعترات ، ولا يمكن لأي باحث في ذلك العصر أن يتجاوز هذا الكتاب ، أو يُهمَلهُ ، وقد أغنى البحث من أوله حتى آخر صفحة فيه .

وهناك كتب أخرى كثيرة للمقريزي قال السخاوي عن ذلك : أنه قرأ بخط المقريزي تصانيف زادت عن مائتي مجلد<sup>٢٣</sup> ، ومن هذه الكتب كتاب (( المقفى )) ، وهو سير الأمراء والأكابر الذين عاشوا في مصر . وكتاب (( إغاثة الأمة بكشف الغمة )) ، وفي هذا الكتاب يبدو أثر تفكير ابن خلدون واضحا كل الوضوح ، ومن كتبه أيضا (( درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة )) ، وهو تراجم لمشاهير عصره ، ومن كتبه (( اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء )) ، وكتاب (( البيان والإعراب عما في مصر من الأعراب )) ، وكتاب (( عقد جواهر الأسفاط في أخبار الفسطاط )) ، وكتاب (( النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم )) ، وكتاب (( رسائل المقريزي )) حققه رمضان البدرى وأحمد مصطفى قاسم نشرته دار الحديث في القاهرة .

## المراجع العربية والمعربة :

أما المراجع المعتمدة في هذا البحث ، فهي كثيرة ، ومتنوعة ، لكن الملاحظة العامة أنها عالجت العصر المملوكي من حيث نشوء الدولة ، وتطورها ، والمعارك التي خاضتها وركزت على سلاطين هذه الدولة أما موضوع العلوم ، فلم يعط الأهمية الكافية ، حيث جاءت المعلومات عنها شحيحة ، ودون تفاصيل . وكل قاعدة لها استثناء ، فهناك بعض الأعمال المهمة في هذا المجال ، فعلى سبيل المثال الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية تأليف وترجمة وتحقيق سهيل زكار ، ذلك العمل الكبير ، والتميز الذي شغل مجلدات زادت عن المائة فيها الكثير مما يحتاجه أي باحث في هذا المجال . والعمل الثاني مجموعة من مؤلفات عبد الرحمن زكي من مصر العربية وفيها أيضا معلومات مهمة .

أما أهم المراجع التي تم الإعتماد عليها يمكن ذكرها مرتبة معجمياً على الشكل التالي :

<sup>٢٢</sup> - الطباق : جمع طبقة وهي ثكنات جيوش المماليك بالقلعة ، وكانت كل طبقة تضم المماليك المجلوبين من بلد واحد . انظر :

دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ١٠٥

<sup>٢٣</sup> - السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٢٣ . ابن تغري بردي ( أبوالمحسن يوسف ، ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م ) : حوادث الدهور على مدى الأيام والشهور ، تح فهيم محمد شلتوت ، القاهرة ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م ، ص ٣٢ .

- ١- أديوري ( بترو ) : (( قبرص والحروب الصليبية )) . وفيه الكثير من المعلومات عن قوات الصليبيين ، وأهم المعارك التي خاضتها مع قوات المماليك ، وتمت الإستفادة منه في أن قبرص شكلت هاجسا للدولة المملوكية مما دفعها لتطوير قواتها البحرية
- ٢- باترسن ( و . ف ) : دراسة بعنوان رماة الإسلام ، وهي دراسة في مخطوطة (( غنية الطلاب في معرفة الرمي بالنشاب )) ، وقد أفيد منها بالكثير من المعلومات المهمة عن صناعة القسي ، و أهم أخطاء الرمي .
- ٣- حتي ( فيليب ) : من مؤلفاته : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق ، وفي هذا الكتاب نقد المؤلف العصر المملوكي وقال عنه : أنه عصر تجميع لا عصر توليد . ومن مؤلفاته كتاب (( العرب تاريخ موجز )) أفيد منه في ضبط بعض المعلومات التاريخية . وهناك كتاب ثالث للمؤلف هو: (( تاريخ دولة المماليك )) وهو كتاب مهم أفيد منه في ضبط بعض المعلومات لاسيما عن السلاطين المماليك الذين كانوا يقربون العلماء ويهتمون بهم مثل أية الفداء صاحب حماة .
- ٤- الدفاع ( علي عبد الله ) : (( رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية الإسلامية )) ، وقد أفيد من هذا الكتاب في الفصل الأول من البحث فقرة علم الجغرافية .
- ٥- زكار ( سهيل ) . للمؤلف العديد من الكتب منها : (( الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية )) وهو عمل موسوعي عظيم ترجم ، وحقق فيه المؤلف الكثير من المصادر الأجنبية التي عاصر مؤلفوها الحروب الصليبية وبذلك يكون قد اختصر الوقت ، والجهد على كل الباحثين في هذا المجال ، تمت الإستفادة من الأجزاء ٣٦ ، ٥٢ ، ٥٤ ، من الموسوعة في رفق البحث بالكثير من المعلومات لاسيما في فن الحرب ومعرفة أساليب قتال المماليك ، والصليبيين ، وأهم التطورات التي حصلت على تلك الأساليب . أما كتابه (( القلاع الصليبية )) فقد أفيد منه في معرفة أهم التطورات التي حصلت على قلاع ، وحصون الصليبيين التي جاءت كما قال : نتيجة لمحاكاة بين الدفاع والهجوم . كما أفيد من كتابه (( المدفعية عند العرب )) ، حيث ورد فيه معلومات مهمة عن بدايات المدفعية ، وظهور أسلحة النيران ، وقد ورد في هذا الكتاب نصاً مهماً عن استخدام النيران نقلا عن رسائل الهند . أما كتابه (( الموسوعة الفلسطينية )) فقد عزز المعلومات الجغرافية عن موقع صنف ، وأهم الطرق الواصلة إليها . كما أفيد من كتاب (( مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية )) ، وكتاب (( حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس )) في ضبط بعض المعلومات التاريخية .
- ٦- زكي ( عبد الرحمن ) . وله عدة كتب منها : (( تراث القاهرة العلمي )) ، (( وخزانة السلاح )) و(( السلاح في الإسلام )) ، و (( الجيش المصري في العصر المملوكي )) . يبدو أن هذا المؤلف له اهتمامات عسكرية . أفيد من هذه الكتب في وصف بعض الأسلحة المستخدمة في العصر المملوكي .



٧- سميل ( رايلي ) : كتابه (( تاريخ فن الحرب عند الصليبيين )) . على الرغم من أن الكتاب عالج فن الحرب في القرن الثاني عشر الميلادي / الخامس الهجري فقد أفيد منه بشكل كبير في الإطلاع على طبيعة فن الحرب عند الصليبيين .

٨- عبد العزيز ( نبيل محمد ) : كتابه (( الملاعب في عصر سلاطين المماليك )) ذكر فيه كل وسائل التسلية ، واللعب ، والرياضات البدنية التي كان يمارسها المماليك ، وقد أفيد منه في الفصل الثالث عند معالجة فقرة التدريب البدني .

٩- عواد ( كوركيس ) : مصادر التراث العسكري . وهو ثلاث مجلدات كبيرة أفيد منه في ضبط ، وتدقيق أسماء بعض الكتب التي اهتمت بالتاريخ العسكري والفروسية .

## استهلال حول ظهور دولة المماليك الأولى :

قبل التحدث في العلوم وعوامل تطورها في الدولة المملوكية الأولى لا بدّ من لمحة موجزة عن المماليك وقيام دولتهم . المقصود بالمماليك تلك الأجلاب الذين عرفهم المجتمع الإسلامي منذ أيام الخلافة العباسية في بغداد حيث أنهم كانوا يجلبون من وسط آسيا وغربها<sup>٢٤</sup> ، وكثرت استخدامهم في الجيوش حتى صاروا أصحاب نفوذ وسلطان في شؤون الحرب والسياسة واستمر هذا الأمر أيام الطولونيين<sup>٢٥</sup> ، والإخشيديين<sup>٢٦</sup> ، والفاطميين<sup>٢٧</sup> وصولاً إلى الأيوبيين<sup>٢٨</sup> حيث أكثر الملك الصالح أيوب<sup>٢٩</sup> وهو السلطان قبل الأخير من سلاطين البيت الأيوبي في مصر من استخدام المماليك ، واتخذهم الحرس الخاص له بعد أن كثرت المؤامرات التي حاكها ضده أقاربه من البيت الأيوبي . عرف هؤلاء المماليك بالصالحية البحرية<sup>٣٠</sup> ، وصالحية نسبة إلى الملك الصالح الذي اشتراهم . أما البحرية فقد قيل : لأنهم اسكنوا في جزيرة الروضة للتدريب وغير ذلك . وعندما توفي الملك الصالح استطاعت **أرملته** شجر الدر<sup>٣١</sup> أن تقوم بدور مهم خلد اسمها في التاريخ ، فلجأت في البداية إلى إخفاء خبر الوفاة حفاظاً على الروح المعنوية للجيوش التي كانت تقاتل الصليبيين في معركة المنصورة<sup>٣٢</sup> ، أو خوفاً من تصدع الجبهة الداخلية في البلاد التي كانت تشكل السند والقاعدة الأساس للقوات المسلحة في جبهات القتال . ولم يعرف بهذا الخبر غيرها سوى الأمير فخرالدين يوسف بن صدر الدين شيخ الشيوخ أبي الحسن محمد

<sup>٢٤</sup> - ابن خلدون ( عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المغربي ، ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م ) : تاريخ ابن خلدون أو العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ٧ أجزاء ، مؤسسة جمال للطباعة والنشر ، ط ٤ ، بيروت ، د . ت . ج ، ٥ ، ص ٣٦٩ - ٣٧٤ .

Lane pool ( S ) : History of Egypt in the middle ages London , ١٩٣٦ , p٢٥٥ .

<sup>٢٥</sup> - الدولة الطولونية في مصر ٨٧٣هـ / ٨٧٣م - ٢٩١هـ / ٩٠٥م .

<sup>٢٦</sup> - الدولة الإخشيدية في مصر ٣٢٣هـ / ٩٣٥م - ٣٥٨هـ / ٩٦٩م .

<sup>٢٧</sup> - الدولة الفاطمية في مصر ٣٥٨هـ / ٩٦٩م - ٥٦٧هـ / ١١٧١م .

<sup>٢٨</sup> - الدولة الأيوبية في مصر ٥٧١هـ / ١١٧٦م - ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م .

<sup>٢٩</sup> - الملك الصالح أيوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب توفي في ليلة الأحد ١٤ شعبان سنة ٦٤٧هـ /

١٢٤٩م ، وكانت مدة ملكه في الديار المصرية تسع سنين وثمانية أشهر وعشرين يوماً ، وكان عمره نحو أربعين سنة . انظر :

أبو شامة ( شهاب الدين عبد الرحمن إسماعيل ، ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م ) : الذيل على الروضتين في أخبار الدولتين النورية

والصالحية ببيروت ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م ، ص ١٨٢ ؛ أبو الفداء ( إسماعيل ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م ) :

التبر المسبوك في تواريخ الملوك ، تح محمد زينهم محمد عزب ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م

ص ٧٨ ؛ ابن العبري ( أبي الفرج أهرن بن غريغوريوس الملطي ، ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م ) : تاريخ مختصر الدول ، اعتنى به

ووضع حواشيه الأب أنطون صالحى اليسوعي ، المطبعة ، الكاثوليكية ، بيروت ، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م ، ص ٢٥٩ .

<sup>٣٠</sup> - ابن واصل ( جمال الدين محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل ، ت ٦٧٩هـ / ١٢٩٨م ) : مفرج الكروب في أخبار بني

أيوب ، ٦ أجزاء ، تح ج ١-٣ جمال الدين الشيبان و ج ٤ - ٥ حسنين محمد ربيع و حقق الجزء السادس عمر عبد السلام تدمري

المكتبة العصرية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م ، ج ٦ ، ص ٨٢ .

- المقرئزي ( أحمد بن علي ، ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م ) : المواعظ والاعتبار المعروف بالخطط المقرئزية ، دار الكتب العلمية ، وضع

حواشيه خليل المنصور ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م ، ج ٣ ، ص ٤١١ - ٤١٣ . جاء في لسان العرب : البحر

الماء الكبير ملحاً كان أو عذباً . وقيل : كالنهر لا ينقطع ماؤه - مثل الفرات ودجلة والنيل فهو بحر . قال تعالى : (( وما يستوي

البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج )) سورة فاطر الآية ١٢ .

<sup>٣١</sup> - الملكة عصمة الدين أم خليل شجر الدر كانت تركية الجنس وقيل بل أرمنية اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب وحظيت عنده

بحيث كان لا يفارقها سقراً ولا حضراً وولدت منه ابناً اسمه خليل مات وهو صغير .

- المقرئزي ( أحمد بن علي ، ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م ) : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تح محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية

ط ١ ، بيروت ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م ، ج ١ ، ص ٤٩٥ .

- المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٤١٣ .

<sup>٣٢</sup> - المنصورة : بلد أنشأها الملك الكامل بن الملك العادل بن أيوب بين دمياط والقاهرة ، ورابط بها في وجه الإفرنج لما ملكوا دمياط

سنة ٦١٦هـ / ١٢١٣م ؛ الحموي ( ياقوت بن عبد الله ، ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م ) : معجم البلدان ، ٥ أجزاء ، دار احياء التراث ،

بيروت ، ١٤٠٢هـ / ١٩٧٩م ، ج ٥ ، ص ٢١٢ ؛ ابن إياس ( محمد بن أحمد ، ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م ) : نزهة

= الأمم في العجائب والحكم ، تح محمد زينهم محمد عزب ، مكتبة مدبولي ، ط ١ ، القاهرة ، ١٣٨٢هـ / ١٩٩٥م ، ص ٢٢١ .

بن عمر بن علي بن محمد بن حمويه قائد الجيش الأيوبي في مصر (( أتاك العسكر ))<sup>٣٣</sup> ، و فقط أشاعت أن السلطان اشتد به المرض فطلت الأدوية والأطعمة تدخل إلى السلطان في مواعيدها واستمرت الأسطة السلطانية تمدّ في أوقاتها كما استمرت الأوامر والمنشورات الحكومية تصدر بتوقيع السلطان وإذا سأل عنه سائل كان الجواب (( لقد اشتد به المرض وما يصل إليه أحد ))<sup>٣٤</sup> ، وفي الوقت نفسه بادرت شجر الدر بإرسال أقطاي<sup>٣٥</sup> زعيم المماليك البحرية في مهمة عاجلة إلى حصن كيفا لاستدعاء تورانشاه بن الصالح أيوب<sup>٣٦</sup> حيث كان نائباً عن أبيه في ذلك الحصن ، وعندما عاد أقطاي وجد نفسه أتاكاً للعسكر بعد أن قتل فخر الدين يوسف في موقعة **منية** أبي عبد الله<sup>٣٧</sup> شمال المنصورة ببضعة أميال وكان فخر الدين هذا ذا آمال عريضة وأطماع واسعة في الوصول إلى منصب السلطنة بعد وصوله إلى منصب أتاك العسكر . لذلك جاء مقتله في ذلك الوقت خطوة مهمة بالنسبة إلى المماليك البحرية ! إذ مهدت الطريق لوصول زعيمهم أقطاي إلى منصب أتاك العسكر وأقطاي هذا أيضاً كان طامعاً في الوصول إلى منصب السلطنة ، فما أن رجع من مهمته ولاقى نفسه في منصبه الجديد حتى بدأ يعمل على تنظيم صفوف الجيش الذي هزمه الصليبيون في المنصورة واستعادة قواه التي تألفت معظمها من المماليك البحرية ، وكان على رأسهم بيبرس البندقداري<sup>٣٨</sup> الذي اقتحم المنصورة بحركة التفافية رائعة بحيث عجز لويس التاسع عن الصمود أمامها على الرغم من المقاومة العنيفة التي أبدتها جيوشه وحاول الانسحاب إلى قاعدته في دمياط ، لكن المماليك لم يتركوا له الفرصة كي تتم عملية الانسحاب بنجاح ، بل استمروا في ملاحقته ، ومقاتلته حتى استطاعوا أن ينزلوا ضربة كبرى بالجيش الصليبي عند فارسكور<sup>٣٩</sup> حيث سقط آلاف من الصليبيين ما بين قتل وأسير<sup>٤٠</sup> ، وكان من بين الأسرى لويس التاسع نفسه .

<sup>٣٣</sup> - أتاك العسكر : . الأتابك أو أتاك العسكر معناه الوالد أو الأمير باللغة التركية والمراد به أبو الأمراء ، وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب وتتألف كلمة أتاك من : أتا بمعنى الأب وبك بمعنى الأمير ويطلق على أمير أمراء الجيش لقب أتاك العسكر . دهمان ( محمد أحمد ) : معجم الألفاظ التاريخية ، ص ١١ .

<sup>٣٤</sup> - المقريري : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٤١-٤٤٤ .

<sup>٣٥</sup> - أقطاي : هو أقطاي بن عبد الله الجمدار ، الأمير فارس الدين الصالح النجمي التركي . قال الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه أنه كان مملوك التركي إبراهيم المعروف بالحبيلي ، اشتراه بدمشق ورباه وباعه بألف دينار ، فلما صار أميراً أقطعوه الإسكندرية . كان طانثا عاملاً على السلطة تزوج من بنت صاحب حماة . قتل سنة ٦٥٢هـ / ١٢٦٤م ؛

ابن تغري بردي ( أبو المحاسن يوسف ، ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م ) : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، ٧ أجزاء الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م ، ج ٢ ، نوح محمد محمد أمين ، ص ٥٠٢-٥٠٣ .

<sup>٣٦</sup> - المقريري : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٤١١ .

- تورانشاه : هو الملك المعظم تورانشاه بن الصالح أيوب بن الكامل بن العادل . كان صاحب حصن كيفا في حياة أبيه ، وكان يستدعيه في أيامه فلا يجيب فلما توفي أبوه استدعاه الأمراء فأجابهم وجاء إليهم فملكوه عليهم ثم قتلوه في يوم الاثنين السابع والعشرين من محرم سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ١٨٧ . أبو الفداء : التبر المسبوك ، ص ٧٩ .

<sup>٣٧</sup> - منية أبي عبد الله : قرية لا تزال موجودة إلى اليوم على الشاطئ الشرقي لفرع دمياط وهي التي تعرف باسم ميت الخولي عبدالله إحدى قرى مركز فارسكور بمدينة الدقهلية ؛ ابن تغري بردي ( جمال الدين أبي المحاسن يوسف ، ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ، ج ٦ ، ص ٣٢١ .

<sup>٣٨</sup> - بيبرس البندقداري : هو السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقداري الصالح التركي الجنس . جلس على تخت السلطنة بقلعة الجبل في القاهرة في ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ / ٢٠ أيلول ١٢٦٠م ، وتوفي في دمشق في ٢٧ محرم سنة ٦٧٦هـ / ٣٠ حزيران ١٢٧٧م ؛ ابن عبد الظاهر ( محي الدين ، ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٣م ) : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تح مراد كامل ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي الإدارة العامة للثقافة ، ط ١ ، دمشق ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م ص ٢٦٢ . وترجم له ابن شاکر في فوات الوفيات فقال : قال عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد : أخبرني الأمير بدر الدين أن مولد الملك السلطان الظاهر بيبرس بأرض الفيحاق سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م على وجه التقريب ؛ ابن شاکر الكتبي : فوات الوفيات ج ١ ، ص ١٥٨ ؛ أبو الفداء : التبر المسبوك ، ص ٨١-٨٢ .

<sup>٣٩</sup> - هي بلدة من قرى مصر قرب دمياط ( تبعد عن دمياط ١٢كم ) من كور الدقهلية . الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٢٨ .

<sup>٤٠</sup> - يقال أن عدد القتلى في موقعة فارسكور بلغ ثلاثين ألفاً في قول المكثّر وعشرة آلاف في قول المقل ، وهذا التقدير مبالغ فيه جداً المقريري : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٥٥ .

في هذه الأثناء ظهر تورانشاه على مسرح الأحداث بعد أن استدعته شجر الدر من حصن كيفا وسلمته مقاليد الحكم بعد أن حفظته سنة كاملة من طمع الطامعين وعبث العابثين وأدارت شؤون البلاد والعباد بكفاءة واقتدار ، ولكن تورانشاه الذي كان مكروها من أبيه لم يحفظ لها هذا الجميل ونسي أو تناسى إخلاصها ووفاءها وحفظها للسلطة وتسليمه إياها . كما نقض العهد الذي قطعه على نفسه لأقطاي بمنحه إحدى الولايات عندما بشره بالسلطنة<sup>٤١</sup> إضافة إلى ذلك أعرض عن ممالك أبيه واختص بجماعته الذين قدموا معه وولاهم الوظائف السلطانية<sup>٤٢</sup> وقدم (( الأراذل )) وأساء إلى المماليك وتوعدهم ، ولم يلبث أن اتهم شجر الدر بأنها أخفت ثروة أبيه وطالبها بأن تعيدها له . كل ذلك أوغر صدر هذه المرأة منه وحرك عند المماليك ساكناً ونفرت قلوبهم منه ، فاتفق الجميع على التخلص منه . وما هو إلا أن مد السماط بعد نزوله بفارسكور في يوم الاثنين ٢٦ محرم سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م وجلس السلطان على عادته تقدم إليه واحد من البحرية وهو بيبرس البندقداري وضربه بالسيف فتلقاه معظم بيده فهرب والتجأ إلى البرج الخشب الذي أعد له وهو يصيح (( من جرحني ؟ )) قالوا : (( الحشيشية )) فقال : لا والله الا البحرية ! والله لا أبقيت منهم بقية ! عندها قالوا : (( تمموه وإلا أبادكم )) فدخلوا عليه بالسيوف ففر إلى أعلى البرج وأغلق بابيه والدم يسيل من يده فأضرموا النار في البرج ورموه بالنشاب فألقى نفسه من البرج وتعلق بأذيال الفارس اقطاي واستجار به فلم يجره ففر هارباً إلى البحر وهو يقول : (( ما أريد ملكا ، دعوني أرجع إلى الحصن يامسلمين ما فيكم من يصطنعني ويجيرني ؟ )) . هذا وجميع العسكر واقفون ، فلم يجبه أحد والنشاب يأخذه من كل ناحية فمات جريحا حريقاً غريقاً<sup>٤٣</sup> .

بعدها وقع الاختيار على شجر الدر لمنصب السلطنة عسى أن يضع هذا الإجراء حدا لمطالب الأمراء الأيوبيين في السلطنة ، فلقتب نفسها بالسلطنة عصمت الدين أم خليل الصالحية لتأكيد استمرار الصلة بالبيت الأيوبي وبالتالي قطع الطريق على أي اعتراض من المطالبين الشرعيين بمنصب السلطنة من بني أيوب ، ثم عرض منصب أتابكية العسكر على الهذباني الكردي فرفضه لحاجة في نفسه لم يستطع تحقيقها . وعندئذ تخطى الأمراء الفارس اقطاي الذي شغل هذا المنصب بشكل فعلي أيام تورانشاه خوفاً من بطشه وعرضوا هذه الوظيفة على أيبك التركماني<sup>٤٤</sup> أحد الأمراء المغمورين الذي قبل التعاون مع الوضع الجديد والذي أصبح بمثابة شريك لشجر الدر في الحكم .

وهكذا يمكن عدّ قيام شجر الدر بالسلطنة هو البداية العملية لقيام دولة المماليك لأنها كانت وبحكم أصلها أقرب إلى المماليك منها إلى الأيوبيين وهكذا يمكن القول : أن دولة المماليك قامت

<sup>٤١</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٥٧-٤٥٨ .

<sup>٤٢</sup> - الحريري ( سيد علي ) : الأخبار السنوية في الحروب الصليبية ، الزهراء للإعلام العربي ، ط ٣ ، القاهرة ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م ص ٣٢١-٣٢٢ ؛ جوانفيل : حياة القديس لويس ، ص ١١٢ . وقد فسر جوانفيل كره والد تورانشاه له أن الأخير كان حكيماً بليغاً وليقاً وداهية خشية السلطان فأرسله إلى قلعة كيفا ليعيش فيها . جوانفيل : المصدر المتقدم ، ج ٣٦ ، ص ١١٢ .

<sup>٤٣</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٥٨ . ابن العميد ( المكين جرجس ) : أخبار الأيوبيين ، مكتبة الثقافة الدينية ، بور سعيد ، د . ت . ص ٣٨ .

<sup>٤٤</sup> - عز الدين أيبك : تركي الأصل والجنس انتقل إلى ملك السلطان الصالح نجم الدين أيوب من بعض أولاد التركماني فعرف بين البحرية بأبيك التركماني وترقى عنده في الخدمة حتى صار أحد الأمراء الصالحية ، واسم أيبك يتكون من مقطعين أي و بك ومعنى المقطع الأول هو القمر والمقطع الثاني بك يعني الأمير . المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٦٣ . أبو الفداء : التبر المسبوك ، ص ٧٨ .

فعلا في سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م على يد امرأة ذكية قوية قيل : أنها تركية ، أو أرمنية الأصل<sup>٤٥</sup> . وما أن قامت هذه الدولة حتى تعرضت لأخطار كبيرة داخلية وخارجية ، أما الداخلية فهي على يد أبناء البيت الأيوبي في كل مكان من الدولة ، وكان أول ما فكرت فيه السلطنة الجديدة هو إبعاد الخطر الخارجي من خلال إنهاء نيول الحملة الصليبية بإقرار مبادئ الاتفاقية التي سبق عقدها بين تورانشاه ولويس التاسع<sup>٤٦</sup> . لذا عقدت شجر الدر معاهدة جديدة بدلاً من المعاهدة السالفة استرجعت من خلالها دمياط مقابل إخلاء سبيل لويس التاسع ومن معه من كبار الأسرى مقابل فدية قدرها ثمانمائة ألف دينار يدفع نصفها قبل الرحيل ويدفع النصف الآخر بعد وصوله إلى عكا<sup>٤٧</sup> . بينما ذكر جوانفيل أن قيمة الفدية هي خمسمائة ألف دينار ، وبعد مفاوضات طويلة مع الملك قبل أن يدفع ذلك المبلغ ، وعندما أخبروا السلطان بقبول الملك قال السلطان : إن الملك رجل نبيل ، وأنا أعفيه من مائة ألف دينار ، فأصبحت قيمة الفدية أربعمائة ألف دينار يدفع نصفها قبل إطلاق سراح الملك ونصفها الآخر بعد الوصول إلى عكا<sup>٤٨</sup> ، ومعه فلول جيشه عقب قيام الدولة الجديدة وحلف الأمراء لشجر الدر كسلطنة للبلاد فصارت كل الأمور إليها وضربت السكة باسمها (( المستعصمية الصالحة ملكة المسلمين )) ولم يشفع لها هذا اللقب ((المستعصمية )) نسبة إلى الخليفة المستعصم العباسي بما يشير إلى أنها أرادت أن تتعلق بالخلافة العباسية ، لكن الاعتراضات والانتقادات لاحقتها من كل الاتجاهات سيما أنها أطلقت سراح لويس التاسع وأسرفت في توزيع الاقطاعات والمناصب والعطايا على المماليك أصحاب الفضل في وصولها إلى الحكم والسلطة إضافة إلى الشعور العام بقيام امرأة على رأس السلطة وهذا ما لم يألفه المسلمون . وكان أول صوت للمعارضة انطلق من دمشق حيث رفض المماليك الأتراك القيمرية (( نسبة إلى قلعة قيمر بين الموصل وخرابطة )) أن يقدموا يمين الولاء للسلطنة شجر الدر كذلك امتنع الأمير جمال الدين بن يغمور<sup>٤٩</sup> نائب السلطنة بدمشق عن الاعتراف بها ، وكان تورانشاه هو الذي عينه بهذا المنصب واستعان هؤلاء جميعاً بالملك الناصر يوسف الأيوبي الثاني ملك حلب وكان آنذاك أقوى أمراء بني أيوب في الشام . وهنا لاحت الفرصة للناصر يوسف للانتقام من المماليك الذين أيدوا قريبه تورانشاه ومن ثم اغتصبوا السلطة من الأيوبيين أصحابها الشرعيين ، وأدى هذا الأمر إلى انقسام مصر والشام إلى قوتين متنازعتين الأولى بأيدي المماليك و الثانية بأيدي الأيوبيين إضافة إلى أن الخليفة المستعصم بالله العباسي في بغداد لم يوافق على أن تكون امرأة في قمة هرم السلطة تحكم المسلمين . وقال عبارته

<sup>٤٥</sup> - ابن أبيك (أبي بكر عبدالله ، ت ٧١٩هـ / ١٣١٩م) : كنز الدرر وجامع الغرر ، تح سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٣٩١هـ / ١٩٧٢م ، الدر المطلوب في أخبار بني أيوب ، ج ٧ ، ص ١١٨ .

<sup>٤٦</sup> - لويس التاسع ملك فرنسا : هو ابن لويس الثامن ملك فرنسا أيضاً ، وحفيد الملك فيليب أغسطس . مات والده عندما كان في الثانية عشرة ، وأصبحت أمه الملكة بلانش أف كاستيل التي تعلق بها تعلقاً شديداً وصية على العرش خلال سن قصوره ، وقد نشأ ليصبح رجلاً دينياً بشكل عميق . عندما أبحر إلى الشرق كان عمره ٣٤ سنة ، وبالتالي تكون ولادته سنة ١٢١٤م ، وكان فارساً مغواراً في القتال وبطلاً عنيداً وناسكاً مكرساً ، لكنه كان مستنبداً مع أطفاله وقمعياً مع زوجته مرغريت أف بروفانس ذات الروح السامية ؛ بردج ( أنتوني ) : تاريخ الحروب الصليبية ، تر أحمد غسان سبانو ، ونبيل الجبرودي ، دار قتيبية ، ط ١ ، دمشق ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م ، ص ٢٦٢ .

<sup>٤٧</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ص ٩١ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٦٠ .

<sup>٤٨</sup> - جوانفيل : حياة القديس لويس ، ج ٣٦ ، ص ١٣٠ - ١٤٥ .

<sup>٤٩</sup> - ابن إياس ( محمد بن أحمد بن إياس المصري ، ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م ) : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ٥ أجزاء ، تح محمد مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ٣ ، القاهرة ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ج ١ ، ص ٩١ .

<sup>٥٠</sup> - الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٢٤ .

<sup>٥١</sup> - جمال الدين ابن يغمور : هو الأمير جمال الدين موسى بن يغمور الباروقي نائب السلطنة بديار مصر ودمشق . توفي سنة ٦٦٣هـ / ١٢٦٤م ، وكان معزول بالقصير ( وهو موضع قرب عيذاب من أعمال مصر ) عن عمر يناهز ٦٤ سنة . المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٩ .

المشهوره: « إذا كان الرجال قد عدت عنكم فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلاً »<sup>٥٢</sup>. وللخروج من هذا المأزق تم الاتفاق في القاهرة أن تتزوج شجر الدر من أتابك العسكر عز الدين أيبك التركماني وتتخلى له شجر الدر عن السلطنة لكن كل ذلك كان لا يعطي الشرعية اللازمة للحكم فتم الاتفاق أيضاً اتخاذ إجراء شكلي وهو إشراك الأشرف موسى بن الملك المسعود ويقال له الناصر صلاح الدين - يوسف بن الملك المسعود يوسف - المعروف باسم أقيس - ابن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب وهو أمير أيوبي كان في السادسة من العمر<sup>٥٣</sup>، وجعله ابن أيبك ابن عشر سنين<sup>٥٤</sup>، وصارت المراسيم والمناشير تخرج عن الملكين الأشرف والمعز أيبك إلا أن الأشرف ليس له من الملكية سوى الاسم، بينما جميع الأمور بيد المعز أيبك. لكن المعارضة لم يهدأ صوتها إلا بعد أن تعرضت البلاد للغزو المغولي، وهو العاصفة القادمة من الشرق وإنه جاء يهدد الجميع، وبعد أخذ ورد عقدت معاهدة بين الطرفين المسلمين سنة ٦٥١هـ / ١٢٥٣م، وتم الاتفاق في هذه المعاهدة على أن يكون للمصريين إلى الأردن وللناصر ما وراء ذلك وأصبح للمصريين غزة والقدس والساحل كله<sup>٥٥</sup>، على أن يطلق المعز أيبك جميع من أسره من أصحاب الملك الناصر وحلف كل منهما على ذلك، وكتب به العهود. وهكذا استطاع المماليك اجتياز العقبة الأساسية الأولى التي اعترضت سبيل سلطانهم في القاهرة. أما العقبة الثانية على الصعيد الداخلي فكانت ثورة العربان لأن المماليك ومن خلال عبثهم بالنظام والقانون أثاروا كراهية الناس لهم، واتخذت هذه الكراهية شكل ثورة جامحة قام بها البدو العرب مطالبين بأحقيتهم بالملك، ورأوا في المماليك ما هم إلا عبارة عن رقيق أبيض ورفضوا أن يخضعوا لحكمهم. لكن أيبك استطاع أن يقضي عليهم، وهزمهم هزيمة أخمدت جمرتهم في ذلك اليوم<sup>٥٦</sup>. وقد اعتمد أيبك على المماليك البحرية في التصدي لخطر الأيوبيين، وإخماد ثورة العربان فتضاعف نفوذهم في الدولة، حتى صار من العسير إخضاعهم لإرادة السلطان أو الاطمئنان لزعيمهم أقطاي، فتمادوا في كل شيء. وكان أيبك يداريهم لأنه كان يدرك حجم الأخطار التي كان يجب عليه أن يواجهها، وكان يدرك أيضاً حاجته إليهم في مواجهة هذه الأخطار. لكن الموقف تغير تجاههم عندما اطمأن إلى جانب الأيوبيين، وقضى على الأعراب وبدأ بمعالجة الأمور شيئاً فشيئاً، فبدأ بأقطاي الذي تمادى وازداد خطره واستولى على الأمور كلها (و بقيت الكتب إنما ترد من الملك الناصر وغيره إليه ولا يقدر أحد أن يفتح كتاباً ولا يتكلم

<sup>٥٢</sup> - المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٤٦٤؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ج ٨، ص ١٣.

السبوطي (عبد الرحمن بن محمد، ت ٩١١هـ/١٥٠٥م): حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، جزءان، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، ط ١، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج ٢، ص ٣٤.

نصرالله (سعدون عباس): رحيل الصليبيين عن الشرق في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر

بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص ٤٧؛ الأنصاري (ناصر): المجمل في تاريخ مصر - النظم السياسية والإدارية

دار الشروق، ط ٢، القاهرة، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص ١٥٨؛ تنتج (أنتوني): العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام، تر

راشد البراوي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤، ص ٢٧١. لينبول (ستالي): سيرة القاهرة

تر حسن إبراهيم حسن، آخرون، مكتبة النهضة المصرية، ط ٢، القاهرة، ١٣٧١هـ/١٩٥١م، ص ١٧٩.

<sup>٥٣</sup> - المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٤٦٤. ابن أيبك: كنز الدرر، ج ٨، ص ٢٣. الداودار (بييرس بن عبدالله المنصوري

ت ٧٢٥هـ/١٣٢٥م): مختار الأخبار - تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ، تح عبدالحميد صالح

حمدان، القاهرة ن الدار المصرية اللبنانية، ط ١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص ٩. الصفدي (صلاح الدين خليل بن أيبك، ت

٧٦٤هـ/١٣٦٣م): الوافي بالوفيات، دار صادر، بيروت ١٣٩١هـ/١٩٧١م، ج ٩، ص ٤٧٠. الذهبي (محمد بن أحمد، ت

٧٤٨هـ/١٣٤٧م): سير أعلام النبلاء، تح بشار عواد معروف، ويحيى هلال سرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ /

١٩٨٥م، ج ٢٣، ص ١٩٨. ابن العميد: أخبار الأيوبيين، ص ٣٩.

<sup>٥٤</sup> - ابن أيبك: كنز الدرر، ج ٨، ص ١٣. القرمانلي (أحمد بن يوسف، ت ١٠١٩هـ / ١٦١٠م): أخبار الدول وآثار الأول في

التاريخ، تح أحمد حطيط وفهيم سعد، عالم الكتب، ط ١، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ص ٢٦٧.

<sup>٥٥</sup> - المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٤٧٩.

<sup>٥٦</sup> - المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٤٧٩-٤٨٠.

بشيء ولا يبرم أمراً إلا بحضور أقطاي لكثرة خشداشيته<sup>٥٧</sup> . واستطاع المعز أيبك باستعمال الحيلة وبمساعدة مماليكه المقيمين في قلعة الجبل التخلص من أقطاي وقتله ورمى برأسه إلى أسفل سور القلعة فذعر مماليكه وقرروا الهروب إلى بلاد الشام ، حيث حرضوا الناصر يوسف وغيره من أمراء بني أيوب على مهاجمة مصر لذلك ظل أيبك ثلاث سنوات في حالة تأهب تام واستعداد لصد أي هجوم مفاجئ من الشام على أطراف دولته في فلسطين ومصر ، ولكي يخفف الضغط ويخلق ظروفاً أفضل للمواجهة عاد إلى مغازلة الخلافة العباسية فأرسل إلى الخليفة طالبا للخلع والتي تعني الرضا وإضفاء الشرعية . ثم جدد الهدنة القديمة مع الصليبيين ، وعقد تحالفاً ثنائياً مع بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل<sup>٥٨</sup> (( ما يشبه اتفاقية الدفاع المشترك بين بلد ما وبلد آخر في هذه الأيام )) على أن يتزوج أيبك من ابنة هذا الأمير لكن وصول الخبر إلى شجر الدر قد أثار الشعور بالغيرة عندها ، وساءها جحود أيبك بعد أن تنازلت له عن السلطنة وساعدته في الوصول إليها . فلم تتردد في تدبير مؤامرة للانتقام منه وانتهى الأمر بقتله<sup>٥٩</sup> لكنها هي الأخرى لم تسلم من النيران التي أشعلتها بل شربت من الكأس نفسه لتلحق بأبيك بعد ثلاثة أيام من مقتله وأحدث مقتل أيبك وشجر الدر فراغاً كبيراً داخل البلاد وبرزت مسألة من سيكون السلطان الجديد . المعروف عن المماليك أن نظامهم لم يتغير إلى المبدأ الوراثي في الحكم لأن السيادة في عرفهم يجب أن تكون للأقوى<sup>٦٠</sup> ، ولكن هناك ظاهرة لم تتبدل أيضاً وهي أنه عندما يموت السلطان ، أو يقتل يلجأون غالباً إلى اختيار ابنه محله وهو أمر مؤقت حتى يتم الاتفاق بين كبار الأمراء على من يلي السلطنة وعندئذ يسهل عزل الابن والتخلص منه بالنفي أو العزل ، وهكذا تولى علي بن أيبك منصب السلطنة وهو في الخامسة عشر من عمره في حين عين الأمير سيف الدين قطز<sup>٦١</sup> أقدم مماليك أبيه نائباً له وتطورت الأحداث الخارجية تطوراً خطيراً بسبب تهديد المغول لقلب العالم الإسلامي مما عجل بوضع نهاية لحكم المنصور علي بن أيبك وقيام نائبه قطز في منصب السلطنة مما يؤكد مبدأ العصبية ، والسلطنة للأقوى على مبدأ [ السلطة لمن غلب ] .

وانطلاقاً من المبدأ السابق اعتنى سلاطين المماليك بالجيش ونوعية الجنود وحاول كل منهم أن يكون ولاء الجيش له واتسع انتشاره أفقياً وعمودياً أي من حيث عدد المقاتلين والقادة ، فقد نقل عن المقرئزي أن عدد أمراء المائة ومقدمي الألوف في مصر وصل إلى ٢٤ مقدماً ، ومماليكهم إلى ٢٤٠/ جندي بمعدل ١٠٠ لكل أمير ، وأمراء الطبلخاناه إلى ٢٠٠ أمير ومماليكهم ٨٠٠٠ جندي بمعدل ٤٠ لكل أمير ، وكشافي وولاية الأقاليم إلى ١٤ كشاف ومماليكهم إلى ٥٦٠ جندي ، أما أمراء العشرات فقد وصل عددهم إلى ٢٠٠ ومماليكهم ٢٠٠٠ جندي ،

<sup>٥٧</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٣ . وخذاشيه هي جمع خشداش وهو لفظ معرب من اللفظ الفارسي خواجهتاش ، أي الزميل في الخدمة . المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٣ .

<sup>٥٨</sup> - عن بدر الدين لؤلؤ : ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٦ ، تح عمر عبد السلام التدمري ، ص ٢٤٥ .

<sup>٥٩</sup> - ابن أيبك الداوداري : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢١٨ ؛ لينبول ( ستانلي ) : سيرة القاهرة ، ترجمت إبراهيم حسن ، و علي إبراهيم حسن و إدوار حكيم ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٢ ، القاهرة ، د . ت ، ص ١٨١ .

<sup>٦٠</sup> - رسلر ( جاك ) : الحضارة العربية ، ترجمت خليل أحمد خليل ، منشورات عويدات ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م ، ص ٢٧٠ حتى ( فيليب ) : العرب تاريخ موجز ، دار العلم للملايين ، ط ٦ ، بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م ، ص ٢٥٤ . قاسم ( عبده قاسم ) : الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، القاهرة ، د . ت ، ص ١٤٢ .

<sup>٦١</sup> - قطز : ضبط اسم قطز على منطوقه من ( Enc . Icl . Art , Cutuz ) ومن المرجح أن اسم قطز الأصلي هو محمود بن ممدود وأنه كان حفيد الملك جلال الدين خوارزمشاه ، وقد أسر في حرب النتر ، وبيع في دمشق للسلطان الملك المعز أيبك . انظر : المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٧ . الحاشية رقم ٢ أبو الفداء : التبر المسبوك ، ص ٨٠ . ابن العميد : أخبار الأيوبيين ، ص ٤٨ . ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٢٩٣ .

وقد بلغ عدد مقدموا المماليك السلطانية ٢٠ مقدم ومماليكهم ٢٠٠٠ جندي ، أما مقدموا الحلقة ١٨٠ مقدم وأجناد الحلقة ٨٩٣٢ جندي وهؤلاء هم محترفي الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم وهي أقرب الطوائف إلى نظام الجيش في العصور الحديثة وهم جيش الدولة الذي لا يتغير بتغير السلطان . وبالتالي يكون مجموع الجند في مصر مع أمرائهم ٢٤٦٣١ جندي<sup>٦٢</sup> . هذه الأعداد خاصة في مصر أما النيابات الأخرى ( نيابات الشام ) والتي لم يتحدث عنها المقريري قال عنها خليل بن شاهين ما يلي :

٤٢٠٠٠ - الجنود المصرية مماليك سلطانية وأجناد حلقة ومماليك أمراء .

١٥٠٠٠ - أجناد الحلقة بدمشق ومماليك الكافل والأمراء .

٨٠٠٠ - حلقة حلب ومماليك الكافل والأمراء .

٥٠٠٠ - حلقة طرابلس ومماليك الكافل والأمراء .

٢٠٠٠ - حلقة صفد .

١٠٠٠ - حلقة غزة .

المجموع ٧٣٠٠٠ حلقة ومماليك بمصر والشام<sup>٦٣</sup> .

واستنادا إلى ابن أبيك فإنه إضافة إلى تعداد الحلقة هناك تعداد الأجناد والتي بلغ عددها بمصر والشام ٦٠٠٠٠ فيكون المجموع ١٣٣٠٠٠ .

أما جنود العربان فقد قدرها ابن شاهين ب ٣١٤٠٠٠ جندي في كل الأقاليم التابعة لمصر والشام<sup>٦٤</sup> .

هذه الأرقام كبيرة تحتاج إلى تنظيم وإدارة وتدريب وتسليح و إمداد وقيادات وتطبيب وإعاشة ومعسكرات والتالي إلى جهود وعمل علمي يومي دؤوب يستطيع في البداية صهر تلك الأعداد في بوتقة الجندية ومن ثم إعدادها الأعداد المناسب لمواجهة جيوش قوية والانتصار عليها .

من هنا برزت فكرة البحث في العلوم العسكرية . لكن العلوم العسكرية البحتة ، وتطورها تستند إلى العلوم العامة ، وهناك علوم هي جزء من العلوم العسكرية مثل الهندسة والكيمياء وبناء عليه صار من المفيد والمجدي أن يبدأ البحث بفصل يبحث في العلوم العامة وخاصة ما يتعلق منها بالعلوم العسكرية .

<sup>٦٢</sup> - المقريري : المواظ والاعتبار : ج ٢ ، ص ٣١٧-٣١٨ ،

<sup>٦٣</sup> - ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٣-١٠٦ .

<sup>٦٤</sup> ابن شاهين ، ص ١٠٦ .



الفصل الأول ص ٤٢- ص ٧٧

العلوم في الدولة المملوكية الأولى

١- عوامل تطور العلوم في الدولة المملوكية الأولى

أ - دور السلاطين .....

ب - الموروث الحضاري .....

ج - العوامل السياسية .....

د - العوامل الاقتصادية .....

هـ - العوامل الاجتماعية .....

و - انتشار المدارس .....

٢- العلوم المساعدة للعلوم العسكرية

أ- علم الهندسة .....

ب- علم الكيمياء .....

ج - علم الطب .....

د - علم الجغرافية .....

## العلوم في الدولة المملوكية الأولى

### ١- عوامل تطور العلوم في الدولة المملوكية الأولى :

العلوم بشكل عام نتاج فكري بشري لا قيمة له على الإطلاق إن لم يكن فيه منفعة للناس في الواقع الحياتي المعاش ، وأن تسفيد منه الجماعات البشرية أينما كانت وعبر الزمن المستمر لأن وجود الشيء مبني على غايته ، والغرض ، لذلك فإن تعلم العلم للنفع به . والعلوم مفردتها علم من الفعل عَلمَ ، وعلمه الشيء تعليماً، فتعلم وليس التشديد هنا للتكثير بل للتعدية ويقال أيضاً : تَعَلَّمَ بمعنى اعلم . قال ابن السكيت : تعلمت أن فلاناً خارجاً أي علمت قال : وإذا قيل لك اعلم أن زيدا خارجاً قلت : قد علمت ، وإذا قيل لك : تَعَلَّمَ أن زيدا خارجاً لم تقل قد تعلمت ، وتعالمة الجميع أي علموه<sup>٦٥</sup> .

والعلم ضد الجهل ، فالعلم يبني حضارة والجهل هادم لها .

الوافر

تَعَلَّمَ يا فتى والعودُ رطبٌ

وطيفك لئِنَّ والطَّبْعُ قائلٌ

فإنَّ الجهلَ واضِعٌ كُلُّ عالٍ

وإنَّ العِلْمَ رافعٌ كُلُّ خاملٍ<sup>٦٦</sup>

لقد وصِفَ العصر المملوكي بالإنحطاط ، والتأخر ، والظلمة والجهل . والإنحطاط مصطلح أريد من خلاله القول : أن العصور المتقدمة على العصر المملوكي كانت عصوراً مزدهرة زاهية بالعلم ، والتقدم ، والفلاح ، ثم جاء العصر المملوكي ، ونتيجة لسياسات معينة تراجعت فيه العلوم ، وأصبح عصر انحطاط .

هذا الحكم عامٌ ، وشاملٌ أطلقه بعضهم ، وتناقضته الأقلام ، وتناولته الألسن ، وصار سمة عامة لذلك العصر .

قال بروكلمان - وهو أحد الذين وجهوا سهامهم على ذلك العصر : (( إنَّ إيمان المسلم بالقدر وحبُّ الشرقي للحياة السهلة جعله في مثل هذه الحالة لا يصاب باليأس ، وهذا كان من النادر أن يتاح لإنسان معروف في الحياة العامة التفرغ الضروري للعمل العقلي الذي يمكنه من انجاز كبير في التأليف ، وعلى هذا فإن مصر والشام في تلك القرون عرفتا ورقاً كثيراً وحبراً كثيراً يكتب به هذا الورق ، ولكن القليل من هذا المكتوب له قيمة أكثر من مجرد بديل عن كتب أقدم منه لم تعد اليوم متاحة لنا ))<sup>٦٧</sup> .

<sup>٦٥</sup> - الرازي ( محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ) : مختار الصحاح ، دار الإيمان ، ط ١ ، دمشق ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م ، ص ٣٩٧-٣٩٨ .

<sup>٦٦</sup> - الشافعي ( أبي عبد الله محمد بن ادريس ، ت ٢٠٤هـ / ٨٢٠م ) : ديوان الإمام الشافعي ، تح مجاهد مصطفى بهجت ، دار القلم ط ٢ دمشق ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م ، ص ٩٨ . ابن معصوم ( علي صدرالدين ، ت ١١١٩هـ / ١٧٠٧م ) : أنوار الربيع في أنواع البديع تح هادي شاکر شكر ، مطبعة النعمان ، النجف ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، ج ٢ ، ص ٣١٨ .

<sup>٦٧</sup> - بروكلمان ( كارل ) : تاريخ الأدب العربي ، ٨ ج ، تر حسن محمود إسماعيل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م ، ج ٦ ، ص ١١-١٢ .

وقال بورلو « ظل المماليك الذين يتحدثون اللغة التركية يحمون الأدب والعلوم العربية وأصبح الأدب اليوم أدب الذكرى إذ لم يتم ابداع ما هو جديد بل الاكتفاء بالتلخيص والتعليق ، وهذا ما جعل الثقافة العربية تعيش منطوية على نفسها »<sup>٦٨</sup> .

مثل تلك الأفكار لاتصمد كثيرا إذا ما وضعت أمام المحاكمة العقلية السليمة ، لكن من المؤسف أن بعض الأرقام تناقلتها دون عناء ، فأصبح العصر المملوكي عندهم هو عصر تجميع وتقليد أكثر منه عصر ابداع وتوليد ، وهذا ما قاله فيليب حتي : « إن العصر المملوكي هو عصر تجميع وتقليد أكثر منه عصر توليد وابداع »<sup>٦٩</sup> ، كما وصف الثقافة العربية في ذلك العصر بأنها منحلة متداعية وقال : أن نور أعلامها في الفلسفة والطب والموسيقى وسواها من العلوم والفنون يخبو وينطفئ<sup>٧٠</sup> .

وكذلك وجه محمد كرد علي في خطته سهامه على ذلك العصر عندما قال : « بدأت طلائع الانحطاط في القرن التاسع ، فلم ينبغ في الشام رجل أحدث عملا علميا عظيما ، أو دل على نبوغ في فرع من فروع العلم ، وكثر فيه الجماعون والمختصرون والشارحون من المؤلفين »<sup>٧١</sup> .

هذه الآراء وغيرها تستدعي الوقوف عندها بالتحليل والتركيب ليس من باب الدفاع عن عصر محدد ، فالعصور هي التي تدافع عن نفسها من خلال ما تركته للأجيال اللاحقة من تراث وعلوم . ذلك التراث ليس ملكا لأحد ليحكم عليه حكما غير قابل للمناقشة ، بل هو تراث انساني قابل للمناقشة ، وتعدد الآراء فيه لاتنقصه قيمته بل تزيده ثراء .

بالعودة إلى العصر المملوكي والآراء التي قيلت فيه يمكن تسجيل النقاط التالية :

- إذا كان العصر المملوكي عصر جهل وانحطاط ، فإنّ لذلك أسبابه التي يمكن التعرف عليها بالمقارنة مع غيره من العصور التي سبقته والتي لم تتل من الأوصاف مثلما نال ذلك العصر .
- هل كان سلاطين المماليك يحبون الجهل ويدافعون عنه ، ويعادون العلم ويحاربونه أو يقفون ضده حتى حصل ما حصل من انحطاط ؟ .
- أو هل لم يجد هؤلاء الحكام تراثا حضاريا يستطيعون البناء عليه ، وعلوما تنور قلوبهم وتزيل العمى عنها فتهددهم سواء السبيل ؟ .
- أو أن سياساتهم عمياء جاهلة سدت منافذ العلوم وفتحت أبواب الجهل ؟ .
- أو أن الإقتصاد كان ضعيفا متخلفا لا يتحمل نفقات العلم وبناء المدارس والمكاتب والمشافي ودور التعلم الأخرى ؟ .

<sup>٦٨</sup> - بورلو ( جوزيف ) : الحضارة الإسلامية ، تر ريمة فوال ، دار الكتاب العربي ، ط ١ ، دمشق ، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠١ م ، ص ٢٤١ .  
<sup>٦٩</sup> - حتي ( فيليب ) : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ج ٢ ، تر كمال اليازجي ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ١٩ .  
<sup>٧٠</sup> - حتي : العرب تاريخ موجز ، ص ٢٤٥ .  
<sup>٧١</sup> - كرد علي ( محمد ) : خطط الشام ، ج ٦ ، مكتبة النوري ، ط ٢ ، دمشق ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م ، ج ٤ ، ص ٤٩ .

هذا ما سنتم مناقشته في الفقرات التالية للوقوف على حقيقة ذلك العصر ، ونقطة البداية ستكون من الموضوع الذي لم يختلف المؤرخون عليه ، وهو أنّ المماليك استطاعوا الانتصار على قوتين عالميتين كبيرتين في ذلك العصر وهما : المغول ، والصليبيون ، وذلك من خلال جيش يجب أن يكون قد تسلح بالعلم والمعرفة حتى استطاع أن يحقق ذلك ، لأن الجيش الجاهل قليل الخبرة والتجربة ، والذي لا يعتمد تنظيماً قوياً مبنياً على العلم والمعرفة لن يستطيع حتى مجرد الصمود أمام الجيش القوي الذي اكتسح العالم آنذاك .

أمّا العلم العسكري هو جزء مهم من العلوم العامّة بل الجزء الأهم منها يكون تطوره نتيجة لتطور العلوم العامة ، ومستند إليها في كل الأحيان أو بالضرورة . بمعنى أنه لا يمكن أن نتصور تطوراً كبيراً للعلوم العسكرية في أي عصر من العصور إذا كانت العلوم العامّة لا تشهد مثل ذلك التطور ، وهذا أمر مقرر لأن الجزئيات تشكل العام إذا ما اجتمعت . وتطور هذه الجزئيات هو الذي يشكل التطور العام . وإذا انطلقنا من هذه المسلمات للبحث في تطور العلوم في عصر دولة المماليك الأولى ومن القاعدة العلمية التي تقول : أنّ المقدمات الصحيحة تعطي بالضرورة نتائج صحيحة نرى أنّ العلوم يجب أن يكون قد توفر لها الكثير من عوامل الازدهار والتقدم وصارت أكثر شمولية واتساعاً وأكثر تنوعاً عما كانت عليه لأسباب كثيرة منها :

## أ – دور سلاطين وأمراء المماليك :

لقد استطاع المماليك ( وهم الذين جلبوا إلى هذه المنطقة كرقيق أبيض ) أن يصلوا إلى قمة هرم السلطة في مصر . صحيح أنّهم حققوا ذلك من خلال توفر عوامل موضوعية ، فالدولة كانت بحاجة للجند خلال الحروب المستمرة داخلياً وخارجياً . تضافرت هذه العوامل مع عوامل أخرى وصفات ذاتية – الفروسية والقوة الجسدية والقدرة على التحمل - أهْلُهُمْ ، و ساعدتهم في الوصول إلى أهدافهم ، وجعلت منهم قادة كبار تصدوا لمن وقف في وجه مشروعهم داخلياً وخارجياً ، حيث دافعوا عن الأرض التي جلبوا إليها دفاع المؤمن بحقه الواثق بقدرته وإمكاناته المحب لأرضه ووطنه .

هذه المعادلة العجيبة والتحول النوعي من رقيق في سوق النخاسة إلى قادة وسادة ومدافعين عن الأرض والأوطان الجديدة التي جلبوا إليها وبيعوا فيها بالدرهم والدينار تستحق الوقوف عندها والبحث فيها ( فكيف تحققت هذه المعادلة ؟ ) .

ربما هو الإسلام والإيمان المطلق بنظامه ومبادئه السمحة الكريمة ، وربما هو حب التملك والسلطة لكن وكما يقول سهيل زكار : ( إنّ التاريخ لا يعرف ربما ) ، لذلك لا بد من البحث عن الأسباب الحقيقية . عندما يصل الإنسان إلى كرسي السلطة يمتلكه شعور آخر هو الدفاع عن ما تملك ، وفي كل الأحوال إن بعض المماليك بما تهيأ لهم من صفات ذاتية متعددة الأوجه منها الجسمية الجسدية ومنها العقلية الذهنية ، وظروف موضوعية أهمها ضعف الأمراء الأيوبيين و الإقتتال الداخلي فيما بينهم على السلطة وكثرة الأمراء المماليك وسيطرتهم على

مواقع القرار جعلهم قادرين على الوصول إلى قمة هرم الحكم فأحسنوا سياسة البلاد وربطوها إداريا عندما قسموها إلى نيابات<sup>٧٢</sup> ،

فازدهرت الزراعة (بغض النظر عن أحوال الفلاحين)<sup>٧٣</sup> ، ونمت الصناعة<sup>٧٤</sup> وراجت التجارة وانتعشت البلاد وكثرت الأسواق وازدهمت فيها المنتجات والبضائع<sup>٧٥</sup> . من المعروف إن مثل هذه النجاحات الكبيرة تبنى على العلوم بأنواعها ، والفكر المتميز القادر والذي يمتلك رؤية بعيدة المدى ، وهذا الفكر بحاجة إلى رعاية وحماية ، ومن غير الملوك والسلاطين والأمراء يملك الإرادة ، والقوة القادرة على رعاية ذلك الفكر وتلك العلوم ، لكن فاقد الشيء لا يعطيه فإن لم يكونوا أصحاب علم ومعرفة ، فكيف سيمتلكون الإرادة لرعاية العلم وتشجيعه . قال ابن الطقطقا : « الملك إذا كان خلوّامن العلم كان كالفيل الهائج لا يمرُّ بشيء إلا خبطه ، ليس له زاجر من عقل ، ولا رادع من علم »<sup>٧٦</sup> ، فهل كان للسلاطين والأمراء المماليك مثل هذه الاهتمامات بالفكر والعلوم ورعاية أصحابها ؟

بالعودة إلى كتب التاريخ نجد أن أول سلاطين المماليك عز الدين أيبك أنشأ في سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م المدرسة المعزية على النيل بمصر القديمة وأوقف عليها الأوقاف اللازمة<sup>٧٧</sup> . أما بيبرس البندقداري ، فكان يشجع العلم ويكرم العلماء قال ابن تغري بردي : « يجب أن يطلع على أحوال أمرائه وأعيان دولته حتى لم يُخف عليه من أحوالهم شيء وكان يُقرب أرباب الكمالات من كل فن وعلم وكان يميل إلى التاريخ وأهله ميلا زائداً ويقول : سماع التاريخ أعظم من التجارب »<sup>٧٨</sup> . بالإضافة إلى ذلك بنى الكثير من الصروح العلمية ، ومنها المدرسة الظاهرية التي كان موقعها بين القصرين في القاهرة المعزية ، والتي استمر بناءها من أوائل سنة ٦٦٠هـ- ٦٦٢هـ / ١٢٦٢-١٢٦٤م<sup>٧٩</sup> . أما المنصور قلاوون الألفي<sup>٨٠</sup> فكان لا يميل إلى جنس بعينه بل كان ميله إلى من يتخيل فيه النجابة كائناً من كان<sup>٨١</sup> ومن مآثره البيمارستان الذي أنشأه بين القصرين ، والذي لم يسبقه إلى ذلك فيه أحد قديماً أو حديثاً شرقاً ولا غرباً<sup>٨٢</sup> . وإلى جانبه

<sup>٧٢</sup> - القلقشندي ( أحمد بن علي ، ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م ) : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ١٤ جزء ، تح محمد حسين شمس الدين

دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ج ٤ ، ص ٩٤ .

<sup>٧٣</sup> - عن أوضاع الفلاحين : القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ص ٤٥٢-٤٥٦ .

- النهار ( عمار محمد ) : الحياة الفكرية في مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، رسالة منشورة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام ، دمشق ، ١٤٢٥-١٤٢٦هـ / ٢٠٠٤-٢٠٠٥م ، ص ٥٧ .

<sup>٧٤</sup> - النهار ( عمار ) : الحياة الفكرية ، ص ٥٨-٦٠ .

<sup>٧٥</sup> - المقرئزي : المواعظ ، ج ٢ ، ص ٩٤-١٠٦ .

<sup>٧٦</sup> - ابن الطقطقا ( محمد بن علي بن طباطبا ، ت ٧٠١هـ / ١٣٠٢م ) : الفخري في الأدب السلطانية والدول الإسلامية

دار صادر ، بيروت ، د . ت ، ص ١٨ .

<sup>٧٧</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٤٣ .

<sup>٧٨</sup> - ابن تغري بردي : ج ٧ ، ص ١٦٢ ؛ جقمان ( حنا عبدالله ) : جولة في تاريخ بيت لحم من أقدم الأزمنة حتى اليوم مطبعة بطريركية الروم الأرثوذكس ، القدس ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م ، ج ١ ، ص ١٨٩ .

<sup>٧٩</sup> - تهدمت تلك المدرسة أيام المقرئزي ، لكن الجزء الأكبر منها ظل باقيا حتى سنة ١٢٩١هـ / ١٨٧٤م عندما اخترقها الشارع الممتد من ميدان بيت القاضي إلى سوق النحاسين المقابل لضريح السلطان قلاوون ، وتهدمت منارة تلك المدرسة سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م ولم يبق منها اليوم إلا كتلة مساحتها ١١/٥ متر . ابن أيبك الداوداري : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١٠٣ .

<sup>٨٠</sup> - السلطان المنصور قلاوون الألفي : توفي ليلة السبت سادس ذي القعدة من سنة ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م ، وكانت مدة سلطنته إحدى

عشرة سنة وشهرين وأربعة وعشرين يوماً ، وعمره نحو سبعين سنة ، وترك ثلاثة أولاد ذكورا . المقرئزي : السلوك ، ج ٢

ص ٢١٧ . الداودار ( بيبرس ) : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، تح سهيل زكار ، ط ١ ، دمشق ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م ، ج ٩

ص ٢١٧ .

<sup>٨١</sup> - الداودار : زبدة الفكرة ، ج ٧ ، ص ٢٧٨ .

<sup>٨٢</sup> - ابن أبي الفضائل ( مفضل ، ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٤م ) : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، جزءان

نشر E Blocht ، باريس ، ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م ، ج ٢ ، ص ٣٢٢ .

مدرسة ضخمة تحتوي على قبة فيها قبره ، ورتب فيها خمسين من القراء وأنشأ بها مكتبة للجمهور ملأها بالكتب القيمة في كل فن وعهد بها إلى حُظاظ ، وعين بالمدرسة علماء محاضرون ، وكان بها مكتبة للأطفال ومدرسة للصبيان وملجأ للأيتام<sup>٨٣</sup> . أما عن البيمارستان المنصوري فلم يقتصر دوره على تقديم الرعاية الصحية ، بل تعدى ذلك إلى تدريس الطب والاهتمام به . ولعل هذا الوضع يشبه إلى حد كبير كليات الطب في أيامنا الحالية حيث يوجد مشافي تابعة لها تتيح للطلاب الدارسين ممارسة الطب السريري ( الاكلينيكي ) . وقد حرص السلطان قلاوون في وثيقة الوقف على توضيح أهمية تدريس الطب في البيمارستان إذ قال : « الانشغال فيه [ بعلم الطب ] والاشتغال به »<sup>٨٤</sup> . ونصت الوثيقة على تعيين شيخ للاشتغال بالطب على أن يكون قد مارس مهنة التدريس بهذه المهنة ، و أن يكون حكيماً عارفاً بالطب وأوضاعه وعالماً بأسباب الأمراض وعلاجاتها . وورد في بعض المصادر نسخة تقليد الحكيم مهذب الدين في هذه الوظيفة [ مدرس الطب ] في رمضان سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م ، وتضمن هذا التقليد الشروط والواجبات التي يجب أن يقوم بها ومنها :

أ- بذل الجهد الكافي والمخلص في شفاء المرضى من أسقامهم وآلامهم .

ب- إعطاء الطلبة كل ما يعرف من علم ومعلومات .

ج - الإشراف على طلبة الطب وتدريبهم من المهنة التي يرغبونها ( الاختصاص )<sup>٨٥</sup> .

ومن مآثره العلمية أنه عندما فتحت تنييس أمر ببناء الفندق الذي كان مركزاً لبيع الخمر مدرسة للعلم<sup>٨٦</sup> .

وسار على النهج نفسه ابنه الأشرف خليل الذي كان يطرح الأدباء ويجلس في الميدان والقراء بين يديه وقال عنه المقرئزي : « حسن النادرة يطرح الأدباء بذهن رائق وذكاء مفرد »<sup>٨٧</sup> . ولم يكن الناصر محمد بن قلاوون<sup>٨٨</sup> أقل منهم جميعاً محبة للعلم ورعاية للعلماء فأظهر الرفق واللين للمؤرخ إسماعيل أبي الفداء ، فقلده نيابة حماة ولقبه بلقب سلطان و ألبسه شارات الملك وحليه ، وأنعم عليه بأعلى ألقاب الشرف وأسمائها وكان يخاطبه بلفظ أخ<sup>٨٩</sup> وشغف بإنشاء العمائر ، فأشاد الكثير منها وجدد إنشاءات أخرى كانت قائمة<sup>٩٠</sup> ، وجعل شاد العمائر هو المشرف على هذه الإنشاءات يعاونه موظف آخر دعاه ناظر العمائر يتولى شؤون المهندسين والحجارين

<sup>٨٣</sup> - المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٤ ، ص ٢٦٨-٢٧١ ؛ الداودار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٢٧٧ .

- موير (وليم) : تاريخ دولة المماليك في مصر ، تر محمود عابدين ، و سعيد حسن ، مكتبة مدبولي ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م ، ص ٦٦-٦٧ .

<sup>٨٤</sup> - الحداد (محمد حمزة) : السلطان المنصور قلاوون (تاريخ أحوال مصر في عهده - منشأته المعمارية) ، مكتبة مدبولي ، القاهرة د . ت ، ص ٥٦ .

<sup>٨٥</sup> - ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعصور ، ص ٢٢٨-٢٣٠ ؛ وعن الطبيب مهذب الدين المصدر نفسه ، ص ٢٢٨ .

<sup>٨٦</sup> - ابن عبد الظاهر : ص ٤٥ .

<sup>٨٧</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ص ٢٧٨ .

<sup>٨٨</sup> - الناصر محمد بن قلاوون : هو محمد بن قلاوون بن عبد الله الصالحي الملك الناصر ابن المنصور ولد في صفر وقيل : في نصف المحرم سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م ، شوهد منه أنه ولد وكفاه مقبوضتان ففتحتهما الداية فسال منهما دم كثير ثم صار يقبضهما فإذا فتحتهما سال منهما دم كثير فأنذر ذلك بأنه سيسفك على يديه دماء كثيرة . جلس على تخت السلطنة المرة الأولى وعمره ٩ سنوات ، وكان ذلك سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٤م . كانت وفاته سنة ٧٤١هـ / ١٣٤١م . ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ، ص ٩٠-٩٢ . الداودار (بيبرس) : مختار الأخبار ، ص ١١١ . المقرئزي : السلوك ، ج ٣ ، ص ٣٠١ .

<sup>٨٩</sup> - موير (وليم) : تاريخ دولة المماليك في مصر ، مرجع متقدم ، ص ١٠١ . لينبول (ستانلي) : سيرة القاهرة ، ص ١٩٥ .

<sup>٩٠</sup> - ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٨٥ .

والصناع<sup>٩١</sup> . وقد لفتت هذه الظاهرة الإنشائية نظر المؤرخ ابن إياس فقال : (( ولا يعلم لأحد من الملوك آثار مثله ومثل مماليكه وقد تزايدت في الديار المصرية والبلاد الشامية العمائر بمقدار النصف ))<sup>٩٢</sup> . شكّل هذا الاهتمام الكبير من قبل الأمراء والسلاطين في الدولة المملوكية الأولى بالعلم ووسائله ، ورعايته والاهتمام بالعلماء ورعايته لهم والإجراء عليهم قاعدة أساس لعوامل التطور العلمي في هذه الدولة .

## ب - الموروث الحضاري الفكري : -

إنّ تطور العلوم يستند إلى تراكمات كمية ونوعية للمعارف والخبرات بأشكالها المختلفة عبر العصور . وإن ظهر البناء العلمي زاهياً متكاملأ في عصر من العصور فيجب البحث عن جذوره وأساسه في العصور السالفة ويجب أيضاً أن لا يغيب عن الذهن أنه سيأتي يوم يرى الناس فيه العيوب كبيرة والنواقص كثيرة ، وعندها تبدأ من جديد عملية البحث عن استدراك النواقص وسد الثغرات التي ظهرت هنا أو هناك وصولاً إلى الكمال النسبي الذي سيأتي يوم جديد آخر تظهر فيه العيوب وتبدأ فيه أيضاً عملية البحث من جديد . وهذه مسلمات وحقائق علمية لا يمكن تجاوزها أو القفز من فوقها . ومن هذا المنظار يبدو أن تخيّل البعض بوجود حدود فاصلة في تاريخ الفكر هونوع من الوهم لأن العلوم فعل تراكمي يتكامل باستمرار ، وأن علوم وحضارة الأمم الفانية تذهب بذهابها أمر بعيد عن المنطق لارتباط التاريخ والحضارة بعضه مع البعض الآخر وارتكاز اللاحق على السابق وهكذا<sup>٩٣</sup> . فالحضارة الإسلامية ارتكزت أساساً بالإضافة إلى علوم الحضارات السابقة على ما أنزل على الرسول العربي الكريم صلى الله عليه وسلم من آيات قرآنية أمرته بالتعلم وحضته على التفكير وإمعان العقل في الحقائق الكونية المركزة على العلم والترابط العلمي الدقيق ، فمن قوله تعالى : (( اقرأ باسم ربك الذي خلق ))<sup>٩٤</sup> . وقرأ فعل أمر صادر عن الله عز وجل إلى رسول الأمة بالتعلم والقراءة والبحث والسؤال وصولاً إلى هذه الحقائق ، (( والأمر دليل الجواز لأنه استدعاء لإيقاع الفعل وما لا يمكن وقوعه لا يستدعى ))<sup>٩٥</sup> . قال الله عز وجل : (( فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ))<sup>٩٦</sup> ، والسؤال هو أول خطوة في أعمال العقل الذي يقود الإنسان إلى المعرفة وكشف أسرار الكون . قال الله عز وجل : (( وما يعقلها إلا العالمون ))<sup>٩٧</sup> . وفي **المجال نفسه** قال الرسول العربي الكريم صلى الله عليه وسلم : (( من جاء أجله وهو يطلب العلم لقي الله ولم يكن بينه وبين الأنبياء إلا درجة النبوة )) . وتأسيساً على ذلك عمل العرب والمسلمون وفي كل العصور على الاهتمام بالعلوم بأنواعها وأشكالها ، ففي عصر دولة بني أمية (( ٤٠ - ١٣٢ هـ / ٦٦٠ - ٧٥١ م )) اهتموا بالعلوم ولاسيما علم الكيمياء والهندسة والطب ، وفي عصر الدولة العباسية (( ١٣٢ - ٦٥٦ هـ / ٧٥١ - ١٢٥٨ م )) خطت الأمة العربية الإسلامية خطوات كبيرة في حياتها

<sup>٩١</sup> - الفلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٣ .

<sup>٩٢</sup> - ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٨١ .

<sup>٩٣</sup> - ابن خلدون : المقدمة ، ص ٨٧٦ . المقريزي ( أحمد بن علي ) : النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ، تح حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م ، ص ٧١ . النهار : الحياة الفكرية ، ص ١٠٣ .

<sup>٩٤</sup> - سورة العلق : الآية (١) .

<sup>٩٥</sup> - السخاوي ( محمد بن عبد الرحمن ، ت ٩٠٢ هـ / ٤٩٧ م ) : الذيل على رفع الأصر أو بغية العلماء والرواة ، تح جوده هلال ومحمد محمود صبح ، القاهرة ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ، ص ٥٣ .

<sup>٩٦</sup> - سورة النحل : الآية (٤٢) .

<sup>٩٧</sup> - سورة العنكبوت : الآية (٤٢) .

العلمية ووضعت الأسس اللازمة لكل علم<sup>٩٨</sup> ، وكثرت أعمال الترجمة وانتشرت المدارس وأماكن التعليم إلى درجة أن هذا العصر وصف بمنارة العلوم . أما في العصرين الزنكي والأيوبي فقد اهتم نور الدين محمود زنكي ، وصلاح الدين الأيوبي بالعلوم وأنشأ المدارس وأجزل عليها الأوقاف . مما هيأ الأرضية المناسبة لانتشار العلوم في العصور اللاحقة ولاسيما العصر المملوكي الأول . إذا هي الأرض خصبة قابلة للزراع إذا توفر لها المناخ المناسب .

### ج - العوامل السياسية :-

للعوامل السياسية دور كبير في انتشار العلوم وتطورها وازدهارها فالاستقرار السياسي واتساع رقعة الدولة وموقعها المهم ، وعلاقتها السياسية مع العالم المحيط تؤثر بشكل أو بآخر سلباً أو إيجاباً في تطور العلوم ورسم مسارات ذلك التطور . وهنا يمكن البحث في العامل السياسي ودوره في رسم مسار تطور العلوم من اتجاهين .

الاتجاه الأول - الاستقرار الداخلي .

الاتجاه الثاني - العلاقات الخارجية .

الاتجاه الأول :- ما أن تم الإعلان عن قيام الدولة المملوكية الأولى حتى تعرضت إلى هزات سياسية كادت أن تطيح بها ، ومنها ما تم ذكره من قيام الأمراء الأيوبيون بمحاولاتهم التي تكررت أكثر من مرة لإعادة السلطة الأيوبية على مصر لكن السلاطين المماليك استطاعوا أن يقضوا على تلك المحاولات وإخمادها بعزم وحزم . وهناك أيضاً ثورة العربان الذين كانوا يرون أحقيتهم بالحكم لكن تلك المحاولات باءت **بإخفاق** كبير نتيجة إصرار المماليك على التصدي لجميع هؤلاء وكانت الحصيلة استقرار داخلي مهد الطريق لبناء نهضة علمية شهدتها دولتهم ساعد في ذلك انتقال مقر الخلافة العباسية من بغداد إلى القاهرة<sup>٩٩</sup> التي أصبحت مقر للخلافة ومركز السلطة المملوكية ، جذب هذا الأمر الكثير من العلماء ، والرحالة والتجار فشهدت حركة فكرية ملحوظة ، ونشاط في مختلف مجالات الحياة العلمية حتى أصبحت حاضرة لقوافل طالبي العلم والعلماء .

وقد أكد ذلك أكثر من مؤرخ فابن خلدون قال : « درست معالم بغداد بدروسها فانتقل شأنها من الخط والكتاب بل والعلم إلى مصر والقاهرة »<sup>١٠٠</sup> . وقال السيوطي : « .. واعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها وكثرت شعائر الإسلام فيها ... ، فصارت محل سكن العلماء ، ومحط الرجال الفضلاء »<sup>١٠١</sup>

ولكن قد يتبادر إلى الذهن سؤال وهو : بما أن طبيعة النظام المملوكي قامت على قاعدة السلطة للأقوى ، وهذا قد لا يخلق استقراراً حقيقياً في السلطة والمجتمع معاً ، وبالتالي قد يؤدي إلى نتيجة عكسية أي أن لا يلتفت السلاطين والأمراء إلى قضية العلوم ، لكن البحث في العصر

<sup>٩٨</sup> - أمين ( أحمد ) : ضحى الإسلام ، دار الكتاب العربي ، ٣ أجزاء ، ط ١ ، بيروت ، د . ت ، ج ٢ ، ص ١٣ .

<sup>٩٩</sup> - ابن خلدون ( عبد الرحمن ، ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م ) : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم نوي السلطان الأكبر ، ٧ أجزاء ، مؤسسة الأعلمي ، ط ١ ، بيروت ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م ، ج ٥ ، ص ٣٨٢ .

<sup>١٠٠</sup> - ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٠٥-٥٠٦ .

<sup>١٠١</sup> - السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٠٢ .



المملوكي الأول يؤكد أن السلاطين الذين يعرفون بل يؤمنون بقاعدة أن السيف هو من له الكلمة الفصل في من يجلس على كرسي السلطنة ، وفي الوقت نفسه هم ذاتهم وعلى القدر نفسه من الإيمان كانوا يعدون العلم وسيلة استقرارهم على كرسي السلطنة ، لذلك حتى يضمنوا مستقبل أولادهم من عاديات الزمن بنوا المدارس والزوايا والربط وجعلوا أولادهم شركاء بذلك وأوقفوا عليها الأوقاف الكبيرة<sup>١٠٢</sup> . فشكلت هذه الأبنية ( المدارس والزوايا والربط ) ، وما أوقف عليها قاعدة مادية كبيرة أسهمت بشكل أو بآخر بنهضة علمية حقيقية فكثرت طلاب العلم والمعلمين بكثرة الجرايات التي كانوا يكسبون منها وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق ومن المغرب فازدهرت بها أسواق العلم وزخرت بحارها .

بالإضافة إلى كل ذلك كانت حاجة السلطة السياسية لأرباب الأقاليم كبيرة في زمن استقرار الدولة فقرّبوهم وتقربوا منهم ، وقد كان يقال : (( شر الأمراء أبعدهم من القراء وشر القراء أقربهم من الأمراء ))<sup>١٠٣</sup> ونتيجة لذلك شغل هؤلاء أدواراً شتى في أمور عديدة بسبب :

- أنهم الأقرب لباقي فئات الشعب باعتبار أن الممالك شكلوا أنفسهم فئة عسكرية عليا تحكم البلاد ، لذلك وجدوا العلماء وسيلة للسيطرة على هؤلاء وتوجيه مقدراتهم وإخضاعهم لهؤلاء الحكام بإعطاء الفتاوى وغير ذلك ، فحصل بذلك تعاون بين الإقطاع العسكري والإقطاع الديني - الأوقاف - من أجل تحقيق ذلك الهدف .
- باعتبار أن الطابع العام للدولة المملوكية الأولى هو طابع عسكري حربي قتالي فهو بحاجة إلى كثير من العلوم العسكرية والتطبيقية كالهندسة والطب والجغرافيا وبعض العلوم الأخرى كالتاريخ وغيره . لذلك كان لابد من الاهتمام بالعلوم وإيجاد القاعدة المادية لها ، ورعاية العلماء ، والإجراء عليهم والاستماع إليهم والأخذ بأرائهم لا بل ترقيتهم إلى أرفع المناصب .

- الاتجاه الثاني :-

العلاقات الخارجية : قال ابن خلدون (( من البيّن أن الالتحام والاتصال موجود في طبائع البشر وإن لم يكونوا أهل نسب واحد ))<sup>١٠٤</sup> . فكيف كانت علاقات الاتصال للدولة المملوكية الأولى مع غيرها من الدول ، وكيف انعكست هذه العلاقات على العلوم تطور مساراتها . يمكن القول : لقد اتسمت العلاقات الخارجية للدولة المملوكية الأولى مع الدول والشعوب الأخرى بالتقلب المستمر ، فتارة علاقات عدائية تحكمها الحروب ، وتارة تتسم بالهدوء ، والاستقرار وتبادل الرسائل ، والمبعوثين ، والهدايا ، وغير ذلك ، وهذه الصورة تنطبق تماماً على العلاقات مع المغول والصليبيين ، وكان لكل من الحالتين كل على حده استجابة وانعكاس على العلوم ، وتطورها ، فالحرب لها احتياجاتها من الأسلحة ، والعلوم العسكرية ، وفن الحرب والعلوم الأخرى كالعلوم النفسية ، والطبية ، والهندسية ، وغير ذلك ، وحالة السلم والاستقرار ، والعلاقات الطيبة مع الشعوب الأخرى ، والاطلاع على الحضارات ، والعلوم بشكل محرضاً جديداً إضافياً للتقليد ، والمجارة في أضعف الأحوال إن لم يكن التفوق عليها .

<sup>١٠٢</sup> - ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٢٤ .

<sup>١٠٣</sup> - ابن قتيبة ( أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، ت ٢٧٦هـ / ٨٩٠م ) : عيون الأخبار ، دار الكتب المصرية ، القاهرة

١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، ج ١ ، ص ١٣ .

<sup>١٠٤</sup> - ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٠٦ .

وقد شكل موقع مصر المهم دوراً مهماً في بناء شبكة من العلاقات السياسية والاقتصادية مع الشعوب الأخرى ، ولاسيما ملوك أوروبا ومثال ذلك **الفونسو صاحب قشتالة** الذي لم يكتف بالعلاقات السلمية العادية بل أبرم مع المنصور قلاوون معاهدة دفاعية في سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م ، وكانت أرغون وصقلية من الإمارات التي ارتبطت بعلاقات مودة وصداقة مع دولة المماليك ، فملك صقلية تعهد سنة ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م بمساعدة السلطان قلاوون في أي حرب يشنها عليه **الفرنجة**<sup>١٠٥</sup> ، وتوسعت شبكة العلاقات الخارجية لتشمل فرنسا والنمسا<sup>١٠٦</sup> إضافة إلى الجمهوريات الإيطالية ( البندقية وجنوة وبيزا )<sup>١٠٧</sup> . وكانت هذه الشبكة من العلاقات أيضاً كان الدافع إليها كانت تستدعي من السلاطين والأمراء المماليك الاهتمام بالتعليم وتقريب العلماء والارتكاز عليهم في بناء هذه العلاقات لاسيما أن الاقتصاد والتجارة تشغل فيه الدور الرئيس وهذا شكل دافعاً جديداً لتطور العلوم هو الدافع الاقتصادي .

## د – العامل الاقتصادي :

امتدت الدولة المملوكية الأولى على رقعة واسعة من الأرض من الفرات شرقاً إلى ليبيا غرباً ومن المتوسط شمالاً إلى أواسط السودان ( جنوب دنقلة<sup>١٠٨</sup> القديمة ) جنوباً شاملة الحجاز من الجزيرة العربية . انظر : الخريطة رقم ١ « دولة المماليك في أقصى اتساعها » . وكان لهذه المساحة الجغرافية الشاسعة الواسعة فيها تنوع تضاريسي هائل أدى إلى تنوع كبير في المناخ الذي أدى بدوره إلى تنوع في الغلات الزراعية التي تعد أساس كل تطور .

قال صاحب خطط الشام : « إن بلاد الشام قطر تأخذ فيه الفصول الأربعة حكمها ، وتتم في قيعانه وجباله أسباب النعم . معتدل الأهوية متهاطل الأمطار والتلج ممرع التربة . فيه الغابات والمعادن ، والحمامات المعدنية ، والأنهار الجارية ، والبحيرات النافعة ، والأهواء البهيجة والرباع المنبسطة ، والمناظر المدهشة »<sup>١٠٩</sup> .

أما مصر التي ارتبطت طبيعياً وتاريخياً ببلاد الشام ، فبالإضافة إلى هبة النيل وما احتوته أرض مصر من معادن وثروات ، وما أنتجته من غلات فإن موقعها الجغرافي المهم على المتوسط والبحر الأحمر جعلها تتحكم في مسارات طرق التجارة العالمية آنذاك فضلاً عن مساهمتها في النشاط التجاري العالمي<sup>١١٠</sup> . فازدهر الإقتصاد وذاع صيت القاهرة التجاري حتى أن هولاكو في إحدى رسائله سماها كروان سراي أي محط الرحال والمتاجر والمال<sup>١١١</sup> . الأمر

<sup>١٠٥</sup> - ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام ، ص ٤١-٥٢ .

<sup>١٠٦</sup> - موير ( السير ولیم ) : تاریخ دولة المماليك في مصر ، تر محمود عابدين و سليم حسن ، مكتبة مدبولي ، ط ١ ، القاهرة ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م ، ص ٩٣ .

<sup>١٠٧</sup> - ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام ، ص ٥١-٥٢ .

<sup>١٠٨</sup> - دنقلة مدينة عظيمة ببلاد النوبة ممتدة على ساحل النيل وهي منزل ملكهم كابيل ، وأهلها نصارى يعاقبة . أرضهم محترقة لغاية الحرارة عندهم ، ومع شدة احتراقها ينبت فيها الشعير والحنطة والذرة ، ولهم نخل وكرم ، وبلادهم أشبه شيء باليمن . انظر : - القزويني ( زكرياء بن محمد بن محمود ) : آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، د . ت ، ص ٣٩ . ابن الفقيه ( أبي بكر أحمد بن محمد العمذاني ، ت ٣٢٠هـ / ٩٣٢م ) : مختصر كتاب البلدان ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م ، ص ٧٨ .

<sup>١٠٩</sup> - كرد علي : خطط الشام ، ج ١ ، ص ١٤ .

<sup>١١٠</sup> - فهمي ( نعيم زكي ) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ( أواخر العصور الوسطى ) ، ط ١ ، القاهرة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٣م ، ص ٢٧٧-٢٧٩ ؛ محمد ( حجازي محمد ) : نحو دراسة في جغرافية مصر ، القاهرة ، دار الثقافة ، ط ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م ، ص ٥ .

<sup>١١١</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٧ - ٤٢٩ .

الذي أسهم في إيجاد مداخل مادية كبيرة جعلت الاقتصاد في دولة المماليك الأولى اقتصاداً متطوراً باستمرار ، وبالتالي قادراً على تلبية متطلبات هذه الدولة التي قامت أساساً على القوة والحرب ، فإذا كانت الحروب ، والنجاح فيها يتطلبان بناء الجيوش المتطورة والمزودة بالأسلحة الفعالة ، والمعدة إعداداً نوعياً ، والمدرّبة تدريباً عالي المستوى ، فإن الاقتصاد القوي يكون قادراً على تلبية تلك المتطلبات التي تستند في الأساس على العلوم وتطبيقاتها .

لذلك تمكّن السلاطين والأمراء المماليك من بناء القاعدة المادية الكبيرة التي أسست للنهضة العلمية التي شهدتها الدولة والتي واكبت الانتصارات الكبيرة التي تحققت .

ففي أيام الظاهر بيبرس بُني من المدارس والصروح العلمية ما لم يُبنَ في أيام الخلفاء الفاطميين وملوك بني أيوب<sup>١١٢</sup> . وكذلك في أيام السلطان قلاوون الألفي الذي بزّ غيره في بعض الأمور ويكفيه فخراً ما قيل فيه : أن ميله لم يكن إلى جنس محدد بل لمن يتخيل فيه النجابة كأنثاً من كان<sup>١١٣</sup> . ومن وصاياه لابنه الأشرف خليل ما يوحي بحرصه الشديد على البناء والسخاء بذلك فقال : (( .. حتى على الدرهم والدينار فاصرف إليها اجتهادك فيما يعود بالثمنير كما يعود على تلك بالتنوير ، وعلى هذه باشحانها بأنواع الصروف كاشحان تلك باستواء الصفوف ))<sup>١١٤</sup> . ولم يقتصر بناء القاعدة المادية للعلوم على السلاطين والأمراء ، بل إن التجار وأصحاب الثروات الطائلة ساهموا بذلك مساهمة كبيرة بغض النظر عن الأهداف التي دفعتهم إلى ذلك . ومثال ذلك مدرسة المحلى على شاطئ النيل التي أنشأها رئيس التجار برهان الدين إبراهيم ويقال أنه أنفق على بنائها أكثر من خمسين ألف دينار<sup>١١٥</sup> ، والمدرسة المسلمية التي أنشأها القاضي ناصر الدين مسلم الكارمي كبير التجار<sup>١١٦</sup> ، وغيرهم الكثير من التجار الذين **أنشؤوا** المدارس ومكاتب التعليم . ولا بدّ من التنويه إلى دور النساء في هذا المجال **اللاتي** شاركن وعمرن وأشدن ، ونذكر منهن الست أيديكن زوجة سيف الدين بكجا التي أنشأت في سنة ٧٥١هـ / ١٣٥٠ مدرسة سميت بالمدرسة الصغيرة<sup>١١٧</sup> ، ونذكر أيضاً خوند تتر الحجازية ابنة الناصر محمد بن قلاوون التي أنشأت سنة ٧٦١هـ / ١٣٥٩م مدرستها المعروفة بالحجازية وزودتها بخزانة للكتب ، وأنشأت بالقرب منها مكتبة لتعليم الأيتام وأوقفت عليها الأوقاف<sup>١١٨</sup> . وهكذا تضافرت كل الجهود يبدأ بيد لبناء نهضة علمية جنباً إلى جنب مع انجازات عسكرية رائعة أبهرت العالم .

**هـ - العوامل الاجتماعية :** اختلف المؤرخون في تحديد الفئات الاجتماعية وأعدادها فابن فضل الله العمري قسم المجتمع في الدولة المملوكية إلى خمس فئات على أساس الوظائف الإدارية<sup>١١٩</sup> وهذه الفئات هي :

<sup>١١٢</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٧٢ .

<sup>١١٣</sup> - ابن تغري بردي : ج ٧ ، ص ٢٧٨ .

<sup>١١٤</sup> - ابن تغري بردي : ج ٧ ، ص ٣٤٤ .

<sup>١١٥</sup> - المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٦٧-٣٦٨ .

<sup>١١٦</sup> - ناصر الدين مسلم الكارمي : متوفى سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م قيل أن يتم بناء المدرسة ، وأوصى بتكميلها وعين الأموال اللازمة لذلك ، وأوقف عليها دوراً وأرضاً بمدينة قلوب . عبد العاطي ( عبد الغني محمود ) : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، دار المعارف ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م ، ص ١٢٥ .

<sup>١١٧</sup> - المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٩٣ .

<sup>١١٨</sup> - المقرئزي : ج ٢ ، ص ٣٨١-٣٨٢ .

<sup>١١٩</sup> - ابن فضل الله العمري ( أحمد بن يحيى ، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م ) : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تح حمزه أحمد عباس المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م ، السفر ٢٧ ، ص ١١٤ .

أصحاب السيوف : ( أي المماليك أنفسهم وهم الفئة الأساسية والعليا في المجتمع ) .

أرباب الأقاليم : وهم أيضا من أصحاب الوظائف الكبيرة على الرغم من أن بعض المؤرخين مثل ابن تغري بردي قال : أنها من الوظائف الساقلة .

الفئة الثالثة : العلماء الذين اقتصوا بالقضاء والخطابة والحسبة ووكالة بيت المال .

الفئة الرابعة : التجار .

الفئة الخامسة : عامة الناس .

أمّا ابن خلدون فقد قسم المجتمع في الدولة المملوكية إلى فئتين : الفئة الحاكمة وهم المماليك أمّا الفئة الثانية فهم العامة وبقية فئات المجتمع<sup>١٢٠</sup> .

بينما رأى المقرئزي أن المجتمع انقسم إلى سبع فئات<sup>١٢١</sup> وهي :

أهل الدولة وجعلهم على رأس الهرم الإجتماعي – ثم التجار وأولي النعم – أصحاب الحالة المتوسطة – ويليههم أصحاب الفلاحة والحرث – ثم الفقهاء وطلاب العلم وأجناد الحلقة – ثم أصحاب الصنائع وأرباب المهن – أهل الخصاصة والمسكنة الذين لا يملكون شيئاً .

ودمج بعض الباحثين بين هذه الفئات واختصر البعض الآخر كما فعل لابيدوس عندما جعل الفئات الاجتماعية في العصر المملوكي ثلاث فئات<sup>١٢٢</sup>

الفئة الأولى : المماليك ( السلطان والحاشية والأمراء وذوي المراتب العالية ) .

الفئة الثانية : فئة العامة .

الفئة الثالثة : وهي بين الفئتين ( الأعيان والزعماء الأكثر بروزاً ) .

بينما رأى البعض الآخر أن المجتمع في العصر المملوكي شكل فئة واحدة هي ما أطلق عليه اسم العامة لأن المماليك بما فيهم السلطان وحاشيته لم يشكلوا فئة اجتماعية بل فئة عسكرية حاكمة<sup>١٢٣</sup> .

ومهما كان عدد الفئات الاجتماعية التي تشكل منها المجتمع في الدولة المملوكية الأولى فإن تلك الفئات وتفاعلها مع بعضها شكلت دافعاً جديداً لتطور العلوم بأنواعها وذلك لأسباب عديدة منها : حاجة السلاطين والأمراء للعلماء لإضفاء الصفة الشرعية على السلطة . فعلى سبيل المثال لم يستطع قطز الذي كان وصياً على السلطان أن يتكلم بكلمة واحدة عندما عارضه العز

<sup>١٢٠</sup> - ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٨٣ .

<sup>١٢١</sup> - المقرئزي ( أحمد بن علي ) : إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تح كرم حلمي فرحات ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ط١ ، القاهرة ، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م ، ص ١٤٧ .

<sup>١٢٢</sup> - لابيدوس ( ابرامافين ) : مدن الشام في العصر المملوكي ، تر سهيل زكار ، دار حسان ، ط١ ، دمشق ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م ص ١٣٤-١٣٥ .

<sup>١٢٣</sup> - زعرور ( ابراهيم ) : الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر الأيوبي والمملوكي ، مطبعة الجمهورية ، دمشق ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، ص ٩٧ .

ابن عبد السلام في طلبه بأخذ الأموال من الناس لمواجهة المغول<sup>١٢٤</sup> ، وكان الظاهر ببيرس يقرب أصحاب الكمالات من كل فن وعلم<sup>١٢٥</sup>. هذا من جهة ومن جهة أخرى كان السلاطين والأمراء بحاجة إلى العلوم والعلماء من أطباء ومهندسين وكيميائيين وجغرافيين للعمل على سد احتياجات الجيوش من الأسلحة والذخائر وتشبيد القلاع والحصون وحفر الخنادق والترع وإقامة الجسور وشق الطرقات وحفر الآبار واستخراج المياه.. إلى غير ذلك .

وكان للدولة المملوكية الأولى علاقات سياسية ودبلوماسية واقتصادية مع الدول الأخرى جعلتها تحتاج بشكل أو بآخر إلى المتعلمين لإقامة مثل تلك العلاقات هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لمباهاة تلك الدول بالعلوم والحضارة .

حاجة العلماء للسلاطين والأمراء والتقرب منهم بغية التكسب والوصول إلى المناصب وهذا بدوره شجع الناس على إتباع طريق العلم والتعلم للوصول إلى المبتغى .

#### و- انتشار المدارس :

وكانت قد شملت في كل النيابات وصارت أكثر تنوعاً وتخصصاً ولم تعد تقتصر على العلوم الدينية فقط بل تعداها إلى أن تشمل علوماً كثيرة نظرية وتطبيقية ، والمدارس التي كانت تنشر العلم والمعرفة لم تكن وليدة دولة المماليك الأولى إنما كانت موجودة ومؤسس لها في مصر فابن عساكر ذكر في تاريخ دمشق أن **ابن السلار** قد بنى مدرسة في الاسكندرية وأوقف عليها وفقاً<sup>١٢٦</sup>. وذكر ذلك ابن خلكان في كتابه وفيات الأعيان<sup>١٢٧</sup> والذهبي في تذكرة الحفاظ<sup>١٢٨</sup> لكن هؤلاء المؤرخين لم يسيروا إلى تاريخ بناء تلك المدرسة . وعندما جاء صلاح الدين الأيوبي<sup>١٢٩</sup> إلى مصر بنى فيها عدة مدارس مقلداً سيرة قائده نور الدين محمود زنكي<sup>١٣٠</sup> الذي أنشأ الكثير من المدارس في دمشق وحلب وغيرها . أما أيام الدولة المملوكية الأولى فقد انتشرت المدارس انتشاراً واسعاً وعلى مساحة مدنها وقراها ومن المدارس التي أنشأت في الدولة المملوكية الأولى في مصر المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق بمدينة الفسطاط بنيت سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م وقال عنها المقرئزي : إنها أول مدرسة بنيت في مصر ، لكن هذا غير دقيق والدليل ما ذكره ابن عساكر وابن خلكان والذهبي والذي تم ذكره من قبل . واستمرت مسيرة نشر العلم

١٢٤ - ابن نغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٦٧-٦٨ .

١٢٥ - ابن نغري بردي : ج ٧ ، ص ١٦٥ .

١٢٦ - ابن عساكر ( علي بن الحسن ) : تاريخ مدينة دمشق ، تح علي شيري ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م ج ٥ ، ص ٢٠٨-٢٠٩ ؛ وابن السلار : هو ابو منصور علي بن اسحق أمير مصر متوفى سنة ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م .

١٢٧ - ابن خلكان ( أحمد بن محمد ، ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م ) : وفيات الأعيان وانباء أبناء الزمان ، تح إحسان عباس ، دار صادر ، ط ٤ بيروت ، د . ت ، ج ٤ ، ص ١٢٩ .

١٢٨ - الذهبي ( محمد بن أحمد ، ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م ) : تذكرة الحفاظ ، تح عبد الرحمن المعلمي ، مطبعة دار المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن - الهند ، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م .

١٢٩ - صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي صاحب مصر والشام والجزيرة وغيرها من البلاد . مولده بتكريت ، ملك مصر سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٩ م ، وحرر القدس من الصليبيين سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، توفي سنة ٥٨٩ هـ / ١١٩٣ م ؛ ابو شامة ( شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن ابراهيم بن عثمان المقدسي الدمشقي ، ت ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م ) ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ٤ أجزاء ، وضع حواشيه وعلق عليه ابراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠٢ م ، ج ٤ ، ص ٢٦٩-٢٧١ .

١٣٠ - نور الدين محمود زنكي : توفي يوم الأربعاء ثاني شوال من سنة ٥٦٩ هـ / ودفن بقلعة دمشق ونقل منها إلى المدرسة التي أنشأها بدمشق عند سوق الخواصين ؛ ابن الأثير ( عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد ، ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م ) : الكامل في التاريخ ، ١١ جزء تح محمد عبد السلام التدمري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م ، ج ٩ ، ص ٣٩٣-٣٩٦ .

والمعرفة إلى أن صار لمصر في عصر المماليك عدد كبير من المدارس وكذلك في بلاد الشام والجزيرة . تحدث المقرئزي مطولاً عن المدارس في مصر في العصر المملوكي الأول وذكر خمس وخمسون مدرسة<sup>١٣١</sup> . كما تحدث بعض الرحالة الذين زاروا المنطقة عن التعليم والاهتمام بالعلوم من قبل الأمراء والسلاطين ، فابن بطوطة قال : « وأما المدارس في مصر فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها »<sup>١٣٢</sup> . ولاهتمام المماليك بإنشاء المدارس أسبابه الشخصية والاقتصادية والاجتماعية ، فانتصارهم في معركة المنصورة على حملة لويس التاسع جاء مسوغاً لاستلامهم مقاليد السلطة ثم كان نجاحهم في صد التتار الذين أسقطوا الخلافة العباسية تنويجاً جديداً للمماليك بوصفهم القوة المدافعة عن العالم الإسلامي . يضاف إلى ذلك ما قام به السلطان الظاهر بيبرس البندقداري من إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة ، وتجديد الجامع الأزهر ، وأعاد إليه الخطبة<sup>١٣٣</sup> ، وإعادة الخطبة إليه مما أكسب سلطة المماليك مركز الزعامة الروحية فضلاً عن زعامتها السياسية في العالم الإسلامي<sup>١٣٤</sup> . وحتى تكتمل الصورة عمل المماليك على إيجاد الأرضية الصالحة لبناء تلك القوة ولا يكون ذلك إلا بنشر العلوم والمعارف النظرية منها والتطبيقية ومن دون ذلك تكون هذه القوة هشة قابلة للانكسار في أول اختبار حقيقي لها في ساحة الميدان .

ومن الناحية الاقتصادية كانت مصر تتحكم في مسارات تجارة « الكارم »<sup>١٣٥</sup> ، وجنت أرباحاً كبيرة من جراء عبور التجارة عبر أراضيها بين الشرق والغرب<sup>١٣٦</sup> . فضلاً عن مساهمة مصر في النشاط التجاري العالمي لتمتعها باقتصاد قوي وازدهار حقيقي . كل ذلك ساعد مصر على تدعيم النشاط الحضاري لاسيما القدرة على إقامة المؤسسات التعليمية كالمدارس وغيرها لذلك نرى أن معظم المدارس التي بُنيت في العصر المملوكي الأول تتصف بالأناقة والبذخ فالأمير علاء الدين طيبرس<sup>١٣٧</sup> الذي أنشأ مدرسته بجوار الجامع الأزهر سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م قد « تألق في رخامها وتذهيب سقفها حتى جاءت في أبداع وأحسن قالب وأبهج ترتيب لما فيها من إتقان العمل وجودة الصناعة ... ، وبلغت النفقة عليها جملة كثيرة »<sup>١٣٨</sup> . فإذا كان هذا هو حال المدارس التي أنشأها الأمراء والأعيان فمن الطبيعي أن تكون المدارس التي أنشأها سلاطين المماليك أكثر روعة ، وجمالاً ، وكثيراً ما بالغوا في زخرفة هذه المدارس لدرجة أن السلطان الناصر حسن<sup>١٣٩</sup> قد أجهده مصاريف مدرسته ففكر في التوقف عن المتابعة في بنائها ، وذكر

١٣١ - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٦٣ .

١٣٢ - ابن بطوطة ( ابو عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي ، ت ٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م ) : رحلة ابن بطوطة - تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٨٤ هـ / ١٩٦٤ م ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .

١٣٣ - أقيم الجامع الأزهر سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧١ م ، انقطعت الخطبة فيه سنة ٤٠٣ هـ / ١٠١٣ م واستمرت مقطوعة إلى سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٧ م عندما أعادها الظاهر بيبرس . ؛ الداودار : مختار الأخبار ، ص ٣٤ ؛ ابن أبيك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١٢١-١٢٢ السيوطي : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٥١-٢٥٢ .

١٣٤ - الحريري : الأخبار السنوية ، ص ٣٤٧ .

١٣٥ - الكارم : مصطلح اطلق في البداية على تجارة العنبر الأصفر ثم على تجارة البهار مثل الفلفل والقرنفل . دهمان : معجم الألفاظ التاريخية ، ص ١٢٨ .

١٣٦ - فهمي ( نعيم زكي ) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ( أواخر العصور الوسطى ) ، القاهرة ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م ، ص ٢٧٧-٢٧٩ .

١٣٧ - علاء الدين طيبرس : كان أصله من ممالك بيليك الخزندار نائب السلطنة بمصر ثم انتقل ليبيدرا فياشر ديوانه بدمشق ولازم لاجين وهو نائب الشام فولاه ، ثم تسلم نقابة الجيش فياشرها إلى أن مات سنة ٧١٩ هـ / ١٣١٩ م ، وهو الذي بنى المدرسة بجوار الجامع الأزهر والخانقاه بأرض بستان الخشاب ظاهر القاهرة ، وكان حسن السياسة أميناً مهاباً عفيفاً . ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ١٣٧-١٣٨ .

١٣٨ - المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٨٢ .

١٣٩ - السلطان الناصر حسن : هو حسن بن محمد بن قلاوون الصالحي الملك الناصر ابن الناصر ابن المنصور . ولد سنة ٧٣٥ هـ .

المؤرخون أنه قال : « لولا أن يقال ملك مصر عجز عن إتمام بناء بناه لتركت بناء هذا الجامع من كثرة ما صرف عليه »<sup>١٤١</sup> ومن المدارس الكثيرة التي بنيت في عصر الدولة المملوكية في مصر نذكر المدرسة الظاهرية القديمة التي بناها الملك الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤م ، والمدرسة المنصورية التي أنشأها الملك المنصور قلاوون ، والمدرسة الناصرية التي ابتدأها الملك العادل كتبغا<sup>١٤٢</sup> وأتمها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٤م ، **والخاتفة البيبرسية** التي بناها الأمير بيبرس الجاشنكير<sup>١٤٣</sup> في سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٨م ، وغيرها الكثير من المدارس .

وتتماشى كثرة المدارس هذه مع نظرية ابن خلدون عندما قال : « في أنّ العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة »<sup>١٤٤</sup> . إذ أن مهنة التعليم والتدريس صنعة من جملة الصناعات التي تتأثر بالحالة الاقتصادية والحضارية وعلى نسبة العمران في كل بلد . على أن لا ننسى أن هناك سبب آخر قد يكون خفياً غير الأسباب الاقتصادية والحضارية دفع سلاطين المماليك إلى الإكثار من بناء المدارس وهو يتعلق بالحياة السياسية الداخلية وما اتسمت به من عدم استقرار إذ أن السلاطين كانوا يتعرضون لحوادث القتل والمصادرة والسجن مما جعلهم يرون في الأوقاف وسيلة وملجأ يلجأون إليه عند الضرورة ضماناً لذريتهم من بعدهم فاستكثروا من بناء المدارس ، والزوايا ، والربط ، وأوقفوا عليها الأوقاف المغلة [ ذات الغلال ] ، وجعلوا أولادهم شركاء في هذه الأوقاف ، ومع ذلك كانت تصادر كما فعل الناصر محمد بن قلاوون بمدرسة السلطان العادل كتبغا<sup>١٤٥</sup> ، ومن المفيد التنبيه إلى أنّ حركة إنشاء المدارس لم تكن حركة محلية خاصة بالقاهرة بل تعدّتها إلى الكثير من المدن ، والمناطق الأخرى ، فالإسكندرية بحكم موقعها الجغرافي ، وطبيعة الحياة الاجتماعية والاقتصادية فيها عرفت الكثير من المدارس ومنذ العصر الفاطمي كان فيها ثلاث مدارس ( مدرسة ابن عوف ومدرسة الحافظ السلفي ومدرسة الطرطوشي )<sup>١٤٦</sup> وفي العصر المملوكي أنشئت فيها داران للحديث هما دار الحديث النبيهية<sup>١٤٧</sup> ودار الحديث التكريتي ( أنشأها عبداللطيف بن رشيد التكريتي<sup>١٤٨</sup> في سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩م )<sup>١٤٩</sup> . أما المدارس فهي كثيرة منها المدرسة التي بناها أبو الحسن علي اللخمي أحد تلامذة

- 
- ١٣٣٥م ، وتسمى أولاً قماري فلما أجلس على التخت قال للنايب يا أبي أنا ما اسمي قماري ، وإنما اسمي حسن ، ولي السلطنة بعد أخيه المظفر في رمضان سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م ، وكان الناصر حسن مفرطاً في الذكاء ضابطاً لما يحصل ، وبعد أن خلع وسجن اشتغل بالعلم . ابن حجر الدرر : الكامنة ، ١م ، ج ٢ ، ص ٢٢-٢٣ .
- ١٤٠ - المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣١٥ .
- ١٤١ - السيوطي : حسن المحاضرة ، م ٢ ، ص ٢٣٢ .
- ١٤٢ - الملك العادل كتبغا : هو كتبغا المغلي المنصوري زين الدين . كان أسمر اللون قصير القامة صغير اللحية . أسر من عسكر هولوكو سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م . اشتراه الملك المنصور وتنقلت به الأحوال . توفي سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٢م . ابن حجر : الدرر الكامنة : م ٢ ، ج ٣ ، ص ١٥٨-١٥٩ .
- ١٤٣ - السيوطي : حسن الحاضرة ، م ٢ ، ص ٢٢٨-٢٣٥ ؛ وعن بيبرس الجاشنكير قال ابن حجر : كان من مماليك المنصور قلاوون ، وكانت وفاته سنة ٧٠٩هـ / ١٣١٠م ؛ ابن حجر : الدرر الكامنة في أعيان مصر المائة الثامنة م ١ ، ج ١ ، ص ٢٩٧-٢٩٩ .
- ١٤٤ - ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٢٣ .
- ١٤٥ - النويري : نهاية الأرب ، ج ٣ ، ص ٧٠٣ . المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٨١ .
- ١٤٦ - عبد العاطي ( عبد الغني محمود ) : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، دار المعارف ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م ، ص ١٣٢-١٣٦ .
- ١٤٧ - سالم ( السيد عبد العزيز ) : تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي حتى الفتح العثماني ، القاهرة ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م ، ص ٣١ .
- ١٤٨ - عبد اللطيف بن رشيد بن محمد بن سديد الربيعي التكريتي . نزيل الإسكندرية . ذكره ابن رافع في معجمه ، وقال عنه ابن حبيب : من رؤساء الكارم معروف بالكارم . توفي سنة ٧١٤هـ / ١٣١٤م . ابن حجر : الدرر الكامنة : م ١ ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .
- ١٤٩ - سالم ( السيد عبد العزيز ) : تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي حتى الفتح العثماني ، ص ٣٢ .

الحافظ السلفي<sup>١٤٩</sup> والمدرسة التي أقامها الشيخ خضر وسماها المدرسة الخضراء<sup>١٥٠</sup> والمدرسة التي أنشأها عتيق بن محمد بن سليمان المخزومي وهناك الكثير من المدارس التي أنشأها السلاطين والأمراء . أما في دمياط التي شهدت حركة علمية مماثلة لما شهدته المدن الأخرى فقد أنشأ فيها الكثير من المدارس منها : المدرسة المسلمية<sup>١٥١</sup> والمدرسة الناصرية والمدرسة المعينية<sup>١٥٢</sup> وغيرها من المدارس ، ولم يقتصر بناء المدارس على المدن في الوجه البحري بل تعداها إلى الريف لكنها كانت قليلة فيه لسبب أو لآخر . أما الوجه القبلي فلم يكن هو الآخر بعيداً عما شهدته مدن الشمال من حركة علمية ففي أسوان كان هناك ثلاث مدارس<sup>١٥٣</sup> ( المدرسة البانياسية والمدرسة النجمية والمدرسة السيفية ) . أما في أسيوط فكان لا يقل عن أربع مدارس هي ( الشريفة والفائزية والبدرية والخضيرية )<sup>١٥٤</sup> . أما مدينة إسنا فقد ذكر الأدفوي في مقدمة كتابه الطالع السعيد أنّ بها مدرستين<sup>١٥٥</sup> فقط إلا أنه في الكتاب نفسه وفي صفحات أخرى ذكر أسماء خمس مدارس وقد ذكرت أسماء هذه المدارس في مؤلفات أخرى واعتماداً على ذلك يمكن تحديد أسماء هذه المدارس كما يلي : المدرسة الأفرمية<sup>١٥٦</sup> والمدرسة المعزية<sup>١٥٧</sup> ومدرسة ابن السديد<sup>١٥٨</sup> ، السديد والمدرسة الغربية<sup>١٥٩</sup> ، والمدرسة المجيدية<sup>١٦٠</sup> . وقد وصف ابن بطوطة مدينة إسنا (( إنها مدينة عظيمة متسعة الشوارع ضخمة المنافع كثيرة الزوايا والمدارس والجوامع ))<sup>١٦١</sup> . وما يلفت النظر أنه في إحدى هذه المدارس كان علم الجبر من المواد التي يقوم المدرس بتدريسها ، قال الإدفوي أنّ هبة الله المدرس بالمدرسة المعزية بإسنا كان الطلبة يقرءون عليه العربية والأصول والجبر والمقابلة<sup>١٦٢</sup> ، كما وصف ابن بطوطة مناطق أخرى منها منية ابن الخصيب التي قال عنها : (( وحق لها على بلاد الصعيد التفضيل ، بها المدارس والمشاهد والزوايا والجوامع ))<sup>١٦٣</sup> . كما ذكر بأنه يوجد بأطفيح مدرسة أو أكثر حيث قال السخاوي : أنّ محمد بن أحمد تولى تدريس الحسامية ونظرها **بأطفيح**<sup>١٦٤</sup> . وقد انتشرت المدارس في معظم بلاد الصعيد ففي قوص وحدها كما ذكر ابن بطوطة عدد كبير منها وقد حددها الإدفوي بست عشرة مدرسة<sup>١٦٥</sup> .

وهناك سبب آخر ساعد على الاهتمام بالعلم وكثرة المدارس في العصر المملوكي الأول وهو كثرة العلماء الذين وفدوا إلى هذه الدولة من الشرق بعد احتلال بغداد وانتهاء الخلافة العباسية

- ١٤٩ - ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٢ ، ص ٤٥٢ - ٤٥٤ .  
 ١٥٠ - ابن أبيك الداوداري : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٢٢ .  
 ١٥١ - السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٢٦٣ .  
 ١٥٢ - أنشأها محمد بن معين الدين الفارسكوري وتب بها شيخاً وصوفية . السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ ، ص ١٤ .  
 ١٥٣ - الإدفوي ( كمال الدين أبي الفضل جعفر بن ثعلب ، ت ٧٤٨هـ/١٣٤٧م ) : الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ، تح سعد محمد حسن ، مراجعة طه الجابري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م ، ص ١١٢ .  
 ١٥٤ - السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ ، ص ١٧٨ .  
 ١٥٥ - الإدفوي : الطالع السعيد ، ص ١٩ .  
 ١٥٦ - الإدفوي : ص ١٩٣ .  
 ١٥٧ - الإدفوي : ص ٨٣ .  
 - ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٤٤٠ .  
 ١٥٨ - ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ٤١٤-٤١٥ .  
 ١٥٩ - الإدفوي : الطالع السعيد ، ص ٦٥ .  
 ١٦٠ - الإدفوي : ص ٢٣٧ . ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٤٤٠ .  
 ١٦١ - ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٤٢ .  
 ١٦٢ - الإدفوي : الطالع السعيد ، ص ٤٠١ .  
 ١٦٣ - الإدفوي : ص ٣٧ .  
 ١٦٤ - السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ ، ص ٨٩-٩٠ .  
 ١٦٥ - ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٤١ .



على يد التتار ومن الغرب على أثر ضعف الدولة العربية في الأندلس . هياً هذا الأمر الكوادر اللازمة لنهضة علمية أسس لها في عصر صلاح الدين الأيوبي وعندما توفرت الظروف المناسبة والنية الصادقة والقرار الحكيم والكوادر المؤهلة ازدهرت في دولة المماليك الأولى حتى عمت المدارس أنحاء الدولة وليس في مصر فقط بل وفي كافة النيابات فقد بلغ عدد المدارس التي بُنيت في دمشق في العصر المملوكي الأول أكثر من خمسين مدرسة<sup>١٦٦</sup> وفي القدس وحدها بني خمسون مدرسة<sup>١٦٧</sup> منها معاهد كبيرة أقامها سلاطين وأمراء وأنفقوا عليها بسخاء لذلك اعترف الجميع أن العصر المملوكي الأول كان أخصب العصور في هذا المجال إذا ما قورن بما قبله ولاسيما أيام السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ٦٥٨-٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٨ م ، والمنصور قلاوون ٦٧٨ - ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م ، والناصر محمد في سلطنته الثالثة ٧٠٩ - ٧٤١ هـ / ١٣١٠ - ١٣٤١ م . وذكر ابن شداد ان مدارس دمشق بلغت تسعون مدرسة أما في نيابة حلب التي أصبحت في عصر سلاطين المماليك محط أنظار علماء الشرق والغرب وشهدت نشاطاً علمياً منقطع النظير واهتماماً خاصاً في بناء المؤسسات العلمية والتعليمية ، ومن المدارس التي أنشأت في حلب المدرسة الدقاقية التي أنشأها مهذب الدين أبو الحسن علي بن فضل الله بن الدقاق سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ - ١٢٦٤ م<sup>١٦٨</sup>. والمدرسة الناصرية بناها السلطان الناصر محمد<sup>١٦٩</sup>، والمدرسة الصلاحية والمدرسة **السفاحية والكتاوية** ومدرسة ابن التغا والمدرسة الالجابية والمدرسة الكينوشية وغيرها الكثير من المدارس . (ذكر ابن شداد عز الدين محمد وجود ست وأربعين مدرسة في مدينة حلب وظاهرها)<sup>١٧٠</sup>. وكثرة المدارس في حلب انعكست بشكل واضح في اقتناء الكثير من البيوتات الحلبية للمكتبات مثل مكتبة ابن الشحنة وابن العديم وابن الخشاب وغيرهم<sup>١٧١</sup> ولم تكن حلب متفردة بذلك بل كانت المكتبات المملوكية تحتوي على كتب كثيرة في مختلف العلوم التي كانت في العصور الإسلامية ، والتي تلبي رغبات القراء من الفقهاء والعلماء والأدباء والأطباء والمهندسين وغير ذلك من العلوم<sup>١٧٢</sup>، وساعدت هذه العوامل وغيرها على تطور العلوم التطبيقية مثل الهندسة والطب والكيمياء التي استند إليها تطور العلوم العسكرية بشكل أو بآخر وإلى حد كبير . لذلك من المفيد الاطلاع على هذه العلوم ومدى تطورها في العصر المملوكي الأول ، لا سيما وأن الافتراض مازال قائماً أن هذا العصر الذي أتهم بالجهل مازال يحتمل وجود تطورا للعلوم ومنها العسكرية التي استندت

<sup>١٦٦</sup> - ابن شداد ( عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم ، ت ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م ) : الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة - تاريخ مدينة دمشق ، تح سامي الدهان ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ط ١ ، دمشق ، ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ م ص ١٩٩ - ٢٦٤ .

<sup>١٦٧</sup> - غوانمه ( يوسف درويش ) : تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي ، الهيئة العامة السورية للكتاب ، ط ١ ، دمشق ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢ م ، ص ٢٤٢ - ٢٨٩ .

<sup>١٦٨</sup> - ابن الشحنة ( محب الدين محمد ، ت ٨٨٥ هـ / ١٤١٢ م ) : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، تح عبد الله محمد درويش دار الكتاب العربي ، دمشق ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م ، ص ١٢٢ .

<sup>١٦٩</sup> - حمزه ( عادل عبد الحافظ ) : نيابة حلب في عصر سلطان المماليك ، جزءان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م ، ج ٢ ، ص ١٩٢ .

<sup>١٧٠</sup> - ابن شداد: الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٧٦ - ١٠٧ .

<sup>١٧١</sup> - الغزي ( كامل بن حسين بن محمد ) : نهر الذهب في تاريخ حلب ، تعليق وتصحيح شوقي شعث ، ومحمد فاخوري ، دار القلم ط ١ ، حلب ١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م ، ج ٢ ، ص ١٧٢ .

<sup>١٧٢</sup> - المقرزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣١٢ ، ٣١٦ ، ٣٢٩ . الحجي ( حياة ناصر ) : صور من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك ، دار القلم ، ط ١ ، الكويت ، ١١٤١٢ هـ / ١٩٩٢٢ م ، ص ١٩٠ - ١٩١ .

النيابيين ( علي سالم ) : نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك ، دار الفكر العربي ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ص ٣٥٣ .

إليها الانتصارات الكبيرة التي تحققت على الصليبيين والمغول ، وبالتالي يجب المضي لإيجاد الأدلة والبراهين التي تثبت ذلك ، ومن هذه العلوم علم العلوم المساعدة للعلوم العسكرية .

## ٢- العلوم المساعدة للعلوم العسكرية :

ومنها:

### أ - علم الهندسة :

عرفت الهندسة قديماً عند البابليين والمصريين القدماء إذ بنيت أبنيتهم وفق معرفتهم الهندسية آنذاك وتذكر الروايات أن العرب أخذوا الهندسة من اليونان عندما ترجموا كتاب إقليدس<sup>١٧٣</sup> في الهندسة مرتين الأولى عرفت بالهارونية نسبة إلى هارون الرشيد<sup>١٧٤</sup> والثانية المأمونية نسبة إلى المأمون<sup>١٧٥</sup> واختصر الكتاب من قبل عدة علماء مسلمون مثل ابن سينا<sup>١٧٦</sup> وثابت بن قره<sup>١٧٧</sup> وابن الصلت ، وفي كل تلك الاختصارات درسوا الكتاب بعناية وصححوا أخطاءه ونقدوها وأضافوا وابتكروا علوماً في الهندسة لم يعرفها من سبقهم مثل إقامة الجيوب مقام الأوتار ، وإدخال خطوط التماس في حل مسائل المثلثات ، وتطبيق الجبر على الهندسة ، وتم لهم ذلك بالتوفيق بين جبر الهنود ، وهندسة الإغريق وإيجاد الحلول للمعادلات المكعبة ، والتعمق في أبحاث المخروطات ، وغيرها من الابتكارات التي كان لها أهميتها العظمى في تطور علوم الرياضيات<sup>١٧٨</sup>. أما عن الهندسة في العصر المملوكي الأول فقد تم الاهتمام اهتماماً كبيراً بها للأسباب التالية:

- وجود الأرضية اللازمة بل والمتطورة لعلم الهندسية ، والدليل على ذلك تلك المفخرة التي عقدها القلقشندي بين أنواع العلوم وعدد فيها العلوم التي كانت موجودة وقد تجاوز عددها سبعين علماً كان من بينها علم الهندسة<sup>١٧٩</sup> :

<sup>١٧٣</sup> - إقليدس : مهندس وبحار يوناني قديم . من كتبه ( الأسطرشيا ) وهي كلمة يونانية معناها أصول الهندسة ، وقد ترجم هذا الكتاب وشرح كثيراً . ابن النديم ( محمد ) : الفهرست ، دار المعارف ، سوسة ، تونس ، ص ٣٧١-٣٧٢ .  
القفطي ( علي بن يوسف ، ت ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م ) : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مكتبة المتنبّي ، القاهرة ، د . ت . ص ٤٥-٤٦ .

<sup>١٧٤</sup> - هارون الرشيد : هو أبو عبد الله محمد المهدي ابن أبو جعفر المنصور عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي ، أبو محمد ، ويقال أبو جعفر ، وأمه الخيزران . مولده سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م ، وقيل أنه ولد سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م . بويع له بالخلافة بعد موت أخوه الهادي سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٧ م بعهد من أبيه المهدي ، قيل : أنه مات بطوس في جمادى الأولى وقيل في ربيع الأول سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م . ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٠ ، ص ٢٣٤-٢٤٣ .

<sup>١٧٥</sup> - المأمون : هو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد . ولد سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٧ م تولى المأمون الخلافة بعد مقتل أخيه سنة ١٩٨ هـ / ٨١٤ م واستمر في الخلافة عشرين سنة وخمسة أشهر ، وكان يحب العلم ، وتوفي سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م . ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٠ ، ص ٣٠٠-٣٠٧ .

<sup>١٧٦</sup> - ابن سينا : هو الحسين بن عبد الله بن سينا أبو علي ، شرف الملك ، ( ت ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م ) . ولد ابن سينا في قرية بخارى في خراسان ، وتوفي في همذان في إيران . وقد حفظ القرآن الكريم ودرس الدين والأدب والحساب والجبر في العاشرة من عمره وهو عالم موسوعي ، وله نظريات في الكيمياء وخاصة فيما يتعلق بنظرية بطلان تحويل المعادن إلى ذهب ، وهو طبيب ومن مؤلفاته الشفاء - الأدوية القلبية - النجاة - الإلهيات - الإكسير - أسرار الحكمة المشرفية . إسهامات الحضارة العربية والإسلامية من واقع المخطوطات العلمية بدار الكتب المصرية ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ٢٠٠٩ م ، ص ٦٤ ؛ سبانو ( أحمد غسان ) : ابن سينا في دوائر المعارف العربية ، دار قتيبه ، دمشق ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م ص ٩ وما بعدها .

<sup>١٧٧</sup> - ثابت بن قره : ت ٢٨٨ هـ / ٩٠٠ م . برع في الحساب ، والهندسة ، والفلك ، وهو الذي وضع أساس الهندسة التحليلية ، ومن مؤلفاته [ المثلث القائم الزاوية ] ، و [ مقال في الهندسة ] ، و [ استخراج المسائل ] ، و [ مسائل هندسية ] ، و [ إبطال الحركة في فلك البروج ] ، و [ تحليل مياه البحار ] ، وكتب أخرى . ابن النديم ، ج ١ ، ص ٢٧٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١١ ص ٨٥ .

<sup>١٧٨</sup> - مظهر ( جلال ) : الحضارة الإسلامية ، مركز الشرق الأوسط ، ط ١ ، القاهرة ، ص ٨٦ ، ص ٩٠ .  
<sup>١٧٩</sup> - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٢٠٦-٢٣١ .

- احتياج معظم العلوم الاجتماعية و الطبيعية إلى الهندسة مثل علم الفلك ، والحيل يحتاج إلى العلوم الهندسية ، والعلوم الطبيعية كذلك ، وكل العلوم الاجتماعية تحتاج بشكل ، أو بأخر إلى العلوم الهندسية وتطبيقاتها .

- علاقة الهندسة بالحياة اليومية واستخدامها في المجالات الصناعية والزراعية والعمارة والفنون والزخرفة والبناء وحفر الآبار والري واستخراج المياه وتوزيعها<sup>١٨٠</sup> وبناء القلاع والحصون والجسور وحفر الترع وشق الطرق إلى غير ذلك من الأمور التي فرضتها الحياة العسكرية على الدولة المملوكية الأولى حيث الحروب المستمرة التي تحتاج إلى أمور كثيرة أقلها تسليح الجيوش الذي يركز على إيجاد صناعات تحتاج إلى الهندسة بشكل أو بآخر ، وهنا لا بد من الاهتمام بالمهندسين وتشجيعهم واحتضانهم ماديا ومعنويا لكي يستطيعوا أن يواكبوا طبيعة تطور المهام القتالية وإيجاد الحلول للمسائل النظرية التي تفرضها الحروب وطبيعة الأسلحة والتكتيكات الحربية للقوات المعادية سواء عند الصليبيين أو المغول ، وهي كثيرة فعلى سبيل المثال : في سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤م توجه السلطان الظاهر بيبرس إلى الغربية ومنها إلى ثغر دمياط وزار البرزخ ورسم بعمل فم بحر دمياط وردمه وضيقه لمنع سفن العدو من دخوله<sup>١٨١</sup> ، واحتاج هذا العمل إلى مهندسين وفنيين - في لغة العصر الحاضر - وعندما أراد الظاهر بيبرس فتح حصن عكا كان لابد من تمهيد الطريق وتسويته من أجل أن يضمن وصول المنجنيقات<sup>١٨٢</sup> . أما القلاع التي كانت عملا هندسيا خالصا والتي اعتمدها الصليبيون أساسا في قتالهم فكان على القادة العرب المسلمون أن يجدوا حلا لمعضلة حصار تلك القلاع سيما وإن الصليبيين كانوا يبتكرون الحلول المناسبة عند كل معضلة حربية . ففي البداية بنيت القلاع على التلال والأرياف الصخرية وعندما استطاع المسلمون أن يصعدوا إلى أسوارها عن طريق السلام كانت تحسينات مهندسيهم عليها أن جعلوا واجهات الأسوار ذات نعومة فائقة تحول دون تثبيت السلام الأمر الذي أوجد صعوبات جديدة للقادة المسلمون وكان عليهم إيجاد حلول تتناسب مع الواقع الجديد فكان أن عمل المهندسون نفقا إلى تحت السور وجلبوا إليه الأحطاب وغير ذلك وأشعلوها فانهار السور أو جزء منه<sup>١٨٣</sup> وهكذا كان لابد من اصطحاب المهندسين في كل معركة لأنهم ( أي المهندسين ) سلاح كبقية الأسلحة وربما هم السلاح الأهم سواء لإيجاد الحلول الطارئة لمسائل كانت قد استجدت نتيجة المعارك أو الحصار أو غير ذلك ، أو لصناعة الأسلحة أو إصلاحها أو تركيبها في الوقت المناسب ، وتشبيد المنشآت وإقامة الآبار والجسور وغير ذلك في أيام السلم أو إصلاحها وتركيبها وإعادة ما تضرر منها ، والدليل على ذلك ما ذكره الكثير من المؤرخين مثل المقرئ الذي تحدث عن تدريس مادة الحساب في مدارس الطباق والتي تعد المقدمات الأولى لدراسة الهندسة<sup>١٨٤</sup> ، وابن تغري بردي وبيبرس الداودار وغيرهم ممن سيرد ذكرهم خلال البحث.

لكن من المفيد الوقوف عند بعض أسماء المهندسين في العصر المملوكي الأول للتدليل على أن هذا العلم كان معروفاً لا بل علما مزدهراً ، وبذلك تستكمل عناصر البحث في هذا المجال ولو باختصار ، ومن أسماء المهندسين اللامعة في ذلك العصر قيصر بن أبي القاسم بن عبد الغني بن مسافر بن حسان بن عبد الرحمن الأسفوني نعت بالعلم . كنيته أبو المعالي وعرف بتعاسيف توفي سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م كان عارفاً بالقراءات فقيها عالماً بالرياضيات واشتغل بها في الديار المصرية والشامية<sup>١٨٥</sup> قال ابن خلكان : قيل لي : لقد أتقن العلوم الرياضية . أقام قيصر

<sup>١٨٠</sup> - المقرئ : السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٧ .

<sup>١٨١</sup> - الداودار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٦٥ .

- المقرئ : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٧ .

<sup>١٨٢</sup> - الداودار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ص ٧٩ .

<sup>١٨٣</sup> - رانسيمان ( ستيفن ) : تاريخ الحملات الصليبية ( مملكة عكا ) ، تر نورالدين خليل ، القاهرة ، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م

ج ٣ ، ص ٤٣٢ .

<sup>١٨٤</sup> - المقرئ : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٤٩ .

<sup>١٨٥</sup> - السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٤٤٤ .

بحمّاء ، وأقبل عليه حاكمها<sup>١٨٦</sup> وأحسن إليه و ولاه تدريس النورية وعمل للسلطان كرة عظيمة صورّ عليها الكواكب المرصودة ، وعمل له طاحونا على العاصي ونقش عليه صورة أسد بارز القسّمات وحجز المياه بحواجز كي يعلم أصحاب الطاحونة كيفية تدوير الطاحونة في حالة فيضان النهر فعندما تغمر مياه نهر العاصي صورة الأسد يجب إيقاف دوران الطاحونة وعندما تنحسر المياه عن تلك الصورة يمكن تدويرها (تشغيل الطاحونة)<sup>١٨٧</sup> وبنى له أبراجاً وتحيل فيها بحيل هندسية<sup>١٨٨</sup> .

ومن انجازات قيصر الأسفوني أيضا إنشاءه لبعض القلاع ، والنواعير على نهر العاصي<sup>١٨٩</sup> وعندما فتح الظاهر بيبرس صغد سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٦م بنى في وسط قلعتها برجاً عرف ببرج الظاهر ارتفاعه مائة وعشرون ذراعاً ، وقطره سبعون ذراعاً ، وهو ثلاث مساكن ومخازن ومنافع وطاحونا تدور بواسطة الخيل ، وله حلزون بغير درج ممشاً عجيباً يتسع لثلاث فرسان صفاً واحداً يُصعد منه إلى السطح<sup>١٩٠</sup> ، ومن المهندسين الذين عرفوا في العصر المملوكي الأول ببيك بن عبد الله القبجاقى وقد تعرفنا عليه من خلال نسخة نسخها عن كتاب (علم الساعات والعمل بها) لرضوان الساعاتي (ت٦١٧هـ / ١٢٢٠م) حيث ذكر في نهايتها (( هذا ماكان مكتوباً في النسخة التي كتبت هذه الرسالة منها وهو خط المصنف ، وكتبها ببيك بن عبدالله القبجاقى لنفسه )) بمدينة القاهرة المعزى بالديار المصرية في مستهل شهر جمادى الأولى من سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م ثم ذكر تعليقا على كتاب الساعاتي يبين فيه معرفته بعلم الساعات الميكانيكية<sup>١٩١</sup> .

ومن المهندسين أيضا الحسين بن منصور أبو علي الأسناني ذكره ابن شمس الخلافة<sup>١٩٢</sup> فقال في وصفه : (( رجل أديب فاضل لبيب اشتغل بصناعة الطب فكان بها قيماً وعرف بالمعرفة فأصبح بها متمرساً يطرف جلسه بمحاسن العلم ويُعرب<sup>١٩٣</sup> في البحث عن كل خفي في المعارف مكتوم )) . وقال : حاضرته وذاكرته ، فرأيت رجلاً قد أخذ من كل معرفة قدحاً وافرأ ، واطلع من كل فضيلة نوراً باهراً مُردد الهمة بين الآراء الفاضلة المستقيمة من أفانين العلوم القديمة من فلسفة محموده ، وبصيرة سديدة ، وعلوم منطقية ، وصنائع هندسية ، ودقائق حسابية ومعارف نجومية ، وحقائق طبية وفضائل أدبية ، وخلاتق شرعية . قال ثعلب أن جعفر الأدفوي أظنه توفي في أوائل المائة السابعة<sup>١٩٤</sup> .

وأيضاً أبو زكريا يحيى بن محمد بن اللبودي المتوفى سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م ، وله كتاب سماه مختصر كتاب إقليدس ، ومنهم شمس الدين محمد بن أشرف الحسيني السمرقندي من رياضيي القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، وله كتاب إشكال التأسيس في الهندسة ، وهو خمسة وثلاثون إشكالا من كتاب إقليدس .

أما ابن غنائم وهو إبراهيم بن غنائم بن سعيد كان أحد مهندسي العصر المملوكي الأول وكان قريباً من السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ، وشيد له بعض الأبنية لاسيما في دمشق حيث عرف من خلال اسمه الذي مازال محفوراً على العمائر التي بناها<sup>١٩٥</sup> ، ومنها القصر الأبلق

<sup>١٨٦</sup> - حاكم حماة آنذاك هو : الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذي وهو مؤرخ وجغرافي ولد في جمادى الأولى سنة ٦٧٢هـ وقال ابن قاضي شبهه اشتغل في العلوم وتفنن فيها وصنف التصانيف المشهورة = وكان الملك الناصر يكرمه ويحترمه ويعظمه ، وكان المؤيد يحب العلماء ويجالسهم ، توفي يوم الخميس ٢٨ محرم سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م .

<sup>١٨٧</sup> - حميدان : أعلام الحضارة الإسلامية ، ج ٤ ، ص ١٣٨ .

<sup>١٨٨</sup> - الإدفوي : الطالع السعيد ، ص ٤٧٠ .

<sup>١٨٩</sup> - حميدان : أعلام الحضارة الإسلامية : ج ٤ ، ص ١٧٨-١٧٩ . النهار : الحياة الفكرية ، ص ٣٥٣ .

<sup>١٩٠</sup> - زكار ( سهيل ) : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، دمشق ، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م ، ج ٥٤ ، تاريخ صفد ص ١٢٩ .

<sup>١٩١</sup> - الساعاتي ( رضوان ) : علم الساعات والعمل بها ، تح محمد أحمد دهمان ، ص ٢٩٠ . النهار : الحياة الفكرية ، ص ٣٥٣ .

<sup>١٩٢</sup> - هو مجد الملك أبو الفضل جعفر بن محمد بن شمس الخلافة الأفضلي الشاعر . ولد في محرم سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٩م ، وتوفي في الثاني عشر من محرم سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م . الإدفوي : الطالع السعيد ، ص ١٨٨ ، الحاشية رقم ٥ .

<sup>١٩٣</sup> - في معجم الأطباء ( يعرف ) وهو تحريف ، ويعرب في اللغة بمعنى يشرح ، أو يوضح ، أو يفصح .

<sup>١٩٤</sup> - الإدفوي : الطالع السعيد ، ص ٢٣٠ .

<sup>١٩٥</sup> - باشا ( أحمد تيمور ) : أعلام المهندسين في الإسلام ، مطابع دار الكتاب العربي ، ط ١ ، القاهرة ، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م ، ص ٥٠ .

بالقرب من القلعة ، وضريح السلطان الظاهر بيبرس بدمشق ، حيث لازال اسمه منقوش فوق بابيه ويعرف اليوم بالمدرسة الظاهرية<sup>١٩٦</sup> ، وقد لقب أولاده بأبناء المهندس نسبة له ، ومن مهندسي ذلك العصر أيضا المهندس أبي حاتم المظفر بن إسماعيل الاسفزازي ، وله كتاب مختصر هندسة إقليدس ، سماه اختصار لأصول إقليدس .

ومن الذين ذكر اسمهم بين المهندسين في العصر المملوكي الأول محمد بن أحمد بن صالح بن صارم بن مخلوف الخزرجي القوسي محتداً الفيومي مولداً . حل إقليدس على الزين المصري وذكره حاجي خليفة باسم إقليدس في أصول الهندسة ، والحساب<sup>١٩٧</sup> . ( توفي في الفيوم سنة ٧١١هـ/١٣١١م )<sup>١٩٨</sup> .

ومن الأسماء التي تذكر أيضا المؤرخ الكبير محمد بن سالم بن واصل المتوفى سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م الذي برع في أمور ثقافية كثيرة منها الهندسة ، وقد كتب في هذا الاتجاه وترك مؤلفات كثيرة لكن أكثرها قد ضاع<sup>١٩٩</sup> . وأخبرنا أبو الفداء ( ت ٧٣٢هـ/١٣٣٢م ) أنه زاره مراراً فقال : كنت أعرض عليه ما أحله في إشكال كتاب إقليدس ، واستفيد منه<sup>٢٠٠</sup> .

وترك ابن واصل كتاباً في الهندسة سماه ( شرح أشكال التأسيس في الهندسة لإقليدس )<sup>٢٠١</sup> كما أتقن ابن الشاطر<sup>٢٠٢</sup> ( وهو علي بن إبراهيم بن محمد الأنصاري أبو الحسن علاء الدين المعروف بابن الشاطر ) علوم الهندسة ، والفلك ، والرياضيات ، وكان مبدعاً في علم الساعات وهو من أهل دمشق ، ومن كتبه [ الأشعة اللامعة في العمل بالأدلة الجامعة ] ، و [ نزهة السامع في العمل بالربيع الجامع ] ، و [ النفع العام في العمل بالربيع التام لمواقيت الإسلام ] ، و [ الثمار اليانعة من قطوف الأدلة الجامعة ] ، و [ كشف المغيب في الحساب بالربيع المجيب ] وكتب أخرى<sup>٢٠٣</sup> . قال ابن قاضي شهبه : « أن ابن الشاطر أخذ علم الهيئة والحساب والهندسة عن ابن عم أبيه واسمه علي بن إبراهيم أيضا ، ثم توجه إلى الإسكندرية ، فأخذ هذه العلوم عن أهلها وأتقنها ، وأتقن علم الفك [ وهذا يدل على أن مدينة الإسكندرية هي معلم من معالم العلوم التطبيقية في ذلك العصر ] ، ويتابع قائلاً : وصار ابن الشاطر أوحده زمانه في ذلك ما اجتمع به أحد من أهل هذه العلوم إلا أقر له في ذلك ، وكان مع ذلك لا يظهر شيء من ذلك ، ولا يتصدى للتعليم ، وكانت له ثروة ومباشرات ، وعنده حشمة وهو الذي وضع الرخامة بمأذنة العروس »<sup>٢٠٤</sup> .

ومن الأسماء التي لمعت في علم الهندسة في ذلك العصر نصير الدين الطوسي المتوفى سنة ٦٧٢هـ / ١٢٧٤م ، وقد استطاع تصحيح نظرية إقليدس الخاصة بالفراغ المطلق .

ومن الأسماء التي لمعت في هذا العلم الطبيب الكحال ابن الأكفاني ، وقد كان طبيباً ومهندساً وأديباً قال عنه الصلاح الصفدي « كان إماماً في الهندسة والهيئة وله في ذلك تصانيف وأوضاع مفيدة »<sup>٢٠٥</sup> ، وشمس الدين محمد بن إبراهيم بن لاجين ، ت سنة ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م

١٩٦ - زكي ( عبدالرحمن ) : تراث القاهرة العلمي والفني في العصر الإسلامي ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ، ص ٩٩ .

١٩٧ - حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص ١٣٧ .

١٩٨ - الإدفي : الطالع السعيد ، ص ٤٨٧ .

١٩٩ - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٤ .

٢٠٠ - أبو الفداء : المختصر ، ج ٧ ، ص ٤٧ .

٢٠١ - حميدان : أعلام الحضارة العربية والإسلامية ، ج ٤ ، ص ٢٣٧ .

٢٠٢ - ابن الشاطر : هو عالم فلكي دمشقي كما برع في علم الهندسة وهو من علماء العصر المملوكي ، عاش في القرن السابع الهجري / الرابع عشر الميلادي ، وهو الذي اخترع الساعة الميكانيكية . ابن قاضي شهبه ( تقي الدين أبي بكر بن أحمد بن قاضي شهبه الأسدي الدمشقي ، ت ٨٥١هـ / ١٤٤٧م ) : تاريخ ابن قاضي شهبه ، تح عدنان درويش ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، الجفان والجابي للطباعة والنشر ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م ، ج ٣ ، ص ٢ ، ص ٤٩٤ ؛ الجابي ( بسام عبد الوهاب ) : معجم الأعلام ، الجفان والجابي للطباعة والنشر ، ط ١ ، دمشق ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ص ٥٠٦ . النهار : الدراسات النظرية الجديدة في عصر دولة المماليك البحرية ، مجلة دراسات تاريخية ، دمشق ، منشورات جامعة دمشق ، العددان ١١٧-١١٨ ، ١٤٣٣هـ / ٢٠١٢م ، ص ٢٧٧ .

٢٠٣ - ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٦ ، ص ٢٥٢ . حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص ١٠٥ ، ص ٣٦٦ .

٢٠٤ - ابن قاضي شهبه : تاريخ ابن قاضي شهبه ، ج ٣ ، ص ٢ ، ص ٤٩٤ .

٢٠٥ - ابن قاضي شهبه : ج ٣ ، ص ٢ ، ص ٦٢٦ .

وكان قد برع في الميقات وعلم الحساب<sup>٢٠٦</sup> ، وكذلك محمد بن محمد أمين الدين ابن النحاس المتوفى سنة ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م والذي أتقن علوم كثيرة منها الحساب<sup>٢٠٧</sup> ، وكذلك حسن بن الجنائي المتوفى سنة ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م وكان عارفاً بالحساب والمساحة ، وقال عنه ابن قاضي شهبة : « أنه لم يخلف مثله في ذلك »<sup>٢٠٨</sup> . ومنهم محمد بن محمد بن عبد الواحد بن فتح الدين المعروف بابن المفسر والمتوفى سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م وكان يتولى العمائر للسلطان والأكابر والعلماء لعلمه بالحساب والهندسة<sup>٢٠٩</sup> .

ومنهم أيضاً الفتح بن محمد أبي سعيد الحسيني المدعو بتاج السعدي الذي قام بشرح وتوضيح كتاب الأشكال في الهندسة للسمرقندي السالف الذكر ، كما قام بشرح كتاب ملخص في الهندسة لمحمود الخوارزمي ، والقائمة قد تطول ومثل هذا السرد مدعاة للملل لكن يمكن القول : إنَّ هناك الكثير من الأسماء الأخرى التي لمعت في هذا الاختصاص ، وهذا يدل على مدى التقدم الكبير الذي شهده هذا الفرع من العلوم التطبيقية الذي تحتاجه الجيوش في كل معركة ، وفي كل حرب بالقدر نفسه الذي تحتاجه في الإعداد والتحضير لكل معركة ، وكل حرب . مثله مثل بقية الأسلحة كالكيمياء وغيره .

### ٣- علم الكيمياء :

عرفت الكيمياء عند العرب في البداية باسم علم الصنعة ويعتقد الخوارزمي إن اسم الكيمياء عربي مشتق من كمي يكمي إذا استمر وأخفى وهذا يتفق مع صناعة الكيمياء التي اعتمدت على الكتمان لكون هدفها تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن شريفة<sup>٢١٠</sup>

تعلم العلماء العرب والمسلمين علم الكيمياء وأرسوا قواعده وأصوله العلمية مما سمح بأن يتقدم علم الكيمياء قدماً وبخطوات ثابتة واضحة المعالم . أولى ملامحها التجربة التي تعد بحق خطوة رائدة في عالم العلوم التطبيقية إلى يومنا الحاضر . فاستطاع العرب معرفة التقطير والترشيح والتحويل والتذويب والتبلور واكتشفوا الكحول والقلويات ونترات الفضة والزرنيخ<sup>٢١١</sup> وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) وماء الفضة (الحامض النتري) وماء الذهب واستخدموا الكيمياء في استخراج المعادن وصنع الفولاذ ودباغة الجلود وصناعة الورق والصابون وصنع الزجاج إلى غير ذلك<sup>٢١٢</sup> . لكن السؤال الذي يطرح هل للكيمياء علاقة بالعلوم العسكرية وتطبيقاتها ؟ ببساطة نعم – فاستخراج المعادن وصنع الفولاذ هما أساس صناعة الأسلحة ، ويتطور استخراج هذه المعادن ، ونقاءها يكون تطور الأسلحة ، غير أن الشيء المهم في الموضوع هو اكتشاف مركبات جديدة عبر استخدام البحوث الكيميائية واستخدام هذه المركبات لتطوير سلاح

<sup>٢٠٦</sup> - ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة ، ٣م ، ج ٢ ، ص ١١٠ .

<sup>٢٠٧</sup> - ابن قاضي شهبة : ٣م ، ج ٢ ، ص ١١١ .

<sup>٢٠٨</sup> - ابن قاضي شهبة : ٣م ، ج ٢ ، ص ٤٩٠ .

<sup>٢٠٩</sup> - ابن قاضي شهبة : ٣م ، ج ٢ ، ص ٥٣٤-٥٣٥ .

<sup>٢١٠</sup> - الخوارزمي ( محمد ) : مفاتيح العلوم ، تج نهى النجار ، دار الفكر ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، ص ٢٥٧ .

- النهار ( عمار ) : الحياة الفكرية ، ص ٣٦٠ .

<sup>٢١١</sup> - الزرنينج كلمة عربية الأصل وهو معدن قديم أشتقت منه أدوية طبية عديدة لها أثر فعال في الطب . البغدادي ( عبد الله بن قاسم الحريري الاشيلي البغدادي ) : نهاية الأفكار ونزهة الأبصار ، تج حازم البكري ، ومصطفى شريف ، دار الرشيد ، ط ١ ، القاهرة ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م ، ص ١٥٥ .

<sup>٢١٢</sup> - الهاشمي ( رحيم كاظم ) وسنقارو ( عواطف محمد ) : الحضارة العربية الإسلامية – دراسة في تاريخ النظم ، الدار المصرية اللبنانية ، غريان – ليبيا ، المكتبة الجامعية ، د . ت ، ص ١٩٧ .

النفوط ، وهذا الموضوع سيتم البحث فيه بالتفصيل في مكان آخر . لكن المهم هنا القول إن لهذا العلم دور كبير في تطور الأسلحة بل يعد في مكان ما أحد العلوم العسكرية الهامة .

والسؤال الآخر هو هل كان علم الكيمياء متطوراً في العصر المملوكي الأول ؟

الإجابة على هذا السؤال من خلال البحث عن أهم العلماء الذين ذُكرت أسماؤهم في أمهات الكتب ، والمصنفات من خلال ما ترك هؤلاء من آثار سواء كتب ، أو رسائل ، أو غير ذلك لم تذكر لنا المصادر التاريخية الكثير من الأسماء التي اشتغلت بالكيمياء على الرغم من الإشارات إلى النقلات النوعية في تطور الأسلحة في ذلك العصر – فقد استخدمت النيران [ أشكال وأنواع جديدة غير التي كانت معروفة ، وتحديث الكثير من المؤرخين عن ذكر الدخان والغازات ، واستخدام المركبات الكيميائية لإنتاج مواد جديدة مؤثرة في هذا الاتجاه ، أو ذلك مما يدل على أن العلوم بشكل عام كانت تتطور بشكل ملحوظ ، ومنها علم الكيمياء .

ومن الأسماء التي لمعت في علم الكيمياء في العصر المملوكي الأول نذكر : الداودار أيبك بن عبد الله المتوفى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م ، وكان من المقربين جداً عند الخليفة المستعصم بالله العباسي . كان يقول : لو مكنتي الخليفة لقهرت هولاًكو .

وكان أيبك المذكور مغرمًا بالكيمياء ، وكانت داره أشبه بالمدرسة المتخصصة بهذا العلم وكان بها رجالاً يعملون في هذه الصنعة<sup>٢١٣</sup> ، وكونه كان عسكرياً اتصف بالشجاعة والأقدام والرأي الجيد ، والتدابير الحسنة ، وفي الوقت نفسه كان مغرمًا بعلم الكيمياء ، ربما عمل في تطوير الأسلحة النارية الجديدة ، وهذا الأمر غير مؤكد إنما هو استنتاج خاص تنقصه الأدلة الوثائقية التي قد تظهر في يوم ما لأن المصادر التي بين أيدينا لم يرد بها ما يؤيد هذا القول سوى أنه كان مغرمًا بالكيمياء ، وكان لديه ما يشبه الورشة من الرجال يعملون في تلك الصنعة .

ومنهم ابن سبعين المتوفى سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م ، وهو عبد الحق بن إبراهيم بن نصر ابن محمد بن نصر بن محمد بن سبعين قطب الدين أبو محمد المرسي المرقوطي . حيث قال عنه الصفدي : وقد اجتمعت بأصحاب أصحابه ، وأتيتهم ينقلون عن أولئك : أن ابن سبعين كان يعرف بالكيمياء<sup>٢١٤</sup> .

- ومنهم أيضا علي بن أيدير بن علي الجلدي أختلف في اسمه ، واسم أبيه فمرّة هو عز الدين الكيميائي حكيم ، ومرّة هو علي بن أيدير، ومرّة هو علي بن محمد بن أيدير الجلدي أما نسبته فهي نسبة إلى قرية جلدك وهي من قرى خراسان على مسافة فرسخين من مشهد الرضا<sup>٢١٥</sup> .  
تنقل بين دمشق التي ألف فيها أحد كتبه سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م وبين القاهرة التي استوطن بها ومات فيها أيضا سنة ٧٦٢هـ/١٣٦٠م وقيل : انه مات سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م . ذكر صاحب كشف الظنون أسماء الكتب التي ألفها الجلدي كما يأتي :

١ - البدر المنير في خواص الأكسير .  
٢- البرهان في أسرار علم الميزان (مخطوط) وهو كتاب كبير في أربعة أجزاء كبيرة وكتاب جابر بن حيان في الأجساد وحل فيه غالب كتب الموازين لجابر .  
٣- المصباح في علم المفتاح جاء فيه: (( قد أشار جابر فيما يزيد عن ثلاثة آلاف كتاب في طرق مختلفة من المفتاح وجعلنا الحاصل الذي جمعناه في كتب الخمسة المطولة التي هي نهاية الطب والتقريب وغاية السرور والبرهان وكنز الاختصاص ، وجعلنا خلاصة الخمسة في هذا الكتاب )) .

أما كتاب الفهرس التمهيدي قال فيه : إن الآثار التي تركها هي ثمانية ، فإضافة إلى ما ذكر عند صاحب كشف الظنون نذكر في كتاب الفهرس التمهيدي للمخطوطات المصورة حتى سنة ١٣٦٦هـ/١٩٤٧م<sup>٢١٦</sup> . - نهاية الطلب في شرح المکتب في زراعة الذهب .

<sup>٢١٣</sup> - ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٣ ، تح نبيل محمد عبد العزيز ، ص ١٢٧-١٢٨ .

<sup>٢١٤</sup> - ابن تغري بردي : ج ٢ ، تح محمد محمد أمين ، ص ٢٩٥ .

<sup>٢١٥</sup> - حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٢٣٠ ، ص ٢٤١ .

- كتاب البرهان .
- كتاب التقريب .
- الجوهر المنظوم والدور المنثور في شرح ديوان الشذور .
- درة الخواص وكنز الاختصاص في معرفة الخواص .
- أما صاحب كتاب هدية العارفين بأسماء المؤلفين وأثر المصنفين قال : أن الجلدي ترك اثنتين وعشرين كتاباً في الكيمياء<sup>٢١٧</sup> .
- وكثيرة هي الأسماء التي ذكرت دون التفاصيل ، ومن الأسماء أيضاً بكتوت بدين الدين القرماني<sup>٢١٨</sup> المتوفى سنة ١٣٤٨هـ/٧٤٩م ، هكذا ورد اسمه ، ولعله بدر الدين ، وكان من مماليك المنصور قلاوون الألفي ، ثم علت منزلته عند المظفر بيبرس - تنقل القرماني بين الشام ، ومصر وتعرض في حياته للسجن . اشتغل بالكيمياء ، وبرع فيها ، وذكر ابن حجر العسقلاني عن ذلك بقوله : (( وكان مغرماً بالمطالب والكيمياء ))<sup>٢١٩</sup> بل أن الصفي ذكر أنه بقي يشتغل في الكيمياء حتى أعتقله<sup>٢٢٠</sup> .
- ومن كيميائي ذلك العصر إبراهيم بن عبدالله الخلاطي<sup>٢٢١</sup> ت ١٣٩٦هـ/٧٩٩م كان مقيماً في حلب ، ثم استحضره السلطان إلى مصر ، وظل فيها إلى أن توفي بمنزله على شاطئ النيل اشتغل بالكيمياء ، ومهر في صنعه وترك بعد وفاته أشياء من آلات الكيمياء<sup>٢٢٢</sup> .
- وهناك الكثير من الأسماء التي لم يذكرها المؤرخون على أنهم كيميائيين إنما تركوا في آثارهم الكثير من الأمور التي تدل على أنهم اشتغلوا في هذه الصناعة ومنهم :
- حسن الرماح : (( وهو نجم الدين حسن الرماح المعروف بالأحذب ت ٦٩٥هـ ))
- الذي تحدث في مخطوطته الفروسية والمناصب الحربية عن النيران من الصفحة ٧٥ ، وحتى الصفحة ٩٢ قد يكون جمعها ، وذكرها في مخطوطته المذكورة لكنه في الأخير كتب أبواباً سبق فيها الكثير من في هذا المجال ، وأعطى وصفات للاشعالات النارية ( عمل بارود - أو أشياء تشتعل ) ، وقال عن بعضها مجربة ، وكتب مقاديرها وكيفية العمل بها<sup>٢٢٣</sup> .
- ومنهم الأقسرائي محمد بن عيسى بن إسماعيل بن خسرو شاه المتوفى سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م في كتابه نهاية السؤل والأمنية في تعلم أعمال الفروسية الذي حققه سهيل زكار ، وأورده ضمن العمل الكبير الموسوعة الشامية .
- وفيه أورد المؤلف باباً خاصاً في المكائد الحربية ، وتسليط النيران ، والدخاخين ، ووصفات كثيرة لصناعة الأشياء يمكن بواسطتها أن تهدم حصناً حيث قال في أحد الوصفات : (( إذا أردت

<sup>٢١٦</sup> - الفهرس التمهيدي للمخطوطات المصورة حتى أواخر تشرين ١٩٤٧م : طبع استنبول ، جامعة الدول العربية - الأمانة العامة ص ٢٢١ ، ص ٥١٤-٥١٥ .

<sup>٢١٧</sup> - البغدادي ( إسماعيل ) : هدية العارفين بأسماء المؤلفين وأثر المصنفين ، طبعة اسطنبول ١٣٧١هـ / ١٩٥١م ، أعيد طبعه بالأفست ، تبريز ، المكتبة الإسلامية الجعفرية ، ط ٣ ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ، ص ١ وما بعدها .

<sup>٢١٨</sup> - بكتوت بدين الدين القرماني : ت سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م ، وهو أحد مماليك المنصور قلاوون الألفي . ولي شد الدواوين بدمشق وحبسه الملك الناصر محمد بن قلاوون مدة من الزمن لأنه كان من أصحاب المظفر بيبرس الجاشنكري ، ثم أطلقه ، وهو أحد الأمراء ممن ناب بحمص ، وصار أحد الطبليخانة ، وكان مغرماً بالمطالب والكيمياء على الرغم من كثرة أمواله . السخاوي : الذيل التام ، ص ١٠٦ .

- ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٨٧ .

<sup>٢١٩</sup> - ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٢٢ . ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة ، ج ٢ ، ص ١ ، ص ٦٢٦ .

<sup>٢٢٠</sup> - ابن الصفي ( خليل بن أبيك ، ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م ) : أعيان العصر وأعوان النصر ، تح محمد أبو زيد وآخرون ، بيروت دار الفكر ، دار الفكر ، ط ١ ، دمشق ، د . ت ، ص ٢١٢ .

<sup>٢٢٠</sup> - ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ٢٣ .

<sup>٢٢١</sup> - إبراهيم بن عبد الله الخلاطي : ولد سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م . برع في عدة فنون قدم إلى حلب . كان قوي النفس فعظم عند أهل الدولة وعرف عنه إتقان الطب وغيره من الفنون فيبلغ خبره إلى الظاهر فاستحضره من حلب وعظمه ، وكان ينسب إليه عمل الكيمياء والمشهور أنه كان يتقن صناعة اللازورد ، وحصل منها مالاً جماً . انظر : ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٢٥ .

<sup>٢٢٢</sup> - ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي ، ج ٣ ، ص ٣٣٧-٣٣٨ .

<sup>٢٢٣</sup> - الرماح ( نجم الدين حسن ت ٦٩٥هـ / ١٢٩٦م ) : الفروسية والمناصب الحربية ، مخطوط ، دار الأسد رقم المكرو فيلم م ف / م / ١٣٧٠ / ، ورقة ٧٥-٩٢ و ظ .



أن تهدم حصنا ، أو حائطا من البناء المحكم ، فمر الزراقين ممن له معرفة بهذا الفن أن يأخذوا من هذا الماء المدبر في الصناعات ، ثم يرمون ذلك على المكان الذي تريد هدمه ، أو إحراقه ثم دع النفاطين أن يرموا بالنار ، فإذا شمت النار روائح هذا الماء المدبر زاد شعاعها وتلهبها ، وسمعت لها قعقة عظيمة ، ودوي شديد ، وترى أشياء هائلة لا يمكن للإنسان أن ينظر إليها<sup>٢٢٤</sup> ((

ومنهم ابن أرنبغا الزردكاش الذي أفرد عدداً كبيراً من الصفحات من - الصفحة ٨٩ إلى الصفحة ١٠٩ - من مخطوطته للتحدث عن النفوط ، و العيارات النفطية<sup>٢٢٥</sup> ، وقد حاول المقريري أن يدلي ببلوه في هذا المجال ، فكتب رسالة في المعادن ، والتحويلات التي تحصل عليها نتيجة التأثيرات الخارجية . انظر الملحق رقم ١ .

ومثل هؤلاء ، وغيرهم الكثير في العصر المملوكي الأول الذين أسهموا في تطور العلوم العسكرية ، وأسلحتها ، ومنها السلاح الكيميائي والتي كان له القول الفيصل في الكثير من المعارك التي خاضها الجيش في العصر المملوكي الأول الذي شهد نهضة علمية حقيقية ليس في مجال الكيمياء فقط بل وفي الطب والصيدلة وغيرها من العلوم .

#### ٤- علم الطب :

عرف العرب الطب قبل الإسلام ، لكن معرفتهم كانت مبنية على الملاحظة أولاً ، وعلى التجربة ثانياً ، واستخدموا العقاقير ، والأعشاب الصحراوية ، والفصد والكي بالنار وعندما جاء الإسلام طور هذه المعرفة ، فأفاد من تراث الأمم المجاورة (( تخرج الحارث بن كلده<sup>٢٢٦</sup> من مدرسة جند يسابور الطبية في الأحواز التي أنشأها كسرى في منتصف القرن السادس الميلادي ))<sup>٢٢٧</sup> ، ثم انتشرت المعارف الطبية ، وتطورت ، وازدهرت ، وعرفت البيمارستانات<sup>٢٢٨</sup> وزاد عدد الأطباء إلى درجة أنه وصل عدد الذين تقدموا لامتحان الطب في أيام المقتدر بالله<sup>٢٢٩</sup> نحو تسعمائة طبيب وهم غير الأساتذة الثقات الذين تجاوزوا مرحلة الامتحان<sup>٢٣٠</sup>

وانطلاقاً من ذلك فقد تم البناء على هذه المنجزات ، فشهد العصر المملوكي الأول نهضة علمية تم التحدث عن بعض جوانبها سواء في مجال الهندسة ، أو الكيمياء . أما الطب فلم يكن خارج

<sup>٢٢٤</sup> - الأفسرائي ( محمد بن عيسى بن إسماعيل بن خسرو شاه ، ت ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م ) : السؤل والأمنية في تعلم أعمال الفروسية ، تح

سهيل زكار ، دار الفكر ، ط ١ ، دمشق ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م ، ص ٤٩٦ - ٤٩٧ .

<sup>٢٢٥</sup> - ابن أرنبغا : الأنيق في المنجنيق ، ص ١٦٩ - ٢٠٧ .

<sup>٢٢٦</sup> - ابن أبي أصيبعة ( أبي العباس أحمد بن القاسم ، ت ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م ) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، دار الكتب العلمية

ط ١ ، بيروت ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م ، ص ١٤٥ .

<sup>٢٢٧</sup> - الهاشمي ( رحيم كاظم ) و سنقارو ( عواطف محمد ) : الحضارة العربية الإسلامية ، ص ١٨٩ .

<sup>٢٢٨</sup> - ج بيمارستان : وهو مستشفى لمعالجة المرضى ، وإقامتهم ، وبيمارستان لفظ فارسي مركب من : بيمار أي مريض ، وستان أي محل ، ويقال له بالتركزية خسته خانه أي محل المرضى ، ويطلق البيمارستان على المحل المعد لإقامة المجانين أيضاً . =

= ابن عبد الظاهر : تشریح الأيام والعصور ، ص ٥٥ ، هامش ٥ . المقريري : السلوك ، ج ١ ، ص ٧١٦ .

<sup>٢٢٩</sup> - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٦ ، ص ٤٣٨ . البكجري ( علاء الدين مغطاي بن قلنج بن عبد الله ، ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٤م ) :

مختصر تاريخ الخلفاء ، تح أسيا كليان علي البارح ، دار الفجر للنشر والتوزيع ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

ص ١٣٣ - ١٣٥ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ .

<sup>٢٢٤</sup> - المسعودي ( علي بن الحسين ، ت ٣٤٦هـ / ٩٥٨م ) : مروج الذهب ومعادن الجوهر اختار النصوص وقدم لها قاسم وهب

منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ١٤٠٧هـ / ١٩٨٩م ، السفر الثالث ، ص ٣١٤ - ٣٢٣ . ابن الطقطقا : الفخري في الآداب

السلطانية والدول الإسلامية ، ص ٢٦٠ .

<sup>٢٣٠</sup> - الهاشمي ( رحيم كاظم ) و سنقارو ( عواطف محمد ) : الحضارة العربية الإسلامية : ص ١٩٠ .

هذا الإطار بل شهد مثل غيره تطوراً ملموساً كبيراً ، فظهر علماء لا يشق لهم غبار وقدموا أبحاثاً أحدثت ما يشبه الثورة في ميدان الطب .

علق أحدهم على روعة ذلك العصر بقوله : إذا كان مؤرخو الطب قد أطلقوا اسم العصر الذهبي على الأيام التي ظهر فيها أبي بكر محمد زكريا الرازي<sup>٢٣١</sup> حق لنا بكل فخر واعتزاز أن نطلق على زمان ابن النفيس العصر الماسي للطب العربي<sup>٢٣٢</sup> .

حيث بدأت العلوم الطبية في ذلك العصر - تأخذ أبعاداً جديدة ، وتنتج إبداعات رائعة وذلك لاعتماد تلك العلوم على التجربة ، والطب السريري ، فاستطاع ابن النفيس ( ٦٠٦ - ٦٨٧ هـ / ١٢١٠ - ١٢٨٨ م )<sup>٢٣٣</sup> مثلاً الوقوف على أخطاء جالينوس<sup>٢٣٤</sup> بعد تجارب طويلة واستقصاء جديد فهاجمه ، وتجاهل الكثير من آرائه في الوقت التي كانت آراؤه خطوطاً حمراً لا يستطيع أحد تجاوزها أو تجاهلها ، أو القفز من فوقها .

ولم يقف ابن النفيس عند حدود نقد جالينوس بل فضل عليه أبقراط<sup>٢٣٥</sup> .  
بهذه الجرأة والثقة بالنفس والمنهجية العلمية أستطاع ابن النفيس أن يكتشف الدورة الدموية الصغرى مخالفاً آراء جالينوس ومن تبعه من الأطباء ، ولاسيما ابن سينا<sup>٢٣٦</sup> ، وقد شرح هذا الاكتشاف العلمي الكبير في كتابه ( شرح تشريح ابن سينا ) .

كان الأطباء قبل ابن النفيس يرون أن قلب الإنسان له ثلاث بطينات ، وأن فيه كما قال جالينوس : أقسام دقيقة يخرج الدم بواسطتها من تجويف القلب الأيمن إلى تجويف القلب الأيسر فنقض ابن النفيس هذه النظرية ، وأثبت أن قلب الإنسان له بطينتان فقط ، و لا توجد أية أقسام يخرج منها الدم من التجويف الأيمن إلى الأيسر .

كان ابن النفيس أول من قال : أن الدم ينقى في الرئتين بعد أن يأتي إليهما من البطين الأيمن ثم ينتقل من الرئتين إلى البطين الأيسر ، فكان بذلك قد سبق الأوربيان ( ميشيل سرفيتسن ٩١٧ هـ - ٩٦٠ هـ / ١٥١١م - ١٥٥٣م ) ، ( وريالدو كولوندر ٩٦٦ هـ / ١٥٥٩م ) في هذا الكشف بثلاثة قرون ، وشرح ذلك في كتابه شرح تشريح القانون . والجدير بالذكر أن ابن النفيس كرر آراءه في الدورة الدموية الصغرى في خمسة مواضع من كتابه مما يدل على أنه فهمها فهما لا يشوبه شك ، أو التباس<sup>٢٣٧</sup> .

٢٣١ - عن أبي بكر محمد بن زكريا الرازي - ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٣٧٩- ٣٩٢ . عاش ابن النفيس ما بين ٦٠٦ - ٦٨٧ هـ / ١٢١٠ - ١٢٨٨ م .

٢٣٢ - محاضرات مؤتمر الصوفي وابن النفيس : الجامعة الأردنية ، ١٩٨٧ م ، دار الفكر ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩١ م ، ص ٦٢ .

٢٣٣ - ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٤٠١ - ٤٠٢ . العيس ( سالم سليمان ) : المعجم المختصر للوقائع التاريخية العسكرية - الاجتماعية - الدينية من بدء الهجرة حتى عام ١٩٥٠ م ، دار النمير ، ط١ ، دمشق ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م ص ٣٦٨ .

٢٣٤ - جالينوس طبيب يوناني - صنف في الطب كتب كثيرة كشف فيها عن مكنون هذه الصناعة وأفصح عن حقائقها ونصر القول الحق فيها - مولده بعد المسيح بتسع وخمسون سنة على ما أرخه اسحق وقال المسعودي بمئتي سنة . أنظر : ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ٩٢- ٩٨ .

٢٣٥ - أبقراط طبيب يوناني ترجع مكانته إلى أنه أول من دون علم الطب فهو بذلك صاحب أقدم مؤلفات طبية بغض النظر عن البرديات الفرعونية - ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٤٣ والتي تليها .

٢٣٦ - ابن سينا : هو الشيخ الرئيس أبو علي بن عبدالله بن سينا الحكيم المشهور ، كان أبوه من أهل بلخ ، وانتقل منها إلى بخارى وكان من العمال الكفاة ، وفي إحدى قرى بخارى واسمها أفشنة ولد الشيخ الرئيس . ابن خلكان ( أحمد بن محمد ، ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م ) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تح إحسان عباس ، دار صادر ، ط٤ ، بيروت ، د . ت ، ج ١ ، ص ١٥٣ .

٢٣٧ - حداد ( سامي ) : مكتشف الدورة الدموية الصغرى ومن هو ، القاهرة ، مجلة المقتطف ، عدد تشرين الثاني سنة ١٩٣٦ م

نقض ابن النفيس النظرية التي تقول أن عضلة القلب تتغذى من الدم الموجود في البطين الأيمن وقال : أن القلب يتغذى من العروق المارة فيه .

شرح ابن النفيس بطريقة علمية وظيفية أعضاء جسم الإنسان ، وكيف يؤدي كل عضو في الجسم وظيفته .

طوّر ابن النفيس طرائق العلاج ، فقد هدته تجاربه إلى ضرورة تنظيم غذاء المرضى فيكون بذلك أكثر فائدة لهم .

صنف الأدوية بأسمائها ، ومصادرها ، وفعاليتها ، وكمياتها ، ووصف الأمراض بالأعراض التي تصيبها وحدد الأمراض المختلفة ، ووصف الحميات ومضاعفاتها ، وعلاماتها ، ووصف أنواع الجروح ، والإصابات ، وأنواع الأورام ، ووسائل علاجها .

وجه الأنظار إلى ارتباط بعض الأمراض بالفصول ، وتغيرات الجو ، والبيئة .

وضع قواعد التداوي بالدواء من اختيار الأضداد لمقاومة المرض ، وتحديد الكميات المناسبة لحجم المريض ، وسنه ، وقوته ، واحتماله ، وتحديد وقت العلاج المناسب لمرحلة المرض .

أول من أشار إلى ضرورة الاعتدال في تناول الملح ، وتحدث عن أخطار الإكثار من تناول الملح أثره في ارتفاع ضغط الدم .

أبدع في تشريح الحنجرة ، وجهاز التنفس ، والشرابين .

له باع طويلة في طب العيون ، ومداواتها ، فهو أول من شرح فكرة البعد الثالث ( third demension ) أي عندما تنظر العينان معا تريان البعد الثالث .

أول من وصف الكمنه ( hypspion ) أي أن يحس المريض بشيء من الرمل في عينه وهذا هو التهاب القرنية ، والجسم الهدبي ( وهو المسؤول عن تروية العين ) .

ذكر لأول مرة أنّ الماء ( الساد ) يقع خلف العينية ( القرنية ) ، وليس أمامها كما كان سائداً أول من وصف الساد الجزئي ( أي تكثف جزء من العدسة ) ، ووصف انخلاع العدسة الجزئي

ووصف ازدواج الرؤية في العين الواحدة .

أول من وصف حسر البصر الناجمة عن الساد غير الناضج .

وصف لأول مرة طريقة استخراج الساد بالشفط ، والشطف ، وحذر من ضياع السائل المائي الذي قد يؤدي إلى انخساف العين .

وصف لأول مرة كيفية معالجة كسل العين بتغطية العين السليمة كي ينشط عمل العين المريضة وهذا تسويغ علمي ، وغير ذلك من الأمراض التي تصيب العين كتوسع الحدقة ، وارتفاع ضغط

العين ، وانخفاض ضغط العين والزرق الحاد ، وغير ذلك وكيفية معالجة هذه الأمراض .

ألف في الطب ما لا يقل عن أربعة عشر كتاباً من أهمها كتاب الشامل في الطب ، وهو موسوعة علمية ضخمة تضاهي كتاب الحاوي للرازي ، وعندما توفي أوقف أملاكه ، وكتبه

للمارستان المنصوري<sup>٢٣٨</sup> .

يدلل هذا الكم الهائل من الكشوف العلمية بشكل ، أو بأخر على مدى التقدم الكبير الذي وصلت إليه العلوم الطبية من حيث التخصص في الأمراض ، ومداواتها ومن حيث عدد الأطباء ومن حيث عدد البيمارستانات وغير ذلك .

ومن الأسماء التي لمعت في هذه العلوم في العصر المملوكي الأول أمين الدولة يعقوب بن إسحاق بن القف ، ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م ، وهو من تلاميذ ابن أبي أصيبعة ، ومن أهم مؤلفاته كتاب جامع الغرض في حفظ الصحة ودفع المرض ، ورسالة في الجراحة ، وعنوانها كتاب العمدة في صناعة الجراحة ، وهي مقسمة إلى جزأين : أحدهما نظري ، والآخر عملي ويحتوي كل منهما على عشرة فصول<sup>٢٣٩</sup> ، وبهذا يعد ابن القف أعظم جراحي العرب بعد الزهراوي ، وله أيضا كتاب الأصول في شرح الفصول الذي اعتمد فيه على طب أبقراط<sup>٢٤٠</sup> . أما أستاذه ابن أبي أصيبعة فهو أحمد بن القاسم بن خليفة فقد اشتهر في دمشق ، وكان عالما بالأدب ، والطب ، والتاريخ . له مصنفات عديدة منها عيون الأنبياء في طبقات الأطباء<sup>٢٤١</sup> .

ومنهم ابن السويدي إبراهيم بن محمد بن طرخان الحكيم عز الدين أبو اسحق الأنصاري ولد سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م وتوفي سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩٠م قيل أنه من ولد سعد بن معاذ<sup>٢٤٢</sup> رضي الله عنه وكان شيخا للأطباء في دمشق ومن كتبه الباهر في الجواهر والتذكرة الهادية في الطب<sup>٢٤٣</sup> .

ومن أطباء العيون صدقه بن ابراهيم المصري الشاذلي الذي ألف كتابا عن مرض الرمد عنوانه كتاب العمدة الكحلية في الأمراض البصرية قسم إلى خمسة أقسام أولها تشريح وظائف العين وثانيها أشياء عامة طبية ورمدية وثالثها الأمراض المرئية في العين وتشخيصها ومعالجتها ورابعا الأمراض غير المرئية وخامستها وسائل طبية متعلقة بالطب والرمد<sup>٢٤٤</sup> .

ومنهم إبراهيم بن إسماعيل بن هبة الله بن علي بن المقداد الطبيب الفاضل برهان الدين أبو اسحق القيسي ، ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م . قال عنه البرزالي : (( كان طبيبا بالصالحية بالمارستان القيمري ))<sup>٢٤٥</sup>

ومنهم أيضا ابن الأكفاني الكحال شمس الدين محمد بن برهان الدين إبراهيم المتوفى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م . قال عنه الحافظ زين الدين العراقي : عالم الأطباء بالقاهرة ، وانتهت إليه المعرفة بالطب ، وقال الصلاح الصفدي : كان فاضلا قد برع في علوم الحكمة وجمع شتات

---

المقتطف ، عدد تشرين الثاني ، القاهرة ، ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م ، ص ٢٦٤ - ٢٧١ .  
٢٣٩ - ابن القف ( يعقوب بن إسحاق أمين الدولة ، ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م ) : العمدة في صناعة الجراحة ، تح سامي خلف الحمارنة عمان ، الجامعة الأردنية ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م ، ص ٢١ . زكي ( عبد الرحمن ) : بحوث في تاريخ الحضارة - مجموعة بحوث ألفت في ندوة الحضارة الإسلامية ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ، مؤسسة شباب الجامعة ، القاهرة ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ، ص ١٣٦ .  
٢٤٠ - Satern ( Y ) : Tutrodududction to the History of science , Vol ٢ , Part ٢ , P١٠٩٩ .  
٢٤١ - ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣٢٧ . العدوي ( إبراهيم أحمد ) : مصر الإسلامية درع العروبة ورباط الإسلام منشورات هيئة الآثار المصرية القاهرة ، ١٤١٢هـ / ١٩٩١ ، ص ١٥٧ .  
٢٤٢ - هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد الأنصاري ، سيد الأوس توفي من أثر سهم أصابه في غزوة الخندق سنة ٦٢٦هـ / ٦٢٦م . الطبري ( أبي جعفر محمد بن جرير ، ت ٣١٠هـ / ٩٥٣م ) : تاريخ الأمم والملوك ، ٦ أجزاء ، دار الكتب العلمية ط ٢ ، بيروت ، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م ، ج ٢ ، ص ٩٣ .  
٢٤٣ - ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ١٤٢ - ١٤٣ .  
٢٤٤ - زكي ( عبد الرحمن ) : بحوث في تاريخ الحضارة ، ص ١٣٦ .  
٢٤٥ - ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة ، م ٢ ، ج ١ ، ص ١٤٠ .

العلوم من غيرها بما له من الهمة<sup>٢٤٦</sup> ، ومن أهم كتبه كشف الرين في أحوال أمراض العين رتبه على ثلاث مقالات الأولى في أحوال العين وخواصها ومزاجها وحفظ صحتها والثانية في ذكر أمراض العين وأسبابها وعلاجاتها والثالثة في الأدوية المفردة مرتبة على حروف المعجم والعقاقير المركبة<sup>٢٤٧</sup> . ومن كتبه أيضاً غنية الطبيب فيما يستعمل حيث لا يوجد طبيب ، وروضة الألبا في أخبار الأطباء ، وغاية الأمنيات في معرفة الحميات<sup>٢٤٨</sup> ، وألف كتابا سماه نخب الذخائر في معرفة أحوال الجواهر ، وقد حققه ونشره الأستاذ انستاسي جابر الكرملبي البغدادي ، المطبعة العصرية في القاهرة ١٩٣٩ م .

ومنهم أيضاً أحمد بن محمد بن شعيب ، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨ م . كان يعرف بابن شعيب وكان من أهل المعرفة بصناعة الطب ويدقق النظر فيها<sup>٢٤٩</sup> .

ومنهم يوسف الديان عبد السيد بن المهذب الرئيس الطبيب الماهر جمال الدين ابن الديان . قال عنه ابن كثير : (( كان حاذقا في الطب ، وفي أخلاقه شراسة توفي في رجب سنة ٧٥٧هـ / ١٣٦٥ م .

وكذلك اشتهر بالطب عبدالله بن عمر بن نصر الله المعروف ( الورن ) . المتوفى سنة ٦٧٧هـ / ١٢٧٨ م<sup>٢٥٠</sup> .

ومنهم عبد العزيز بن الواحد بن إسماعيل رفيع الدين الجيلي المتوفى ٦٤٢هـ / ١٢٤٤ م<sup>٢٥١</sup> . وكان قاضي قضاة دمشق قال عنه ابن أبي أصيبعة : (( أنه من الأكابر المتميزين في الحكمة والطب ))<sup>٢٥٢</sup> .

ومن المشتغلين بعلم الطب والذين برعوا فيه الإمام نور الدين الحنفي (الحسين بن عمر) المتوفى سنة ٦٥٣هـ / ١٣٣٨ م<sup>٢٥٣</sup> .

ومنهم الحسن بن أحمد بن الحسن بن أنو شروان المتوفى سنة ٦٩٩هـ / ١٣٠٠ م ، وكان عالما بارعا له معرفة تامة بالطب وقيل أنه أسر في أحد المعارك وأخذ إلى قبرس ، وهناك جلس يُطبب الناس ويعالج المرضى وقيل انه لما دخل إلى قبرس كان الملك ضعيفا ، فطببه إلى أن تعافى<sup>٢٥٤</sup> .

ومنهم نور الدين الأسناني إبراهيم بن هبة الله بن علي ، ت ٧٢١هـ / ١٣٢١ م درس الطب على يد الحكيم نهار الدين المغربي ت ٧١٨هـ / ١٣١٨ م . أشغل الأسناني بالطب حتى توفي في القاهرة .

٢٤٦ - ابن قاضي شهبة : م ٢ ، ج ، ص ٦٢٦ .  
٢٤٧ - ابن الأكفاني ( شمس الدين محمد بن إبراهيم ، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨ م ) : كشف الرين في أحوال أمراض العين ، تح محمد ظافر الوفاي ، ومحمد رواس قلعه جي ، مركز الملك فيصل ، ط ١ ، الرياض ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣ م ، ص ٣ .  
٢٤٨ - اسهامات الحضارة العربية والإسلامية من واقع المخطوطات العلمية بدار الكتب المصرية : ص ٦٦ .  
٢٤٩ - ابن قاضي شهبة : م ٢ ، ج ١ ، ص ٥٦٦ .  
٢٥٠ - ابن تغري بردي : المنهل الصافي : ج ٧ ، ص ١٠٩ .  
٢٥١ - ابن تغري بردي : ج ٣ ، ص ٣٨٤ .  
٢٥٢ - ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص ٥٩٩ - ٦٠٠ .  
٢٥٣ - ابن تغري بردي : المنهل الصافي : ج ٣ ، ص ٦٧ .  
٢٥٤ - ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٥ ، ص ٦٤ - ٦٥ .

ومن الحكماء أيضا أبو الشكر أيوب بن نعمة محمد بن نعمة بن أحمد ت ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م حكيم كحال برع في صنعته وتميز بها وتكسب منها<sup>٢٥٥</sup> .

ومنهم سعيد بن البغدادي ، ت ٧٣٧هـ / ١٣٥٨م ، وكان عالما بصناعة الطب وله معرفة في عمل التقويم وحسابها .

ومنهم أيضا السويد الهمياطي الطبيب اليهودي كان من أطباء الملك الناصر محمد بن قلاوون وكان فاضلا في الطب يستحضر كثيرا من كلام الأطباء وكان معالجا بارعا لم يكن مثله في ذلك توفي سنة ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م .

ومنهم الحسين بن منصور الأسنائي الذي اشتغل بصناعة الطب وكان بها قيما فاضلا يطبب المريض ويعطيه ثمن الأدوية اللازمة له . توفي في أوائل المائة السابعة للهجرة / الثالثة عشر للميلاد<sup>٢٥٦</sup> .

ومن الذين اشتغلوا بالطب ، ودرستوا هذه المهنة في البيمارستان المنصوري الطبيب محمد بن محمد بن عبد الرحمن التونسي الذي أشتهر بعلمه الغزير ، وكان يداوم على قراءة كتاب الشفاء لابن سينا كل ليلة توفي سنة ٧٣٨هـ / ١٣٣٨م<sup>٢٥٧</sup> .

ومن الأطباء جمال الدين ابن المغربي وهو إبراهيم بن أحمد المتوفى سنة ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م . وكان مقربا من السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وكان ذا رتبة رفيعة ، ومكانة عالية<sup>٢٥٨</sup> . وكان أبوه شهاب الدين<sup>٢٥٩</sup> أوجد زمانه في الطب ، وأنواع الفضائل ، ومع ذلك كان لا يتكبر ولا يرى نفسه إلا كواحد من الأطباء . وكان له الفضيلة الوافرة في الطب علما وعملا والخوض في الحكميات ، وكان لا يعود مريضا إلا من نوي السلطان ، ولا يأتيه في الغالب إلا مرة واحدة ، ثم يقرر عنده طبيبا يتابع الإشراف عليه ، وهذا الطبيب المتابع يبلغ ابن المغربي عن حالة ذلك المريض ، ومدى التطور إلى غير ذلك<sup>٢٦٠</sup> .

ومنهم أيضا : محمد بن علي بن عبد الكافي القاهري ، وله كتاب في الطب يسمى (( الزيد )) وقد كان أحد الأطباء في البيمارستان المنصوري ، وبخدمة السلطان ، توفي سنة ٨٣٩هـ / ١٤٣٥م<sup>٢٦١</sup> .

وكان من أشهر الأطباء الذين مارسوا الطب في البيمارستان المنصوري أحمد بن يوسف الصفدي ، وهو من أطباء السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، توفي سنة ٧٣٨هـ / ١٣٣٨م<sup>٢٦٢</sup>

<sup>٢٥٥</sup> - ابن تغري بردي : ج ١ ، ص ١٤٢ - ١٤٥ .

<sup>٢٥٦</sup> - الإدفوي : الطالع السعيد ، ص ٢٣٠ .

<sup>٢٥٧</sup> - ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٤ ، ص ٢٩٩ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٣١٥ .

<sup>٢٥٨</sup> - ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ٣٧ - ٣٥ .

<sup>٢٥٩</sup> - هو أحمد بن المغربي رئيس الأطباء بمصر والشام . ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي : ج ١ ، ص ٣٥ الحاشية رقم ٥ .

<sup>٢٦٠</sup> - ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ٣٦ - ٣٧ . ابن قاضي شهبه : تاريخ ابن قاضي شهبه ، ج ٣ ، ص ٧٩ .

<sup>٢٦١</sup> - السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٨ ، ص ١٩١ .

<sup>٢٦٢</sup> - ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٣٦٢ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٣١٧ .

ومنهم أيضاً : محمد بن ابراهيم السنجاري الذي تقدم في معرفة الطب ، وكان ماهراً في تركيب الدواء المناسب لكل حالة ، وله عدة كتب أهمها (( اللبيب عند عينة الطبيب )) ، توفي سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م<sup>٢٦٣</sup> .

ومن الأسماء التي برزت أيام الناصر محمد بن قلاوون الحكيم صلاح الدين يوسف بن عبد الله المغربي رئيس الأطباء المتوفى ١٨ جمادى الآخرة سنة ٧٧٦هـ / ٢٤ تشرين الثاني ١٣٧٤م ، وكان يعرف بابن المغربي<sup>٢٦٤</sup> . والأسماء كثيرة جدا في هذا المجال ، والقائمة قد تطول ، وإذا كان لا بدّ من استنتاج ، أو دلالة تدل على ما تقدم ، فهي مقدار التقدم الكبير في علم الطب وصنعتة ، وانتشار البيمارستانات التي تباهى في بنائها السلاطين والأمراء وأصحاب الأموال لأسباب تختلف من شخص إلى آخر لكن النتيجة أن انتشرت في الريف والحضر شاملة نيابات الدولة المملوكية كلها .

#### ٤- علم الجغرافيا :

جغرافيا كلمة يونانية<sup>٢٦٥</sup> تتكون من مقطعين هما(جيو- geo) ومعناه الأرض ،وغرافية (graphia) ومعناه وصف وبالتالي يكون المعنى العام لكلمة جغرافيا هو وصف الأرض .

أما علم الجغرافيا فهو علم وصف الأرض ويتعرف منه على أحوال الأقاليم السبعة الواقعة في الربع المكون من الكرة الأرضية وكذلك عرض وأطوال البلدان الواقعة فيها المدن<sup>٢٦٦</sup> .

وتتداخل الجغرافيا مع علوم كثيرة أهمها الرياضيات والهندسة وعلم الفلك فهو بهذا قريب من العلوم التطبيقية ، على الرغم من أنه من العلوم الإنسانية فهو يدرس الأرض بما عليها من تكوينات تضاريسية (جبال - هضاب - بحار - أنهار - وديان) ألخ.

كما يدرس المناخ وعلاقاته بدرجات الطول والعرض وما على الأرض من تضاريس وغابات وهناك فرع آخر من الجغرافيا يسمى الجغرافيا البشرية يعتني بدراسة السكان ، وتوزعهم والعوامل التي تؤسس لذلك من تضاريس ، ومناخ إلى غير ذلك .

وقبل التحدث عن هذا العلم في الدولة المملوكية نتوقف قليلا في الإطار التاريخي لتطور هذا العلم عند العرب .

فقبل الإسلام كانت طبيعة الإنسان العربي في الجزيرة العربية تفرض عليه بعض الإلمام بهذا العلم فالتنقل الدائم وراء المراعي ومصادر المياه كانت تتطلب معرفة المسالك والطرق المؤدية إليها وطرق الاهتداء والتوجه ليلا ونهارا في هذه الصحراء المترامية الأطراف فظهر بينهم ما يسمى بالأدلاء وهم الذين كانوا على معرفة بطرق الصحراء وكيفية التوجه ومواطن الكلاً والماء فيها .

<sup>٢٦٣</sup> - ابن حجر : ج ٣ ، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ .

<sup>٢٦٤</sup> - اليوسفي ( موسى بن محمد بن يحيى ، ت ٧٥٩هـ / ١٣٥٨م ) : نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ، تح أحمد حطيط عالم الكتب ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ١٤٣ ؛ المقرئزي : المواظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٢٤٩ ؛ ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

<sup>٢٦٥</sup> - عطوي ( عبد الله ) : الجغرافيا البشرية ، دار النهضة العربية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م ، ص ١٣ .

<sup>٢٦٦</sup> - الدفاع ( علي عبد الله ) : رواد علم الجغرافيا في الحضارة العربية الإسلامية ، مكتبة التوبة ، ط ٢ ، الرياض ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، ص ١١ .

وكان هؤلاء الأدلاء على شيء من الثقافة المتنوعة وعلى رأسها الثقافة الجغرافية ومواقع النجوم ومدارات الكواكب التي كانوا يهتدون بها ليلاً<sup>٢٦٧</sup> .

وعندما جاء الإسلام وتوسعت أطراف الدولة تطور هذا العلم لتوفر مسوغات وعوامل ازدهاره<sup>٢٦٨</sup> . ونجد ما يسعنا في أثبات ذلك الكثير من الإشارات منها اهتمام الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعلم الجغرافيا حيث نقل لنا ياقوت الحموي خبراً بعد معركة القادسية يبين ذلك عندما كتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص يأمره بوصف منزلة القادسية فكتب إليه سعد ((إن القادسية فيما بين الخندق والعتيق وعن يسار القادسية بحر أخضر)) ويذكر ياقوت الوصف كاملاً<sup>٢٦٩</sup> .

فتطور هذا العلم ، فتم التعرف على مصنفات بطليموس في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي ، وظهرت الترجمات التي بدأت بها سلسلة الجغرافيا العلمية - ثم ظهر الأدب الجغرافي في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي .

وذلك عندما ظهرت المدرسة الكلاسيكية للجغرافيين العرب التي تميزت باهتماماتها بوصف المسالك والممالك ورسم المصورات الجغرافية ، وبدأت منذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي تظهر مصادر من نوع جديد وهي المعاجم الجغرافية والأوصاف العامة لجميع العالم<sup>٢٧٠</sup> .

أما في العصر المملوكي الأول فقد تطور هذا العلم تطوراً كبيراً نتيجة لوجود حدود مفتوحة شجعت الرحالة على القيام بأعمال كبيرة ومهمة إضافة إلى الازدهار العظيم للتجارة وتنقل التجار والموقع المهم لدولة المماليك الذي شغل دوراً كبيراً في هذا المجال.

فلمعت أسماء كبيرة في سماء هذا العلم الرحب في كافة أرجاء دولة المماليك الأولى فكثرت كتب الخطط ( وضع المدن وتقسيماتها ) وكتب التقاويم وكتب الرحالة التي أغنت المكتبة العربية بما تحتاجه من كتب جغرافية .

ومن الذين كتبوا في هذا المجال :

عبدالله بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م) وكتابه في غاية الأهمية فهو الأول بعد خراب القاهرة في أواخر عصر الدولة الفاطمية من جراء الحروب والحريق الذي أصابها والوباء الذي أحدث فيها فساداً في نهاية القرن السادس الهجري بداية القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي ، وعرف هذا الكتاب باسم (( الروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة ))<sup>٢٧١</sup> ، وأشتمل على ذكر خطط القاهرة ، وأبوابها ، وأسوارها ، ومساجدها ومدارسها ، ومشاهدها ، وحماماتها ، ودورها إلى غير ذلك .

<sup>٢٦٧</sup> - بدوي ( عبد الرحمن ) : موسوعة الحضارة العربية الإسلامية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٦٥ .

<sup>٢٦٨</sup> - كحالة ( عمر ) : التاريخ والجغرافيا في العصور الإسلامية ، مطبعة الحجاز ، دمشق ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ، ص ٢١٥ .

<sup>٢٦٩</sup> - الحموي : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٣٣١ .

<sup>٢٧٠</sup> - كراتشكوفسكي ( أغناطيوس ) : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، تر صلاح الدين هاشم ، دار الغرب الإسلامي ، ط ٢ ، بيروت ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م ، ص ٢٣ .

<sup>٢٧١</sup> - حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٩٢٥ .



ومن الذين كتبوا أيضا محمد بن عبد الوهاب الزبيري المعروف بابن المتوج<sup>٢٧٢</sup> ت ١٣٢٩هـ/١٧٣٠م في كتابه أيقاظ المتغفل واتعاط المتأمل<sup>٢٧٣</sup> . الذي ذكره المقرئزي عندما قال : « كتب ذلك القاضي تاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج كتاب اتعاط المتأمل وإيقاظ المتغفل في الخطط يبين فيه جملاً من أحوال مصر ، وخططها إلى بضع وعشرين وسبعمئة<sup>٢٧٤</sup>»

ومن الذين كتبوا أيضا ابن الوطواط محمد بن إبراهيم الذي ألف مناهج الفكر ومناهج العبر وقسمها إلى أربع فنون تحدث في القسم الثاني عن الجغرافيا وقسمه إلى تسعة أبواب تحدث فيها عن الأرض ، وهيئتها ، وعن الجبال ، والمعادن ، وعن العيون ، والآبار ، وعن أسباب سكن المعمور... الخ . [ نشر القسم المتعلق بمصر ]

ومن الذين كتبوا أيضا ابن خلدون ت ٨٠٨هـ/١٤٠٤م الذي تحدث في المقدمة (مقدمة ابن خلدون) عن الكثير من المواضيع الجغرافية سواء الجغرافيا الطبيعية ، أو الجغرافيا البشرية ومنهم أيضا المقرئزي في خطته ( المواعظ والاعتبار في معرفة الخطط والآثار )

ومنهم النووي في موسوعته (نهاية الأرب) التي تحدث فيها عن خمسة فنون تحدث في الفن الأول عن الجغرافيا فذكر الأرض ، والسماء ، والكواكب ، والسحاب ، والثلج ، وسائر مظاهر الطبيعة<sup>٢٧٥</sup> .

وتعرض ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار للحديث عن الجغرافيا وجعل ذلك في قسمين خصص الأول للأرض وتكلم فيه عما اشتملت عليه برأ وبحراً وقسم ذلك إلى نوعين تحدث في النوع الأول عن الأرض ، وحالها ، ومقدارها وصفاتها وعن الأقاليم ، والأنهار ، والبحار وتحدث في النوع الثاني عن الممالك أي الدول<sup>٢٧٦</sup> .

والأسماء كثيرة جدا لكن السؤال الذي يطرح هو ما علاقة الجغرافيا هذه بالعلوم العسكرية ؟

هذا السؤال يحفز المتلقي للخوض في بعض الأمور العسكرية التنظيمية منها على وجه الخصوص تنظيم الأعمال القتالية ، فالقائد حتى يستطيع اتخاذ القرار الصحيح لمعالجة الاحتمالات المتوقعة ، أو المتوقع حدوثها أثناء مجرى الأعمال القتالية يجب أن تتوفر لديه بعض المعطيات أهمها ماهي طبيعة المهمة الجديدة المكلف بها ، وما هي المعلومات المتوفرة لديه عن هذه المهمة – الأمر الثاني هو : دراسة الأرض وما تقدم له من خدمة في تحقيق هذه المهمة ، وأتطرح عليه صعوبة تعيق تحقيق المهمة ، وهذا أمر في غاية الأهمية والإجابة على الأسئلة التي تطرحها دراسة الأرض تحتاج إلى الكثير من المعارف الجغرافية

والطبوغرافية التي تؤهله للخروج باستنتاجات تساعده في اتخاذ القرار الصحيح وبالتالي عليه أن يعرف طبيعة الأرض التي سيخوض عليها المعركة (مسرحة العمليات) – هل هي سهلة أم

<sup>٢٧٢</sup> - ابن حجر : الدرر الكامنة ، م ٢ ، ج ٤ ، ص ٢٣ .

<sup>٢٧٣</sup> - السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٤٥٤ .

كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، ص ٤١٤ .

<sup>٢٧٤</sup> - المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٥ . وقد أورد اسم الكتاب مقلوباً لكنه أورده صحيحاً بموضع آخر من الكتاب نفسه الجزء الأول ، ص ٣٤٢ .

<sup>٢٧٥</sup> - النووي : نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٣-٥ .

<sup>٢٧٦</sup> - ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، ج ١ ، ص ٧-٨ .

جبلية – فيها غابات – فيها مستنقعات – فيها أنهار- فيها طرق ....ألخ . هل طبيعة الأرض هذه تخدم فكرة القائد في تنفيذ الأعمال القتالية – تؤمن له بعض المتطلبات المهمة لتأمين نجاح خطته الحربية . أم تعيق تنفيذ تلك الخطط ، وبالتالي ما هي الإجراءات التي يجب عليه أن يقوم بها قبل تنفيذ الأعمال القتالية .

ومثال ذلك : عندما قرر السلطان قطز التصدي للنتار اختار أرض عين جالوت بناء على معلومات جغرافية معروفة لديه مسبقا ، فأرسل مقدمة بقيادة الظاهر بيبرس لمناوشة العدو واتفق معه على أن يتراجع أمام العدو تراجعاً قتالياً في الوقت الذي يكون فيه قطز قد أخفى جهده الرئيسي من القوات في الغابات ، وخلف الهيئات الأرضية المحيطة<sup>٢٧٧</sup> ، وهذه عبقرية عسكرية تحسب لهذا القائد .

أما لماذا أختار سهل عين جالوت على سبيل المثال لمواجهة العدو فيه ؟ فالجواب أنه درس هذا السهل دراسة جغرافية متعمقة ، فالأرض مفتوحة فيها مرج واسع تحيط به تلال وغابات تساعد على إخفاء الكمانن ، والاحتياطات والقوات ، ورأى أن ما تقدمه طبيعة الأرض تساعد على خوض المعركة إضافة إلى أن هذا السهل ، وما يحيط به يوفر الكلاً اللازم لخيوله وتأمين المياه اللازمة للشرب ، والإستعمالات الأخرى ، إضافة إلى وجود المستنقعات التي تعيق عمل الخيول والمشاة في الوقت نفسه لذلك تم استدراج فرسان المغول إليها .

والنقطة الأخرى هو : دراسة الطرق ، ومدى أمانها ، وتوفير المياه اللازمة للقوات أثناء المرور عليها ، والتنبه إلى ذلك يُثم عن فكر تكتيكي ، واستراتيجي رائع . مثال ذلك أيضاً عندما ورد الخبر للسلطان بيبرس في سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧١م أن الصليبيين قصدوا تونس بقصد الاستيلاء عليها كتب السلطان إلى صاحب تونس بأنه أرسل إليه نجدة وكتب إلى عربان برقة وبلاد الغرب بالمسير إلى نجدته وأمرهم بحفر الآبار في الطرقات برسم العساكر<sup>٢٧٨</sup> لأنه كان يعرف أن تلك المناطق لا يوجد فيها مياه لتأمين الجيوش . وعند وجود الأنهار في مناطق الأعمال التالية على القائد أن يعرف هل عليها جسور أو هل تتوفر مَخاضات للعبور وهذا أمر أساسي ففي سنة ٦٧١هـ / ١٢٧٣م عندما أراد النتار النزول على البيرة أرسل مقدمهم طائفة منهم لحفظ المخاضة التي تعرف بمخاضة القاضي ، وأقاموا لهم سياجا من السيب ، وحاجزا من الخشب ، ونزلوا وراء ذلك السياج<sup>٢٧٩</sup> .

أما إذا كان الهدف الذي سيهاجمه القائد حصنا ، أو قلعة ، فعليه معرفة طبيعة الأرض المبني عليها هذا الحصن بالإضافة إلى طبيعة التحصينات حول الحصن و داخله حتى يتمكن القائد من اتخاذ القرار في وضع ( نصب ) أدوات الحصار ، وطرق التقرب ، وإمكانية حفر السروب والأنفاق ، والخنادق إلى غير ذلك .

فعندما سار السلطان الظاهر بيبرس من حلب إلى قلعة الروم كان يعرف أنها من أحصن القلاع وأعظمها في الارتفاع والامتناع ولا يتوصل إليها إلا من طريق صعبه المرتقى كثيرة العقاب

<sup>٢٧٧</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٨ .

<sup>٢٧٨</sup> - المقرئزي : ج ٢ ، ص ٦٩ .

<sup>٢٧٩</sup> - الداودار : زبدة الفكرة ، ص ٨٨ . المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٨١ - ٨٢ .

ولا يستطيع الفارس سلوكها إلا راجلا لوعورة مسالكها وصعوبتها على مسالكها وبحر الفرات يجري من تحتها ولا منزله لمن ينازلها إلا من لحفها<sup>٢٨٠</sup>.

ثم أن هناك أمرا أساسيا توجب أن يعرفه القائد من أجل اتخاذ القرار وهو معرفة الفصل والأنواع ( المناخ ) واليوم وهذا أمر أساسي فكثير من الجهود ذهبت هباء نتيجة الجهل بهذا الأمر أي إهمال المعرفة الدقيقة بالأنواء والفصل واليوم . ومثال ذلك أخذ السلطان الظاهر بيبرس البندقداري سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م عساكره وساقه إلى جهة المرقب<sup>٢٨١</sup> فأصابته مشقة زائدة من كثرة الأمطار فعاد إلى حماة وأقام بظاهاها تسعة عشر يوما وتوجه إلى جهة المرقب فانتهى إلى قريب من بلاد الإسماعيلية وعاقته الأمطار والثلوج<sup>٢٨٢</sup> فعاد . وفي اتجاه آخر وعندما توجه السلطان إلى سبب حمل معه مراكب على البغال وهي مفصلة ليستعملها في عبور نهري جيحان<sup>٢٨٣</sup> والنهر الأسود<sup>٢٨٤</sup> . لكن عندما وصل وجد نفسه أنه ليس بحاجة هذه المراكب وأن هذه الأنهر صغيرة ولا تحتاج لمثل هذه المراكب<sup>٢٨٥</sup> والأمثلة كثيرة على ذلك ففي سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م عندما أرسلت شواني<sup>٢٨٦</sup> من مصر وصلت إلى قبرص ولكن الرياح العاتية كسرتها جميعا وكانت أحد عشر شينيا<sup>٢٨٧</sup> .

إن تلافى تلك الملاحظات ، والتغلب على مثل تلك الصعوبات لا يكون إلا بتتقيف القادة بالمعارف العامة ، والعسكرية ، ونشر العلوم ، والارتكاز إليها عند اتخاذ القرار .

كما يمكن من خلال دراسة مسرح العمليات وما يحتويه من آثار وأبنية وأضرحة لقادة كبار لهم بصمات معروفة في صنع التاريخ يتم توظيف ذلك ، والاستفادة منه باستنهاض الهمم ورفع الروح المعنوية ومثال ذلك معركة حمص وكان الملتقى بوطأة حمص بالقرب من مشهد خالد بن الوليد (( حيث مركز الرماح ، ومهب الرياح ، وهو المكان الذي لم يزل بلاء المسلمين فيه محمودا ، ونصر خالد يزداد لديهم خلودا ))<sup>٢٨٨</sup> .

كما يمكن من خلال دراسة الجغرافيا البشرية معرفة طبيعة السكان ، وميولهم وإمكانية الاستفادة منهم كأصدقاء ، أو تجنبهم كأعداء ، ومن هنا تنبع أهمية دراسة الجغرافيا التي أولاها المماليك الأهمية اللازمة في العصر المملوكي الأول .

لكن ومهما كانت العلوم التطبيقية ، أو العلوم بشكل عام متطورة عند أية أمة من الأمم فإنها لا تستطيع أن تحقق نصرا عسكريا إذا لم تؤمن له مقوماته ، ومن أهمها الأسلحة والأعداء ، لكن

<sup>٢٨٠</sup> - الداودار : ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

<sup>٢٨١</sup> - المرقب : بلد وحصن في ساحل الشام بينه وبين طرطوس ثمانية أميال . الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٥٠٠ .

<sup>٢٨٢</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٥ .

<sup>٢٨٣</sup> - جهان : نهر يخرج من بلاد الروم عند زبطرة . الحموي : معجم البلدان ، ج ١ ، ص ١٧٠ .

<sup>٢٨٤</sup> - النهر الأسود : يخرج من بلاد الروم ومجره غربي بلاد المصيصة . أنظر : الحموي : ج ٤ ، ص ٨٣٤ .

<sup>٢٨٥</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٩٠ .

<sup>٢٨٦</sup> - الشواني : وهي جمع شيني ، وهي أقدم أنواع السفن الرومانية . زادت أهميتها في العصور الوسطى ، وكانت من أكبر السفن وأكثرها استعمالا لحمل المقاتلين وكان يركب عليها قلاع وأبراج للدفاع والهجوم ، وكان متوسط ما يحمل عليها من الرجال مائة وخمسون رجلا . ابن ممتي ( أبو المكارم أسعد ، ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م ) : قوانين الدواوين ، جمعه ونشره وعلق عليه عزيز سوريال عطية ، طبعة الجمعية الزراعية ، القاهرة ، ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٣ م ، ص ٣٤٠ .

<sup>٢٨٧</sup> - الداودار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٨٠ .

- المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٠ .

<sup>٢٨٨</sup> - الداودار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٤٤ .

- المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٤٦ .

التطور في العلوم العامة يفتح الباب على مصراعيه لتطور العلوم العسكرية والتقنيات الحربية وهذا سيكون موضوع البحث في الفصل التالي .

## الفصل الثاني ص ٧٥- ص ١٢٤

العلوم العسكرية والتقنيات الحربية في العصر المملوكي الأول :

- ١- مقدمة .....
- ١- - السلاح المستخدم في العصر المملوكي الأول .....
- ٣- أهم الذين كتبوا في موضوع السلاح .....
- ٤- العوامل المساعدة لتطوير الأسلحة .....
- ٥- السلاطين وصناعة الأسلحة .....
- ٦- أهم التطورات التي حصلت على الأسلحة في العصر المملوكي الأول .  
.....

## العلوم العسكرية والتقنيات الحربية :

### ١- مقدمة :

شهد العصر المملوكي الأول حروباً شبه مستمرة سواءً كانت هذه الحروب داخلية لتثبيت السلطة ، أو خارجية ضد الصليبيين أو المغول . وكانت هذه الحروب عند بعضهم لا تقل أهمية عن الفتوحات التي تمت في صدر الإسلام . ففيها تصدّت الدولة المملوكية الأولى ( مصر وبلاد الشام ) لجيوش أوروبا وحملاتها الصليبية ، وحررت صفد<sup>٢٨٩</sup> ويافا<sup>٢٩٠</sup> وأنطاكية<sup>٢٩١</sup> وطرابلس<sup>٢٩٢</sup> وعكا<sup>٢٩٣</sup> ، وتصدّت لهجمات المغول ، وهزمتهم في عين جالوت<sup>٢٩٤</sup> وهاجمتهم في وادي الخزندار ( مجمع المروج )<sup>٢٩٥</sup> ، وفي شقحب تحت جبل غباغب<sup>٢٩٦</sup> وفي غيرها من المعارك التي سطرّت فيها الجيوش العربية الإسلامية أنصع صفحات العز والكرامة ، والشهامة ، والإباء ، والبطولة .

والسؤال الذي يُطرح هنا ببساطه إلى ماذا استندت تلك الانتصارات ؟ .

والجواب لقد استندت إلى الكثير من العوامل الذاتية ، والموضوعية التي هيأت أسباب النجاح والظفر على جيوش كبيرة معدّة ، ومدربة ، ومجهزة ، ولها تاريخها الحربي ، وسمعتها العسكرية التي سبقت وصولها إلى المنطقة بأنها جيوش لا تبقى ولا تذر .

من هذه العوامل : - الروح المعنوية العالية المسلحة بروح الإيمان ، والحماس الكبير والمتوقد لتحرير الأرض ، والتصدي للقوات الغازية المعتدية .

- وحدة الصف ، والكلمة ، والقرار الذي تأمّن بوحدة مصر مع بلاد الشام (( وللوحدة دور كبير في تحقيق الغلبة ، وفي الفرقة ضعف وتخاذل ))<sup>٢٩٧</sup> .

- ظهور القادة الأفذاذ أصحاب الرؤى الصائبة ، والقرار الجريء المنفذ بإيقاعات عالية وتصميم على تحقيق النصر .

<sup>٢٨٩</sup> - صفد : مدينة في جبال عاملة وهي من جبال لبنان ( مدينة من مدن فلسطين المحتلة ) أنظر : ياقوت ، معجم البلدان ج ٣ ، ص ٤١٢ . وقال عنها العثماني : وقلعة صفد بنتها الافرنج وكانت تلاً عليه قرية عامرة تحت برج الينيم بناها الداوية سنة ٤٩٥هـ / ١١٠٢م . انظر العثماني ( محمد بن عبد الرحمن ، ت ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م ) : تاريخ صفد ، تح سهيل زكار ، دمشق ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م ، ص ١٠٧ . وجاء في الملحق رقم ٥ في وصف صفد من كتاب كوكب الملك وموكب الترك لخليل بن شاهين الظاهري أن صفد كانت قرية فلما ملكها الفرنجة خربتها وبنّت مكانها حصن سنة ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م . انظر : المصدر نفسه : ص ٢٥٤ - ٢٥٨ .

<sup>٢٩٠</sup> - مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا . الحموي : ج ٥ ، ص ٤٢٦ .

<sup>٢٩١</sup> - أنطاكية : من الثغور الشامية على ساحل البحر الشامي - بينها وبين حلب يوم وليلة وهي بلد عظيم ذو سور وفصيل ولسوره ثلاثمائة وستون برجاً وله خمسة أبواب . الحموي : ج ١ ، ص ٢٦٦ - ٢٧٠ .

<sup>٢٩٢</sup> - طرابلس : مدينة على ساحل البحر وهي في الإقليم الرابع طولها ستون درجة وخمس وثلاثون دقيقة وعرضها أربع وثلاثون درجة . الحموي : ج ٤ ، ص ٢٦ .

<sup>٢٩٣</sup> - المقرزي : السلوك ، ج ٢ ، عن تحرير صفد ص ٣٤-٣٥ . عن تحرير أنطاكية ص ٥٠ - ص ٥١ .

<sup>٢٩٤</sup> - المقرزي : ج ١ ، ص ٥١٥-٥١٧ . وعكا مدينة على ساحل بحر الشام : أنظر : المقرزي : المصدر المتقدم ، ج ٤ ، ص ١٤١ .

- ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٧٣-٧٦ .

<sup>٢٩٥</sup> - المقرزي : السلوك : ج ٢ ، ص ٣١٧ - ٣٢١ .

<sup>٢٩٦</sup> - المقرزي : ج ٢ ، ص ٣٥٦-٣٥٨ . وغباغب جمع غيغب وهي قرية في أول عمل حوران من نواحي دمشق بينهما ستة فراسخ . الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٨٤ .

<sup>٢٩٧</sup> - ابن خلدون : المقدمة ، ص ٣٤١ .

- الصّدق في القتال ، وتوفر القوات ، وكثرة الأسلحة ، وتفوقها ، وحسن الأداء بها وترتيب المصّاف ، وما جرى مجرى ذلك ، إضافة إلى الحيل في الحروب فرب حيلة أنفع من قبيلة<sup>٢٩٨</sup> .

- وهناك سبب آخر مهم بل في غاية الأهمية وهو التفوق التقني للجيش العربية الإسلامية [ صناعة الأسلحة وتطويرها باستمرار مع ما تتطلبه مستجدات ظروف الحرب والمعارك ] والسياسة الواعية التي سارت عليها الدولة في العصر المملوكي الأول من أجل تأمين متطلبات الجيوش من حيث التنظيم ، والتدريب ، والتسليح ، وضرورة ضمان تفوق كل هذه المتطلبات على جيوش الخصوم ، والأعداء ، والعمل باستمرار على تطويرها بما يتواءم مع المعطيات المستجدة حسب الزمان ، والمكان ، وظروف كل معركة .

وبناءً على كل ما تقدم ازداد اهتمام دولة المماليك الأولى بكل من ديواني الجيش والأسطول<sup>٢٩٩</sup> لاسيّما وأن المماليك نشأوا نشأة عسكرية ، وكانوا فرساناً مدربين يتصفون بالشجاعة والإقدام لذلك اهتموا بالأسلحة وطوّروها وحافظوا عليها في مخازن خاصة أطلقوا عليها اسم بيت السلاح ، أو الزرد خاناه ، أو السلاح خاناه<sup>٣٠٠</sup> ، وكان يضم أنواع الأسلحة كافة من السيوف<sup>٣٠١</sup> ، والقسي<sup>٣٠٢</sup> ، والنشاب<sup>٣٠٣</sup> ، والرماح<sup>٣٠٤</sup> ، والدروع المتخذة ( المصنوعة ) من الزرد المانع يلبسها المقاتل وقاية لنفسه من السيوف والسهم ، والقرقات<sup>٣٠٥</sup> المتخذة من صفائح متقاربة من الحديد المغشاة بالديباج الأحمر ، والأصفر ، وغير ذلك من الأطبار<sup>٣٠٦</sup> . وكان هناك قاعات كثيرة تختص كل منها بأحد أنواع الأسلحة ، وكان يشرف على الزرد خاناه أمير سلاح يعاونه عدد من موظفي السلاح داريه ( السلاح دار ) . ذكر بعض المؤرخين : أنّ وظيفة أمير السلاح هي وظيفة مستحدثة حيث أنّ الظاهر بيبرس أحب أن يسلك في ملكه بالديار المصرية طريقة جنكيز خان<sup>٣٠٧</sup> ملك التتار وأموره ، ففعل ما أمكنه ورتب في سلطنته أشياء

<sup>٢٩٨</sup> - ابن خلدون: المقدمة ، ص ٣٤١ .

<sup>٢٩٩</sup> - القلقشندي ( أحمد بن علي ، ت ٨٢١ هـ / ) : من كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، اختار النصوص وعلق عليها وقدم لها عبدا لقادر زكار ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، د . ت ، السفر الرابع ، ص ٢٠٠-٢٠٢ .

<sup>٣٠٠</sup> - القلقشندي : السفر الرابع ، ص ٢٨٦ . السخاوي : الذيل على رفع الاصر ، ص ٢١٨ . زكي ( عبد الرحمن ) : السلاح في الإسلام دار المعارف ، القاهرة ، د . ت ، ص ٣٥ .

<sup>٣٠١</sup> - عن السيوف وأنواعها - مؤلف مجهول : خزنة السلاح ، تح نبيل محمد عبدالعزيز ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ٢٣-٣٣ .

<sup>٣٠٢</sup> - القسي على ضربين : أحدهما العربية وهي التي تتركب من خشب فقط ، وأفارسية وهي التي تتركب من أجزاء من الخشب والقرن والعقب والغراء ، ثم إنها على جنسين ، قوس يد ، وقوس رجل ، وقوس اليد ثلاثة أصناف عربية وفارسية وتركيبية والعربية منها على نوعين : الحجازية والواسطية ، يميّز بذلك لتوسطها بين الحجازية والفارسية . خزنة السلاح ص ٤٠ .

<sup>٣٠٣</sup> - النشاب : هو السهم الذي يعلق به الصيد لأنه مسننسهل الدخول وصعب الخروج ، كان هارون الرشيد أول من لعب بالنشاب من الخلفاء ذلك بأن يطير طيراً في الهواء أو يرمي غرضاً أو يرفع على رأس رمح أو نحوه ثم يطلب إصابته بالنشاب وهي لعبة فارسية . أنظر : دهمان ( محمد أحمد ) : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، دار الفكر المعاصر ، بيروت دار الفكر ، ط ١ ، دمشق ، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠ م ، ص ١٥١ .

<sup>٣٠٤</sup> - الرماح : ج رمح ، من أهم أسلحة العرب ، وقد أجادوا استخدامها على ظهور الجياد ولرأس الرمح عدة أشكال واختلف طول قناة الرمح وكان يطلق على الرماح البقصيرة مربوعات ، والطويلة الطوال ، وكانت أسنة الرماح عند العرب تختلف شكلا بين المشعب والعريض والرفيع والمموج ، وغير ذلك ، ويقال لحامل الرمح : الرماح . زكي : خزنة السلاح ، ص ٢٨ .

<sup>٣٠٥</sup> - القرقات : نوع من الدروع . دهمان : معجم المصطلحات التاريخية ، ص ١٢٣ .

<sup>٣٠٦</sup> - الأطبار : ج طبر : وهي البلطة أو الفأس ، كان يسمى حملتها الطبردارية ( البلطجية له رأس نصف مستدير يركب في قضيب من الحديد أو الخشب يحفر عليه نقوش إسلامية أو عبارات دينية . زكي : ص ٣٩ .

<sup>٣٠٧</sup> - جنكيز خان : ولد سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م واسمه الأصلي تموجين وأبوه من القبائل المغولية الضاربة في صحراء الجوبي الممتدة شمال الصين ، وقيل : أنه ولد وفي يده قطعة من دم علامة على المستقبل الدموي الرهيب ، وبدأ حياته الدموية بقتل أخيه لأنه أخذ منه سمكة وشنق ابن عمه بخيط رفيع من الحرير ... وكان يلقي بخصومه بالزيت المغلي . فرج ( السيد ) : قاهر العالم ، دار الفكر العربي ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م ، ص ١٥ . حاشية رقم ١ .

كثيرة لم تكن قبله بديار مصر مثل ضرب البوقات وتجديد الوظائف فأحدث أمير سلاح<sup>٣٠٨</sup> وأمير مجلس<sup>٣٠٩</sup> ، ورأس نوبة الأمراء<sup>٣١٠</sup> ، وحاجب الحجاب والداودار ، وغيرها من الوظائف الأخرى<sup>٣١١</sup> ، وكان هناك [ أي في الزردخانة ] صنّاع من مختلف الاختصاصات يقومون بصنع ، أو إصلاح المعطل من أنواع الأسلحة<sup>٣١٢</sup> . وقد اهتمّ سلاطين المماليك بخزانة السلاح اهتماماً كبيراً ، فكان يصرف فيها كل سنة ، وحسب ما جاء عند الفلقشندي سبعون ألف دينار إلى ثمانين ألف دينار<sup>٣١٣</sup> . لأنّ السلاح سيبقى نشيد الفرسان في كل حديث . من قوته يستمدون العزم ، ومن مضائه يستمدون قدرات القتال ومن شدّته وبأسه ينتزعون النصر ، فهو وسيلتهم في المعارك ، وأغنيتهم عند احتدام الصراع ، فموالّ الفارس ضربة سيف ، أو طعنة رمح ، وعلى أنغام موسيقاه تُقذف أحجار المنجنوقات وتضرب الأكباش<sup>٣١٤</sup> ، وتتقدم الدبابات<sup>٣١٥</sup> بإيقاعات متناسقة إلى أن ترتفع رايات الحق فوق أسوار الباطل .

وهذا السلاح قيل فيه الكثير من الشعر ، والنثر لكن أبلغ ما قيل فيه ما جاء في القرآن الكريم )) ... وأنزلنا الحديد فيه بأساً شديداً ومنافع للناس .. ))<sup>٣١٦</sup> .

وشدّة السلاح تستند إلى صنعته ، وميزاته الفنية ، والتعبوية ، وأنواعه ، والقدرة على استثماره ، والتدريب عليه ، وإمكانية تطويره باستمرار .

قال سهيل زكار عن مسألة تطوير السلاح : (( أن هذه الإمكانية تأتي نتيجة للحوار بين الدفاع والهجوم ))<sup>٣١٧</sup> أي التحدي والاستجابة ، ولا يكون ذلك إلا بالاستناد إلى العلوم ، ومواكبتها واستثمار الوقائع ، والإمكانيات المادية ، والمعنوية ، والدراسة المستمرة للمعارك والحروب قديمها ، وحديثها ، والاستفادة من دروسها ، وتأمين الظروف المناسبة لنشر العلوم ، وبناء الجيوش ، وصناعة الأسلحة ، ونشر الثقافة الحربية المتفوقة ، أو خلق التقدم التقني اللازم لضمان تحقيق النصر ، وهذا لا يكون إلا بانتشار العلوم ، وخلق البيئة المناسبة لذلك .

والعلوم العسكرية جزء من هذه العلوم سواء منها ما يتعلق بالعتاد ( الأسلحة ) ، أو التدريب والإعداد ، أو فنون القتال بمعنى فن الحرب في أبوابه الواسعة . ولدراسة هذه العلوم في الدولة المملوكية الأولى يجب استعراضها نظرياً في الدرجة الأولى أي معرفة ما كتبت عنها في

<sup>٣٠٨</sup> - يتحدث على السلاح دارية ، ويناول السلطان آلة الحرب والسلاح يوم القتال وأثناء الاحتفال بالأعياد الدينية . السيوطي : حسن المحاضرة ، م ٢ ، ص ١٣٣ .

<sup>٣٠٩</sup> - أمير مجلس : بحرس مجلس السلطان ، وفرشه ويتحدث على الأطباء ، والكحالين ، ونحوهم . انظر : السيوطي ، م ٢ ، ص ١٣٣

<sup>٣١٠</sup> - رأس نوبة الأمراء : وظيفة عظيمة عند التتر ويفخمون فيها السنين ، ولما أحدثها الظاهر بيبرس كان صاحبها يسمى رأس نوبة الأمراء ، ومعناه أكبر طائفة الأمراء ، وهو أكبر من أمير مجلس ، وأمير سلاح ، وهو بمرتبة الأمير الكبير الآن ، ولم يكن أحد يسمى بالأمير الكبير إذ ذاك إلى أن ولي هذه الوظيفة شيخو العمري في زمن السلطان حسن فلقب بالأمير الكبير زيادة على التلقب برأس نوبة الأمراء ، وهو أول من لقب بالأمير الكبير . السيوطي : حسن المحاضرة ، م ٢ ، ص ١٣٣ .

<sup>٣١١</sup> - السيوطي : م ٢ ، ص ١٣١ - ١٣٤ .

<sup>٣١٢</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

الفلقشندي : صبح الأعشى ، السفر الرابع ، ص ٢٨٧ .

<sup>٣١٣</sup> - الفلقشندي : السفر الرابع ، ص ١٧٤ .

<sup>٣١٤</sup> - الأكباش : ج كبش وهو آلة من خشب وحديد يجرونها بنوع من الحيل يضرب به الحائط فيتهم . زكي : السلاح في الإسلام ص ٤٨

<sup>٣١٥</sup> - الدبابات : ج دبابة وهي آلة من آلات الحرب يدخل فيها الرجال ويتقدمون إلى الأسوار لينقبوها وهي شبه برج متحرك . زكي : خزانة السلاح ، ص ٢٤ .

<sup>٣١٦</sup> - سورة الحديد : الآية ٢٥

<sup>٣١٧</sup> - زكار ( سهيل ) : القلاع الصليبية ، دمشق ، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٨ م ، ص ١٣٨ .



المصادر والمراجع ، وتحليل الوقائع ، والمعارك والحروب ، ولاسيما ما جاء في المصادر المعاصرة لذلك العصر ، والبحث والتنقيب فيها للوصول إلى الإجابة عن السؤال المطروح من قبل إلى ماذا استندت تلك الانتصارات الكبيرة التي حققتها الدولة المملوكية الأولى وهل من علوم عسكرية ساعدت في تحقيقها ؟

هل هُيأت الظروف المناسبة لبناء الجيش وفق أسس علمية استندت إلى معارف وعلوم ذلك العصر وما سبقه من معارف وعلوم ؟

بمعنى آخر هل تمّت الاستفادة من دروس الحروب السالفة ، والبناء عليها ؟

وبالتالي هل استطاع المماليك أن يحققوا تطويراً حقيقياً على الأسلحة والأعتدة ؟

وما هي هذه التطورات ؟ وكيف حصلت وإلى ماذا استندت ؟ .

كل ذلك يجب بحثه في إطاره النظري من المصادر والكتب والآثار ، ودراسة المعارك الحربية التي خاضوها مع خصوم الداخل وأعداء الخارج ، ثم تتم العودة إلى دراسة التطبيقات العملية لما جاء على صفحات الكتب وبالتالي معرفة الجواب على السؤال : هل استطاع الجيش المملوكي الأول استثمار هذه العلوم في الميدان بشكل حقيقي ؟ .

وسيتّم البحث في هذا الموضوع من الاتجاه الأول أي نظرياً وفق ما جاء في المصادر والكتب وفق ما هو مخطط:

## ٢ - السلاح المستخدم في العصر المملوكي الأول وتقنياته : -

لدراسة السلاح الذي أستخدم في العصر المملوكي الأول والتقنية الحربية التي استخدمت لصناعتها يجب العودة قليلاً إلى الوراء لأنه وكما إدعى ابن خلدون : إنّ خروج الأشياء من القوّة إلى الفعل لا يكون دفعة واحدة ولاسيما في أمور الصناعة فإنها تحتاج إلى وقت لتتحول الأفكار إلى وقائع أو حقائق على الأرض<sup>٣١٨</sup>. لأن القضية هنا قضية معرفه تراكمية تتحول مع الزمن والخبرة إلى فعل جديد له صفاته ومميزاته وخصائصه المختلفة عن الأصل ، وقد قسم ابن خلدون الصنائع إلى ثلاثة أقسام :

الأول : - ما يختص بأمر المعاش ضرورياً كان أو غير ضروري .

الثاني : - ما يختص بالأفكار التي هي خاصّة بالإنسان .

الثالث : - ما يختص بالعلوم والصنائع العسكرية والسياسة .

من الأول الحياكة والجزارة والنجارة والحدادة وأمثال ذلك ويستفاد من بعضها في تطوير الأسلحة حتما كالحدادة والنجارة إلى غير ذلك . ومن الثاني الوراقة وكل ما يتعلق بالكتب والغناء والشعر وتعليم العلم ويستفاد منها في بناء شخصية الانسان المقاتل وهو الركن الأهم في

<sup>٣١٨</sup> - ابن خلدون : المقدمة ، ص ٤٨٢ .

تطوير فن الحرب . ومن الثالث الجندية وكل ما يتعلق بها<sup>٣١٩</sup> . ومن أجل معرفة ما يتعلق بالجندية الأسلحة وتقنياتها أو ما سمي التقانة الحربية لا بد من الرجوع إلى المصادر التاريخية ودراسة ما أوردته من وصف للمعارك الحربية وأسلحتها وأخذ ما يمكن أخذه منها للتعرف على مدى التطور الذي حصل على تلك الأسلحة وطرق التدريب عليها وفن الحرب المتبع أو المطبق بين الأطراف المتحاربة بشكل عام ، وهنا قد لا تسعفنا هذه المصادر بما نودّ ونرغب لأن معظم هذه المصادر تحدثت عن المعارك ووصفتها في بعض الأحيان وصفاً دقيقاً لكن دون الخوض في التفاصيل لأنواع الأسلحة وطرق وأساليب استخدامها وأهميّة الإعداد والتعبئة وإدارة الحروب وصناعة الأسلحة وتطورها ودواعي وأسباب حصول ذلك . إلا أنّ الأمور قد تغيرت منذ نهاية القرن الثاني عشر الميلادي وما بعد ذلك حيث تم تأليف عدد لا بأس به من ما سمي بالرسائل الحربية التي تحدثت في هذه الأمور وبالتفصيل في بعض الأحيان . أغنت تلك الرسائل المكتبة العربية ولّبت بعض طموحات البحث لمعرفة الأسرار التي كانت تكمن وراء النجاحات المبهرة التي حققتها جيوش الدولة المملوكية الأولى وإن كانت بعض تلك الأسرار ما زالت تنتظر إمطة اللثام عنها . أما عن أسباب كتابة هذه الرسائل :

- إنّ الذين كتبوا في هذا المضمار كانوا في معظمهم أساتذة في الفن الذي كتبوا فيه أو معلمين أتقنوا تلك الصنعة بدقة ، وكانوا قادرين على نقل المعلومات عنها إلى الآخرين وتعليمهم .
- إنّ الذين كتبوا في هذا المضمار كانوا يدركون أن لا أحد يستطيع أن يعلم تلك العلوم إلا عالم بالفروسية<sup>٣٢٠</sup> .
- إنّ الذين كتبوا في هذا المضمار كانوا واسعوا الاطلاع والثقافة قال الرشدي (( كنت ممن نظر في كتب التاريخ على اختلافها ، وتدبير وقائع الحروب منها على تباين أصنافها وما رتبته بذلك أهل التدبير من رؤسائها ، وما اقتضاه رأي كل من مشايخ الحرب وعلمائها ، وما أورده أفاضل الكتاب في وصايا المقدمين على العساكر ، وما وقع لدهاة الحروب من حيلة محتال ومكر ماكر ..))<sup>٣٢١</sup>
- كان هؤلاء يدركون مقدار النقص الحاصل في المعلومات عن الأسلحة وصناعتها ، أو إصلاحها ، وليس الأسلحة فقط بل وفي مجال التدريب للجنود ، والتأهيل للخيل وترويضها وعلاجها<sup>٣٢٢</sup> ، فأرادوا أن يسدوا النقص الحاصل .
- ميدان التدريب هو المكان الذي يتم على أرضه تدريب الفرسان والقادة والجنود وعلى أرض الميدان تنفذ الخطط وتستبدل التكتيكات ويطبق بشكل عملي ما تعلمه القائد أو الجندي من الكتب والمراجع وتوضع النقاط على الحروف . هذه الميادين لم يتحدث عنها أحد لا وصفاً ولا شكلاً ولا مضموناً ولا أهمية ، وهذه الميادين ليست ساحات فارغة بلا معنى ، ففيها ترسم الخطط وفيها تعالج طرق انتظام الأجناد في صفوف عند

<sup>٣١٩</sup> - ابن خلدون : المقدمة : ص ٤٨٣ .

<sup>٣٢٠</sup> - الطرابلسي ( محمد بن لاجين ، ت ٧٨٠هـ / ١٣٧٩م ) : الفروسية برسم الجهاد ، تح عارف أحمد عبد الغني ، دار كنان ، ط ١ ، دمشق ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م ، ص ٧ .

<sup>٣٢١</sup> - الرشدي : تفريخ الكروب في تدبير الحروب ، ص ١٣ .

<sup>٣٢٢</sup> - الناصري ( أبو بكر بن البدر البيطار ، ت ٧٤١هـ / ١٣٤١م ) : كامل الصناعتين في البيطرة والزرقة ، تح عبد الرحمن إبريق ، منشورات جامعة حلب - معهد التراث العلمي العربي ، حلب ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م ، ص ٩٨ .

- القتال ، لا بل حتى عند الاحتفالات العسكرية لذلك كان لابد من التحدث عنها ووصف كيفية الدخول إليها وحلقات المقابلة فيها وصفوف المداخلة والمطاردة والمبارزة<sup>٣٢٣</sup> .
- إيمانهم المطلق بأهمية الأسلحة وتطويرها وتصنيعها ودراسة فنون القتال وأنواع الحيل والمكر والخديعة والاحتراس من العدو<sup>٣٢٤</sup> .
  - محبتهم للعلم ، وأن لا يذهب ما تعلموه **وخبروه** هباء ، بل يجب أن يكتب ويحفظ لتستفيد منه الأجيال القادمة ، وليكون الأساس والقاعدة لتطور هذا العلم . قال الجزري : « ولما وجدت في ذلك من المشقة ما مد علي الشقة كرهت أن يذهب اجتهادي أدراج الرياح وينتسخ أثر ما عملته انتساخ الليل بالصباح ، وسولت لي نفسي أن أضع في ذلك تذكاراً لمن عنيت ببشر أديمه ورغبت في تعليمه »<sup>٣٢٥</sup> .

إضافة إلى الحروب المستمرة التي عاشتها تلك الدولة داخلياً وخارجياً وبالتالي طبيعتها الحربية التي أفرزت أشخاصاً اهتموا بما اهتمت به الدولة وتشجعوا بما شجع عليه سلاطين و أمراء وحكام تلك الدولة . ومن أهم الذين كتبوا في هذا المضمار :

### ٣- أهم الذين كتبوا في موضوع السلاح

أ- الأقسرائي الحنفي الرومي (**محمد بن عيسى** بن إسماعيل بن خسرو شاه ، المتوفى سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م ) كان فقيهاً متمكناً وكان متحدثاً .. ومصنفاً مغرماً بفنون القتال والسلاح وكثيراً ما كان يعود إلى نوي الاختصاص من جند دمشق وهو موهوب **بمعرفة** آلات الفروسية وقراءة كتب الأوائل<sup>٣٢٦</sup> ، ومن أهم ما كتب هو كتاب نهاية السؤل والأمنية في تعلم أعمال الفروسية ، وقال عنه سهيل زكار : إن كتاب نهاية السؤل والأمنية أشبه بموسوعة حوت بين دفتيها زبدة ما توصل إليه العرب حول الجهاد والرماية واستخدام الرمح والسيف وحول فنون السوقية والعسكرة والمدهش فيه كثرة الحديث عن الأسلحة النارية<sup>٣٢٧</sup> .

ب- الرّماح ( نجم الدين حسن أيوب الأحذب ) وكان رماحاً وفارساً وأستاذاً في فن الحرب وهو من أشهر من كتب في الفروسية وفي النيران الحربية والبارود . عاش الرماح في النصف الثاني من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي في بلاد الشام واشترك في معارك تحرير الأرض من الصليبيين وتوفي سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٤م ، ومن أهم ماكتب « الفروسية والمناصب الحربية » وهذه المخطوطة سيتم دراستها والاستفادة منها في الفصول القادمة لما لها من أهمية ، كما كتب الرماح - رسالة الفروسية برسم الجهاد ، وكتب أيضاً ألعاب المبارزة وعمل الرمح على الأرض والفرس والبنود في معرفة الفروسية واللعب بالرمح في معرفة الفروسية ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود م ف / م / ٩٦٨ ) .

<sup>٣٢٣</sup> - الطرابلسي ( لاجين بن عبد الله الذهبي ، ت ٧٣٨هـ / ١٣٣٨م ) : تحفة المجاهدين في العمل بالميدان ، تح ، محمد عيسى صالحية ، منشورات جامعة حلب ، معهد التراث العلمي العربي ، حلب ، د . ت .

<sup>٣٢٤</sup> - ابن منكلي ( محمد ، ت ٧٨٠هـ / ١٣٧٩م ) : الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ، تح نبيل محمد عبد العزيز مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، د . ت ، ص ١٧ .

<sup>٣٢٥</sup> - الجزري : الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل ، ص ٤ .

<sup>٣٢٦</sup> - الأقسرائي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٧ .

<sup>٣٢٧</sup> - الأقسرائي : ص ٨ .

ج - ومن الذين كتبوا في هذا المجال أيضاً شرف الدين محمد بن عبد المؤمن بن خلف الدمياطي المتوفى سنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٦م الذي كتب في الخيل وأجناسهم وأوصافهم ومحاسنهم وفضائلهم وما أشبه ذلك ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود ص ٢٠٦ ). وإذا ما أدركنا ما كان للخيل في ذلك الزمن من أهمية بالغة في حسم المعارك لمصلحة من امتلك العدد الأكبر من الخيالة ومن امتلك ناصية الفروسية لزال التعجب من الاهتمام بالخيول والكتابة عنها .

د - ومن كتبه أيضاً الخيل ، أو فضل الخيل ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود ٨٦٩٥ ) .

هـ - وكتاب فضل الخيل أو فضل الخيل على طريقة المحدثين ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود ١٣٤٨١ ) .

و - محمد بن منكلي الناصري ، ت ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م ( وهو أحد مقدمي الحلقة السلطانية ثم نقيباً للجيش المملوكي في عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون ٧٦٤هـ - ٧٧٨هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٦م )<sup>٣٢٨</sup> ( والمعروف أنّ أجناد الحلقة المنصورة كانوا في ذلك الزمن أربعة وعشرون ألف جندي كل ألف منهم مضاف إلى أحد الأمراء مقدمي الألوف وكل مائة من الألف لهم باش ونقيب ومنهم ما هو بحري يقيم في القلعة السلطانية ومنهم من يقيم في غيبة السلطان بمراكز معينة في مصر والقاهرة ، وإنّ نقابة ( نقيب ) الجيش وضعت لتحلية الجند أثناء العرض وكان من تولاها يمشي معه النقباء وإذا طلب السلطان ، أو النائب أو الحاجب أميراً ، أو أحداً من أجناد الحلقة ، أو غيره أحضره إليه النقيب )<sup>٣٢٩</sup> وأشتهر ابن منكلي بأنه كان على معرفة بفنون الحرب وحيلها ، ومن مؤلفاته الحربية - الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ المسالك والدروب<sup>٣٣٠</sup> ، وتشتمل على معلومات واسعة عن تراكيب النيران ، ومن مؤلفاته أنس الملا بوحش القلا<sup>٣٣١</sup> ، وهو يبحث في الصيد والسلاح . والمنهل العذب لورود أهل الحرب ، والأدلة الرسمية في التعابي الحربية<sup>٣٣٢</sup> والتدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية<sup>٣٣٣</sup> ، والرسالة المرضية في صناعة الجندي<sup>٣٣٤</sup> ، والكشف والبيان ، وأقصى الأمد في الرد على منكر سر العدد ، والعقد المسلوك فيما يلزم جليس الملوك ، ورسالة التحقيق في صورة التفويق ( وهي رسالة عن السهم ) ، والأحكام المملوكية والضوابط الناموسية وهذه

<sup>٣٢٨</sup> - عواد : مصادر التراث العسكري ، ج ٣ ، ص ٨٠ . وعن ترجمة الأشرف شعبان . ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ١١٣ .

<sup>٣٢٩</sup> - القلقشندي : صبح الأعشى ، السفر الرابع ، ص ٢١-٢٢ .

- والنقيب : هو من ينظم الجند ويزينهم وقت العرض ، ويحضر إلى السلطان أو نائبه من يحتاج إليه من الأمراء . السيوطي : حسن المحاضرة ، م ٢ ، ص ١٣٠ .

<sup>٣٣٠</sup> - عواد : مصادر التراث العسكري : ج ١ ، ص ٢٧١-٢٧٢ . نشرة أخبار التراث العربي : العدد ٤٥ ، ١/٦/١٩٧٣م ص ٤ .

<sup>٣٣١</sup> - عواد : ج ١ ، ص ١٠٣ .

<sup>٣٣٢</sup> - عواد : ج ١ ، ص ٤٦ . يوجد نسخة عن المخطوط في مديرية التراث القديم في وزارة الثقافة بدمشق تحت رقم ف ١١٨١ . كما يوجد صورة ميكرو فيلم عن المخطوطة في مكتبة الأسد الوطنية رقم الميكرو فيلم م ف / م / ١١٣٦٣ وهي مؤلفة من ٤٨ لقطة مصورة مكتوبة بخط نسخي .

<sup>٣٣٣</sup> - حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص ٥٠-١٣٣-٨٩٠ . ذكرها د سعيد عبد الفتاح عاشور في مجلة كلية الآداب والتربية ، جامعة الكويت ، عدد ١١ ، حزيران ١٩٧٧م ، ص ٣٩ . عواد : ج ١ ، ص ١٥٩-١٦٠ .

<sup>٣٣٤</sup> - حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٨٩٠ . عواد : ج ١ ، ص ٣٥٤ .

عاشور ( سعيد ) : مجلة كلية الآداب والتربية ، جامعة الكويت ، عدد ١١ ، حزيران ١٩٧٧م ، ص ٣٩ .

الرسالة تبحث في القتال في البحر وتحتوي على ١٢٢ باباً اشتملت على ذكر السفن ووصفها وحركاتها والرمي بالمدافع<sup>٣٣٥</sup> .

ز - ومن الذين كتبوا في هذا المجال أيضاً الحسن بن عبد الله بن محمد بن عمر العباسي الذي كتب آثار الأول في تدبير الدول<sup>٣٣٦</sup> وهو مطبوع أكثر من مرة - منها على هامش كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي . وهناك رسائل حربية أخرى كتبت في القرن الرابع عشر الميلادي وهي تمثل المستوى التقني الحربي الذي كان سائداً وقتها وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي في أيام الحروب ضد الصليبيين والمغول .

ح - ومن أشهر المؤلفين في ذلك الزمن لاجين بن عبد الله الذهبي الطرابلسي الحسامي المتوفى سنة ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م الذي ألف تحفة المجاهدين في العمل بالمياطين<sup>٣٣٧</sup> ، والفروسية برسم الجهاد ، والخيل أو كامل الصناعتين البيطرة والزرقة<sup>٣٣٨</sup> . وهي : مخطوطة يوجد نسخة عنها في مكتبة الأسد الوطنية رقم الورود ١٧٥٦٠ ت ،

ط - ومنهم أبو بكر بن المنذر البيطار ( حي ٧٤١هـ / ١٣٤٠م ) ألف كاشف الويل في أمراض الخيل ، وقد رتب هذه المخطوطة في عشرين باباً في معرفة الخيول العربية ، وتربيتها ، وأمراضها ، وعلاجها ( تم تحقيق هذه المخطوطة من قبل معهد التراث العلمي بجامعة حلب ) وابن البيطار كان صاحب خيل السلطان الناصر محمد ابن قلاوون ، وكبير بباطرته .

ي - ومنهم عمر بن المظفر بن الورد الكندي ( ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩م ) الذي ألف المفخرة بين السيف والقلم ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود ص م ١٧٣ ) .

ك - ومنهم موسى بن محمد بن يحيى ( ت ٧٥٩هـ / ١٣٥٨ ) ، وألف كتاب اسمه كشف الكروب في معرفة الحروب<sup>٣٤٠</sup> ( يوجد نسخة من مخطوطته بدار الكتب المصرية تحت رقم ٢١٠ فنون حربية ) . قال عنه الصفدي : أنه كان مقدماً في الحلقة المنصورة في الجيش المملوكي<sup>٣٤١</sup> ، ومع أنه لا يعرف على وجه الدقة تاريخ توليه لمنصبه هذا لكن على الأقل يمكن القول : أنه لم يكن قبل سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م ، ففي هذه السنة شارك المؤرخ في الحملة المملوكية على اليمن<sup>٣٤٢</sup> .

<sup>٣٣٥</sup> - عواد : مصادر التراث العسكري ، ج ١ ، ص ٣٦ .

<sup>٣٣٦</sup> - عواد : ج ١ ، ص ١١ .

<sup>٣٣٧</sup> - عواد : ج ١ ، ص ١٥٦-١٥٧ . يوجد نسخة عن المخطوط في المكتبة الأحمديّة بحلب تحت رقم ١٣٧٢ .

<sup>٣٣٨</sup> - عواد : ج ٢ ، ص ٢٧٥ . عن الزرقة أنظر الحاشية رقم ١ في الصفحة نفسها ، وتعني ضم علم الحيوان إلى علم الفلاحة ، وتربية الخيل في تعليمها ولوازمها وهو ما يدخل في علم البيطرة .

<sup>٣٣٩</sup> - السخاوي : الذيل التام ، ص ١٠٢-١٠٣ .

<sup>٣٤٠</sup> - اليوسفي : نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ، ص ٥٢ .

<sup>٣٤١</sup> - الصفدي : أعيان العصر وأعوان النصر ، ص ٢١٦ .

<sup>٣٤٢</sup> - العيني ( بدر الدين محمود ) : عقد الجمان ، ج ١٧ ، ص ٢٩١١ . أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٩٤ . ابن أبيك : كنز الدرر

ج ٩ ، ص ١٥-١٨ .

المقريزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ٨٨٦ .

ل - ومنهم محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية الذي ألف الفروسية المحمديه<sup>٣٤٣</sup> ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود ص م ٣٧٣ ) .

م - ومنهم محمد بن لاجين بن عبدالله المتوفى سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م وألف كتاب بغية القاصدين بالعمل في الميادين<sup>٣٤٤</sup> كتبه للأمير سيف الدين مارديني صاحب حلب وله أيضاً غاية المقصود في العلم والعمل بالبنود<sup>٣٤٥</sup> . وله كتاب الرماح<sup>٣٤٦</sup>

ن - ومنهم محمد بن يعقوب بن أبي خزام الخثلي الذي كتب كتاب الخيول والفروسية يوجد صورة عنه في معهد التراث العلمي العربي بحلب .

س - ومنهم طمرغا الأشرفي البكلميشي ( ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م ) الذي كتب كتاب الفروسية ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود م ف / م / ١١٨٤ ت ٣ ) .

- وكتاب آخر بعنوان بغية الرامي وغاية المرامي يتكون من ٢٨١ صفحة بخط أحمد بن غازي ابن عبيد سنة ٧٣٥هـ / ١٣٣٤م ( يوجد صورة عنها في معهد التراث العلمي العربي بحلب تحت رقم ٣ ) . وهو كتاب في الرمي بالقوس والنشاب والبنوق<sup>٣٤٧</sup> . وكتب أيضاً الجهاد والفروسية وفنون الآداب الحربية<sup>٣٤٨</sup> اشتمل على قصيدة نونية في الرمي والطعن . وكتب أيضاً كتاب الرمي بالقوس والنشاب<sup>٣٤٩</sup>

ع - ومنهم عمر بن رسلان البلقيني المتوفى سنة ٨٠٥هـ / ١٤٠٣م الذي كتب قطر السيل في أمر الخيل<sup>٣٥٠</sup> ، ( يوجد نسخة عنها في مكتبة الأسد غير معروفة تاريخ النسخ رقم الورود ٦٣٠٥ ) .

ف - ومنهم محمد بن عزاز الذي ألف رسالة فن الحرب ونظام التعبئة ، نسخ سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٨م ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود م ف / م / ١٣٧٥ ) .

وهناك الكثير من الرسائل التي كتبت والتي لا تعرف أسماء مؤلفيها ومنها :-

- البنود المفردة ( يوجد صورة عنها في معهد التراث العلمي العربي تحت رقم ٤ ) .

- خزانة السلاح وهو كتاب قدمه مؤلفه إلى السلطان أحمد بن محمد بن مظفر شاه سنة ٨٤٠هـ / ١٤٣٧م وقام بتحقيقه نبيل محمد عبد العزيز الذي أكد أن المؤلف كان من رعايا الدولة المملوكية وقد ذهب إلى الهند وهناك كلفه سلطانها بكتابة هذه المخطوطة التي سماها خزانة السلاح لكنه لم يتحدث فيها عمّا حوته الخزانة من أسلحة لأنه اعتبر ذلك مهمة عظيمة تحتاج

<sup>٣٤٣</sup> - عواد : مصادر التراث العسكري ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ .

<sup>٣٤٤</sup> - الزركلي : الأعلام ، ج ٦ ، ص ١٠٠ ، الحاشية رقم ٧ .

<sup>٣٤٥</sup> - الزركلي : ج ٧ ، ص ٢٣٧ . عواد : ج ٢ ، ص ٦٤ .

<sup>٣٤٦</sup> - الزركلي : ج ٧ ، ص ٢٣٧ . زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ .

<sup>٣٤٧</sup> - عواد : ج ١ ، ص ١٢٦ .

<sup>٣٤٨</sup> - عواد : ج ١ ، ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

<sup>٣٤٩</sup> - عواد : ج ١ ، ص ٣٦١ .

<sup>٣٥٠</sup> - عن البلقيني ( عمر بن رسلان بن نصر ، ت ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م ) . عواد : ج ٢ ، ص ٢٥٦ .

إلى جهود كبيرة وهمة عالية وصبر يستجيب إلى عظم المسؤولية لكنه تحدث عن الأسلحة بشكل عام .

- فنون حربية وفروسية ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في معهد التراث العلمي العربي بحلب تحت رقم ٣٠٥ وصورة في مكتبة الأسد رقم الورود م ف / م / ١١٩٦ ) .

- الكمال في الفروسية وأعمال السلاح ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود م ف / م / ١١٥٥ ) .

- رسالة في الفروسية ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود ١٣٨٨٧/ ) .

- كتاب في الخيل ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود م ف / م / ١٣٣٧ ) .

- كتاب في تأديب الخيل وإصلاح ما فسد منها ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود م ف / م / ١٦٢٦ ت ١ ) .

- نبذ تتعلق بأصل الخيل وفضائلها واقتنائها ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود ١٠١٥٣ ) .

- رسالة في الرمي بالبندق ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود ٩٣٠٤ ت ١١ ) .

- كتاب معرفة الخيل والجهاد وعلم الضرب بالصوالة ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود م ف / م / ١١٣٣ ) .

- كتاب في العلم بالفروسية والرمي ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود م ف / م / ٥٢٨٣ ) قام بنسخها محمود بن علاء الدين الجندي سنة ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م .

- منظومة نونية في شرح علم الفروسية ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود ١٤٦٥٩ ) .

- **تاريخ فن حرب** ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود م ف / م / ١٥٣٩ ت ١٣ ) .

- كتاب مجموع في الرمح وغيره ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود م ف / م / ١١٤٤ ) .

- المستجاد مما ألف في الخيل الجياد ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود ١١١٠٧ ) .

- بغية المرامي في الرمي بالقوس والنشاب والبندق ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود م ف / م / ١٣٤٤ ) .

- درج السياس في علم الفراس وحكمة الخيل من صلاحة وقباحة ( يوجد نسخة مصورة عن المخطوطة في مكتبة الأسد رقم الورود م ش / م / ٣٣٠١ ) .

ويوجد رسائل أخرى كثيرة تحدثت في هذا الموضوع وذكرت الأسلحة وأنواعها الخفيفة والثقيلة ( أسلحة الحصار ) والأسلحة النارية و عددت أنواعها والمواد المصنعة منها وكيفية تصنيعها ونسب المواد الداخلة في التصنيع وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على مستوى تطور العلوم . كما تحدثت عن كيفية التدريب عليها ذاتياً ، أو التدريب عليها في أماكن التدريب وذكرت أيام التدريب والمناسبات التي تستغل من أجل ذلك ، وكيفية تنفيذه وشروطه وأنواعه وصفات المدرب والمتدرب ولأي سلاح يصلح كي يتم تدريبه عليه إلى غير ذلك من الأمور . كما تحدثت عن أنواع الأسلحة ، وصفاتها ، وإمكاناتها ، وكيفية تصنيعها ، واستخدامها من قبل الرجل والفراس . كما ذكرت التطورات التي طرأت عليها من حيث النوع والقدرة والإمكانية إلى غير ذلك مما سيتم البحث فيه نظرياً ثم عملياً في ميادين القتال والمعارك الحربية .

### ٣- العوامل المساعدة لتطوير تقنيات السلاح في العصر المملوكي الأول :

على رأس هذه العوامل المواد الأولية اللازمة للصناعة والتي يمكن تقسيمها إلى ما يلي

أ - الأخشاب : التي كان الجزء الكبير منها يتوفر محلياً مثل أخشاب **السنط** الصالحة لعمل الصواري وضلع جوانب السفن ، واللبخ ، والجميز ، والطفاء ، والأثل ، والدوم التي تصلح لصناعة المجاديف ، وقد كانت تزرع على ضفاف النيل ، وفي مناطق وضياع الأمراء الذين كانوا يحتكرون تجارته ، ويمنعون الناس من التصرف بأخشابه وكانوا يشددون الحراسة على الحراج أينما كان في أراضي الدولة المملوكية ولاسيماً حراج السنط **Acacia** التي كان يطلق عليها اسم الحراج السلطانية<sup>٣٥١</sup> ، وكانت توجد بكثرة في جنوب الدلتا ، وصعيد مصر ، وشبه جزيرة سيناء<sup>٣٥٢</sup> ، وكان لا يسمح الاقتراب منها ، والتصرف بها إلا ما هو لازم لصناعة مراكب الأسطول ، وكان فيها ما تبلغ قيمة العود الواحد مائة دينار<sup>٣٥٣</sup> ، كما أنّ أشجار الصنوبر ، والأرز والبلوط ، والعرعر كانت تزخر بها جبال لبنان ، وسوريا<sup>٣٥٤</sup> . أما الأنواع الأخرى التي لم تكن تتوفر في أراضي الدولة المملوكية ، فكان يتم استيرادها من الدول الأخرى ، فيذكر ابن جببر أنّ خشب الساج ( التيك ) اللازم لصناعة السفن كان يجلب من الهند ، ومن اليمن<sup>٣٥٥</sup> كما استوردته مصر من الحبشة ، والسودان<sup>٣٥٦</sup> وكذلك استوردت الأخشاب من الأناضول حيث يذكر ابن بطوطة عند كلامه عن مدينة العلايا الواقعة على ساحل الأناضول أنها كثيرة الخشب ، ومنها يحمل إلى الإسكندرية ودمياط ويحمل

<sup>٣٥١</sup> - ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٦٦ ؛ عدوان ( أحمد محمد ) : العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي ، عالم الكتب الرياض ، د . ت ، ص ٥١ .

<sup>٣٥٢</sup> - ابن مماتي : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٥ .

<sup>٣٥٣</sup> - ابن مماتي : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٥ - ٣٤٧ .

<sup>٣٥٤</sup> - بركات ( وفاق ) : فن الحرب البحرية في التاريخ العربي الإسلامي ، منشورات جامعة حلب - معهد التراث العلمي العربي ، حلب ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م ، ص ١٨ .

<sup>٣٥٥</sup> - ابن جببر ( أبو الحسن محمد ، ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م ) : رحلة ابن جببر ، دار الشرق العربي ، بيروت ، د . ت ، ص ٧٦ .

<sup>٣٥٦</sup> - العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية ، ص ٢٠٨ .



منهما إلى سائر أنحاء مصر . كذلك استورد المماليك الأخشاب من البندقية ، وكانوا يصرون في جميع معاهداتهم مع الدول الأخرى على طلب خشب الأرز ، والصنوبر ، والحديد ، والقطران ، وغير ذلك من المواد اللازمة لها<sup>٣٥٧</sup> ومثال ذلك المعاهدة التي عقدت بين السلطان قلاوون ، وملك أراغون والتي سمح من خلالها بجلب الحديد ، والخشب ، وغير ذلك من المواد إلى الثغور الإسلامية . لكن يجب التنويه إلى أن استيراد المواد الإستراتيجية ، ومنها الأخشاب من أوروبا كانت تجد صعوبة في بعض الأحيان بسبب موقف البابوية التي كانت تمنع ذلك . وليست البابوية وحدها من كان يحرم دخول المواد الأولية الداخلة في تصنيع الأسلحة بل كثير من الدول ، فعلى سبيل المثال احتج الإمبراطور البيزنطي لدى دوج البندقية ، وطلب منه وقف إمداد المسلمين بالمواد التي لها قيمة في التصنيع الحربي ، فتوقف بيع الخشب إلى مصر عدا الأخشاب غير الصالحة لبناء السفن ، والتي لا يتجاوز طول اللوح الواحد خمسة أقدام ، وعرضه نصف قدم<sup>٣٥٨</sup> ، وهناك ملاحظة أخرى لا بد من ذكرها هي أنه في الكثير من المعاهدات التي كانت تعقد بين المماليك ، والصليبيين كان يتم التأكيد على عدم الاتجار بالمواد التي تصنع منها الأسلحة ، ومهما كان نوعها<sup>٣٥٩</sup> .

لكن كان يستفاد من موارد المناطق التي كان يتم تحريرها ، أو الاستيلاء عليها لمدة قصيرة ، أو أثناء الحصار للمناطق التي استولى عليها الفرنجة ، فعلى سبيل المثال في سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م عندما حاصر السلطان الظاهر بيبرس طرابلس ، وناوش أهلها القتال ، وأخذ برجاً كان بالقرب منها ، وضرب أعناق من كان فيه من الفرنجة<sup>٣٦٠</sup> أغارت العساكر على الجبال القريبة ، وغنموا شيئاً كثيراً ، وقطعوا الأخشاب التي كانت تستخدم في صناعة السفن ، والمنجنقات ، وهدموا الكنائس ، وقسموا الغنائم في العسكر<sup>٣٦١</sup> . مثال آخر : عندما حرر السلطان الظاهر بيبرس أنطاكية أمر بكتابة البشائر بذلك ، و كان من ضمن ما كتب إلى صاحب أنطاكية رسالة من إنشاء القاضي فتح الدين ابن عبد الظاهر جاء فيها : (( ... ، وكيف قطعت الأشجار ، ولم نترك إلا ما يصلح لأعواد المنجنق إنشاء الله والستائر ))<sup>٣٦٢</sup> . لذلك ، وبناء على ما تقدم كانت سياسة المماليك في تأمين المواد الأولية اللازمة لتصنيع السلاح تعتمد على تعدد المصادر ولا تعتمد على مصدر واحد .

ب - الحديد : الحديد معدن مهم لصناعة الكثير من الأسلحة ، ومنها السيوف ، ومنها رؤوس النشاب ، وأسنة الرماح ، والدروع ، وأنواع الأسلحة الجماعية ، والمسامير وغير ذلك .

وتذكر المصادر أن المماليك استوردوا الحديد اللازم لصناعة السيوف من جبال لبنان وشمال الشام<sup>٣٦٣</sup> ، وبعض البلدان الأوروبية . كما تذكر لنا المصادر وصفا مهما للكيفية

<sup>٣٥٧</sup> - العبادي : ص ٢١٦ .

<sup>٣٥٨</sup> - عدوان ( أحمد ) : العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي ، ص ٥٢ .

<sup>٣٥٩</sup> - نص المعاهدة بين المنصور قلاوون وبين فرنجة عكا : المقرئبي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٦٦-١٦٩ .

<sup>٣٦٠</sup> - اقتصررت جيوش السلطان هنا على مهاجمة المناطق المحيطة بطرابلس ولم يستطع بوهيموند السادس وهو صاحب طرابلس وأنطاكية أن يقوم بأية مقاومة ضد السلطان الظاهر بيبرس . النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩٣-٩٤ .

<sup>٣٦١</sup> - المقرئبي : السلوك : ج ٢ ، ص ٤٩ .

- المنصوري : مختار الأخبار ، ص ٨٧ .

<sup>٣٦٢</sup> - ابن أبيك الداوداري : كنز الدرر ، ج ٨ ، تح أولرخ هارمان ، ص ١٢٨ .

<sup>٣٦٣</sup> - زكي : السيف ، ص ١٠٥ .

التي كانت تتم فيها صناعة الحديد المغنطيسي في المصانع الحربية المملوكية فتقول : (( تؤخذ كمية معينة من برادة الحديد ، يوضع عليها كمية مساوية من ورق الخروع اليابس ، ومثله تتكرر<sup>٣٦٤</sup> ، ثم خذ من عظام السمك غير المشوي ، واللؤلؤ والتوتياء ، ونواة التمر ، وحب الخروع أجزاء متساوية ، واسحقها جميعا والقي عليها كلها ثلاث أوراق وضعها على النار أربع ساعات ثم اصنع منه ما شئت )) . كما ذُكرت عدة وصّفات لصناعة الحديد المغنطيسي ، ووصفات أخرى لصناعة حديد لا يصدأ ( طلي الحديد بمخلوط من صمغ الصنوبر ، وصمغ الخشب ، والمصطكي والزفت بنسب معينة فإنه لا يصدأ أبدا ) ، وذكر ابن أرنبغا الزردكاش طريقة أخرى لصنع مزيج تطلّى به الآلات الحربية المصنوعة من المعدن حتى لا يصدأ<sup>٣٦٥</sup> .

ج - مواد زراعية أخرى: مثل القطن والكتان وكانت زراعة هذه المواد تكثر في مصر . يذكر ابن الفقيه في كتاب البلدان (( ومن عجائب مصر نوع من الكتان اسمه الدقس كانت تصنع منه حبال السفن ))<sup>٣٦٦</sup> .

د - النفط : الذي استخدم في صناعة النيران ، وكان موجوداً في مصر يقول القلقشندي : إن الأسود منه يوجد على ساحل بحر القلزم ، ويسيل من أعلى الجبال، ويؤخذ ويجمع في خزائن السلاح السلطانية<sup>٣٦٧</sup> .

هذه المواد ، وغيرها كثير كانت متوفرة في أراضي الدولة المملوكية ساعدت بشكل كبير على ازدهار الصناعات الحربية ، ولاسيما الأسلحة التي شكلت العمود الفقري للانتصارات الدولة المملوكية الأولى داخلها ، وخارجيا .

## هـ - السلاطين وصناعة الأسلحة :

نتيجة لتوفر المواد الأولية في مصر ، أو إمكانية استيرادها من الخارج ونتيجة لطبيعة الدولة المملوكية الحربية وما واجهها من تحديات خارجية وداخلية التي فرضت عليها مجاراة تسليح الجيوش الصليبية وضرورة السعي للتفوق عليها وعلى جيوش الإغصان المغولي القادم من الشرق فقد اهتم سلاطين المماليك بصناعة الأسلحة ، وأولوها كل الرعاية والاهتمام ، فقام بعضهم بوقف الأراضي لشراء الأسلحة ، أو شراء المواد الأولية اللازمة لصناعتها كما فعلت السلطنة شجر الدر التي أوقفت بلادا بأكملها في مصر ورصدت خراجها لعملية شراء وتصنيع الأسلحة<sup>٣٦٨</sup> ، إضافة إلى الحض الدائم على تصنيع الأسلحة ولاسيما التي تتوفر موادها الأولية في أراضي الدولة . وتشير المصادر إلى أن السلطان الظاهر بيبرس ومن جاء بعده من السلاطين كانوا يحرصون على تجديد السلاح والعناية به<sup>٣٦٩</sup> . كذلك اهتم السلاطين بصناعة

<sup>٣٦٤</sup> - التتكار : هو نوع من أنواع الملح فيه مرارة وهو حار يابس .

<sup>٣٦٥</sup> - ابن أرنبغا: الأنيق في المنجنيق ، ص ٢٢٦ .

<sup>٣٦٦</sup> - ابن الفقيه : مختصر كتاب البلدان ، ص ٦٦ . وذكر المقدسي أن الكتان كان يزرع حتى في القاهرة نفسها أيام الشتاء في مكان بركة الرطلي . المقدسي ( عز الدين ، ت ٨٢٠هـ / ١٤١٧م ) : المفارقات الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة ، تح محمد الششتاوي ، دار الأفاق العربية ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م ، ص ٢١ .

- ابن إياس : نزهة الأُمم ، ص ١٣٨ . السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٣٣ .

ماهر ( سعاد ) : البحرية الإسلامية ، ص ٣١٢ .

<sup>٣٦٧</sup> - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٢٨٤ .

<sup>٣٦٨</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٦٦ .

<sup>٣٦٩</sup> - المقرئزي : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٢ .

السفن لتقوية البحرية المملوكية ، فالسلطان الظاهر بيبرس منع الناس من التصرف بالأخشاب ، وعمل على عمارة الشواني في ثغري الإسكندرية ودمياط وصار ينزل بنفسه إلى دار الصناعة بمصر ويرتب ما يجب ترتيبه من عمل الشواني ومصالحها حتى بلغ عددها ما يزيد على أربعين قطعة سوى الحراريق والطرائد فإنها كانت كثيرة<sup>٣٧٠</sup> . ويذكر المقرئزي رواية جميلة تدل على مدى اهتمام السلطان الظاهر بيبرس بهذه الصناعة فقال : « أنه اضطر يوما إلى استقبال سفراء ملك صقلية<sup>٣٧١</sup> في دار الصناعة بمصر فدخلوا عليه وهو جالس بين الأخشاب والصناع » كذلك اهتم المنصور قلاوون بطرابلس وجعلها نيابة سلطانية يحكمها نائب السلطان ، وكان من أهم اختصاصاته شد البحر<sup>٣٧٢</sup> وشد الشواني ، وسار كل من الأشرف خليل ، والناصر محمد على النهج نفسه ، فعلى سبيل المثال حرص يلغا الخاصكي بعد غزوة الإسكندرية على توفير الأخشاب ، والحديد ، والآلات لدور الصناعة في مصر ، والشام لبناء مائة وخمسين مركبا حربيا ( شواني<sup>٣٧٣</sup> وغبان للغزو ، وحمالات وطرائد<sup>٣٧٤</sup> لحمل الجنود ) فكتب إلى نواب الشام بإخراج النجارين إلى الغابات المجاورة لمدينة أنطاكية لقطع أخشاب الصنوبر وغيرها إلى دور الصناعة في مصر . كل ذلك يدل بشكل أكيد على اهتمام سلاطين المماليك بصناعة الأسلحة بأنواعها إدراكا منهم أن من يمتلك السلاح الأقوى ، والأفضل يستطيع أن يقول كلمته في ساحة المعركة ، وميادينها ، وإن لم تكن مصر من المراكز المهمة لصناعة الحديد في العصر المملوكي الأول لكن المصريين برعوا في صناعة بعض أنواع الأسلحة الهجومية ، والدفاعية مثل الدروع المتخذة من الصلب<sup>٣٧٥</sup> .

## ٦ – أهم التطورات التي حصلت على الأسلحة في العصر المملوكي الأول

كانت الأسلحة الإسلامية تتألف من الأسلحة العادية ( البيضاء ) التي يستخدمها الجنود المحاربون بأيديهم وهي السيف ، والرمح ، والقوس ، والسهم ، وأنواع أخرى كالديبوس<sup>٣٧٦</sup> ، والطير ( آلة تشبه الفأس ) ، وغيرها ، وكانوا في أثناء المعارك يستخدمون الدروع ، والتروس ، والخوذ وغيرها من وسائل الوقاية .

أمّا وسائل الحصار ، فكانت تشتمل على أبراج مصنوعة من الخشب مغطاة بالحديد ، والجلد كان الغرض منها الاقتراب من حصون العدو ، وأسواره لاقتحامها ، ولقذف السهام ، وغيرها

<sup>٣٧٠</sup> - المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٩٤ .

- المقرئزي : السلوك : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٤٧ .

<sup>٣٧١</sup> - ملك صقلية : هو تشارلز دي أنجو Charles d, Anjou وهو شقيق ملك فرنسا لويس التاسع Louis IX انظر : باركر ( أرنتست

( : تاريخ الحملات الصليبية ، تر السيد الباز العربي ، بيروت ، دار النهضة العربية ، د . ط ، د . ت ، ص ٨٧ - ٨٩ .

<sup>٣٧٢</sup> - شد البحر : هو مفتش المينا والمسؤول عن السفن ومراقبة ما يتحصل من الرسوم . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٤٥٧ ؛ دهمان ( محمد أحمد ) : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، دار تافكر ، دمشق ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ /

١٩٩٠ م ، ص ٩٥ .

<sup>٣٧٣</sup> - الشواني : جمع شوني أو شيني ، وهي أهم القطع التي كان يتألف منها الأسطول وأعظمها شانا ، وهي مركب حربية كبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجا وقلاعاً للدفاع والهجوم ، وكانت هذه الأبراج مكونة من عدة طبقات تقف في الطبقة العليا منها العساكر المسلحة بالأقواس ، والسهام ، وفي الطبقة الدنيا الملاحون بالمجاديف . ابن مماتي : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .

<sup>٣٧٤</sup> - الطرائد : سفن مخصصة لحمل الخيول وكانت تنتسج إلى نحو أربعين فرسا وربما وصلت إلى ثمانين فرسا . ابن مماتي ص ٣٤٠ .

<sup>٣٧٥</sup> - سرور ( محمد جمال الدين ) : دولة بني قلاوون في مصر - الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص

دار الفكر العربي ، ط ١ ، القاهرة د . ت ، ص ٣٠٨ .

<sup>٣٧٦</sup> - الديبوس آلة من حديد ذات أضلاع تفيد في قتال لابس البيضة ونحوه ، وله يد خشبية ويقاربه اللت . أنظر القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٤٢ .

وكان البرج في معظم الأحيان يجر على عجلات ، أو يدفع على اسطوانات ، وكان يتألف من عدة طبقات ، وينتهي من الأعلى بقنطرة يمكن إلقاءها على الحصن المحاصر لاقتحامه . والدبابة آلة من آلات الحصار يدخل المقاتلون فيها ، ويتقدموا باتجاه الأسوار لينقبوها ، وهي شبيهة بالبرج المتحرك<sup>٣٧٧</sup> . كما كان القادة يستخدمونها للوصول إلى المنطقة المحاصرة لمعاينتها عن قرب لاتخاذ القرار المناسب ، ومثال ذلك أثناء حصار قلعة قيسارية سنة ٦٦٣هـ / ١٢٦٥م عندما ركب السلطان في دبابة ، وتقرب من أسوار القلعة ليعاين النقوب بنفسه (( ... وتارة يركب في بعض الدبابات نوات العجل التي تجري حتى يصل إلى السور ليرى النقوب بنفسه ))<sup>٣٧٨</sup> ، وستتم دراسة بعض الأسلحة ، وصناعتها كما جاء في المصادر المملوكية التي عاصرت الدولة المملوكية الأولى .

#### صناعة الأسلحة في العصر المملوكي الأول وتطوراتها :

أنتجت المصانع الحربية المملوكية كميات هائلة من الأسلحة المختلفة الأنواع ، والاستعمالات ونميز منها نوعين هامين هما الأسلحة البرية ، والأسلحة البحرية ، وقد تداخلت استعمالات تلك الأسلحة ، فمنها ما استخدم أيضاً كسلاح بري بحري في الوقت نفسه . والأسلحة البرية يمكن التحدث عنها باتجاهين الأول الأسلحة الفردية ، والثاني الأسلحة الجماعية .

الأسلحة الفردية ، وهي كثيرة ، ومتنوعة منها :

#### أ - السيف:

قبل الحديث عن صناعة السيوف في الدولة المملوكية الأولى نَمُر على حقائق ما كتب عنها لنستظل في ظل سلاح قاوم جميع الأسلحة على طول مدى الحروب ، فهو الفعال عند الازدحام والاعتراك ، وهو العوّان لما هو أثقل منه ( عون للأسلحة الثقيلة وغيرها من الأسلحة فالمنجنيقي ، والزارق ، والرامح ، والناشب عندما يصاب سلاحه أو يدمر ) يكون السيف في حده النفع عند اللقاء ما حدّت طعنته ، وحد ذبابه ، واشتدّ متنه<sup>٣٧٩</sup> ، لذلك جعل الله الجنة تحت ظلال السيوف . قال ابن نباتة : (( .. وشرّع حدّها في ذوي العصيان ، فأغصّم بمياه الختوف وشيّد بها مراتب الذين يقاتلون في سبيله كأنهم بنيان مرصوص )) . لأنها أي السيوف : (( زند الحق الوري وزنده القوي وحده الفارق بين الرشيد والغوي ، والنجم الهادي إلى العز وسبيله ، والفجر الصادق إذا ارتجت سحائب النصر ، والفجر الساطع إذا أخذ القلوب من الخوف كالعصر ))<sup>٣٨٠</sup> ، فله الهيبة ، وله الفضل على جميع الأسلحة ، وهو من الأسلحة التي يعمل بها كل الناس .

عرفته الدولة المملوكية كغيرها من الدول ، وأنتجت في مصانعها المختلفة ، واستخدمت منه الطويل ، والقصير ، والعريض ، والرقيق .

<sup>٣٧٧</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٩ .

<sup>٣٧٨</sup> - المقرئزي : ج ٢ ، ص ١٩ .

<sup>٣٧٩</sup> - الرماح نجم الدين : الفروسية والمناصب الحربية ، ص ١٠١ . وذباب السيف هو حده ؛ مؤلف مجهول : خزانة السلاح ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

<sup>٣٨٠</sup> - ابن نباتة الجذامي المصري ( محمد بن محمد ، ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٧م ) : رسالة السيف والقلم ، عن مجلة المورد ، بغداد عدد خاص عن الفكر العسكري عند العرب ، م ١٢ ، العدد الرابع ، ص ١٢١ .

كما عرفت الدولة المملوكية السيوف المقوسة الطرف ، ويظهر ذلك واضحاً في رنوك الأمراء وعرفت منها ما يكون خفيفاً مكتنزاً رهيفاً<sup>٣٨١</sup> .

كما ، وعرفت السيوف الهندية ، واليمانية ، والخراسانية ، والشامية .

كانت مراكز صناعة السيوف المملوكية موزعة بين دمشق ، والقاهرة ، وزحلة ، وكانت دكاكين السيوفيين في القاهرة تقع في منطقة بين القصرين ، وقد ذكر الأقسراي أكثر من ستة طرق لتحضير المعدن اللازم لصناعة السيوف<sup>٣٨٢</sup> ، وكانت للسيوف سقايات شتى ، وبمختلف المواد ، ومن أجودها السقاية بالبورق ، والملح ، وملح البول ، والزرنيخ ، والنورة على نسب معينة ، وقد ذكر الأقسراي أكثر من عشرة أنواع لسقايات السيوف<sup>٣٨٣</sup> . وذكر ابن أرنبغا الزردكاش أربعة أنواع في سقاية السيوف<sup>٣٨٤</sup> .

بينما ذكر مرضي بن علي أن السيوف الجيدة كانت تصنع من الفولاذ ، أو من الحديد البرماهي وله تراكيب عدة ، وأفعاله تختلف باختلاف تراكيبه ، وخواصه تتفاضل بتفاضل ما يمزج به من أخلاطه ، كما وذكر وصفاً لصناعة الفولاذ ، فقال : (( يؤخذ من الحديد البرماهي ، وإن وضع من رؤوس المسامير القديمة كان أجود ، فيلقى عليها وزن سبعة عشر درهماً إهليلج<sup>٣٨٥</sup> كابلي ، وكذلك يضاف إليه البليج ( وهو شجر بحجم الزيتون لبه حلوقريب من البنندق منابته في الهند ) بنفس الكمية ، ويوضع الحديد في قصعة ، ويغسل بالماء والملح غسلًا جيداً ، ثم يلوث بذلك الدواء ، ويصير في بوتقة ، ويذر عليه درهم ، ونصف درهم مغنيسيا مكسر ، وينفخ عليه في المسبك ، ثم يذوب ، ويجمع على شكل بيضة ، وذلك في أيام عدة ثم يبرد ، ويعمل منه سيفاً فإنه سم قاتل ))<sup>٣٨٦</sup> .

إن المعرفة الدقيقة لهذه المقادير يدل على خبرات متراكمة في علوم متنوعة ، وأهمها علم الكيمياء ، والفيزياء لأن الخطأ في أي مقدار من المقادير سوف يؤدي بالتأكيد إلى سوء في الصنعة بسبب أن المزيج الجديد له صفات أخرى حصلت نتيجة الخلل في المقادير التي يجب أن تكون محددة ، و دقيقة المعايير ، والأوزان لكي يتم الوصول إلى الخلطة المناسبة للصفات المطلوبة في المعدن المراد تصنيعه .

ومن أنواع السقايات التي استخدمت في سقاية السيوف نذكر واحدة على سبيل المثال لا الحصر

(( تأخذ الكرفس الجبلي فتدقه ، وتأخذ عصيره ، وعصارة الأشنان الفارسي ، وعصارة شجر العوسج ، ودردي الخمر ، وزبد البحر ، ونشادر ، وذراريخ ، وعصارة شجرة البنج الرطب يسحق منها ما كان يابساً ، ويخلط بهذه المياه ، ويصير في قارورة ، ويسد رأسها ، ويدفن في

<sup>٣٨١</sup> - ابن منكلي : الحيل في الحروب ، ص ١٠٢ .

<sup>٣٨٢</sup> - الأقسراي : نهاية السؤل والأمية ، ص ٣٢٥ - ٣٢٧ .

<sup>٣٨٣</sup> - الأقسراي : ص ٣٢٨ - ٣٣٥ .

<sup>٣٨٤</sup> - ابن أرنبغا : الأنيق في المنجنيق ، ص ٢٢٥ - ٢٣٠ .

<sup>٣٨٥</sup> - إهليلج : يكسر الألف وفتح اللام اسم عدة ثمار مجففة من الهند وغيرها تستعمل بصفة أدوية شكل ثمرتها كالباحة - معربة من أهليلجة الجواليقي ( موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر ، ت ٥٤٠هـ / ٩٩٤م ) : المرئمن الكلام الأعجمي ، تح : محمد أحمد شاكر ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٣٩٠هـ / ١٩٤١م ، ص ٢٨ .

<sup>٣٨٦</sup> - الطرسوسي ( مرضي بن علي مرضي الطرسوسي ، ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣م ) : تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأنواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة على لقاء الأعداء ، تح كارين صادر ، دار صادر ، بيروت ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م ص ١٣٠ .

الزبل أربعين يوماً حتى يتحلل ، ثم خذ لبدأ ، وانقعه في بول عتيق ثلاثة أيام ثم أخرجه من البول ، وجففه في الظل ، ثم روه من هذا الماء ، واحم السيف ، واسقه باللبد ، فإذا شرب فبرده ، واستره من الغبار ، فإنه يقطع كل شيء ، وإذا عمل منشار ، وسقى به قطع الزجاج كما تقطع المنشار الخشب )) .

#### ب - الرماح : قيل في الرماح :

(( الرماح من أدوات العرب في ملاقات الأعداء ، وقتالهم ، وحمدهم فيما تستكفيه بأسننها الحداد ) كناية عن قوة أسنة الرماح ورضاهم عن صنعها ) ، وتتوصل بنكايتها إلى بلوغ الغرض في محاربتها والمراد ، وفيها القوة المردية للفارس عن فرسه مع شدة الأثر فيه والنكاية المهلكة له السادة باب تلافيه . لأن لطعنة الفارس قوى ثلاث يحقق بواحدة منها البوار والتلاف ((<sup>٣٨٧</sup> ، )) وهي : قوة الرمح ، والفرس ، والفارس ، وواحدة مهلك فكيف باجتماعها لمن هو للحرب ممارس ))<sup>٣٨٨</sup> .

وهي : - أي الرماح - من ضمن الأسلحة التي أنتجتها المصانع الحربية المملوكية ، فدولة المماليك كانت متفوقة على غيرها في هذه الصناعة<sup>٣٨٩</sup> ، وكانت الرماح تصنع من القنا ، وهو قصب مسدود من الداخل ، ويستورد من الهند ، والقنا ما يصنع من خشب الزان<sup>٣٩٠</sup> ، ولرأس الرمح أشكال مختلفة ، فقد تحدث محمد بن لاجين عن تصنيع رأس الرمح ، وكيفية تركيبه على الرمح ، والأهم من ذلك كيفية تحميل هذا الرأس بالمواد المحرقة<sup>٣٩١</sup> . **ويعدّ** الرمح من أقدم الأسلحة البيضاء ، والرماح على أنواع مختلفة ومنها ما يركب فيها السهام ، فإذا طعن به الفارس ، ولم يصل إلى خصمه ، أو عاقه عنه عائق أفلت القوس الذي في سافلته فخرج السهم من سنان الرمح فيصيب خصمه قبل أن يصل إليه<sup>٣٩٢</sup> .

وقد عرف العصر المملوكي الأول عدّة أنواع من الرماح منها : (( الخَطِيّ ، وهي تنسب إلى الخُط ، وهو موضع باليمامة<sup>٣٩٣</sup> . ومنها السمهري: الرمح الأسمر الشديد وإن كان صلباً لا ينتهي فهو صدق ، والعاسل : يقال عَسَلَ عَسَلَانًا إذا اهتز واضطرب فهو عاسل وإن كان شديد الاضطراب فهو عَسَال ، والمدعس : الرمح يُدَعَسُ به أي يطعن ، والمتقف : هو الرمح المستوي ويقال له الصَّعْدَةُ أيضا وهو أقرب إلى الحربة .

والقناة : الرمح ، وتجمع على قنوات . (( واليزني منسوب إلى ذي يزن من ملوك اليمن والرديني منسوب إلى رديئة امرأة كانت تعملها وقيل : تباع عندها ))<sup>٣٩٤</sup> . وما يميز الرمح العربي عن الرمح الصليبي أن الأخير أقصر ، وقال ابن منقذ : أن قصبه الرمح الصليبي تصنع من خشب الدردار Ash وينتهي طرفه برأس حديدية ، وقد اختلف شكل هذا الرأس من رمح

<sup>٣٨٧</sup> - البوار : الخراب ، ودار البوار هي جهنم .

<sup>٣٨٨</sup> - الطرسوسي : تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٣٤ .

<sup>٣٨٩</sup> - السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٣٤ .

<sup>٣٩٠</sup> - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٤٠ .

<sup>٣٩١</sup> - الطرابلسي : غاية المقصود في العلم والعمل بالبنود : ورقة رقم ٢٣ و . مخطوطة موجودة في مكتبة الدكتور سهيل زكار .

<sup>٣٩٢</sup> - الطرسوسي : تبصرة أرباب الألباب ، ص ١١ .

<sup>٣٩٣</sup> - مؤلف مجهول : خزانة السلاح ، ورقة ٩٣ او .

<sup>٣٩٤</sup> - مؤلف مجهول : خزانة السلاح ، ص ١٩٤ .

لآخر وكان الفارس الصليبي يعلقه على ذراعه الأيمن ، ويستخدمه في أعمال الطعن ، وسماه ابن منقذ القنطارية<sup>٣٩٥</sup> . لكن القنطارية هو الرمح الطويل الذي يوضع في مكان محدد تحت الأبط ، ويعتمد الطعن به على اندفاع الفرس ، وقال أيضا : إذا اضطرت الظروف الفارس أن يحارب على الأقدام ، فإنه كان يستطيع أن يستخدم الرمح في طعن الأعداء على الرغم من أن حدة رأس الرمح لم تكن ملائمة لهذا الغرض<sup>٣٩٦</sup> . ويبدو أن المؤرخ يوشع براور قد نقل عن أسامة بن منقذ ، فهذه العبارات موجودة حرفيا في كتابه الاستيطان الصليبي في فلسطين<sup>٣٩٧</sup>

### ج - القوس :

ويدخل ضمن تجهيزات العساكر الشامية ، والمصرية .

القسي في الأصل نوعان : قوس يد وقوس رجل ، ولقسي اليد أنواع كثيرة منها : العربية القديمة ، والفارسية ، والتركية ، والعربية التي كانوا يصنعونها من الخشب ، وكان أهل الحضر يعقبون<sup>٣٩٨</sup> ظهورها وربما كسى أهل الحجاز بطونها بقرون الماعز ، وليس لها سيّات ولا مقابض<sup>٣٩٩</sup> ، ومنها الواسطية ، وهي مصنوعة من القرن ، والخشب ، والعقب ، والغراء ولها سيتان ، ومقبض ، وسميت الواسطية لتوسطها بين الحجازية ، والفارسية ، وليست نسبة إلى واسط<sup>٤٠٠</sup> ، فإنها كانت موجودة قبل بناء واسط ، وتسميها العرب المنفصلة لانفصال أجزائها قبل التركيب . أما التركية ، والمغولية ، فكانت تصنع من العظام حيث تُصَف وتُلف بجلد ذبح لم يجف .

أما الأقواس في العصر المملوكي ، فكانت تصنع من أنواع مختلفة من الخشب مثل : الصنوبر ، والتوت ، والقراصيا ، ويتكون القوس من خمسة أجزاء هي : السيتين ، والدستارين ، والمقبض<sup>٤٠١</sup> . وتكون السية الجزء الغليظ نسبياً والذي لا ينثني من القوس ، أما الدستاران فرفيعان مرنان قابلان للانحناء<sup>٤٠٢</sup> . أما عن التصنيع فيستخدم الخشب من الأنواع المذكورة مع مادة الغراء لوصل الأجزاء المكونة للقوس مع بعضها بواسطة قطع كذيل السمكة بطول ثلاث بوصات ونصف تقريباً بهذا يكون طول اليد ، أو المقبض للقوس نحو خمس بوصات وعند وصلها من الطرفين مع السيتين يصل طولها إلى إثنا عشرة بوصة إذا ما أضفنا قطعتي الوصل ( ذيل السمكة ) ، ويجدد شكل القلب الخشبي شكل القوس النهائي ، ومدى ميل السيتين بالنسبة

<sup>٣٩٥</sup> - ابن منقذ ( مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن منقذ الكناني الشيزري ، ت ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م ) : الاعتبار ، تح فيليب حتي مكتبة الثقافة الدينية ، الإسكندرية ، د . ت ، ص ٤٧ .

<sup>٣٩٦</sup> - ابن منقذ : المصدر المتقدم ، ص ٤٠١ .

<sup>٣٩٧</sup> - براور ( يوشع ) : الاستيطان الصليبي في فلسطين - مملكة القدس اللاتينية ، ترجمة عبد الحافظ البنا ، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م ، ص ٤٠١ .

<sup>٣٩٨</sup> - العقب : ج أعقاب . هو العصب الذي تعمل منه الأوتار وهو عصب الممتنين والساقين يهذب وينقى منه اللحم ويسوى منه الوتر . انظر : معلوف ( لويس ) : المنجد في اللغة والأدب والعلوم ، المطبعة الكاثوليكية ، ط ١٥ ، بيروت ، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦ م ص ٥١٨ .

<sup>٣٩٩</sup> - الكلميشتي ( علاء الدين طبيغا الأشرفي اليوناني ، ت ٧٩٧ هـ / ١٣٥٨ م ) : بغية المرام وغاية الغرام في رمي السهام ، تح عارف أحمد عبد الغني وزباد محمود الفياض ، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع ، دار كنان ، ط ١ ، دمشق ، ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م ، ص ٣٣-٣٤ .

<sup>٤٠٠</sup> - واسط : موضع متوسط بين البصرة والكوفة ويقال واسط الحجاج لأنه كان قد بناها في ذلك الموضع ( يوجد أكثر من موقع بهذا الاسم واسط . الحموي : معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٣٤٧-٣٥٣ .

<sup>٤٠١</sup> - باترسن ( و ، ف ) : رماة الإسلام ، دراسة في غنية الطلاب في معرفة الرمي بالنشاب ، منشورات جامعة مانشستر ، د . ت ص ٣ .

<sup>٤٠٢</sup> - باترسن : ص ٣ .

للدستارين ففي القوس المغولية الفارسية يكون هذا الميل بمقدار ٦٠ درجة بينما القسي الهندو - فارسية فلها ركبة أكثر شدة في انحرافها قرب نهاية السية عند مكان الوصل بالدستار مما يعطي السية كلها ميل بزواوية تقارب ٩٠ درجة ن أو في حالة ما يطلق عليها قسي السرطان ( crab bows ) زاوية تصل إلى ١٢٠ درجة ومن أجل الحصول على هذا الانحناء تصنع كل سية من جزئين ملتصقين ، وبغير تلك الطريقة ستكون السية ضعيفة نتيجة لعدم وجود استمرارية في عروق الخشب<sup>٤٠٣</sup> . ويبدو أن الحرفيين كانوا يفضلون القطع لزيادة الانحناء في الخشب عن طريق التسخين ، أو كانوا يتكبدون المزيد من العناية في البحث عن خشب نُموه طبيعي بالشكل المطلوب . وعند تصميم قوس جيد هناك نقطتان يجب الانتباه إليهما وهما : يجب ألا يوجد أي انحناء في المقبض عندما يكون القوس مشدوداً لأن وجود أي انحناء يجعل القوس يركل في اليد عند الإطلاق وبالتالي فإن الإصابة لن تكون دقيقة . أما الثانية فتتعلق بقوة شد الوتر والتي تسمى عند الرماة ( الحيل ) وحيل القوس يزداد كلما زاد سحب الوتر للخلف . لكن إن زاد الحيل بسرعة قرب نهاية الشد فإن النتيجة ستكون عدم الدقة في الرمي ، لأن الانحراف الجزئي في طول الشد سيكون له أثر بالغ في المدى الذي سيصل إليه السهم ( أي تقوم الزيادة السريعة في الحيل في نهاية الشد بتكبير أي خطأ من الرامي بينما الزيادة البطيئة تعمل على معادلته )<sup>٤٠٤</sup> . وهكذا فإن كل هذه الأمور كانت تستند إلى العلوم وخاصة الرياضيات فكافة الأطوال والأوزان والعزوم تحسب بدقة متناهية وأي خلل فيها سيؤدي بالتأكيد إلى خلل في النتيجة فعلى سبيل المثال : وزن الوتر في أي قوس يتعلق بحيل القوس وتساوي ثلث عشر العشر من حيل قوس زين بالميزان فإذا كان حيل القوس محسوباً بالرطل<sup>٤٠٥</sup> ثلاثين رطلاً فإن وزن وتره يجب أن يكون ستة دراهم لأن عشر الثلاثين رطلاً ثلاثة أرطال وهي ألف وثمانمائة درهم وعشر ذلك مائة وثمانون درهماً وعشر ذلك ثمانية عشر درهماً وثلث ذلك ستة وعلى ذلك اتفق الحذاق والمتأخرين<sup>٤٠٦</sup> . أما طول الوتر فيجب أن يكون ١ / ١٢ من طول القوس كله<sup>٤٠٧</sup> ، وطول القوس المتوسط الذي اتفق عليه الأستاذون هو : ذراعاً وثلثي ذراع وربع ذراع بذراع العمل التجاري لأن هذا الذراع هو الذراع الهاشمي وهو على قدر واحد في جميع بلاد المسلمين<sup>٤٠٨</sup> وزن النصل الذي يركب على رأس السهم فيجب أن يكون ١ / ٧ من وزن السهم مع النصل وهناك طريقتان لاستعمال القسي إما باليد وإما بالقدم ، وقد توصل المسلمون في هذه العصر إلى صناعة ضروب من المجانيق لرمي السهام توضع في الواحد منها عدة سهام<sup>٤٠٩</sup> ، ويقرر ابن منكلي : (( أن أصلح السهام ما عملت من خشب القراصيا ))<sup>٤١٠</sup> وهذا تطور كبير من أجل زيادة مدى رمي السهم وقوته .

<sup>٤٠٣</sup> - باترسن : ص ٤ .

<sup>٤٠٤</sup> - باترسن : ص ٤ - ٥ .

<sup>٤٠٥</sup> - الرطل من وحدات الأوزان التي كانت معروفة قبل الإسلام ، واستخدم في البلاد الإسلامية مع الاختلاف في مقداره ، وكان الرطل المصري من الأوزان الشائعة في تقدير أنواع من السلع كاللحم والفاكهة والخضر والدهون والزيوت والقطن . ثم ألغي استخدامه واستبدل بالكيلو ومشتقاته ، وكان الرطل المصري يساوي ١٤٤ درهماً ، ويساوي القنطار ١٠٠ رطل أي ٣٦ أقة والرطل يساوي ٢٢٦ كغ . عطية الله ( أحمد ) : القاموس الإسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ١ ، القاهرة ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ، ٢ ، ص ٥٤٩ .

<sup>٤٠٦</sup> - البكلميشي : بغية المرام وغاية الغرام في رمي السهام ، ص ٣٩ - ٤٠ .

<sup>٤٠٧</sup> - البكلميشي : ص ٤٠ - ٤١ .

<sup>٤٠٨</sup> - الذراع مقياس للأطوال وخاصة القماش وطوله بحدود ٧٠ سم . انظر : المنجد في اللغة والآداب والعلوم ، ص ٢٣٤ .

<sup>٤٠٩</sup> - الطرسوسي : تنصرة أرباب الألباب ، ص ٨ - ١١ .

<sup>٤١٠</sup> - ابن منكلي : الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية ، عن مجلة المورد ، بغداد ، عدد خاص عن الفكر العسكري عند العرب ، م ١٢ .



كما كانت هناك أقواس لقذف البندق الذي يشتعل بمجرد رميه في الهواء ويتركب من )) شحوم كلاب البحر وكبريت أسود ولبن التين البري ونوره لم تنطفئ و صمغ البن )) ، يخلط الجميع ويبنندق ، فإذا أريد رميها تمسح ببنفط مصعد مطبوخ ويرش عليها كبريت مسحوق ثم تقذف<sup>٤١١</sup> ، ويذكر المقرئزي أن بالقاهرة صناعاً للقسي كثيرين ، ومن أشهر أنواع القسي ما كان يسمى قوس الزيار<sup>٤١٢</sup> ، ومنها ما يطلق عدة قذائف في آن معاً ، وباتجاهات مختلفة عند اللزوم<sup>٤١٣</sup> ، وكانت ترمي أسهماً هائلة الحجم يبلغ طول الواحد ٦٠-١٨٠ سم ووزنه ٢-٣ كغ وهو قوس آلي ( ميكانيكي ) له جهاز معقد للتزيير والإطلاق<sup>٤١٤</sup> وهذا الجهاز عبارة عن قائمة طولانية تركب عليها عارضة خشبية هائلة على شكل قوس ، ولها مسننات كبيرة وفوق هذه العارضة توجد عارضة أصغر منها ذات مسننات متعددة أيضاً وفي أسفلها نتوء معدني على شكل قفل يشبك به الوتر ، ويمكن بهذه الطريقة شد وتر القوس إلى الخلف حسب الطلب ، ووفق المدى الذي يراد إيصال السهم إليه<sup>٤١٥</sup> كما يستطيع رمي قذائف النفط ، وقوتها تعادل قوة عشرين رجلاً لكنها كانت تعمل بواسطة رجل واحد<sup>٤١٦</sup> ، ويبدو أنّ تطوراً ما قد حصل على الزيار حتى قال ابن العمري ما قاله عنه . والقوس الزيار من اختراع مهندس حربي هو الشيخ أبو الحسن الأبرقي . أما عبد الرحمن زكي فقال عنه في كتابه السلاح في الإسلام : (( إنه نوع من القسي التي يرمى بها البندق ))<sup>٤١٧</sup> والقوس الزيار أشد الأقواس رمياً ، وأعظمها جرماً ، ويحتاج إيتاره إلى عدة رجال ، وينصب على الأبراج وما شاكلها ، واستعمال هذا النوع يحتاج إلى نكاء ، وفطنة وخبرة وتجربة طويلة<sup>٤١٨</sup> ، وهناك قوس العقار ، والجرح ، وقسي الرجل ( القدم ) ، وهناك القسي العربية ، وهي قسي اليد المعلومة ، وقسي الحسبان ، ويرمي في مجراها الأربعة سهام والخمسة ، والأقل والأكثر ، فإذا دفعها الوتر خرجت كالجراد المنتشر في دفعة واحدة<sup>٤١٩</sup> ( رمي الرشقات ) .

وهناك طريقة لقذف سهام كثيرة عن طريق رجل واحد ، وصفقتها أن تعمل أربع قسي جرخ في برج له أربعة جهات ينصب في كل جهة منها قوساً لكل منها مجراة تنتهي الأربع مجاري إلى قفل واحد ، وكل مجراة فيها ثلاث سهام ، أو أربعة ، ويرمي بهذه القسي الأربعة رجل واحد فيخرج في دفعة واحدة ستة عشر سهماً ، وأن كان البرج مسدساً جعل في كل جهة قوس على تلك الصفة ، فيكون الخارج منها أربعة وعشرون سهماً ، وإن كان مثنماً كان الخارج منها اثنان وثلاثون سهماً ، وهكذا تتضاعف القسي ، والنشاب بتضاعف الجهات ، ويرمي بجميع ذلك رجل واحد ، فيُظن أن في البرج رجالاً بعدد ذلك النشاب<sup>٤٢٠</sup> .

العدد الرابع ، ص ٤٣ .  
٤١١ - ابن منكلي : الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية ، ص ٤٩ .  
٤١٢ - العمري ( ابن فضل الله أحمد بن يحيى ، ت ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م ) : التعريف بالمصطلح الشريف ، تح محمد حسين شمس الدين دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م ، ص ٢٧٣ .  
٤١٣ - السلاح في الإسلام : ص ٤٨ .  
٤١٤ - ابن أرنيجا : الأنيق في المنجنيق ، ص ١٢٥ .  
٤١٥ - ابن أرنيجا : ، ص ١٢٥ .  
٤١٦ - العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٢٧٠ .  
٤١٧ - زكي : السلاح في الإسلام ، ص ٣٠ .  
٤١٨ - الطرسوسي : تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٦ .  
٤١٩ - - الطرسوسي : ص ٥٤ .  
٤٢٠ - الطرسوسي : تبصرة أرباب الألباب ، ص ٥٥ .

هذا وقد أخرجت المصانع الحربية المملوكية الجروح<sup>٤٢١</sup> ، واستخدمتها قواتهم العسكرية وهي عبارة عن آلة حربية لرمي السهام ، والنفط ، والحجارة ، ويقال لمستخدمها من الجند ( الجرخي )<sup>٤٢٢</sup> ، وهو : ما نسميه بالسهم الناري<sup>٤٢٣</sup> .

كذلك استخدم الجيش المملوكي الدبوس وهو عمود من حديد له رأس مقوسة ذات أضلاع تشبه الإبرة ، وكانت تصنع من عود طوله حوالي قدمين من الخشب الغليظ ، وفي أحد طرفيه رأس من الحديد قطره ثلاث بوصات تقريباً<sup>٤٢٤</sup> . أما العمود فلا يصنع إلا من الحديد ، والغاية من ذلك هي الحصول على قوة أكبر من قوة الدبوس ، وما شابهه من الآلات<sup>٤٢٥</sup> .

كما أنتجت المصانع المملوكية أنواعاً أخرى من الأسلحة التي استخدمها الجيش في معاركه منها المقلاع ، وكان يصنع من القماش ، أو الجلد ، ويستعان فيها بقوة الطرد المركزية وذلك بجعل القذف في رميها بين حبلين يجمعان في يد القاذف من الطرف الثاني ، فيديرها ثم يخلي أحد الطرفين ، فينبعث المقذوف بعيداً<sup>٤٢٦</sup> .

هذا وقد استخدمت أيضاً الطبر ، أو البلطة ، وهي : أشبه بالفأس ، ولها رأس نصف مستدير ويركب في قضيب من حديد ، أو خشب متين ، وتحفر عليه النقوش الإسلامية أو العبارات الدينية<sup>٤٢٧</sup> ،

كذلك صنعوا الجنبية ، ولها أشكال منوعة ، ولكنهم استوردوا منها صناعات يمنية ، وإيرانية وهندية ، كذلك صنعوا السكاكين من حديد معين تضاف إليه بعض الأخلاط الكيميائية<sup>٤٢٨</sup> ، وهي على أنواع مختلفة ، وقد جرت العادة أن توزع السكاكين على الناس في عيد النحر من الزردخاناه<sup>٤٢٩</sup> على يد أحد الزردكاشية .

#### د - أسلحة شخصية وقائية ؛

لقد تم الحديث عن صناعات الأسلحة الشخصية الهجومية ، فلا بد من التنويه بأن المصانع التي أنتجت تلك الأسلحة قد أنتجت أنواعاً أخرى من الأسلحة الوقائية التي استخدمها الفارس في المعركة لحماية نفسه ، وأهمها الخوذة ، والتجفاف ، والترس ، او الطارقة والدرع .

أما الخوذة : وهي من آلات الحرب تلبس على الرأس لحمايته<sup>٤٣٠</sup> ، ومنها الفارسية ((خوذة)) ومنها العربية (( البيض )) لأن هذه الأخيرة على شكل بيضة ، وهي تصنع من الجلد ، أو الحديد

<sup>٤٢١</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٠٢ .

<sup>٤٢٢</sup> - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٧٣ . المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٣١٢ .

<sup>٤٢٣</sup> - الهروي ( علي بن أبي بكر الهروي ) : التذكرة الهروية في الحيل الحربية ، تح مطبع المراتب ، منشورات وزارة الثقافة ، ط ١ ، دمشق ، ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م ، ص ٨١ ، الحاشية رقم ٢ .

<sup>٤٢٤</sup> - الطرسوسي : تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٥ .

<sup>٤٢٥</sup> - الطرسوسي : ص ٥٤ - ٦٢ .

<sup>٤٢٦</sup> - زكي : السلاح في الإسلام ، ص ٤١ .

<sup>٤٢٧</sup> - ابن فضل الله العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .

- القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٤١ .

<sup>٤٢٨</sup> - ابن فضل الله العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .

<sup>٤٢٩</sup> - الزردخاناه : كلمة فارسية بمعنى دار السلاح .

<sup>٤٣٠</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٥٦ .

المقرئزي : السلوك : ج ١ ، ص ٥١٦ .

، والمغفر<sup>٤٣١</sup> يغطي الوجه كاملاً فلا يظهر منه إلا العينان ، ويدلى من وراء الظهر مشدوداً بالخوذة ، ويسمى رفراف الدرع ، وتمتد أحياناً على الأذرع<sup>٤٣٢</sup> ، وما زالت بعض المتاحف تحتفظ بطائفة كبيرة من خوذة السلاطين ، والأمراء مثل : متحف بورت دي هال ببروكسل ، ارتفاع الخوذة المحفوظة فيه ١٩ سم ، ومتحف اللوفر بباريس ارتفاع الخوذة المحفوظة فيه ٣٨ سم ، ومتحف تشنتبرت بفلورنسا بايطاليا ، والمتحف البريطاني ، وارتفاع الخوذة المحفوظة فيه ٢٧,٣ سم ، متحف الكويت الوطني ، ومتحف الفن الإسلامي بالقاهرة رقم السجل ( ٢٥٧٧٨ ) الأبعاد ٢١×٢٤ سم<sup>٤٣٣</sup> ، ومتحف دمشق الوطني .

وكان ينصح بلبس الكوافي تحت الخوذة<sup>٤٣٤</sup> ، وعند وضع الخوذة على الرأس كان من الضروري أن تكون أزرار طاقية الخوذة ، والتي كان يطلق عليها اسم قبع في الجانب الداخلي لبطانة الخوذة مارة في ( العرى ) حتى لا تنفصل الخوذة عن القبع<sup>٤٣٥</sup> .

عرف العصر المملوكي عدة أنواع من الخوذ منها : خوذة ذات بدن طويل ، ولبس منها السلطان محمد بن قلاوون ، وبلغ ارتفاعها ١٩ سم ، ومحيط قطرها ٦٩ سم ، وقطرها ٢٢ سم كانت ذات شكل مخروطي يستطيل قليلاً إلى الأعلى حيث تنتهي بقمة صغيرة مدببة الشكل ، ويتدلى من أسفلها شملة من حلق الزرد لوقاية جانبي الوجه ، والرقبة ، وتمتد إلى أسفل حتى الأكتاف تقريباً ، ويتصل الحلق بالخوذة عن طريق ثقب تحيط بحافة الخوذة السفلية<sup>٤٣٦</sup> .

أما النوع الثاني من الخوذ فهو : خوذة ذات بدن نصف دائري كبير مسلوب إلى أعلى ومزود في أسفله بفتحتين مقوستين حول العينين<sup>٤٣٧</sup> .

والنوع الثالث هو الخوذة ذات البدن البيضاوي الشكل صغير الحجم .

أما التجفاف : الذي أنتجته المصانع الحربية المملوكية ، فكان يلبسه المحارب ، ويتقي به كأنه درع ، وكلمة تجفاف ترادف كلمة البركستوان التي استعملت عند المماليك . أما المعنى اللغوي للكلمة كما جاء في اللسان التجفاف هو : (( الذي يوضع على الخيل من حديد أو غيره في الحرب وجمعها التجفاف ))<sup>٤٣٨</sup> . لذلك استخدم التجفاف أيضاً لحماية خيول الجهاد<sup>٤٣٩</sup>

- القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٣٥ . زكي : السلاح في الإسلام : ص ٢٣ .  
- ٤٣١ المغفر : زرد من الدروع على قدر الرأس يلبس تحت القلنسوة وفيه أطراف مسدولة على قفى اللابس وأذنيه وربما جعل منها وقاية للأنف ز انظر : المواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ٢ ، ص ١٤٢ . والمغفر : هي الخوذة المصنوعة في الأصل من الجلد . انظر : زكي : السلاح في الإسلام ، ص ٥٦ .  
- ٤٣٢ العمري : التعريف بالمصطلح الشريف : ص ٢٠٤ - ٢٠٦ .  
- ٤٣٣ ماضي ( إبراهيم ) : زي أمراء المماليك في مصر والشام ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د . ط ، ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ ، الحاشية رقم ٣٦ - ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ - ٤١ .  
- ٤٣٤ ابن فضل الله العمري : مسالك الأبيصار ، ج ٥ ، ص ٢٠٦ .  
- ٤٣٥ ابن منكلي : التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية ، عن مجلة المورد ، عدد خاص عن الفكر العسكري عند العرب م ١٢ ، العدد الرابع ، ص ١٤ .  
- ٤٣٦ ماضي : زي أمراء المماليك في مصر والشام : ص ١٩٦ .  
- ٤٣٧ ماضي : المرجع المتقدم ، ص ١٩٩ .  
- ٤٣٨ زكي : السلاح في الإسلام ، مرجع متقدم ، ص ١٧ . زكي ( عبد الرحمن ) : الجيش المصري في العصر الإسلامي من الفتح العربي إلى معركة المنصورة ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، د . ط ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م ، ص ٩٢ .  
- ٤٣٩ النووي ( الإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي دمشقي ، ت ٦٧٦ هـ / ١٢٧٨ م ) : رياض الصالحين ، دمشق ، بيروت منشورات دار النصر ، د . ط ، د . ت ، ص ١٧٢ . زكي : الجيش المصري في العصر الإسلامي من الفتح العربي إلى المنصورة ، ص ٢٧ .

كما صنعوا القفاز من جلد البقر ، أو اللط ( وهو حيوان يعيش في الصحارى ) ، وكذلك الجوشن : وهو عبارة عن صدر بغير ظهر ، وكذلك المضمض ، وهي خوذة مسدولة على قفا المحارب ، وأذنيه لوقاية العنق ، وقد صنعوا للفارس جوارب طويلة تكسو الساق يطلق عليها أسم رانات<sup>٤٤٠</sup> ، وطماقات للأرجل يطلق عليها اسم ساق الموزة ، أو كلسات الزرد وكذلك أحذية برقبة طويلة ((خفا)) مزودة بمهماز .

الترس : الترس : صفحة من الفولاذ مستديرة تحمل باليد يُتلقى بها ضربة السيف ونحوه<sup>٤٤١</sup> .  
والترس من أسلحة الدفاع عند العرب .

هناك نوع من التروس يسمى الطارقة ، وتشبه العباءة ، وكان يستخدمها المقاتل للوقاية ، ومنها أيضا الجنوبات وهي كالطوارق ، ألا أنها غير محدودة الأواخر بل مقطوعة لتقف على الأرض ويحتمى بها الفرسان أثناء التقدم من النبال وتكون للصف كالحصن المانع من النبال ، وعلى العموم ، فقد أخرجت الحربية المملوكية أصنافا كثيرة من التروس<sup>٤٤٢</sup> ، ولها أشكال متباينة ، فمنها المدور اللطيف ، ومنها الواسع التدوير ، ومنها المستطيل في تدويره ومنها المسطح والمحفر الوسط والمقرب ، والمقرب المنحني الأطراف<sup>٤٤٣</sup> وقد صنعت هذه التروس من الحديد أو من الخشب والعقب الشديد ، وهناك بعض الصناعات التي كسوا الخشب بأنواع من الدهن المختار ، ومنهم من كسا الجلود ، وغلاها بالدهن والأصبغ ، ومنهم من استعملها من جلود الزراف واستغنى بها عن الخشب المدهون ، ومنهم من اتخذها من جلود اللط ، ومنهم من ركبها من قضبان ولف عليها القطن المغزول<sup>٤٤٤</sup> ، وقد ذكر مرضي بن علي نوع من التروس تمنع من سائر السهام ، وجميع ما يضرب بها من آلات الحرب الفردية ، ولا يؤثر فيها شيء من السلاح ، ولا سهام قسي الزيار ، ويذكر الكاتب المواد التي تصنع منها التروس ومن أهمها : الطين ، والجلود ، والفراء ، والدم ، أو الطحال المدقوق ، والرغام المدقوق ، وغراء السمك .. ، والزجاج المسحوق ، وبرادة الشايرقان (حديد الأسطام) ونخالة الخشب ، ويمكن تلبس مثل هذه التروس بصفائح الرصاص<sup>٤٤٥</sup> .

وقد أدخل تطوير على عمل التروس بوضع قوس في باطن الترس فحامل الترس يقارع خصمه بالسيف فإذا لاح انكشاف منه افلت القوس فخرج السهم الذي في وسطه فيصيب الخصم من حيث لا يعلم<sup>٤٤٦</sup> .

الدروع : الدرع سلاح دفاعي قديم . وهو جنة المقاتل وحصنه ، وكافيته شفار المناضل ، وحاميته من أسنة الرماح ، والرافعة عنه شر السلاح<sup>٤٤٧</sup> ، لقد ذكر الله تعالى في سورة سبأ واصفا سيدنا داود بإتقانه لصناعة الدروع عندما قال : (( ولقد آتينا داود مئا فضلا يا جبال

<sup>٤٤٠</sup> - ابن إياس : بدائع الزهور : ج ٤ ، ص ٣٥٩ .

<sup>٤٤١</sup> - ابن إياس : ج ٤ ، ص ١٦ .

<sup>٤٤٢</sup> - الطرسوسي : تبصرة أرباب الألباب : ص ١٢ .

<sup>٤٤٣</sup> - ابن منكلي : التدبيرات السلطانية ، ص ٣١٦ .

<sup>٤٤٤</sup> - الطرسوسي : تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٢-١٣ .

<sup>٤٤٥</sup> - الطرسوسي : ص ١٢ .

<sup>٤٤٦</sup> - الطرسوسي : تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٣ .

<sup>٤٤٧</sup> - الطرسوسي : ص ١٣ .

<sup>٤٤٨</sup> - الأفسرائي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ١٣٢ .

<sup>٤٤٩</sup> - الطرسوسي : تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٥١ .

أوبي معه والطيور وألثاله الحديد \* أن اعمل سابغات وقدّر في السرد واعملوا صالحا إني بما تعملون بصير»<sup>٤٤٨</sup> .

لذلك وصفت الدروع التي كانت جيدة النسيج حسنة الصنع باسم الدروع الداودية نسبة إلى داوود عليه السلام ، استخدمت الدروع لتجنب ضربات الخصم وطعناته ، وقد استخدم العرب الدروع في حروبهم قبل الإسلام وكانت تشمل وقتئذ على قميص من الزرد يطلق عليه اسم درع وكان يكسو معظم الجسم<sup>٤٤٩</sup> ، فمن المعروف أن عدد الدروع التي ورثها امرؤ القيس عن أبيه خمسة ، لكن صناعة الدروع بلغت أوجها عند المسلمين أثناء الحروب الصليبية في القرنين السادس والسابع الهجريين / الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين<sup>٤٥٠</sup> .

وعرف المماليك ثلاثة أنواع من الدروع ، فصنعوها واستعملوها بنسب متفاوتة وهي قميص الزرد ( الزردية ) ، والدرع ذو الرقائق المعدنية ( الجوشن ) ، والبريجاندين ( القرقل ) . وكان أكثر الأنواع شيوعاً القميص المصنوع من الزرد الخالص ، وظل مستخدماً حتى نهاية العصر المملوكي ويبدو أنهم كانوا يرتدون قميصاً واحداً أو اثنين معاً قصاراً أو طويلاً ، وكانت هذه الدروع أحياناً تغطي ساقى الفارس<sup>٤٥١</sup> ، وكانت حلقات الزرد تشد بعضها بعضاً عن طريق مسامير من المعدن تدخل رأساً من ناحية أخرى ، وكانت قمصان الزرد تقوى برقائق مستطيلة من المعدن تتداخل أطرافها بعضها تحت بعض ، وقد كثر استخدامها في العصر المملوكي لكنه اقتصر في الغالب على الفئة الأرستقراطية لارتفاع تكلفته<sup>٤٥٢</sup> .

أما الدروع المصنوعة من المعدن الخالص ( ذو الرقائق المعدنية ، الجوشن ) ، فإنها لم تستخدم بكثرة عند المماليك نظراً لثقلها ، وأنها تعيق حركة الفارس المرنة ، وتبطئ سرعة فرسه ، أما شيوع استخدام الزرد عند المماليك البحرية ، فكان أساسه خفة الوزن مع كفاءته التامة في وقاية لابسها من ضربات العدو مهما كانت قوتها ، ويبدو أنها كانت معروفة قبل عصر الدولة المملوكية الأولى ، فقد ذكر الطرسوسي طريقتين لصناعة الجوشن الذي لا تنفذ منه السهام ، ولا يعمل فيه السنان ، ولا الحسام<sup>٤٥٣</sup> .

أما النوع الثالث من الدروع فهو القرقل فقد استخدم كثيراً في العصر المملوكي المبكر وأخرجته مصانعهم بأعداد كبيرة ، وهو عبارة عن حلة كانت شائعة الاستعمال في تلك الأيام )) اتخذ القرقل شكل قميص لا يتجاوز طوله أسفل الخصر ، ومتوسط الاتساع ))<sup>٤٥٤</sup> ، وكان يلبسها السلاطين أحياناً . وقال عنه القلقشندي : (( القرقل درع مؤلف من صفائح حديدية مغشى بالديباج الأحمر والأصفر ))<sup>٤٥٥</sup> ، وعن طريقة صناعته قال : إنه يصنع من صفائح الحديد المجمععة مع بعضها بدقة ومانعة<sup>٤٥٦</sup> ، وكان لكل من هذه الدروع القصيرة منها والطويلة كسوة من الكتان

٤٤٨ - سورة سبأ : الآية ١٠ - ١١ .

٤٤٩ - ماضي : زي أمراء المماليك ، ص ٢٠٣ .

٤٥٠ - زكي : الجيش المصري في العصر الإسلامي ، ج ٢ ، ص ٣٨ .

٤٥١ - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ص

٤٥٢ - ماضي : زي أمراء المماليك ، ص ٢٠٩ .

٤٥٣ - الطرسوسي : تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٥٥ - ١٥٧ .

٤٥٤ - ماضي : زي أمراء المماليك ، ص ٢١٤ .

٤٥٥ - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١١ .

٤٥٦ - القلقشندي : ج ٢ ، ص ١٤٣ .

حتى لا تؤثر حلقات الزرد وصفائح الدروع على جسم الدارع ولحفظ جسمه من ارتفاع حرارة الدرع وامتصاص العرق أيام الصيف ومن برودته أيام الشتاء<sup>٤٥٧</sup> وعندما تطورت أسلحة الهجوم وزاد خطرها على المقاتل تطورت أسلحة الدفاع أيضاً ، واستبدل قميص الكتان بأخر من الحرير لمتانته ومقاومته ، وعدم قدرة تلك الأسلحة على ثقبه ، ودخول الجسم مما سهل عملية إخراج الأسنان دون أذية كبيرة في جسم المصاب أما الصليبيون ، فكانوا يرتدون معاطف مشهورة من الحرير ذو اللون الأخضر ، والأصفر فوق دروعهم<sup>٤٥٨</sup> . فضلا عن كونه ( الدرع ) محشواً بنفايات الحرير ، وفرو الأرانب.

بالإضافة إلى ما سبق من الأسلحة ، فقد أنتجت المصانع الحربية المملوكية أسلحة أخرى استخدمها الجيش في معاركه مثل :

الحسك : وهي مثلثات ، أو مسدسات ، وهي قطع من الحديد ، ولها أطراف حادة ولها عدة شعب<sup>٤٥٩</sup> فإذا طرحت على الأرض بقي هناك شعبة ، أو اثنتان مرفوعتان عن الأرض ، وكانت المثلثات ، أو المسدسات ترمي حول المعسكرات لعرقلة خيول العدو حين تقدمها . أن هذا أشبه بفكرة الألغام التي تزرع حول معسكرات الجيش في العصر الحاضر للحفاظ عليها وكان لهذا الحسك شأن خطير في كل الحروب القديمة ، والوسيطه ، وأحيانا تحدد شوكتها وتبرد ، وتسقى بسقاية قاتلة ، فإذا وطنتها الخيل أهلكتها وترمى أحيانا في طريق القوات المعادية كذلك وفرت المصانع الحربية لقواتها الإعداد الهائلة من النبال ، أو الأسهم والسهم عبارة عن عود رفيع من شجر صلب في طول الذراع تقريبا يأخذه الصانع ، فينحته ، ويسويه ، ثم يفرض فيه فروض دائرية ليركب فيها الريش ، ويشده عليها بالجلد المتين ، أو يلصقه بالغراء ويربطه ثم يركب في قمته نصالاً من حديد مدبب له سنتان في عكس اتجاهه يجعلانه صعب الإخراج إذا غرز في الجسم كذلك صنعوا الكلايب ، وهي سلاسل ، أو حبال ، أو سلاالم من الحبال تحوي في رؤوسها خطاطيف تشبه ما يستخدم لدى بائعي اللحوم ، وكان المهاجمون يلقونه على الأسوار لتسلقها ، أو على مراكب الأعداء فيوقفونها ، ويشدونها إليهم ، ثم ينصبون عليها ألواحاً كالجسور ويمرون فوقها ليقاتلوا جند العدو في مراكبهم .

أما الأسلحة الجماعية : فهي التي تحتاج إلى أكثر من شخص للعمل عليها ، ومنها ما هو دفاعي ، ومنها ما هو هجومي :

هـ - برج الحصار :

كان الهدف من صناعته أن يشكل ساتراً للرجال الذين يستعان بهم في جر المجانيق ، وما شاكله ليقبهم من رمايات منجنيق العدو الذي يقابله ، فيحمل عنه مضرته ، ويكفيهم سوء أصابتهم ، فإذا وقع عليهم الحجر يفرقه ، وهو يصنع من الخشب الجيد مثل السنط والصنوبر ، ويغطي بالحديد ، والجلد ، وهو يُمكن الجيش من الاقتراب من حصون العدو والأسوار لاقتحامها ، وفي

<sup>٤٥٧</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٥٠٧ .

<sup>٤٥٨</sup> - ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٦١ .

<sup>٤٥٩</sup> - زكي : السلاح في الإسلام ، ص ٢٢ .

معظم الأحيان يجر البرج على عجلات خشبية ، أو حديدية ، أو يدفع على اسطوانات ، ويتألف البرج من عدة طبقات بعضها فوق بعض ، ويوصل إليها بدرج من الداخل ، وينتهي البرج بقنطرة خشبية يمكن إلقائها على جدران الحصن ، أو السور ليمر عليها المقاتلون عند اقتحامهم لحصون العدو ، ويتسع سطحها بدرجة تكفي لنصب المنجنيق .

و - الدبابة :

فيستعان بها في نقب الأسوار ، وما يشابهها ، وهي آلة ساترة من الآلات الحربية يدخل فيها المقاتلون ، ويتجهون إلى السور لنقبه، وكانت في بداية الأمر عبارة عن قاعدة كبيرة من الخشب تتركز على عجلات ، وبالتالي يمكن دحرجتها من مكان إلى آخر<sup>٤٦٠</sup> ، وتتصل القاعدة من الأمام بحاجز مصنوع من الخشب الذي صفح بالحديد يسمى جسر الزحافة ، أو جسر الدبابة يمكن فتحه نحو الأمام ، واستخدامه كجسر للعبور فوق الخنادق<sup>٤٦١</sup> ، وتطورت لتصبح على شكل برج متحرك له أحيانا أربعة طبقات أولها من الخشب ، وثانيها من الرصاص وثالثها من الحديد ، ورابعها من النحاس الأصفر، ويتحرك هذا على عجلات لنقب الحصون وتسلق الأسوار<sup>٤٦٢</sup> وهي في هذا تؤدي وظيفة البرج تماما ، وكانت الدبابات تؤثر تأثيرها المطلوب بإيصال الجنود إلى مقربة الحصن ، أو القلعة المحاصرة ، ومن هناك يتم البدء برمي الحجارة ، أو كرات النار الملتهبة ، أو النبال<sup>٤٦٣</sup> ، وكان القادة يخصصون بعض الجنود للسير أمام ، وخلف الدبابة لتسوية طريقها ، وإزالة الموانع التي يضعها العدو ، وكانوا في بعض الأحيان ينقلونها بالشواني الحربية من مكان لآخر .

ز - العرادة :

فهي آلة اصغر من المنجنيق تُقذف الحجارة على مسافات طويلة<sup>٤٦٤</sup> ، ويرمى بها النفط المشتعل في اتجاه الأعداء لحرق الأشياء ، أو الأماكن التي يراد التأثير عليها ، أو مهاجمتها .

وهناك سلاح مضاد للزحافات :

فقد اعتاد الفرنجة على استخدام زحافات للوصول إلى الأسوار ، ويعبروا بها الخنادق ، وهي تمشي على بكر ( دواليب ) يحركها من هو بداخلها ، وهي مصنوعة من الخشب الملبس بصفائح الحديد ، وجلود الجمال ، والبقر ، والقطن المبلل بمواد معالجة كيميائيا ليصبح غير قابل للاشتعال ، واللبد حماية لها من رمي النار كي تستطيع إن تصل إلى السور ، أو الخندق فيقوم من بداخلها بردم الخندق ، أو نقب السور ، وكانت هذه الزحافات تعرف عند المغاربة باسم القطوس أي القط لان مشيتها كمشي القط ، ولاتقاء شرها . أمر سيف الدين الاكز والي الإسكندرية سنة ٧٦٧-٧٦٨هـ / ١٣٦٦م - ١٣٦٧م بعمل سلاح مضاد لهذه الزحافة فاحضر

<sup>٤٦٠</sup> - ابن أرنيجا : الأنبيق في المنجنيق ، ص ١٢٣ .

<sup>٤٦١</sup> - ابن أرنيجا : ص ١٢٣ .

<sup>٤٦٢</sup> - أبو شامة ( شهاب الدين عبد الرحمن إسماعيل بن ابراهيم بن عثمان المقدسي الدمشقي ، ت ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م ) : الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ٥ أجزاء ، وضع حواشيه وعلق عليه إبراهيم شمس الدين ، بيروت ، دار الكتب العلمية

ط ١ ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م ، ج ٤ ، ص ٧٢ .

- زكي : السلاح في الإسلام ، ص ٢٤ .

<sup>٤٦٣</sup> - زكي : المرجع المتقدم ، ص ٢٥ .

<sup>٤٦٤</sup> - جوانفيل : حياة القديس لويس ، ج ٣٦ ، ص ٨٤ .

الحجارة الصوانية المرشوقة بأكف الحديد المثنية الأصابع ، والمفرزة فيها النصول المحدودة الأطراف ، وعلقها بحبال من القنب البكر في أعلى أبواب الإسكندرية فإذا أرخيت هذه الآلة على الزحافة كسرتها ، ورفعت من بداخلها حيا ، أو ميتا .

### ح - الأسلحة الثقيلة :

لم تقتصر المصانع الحربية المملوكية على إنتاج الأسلحة الخفيفة ، ولكنها تعدتها إلى صناعة الأسلحة الثقيلة ، والفتاكة التي كان لها عامل الحسم في معظم المعارك ، فأنجوا برج الحصار والدبابة ، والعرادة ، والكبش ، والمجانيق ، والمدافع ، والنفوط ، والغازات السامة ، والقنابل الزمنية ، والحارقة ، ومختلف أنواع المقذوفات .

ولقد تم تناول بعضها لدخوله ضمن الأسلحة الدفاعية ، ويستكمل البحث في ما تبقى من أسلحة عرفتها الدولة المملوكية الأولى .

**الكبش Ram :** آلة من الخشب ، والحديد تُجر ، ويُدق بها السور ، أو الحائط لتهديمه ، أو فتح ثغرة فيه ، وله رأس متصل بعمود غليظ معلق بحبال في سقف الآلة ويقول عبد الرحمن زكي في كتابه السلاح في الإسلام عن الكبش : « أنه آلة من خشب وحديد تُجر بنوع من الحيل وأصل الكبش دبابة له رأس في مقدمتها مثل رأس الكبش ويتصل هذا الرأس في داخل الدبابة بعمود غليظ معلق بحبال تجري على بكرات معلقة بسقف الدبابة لسهولة جرّها ويتعاون الجنود الذين يتحصنون في الداخل مع جنود آخرين استتروا بدروع الدبابة ، ووقفوا خلفها ليتعاون كل هؤلاء على ضرب السور بها حتى يخرقوه »<sup>٤٦٥</sup> ، وقال الأصفهاني في كتاب الفتح القسي عن الدبابة : « وكان الفرنج قد اتخذوا دبابة عظيمة عاتلة قد أظهرت لها في الشر غائلة ولها أربع طباق . »<sup>٤٦٦</sup>

### ط - المنجنقات Mangon :-

المنجنق آلة حربية ثقيلة تستخدم لقفز الحجارة أو السهام أو قوارير النفط أو أية مقذوفات أخرى في معارك الحصار أو الاستيلاء على القلاع والحصون وغير ذلك ، وكانت معظم الحروب التي خاضتها الدولة المملوكية الأولى ضد الصليبيين سلسلة من عمليات الحصار وفيها استخدمت مختلف الأسلحة ، لكن المنجنق كان دائماً السلاح الأكثر فعالية لذلك لم يخل ذكره في كتب المؤرخين ، حيث استخدم في كل عمليات الحصار ، ومن الكتب التي تحدثت عن المنجنق في هذا العصر كتاب اسمه « الأنيق في المنجنق » ، وجاء فيه لمحة عن استخدام هذا السلاح عند العرب<sup>٤٦٧</sup> ، ثم تحدث عن آلية هذا السلاح ، وأنواعه<sup>٤٦٨</sup> ، ثم فصل في صناعته ، وكيفية الرمي عليه<sup>٤٦٩</sup> ، ومن الكتب التي تحدثت عن المنجنق أيضاً كتاب « تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأنواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة

<sup>٤٦٥</sup> - السلاح في الإسلام : ص ٤٨

<sup>٤٦٦</sup> - الأصفهاني ( محمد بن محمد ، ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م ) : أفتح القسي في أفتح القديسي ، عن زكار ( سهيل ) : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، دمشق ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م ، ج ، ص ٣٢٨ .

<sup>٤٦٧</sup> - ابن أرنيجا : الأنيق في المنجنق ، ص ١٦ .

<sup>٤٦٨</sup> - ابن أرنيجا : ص ١٦ .

<sup>٤٦٩</sup> - ابن أرنيجا : ص ٣٧ .



على لقاء الأعداء»<sup>٤٧٠</sup> . تحدث فيه عن تاريخ ظهور هذا السلاح ، ثم وصفه وصفاً دقيقاً ، وتحدث عن كيفية العمل عليه ، وتركيبه ، ومما يتألف .

ومن الكتب التي تناولت الحديث عن المنجنيق في العصر المملوكي الأول كتاب (( الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب )) لمؤلفه محمد بن منكلي الناصري المتوفى سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦ م تحدث فيه عن كيفية وقاية ، أو توقي الجنود من أحجار ، أو سهام ، أو نيران المنجنوقات<sup>٤٧١</sup> ، ومن الكتب أيضاً كتاب (( خزنة السلاح )) لمؤلف مجهول الاسم حيث وردت فيه رسوماً لمنجنوقات في حال الرمي ، وهي ربما تكون مأخوذة من رسالة حسن الرماح ، أو من مخطوطة ابن أرنبغا الزردكاش (( الأنيق في المنجنيق ))<sup>٤٧٢</sup> . ومن الكتب التي تحدثت في هذا الموضوع (( الفروسية برسم الجهاد وما أعده الله للمجاهدين من العباد ))<sup>٤٧٣</sup> . وكتاب (( السؤل والأمنية في تعلم أعمال الفروسية )) الذي يعد موسوعة في العلم العسكري وذكره محمد بن لاجين الحسامي الطرابلسي كسلاح لرمي النيران بأنواعها ، وذكر بذلك ثلاثة أبواب<sup>٤٧٤</sup> ، وهناك الكثير من المصادر التي ذكرت المنجنيق كسلاح حصار أساسي في كل المعارك ، ومنها كتب المقرئزي (( الخطط المقرئزية )) ، (( والسلوك لمعرفة دول الملوك )) وكتب ابن تغري بردي (( المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي )) ، (( والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة )) ، وكتاب (( مختار الأخبار )) لبيبرس المنصوري ، وغيرها من المصادر التي جاءت غنية بالمعلومات عن الأسلحة ، والمعارك ، والقادة ، والحوادث ، وغير ذلك والتي سيتم تناولها في موقعها خلال البحث .

#### الاستخدام العملي للمنجنوقات خلال المعارك :

- المنجنيق سلاح قديم استخدمه المسلمون في معاركهم الأولى ، حيث استخدمه النبي صلى الله عليه وسلم في حصار الطائف<sup>٤٧٥</sup> ، ويبدو أن معرفة العرب للمنجنوقات ، وتصنيعها كان سابقاً للإسلام ، حيث ذكرت بعض المصادر أن أشخاصاً ( عروة بن مسعود ، وغيلان بن سلمه ) لم يشهدا حنين ، ولا حصار الطائف ، حيث كانا جُرش يتعلمان صناعة الدبابت والمجانيق<sup>٤٧٦</sup> ، وجرش هذه ليست جرش الأردن إنما جرش اليمن<sup>٤٧٧</sup> . وكان المنجنيق المستخدم حتى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي هو الذي يعمل بشد الحبال وكان يتألف من عمود خشبي طويل أو من ذراع أو سهم يرتكز على محور ، والذراع قابلة للتأرجح حول المحور وهي محمولة مع محورها على هيكل خشبي قوي ، وفي نهاية الطرف القصير للذراع تتصل عدة حبال ، وفي نهاية الطرف الطويل المقابل مقلاع مع كفة لحمل القذيفة ، وكان فريق من

<sup>٤٧٠</sup> - الطرسوسي : تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٦٣ .

<sup>٤٧١</sup> - ابن منكلي الناصري : الحيل في الحروب ، ص ٣٢١ والتي تليها .

<sup>٤٧٢</sup> - مؤلف مجهول : خزنة السلاح ، تح نبيل محمد عبدالعزيز ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م ، ص ٧٣ .

<sup>٤٧٣</sup> - الطرابلسي ( محمد بن لاجين ) : الفروسية برسم الجهاد ، تح عارف أحمد عبدالغني ، دار كنان ، ط ١ ، دمشق ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م ، ص ٤٣ .

<sup>٤٧٤</sup> - الطرابلسي : غاية المقصود ، ورقة رقم ٣٩ - ٤٠ و ظ .

<sup>٤٧٥</sup> - ابن هشام ( أبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري ، ت ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م ) : السيرة النبوية ، ج ٤ ، تح سعيد محمد اللحام بيروت ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م ، ج ٤ ، ص ٩٧ .

<sup>٤٧٦</sup> - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٢ ، ص ١٣٧ . ابن شاكر الكتبي : عيون التواريخ ، ص ٣٣٣ .

<sup>٤٧٧</sup> - ابن هشام : السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٩٧ .

الطبري : تاريخ الطبري ، م ٢ ، ص ١٧١ .

الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٨٤ - ٨٥ .

الرجال يقوم على طرف الحبال بينما كان خبير الرماية يمسك بالقذيفة ضمن الكفة ، وعندما كان الأمر بالرمي يعطي الإشارة يقوم الرجال بشد الحبال وكان الرامي يسمح للقذيفة بالانطلاق ، وكان وزن القذيفة بحدود ٥٠ كغ وكانت تصل إلى مسافة ٥٠ متراً تقريباً .

وقد طوّر العرب المسلمون في النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي المنجنيق الحربي هذا إلى نموذج جديد سمّوه المنجنيق الحربي ذا الثقل المعاكس وكان هذا العمل تطويراً بالغ الأهمية .

لقد كان شبيهاً بمنجنيق الشد لكنه كان أقوى منه إذ كانت ذراعه ، أو سهمه أضخم ، وأبراجه أمّتن ، ومقلّعه أطول ، وعند الطرف القصير للسهم كان يوضع ثقلاً يُدكّى بالحبال ( صندوق مملوء بالرصاص أو الحجارة ) ، وكان يتم خفض السهم إلى الأسفل من الطرف الطويل بواسطة رافعة يتصل حبلاً بطرف السهم ، ومن أجل إطلاق القذيفة كان الرامي يشد حبلاً متصلاً بخطاف ، وكان وزن القذيفة يصل إلى ٢٣٠ كغ ، وكان مداها يصل إلى ٣٠٠ م ، وكان يشرف على إنشاء المنجنوقات ، وآلات الحصار لفكها ، وتركيبها ، أو إصلاح المعطل منها في الحروب مهندسون حربيون ملحقون بالجيوش الإسلامية ، وعندما نتحدث عن دور المهندس الحربي في الجيوش العربية الإسلامية يبدو أنّ أعدادهم كانت كبيرة بحيث أنّ دولاً أخرى مثل الصين قد استفادت منهم ، والدليل على ذلك أنّ قوبيلاي خان إمبراطور الصين قد استخدم اثنين من المهندسين المسلمين لإنشاء المنجنوقات أحدهما مهندس حربي اسمه علاء الدين كان قد دخل في خدمة قوبيلاي سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧٢م ، وتوفي سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م وكان معه مهندس آخر لعل اسمه عصام الدين ، أو إسماعيل ، وقد توفي سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م ، وقد صنّع هذان المهندسان للإمبراطور الصيني منجنوقات ضخمة ذات قوة هائلة استخدمت في حصار المدن ، وكان المنجنيق يسمى في الصين آلة الرمي الإسلامية ، وفي الدولة المملوكية الأولى كان السلطان ، وهو القائد العام للجيوش كثير الاهتمام بصناعة المنجنيق ، حيث ذكر المقرئزي : أنّ السلطان الظاهر بيبرس عندما أراد محاصرة أرسوف جلس مع الصناع يستحثهم ، فعملوا في يوم واحد أربع منجنوقات كبيرة ، وعدد آخر من المنجنوقات الصغار<sup>٤٧٨</sup> .

أما عن استخدام المنجنيق في المعارك ، والحروب ، فاستخدمها الظاهر بيبرس أثناء حصار قيسارية<sup>٤٧٩</sup> ، وعندما حاصر قلعة أرسوف<sup>٤٨٠</sup> ، وصفد<sup>٤٨١</sup> ، وحصن الأكراد<sup>٤٨٢</sup> ، وأثناء حصار حصن عكار<sup>٤٨٣</sup> كما استخدمها السلطان قلاوون الألفي أثناء حصار طرابلس<sup>٤٨٤</sup> ، وبلغ استخدام الأشرف خليل لها في حصار عكا اثنين وتسعين منجنيقاً<sup>٤٨٥</sup> ، ومن خلال الحروب الكثيرة التي خاضتها هذه الدولة ، والحاجة ، والدافع تطور هذا السلاح حتى صار أكبر وأقوى ، وأكثر مدىً ، فعند حصار عكا سار الملك الأشرف بالعساكر المصرية إلى عكا وأرسل إلى

٤٧٨ - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٨ .

٤٧٩ - المقرئزي : ج ٢ ، ص ١٨ .

٤٨٠ - المقرئزي : ج ٢ ، ص ٢٠ .

٤٨١ - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٢٤ .

٤٨٢ - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٩ .

٤٨٣ - المقرئزي : ج ٢ ، ص ٧٠ .

٤٨٤ - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٧٣ .

٤٨٥ - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

العساكر الشامية ، وأمرهم بالحضور ، وأن يُحضروا المجانيق ، فتوجه الملك المظفر صاحب حماه إلى حصن الأكراد ( قلعة الحصن اليوم ) ، ومعه منجنيقاً عظيماً يسمى المنصوري حمل على مائة عجلة ، وهذا يدل على مدى كبر حجمه .

لكن التطور الحقيقي لم يكن بالحجم فقط إنما كان بالفعالية ، وإمكانية تحكم الرامي بمدى رمي القذيفة بعداً ، أو قرباً عن طريق التحكم بأمور ذكرتها الرسائل الحربية ، وأكدت عليها ثم بطبيعة القذيفة ذاتها ، فأصبح المنجنيق الذي كان يرمي حجراً صار يرمي ناراً ، وقنبلة وسهماً وغير ذلك . لكن يجب القول : أنه وعلى الرغم من أن المنجنيق سلاح عظيم في ذلك الوقت إلا أنه لا يمكن للبحث الموضوعي إلا وأن يتوقف عند أمرين أساسيين هما :

- الأمر الأول : بما أن رمي المنجنيق هو رمي منحنى ، فبالإكيد يوجد صعوبة بالتصويب بدقة ، وإحكام على نقطة معينة ، ومحددة في جدار الحصن ، أو القلعة ، ثم إن الرمي المنحني يحتاج إلى معرفة دقيقة بعلم الرياضيات ، وخاصة قيم الزوايا ، وحساب مسافات الرمي ، وإن تلك المعرفة هي التي مكنت المماليك من تطوير المنجنوقات ، لأنه كلما كانت زاوية الرمي أكبر كلما قلت مسافة الرمي ، والعكس صحيح ، وبالتالي التحكم بمدى الرمي زيادة ، أو نقصاناً جاء نتيجة لمعرفة عميقة بالعلوم لاسيما علم الرياضيات ، ثم كان لا بد من معرفة دقيقة بعلم الفيزياء ، وخاصة العزوم ، وبالتالي النواض المستخدمة ، وقيمتها الفيزيائية ومن ثم القوى المؤثرة على عدة نقاط في مستقيم واحد الذي يمثل سهم المنجنيق سواء من الجهة الأمامية ( قوة عزوم النواض ) ، أو من الجهة الخلفية ( الثقل الذي سيعلق فيه ، أو قوة شد الحبال ) وحاصل القوتين هو قوة جديدة تطلق بقوتها القذيفة أياً كان نوعها وبالتالي تحدد المسافة التي ستصل إليها القذيفة .

- الأمر الثاني هو : صعوبة استخدام المنجنيق في فصل الشتاء بسبب صعوبة نقله من مكان إلى آخر . مثال ذلك (( حدث خلال زحف السلطان الأشرف خليل على عكا سنة ٦٩٠هـ / ١٢٩١م وكان قد استغرق جر آلات المنجنيق من حصن الأكراد إلى عكا شهراً كاملاً في حين أن قطع المسافة كان لا يزيد عن ثمانية أيام في الأحوال العادية ))<sup>٤٨٦</sup> هذا الأمر يحتاج إلى الاهتمام بوسائط النقل المتنوعة ، والعمل على تطويرها ، والاهتمام بالطرقات وتجهيزها .

## ي - المدفعية :

احتاج المماليك إلى سلاح أكثر قدرة ، وفاعلية من الأسلحة التي كانت عندهم ، ولاسيما في معارك الحصار ، وخاصة أن الصليبيين كانوا قد طوروا هندسياً ، وباستمرار حصونهم وقلاعهم بما يجعل أسلحة الحصار ضعيفة الفاعلية ، وبالتالي كانت دائماً هناك مسائل جديدة لا بد من إيجاد الحلول المناسبة لها ، ومن أجل ذلك اهتم المماليك بتطوير الأسلحة كلها ويبدو أنه كان هناك نواة لسلاح المدفعية ، وإن كانت تحاكي بشكل أو بآخر المنجنيق ، فعملوا على تطويرها ، وذلك عندما أدركوا أهميته في الأعمال القتالية ، وحسم المعارك ، لاسيما في ذلك القلاع والحصون وتدمير الجسور والأبراج إلى غير ذلك . لذلك كان الاهتمام جدياً في تطوير

<sup>٤٨٦</sup> - المقريري : السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٢٣ .  
- الحويري ( محمود محمد ) : الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد عصر الحروب الصليبية ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٩م ، ص ٢٤٠ .

هذا السلاح ، فتطورت من مدافع تقذف الحجارة إلى مدافع تقذف النفط ، والنيران وسماها القلقشندي بالمكاحل ، وحالها مختلف ، فبعضها يرمى عنه بأسهم عظام تكاد تحرق الحجر وبعضها يرمى ببندق من حديد من زنة عشرة أرطال بالمصري إلى ما يزيد عن مئة رطل ، وقال : لقد رأيت بالإسكندرية أيام الدولة الأشرفية ( نسبة إلى السلطان الأشرف شعبان بن حسين )<sup>٤٨٧</sup> في نيابة الأمير صلاح الدين بن عرّام مدفعاً صنع من نحاس ، وورصاص ، وقيد بأطراف الحديد ، ورمي عنه من الميدان ببندقية عظيمة من حديد محماة ، فوَقعت القذيفة في بحر السلسلة خارج باب البحر ، وهي مسافة بعيدة<sup>٤٨٨</sup> . ووصل التطور إلى مدافع تطلق قذائفها بقوة دفع البارود ، وقد كانت تلك المدافع تصنع من النحاس ، والحديد ، وبلغ الإنتاج في إحدى السنين سبعمائة وخمسين مكحلة<sup>٤٨٩</sup> ، وكانت هذه المكاحل ( المدافع ) على حد قول بعض المؤرخين تسبك في قلعة الجبل ، وقد أورد ابن فضل الله العمري نصاً عن مكاحل البارود فهم منه : أن هذا السلاح قد تطور ، وأصبح يرمى أنواع مختلفة من القذائف ما يطلق بقوة دفع البارود ويتفجر عند اصطدامه بالهدف حيث قال : (( اشتملت أحشاؤها منه على جنين )) - أي على مقذوف - والأحشاء هنا تدل على اختفاء القذيفة في بطن المدفع ، أو المكحلة ، وعند الإطلاق تمر من السبطانة باتجاه الهدف ، وعنده تنفجر لتدمره حيث قال : (( لا تبالي بالأعداء إذا أخرجت لهم خفايا سرها ، ولا تخشى إذا أبدت للقوم خفايا شرها )) . وعملية الإبداء هنا هو الإفصاح عما بداخلها - ظهور القذيفة والانفجار كما أن هذه المكاحل ترمي أنواع أخرى من القذائف التي إذا ما تفجرت أعمت العيون وحجبت الرؤيا فقال : (( ومن مكاحل كم أعمى عين بلد كحلها )) ، ربما تكون دخانية أو غازات ، أو ربما تكون صيغة للمبالغة عن قوة الانفجار بحيث جعل الأعداء غير قادرين على الرؤية . إضافة إلى أنها ترمي الحجارة ، والبندق ، والشهب بأنواعها المختلفة ( فكم دخل بندقها هجماً وقذف شيطانها المرید كأن له رجماً )<sup>٤٩٠</sup> و زخات الشهب هذه تشبه راجمات الصواريخ في العصر الحاضر . وقد تطورت هذه الصناعة بتطور الحاجة إلى هذا السلاح فوصلت أمديتها حسب قول ابن إياس : ستة آلاف ذراع<sup>٤٩١</sup> ، وخمسمائة وتسعة وثمانون ذراعاً وثلاثاً ذراعاً<sup>٤٩٢</sup> ويعملية حسابية بسيطة يكون مدى الرمي للمدفع هو ٤٩٤١م إذا كان القياس بالذراع المعماري ، أو ٣٨٢١م إذا كان القياس بالذراع البلدي ، وفي كلتا الحالتين فإن ذلك المدى هائل جداً في ذلك الزمان . لكن الملفت للنظر أن الكثير من المؤرخين لم يتحدثوا عن هذا السلاح ، ولا عن دوره في حسم الكثير من المعارك التي خاضها الجيش المملوكي بل كان يتم القول : إنما حسمت المعركة لصالح الجيش المملوكي إما بقوة السيف أو الاستسلام دون قتال والسبب قد يكون أن معظم هؤلاء المؤرخون هم رجال دين بعيدين عن ساحات القتال ، ولا يعرفون كيف تحسم المعارك ، ومدى تأثير الأسلحة على ذلك إنما تؤخذ الأمور بنتائجها . لذلك كان المؤرخون الصليبيون يفصلون في هذه المواضيع ،

<sup>٤٨٧</sup> - الأشرف شعبان جلس على تخت السلطنة سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م - ٧٧٨هـ/١٣٧٦م . ابن العراقي ( ولي الدين أبي زرعة أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين ، ت ٨٢٦هـ / ١٤٢٣م ) : الذيل على العبر في خبر من غير ، تح صالح مهدي عباس بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م ، ص ١١٠ .

<sup>٤٨٨</sup> - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٥٣ .

<sup>٤٨٩</sup> - ابن إياس : بدائع الزهور : ج ٤ ، ص ٢٦١-٢٦٥ .

<sup>٤٩٠</sup> - ابن فضل الله العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٢٧٢ .

<sup>٤٩١</sup> - الذراع : هو الساعد وهو ما بين المرفق ( الكوع ) وطرف الإصبع الوسطى ، والجمع أذرع وذرعان ، يقال ذرع الثوب قاسه والذراع من مقاييس الأطوال وهي في مصر على نوعين : الذراع البلدية ويبلغ طوله ٥٨سم ، وتستخدم في قياس الأقمشة والذراع المعمارية ويبلغ طوله ٧٥سم ، ومن أجزاء الذراع المعمارية الإصبع ويساوي ٤،٢ من الذراع ، والقبضة وتساوي ١ ، ٦ من الذراع . أنظر : عطية الله : القاموس الإسلامي ، ٢م ، ص ٤٣٧ .

<sup>٤٩٢</sup> - زكي : السلاح في الإسلام ، ص ٥٤ .

ولاسيما عندما يفاجؤون بأسلحة جديدة كما حصل في الحملة الصليبية السابعة التي كان يرافقتها المؤرخ الصليبي جوانفيل وكان جنديا ، وقائداً لذلك عندما تحدث عن الأسلحة النارية التي فاجأتهم كان حديثه بتفصيل التفصيل فتحدث عن شكلها وهي تطير في الجو وعن الصوت الذي تحدثه ، والذي يشبه الرعد ، والضوء الذي يشبه البرق<sup>٤٩٣</sup> . أما المؤرخون العرب والمسلمون ، فكانت إشاراتهم عن هذا السلاح بالتلميح لا بالتصريح ، فقد ذكر أبو شامة في كتابه الذيل على الروضتين أن نجاح المماليك في معركة عين جالوت ضد المغول راجع إلى استخدام النفط<sup>٤٩٤</sup> ، والمعروف أن كلمة النفط كانت مستعملة لتعني البارود طوال العصر المملوكي الذي صار يطلق بالمكاحل في سنة ٧٦٦هـ / ١٣٦٥م على أقل تقدير . عندما هاجم الصليبيون الإسكندرية قال النويري في كتابه الإلمام : (( ... ثم إن الفرنجة صاروا بمراكبهم ينظرون أحوال الناس فلم يروا إلا من هو عار من اللباس فطمعوا فيهم وزحفوا بغراب التقدمة إليهم فنزلت إليه طائفة من المغاربة خائضين في الماء ناوشوا من فيه القتال والحرب والنزال ومسكوا الغراب بأيديهم وطلبوا من الزرايين النار ليحرقوه فلم يأت أحد بشرارة وذلك لقلّة همتهم وتهاونهم وغفلتهم فاستعجلوهم بالنار فرموا بمدفع فيه نار كئار الحفّاء ، فوقع في الماء ، فانطفاً<sup>٤٩٥</sup> . وهذا المقطع يدل دلالة قطعية لا لبس فيها أن المماليك استخدموا المدفعية في هذه الموقعة بينهم وبين الصليبيين . وهناك مقطع آخر ذكره النويري يدل على ذلك عندما قال وهو يتحدث عن أنواع الأسلحة التي كانت موجودة في الإسكندرية عندما استولى عليها الفرنجة : (( ... ثم فيه أيضا من حجارة العلاج ، والمدافع ، والنفط ، والبارود ))<sup>٤٩٦</sup> كما أن يلبغا الناصري استخدم سنة ٧٦٨هـ / المدافع ضد أعدائه<sup>٤٩٧</sup> ، فقد تحدث محي الدين بن عبد الظاهر عن آلات حربية مصنوعة من الحديد ، ومعها نفوط جهزها السلطان المنصور قلاوون مع أحمال كثيرة من النشاب وقال عن هذا السلاح : أنه لا يوجد منه إلا في ذخائر ، أو خزائن سلاح السلطان حيث تم تجهيزه من قبل جماعات كبيرة من الصناع الذين لهم خبرة بمعارك الحصار ، ولهم باع طويلة بالمنازلات الحربية ، وكان يتحدث عن حصار قلعة المرقب ، وقال : حملت المنجنيق والآلات المصنوعة من الحديد على الأعناق ، والرؤوس إلى حصن المرقب ، فطاف البلاء بهذا الحصن من كل مكان<sup>٤٩٨</sup> وهذا يدل على اشتراك أسلحة جديدة مصنوعة من الحديد في حصار الحصن ثم إنّ هناك إشارة أخرى لاستخدام سلاح جديد وهي : أنه بعد سقوط حصن المرقب ترك فيه أربع مائة من أرباب الصنائع ، ونقلت المنجنيقات ، والآلات ، والنفوط التي كانت ترمي عليه فصارت ترمى منه . هذا العدد الكبير من أرباب الصنائع يدل مرة أخرى على أن شيء ما يتطلب مثل هذا العدد إما لتأهيل الآلات الجديدة للعمل ، أو للعمل عليها . وهناك بعض المؤرخين تحدثوا عن أمور أخرى تدل على استخدام المكاحل ( المدفعية ) في الجيش المملوكي للدولة المملوكية الأولى ، ولكن هذه المرة من وجهة نظر فنية فقد ذكر ابن

<sup>٤٩٣</sup> - جوانفيل : حياة القديس لوييس ، ص ٨٤ . حسين ( أحمد ) : موسوعة تاريخ مصر ، مؤسسة دار الشعب ، القاهرة ، ج ٢ ، ص ٦٦٨ .

<sup>٤٩٤</sup> - أبو شامة : الذيل على الروضتين ، ج ٥ ، ص ٣١٧ .

<sup>٤٩٥</sup> - النويري السكندري ( محمد بن قاسم النويري ) : الإلمام - وقعة الإسكندرية ، تح سهيل زكار ، دار التكوين ، دمشق ، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م ، ص ٤٥ - ٤٦ . المقرئزي : السلوك ، ج ٣ ، ق ١ ، ص ١٠٥ . ابن العراقي ( ولي الدين أبي زرعه أحمد بن عبد الرحيم بن الحسن ) : الذيل على العبر في خبر من غير ، ص ١٩١ . نعينع ( سهير محمد ابراهيم ) : الحروب الصليبية المتأخرة - حملة بطرس الأول لويزنيان الصليبية على الإسكندرية ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م ، ص ١٦٢ . شيبوب ( صديق ) : معارك الإسكندرية ، الوكالة العربية للدعاية والنشر ، ط ١ ، الإسكندرية ، ص ٩٦ .

<sup>٤٩٦</sup> - النويري السكندري : المصدر المتقدم ، ص ٥٨ .

<sup>٤٩٧</sup> - عدوان : العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي ، ص ٦٦ .

<sup>٤٩٨</sup> - ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ص ٧٧-٨٠ .

أرنبغا الزردكاش شرحاً لصورة مثلث قنداق مكحلة ، وكلمة قنداق كلمة تركية معناها أخصص البارودة ، ولها معنى آخر هو : الاقتصاد ، والموازنة ، والمرجح أنها استخدمت هنا بهذا المعنى لأن القنداق في نص ابن أرنبغا يعني ميزان الرمي ، وهو ما يسمى اليوم بالموجه الذي يحدد زوايا الرمي ، و يساعد في تقدير مسافة الأهداف ، والرمي عليها . والمكحلة كما قال ابن أرنبغا الزردكاش هو الشكل الأولي من المدفع ، وبهذا يصبح تعبير قنداق المكحلة جهاز قياس الرمي في المنجنيق المتأخرة التي هي الصورة البدائية من مدافع اليوم . وجاء في شرح ابن أرنبغا عندما وصف قنداق المكحلة ، وخاصيتها : أنها ترمي بها مرة بعد أخرى وكل مرة أبعد من الأخرى ، وهذا يفسر عدد الخطوط في الرسم المرافق للشرح بمعنى أنك عندما ترمي على خط تصل القذيفة إلى حد معين ، وعندما تنتقل إلى خط آخر ، وترمي منه تتغير مسافة الرمي لتكون أبعد من مسافة الخط الذي قبله ، والقاعدة بذلك أنك تبتدئ من الخط التحتاني ثم إلى الثاني ، والثالث ، وهكذا إلى آخر الخطوط ، والخط الأخير أعلى من الكل<sup>٤٩٩</sup> . وأورد ابن أرنبغا صورة أخرى لقنداق آخر لمكحلة أخرى تحتوي على أربعة عشر خطأ ( أي في العلم الحديث أربعة عشر زاوية رمي ) بمعنى أن الرمي على ذلك المدفع يمكنه أن يغير مسافة الرمي أربعة عشر مرة زيادة ، أو نقصاناً ، وأعلى خط يعطي أبعد مسافة ، أو أبعد مدى رمي للمدفع . وتحدث ابن أرنبغا عن مخطط بدائي لمدفع ( مكحلة ) ، والسهم ظاهر في فوهته ، والقنداق يظهر بتدرجاته السلمية تحت السبطانة ، وهو متصل بدولاب سفلي يمكن عن طريق تحريكه رفع وخفض السبطانة حسب تدرجات القنداق أي حسب مدى الهدف الذي يجب الرمي عليه ، ثم أظهر تطوراً آخر في قنداق المكحلة ، وهو أن المصمم قام بتقسيم كل خط من الخطوط الرئيسية إلى ثمان تدرجات فرعية مما يسمح بالرمي على الهدف بدقة متناهية بالنسبة للمسافة<sup>٥٠٠</sup> . كما أورد ابن أرنبغا صورة لمكحلة ترمي النيران ، ووصف المواد الداخلة في تركيب الطلقة ، أو القذيفة<sup>٥٠١</sup> ، وهذا يدل مرة أخرى على مدى التقدم العلمي الذي وصلت إليه الدولة المملوكية الأولى في الوقت الذي وصفت فيه بالجهل والتخلف

## ك - النيران الحربية :

استخدمت النيران الحربية في المنطقة منذ القدم ، فاستعملت أمم آسيا كما قال غوستاف لوبون أنواع المركبات المحرقة في حروبها منذ القرون القديمة ، وربما كان لوجود البترول في برك سطحية في بعض مناطق الأمم الآسيوية دور في ابتداء هذه الأمم للنيران الحربية . ولكن أوروبا لم تعرفها إلا في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي ويظن أن الذي نقلها من آسيا هو مهندس اسمه كالينيك<sup>٥٠٢</sup> ، والذي صنعها هو مهندس سوري ، واستفاد البيزنطيون من هذه المركبات في هزيمة العرب في أثناء حصار القسطنطينية سنة ٥٤ هـ / ٦٧٤م وعدّها البيزنطيون من أسرار الدولة ، وقد عُرفت آنذاك بالنار الإغريقية وفي الحقيقة هي ليست إغريقية إنما أخذها الإغريق من حضارات الشرق القديمة مثلها في ذلك مثل الكثير من المعارف ، والخبرات التي توصل إليها أبناء حضارات الشرق القديم ، وصاغها فلاسفة

<sup>٤٩٩</sup> - ابن أرنبغا : لأنيق في المنجنيق ، ص ١٣٧ .

<sup>٥٠٠</sup> - ابن أرنبغا : الأنبيق في المنجنيق ، ص ١٤٢ .

<sup>٥٠١</sup> - ابن أرنبغا : ص ١٩٦ .

<sup>٥٠٢</sup> - سليمان ( مصطفى محمود ) : تاريخ العلوم والتكنولوجيا في العصور القديمة والوسطى ومكانة الحضارة الإسلامية فيه الهسنة المصرية العامة للكتاب ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م ، ص ٦٢٧ .

الإغريق في نظريات حفظ لنا التاريخ جانباً كبيراً منها وتتألف النار الإغريقية من القطران والكبريت ، وبعض المركبات السريعة الاشتعال ربما الكيروسين ، وربما أضيف إليها بعض الجير الحي ( الكلس ) الذي يتفاعل مع الماء مطلقاً حرارة عالية جداً هي التي كانت تشعل المواد البترولية سريعة الاشتعال . أما عن العرب المسلمين ، فلم يكونوا بعيدين عن هذه المعارف ، فالمتتبع لأحداث تاريخهم يرى هذا الاستخدام في معظم الحروب التي كانت تدور رحاها بين الجيوش الإسلامية ، وبين أعدائها ، ويرى مقدار ما كان لها من تأثير على النتائج العامة لهذه الحروب . فقد استخدم الجيش العباسي بعض الأسلحة المستحدثة في العصر العباسي الأول ، أو التي أخذها عن الدول ، والأمم الأخرى .

مثال ذلك استخدم العباسيون نيران النفط المحرقة في كثير من المعارك الداخلية والخارجية . ففي سنة ١٩٧ هـ / ٨١٣ م عندما حوصر الأمين محمد بن هارون<sup>٥٠٣</sup> في بغداد أمر برمي القوات المحاصرة بالنفط ، والنيران ، والمنجنيق ، والعرادات يقتل بها المقبل ، والمدبر<sup>٥٠٤</sup> . فكان لكل فرقة من فرق الجيش فصيلة لقتل النفط ، وكان هؤلاء النقاطين يرتدون ملابس مقاومة للنيران ، وهنا يجب الانتباه إلى أن كلمة نفط في المصادر التاريخية وفي الرسائل الحربية لا تعني النفط فحسب بل كانت تعني بالإضافة إلى النفط المواد الحربية القابلة للاشتعال بصورة عامة ، وقد اشتملت المواد المذكورة في بداية الأمر على المواد النفطية التي كانت متوفرة في العراق ، وبلاد فارس ، وشواطئ بحر قزوين على أنواع من الإسفلت والقار ، والكبريت ، والأصماغ ، والمواد النباتية السريعة الاشتعال ، وكان الكلس الحي يضاف إلى هذه المواد لتشتعل عند ملامستها الماء ، ( وقد ذكر من قبل أن الكلس عندما يلامس الماء يتفاعل معه ، ويؤدي هذا التفاعل إلى حرارة عالية تؤدي إلى اشتعال المواد القابلة للاحتراق ) ، ولما كان العرب المسلمون قد أتقنوا فن التقطير ( التقطير Bure Distillation يعني فصل المزيج السائل إلى مكوناته الرئيسية اعتماداً على اختلاف درجات غليانها ، وذلك بتبخيرها جزئياً ، ثم تكثيف الأبخرة الناتجة ، وهي عملية تستهدف الحصول على المواد نقية نتيجة التقطير )<sup>٥٠٥</sup> وامتلكوا المهارات ، والخبرات الفنية وفي الوقت ذاته توفرت لهم مصادر نفطية أنعم الله بها على أرضهم . كل ذلك ساهم بشكل كبير في تطوير صناعة النيران الحربية التي كان لها الأثر الفعال في المعارك الحاسمة التي خاضوها وكانت مفضلاً هاماً في تاريخ هذه الأمة .

وقد حاول مؤرخون كثر في مرحلة من المراحل اكتشاف سر هذه النيران وتركيبها الدقيق إلا أن كل ما استطاعوا التوصل إليه آنذاك هو أن هذه النيران اشتملت بالإضافة إلى المواد المذكورة سالفاً على مادة سرية أعطتها تلك الفعالية ، وفي مرحلة تالية ، وبعد دراسة الكثير من الوثائق التاريخية ، وإجراء الكثير من التحاليل المخبرية ، ودراسة المكتشفات الأثرية انقسمت

<sup>٥٠٣</sup> - محمد بن هارون : هو الأمين ، ولي يوم الخميس ١٩ جمادى الأولى سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م وقتل ليلة الأحد لست بقين من صفر أي ٢٤ صفر سنة ١٩٧ هـ / ٨١٣ م وأمّه زبيدة ابنة جعفر الأكبر ابن أبي جعفر فكانت خلافته أربع سنين وثمانية أشهر وخمسة أيام وقد قيل أن كنيته كانت أبا عبد الله . الطبري : تاريخ الطبري ، ص ٥٤ ، البكري : مختصر تاريخ الخلفاء ، ص ١١٥ . المسعودي : مروج الذهب ، السفر الثالث ، ص ٨٧ - ٨٨ .

<sup>٥٠٤</sup> - الطبري : تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٧٤ .  
- المناصير ( محمد عبد الحفيظ ) : الجيش في العصر المملوكي الأول ، مكتبة مجدلاوي ، ط ١ ، عمان ، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م ص ٢١١ .

<sup>٥٠٥</sup> - إسهامات الحضارة العربية الإسلامية في علم الكيمياء من واقع المخطوطات العلمية بدار الكتب المصرية : نشر دار الكتب والوثائق القومية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م ، ص . أورد الرازي في كتابه الكيمياء الكاذبة ( الترتيب في الكيمياء ) وصفاً دقيقاً لعملية التقطير واستخلاص الكيروسين من البترول حيث قدم طريقتين تعتمد الأولى على استخدام النقل كمادة ماصة واستخدام ملح كلوريد الأمونيوم في الطريقة الأخرى . المناصير : ص ١٩ - ٢٠ .

آراء المؤرخين آنذاك إلى قسمين قال الأول : أنّ ملح البارود هو المادة السرية التي بحثوا عنها طويلاً ، وقال الثاني : إن مشتقات النفط الخفيفة هي المادة السرية التي بحثوا عنها ، ويبدو أنّ كلا الرأيين صحيح فمشتقات النفط الخفيفة الناتجة بالتقطير كانت عنصراً رئيسياً في المزيج الذي يتشكل منه البارود ، وكذلك ملح البارود كان يشكل العنصر الأساس في المزيج . لكن ملح البارود كان حتى ذلك الوقت غير محدد المعالم . إذاً ما هو ملح البارود ومتى ظهر ؟

استخدمت كلمة بارود في اللغة العربية للدلالة كما يبدو على نترات البوتاس في نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع الهجري/ نهاية القرن الثاني عشر ، وبداية الثالث عشر الميلادي. هذا في اللغة العربية لكن نترات البوتاس كانت معروفة منذ عصور مبكرة لذلك من الخطأ ربط تاريخ بدء استخدام كلمة بارود من الناحية اللغوية بتاريخ استخدام مادة نترات البوتاس التي كانت معروفة عند الكثير من الكيماويين العرب لكن قد تكون بأسماء مختلفة وعلى من يود الاستزادة في هذا الموضوع العودة إلى مخطوطات جابر بن حيان ، والرازي وغيرهما ، فـجابر بن حيان عندما حضّر حمض الأزوت استخدم نترات البوتاس ، وفي مخطوطة عربية كتبت بالخط السرياني ( الكرشوني ) في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي أو الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ورد اسم نترات البوتاس بين الأملاح السبعة ووصف لونها وقال : إن لونها أبيض وقال : إنها الملح الذي يوجد عند أسفل الحيطان . وعرفت نترات البوتاس بأسماء متعددة منها زهرة أسبوس ، وملح الحائط ، وتلج الصين ، والبارود وأسماء أخرى ( وكانت ترد بإسم بَورق ، أو شب ، أو ما شابه ذلك ، وهذا خطأ كبير لأن البورق هو ملح النطرون<sup>٥٠٦</sup> وهو رباعي بورات الصوديوم ، ويتكون من بلورات شفافة تفقد ماءها كلياً عند تسخينها<sup>٥٠٧</sup> ، والشب ( Alum )) هو بلورات مائية من كبريتات ثنائية سهلة الذوبان في الماء<sup>٥٠٨</sup> ) لكن ربما كان أقدم لفظ للبارود للدلالة على أنه نترات البوتاس هو اللفظ الوارد في المخطوطة الكرشونية المشار إليها سالفاً . ووردت كلمة البارود الثلجي في كتاب كشف الأسرار الذي ألفه الجوبري سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م كما وردت في كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية الذي ألفه ابن البيطار سنة ٦٣٧هـ / ١٢٤٠م . إذ يقول ابن البيطار - وقد عاش في المغرب العربي - : إن كلمة بارود دارجة الاستعمال هناك لا من قبل الأطباء فحسب بل من قبل عامة الناس ، ويدل كلام ابن البيطار أن كلمة البارود كانت مستخدمة في المغرب في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، ويستدل من كل ذلك أن مسحوق البارود كان مستخدماً بالفعل ، وكان له دوراً ما في المعارك والحروب وأهمية هذا الدور يستدل عليها من الأهمية الاستثنائية التي أعطها المؤرخون في العصر الحديث لذلك المسحوق العجيب . حيث حاول الجميع تجبير صناعته ، وبداية استخدامه انطلاقاً من عصبية عبرت عما كان لهذا السلاح من دور ، ولا عجب في ذلك ، فالمعارك اللاحقة أظهرت أنه في عصره كما الأسلحة النووية اليوم ، فقد كان عنصر ردع ، وحسم في الوقت ذاته . فهو عنصر ردع خافته الجيوش ،

<sup>٥٠٦</sup> - النطرون : من أهم المعادن المسخرجة من اقليم الشرقية ، وعرف هناك بالنطرون الخطاري نسبة لبلدة الخطارة قرب فاقوس الشرقية ، كما كان يستخرج من اقليم البحيرة ، وكان أكثر جودة من نطرون الشرقية ، والنطرون معدن شفاف والمستخرج من الشرقية ، والمستخرج من الطرانة في اقليم البحيرة أخضر اللون . الزبيدي ( السيد محمد مرتضى ، ت ١٢٠٥هـ / ١٧٩١م ) : تاج العروس من جواهر القاموس ، ج ٩ ، تح لجنة من وزارة الإعلام في دولة الكويت ، ط ١ ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م ، ج ٢ ، ص ٥٧٢ - ٥٧٣ . الشاعر ( محمد فتحي ) : الشرقية في عصر سلاطين الأيوبيين والمماليك ، دار المعارف ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م ، ص .

<sup>٥٠٧</sup> - إسهامات الحضارة العربية الإسلامية : ص ٧٧ .

<sup>٥٠٨</sup> - المرجع المتقدم : ص ٧٧ .



والشعوب ، وأدخل إلى قلوبها الرعب ، وهو عنصر حسم كان له الكلمة الفصل في كل المعارك التي أستخدم فيها . كيف كان ذلك هذا ما سيتم البحث فيه ولاسيما في العصر المملوكي الأول .

### النيران في العصر المملوكي الأول :-

السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هل فعلاً سلاح النيران كان موجوداً في العصر المملوكي ؟ . صحيح أن المعلومات التي تقدم ذكرها أكدت وجود النيران وأكدت استخدامها في العصور المتقدمة على العصر المملوكي لكن يبقى الاحتمال قائماً بنسبة ما . فقد يكون هذا السلاح قد اندثر لسبب أو لآخر ولم يعد موجوداً ، أو أنه لم يلق العناية اللازمة لتطويره وبالتالي فقد استمرارية فاعليته ووجوده ، أو أن هناك نظرة إنسانية جعلت منه سلاحاً محرماً نظراً لما يحدثه من دمار وقتل جعلت الدول ، والشعوب تنفق على تدميره كما يحصل اليوم من محاولات للحد من انتشار أسلحة التدمير الشامل ، أو تدميرها . أما الاحتمال الآخر فهو أن تكون هذه الأسلحة قد طورت وصارت فاعليتها أكثر وقدرتها التدميرية أوسع وانتشارها بين الدول ، والشعوب أكبر .

من أجل معرفة الحقيقة عن هذا الموضوع يجب العودة إلى المصادر التاريخية والبحث فيها عما يسعف ويغني ويؤكد هذا الوجود من عدمه .

المصادر التاريخية تؤكد أنه: في سنة ٥٥٦هـ / ١١٦١م اغتتم الصليبيون ضعف الفاطميين في مصر وفرضوا عليهم جزية سنوية<sup>٥٠٩</sup> . وفي سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٣م أظهر ملك القدس عموري الأول أطماعه في مصر مستغلاً الصراع القائم بين ضرغام ، وشاور وزير الخليفة<sup>٥١٠</sup> . وكان كل منهما يحالف الصليبيين للاستعانة بهم في ذلك الصراع فزاد طمع الصليبيين بمصر وعدوا احتلالها مفتاح أساسي للوصول إلى الأراضي المقدسة وتثبيت دولتهم فيها ، فعزموا على ذلك وتوجه الملك عموري الأول سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٨م واحتل بلبيس ثم توجه إلى القاهرة وحاصر الفسطاط . عند ذلك أمر شاور بحرق المدينة . ويقول المقريري : « إن عشرين ألف قارورة من النفط استخدمت لحرق المدينة وإن النيران ظلت مشتعلة في الفسطاط بضعا وخمسين يوماً<sup>٥١١</sup> . وقد كشفت الحفريات الحديثة عن وجود كثير من قوارير النفط في أنقاض المدينة وكانت في حالة جيدة ، ودلت التحاليل ، والاختبارات على أن تلك القوارير تحتوي على بقايا مسحوق البارود<sup>٥١٢</sup> . وهناك نص تم نشره من قبل سهيل زكار نقلاً عن رسائل الهند يؤكد أن الدولة الفاطمية استخدمت سلاح النفط وأعطته أهمية كبيرة لأنها وكما يبدو أنها كانت تعرف معرفة عميقة مقدرته على الحرق ، والإحراق وذكر في ذلك النص صفات مختلفة لأشكال النفط الذي استخدمته الدولة الفاطمية ومنه :

نفت يرمى بالنشاب<sup>٥١٣</sup> .

<sup>٥٠٩</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٣٣ . مقدار هذه الجزية كما يقول ابن تغري بردي مئة ألف دينار في كل سنة .

<sup>٥١٠</sup> - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ١ ، حققه جمال الدين الشيال ، ص ١٣٩ - ١٤٠ .

<sup>٥١١</sup> - المقريري : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٦٦ .

<sup>٥١٢</sup> - دجاني ( هاديه ) - تشكيل وآخرون : الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م ، ص ٥٥٧ .

<sup>٥١٣</sup> - زكار ( سهيل ) : المدفعية عند العرب ، دار الفكر ، ط ١ ، دمشق ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ص ٢٣٩ .

نفت يرمى عن المنجنيق .

نفت يعباً بقشر البيض ثم يرمى<sup>٥٤</sup> .

كما استطاعوا عمل نفت يمشي على الماء ويصلح لحرق المراكب .

نفت يالتهب ولا ينطفئ<sup>٥٥</sup> .

كما عالجت تلك المخطوطة استخدام النار من قبل الفارس بالإضافة للتوصل إلى عمل طلاء يمنع النار من أن تُضرمَ من طلي به<sup>٥٦</sup> .

أما الأيوبيون فقد استخدموا النيران في معظم أعمال الحصار التي خاضوها وكان لها دور كبير في حسم تلك المعارك، وعلى سبيل المثال لا الحصر ما عمله علي ابن عريف النحاسين بدمشق الذي استأذن السلطان صلاح الدين الأيوبي في دخول عكا للجهاد ، واستطاع باجتهاده أن يركب عفاقير وقدر من النفط (( والناس يضحكون منه ويغضون النظر عنه ، ويقولون هذا يضيع ماله فيما لا يعنيه ، وما هذا الهوس الذي وقع فيه ، وهو يعد لذلك العمل الآلات ويجد في تلك الأدوات ويكثر القدر ويرتب الأمور ... ))<sup>٥٧</sup> . وكانت النتيجة أنه استطاع إحراق أبراج الصليبيين بعكا بعد أن استعصت على ما هو متوفر من الأسلحة . وإن كان من الصعب الجزم بشأن مضمون أو محتوى تلك النيران من خلال الإطلاع على المصادر التاريخية التي تحدثت عن تلك المعارك . لكن الدراسات الحديثة دلت على وجود آثار مسحوق البارود في بعض القنابل والقوارير التي أكتشفت في مصر والتي تم التحدث عنها وفي بلاد الشام أيضاً .

أما عن النيران في عصر الدولة المملوكية الأولى فسيتم الحديث عن ذلك على مرحلتين . المرحلة الأولى : التحدث عن صناعة النيران ( النفط ) ومعرفة الأدهان التي تستخرج منه وأنواع النيران والوقاية منها وذلك نظرياً كما تحدثت عنها المصادر التاريخية . وهنا لا بد من الوقوف عند ملاحظة مهمة ، وهي أن هذه المصادر الأساسية لم تتحدث بالكثير من التفاصيل عن مثل هذا الموضوع . حيث يبدو أن ذلك لم يكن من اهتمامات المؤرخين أمثال ابن عبد الظاهر وبيبرس المنصوري والمقريزي وابن تغري بردي وغيرهم وكل ما ذكره عن هذا الموضوع هو الإشارة إلى استخدام النيران في الحروب والمعارك دون التطرق إلى كيفية استخدامه أو صناعته إلى غير ذلك من الأمور ، وفي الوقت ذاته كان هناك الكثير ممن كتبوا رسائل حربية تحدثوا فيها عن موضوع النيران وصنعتها وأنواعها واستخداماتها وحتى عن الأسلحة التي تستخدمها إلى غير ذلك من الأمور التي تتعلق بالنيران ويمكن اعتبار هؤلاء

<sup>٥٤</sup> - زكار: ص ٢٤٠ .

<sup>٥٥</sup> - زكار: ص ٣٤١ .

<sup>٥٦</sup> - زكار : المدفعية عند العرب : ص ٣٤٢-٣٤٣ . أما عن الطلاء : يؤخذ طلقاً محلياً بالباقلي ( الفول أو الفستق ) ويعجن بالمغرة وشيء من الختمية عجنًا جيداً ثم تطلي به ما أردت وتدعه حتى يجف ويعمل النار عليه فإنها لا تؤلم . وهناك طريقة أخرى وهي : تأخذ غري سمك جزء + شب جزء + عصير العوسج جزء ، ويخلط الجميع بالخل ويطلّى منها المكان المراد حمايته ويترك حتى يجف .

<sup>٥٧</sup> - العماد الأصفهاني الكاتب ( محمد بن محمد، ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م ) : الفتح القسي في الفتح القدسي ، عن زكار ( سهيل ) : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، دمشق ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م ، ج ، ص ٢٥١ . أبو اليمن ( عيد الرحمن بن محمد بن عيد الرحمن بن محمد العلمي المقدسي الحنبلي ، ت ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م ) : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل المكتبة الحيدرية ، النجف، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م ، ج ١ ، ص ٣٦٤ .

اختصاصيين بالأسلحة وتقانتها واستخداماتها والتدريب عليها والحماية منها . . . الخ . ونذكر من هؤلاء :

نجم الدين حسن الرماح المعروف بالأحذب وكان من معاصري الدولة المملوكية الأولى من بداياتها . تحدث في كتابه الفروسية والمناصب الحربية عن النيران وكيفية إعداد الفتيل المشعل وكيفية إعداد المواد اللازمة لاشتعال النيران على سطح الماء وكيفية عمل بعض الألعاب النارية كإشعال الأصابع العشرة وغير ذلك كما أورد رسوماً توضح صفة القدور ( القنابل النارية ) كما شرح عدة وصفات لصناعة أنواع معينة من الخلطات النارية ، وذكر نسب المواد الداخلة في تركيب البارود ، وهي ملح النترات ٧٥٪ ، والكبريت ١٠٪ الكربون ١٥٪ ، وفي هذا المجال ذكر ست وثلاثين طريقة<sup>٥١٨</sup> . مما أدى إلى انتشار صناعة البارود ، والقذائف ، والألعاب النارية ، وأصبحت صناعة لها أسس ، وقوانين وقواعد في تلك الدولة .

ونذكر أيضاً منهم محمد بن منكلي الناصري صاحب كتاب الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب وهو من معاصري الدولة المملوكية الأولى أيضاً ( ت ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م ) وكان أحد مقدمي الحلقة السلطانية ثم نقيباً للجيش المملوكي أيام السلطان الأشرف شعبان ، وقد تحدث في الكتاب المذكور عن أسماء النفوط ، والقطران ، والأدهان ، والصموغ ، ومن الأسماء التي ذكرها للنفط الأبيض والأسود والأحمر ( نسبة لألوانها ) والحرماني<sup>٥١٩</sup> والخيثاني<sup>٥٢٠</sup> والفارسي<sup>٥٢١</sup> والهولي<sup>٥٢٢</sup> والقزمي<sup>٥٢٣</sup> ( نسبة لأماكن وجودها )<sup>٥٢٤</sup> . ثم تحدث ابن منكلي عن طرق تصنيع الأصماغ ، وتحويلها إلى مواد أخرى مشتعلة ، وتحويل النفط من شكل إلى آخر أكثر اشتعالاً ، أو أقل ، أو تغيير مواصفات الاشتعال من حيث الإستمراره ، أو الانطفاء على سطح الماء ، أو بالماء ومن حيث الرائحة ، أو عدمها وخاصة عند تحويل النفط من نوع إلى آخر<sup>٥٢٥</sup> .

وتحدث ابن أرنبغا الزردكاش عن أنواع القدور وعددها وذكر منها أكثر من عشرة أنواع . ثم فصل في صناعة كل قدر من هذه القدور .

ثم تطرقت هذه الرسائل إلى التدريب على استخدام النيران وذكرت عدة وسائل ، وطرق من أجل ذلك ، وتحدث مطولاً عن العمل على الخيل بالنار أو كيفية اللعب بالنار للفارس والراجل ثم تحدث عن بعض استخدامات النار مثل إنارة المعسكرات ليلاً ، وتم شرح ذلك مفصلاً<sup>٥٢٦</sup> .

<sup>٥١٨</sup> - الرماح نجم الدين : الفروسية والمناصب الحربية ، ص ١٤١ - ١٧١ .

<sup>٥١٩</sup> - الحرماني : نسبة إلى حرم وهي بفتح الراء تعني فلج من أفلاج اليمامة . وروى ابن المعلى الأزدي حُرْمٌ وَحَرْمٌ بفتح الراء وضمها جميع ذلك موضع باليمامة . الحموي : معجم البلدان ن ج ٢ ، ص ٢٤٤ . - البغدادي ( صفى الدين عبد المؤمن ت ٧٣٩ هـ / ١٣٣٩ م ) : مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ٣ أجزاء ، تح محمد علي البجاوي ، دار الجيل ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م ، ١ م ، ص ٣٩٣ .

<sup>٥٢٠</sup> - لم يتم العثور على تعريف لهذه المنطقة في المصادر المتوفرة .

<sup>٥٢١</sup> - الفارسي : نسبة إلى بلاد فارس ( إيران ) .

<sup>٥٢٢</sup> - هولي : بالضم فُعلي - من الهول وهو الأمر الشديد ، وهو جبل بنجد لبني جشم . الحموي : معجم البلدان ، مصدر متقدم ، ج ٥ ص ٤٢٠ .

<sup>٥٢٣</sup> - القزمي : نسبة إلى بحر القازم ( البحر الأحمر ) .

<sup>٥٢٤</sup> - ابن منكلي : الحيل في الحروب ، ص ١١٥ .

<sup>٥٢٥</sup> - ابن منكلي : ص ١١٩-١٣٢ .

<sup>٥٢٦</sup> - ابن منكلي : ص ١٤١ .

أما محمد بن عيسى الأقسرائي فتحدث في كتابه نهاية السؤل والأمنية في الباب التاسع والعشرين عن الزراقين ، وما الذي ينبغي أن يكون مع الجندي الزراق ، وتحدث عن مسائل أخرى منها كيفية التصرف من قبل الزراق عندما يواجه من قبل أحد الفرسان المعادين<sup>٥٢٧</sup> أو يلتقي الرجل الزراق برجل معادي زراق أيضاً<sup>٥٢٨</sup> .

وتحدث الرماح ( محمد بن لاجين الحسامي الطرابلسي ) في أبواب كثيرة من مخطوطته المعنونة ب (( غاية المقصود في العلم والعمل بالبند )) عن القدر وكيفية تحضيرها وتجهيزها للرمي مثل ترسيم القدر العراقية<sup>٥٢٩</sup> حيث تم وصف المقادير المكونة منها ، وكذلك القدر المغربي، وذكر أسماء أخرى للقدر منها : القدر الزير والهليجة . ثم تحدث بعد ذلك عن كيفية رماية هذه القدر ، والوسائط التي يجب أن ترمى بها . بعد ذلك تحدث عن بعض الدهانات والصموغ والخلطات وذكر صفاتها وأنواعها<sup>٥٣٠</sup> .

وتحدث ابن منكلي عن بعض المعارف التي يجب على الزراق أن يمتلكها حتى يستطيع أن يتعامل مع سلاح النيران ومنها :

معرفة الذخيرة ( نوع النيران ) التي سيرميها وزنها وحجمها ونوعها وبالتالي إمكانية رميها وبأية واسطة سيتم ذلك . ومنها أيضاً معرفة اتجاه الريح وهذا أمر ضروري ففي علم الرمي الذي قال عنه الماوردي (( يمنع من لا يعلم علم القتال من تنزيله في الديوان السلطاني ))<sup>٥٣١</sup> . إن قوة الرياح واتجاهها يؤثر على مسار القذيفة وقدرتها على الوصول إلى الهدف المحدد وهذا يؤخذ بحسابات دقيقة في علم الرمي للجيش والأسلحة المتطورة . ومن المعارف الضرورية أن يعرف الجندي كيفية ضبط آلية الرمي لكي يستطيع أن يحقق إصابات مباشرة أو شبه مباشرة تؤثر على طبيعة الهدف المرمي . إضافة إلى ذلك يجب أن يعرف الغاية من الرمي أو بمعنى آخر طبيعة الهدف الذي سيرمي عليه فإحراق الأبواب يحتاج إلى دقة في الرمي غيرها في الرمي على هدف كبير الحجم كالأسوار أو التجمعات البشرية أو مستودعات الأسلحة ( الزردخاناه ) أو على المؤخرات والأحمال والأثقال فكل هدف له طبيعة ومعرفة هذه الأهداف تحدد الغاية من الرمي وبالتالي يحدد طبيعة السلاح والقذيفة وكمية النار أو الذخائر . ومنها عدم إفشاء سر صناعة الزرارة لمن لا يثق بهم في دين أو مروءة ، وكان الملوك قديماً لا يفشونها لغير الملوك<sup>٥٣٢</sup> .

كما استفاد المماليك من تطور العلوم وخاصة علم الفيزياء ، وعلم الزوايا ( علم الهندسة ) وعلوم الضوء وانعكاسه على المرايا لإنتاج بؤر حرارية هائلة تستخدم في الإحراق و تستعمل في حالات خاصة ، و قالوا : عند استخدام المرايا المحرقة لا بد من معرفة قدرتها على ذلك وكيفية عملها ، ونصبها ، ومحاداتها<sup>٥٣٣</sup> . وهناك الكثير من علماء الحضارة الإسلامية الذين

<sup>٥٢٧</sup> - الأقسرائي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٣٩٧ .

<sup>٥٢٨</sup> - الأقسرائي : ص ٤١٧ .

<sup>٥٢٩</sup> - الرماح الحسامي : غاية المقصود ، ورقة ٣٨ .

<sup>٥٣٠</sup> - الرماح الحسامي : الورقة ٣٩ - ٤٤ .

<sup>٥٣١</sup> - الماوردي ( قاضي القضاة أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ) : الأحكام السلطانية أخذ النص عن مجلة المورد، وزارة الثقافة والإعلام ، م ١٢ ، العدد الرابع ، بغداد ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٣٤١ .

<sup>٥٣٢</sup> - ابن منكلي : التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية ، ص ٣٤١ .

<sup>٥٣٣</sup> - حاجي خليفة : كشف الظنون ، ص ١٦٥٢ .

تناولوا هذا العلم وظواهره المختلفة في بعض مؤلفاتهم ومنهم في العصر المملوكي نصير الدين الطوسي المتوفى سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٤م ، ومنهم ابن النفيس القرشي المصري المتوفى سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م ومنهم كمال الدين أبي الحسن الفارسي المتوفى سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م الذي كتب كتاب تنقيح المناظر لذوي الأبصار والبصائر وجاء في ثلاثة أجزاء صدر الجزء الأول منه سنة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م عن الهيئة المصرية العامة للكتاب والمجلس الأعلى للثقافة متضمنا تحقيق المقالات الأولى والثانية والثالثة ، وصدر الجزء الثاني منه عن دار الكتب والوثائق القومية تحقيق مصطفى حجازي والدكتور أحمد فؤاد باشا سنة ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م متضمنا المقالات الرابعة والخامسة والسادسة .

وجاء عند ابن منكلي : إذا أردت مرآة تحرق ما وقع عليه شعاعها ما بين مائة ذراع إلى ألف ذراع فاتخذ على بركة الله وعونه مرآة من نحو ما أذكره لك واجعل وسطها مرتفعا على هيئة البرطلة<sup>٥٣٤</sup> وحرفها كما يدور مبسوطا واجعلها من اسفندوري سكري من أجود ما يكون منه وأنقاه ثم أخطرها عشرين مره خرطا على خرط حتى لا يكون فيها عيب ولا أثر ثم أجلها عشرين مرة جلاء على جلاء حتى يصير وجهها مستويا لا عيب فيه فإذا أحكمت ذلك فأجمعها على نحو ما أحميت السيوف ثم استخرج ماء الشعر وماء المرقشيتا الصفراء فاسقها سقيا رويا ، وإياك أن يصيبها دخان ولا غيره فيتغير جلاؤها فإن احتجت إليها في الحرب فقدر أن تكون محاربتك العدو – على أربع ساعات من النهار ثم مر راجلا يستقبل بها الشمس وتحركها حتى يقع شعاعها على العدو ، فإنه لو وقع على ألف رجل وألف دابة أحرقهم<sup>٥٣٥</sup> ويعتقد أن مثل هذه العلوم بقيت في إطارها النظري البحث ولم تستخدم في الميدان .

### استخدام النيران أيام الدولة المملوكية الأولى :

من خلال ما تقدم تبين أنّ الكثير من المؤلفات كتبت عن البارود وكيفية صناعته وتركيبه

وعن استخداماته في الحروب كقذائف ترمى بالأسلحة ( المنجنيق – العرادات وغيرها ) ثم تطور الأمر إلى أن أصبحت النيران ترمى بأدوات متطورة كالمدافع ، والسؤال هنا هل استخدمت النيران كأسلحة في العصر المملوكي الأول ؟

المتتبع للتاريخ في ذلك العصر يلاحظ ببساطة أن النيران استخدمت في معظم المعارك والحروب التي خاضها المماليك .

ففي معركة المنصورة سنة ٦٤٨ هـ/١٢٥٠ م في أواخر **عصر** الأيوبيين وبداية عصر المماليك عندما قام لويس التاسع بالحملة السابعة على مصر حيث كانت النيران العامل الرئيسي الحاسم في تلك الحملة وقد ذكر عدد من المؤرخين ذلك عند دراستهم لذلك العصر وتحليلهم للأحداث التي جرت في تلك المعركة وكان رأيهم أن القذائف التي كانت ترميها المنجنيقات العربية كانت قنابل متفجرة وكان لها تأثير مثير للرعب في نفوس الصليبيين وقد وصف هذه الحالة مؤرخ

<sup>٥٣٤</sup> - البرطلة : هي المظلة الشمسية .

<sup>٥٣٥</sup> - ابن منكلي : التدبيرات السلطانية ، ورقة ٢٦ - ٢٧ .

- ابن منكلي : الحيل في الحروب ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

صليبي كان في هذه الحملة شاهد عيان هو المؤرخ الشهير جوفنيل<sup>٥٣٦</sup> الذي كان محاربا عنيدا وقائدا موجها ومؤرخا في الوقت ذاته في هذه الحملة فقام بوصف أحداثها بدقة متناهية عندما قال (( وفي احد الليالي عندما كنا نقوم بواجباتنا المعتادة في الحراسة جلب المسلمون آلة تسمى العرادة ولم يكونوا قد صنعوها من قبل ووضعوا نارا إغريقية في كفتها ))<sup>٥٣٧</sup>. والكلام عن صناعتها وان العرب والمسلمين لم يصنعوها من قبل غير دقيق لان هذا السلاح ( العرادات ) كان موجودا من زمن طويل فقد ورد ذكرها في أكثر من مصدر تاريخي لعصور أقدم بكثير من عصر الحروب الصليبية فقد ورد ذكرها مثلا في كتاب عيون الأخبار المجلد الأول لابن قتيبة<sup>٥٣٨</sup>، كما ورد ذكرها في تاريخ الطبري<sup>٥٣٩</sup> لكن الجديد هنا هو استخدام النار بدلا من الحجارة التي كانت مستخدمه . ثم تحدث جوفنيل عن الخطر الذي سيلحق بالصليبيين من جراء استخدام هذا السلاح فقال: (( نحن يا أصدقائي في أعظم المخاطر التي كنا فيها قط ))<sup>٥٤٠</sup> وصور ما يجب أن يقوم به الجنود الصليبيين كي لا يتعرضوا إلى المخاطر التي ستنتج عن استخدام تلك النيران من قبل العدو ، وبالتالي التقليل ما أمكن من الخسائر التي يمكن أن تقع بهم نتيجة استخدام هذا السلاح . ثم وصف جوفنيل هذه المقذوفات فقال : (( وبدت النار الإغريقية وهي تمر مقذوفة من الأمام باتجاهنا مثل برميل كبير من القار ، وكان ذيل النار المشتعل خلفها مثل قناة رمح طويل ، وكان الصوت الذي تثيره وهي قادمة مثل الرعد الساقط من السماء ، وقد بدت مثل تنين يطير في الجو ، وكان الضوء الذي نشرته هذه الكتلة النارية من حولنا مشعا إلى حد أنه كان بإمكانك أن ترى في خلال المعسكر بوضوح وكأنك في النهار ))<sup>٥٤١</sup>. ويبدو من خلال هذا النص أن القذائف التي وصفها جوفنيل كانت تسير بقوة دفع البارود وهذا تطور كبير في مجال السلاح إن صح الاستنتاج . وبالتالي هذا يكون مصداقا لم قاله غوستاف لوبون بأن العرب هم الذين اكتشفوا القوة الدافعة للبارود<sup>٥٤٢</sup>. وبالتالي فان العرب هم الذين اخترعوا الأسلحة النارية بمعناها الحقيقي . أما ما ذكره المؤرخون عن الأدوات أو الأسلحة التي كانت ترمى بها النيران فهي أكثر من أداة . قال أحد المؤرخين الصليبيين شهود العيان لمعركة المنصورة : (( قذف العدو في تلك الليلة النار الإغريقية ثلاث مرات من عراداتهم ورموها ثلاث مرات أيضا من قسيهم العقارة المتحركة ))<sup>٥٤٣</sup> . وهذا تطور جديد فلقد أصبحت القسي العقارة تطلق قذائف النيران أو نشابا حاملا للنيران كما قال جوفنيل : (( أطلقوا نحونا عددا كبيرا من نشابهم الحامل للنيران حتى بدا الحال وكأنّ هناك سيارجا عظيما من اللهب يزحف نحو برجنا ))<sup>٥٤٤</sup> . وتحدث الكثير من المؤرخين وخاصة منهم المهتمين بالأسلحة والتقانة ومنهم عبدالرحمن زكي صاحب كتاب خزانة السلاح والذي تم التطرق إليه بأن الصليبيين اعتقدوا أنّ هذا السلاح مدمر مرعب

<sup>٥٣٦</sup> - جوفنيل : - ولد في مدينة جوفنيل الفرنسية سنة ٦٢٣هـ / ١٢٢٤ م من أسرة كان معظم أفرادها مهتمين بالحروب الصليبية

ودخل في خدمة الملك الفرنسي لويس التاسع

<sup>٥٣٧</sup> - جوفنيل : حياة القديس لويس ، ص ٨٤ .

<sup>٥٣٨</sup> - ابن قتيبة : عيون الأخبار ، م ١ ، ج ٢ ، ص ١١٥ .

<sup>٥٣٩</sup> - الطبري : تاريخ الطبري ، ج ٥ ، ص ٧٤ .

<sup>٥٤٠</sup> - جوفنيل : حياة القديس لويس ، ص ٨٤ .

<sup>٥٤١</sup> - جوفنيل : ج ٣٦ ، ص ٨٥ . حسين ( أحمد ) : موسوعة تاريخ مصر ، مؤسسة دار الشعب القاهرة ، ص ٦٦٨ .

<sup>٥٤٢</sup> - لوبون ( غوستاف ) : حضارة العرب ، تر عادل زعير ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١ القاهرة ، / ٢٠٠٠ م ، ص ٣٦٢ .

<sup>٥٤٣</sup> - جوفنيل : حياة القديس لويس ، ص ٨٥ . الشبال ( جمال الدين ) : مجمل تاريخ دمايط سياسيا واقتصاديا الإسكندرية ، مطبعة

مدرسة دون بوسكو ، الاسكندرية ، ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩ م ، ص ٣٥ .

<sup>٥٤٤</sup> - جوفنيل : حياة القديس لويس ، ص ٨٦ .

لا يبقى ولا يذر ، يستطيع القضاء على كل شيء الأخضر واليابس ، ويبدو أنهم نظروا إليه أي إلى ذلك السلاح كما ننظر اليوم إلى السلاح النووي<sup>٥٥</sup> .

وأورد كاسيري نصاً لمؤرخ عربي من مخطوطة في مكتبة الأسكوريال وصف فيه المسلمين القدر المحملة بارود (( دبُّ بعقارب البارود المصرورة ، وتوقدت ناراً ، حيث تدفع تحرق امتدت كأنها سحاب ، وهدرت كأنها رعود ، واضطربت كأنها حريق وجعلت الكل رماداً))<sup>٥٦</sup> .

كثُر استخدام النيران في العصر المملوكي الأول وكانت له فرقة خاصة في الجيش هي فرقة الزرّاقين إذ كانوا يلقونه بالمزراق وهو شبيه بالرمح كما يلقونه أيضاً بالنشاب ، والأقواس والمجانيق ، لا بل حتى في قوارير ، وأخيراً (مكاحل) .

واستخدمت النيران في معظم المعارك التي خاضها المماليك إن لم يكن كلها لكن المصادر لم تذكر تفاصيل هذا الاستخدام مكثفة بالإشارة إلى ذلك فعلى سبيل المثال : استخدم المماليك في معركة عين جالوت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م النيران كما استخدموا ملابس واقية من الحريق وطوروا تقنية أنواع مختلفة من المواد (بودرة) كانت تستخدم لوقاية الأيدي والوجوه ( المناطق المكشوفة من الجسم ) من النيران<sup>٥٧</sup> ، ومثل تلك الأمور مازال العلم إلى أيامنا هذه يسعى لتطويرها من أجل حماية المقاتل من لهيب النيران التي تطور استخدامها بشكل هائل وفي الوقت نفسه هو دليل على التقدم الهائل الذي حصل في صناعة النيران ، وفي معركة الخزندار أكتفي بالإشارة إلى انطفاء النفط الذي كان مع الزرّاقين في مقدمة الجيش لأنهم كانوا قد أوقدوه عن بعد<sup>٥٨</sup> ، كما استخدمت النيران في كل معارك الحصار للقلاع الصليبية ومجرد الإشارة إلى ذلك الاستخدام من قبل المؤرخين العرب والمسلمين يعطي دلالة على أن ذلك السلاح الذي ذكر بتفاصيل دقيقة من قبل مؤرخي الحروب الصليبية الغربيين ، ولم يذكر إلا بالتلميح من قبل المؤرخين العرب والمسلمين هو بالتأكيد موجود واستخدامه كان حاسماً في الظروف الصعبة ، وهذا الأمر يستدعي من الباحثين شد الأهمية للكشف عما تحويه الكثير من مخطوطات ذلك العصر التي مازالت على الرفوف أو في الأدراج تنتظر الهمم العالية

وقد ذكرت ما اصطلح تسميتها الرسائل الحربية أن الجيش المملوكي كان قد برع في استخدام النيران إذ كانوا يستطيعون إلقاءه مشتعل في مختلف الظروف الجوية حتى في وقت سقوط المطر وهبوب الرياح . وهذه المقذوفات تختلف عن بعضها بمواصفات متعددة من حيث التركيب والمواد الداخلة فيه ومن حيث الشكل ومن حيث الحجم ، فالتى ترمى بالمنجنقات تختلف في تركيبها عن التي ترمى بالوسائط الأخرى من حيث التركيب والقدرة على التأثير والحرق ، ومن حيث الشكل أيضاً ، فالتى ترمى بالمنجنق مثلا تكون بالحجم أكبر والقدرة على الإحراق أكبر أيضا من حيث التركيب ، فقد أوضح ذلك الكثير من الذين كتبوا في هذا المجال ، ومن يود الاستزادة عليه إلى الرجوع على سبيل المثال لا الحصر إلى كتاب الأنيق في المنجنق لابن أرنبغا الزرد كاش<sup>٥٩</sup> وكتاب ابن منكلي : الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب<sup>٥٥</sup> ، وكتاب الفروسية والمناصب الحربية<sup>٥٥</sup> وغيرها من الكتب التي ذكرت من قبل . أما ما يرمى بالنشاب فيكون عادة وزنة أخف ، وهذا يستدعي إعادة النظر بالتركيب والمكونات

<sup>٥٥</sup> - زكي : الجيش المصري في العصر الإسلامي من الفتح العربي إلى معركة المنصورة ، ص ١٨٩ .

<sup>٥٦</sup> - نص كاسيري أخذ عن كتاب الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى ، ص ٥٥٩ .

<sup>٥٧</sup> - إسهامات الحضارة العربية الإسلامية : ص ١٩ .

<sup>٥٨</sup> - العيني : عقد الجمان، ج ٤ ، ص ١٤ .

<sup>٥٩</sup> - ابن أرنبغا : الأنيق في المنجنق ، ص ٢٢ .

<sup>٥٥</sup> - ابن منكلي : التدبيرات السلطانية ، ص ٤٠٦ .

<sup>٥٥</sup> - الرماح نجم الدين : الفروسية والمناصب الحربية ، ص ١٤١ - ١٧١ .

، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر تركيب بعض المقذوفات التي يمكن أن ترمى بالنشاب [ جزء رانتج<sup>٥٥٢</sup> + جزء قلفونه + جزء نوره<sup>٥٥٣</sup> وجزء شاش كتان أو التبن الناعم المخلوط بالنخالة ويسحق الذي يمكن سحقه ويخلط الجميع مع جزء من شحم الكلى المحروق ويلف الخليط في مشافة رقيقة ويلف عليها قشر التوت وتحشى به قلب النصل وتلف عليه وترمى فيه جمرة لطيفة ، أو يحرق طرفه ويرمى فإذا خالطه الهواء أشعل نارا عظيمة تحرق أي شيء أصابه ] .

وقد تطورت صناعة النيران في الدولة المملوكية تطورا عظيما فتوصلوا إلى تصنيع نوع من النفط الذي يمشی على الماء ويصلح لحرق المراكب ويتركب من (جزء قطران + جزء كبريت معدني وهو النفط وجزء رانتج وهو صمغ الصنوبر وجزء سندروس<sup>٥٥٤</sup> + جزء شحم دلفين + جزء شحم كلى الماعز ومثله كبريت أصفر ويسحق ما يستحق السحق ، ويحمى القطران على النار فإذا تم الغليان يضاف إليه السندروس ويحرك ، ثم يضاف إليه الكبريت المعدني المشبع بالزيت القديم فيكون جاهزا وعندما تحتاج إليه تأخذه وتغليه ، ثم تشعل فيه النار وترسله على الماء إلى ما أردت من المراكب . فإنه يحرق إحراقا عظيما ويمشي على الماء ولا ينطفئ<sup>٥٥٥</sup>) - وهذا اختراع عظيم وربما يكون البدايات الأولى لصناعة النابالم الفوسفوري الذي يشتعل بمجرد تفاعل المواد الداخلة في تركيبه مع الأوكسجين الموجود في الهواء الطلق وإذا كان الإنسان هو العامل الحاسم في المعركة فهو سيد المعارك وسيد الحروب وهو الذي يقود الحروب وفكره هو الذي يخطط وهو الذي ينفذ وهو الذي يُعلم ويتعلم والسلاح بدونه كتلة مادية لا حراك فيها ولا فائدة منها لذلك لم ينس القادة وصناع الأسلحة هذه الحقائق فعملوا من ضمن ماعملوا على تطوير الأسلحة النارية تصنيع ما يسمى اليوم بالقنابل اليدوية لكي يستخدمها الإنسان المقاتل في الظروف التي يراها مناسبة . قال النويري في كتابه الامام : ((إن مجاهدا مغربيا عرض على الأمير الأكرز والي الاسكندرية في سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٦م سلاحا جديدا وهو عبارة عن قدر - كفيات صغيرة من الفخار ضيقة الأفمام مملوءه جيرا ناعما مطفيا بالبول وكانت الواحدة منها ملء الكف وهي على قدر الرمانة مسدودة الفم بمشافة . ثم استتردا المجاهد واصفا استعمال هذا السلاح ومدى تأثيره فقال بينما كنا مسافرين في البحر المالح [ الأبيض المتوسط ] بين سفاقس وطرابلس صادفنا مركب للفرنج فيه مقاتلة وتجار ، فلما شاهدونا قصدونا . وعندما اقتربوا منا ألقوا الكلايب بمركبنا وكانوا يلبسون سراويل الحديد ، فلما تكلمت المركبان قفز من مركبنا رجال حتى صاروا بمركبهم وأخذوا يضربونهم فلا يؤثر فيهم ، فصار كل واحد منا يتناول واحدة من القدور ويرمي عليهم فتصكهم ، فيصعد الجير بعد انكسار القدر إلى وجوههم ، ويدخل في أعينهم ويصعد في خياشيمهم ، فيفسد أنفاسهم ويعمي أبصارهم ... وهزموا وأطلعنا [ أخذنا إلى مركبنا ] من مركبنا ثلاثين تاجرا مسلما ، وعشرين مملوكا ، وخمس عشرة جارية كانت الفرنجة أسرتهن ..... ، فكان انتصارنا بعون الله تعالى وتلك الكفيات ))<sup>٥٥٦</sup> .

قال : فلما رآها الأمير الأكرز أعجبه مرآها واستحسنه ، وأمر القدموسي<sup>٥٥٧</sup> ، فعملوا نحو عشرة آلاف واحدة ... ورفعت بقصر السلاح لاستعمالها عند الحاجة ) .

<sup>٥٥٢</sup> - الرانتج هو صمغ الصنوبر أنظر : ابن البيطار (أبي بكر بن البدر البيطار ) : الجامع في مفردات الأدوية ، ج ٢ ، ص ١٣٥ .

<sup>٥٥٣</sup> - النورة هو الحجر الذي يحرق ويسحق . انظر : ماهر (سعاد) ، ص ١٥٦ .

<sup>٥٥٤</sup> - السندروس : هو صمغ أخضر فيه شيء من المرارة . انظر الجامع لمفردات الأدوية : ج ٣ ، ص ١٣٨ . والسندروس حسب ما

جاء في المعجم الوسيط : هو صمغ شجر يجلب من نواحي أرمينيا ويتداوى به . المعجم الوسيط : ج ١ ، ص ٤٥٧ .

<sup>٥٥٥</sup> - الطرسوسي : تنصرة أرباب الألباب ، ص ٢٠ - ٢٣ .

<sup>٥٥٦</sup> - النويري السكندري : الإمام ، ص ١٢٦ .

<sup>٥٥٧</sup> - القدموسي : كلمة من أصل يوناني معناها الخزاف أو الفخاري .



## ل - القنابل الزمنية ( المؤقتة ) Tim bomb :

تطورت صناعة القذائف المستخدمة في العصر المملوكي الأول تطوراً ملحوظاً من قذائف الحجر إلى البندق إلى قذائف النفط المشتعلة والدخانية والغازات ، وأخيراً إلى المتفجرة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل عرف نوع جديد من القنابل أقرب ما يكون إلى القنابل الزمنية حيث ورد في تحقيق أورده المقريري في كتاب السلوك كما أورده ابن كثير في البداية والنهاية ، وأجراه الأمير تنكز نائب الشام<sup>٥٥٨</sup> على أثر حريق ضخم وقع في دمشق قال النص : (( إن الرشيد سلامه بن سلمان بن مرجا النصراني ، وكان كاتباً للأمير علم الدين سنجر البشمقدار ، ويوسف بن مجلي كاتب الأمير بهادر أص ، والمكين يوسف عامل الجيش وبصحبتهما رجلان أحدهما اسمه ميلاني والآخر اسمه عازر قدما من القسطنطينية ليجاهدا في الملة الإسلامية ، وقد باعا نفسيهما على ذلك ، وكان ميلاني عالماً بصناعة النفط فاجتمع هؤلاء بكاملهم في بستان يوسف بن مجلي ( في أرض جوبر ) وأحضر لهم ما يحتاجون إليه من المواد والنفط وتعاون الجميع في عمل كعكات حُشيت بارود وبنفط وبنق فحم ، وجعلوا تأثيرها لا يظهر إلا بعد أكثر من أربع ساعات من استعمالها وتذكروا في لباسهم ونزلوا إلى الدهشة وتفرقوا في جوانبها وابتاعوا منها قماشاً ودفعوا ثمنه لصاحبه وجعلوا القماش عنده وديعة ، وقد دسوا فيه تلك الكعكات المصنوعة وغادروا إلى البستان وبعد أكثر من أربع ساعات وقع منها ذلك الحريق ))<sup>٥٥٩</sup> والنص يؤكد بشكل أو بآخر على وجود معرفة مبدئية عن صناعة القنبلة الزمنية التي وصلت إلى مراحل متقدمة في أيامنا هذه . [ كان الهدف إحراق المسجد الأموي ومن الضروري الإشارة إلى أنه تمت محاكمتها ونشرت محاضر التحقيق من قبل صلاح المنجد ]<sup>٥٦٠</sup> . أما عن التفسير العلمي لهذه الواقعة فيمكن أن توضع الاحتمالات التالية :

الاحتمال الأول : أن يكون المماليك في ذلك العصر قد عرفوا نوعاً من آلية التأخير الزمني أن تسمح عند زمن محدد بوصول [ جهد محدد ] ، أو آلية تقوم بدفع الصاعق ليقوم بصعق البارود ويفجره ، وهذا هو مبدأ القنابل الزمنية في أيامنا هذه . على الرغم من أن علم الساعات والمواقيت قد وصل إلى مرحلة متقدمة في ذلك العصر إلا أن مثل هذا الاحتمال غير وارد لأن أيّاً من المؤرخين لم يتحدث أبداً عن قدرة المماليك على أن يصنعوا دائرة الكترونية [ آلية تأخير زمني ] تستطيع أن تمرر جهداً بعد زمن محدد بغية القيام بتفجير بارود أو إحراقه

الاحتمال الثاني : أن يكونوا في ذلك العصر قد عرفوا نوعاً من الفتيل الصاعق بطيء الاحتراق<sup>٥٦١</sup> وبالتالي يقوموا بوصل هذا الفتيل بعد إشعاله مع كمية من البارود ، وعند وصول النار إلى البارود يتم الانفجار . هذا الاحتمال يبقى وارداً لأن العصر المملوكي عرف مثل ذلك الفتيل لكن ما يعيب هذا التفسير هو أن المدة الزمنية كانت كبيرة / ٤ ساعات / وبالتالي فقد

<sup>٥٥٨</sup> - ابن طولون : اعلام الورى بمن ولي نانبا من الأتراك دمشق الشام الكبرى ، ص ٣٨-٤٢ . ابن قاضي شهبة ، ج ١ ، ص ٢٠٤-١٤٦ . الشوكاني ( محمد بن علي ، ت ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م ) : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، وضع حواشيه خليل منصور ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م ، ص ١١٣-١١٤ .

<sup>٥٥٩</sup> - المقريري : السلوك ، ج ٣ ، ص ٢٨٢-٢٨٤ .

- ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٤ ، ص ١٨٧ .

- ابين قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة ، ج ٢ ، ص ١١٥-١١٧ .

- مرزوق : السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، ص ٢٢١-٢٢٢ .

<sup>٥٦٠</sup> - المنجد : خطط دمشق ، ص ٣٤ .

<sup>٥٦١</sup> - الرماح نجم الدين : الفروسية والمناصب الحربية ، ص ١٤١-١٧١ .

نحتاج إلى كميات كبيرة جداً من هذا الفتيل ، ثم إن المدة الزمنية الطويلة لاحتراق الفتيل هل كان يمكن أن تمر دون أن يشم صاحب الدكان رائحة الاحتراق ، ويقوم بتفادي الحريق بطريقة أو بأخرى .

الاحتمال الثالث : كان المماليك قد عرفوا نوعاً من البارود يحترق بمجرد ملامسته للهواء الطلق<sup>٥٦٢</sup> ، [ تم التحدث عنه في الفقرة الماضية ] ، وبالتالي يكونوا قد وضعوا كمية منه في وعاء محكم وجعلوا الغطاء رقيقاً ، وقابلوا للتفاعل مع مادة حمضية مثلاً ، ونتيجة للتفاعل الحاصل سينتقب الغطاء ، ويتعرض البارود للهواء ، ويتم الاشتعال . هذا الاحتمال وارد أيضاً لكن الاحتمال الثاني أقرب للواقعية لأن النص يذكر أنهم عملوا كعكات وأخفوها .

### م - الرعادات :

قد تكون التسمية جاءت نسبة إلى الرعد ، لأنها عندما تطلق يصدر عنها صوت كالرعد ، وباعتباره سلاح بحري يمكن أن يكون قد سمي بالرعادة نسبة إلى نوع من أنواع السمك القوي جدا الذي كان يعيش في مياه النيل واسمه الرعاد قال ابن الفقيه : (( وبمصر من الأعاجيب السمك الرعاد ، ومن صاد منه سمكة لم تزل يده ترعد وتنتفض ما دام في شبكته ))<sup>٥٦٣</sup> ، وذكر مثل ذلك ابن إياس في كتابه نزهة الأمم ، وقد ورد اسمها العرادات ، وهي غير العرادة الشكل المصغر عن المنجنيق الذي تم الحديث عنه والرعادة هذه ذكرها حسن الرماح المتوفى سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٥م وقال عنها : أنها سلاح يمشي على وجه الماء باتجاه السفن المعادية وهو حسب ما ذكر على شكل البيضة يسير على وجه الماء بقوة دفع البارود<sup>٥٦٤</sup> ، وقد تم التحدث مسبقاً عن أن المماليك تعرفوا إلى قوة دفع البارود ، حيث وصف الرماح نفسه عملية تنقية البوتاس من الشوائب وهي العملية الجوهرية في صناعة البارود حتى يصبح متفجراً لكن العقل العلمي لم يتوقف عند ذلك الحد بل تعداه إلى أبعد من ذلك واستجاب إلى تحديات الحروب والمعارك ، فالرعادة التي تحدث عنها الرماح كانت سلاحاً بحرياً جديداً غير معروف قبل ذلك أطلقها المماليك باتجاه السفن المعادية لإحراقها ، وهذا الأمر يطرح الكثير من الأسئلة منها كيف كان يتم توجيه تلك الرعادة باتجاه معين لا إلى غيره أي باتجاه السفينة المعادية ؟

بطبيعة الحال إن قوة الدفع للبارود قد تحل جزء من من الموضوع لأن الدفع يكون إلى الأمام ومن خلال التحكم بمكان الرعادة يمكن توجيه مقدمتها باتجاه سفن العدو لكن تبقى عملية التوجيه خلال المسير لكي لا تنحرف بفعل العوامل الأخرى وهي كثيرة ، ولا سيما الرياح والأمواج والإحتكاك بسطح الماء إلى غير ذلك ، فهل كانوا يصنعون لها زوايا ، أو أجنحة متمحوره على الجانبين يتم التحكم بزوايا المسير من خلالهما بواسطة الهواء أو بغيره كما هو اللآن في سلاح الصواريخ ؟

[ كل ذلك إلى الآن لم يتم توضيح ، وشرح آلية عمله العلمية بشكل دقيق ، وأتمنى أن يحصل ذلك وإن حصل سيكون ثورة عارمة تقلب كل معايير الوصف لذلك العصر لأن مثل تلك الصناعة ، وذلك التحكم يحتاج معرفة هائلة في علوم شتى منها الهندسة والجبر والرياضيات بشكل عام والفيزياء وغيرها من العلوم ]

<sup>٥٦٢</sup> - الطرسوسي : تبصرة أرباب الألباب ، ص ٢٠- ٢٢ .

<sup>٥٦٣</sup> - ابن الفقيه : مختصر البلدان ، ص ٦٧ . ابن إياس : نزهة الأمم في العجائب والحكم ، ص ١٠٨ . السيوطي : حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، ج ٢ ، ص ٣٣٥ .

<sup>٥٦٤</sup> - الرماح نجم الدين : الفروسية والمناصب الحربية ، ص ١٦٦ .

ثم إن الرعادة التي كانت تمضي إلى هدفها بقوة الدفع الناتج عن احتراق البارود الموجود في قسمها الخلفي بالتأكيد لدفعها باتجاه الأمام هل كانت تحتوي في أقسامها الأخرى أنواعا أخرى من البارود لينفجر عندما تصدم الهدف ليتم إحراقه . إذا كان ذلك صحيحا فهو يشبه إلى حد كبير المبدأ العام للصواريخ البحرية ، أو بعيدة المدى ، أو الصواريخ بشكل عام فالصاروخ فيه جزء في مؤخرته يحتوي وقود المسير ، وفي قسمه الأوسط أجهزة توجيه توجهه باتجاه الهدف وفي مقدمته قسم حربي ينفجر عند صدمه للهدف .

إذا ما كان هذا الاستنتاج صحيحاً ، [وهو قراءة أولية ، بل ترجمة أولية لما جاء عند الرماح الذي نقل عنه ابن أرنبغا الزردكاش في كتابه الأنيق في المنجنيق ، حيث أورد الوصف نفسه عن الرعادة أو البيضة لأن شكلها يشبه البيضة<sup>٥٦٥</sup>] ، وجاء في المستقبل ما يؤيد ما ذكره الرماح من خلال المخطوطات الكثيرة التي لم تمتد إليها يد التحقيق ، فسيكون ذلك فتحاً علمياً رائعاً هدية لذلك العصر الموصوف بالجهل والتخلف والإنحطاط لرفع الحيف التاريخي الذي أثقل كاهله ردحا طويلا من الزمن ، و الذي لم يُحَقَّق أكثر من خمسة بالمائة من مخطوطاته وإرثه الثقافي حسب ماجاء في مجلة دراسات تاريخية<sup>٥٦٦</sup> .

#### ن - صناعة الدخاين والغازات السامة :

استخدم الدخان ، والغازات السامة في الجيوش في عصور مختلفة ، وكانت الدخاين والغازات السامة من أخطر الأسلحة التي أنتجتها المصانع المملوكية ، والتي تعد من أبرز مبتكرات العصور الحديثة بيد أن الصناعات العسكرية المملوكية أنتجت الكثير من أنواع الدخاين كما كانوا يسمونها ومنه على سبيل المثال الدخان الأسود الذي ربما استخدم لتغطية تجمعات الجيوش ، أو تحركاتها ، أو أماكن وجودها الخ ... ( التمويه التكتيكي للقوات ) ، وذكر محمد بن منكلي الناصري عدة طرق لتحضير الدخان فقال : تأخذ ثمانية أقساط ، أو ستة أقساط نطف أسود - أقساط تعني أجزاء متساوية - ، وقسط زفت رطب ، ورطلين ميعة ، ورطلين زفت يابس ، ورطلين حمر ، وقسط شحم - يغلى الجميع في قدر نحاسي كبير حتى يختلط المزيج بعضه مع بعض ثم تتم تصفيته ويوضع في قلة ( قدر آخر ) ، فإذا أردت العمل به ضعه على نار حتى يصير المزيج مثل اللبان وأوقد على الهاجة ، ولا توقد المشعل ثم أنفخ فإنه يخرج الدخان مثل الجبال .

ومنها أنواع قاتلة للإنسان ، والحيوان ، وهي شبيهة جدا بالأسلحة الكيميائية في هذه الأيام ذكر الرماح أنه إذا شَمَّها أحد مات من وقته ، وإذا وضعت هذه الدخاين على أحطاب ، وقذف بها على أرض العدو ، وجمعت الأحطاب ، واستخدمت في طهي الطعام ، أو غيره المهم أن تحرق فإذا أصابها النار ، واشتعلت انتشرت منها رائحة كل من يشمها يموت سواء بُعِدَت المسافة ، أو قربت ، ويذكر الرماح أنواعا متعددة من الدخاين يدرس منها على سبيل المثال لا الحصر نوعا واحدا ، ويوصف تركيبه<sup>٥٦٧</sup> .

<sup>٥٦٥</sup> - ابن أرنبغا : الأنيق في المنجنيق ، ص ٤٣ .

<sup>٥٦٦</sup> - النهار ( عمار ) : الدراسات الجديدة في عصر دولة المماليك البحرية ٦٤٨ - ٧٨٤ هـ / ١٢٥٠ - ١٣٨٢ م ، مجلة دراسات تاريخية ، دمشق ، جامعة دمشق ، العددان ١١٧ - ١١٨ ، ١٤٣٣ هـ / ٢٠١٢ م ، ص ٢٧٧ . زكي : العلوم في العصر المملوكي بحوث في تاريخ الحضارة الإسلامية ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦ م .

يؤخذ من الكبريت الأزرق رطلين فيسحق ويوضع في قدر ويصب عليه بول جمل وبول إنسان ويطبخ بنار لينة . حتى ينحل كله ثم يؤخذ من الزرنيخ الأصفر جزء ومن الحلتيت جزء ومن الثوم جزء ومن دم ثور مجفف جزء وتلقى هذه الأدوية كلها عليه ويترك حتى يختلط بعضها ببعض جيدا ، ويلقى فوقه الدواء الأول ، ويخلط الجميع بالطبخ بالبول حتى يختلط الكل جيدا وبعد عملية الطبخ يمكن أخذ أي نوع من الخشب<sup>٥٦٨</sup> ، وتلطيخه به ، ويضع فيه النار ، فكل من يشمه يموت لوقته ، وهنا يتبادر سؤال مهم هو : أثناء عملية الطبخ كيف لا يتأثر من يقوم بذلك العمل بتلك الغازات ؟ إن الإجابة على مثل هذا السؤال تدلل على وجود إختصاصيين يقومون بمثل تلك الأعمال، وأن لهم ألبسة خاصة ، أو أقنعة تقيهم من تلك الروائح هذا من جهة ، ومن جهة أخرى على مدى التقدم العلمي الذي وصل إليه ذلك العصر .

قال الرماح : كان من يقوم بعملية إعداد هذا النوع من الدخاخين بأن يأخذ كمية من القطن وتبل من الدهن والكافور ويضعها العامل على أنفه فتمنع عنه تلك الرائحة<sup>٥٦٩</sup> . لكن السؤال المهم هو هل استخدمت تلك الدخاخين في الحروب في العصر المملوكي الأول ؟

المصادر لم تشر أبدا إلى استخدام مثل تلك الأسلحة ويبدو أنهم لم يستخدموا ذلك السلاح للأسباب التالية:

- إنه سلاح فتاك ضار بالإنسان ، والحيوان ويبدو أنه كان سلاح ردع فتاك كما هي أسلحة الدمار الشامل في الوقت الحاضر .
- لم يكونوا بحاجة إلى استخدامه لأن أسلحتهم التي كانوا يستخدمونها كانت كافية لتحقيق الانتصار على العدو .
- كانوا يقاتلون دائما على أرضهم سواء أكانت معاركهم دفاعية ، أو هجومية ، واستخدام مثل تلك الأسلحة كانت ستلحق الضرر بالسكان وحيواناتهم وممتلكاتهم ( أي برعاياهم قبل غيرهم) ولذلك لم تستخدم مثل تلك الأسلحة .
- ومن خلال كل ذلك نرى مقدار اهتمام دولة المماليك بالأسلحة وتصنيعها والتقدم الكبير الذي وصلت إليه معتمدة على تجارب الآخرين والبناء عليها وإضافة ما يمكن إضافته من خلال الاستجابة إلى التحديات التي تفرضها المعارك والحروب وتطور الجيوش المعادية . ولكن السلاح ومهما كان متطورا يبقى أداة لا حراك فيها ولا نفع إلا إذا حرك أو أستخدم بأيدي خبيرة عالية التدريب وهذا سيكون موضوع بحث الفصل التالي .

<sup>٥٦٨</sup> - الرماح نجم الدين : الفروسية والمناصب الحربية ، ص ١٦٧ .

<sup>٥٦٩</sup> - الرماح نجم الدين : ص ١٦٧ .

## الفصل الثالث ..... ص ١٢٥ - ص

- ٧- التدريب في الدولة المملوكية الأولى .....
- أ - تعريف التدريب .....
- ب- التدريب في مصادر العصر المملوكي الأول .....
- ج - إعداد القادة . .....
- د - إعداد المتدربين . .....
- هـ - مواد التدريب أو التدريب الاختصاصي . .....
- و - القاعدة التدريبية . .....
- ز - مناهج التعليم والتدريب في العصر المملوكي الأول .....
- ح - طرق وأساليب التدريب في العصر المملوكي الأول . ....
- ط - مبادئ التدريب الأساسية في العصر المملوكي الأول . ....

## التدريب العسكري للجيش في العصر المملوكي الأول :

### ١- تعريف التدريب :

هو مجموعة من الأعمال التي يقوم بها المدرب بغية التأثير على الفرد أو المجموعة بهدف إكسابهم المعارف والخبرات والمهارات اللازمة لتحقيق عمل ما ( دراسة عتاد - معرفة ميزاته الفنية والتعبوية والتكتيكية وكيفية استخدامه وصولاً إلى المهارة بذلك ، دراسة فن الحرب ، دراسة تاريخ المعارك والحروب ... الخ ) . هذه المعارف وهذه المهارات والخبرات التي سيستخدمها المقاتل في الميدان عند اللزوم ، وهي التي تؤهله لخوض المعارك ومواجهة الأعداء وتحقيق النصر عليهم . والتدريب عملية مركبة ومعقدة تستند إلى أسس ثلاثة المدرب والمتدرب ومواد التدريب ، واستناداً إلى ذلك ستنم معالجة البحث انطلاقاً من محاور ثلاثة

المحور الأول - المدرب ، وصفاته ومؤهلاته ، وكيفية إعداده ، والمتدرب وصفاته .

المحور الثاني - المتدرب ، وكيفية إعداده .

المحور الثالث - مادة التدريب ( الأسلحة - الأعتدة - كيفية التدريب عليها - إلى غير ذلك )

والآن وبعد هذه المقدمة البسيطة ، وقبل الدخول في بحث المحاور الثلاثة أصبح لزاماً التعرّيج على أهم ما كتب عن التدريب في مصادر العصر المملوكي الأول لإيجاد الأرضية الصحيحة من أجل الدخول في الموضوع .

### ٢ - التدريب كما جاء في المصادر ( نظرياً ) :

بالعودة إلى المصادر التاريخية نجد **نجدها قد** تحدثت بإسهاب عن الجيش المملوكي ، ومعاركه وانتصاراته ، وهزائمه ، ونجاحاته ، وإخفاقاته ، وعناصره ، وأصولها ، تمويله ، وتعليمه لاسيما العلوم الدينية ، والعسكرية ، وما يرتبط بذلك من علوم وهي كثيرة . أما عند البحث في التعليم الحربي ( التدريب ) لهذه الجيوش فلا يوجد الكثير في كتب التاريخ العامة ، وينفرد المقرئزي في خطته في الحديث عن انتقال المملوك من التعليم الديني في الطباق إلى التدريب العسكري عند سن البلوغ عندها يبدأ التدريب على أنواع السلاح من رمي للسهم ، ولعب بالرمح ، وضرب بالسيف<sup>٥٧٠</sup> . غير أن المؤلفين في الفروسية ، ومعظمهم أساتذة في فنونها وبعض مؤلفي كتب التراجم للعصر المملوكي الأول كتبوا - لا بل فصلوا - في التعليم والتدريب على مختلف أنواع الأسلحة ، وعلى سبيل المثال :

الاقسراي أكد على أهمية المعارف بأنواعها ، ودورها في تكوين شخصية المقاتل القادر على حل المسائل المفترضة ، والتعامل مع السلاح وفق معطيات الصنعة الفنية لذلك السلاح ووفق ظروف المعركة ، ووفق الأهداف المرجو تحقيقها ، وأكد أن ذلك لا يكون إلا بالتدريب الذي يكسب المقاتل تلك المعارف ، والعلوم ، لذلك قال : لا يكون الرامي رامياً حتى يكون قد عرف

<sup>٥٧٠</sup> - المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٣٧٢ .

جميع وجوه الرمي وما يحدث فيه من العلل ، وما يزيلها ، ويعرف اختلاف العلماء في ذلك<sup>٥٧١</sup> ، وتحدث الأقرائي في خمسة عشر باباً عن التعليم لرماية النشاب .

أما عن تعليم رمي الرمح فقال : أول ما يحتاجه رامي الرمح هو علم العمل بالرمح ( أي أن يدرس هذا العلم ، ويتعلمه )<sup>٥٧٢</sup> . إذاً أول ما تحدث عنه الأقرائي هو ضرورة اكتساب المعارف [ حتى يكون قد عرف ] ، والمعارف هنا تقسم إلى قسمين معارف نظرية ومعارف عملية لذلك أكد فيما بعد على تعلم ما اسماء علم العمل ، أي تطبيق المعارف النظرية التي كان قد تعلمها ، أي ممارستها بشكل عملي في الميدان .

أما نجم الدين حسن الرماح ، الذي جاء في الصفحة الأولى من مخطوطته الفروسية والمناصب الحربية ( فيها كل ما يحتاج إليه الأستاذين ، والفرسان ، والأبطال ، والزرايين وأشغال الحرب ، ومعرفة الرماح ، والدبابيس ، والمقادير ، والمناجيق ، والاحراقات )<sup>٥٧٣</sup> ، وبالتالي ، فالكتاب للمدرب مرجع وللفراس منهل لأنه من الورقة الأولى حتى الأخيرة يتحدث عن التدريب ، ووضّح ما ذهب إليه بالصور ، وهذا يدل بشكل ، أو بأخر أن مثل هذا الكتاب كان يدرس في الطباق نظرياً لإكساب المتدربين المعارف النظرية حيث يتم عرض المعلومات وتعزيزها بالصور ، وبعدها يتم الانتقال إلى التطبيق العملي **حيث** قال : رأس الميدان هو التعلم ، ولا يستطيع أحد الوصول إلى هذا العلم ( الفروسية ) ، ولا غيره من العلوم إلا بالتعليم<sup>٥٧٤</sup> ، وبهذا يكون الرماح قد انطلق من قانون علمي في تدريب المقاتل ، وهو : اشراك أكثر من حاسة في التعليم [ السمع والحس واللمس والحركة إضافة إلى بعض العمليات العقلية مثل التصور ، والتذكر ، والتخيل ، والتفكير ... ] ، وتحدث عن كيفية تعليم المبارزة وتعليم الفرسان فن الفروسية ، والضرب ، والطعن ، والرمي ، والتبديل ، وملاقاته الخصوم وكيفية التغلب عليهم<sup>٥٧٥</sup> .

وتحدث صاحب كتاب الحيل في الحروب عن ضرورة التعليم ، وأن قلة التدريب تؤدي إلى الإخفاق في تحقيق المهام<sup>٥٧٦</sup> . وهذه حكمة لا بل قانون علمي ما زال مستخدماً في كل جيوش الدنيا حتى الوقت الحاضر وهو : [ قطرة عرق في التدريب توفر نقطة دم في الحرب ]

ولا يقتصر التدريب عند محمد بن منكلي على الإنسان المقاتل بل تحدث عن آداب الخيول وكيفية ترويضها ، وتعليمها وقال عن ذلك : من لا أدب فيه لا خير فيه وهذا ينطبق على الحيوان الناطق ، والصامت<sup>٥٧٧</sup> . كما تحدث في كتابه الحيل في الحروب وفتح المدن وحفظ الدروب عن أهمية التدرج في التدريب من السهل إلى الصعب عندما تحدث عن تعليم الجندي كيفية الضرب بالسيف<sup>٥٧٨</sup> ، وهذا أحدث ما توصلت إليه أحدث النظريات العلمية في التدريب ( التدرج في التعليم من البسيط إلى المعقد فالأكثر تعقيد وهكذا ) ، وتحدث في فصل آخر عن

٥٧١ - الأقرائي : نهاية السؤل ، ص ٧٠ .

٥٧٢ - الأقرائي : ص ٩٩ .

٥٧٣ - الرماح نجم الدين : الفروسية والمناصب الحربية ، ص ١ .

٥٧٤ - الرماح نجم الدين : ص ٢٩ .

٥٧٥ - الرماح نجم الدين : ص ٣٦ - ٤٨ .

٥٧٦ - ابن منكلي : الحيل في الحروب ، ص ٤٢ .

٥٧٧ - ابن منكلي : التدبيرات السلطانية ، ص ٣٥٩ .

٥٧٨ - ابن منكلي : الحيل في الحروب ، ص ٤٣ - ٤٥ .

تعليم الفارس الترس وكيفية استخدامه وذلك حسب السلاح الذي يقا تل به وذكر الكثير من الحالات ، والمسائل وكيفية التصدي لعلها . كما تحدث عن أنواع الرمي ، وعن تعليم الفارس هذه الأنواع ، وخصص فصلاً كاملاً هو الفصل الرابع لتعليم الرمي على الحصون ، والباب الخامس لتعليم الرمي ليلاً ، وهذا يدل على ضرورة استخدام كامل الوقت في التدريب والتعليم [ التدريب النهاري - والتدريب الليلي ] ، و أن خوض المعارك **لم يكن** يقتصر على النهار فقط بل ليلاً ونهاراً ، أو على الأقل هو : تفكير بصوت عالي لاستثمار الوقت ليلاً ونهاراً ، وبمجرد التفكير بذلك هو تطور كبير في العلم العسكري ، وفي فن الحرب في تلك الأيام .

أما الرماح محمد بن لاجين فقال في كتابه غاية المقصود في العلم والعمل بالبنود : (( ... أن نوضح في هذا الكتاب ما أشكل على كثير من الطلاب في العمل بالبنود )) من هذا النص البسيط يستنتج أن هذه المخطوطة موجهة لتعليم الطلاب ، وحل ما أشكل من المسائل عليهم أثناء تعلمهم لأعمال الفروسية ، وبالتالي فهو - أي الكتاب - جاء لينتفع به كما قال : الطالب المبتدئ ، ويذكر به العالم المنتهي<sup>٥٧٩</sup> ، وقال أيضاً : (( للرماح طرق يجب أن نتقفاها ، وأحكام يجب الاقتداء بأربابها ، ولها شروط ينجح بقيامها ذو الطعان ، ويرجح باقتفاء سننها ذوي الإقدام من الشجعان ))<sup>٥٨٠</sup> .

وتحدث محمد بن بكتوت عن أهمية التدريب في الوصول إلى الكمال في الفروسية واستخدام الأسلحة في الدفاع ، والهجوم أي في الضرب والتبطيل ، وفي الرمي ، والتبطيل فقال : (( أعلم أن ما يعمل في هذا العلم إلا العالم بعلم الفروسية ))<sup>٥٨١</sup> .

والحسامي الطرابلسي في كتابه (( الفروسية برسم الجهاد وما أعدّه الله للمجاهدين من العباد )) وكتب اثنين وخمسون باباً كلها في تدريب الفارس على استخدام سلاحه ، وترويض فرسه وتأديبه .

وقال لاجين بن عبد الله الذهبي ، ت ٧٣٨هـ / ١٣٣٨م في كتابه تحفة المجاهدين في العمل بالميادين : (( إن للحروب لوازم لا بد للمتصف بالشجاعة منها ، ولها جوازم لا يستغنى عنها وقد تضمن هذا الكتاب ما يجب لمتعاطي الحروب الوقوف عليه ، ومعرفة رسمه ، ومعرفة كيفية فهمه ، والامثال لمرسومه والاسام وسمه ، وخبرة ما تضمنه من إقبال ، وإدبار وإيراد ، وإصدار وكر ، وفر ، ووقوف ، ومر ، وتصويب بسنان ، وإرسال بعنان ، وإقدام وإحجام ، وشرحنا فيه ما يجب الوقوف عليه ، والوقوف عند حده ))<sup>٥٨٢</sup> . كما أوضح أن التدريب على الفروسية يفتح باتقان علم البنود ( الرماح ) من حيث جودتها ، واللعب بها والتصويب والإرسال وغيرها ، فإذا ما أتقن الفارس علم البنود انتقل إلى علم الميادين<sup>٥٨٣</sup> .

أما طيبيغا البكلميشي فقال : (( اعلم أن الرمي لا يستحق اسم الأستاذية حتى يحكم علم الرمي وما يجب أن يشد من الأعضاء ، وما ينبغي أن يُلين منها ، وما ينبغي أن يكون ساكناً ، والعلل التي تحصل من تشديد اللين ، ومن تليين المشدد ، والعلل التي تحصل من تحريك الساكن والعلل

<sup>٥٧٩</sup> - ابن لاجين : غاية المقصود في العلم والعمل بالبنود ، ورقة ١٥٥ .

<sup>٥٨٠</sup> - ابن لاجين : ورقة رقم ١٥٥ .

<sup>٥٨١</sup> - ابن بكتوت : كامل الصناعة ، ورقة رقم ١١ .

<sup>٥٨٢</sup> - لاجين الذهبي : تحفة المجاهدين ، ص ١ .

<sup>٥٨٣</sup> - لاجين الذهبي : تحفة المجاهدين ، ص ٢ .



التي تحصل للرماة ، وأسبابها ، واختلاف الأجساد وتقديرها ، وبنية أعضائها ، وزيادة بعضها على بعض في الطول ، وما يفسد الصالح ، وما يصلح الفاسد ، واختلاف العلماء في ذلك<sup>٥٨٤</sup> ))

حتى في رسائل التباهي التي كثرت في ذلك الزمن كان هناك إحياءً بضرورة التدريب ، فهذا ابن نباته يقول : وإنّ الأنامل التي علمها الله بالسيف ، والقلم مكنها من رتبتي العلم والعمل<sup>٥٨٥</sup> ، وهذا إحياء صريح بتلازم المعارف النظرية ، والتطبيقات العملية .

وقال ابن البيطار في كتابه كامل الصناعتين في البيطرة ، والزردقة (( والبيطرة التي هي العناية الطبية بالخيول ، والزردقة هي تربية هذه الخيول ، وتأديبها ، والعناية بها لتكون جاهزة للحرب ))<sup>٥٨٦</sup> ، وتدريب الخيل لا يقل أهمية عن تدريب أي صنف من صنوف القوات سيما وأنها كانت تمثل القوة ، والحركية ، والمناورة ، والسرعة في ميدان المعركة .

وتحدث طليغا اليوناني البكلميشي في كتابه غنية الطلاب في معرفة الرمي بالنشاب عن تعليم قواعد الرمي بالنشاب<sup>٥٨٧</sup> .

وهناك الكثير من الرسائل في الفروسية التي لم يعرف من كتبها ، والتي تحدثت عن أهمية التدريب ، والتعلم فقال أحدهم : (( لن تكتمل الفروسية للرجل حتى يتعلم أصولها ))<sup>٥٨٨</sup> ، وقال : (( لا ينال العلم إلا بالتعلم ، ولا ينتفع المتعلم من العلم إلا بالمتقن ))<sup>٥٨٩</sup> أي بضرورة إتقان الحركات بالتدريب عليها مرارا ، وتكرارا وصولا إلى إتقانها .

وقد أكد بعضهم الآخر على ضرورة تعلم الفروسية ، واستعمال الأسلحة ، و**عدها** فرض كفاية قد تتحول في بعض الأوقات إلى فرض عين<sup>٥٩٠</sup> .

أما الكتب الموسوعية ، فكتبت على وجه العموم ما يشير إلى أماكن التدريب ، فقد تحدث المقرئ في كتابه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار عن الطباقي ، ومن عمّرها وحياتها المماليك فيها وماذا يتعلمون ، وتنقلهم فيها من رتبة إلى أخرى حتى يصير الواحد منهم أميراً ، ولا يبلغ هذه الرتبة إلا بعد أن تكون قد تهذبت أخلاقه ، وكثرت آدابه ، واشتد ساعده في رماية النشاب وحسن لعبه بالرمح ، وممن على ركوب الخيل<sup>٥٩١</sup> . كما تحدث عن ميادين التدريب ، وأماكن استعراض القوات ، واللعب بالرمح أمام المحمل ، وحلقات الصيد إلى غير ذلك من أماكن تدريب القوات .

وتحدث ابن تغري بردي في كتابه (( النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة )) عن أهمية تعلم الرمح وسوق المحمل<sup>٥٩٢</sup> منذ بداية العصر المملوكي الأول والسر في ذلك ما عرف به ذلك

<sup>٥٨٤</sup> - البكلميشي : بغية المرام وغاية الغرام في رمي السهام ، ص ٩٤ .

<sup>٥٨٥</sup> - ابن نباته ( محمد بن محمد ، ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م ) : رسالة السيف والقلم ، عن مجلة المورد ، عدد خاص ، الفكر

العسكري عند العرب ، المجلد الثاني عشر ، بغداد ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م ، العدد الرابع ، ص ١٤٦ .

<sup>٥٨٦</sup> - ابن البيطار ( أبي بكر بن البدر البيطار ) : كامل الصناعتين في البيطرة والزردقة ، تح عبد الرحمن إبريق ، منشورات

معهد التراث العلمي العربي ، حلب ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م ، ج ١ ، ص ٧-٨ .

<sup>٥٨٧</sup> - البكلميشي : غنية الطلاب ، ص ٤٨ .

<sup>٥٨٨</sup> - مؤلف مجهول : الكمال في الفروسية ، ورقة رقم ٢ .

<sup>٥٨٩</sup> - الكمال في الفروسية : ورقة رقم ٨٣ .

<sup>٥٩٠</sup> - مؤلف مجهول : السبق والرمي وأسلحة المجاهدين ، مخطوط منشور في مجلة المورد ، عدد خاص ، ص ٤٠٩ .

<sup>٥٩١</sup> - المقرئ : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٣٧٢-٣٧٣ .

<sup>٥٩٢</sup> - المحمل : في الأصل هو اليهودج على ظهر الجمل ، وفي الاصطلاح هو قافلة الحج . دهمان : معجم المصطلحات التاريخية ،

المؤرخ عن الحنق في لعب الرمح ، وتدوين أخبار معلميه ، والسابقين ، والدأب على مشاهدة رؤساء هذا الفن ، وملاحظة ما يطرأ عليه من تطور<sup>٥٩٣</sup> ، وتحدث عن أهم ميادين اللعب بالرمح وعدد الكثير من أسمائها<sup>٥٩٤</sup> . وتحدث النويري عن الرمي ومعانيه عند العرب ، وعن أنواع الرمي ، وتعلمها<sup>٥٩٥</sup> أما ابن قيم الجوزية ، فتحدث في كتابه « الفروسية » عن الرمي من القوس ، وتعلم الفروسية ، ورميات الفارس بأنواع القسي<sup>٥٩٦</sup>

أما كتب التراجم ، فقد أشارت إلى الكثير من أسماء المعلمين ، والأساتذة ، والرؤساء في صناعة الجندية ، والمعلم هو من يختص بتعليم نوع من أنواع السلاح المستخدم كالسيف ، أو الرمح ، أو القوس ، أو غيره من الأسلحة ، وقد ذكرنا الكثير من أسماء المعلمين ، والذين وردت لهم ترجمات في كتب التراجم .

والأستاذ في الفروسية هو الذي بلغ الغاية في فنونها حتى ليصبح مرجعا فيها جميعا فضلا عن اشتغاله في التعليم

ومن الأسماء التي ذكرت في كتب التراجم بزوار بن عبد الله العمري المتوفي سنة ٧٩١ هـ / ١٣٨٩م ، وهو من مماليك الملك الناصر حسن حيث رباه مع أولاده وتأدب ، وأصبح ماهراً في كل شيء أتقن الفروسية ، وبرع فيها كما أتقن أنواع الملاعب<sup>٥٩٧</sup> .

أما الرئاسة في علم الفروسية : يصبح من يحصل على هذه الدرجة مرجعا في فنون الفروسية باعتراف الآخرين ، ومن الأسماء التي ذكرت في كتب التراجم ابن بكتمر الحاجب عبد الله - الأمير جمال الدين المتوفي سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤م كان من جملة أمراء الطبلخانات بالديار المصرية ، وحاجبا بها ، واستمر على ذلك ، وكان أولا قد صار أمير مئة ، ومقدم ألف ، وكان رأسا في رمي الشباب ، والبنديق<sup>٥٩٨</sup> .

والآن يتم البحث في المحاور الأساسية الثلاثة في التدريب .

### ٣ - إعداد القادة ، أو تدريب القادة :

كلمة الرئيس ( القائد ) مشتقة من الرأس<sup>٥٩٩</sup> الذي يعد العقل المدبر أينما كان في ميدان التدريب ، أو في ميدان القتال . لأنَّ القائد قدوة بعلمه ، وتعلمه ، وتصرفاته ، وعمله وأخلاقه ، ومقدرته ، وثباته ، وشجاعته / وإصراره ، ولأنه كذلك يجب إعداد إعداده خاصاً ليكون قادراً على تنفيذ مهامه كقائد في الميدان ، ومدرب في الطباقي ، أو مكان التدريب قادر على إعطاء أو إيصال المعلومات اللازمة لبناء شخصية الفارس المقاتل ، أو الجندي المحارب . وخلال هذه العملية الصعبة أسست علاقة متبادلة بين المدرب ، والمتدرب هذه العلاقة كانت مبنية على الثقة

ص ١٤٢ .

<sup>٥٩٣</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢١١ - ٢١٢ .

<sup>٥٩٤</sup> - ابن تغري بردي : ج ٦ ، ص ٤٠٣ .

<sup>٥٩٥</sup> - النويري : نهاية الأرب ، ج ٦ ، ص ٢٢٨ - ٢٣٠ .

<sup>٥٩٦</sup> - ابن قيم الجوزية ( شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي ، ت ٧٥١ هـ / ١٣٥١م ) : الفروسية ، تح

عزت العطار ، ط ١ ، القاهرة ، ١٣٦١ هـ / ١٩٤٢م ، ص ١٠٢ - ١٠٤ .

<sup>٥٩٧</sup> - ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ص ٣٦١ - ٣٦٣ .

<sup>٥٩٨</sup> - ابن تغري بردي : ص ٨٣ .

<sup>٥٩٩</sup> - معلوف ( لويس ) : المنجد في اللغة والأدب والعلوم ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ط ١٧ ، ١٣٨٠ هـ / ١٨٦٠م ، ص ٢٤٢ .

التامة التي جعلت الجندي ينفذ أوامر قائده دون تردد لأنه يعلم من خلال هذه الثقة أن قائده يقوده إلى النصر ، وتحقيق الأهداف المرسومة .

وفي دولة المماليك كان قائد الجيش يسمى الأتابك ، أو أتابك العسكر<sup>٦٠٠</sup> [ وأتابك كلمة مؤلفة من مقطعين أتا ، وتعني أب ، أو عم ، وبك ، وتعني أمير ] ، وأتابك لقب فخري ظهر أيام ملكشاه السلجوقي في العراق ، واستمر حتى أيام المماليك ، وظل فخرياً لأنّ السلطان هو القائد الفعلي للجيش .

وبالإضافة إلى أتابك العسكر كان للجيش قادة يسمون الأمراء ، ووظيفتهم الإمرة ، فكلمة أمير منذ العصر الإسلامي الأول بل قبل الإسلام كانت تعني القائد<sup>٦٠١</sup> ، فكانت الإمرة لجيش المماليك لا يحصل عليها إلا عن طريق الترقي من درجة إلى أخرى<sup>٦٠٢</sup> ، أو عن طريق المحسوبية بأن يكون له سند ، وهذه الرتبة كانت للمماليك دون غيرهم على الغالب<sup>٦٠٣</sup> وتعطى هذه المرتبة من قبل السلطان وفق مراسم محددة ( حلف اليمين – احتفال يمد فيه السماط \_ توكد له القاهرة – يقدم له الأمراء الهدايا . . . الخ )<sup>٦٠٤</sup> ، وهؤلاء الأمراء على درجات منهم : -

أمراء المنين مقدمو الألوفا قال القلقشندي : « وعدّة كل منهم مائة فارس وله التقدمه على ألف فارس ممن دونه من الأمراء ، وكان عددهم ٢٤ مقمما ، وهذا ما استقرت عليه قاعدة المملكة بعد الروك<sup>٦٠٥</sup> الناصري الذي أجراه محمد بن قلاوون إلى آخر الدولة الأشرفية أيام شعبان بن حسين ، ولما استجد في الدولة الظاهرية الديوان المفرد لخاص السلطان ، وأفرد له عدد كبير من المماليك السلطانية ، والمستخدمين نقصت عدّة المقدمين عما كانت عليه وصارت ما بين الثمانية عشر والعشرين مقدماً<sup>٦٠٦</sup> .

أمراء الطبلخانة – وعدّة كل منهم في الغالب أربعون فارساً ، وقد يزيد بعضهم إلى سبعين فارساً بل نكر ابن فضل الله العمري أنه يكون للواحد منهم ثمانون فارساً<sup>٦٠٧</sup> .

أمراء العشرات ، وعدّة كل منهم عشرة فرسان قال في مسالك الأبصار : وربما كان فيهم من له عشرون فارساً ، ولا يعد إلا في أمراء العشرات<sup>٦٠٨</sup> .

أمراء الخمسات ، وهم أقل من القليل خصوصاً بالديار المصرية ، وأكثر ما يقع ذلك في أولاد الأمراء المندرجين بالوفاة رعاية لسلفهم<sup>٦٠٩</sup> .

<sup>٦٠٠</sup> - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٨ . الأتابك أو أتابك العسكر معناه الوالد أو الأمير باللغة التركية والمراد به أبو الأمراء ، وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب وتتألف كلمة أتابك من : أتا بمعنى الأب وبك بمعنى الأمير ويطلق على أمير أمراء الجيش لقب أتابك العسكر . دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ١١ .

<sup>٦٠١</sup> - ابن خلدون : المقدمة ، ص ١٧٩ .

<sup>٦٠٢</sup> - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٤٧ .

<sup>٦٠٣</sup> - القلقشندي : ج ٣ ، ص ١٢٠ .

<sup>٦٠٤</sup> - القلقشندي : ج ٣ ، ص ١١٩ .

<sup>٦٠٥</sup> - الروك في كتب المؤرخين مصدر الفعل الثلاثي راك ومعناه في الأصل مسح الأراضي الزراعية في بلد من البلدان لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت المال وقد حدث أول روك لأراضي مصر في أيام السلطان حسام الدين لاجين وسمي الروك الحسامي وتلاه الروك الناصري سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م . : المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ١٦٥ .

<sup>٦٠٤</sup> - القلقشندي : صبح الأعشى : ج ٣ ، ص ٥٠١ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٤١ .

<sup>٦٠٦</sup> - القلقشندي : صبح الأعشى : ج ٤ ، ص ١٤ .

<sup>٦٠٧</sup> - ابن فضل الله العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٣٤ .

<sup>٦٠٨</sup> - ابن فضل الله العمري (أحمد ، ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م) : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تح حمزة أحمد عباس المجمع الثقافي ، أبو ظبي ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م ، السفر السابع والعشرين ، ص ٢٣٤ .

وقد رأى المؤرخون العسكريون ، والقادة الكبار ، والأساتذة ، والمعلمون كل في مجال اختصاصه ، ومن خلال خبرات المعارك ، والحروب وجوب تدريب الأمراء ، وتنقيف القادة من أجل خلق الصفات التالية عندهم ( أي عند القائدة ) :

– الأخلاق الحميدة ، والصفات الرشيدة ، وتقوى الله عزّ وجلّ إذ هي كما يقول ابن منكلي (( هي العمدة الكبرى والغاية القصوى ))<sup>٦٠٩</sup> ، وكان يتم التركيز في الطباق على تنقيف المملوك بكافة أنواع المعارف ، ولاسيّما الدينية منها من أجل تلك الغاية ، وكانوا دائماً ينطلقون من مقولة مهمة هي : (( أفضل الرؤساء في الحرب أيمنهم نقيبة ))<sup>٦١١</sup>

– أن يمتلك الكثير من المعارف ، والخبرات ، والمهارات ، ولاسيّما في معرفة السلاح واستخداماته ، والقتال فيه بمهارة تفوق مهارات الآخرين ، وخاصةً في صناعة الجندي وفي هذا المجال قال محمد بن منكلي : (( لعلم الجندي ستة معاني ))<sup>٦١٢</sup> .

أ - علم بقول دون فعل أي أن تعرف علم ما نظرياً يبقى في إطار المعرفة فقط دون استخدام هذه المعرفة في الميدان

ب - علم بفعل دون قول وهو العلم الذي أخذ بالخبرة ، والتجربة في الميدان دون أن يتعلمه من كتاب ، أو في مدرسة ، وهناك تفسير آخر هو العلم الذي يتعلمه الفارس ، ويبقى حبيسه دون أن يعلمه لأحد

ج - علم بالأقوال ، والأفعال وهو معرفة نظرية ، وعملية في الميدان ، وبالتالي معرفة العلم وكيفية تنفيذه على أرض الواقع .

د - علم بإجمال العلوم دون تفصيلها أي بالخطوط العامة ، أو العريضة ( أن تعرف شيء عن كل شيء ) .

هـ - علم بالإجمال والتفصيل بمعنى المعرفة بالعلوم بشكل عام والتخصص بعلم منها .

و - علم بحقائق العلوم ، وأسرارها على التقريب .

وهذه منهجية رائعة في معرفة العلوم بشكلها العام ، والمُفصّل ، وهي من الضرورة بمكان للقائد ، والمدرّب ليستطيع أن يعطي جنوده ( أي نوع من العلوم هم بحاجة إليه ومقداره ووقته إلى غير ذلك ) ، وعندها فقط يكون مؤهلاً لصناعة الجندي . قال الهرثمي : (( من أفضل خصال القائد في الحرب أن يكون متبصراً بأنواع الأسلحة وعلاجها ))<sup>٦١٣</sup> ، وعلاج الأسلحة يفسر باتجاهين : الأول هو القدرة على فهم واستيعاب مكونات الأسلحة و الأعتدة وصنع ما

<sup>٦٠٩</sup> - الفلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٥ .

<sup>٦١٠</sup> - ابن منكلي : التدبيرات السلطانية ، ص ٣٣٥ . وذكر ابن جماعة إثنا عشر شرطاً يجب أن تتوفر في المعلم نفسه حتى يحق له ، أو يكون قادراً على التعليم . ابن جماعة (أبي الفضل سعد الله ، ت ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م) : تذكرة السامع في أدب العالم والمتعلم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ١٥ - ٣٠ .

<sup>٦١١</sup> - أيمنهم نقيبة : أفضلهم نفساً وأخلاقاً . انظر : الهرثمي ( أبو سعيد الشعراني ) : مختصر في سياسة الحروب ، تح عارف أحمد عبد الغني ، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ، دمشق ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م ، ص ١٦ .

<sup>٦١٢</sup> - ابن منكلي : التدبيرات السلطانية ، ص ٣٣٥ .

<sup>٦١٣</sup> - الهرثمي : مختصر في سياسة الحروب : ص ١٧ .

يمكن صنعه منها ، والقدرة على اصلاح المعطل منها ، والثاني المعرفة الدقيقة بأسلحة العدو وصولاً إلى ما يُبطل عمل هذه الأسلحة ، أو يخفف من قدرتها على التدمير ، أو القتل .

وقال الرشيدى<sup>٦١٤</sup> : (( يجب أن يكون القائد عارفاً بالخيل ، وشيائها ( علاماتها ) ، وآلاتها والقيام بمصاليحها ، وأصناف السلاح ، وما يستحسن منها ، وما يليق لبسه من أنواعها في كل وقت من أوقات الحرب ))<sup>٦١٥</sup> .

– أن يكون له مع المعارف ، والعلوم المذكورة ثبات ، وجرأة وجودة في الرأي ، ولطف الحيلة ، وشدة الصبر ، فالمعارف والعلوم صفات يكتسبها القائد بالتعلم ، والاطلاع والتجارب أما الثبات ، والجرأة فهي صفات شخصية أعطاها الله عز وجل للفرد دون غيره ، فإذا انعدمت عند القائد لم يعد ينفعه علمه ، وقد قيل : العلم بلا عمل كقوس بلا وتر ، وقالوا أيضاً : العلم بلا عمل كشجرة بلا ثمر .

لذلك لا بدّ من تكامل الصفات الذاتية ( الشجاعة ، والإقدام ، والجرأة ، والصبر ، والمصابرة والثبات ، وجودة الرأي مع الصفات الموضوعية – المعارف ، والعلوم ، والمهارات والخبرات ) لينتج قائداً قدوة قادراً على الوصول بجنوده إلى بر الأمان ، وتحقيق الهدف ، فالجرأة والثبات ورباطة الجأش تجعل صاحبها طمّاعاً في عدوه جريئاً عليه ، وأما جودة الرأي تجعله حذراً من عدوه متوقياً منه حافظاً لنفسه وعتاده ، وقيل في المأثور : (( إنّ الصبر عز وإنّ الفشل عجز وإنّ النصر مع الصبر ))<sup>٦١٦</sup> .

– أن يكون عزيز النفس طاهر الذليل ، والمعتقد قليل الاهتمام بأطعمته ، وأشربته ، ولا يتفنن فيهما لأن ذلك يؤدي إلى ما لا خير فيه ، وقد قيل : (( أنه لا صحة مع نهم ))<sup>٦١٧</sup> ، وأن يكون نشيطاً قوياً على السهر صبوراً على تحمل الأهوال دائم الفكرة فيما هو بضده يجتهد في أمهات الفضائل ، وأولها الشهامة ، وهي رأس الأمر ، وثانيها العقل ، وثالثها العدل في ذاته وصفاته ولمن يليه ، ورابعها العفة ، ومن كانت فيه هذه الخصال والفضائل فهو أهل ، ولائق لما عُيّن له من الوظائف اللائقة بمثله ، ومن كان غنياً عنها فلا ينبغي له التعرض لخدمة الملوك ، ولاسيما الجنديّة ، وهذه القضايا هي قضايا تربوية في الأصل يجب التركيز على تعليمها لكي تصبح جزءاً من شخصية القائد ، أو الذي يُعدّ ليكون قائداً .

– أن يكون القائد عارفاً لفرسانه ، ومقاتليه ، وصفاتهم ، وهذه المعرفة ضرورية ليكون قادراً على التعامل معهم وقيادتهم ، فإن عرف الشجاعة وصفات رجالها استطاع أن يوظف ذلك في أمور كثيرة ، فهناك الشجاع الحاذق ، والشجاع الأهوج المقدم ، والشجاع الجريء الروّاغ ، والشجاع العاقل المتأنّي ، والشجاع الفرار الكرار ، والشجاع الحرون الذي يلزم مكانه ، ويقاثل فيه ، فإن عرف كل ذلك رتب صفوفه وفق ما عرف<sup>٦١٨</sup> .

<sup>٦١٤</sup> - الرشيدى : نسبة إلى الرشيد في مصر غير معروف سنة الولادة أو الوفاة . وقيل أنه ألف كتاب تفريج الكروب في تدبير الحروب للسلطان فرج بن الظاهر برفوق المتوفى سنة ٨١٥هـ / ١٤١٢م . الرشيدى : تفريج الكروب ، ص ٧ .

<sup>٦١٥</sup> - الرشيدى : ص ٥٧ .

<sup>٦١٦</sup> - ابن منكلي : التدبيرات السلطانية : ص ٣٥٦ .

<sup>٦١٧</sup> - ابن قتيبة : عيون الأخبار ، ص ١٢٦ .

<sup>٦١٨</sup> - الرشيدى : تفريج الكروب في تدبير الحروب ، ص ٦٢ - ٦٣ .

بالإضافة إلى ذلك يجب أن يكون مقدماً جلدأ بصيراً ذا تجربة ، وخبرة ، تام النهضة ، كافي الجلادة ، سريع الإقدام قليل المحاباة غير مهمل لأمر من الأمور مهما كان صغيراً : لأنّ الإهمال مفسدة ، وبداية خراب للأنظمة ، والجيوش<sup>٦١٩</sup> ، ويكون ذا دراية بالأمور النفسية وبواطن الشخصية ، فقد قال أحد الملوك : (( أعرف الرجل يقاتل أمام أصحابه ، أعرف الرجل يقاتل في حامية أصحابه ، أعرف الرجل الثابت الساكن القلب ، أعرف الرجل الطائش الطائر القلب ، أعرف الرجل لا يخذل صاحبه ، أعرف الرجل الذي يسلم صاحبه ، أعرف الرجل يقاتل إذا رآه صاحبه ، أعرف الرجل يقاتل ولم يره أحد ، أعرف الرجل يقاتل إذا غضب ، أعرف الرجل يقاتل إذا طمع ، أعرف الرجل يقاتل للشهرة ، أعرف الرجل يقاتل للحياء ، أعرف الرجل يقاتل للكرم ، أعرف الرجل يقاتل للوفاء ، أعرف الرجل يقاتل للتدين ، أعرف الرجل يقاتل للتعصب ، أعرف الرجل يقاتل للغيرة ، أعرف الرجل يقاتل للحمية ، أعرف الرجل يقاتل للذكر ، أعرف الرجل يجبن ويجبن غيره ، أعرف الرجل الجبان يشجع غيره ، أعرف الرجل الجبان يتشبه بالشجاع ، أعرف المقاتل فارساً ، أعرف المقاتل راجلاً ، أعرف الفارس اللبق المتوقع ، أعرف الفارس البليد ، أعرف الراجل الجيد الطعن ، أعرف الراجل الجيد الزرق . أعرف الصفق ( الضرب ) بالعامود . أعرف الجيد الضرب بالطير . أعرف كل ذي خاص بخاصته ))<sup>٦٢٠</sup> . هذه المعارف العظيمة لا تتكون إلا من خلال الإعداد العلمي المتميز للأمرء القادة الذين إذا امتلكوا مثل هذه المعارف صاروا خبراء في التعامل مع النفس البشرية ، وتوجيهها وتوظيف القدرات الكامنة فيها ، وتفجيرها في الأوقات المحددة ، وهنا تكمن قصة الإبداع عند القادة في اكتشاف البطل ، واستغلال طاقاته ، وفي معرفة معادن الرجال ، وصقلها وإعدادها لساعة الحسم ، وهذا يفسر جزءاً من الحقيقة التي يتم البحث عنها من خلال السؤال الذي طرح حول الانتصارات التي تحققت في العصر المملوكي الأول .

- الإخلاص للأرض والوطن والسلطان فقد استشار قوم أحد الحكماء في حرب قوم أرادوهم ، وسألوه أن يوصيهم فقال : (( أقلوا الخلاف على أمرانكم ))<sup>٦٢١</sup> ، وقال ابن منكلي : (( أن يكون له نيّة صادقة لنصح سلطانه ، والذب عنه بما أمكن ، وإلا فقد خسر خسراناً مبيناً وكان من الخائبيين ))<sup>٦٢٢</sup> ، وأكد على ذلك الرشيدي عندما قال : (( ... وأن يكون مع ذلك شديد المحبة لمن هو في خدمته ناصحاً له حريصاً على نصرته ، مؤثراً لحياته على حياة نفسه قائماً بما يلزمه من الخدمة موافياً حق مخدومه منها قائماً من طاعته بما تحمله قدرته ويصل إليه وسعه ))<sup>٦٢٣</sup>

- أن يكون حسن المعاشرة لرفاقه ناصحاً لهم من الوقوع في الأخطاء ، وأن لا يستخدم القوة ، والعنف أثناء النصح ، والنهي لأن ذلك سينفرهم ويبعدهم عنه<sup>٦٢٤</sup> .

قال الهرثمي : أنه لا سلطان لك على قلوب أصحابك ، فاستدع مودتهم بلين الجناح ، وطيب الكلام وإعطاء الحق وحسن النظر تصنف لك قلوبهم<sup>٦٢٥</sup>

<sup>٦١٩</sup> - الأفسرائي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٤٢٨ .

<sup>٦٢٠</sup> - ابن منكلي : التدبيرات السلطانية ، ص ٣٣٤ .

<sup>٦٢١</sup> - ابن قتيبة : عيون الأخبار ، م ١ ، ص ١٠٨ .

<sup>٦٢٢</sup> - ابن منكلي : التدبيرات السلطانية ، ص ٣٣٥ .

<sup>٦٢٣</sup> - الرشيدي : تفريج الكروب في تدبير الحروب ، ص ٦٠ .

<sup>٦٢٤</sup> - الرشيدي : ص ٥٩ .

- الهرثمي : مختصر في سياسة الحروب ، ص ١٥ .

– أن يتعلم الفراسة وقد برع العرب في هذا العلم الذي له علاقة بالخبرة العميقة والتعلم وعندما يمتلك المدرب هذا العلم يستطيع من خلال النظر إلى وجه المتعلم أن يعرف أن هذا الجندي من النوع الذي يمكن أن يتحمل جسدياً ، وأن تفكيره عميق وأن خياله أوسع وبالتالي أن هذا الشخص يصلح لهذا العلم ، أو لا يصلح وبالتالي لاستعمال هذا السلاح ، أو لذاك وبالتالي يستطيع فرز المتدربين ضمن مجموعات ، أو اختصاصات<sup>٦٢٦</sup> ويستطيع أيضاً مساعدة الجميع ، وهذا الأمر يسمى في الجيوش الحديثة في الانتقاء النفسي لعناصره بعد معرفة قدراتهم العقلية ، والذهنية والجسدية ، وحتى العاطفية وبالتالي الارتكاز إلى شخصيته متكاملة قادرة على حل المسائل المطروحة عليها بعد إعدادها وفق إمكاناتها ، وقدراتها التي يجب على القائد ، أو المدرب معرفتها بشكل دقيق .

وقد أورد الأفسراني فصلاً كاملاً في الفراسة ، وما يستدل به على الرجل في جميع أحواله فعلى سبيل المثال ذكر ما يستدل به على الرجل الشجاع فقال : الشعر الخشن يدل على الشجاعة .. ، وكثرة الشعر على الصلب دليل على الشجاعة<sup>٦٢٧</sup> . كما قال : من كان فمه واسعاً فهو شجاع ، لأنّ ذلك يدل على كثرة الحرارة ، وهذه الدلالة مأخوذة من الأسد<sup>٦٢٨</sup> وفي دلائل الصوت قال : من كان غليظ الصوت جهيراً ، فهو شجاع<sup>٦٢٩</sup> ، وذكر بشيء من التفصيل دلائل الرجل الشجاع ، والرجل الجبان<sup>٦٣٠</sup> ، وتحدث في الفصل نفسه عن مجموعة من الدلائل التي يستدل بها على صفات الشخصية الإنسانية مثل : دلائل الشعر ، ودلائل الجبهة ، ودلائل الحاجب ، ودلائل الضحك ، ودلائل الأنف ، والعين ، والفم ، والشفتين والأسنان ، والوجه ، ودلائل الصوت ، وطريقة الكلام والنفس ، ودلائل الصحة ( السمن والهزال ) ، ودلائل الظهر واليدين والقدمين<sup>٦٣١</sup> .

- أن يكون واسع الثقافة عارفاً بالمداخل ، والمخارج ، ومناهل المياه ، وأحوال المراحل والمنازل ، والأوقات التي يمكن فيها المسير ، والأوقات ، والمنازل التي يمكن فيها التوقف<sup>٦٣٢</sup> فيها .

– وأخيراً على المدرب أن يتعرف على شخصيات كافة المتدربين ، والتدقيق باهتمامهم ودينهم ، وأخلاقهم خوفاً من أن يكون أحدهم جاسوساً جاء ليتعلم هذا العلم ثم يعود إلى بلاد العدو ، ويعلمه لهم<sup>٦٣٣</sup> .

#### ٤- إعداد المتدربين :

المتدربون يشكلون القاعدة العريضة في أي جيش من الجيوش قديمها وحديثها لذلك لا بد من الاهتمام بهذه القاعدة ، وإيلائها كل الرعاية ولاسيما التأهيل ، والتدريب وذلك بغرض :

- ٦٢٥ - الهرثمي : ص ١٥  
٦٢٦ - الأفسراني : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٧١ .  
٦٢٧ - الأفسراني : ص ٤٣٢ .  
٦٢٨ - الأفسراني : ص ٤٣٤ .  
٦٢٩ - الأفسراني : ص ٤٣٥ .  
٦٣٠ - الأفسراني : ص ٤٣٦ .  
٦٣١ - الأفسراني : ص ٤٣٢-٤٣٧ .  
٦٣٢ - الرشيد : تفريج الكروب في تدبير الحروب ، ص ٥٧ .  
٦٣٣ - الرشيد : ص ٦٠ .

أ - إكساب المتدربين المعارف الضرورية لاستخدامها وقت الحرب ، انطلاقاً من أن معرفة الجنود لأسلحتهم ، وصفاتها ، وإمكاناتها ، وقدراتها ، ومدى تأثيرها على العدو يجعلهم أكثر ثقة بهذه الأسلحة ، وبأنفسهم ، وقدراتهم على تأدية واجباتهم في الميدان بشكل صحيح .

قال ابن منكلي (( إن ما يجب أن يعرفه رماة النشاب نعت قسيهم [ صفاتها ] ، وكيف يقفون وإلى أين يقصدون في رميهم على العدو ... ، وكيف تكون قسيهم في أيديهم منتصبية ، أو منحنية ... ، ومم يكون لبسهم من السلاح ، وكيف تكون أقباع البيض على رؤوسهم ، وكيف تكون حالتهم وقت القتال ، وبماذا ينطقون وقت القتال ، وما الأحسن في خناجرهم .. ، وما يكون حال مرسل الماء المهلك ، وكيف حال الذاب عنه من سهام العدو ، وما تركيب هذا الماء ومن استنبطه من الحكماء .. ، ومما يتكون ترس المقاتل على السفن في البحر .

هل هو من الخشب ؟ ، أو من الحديد ؟ .. ، وما يكون قدر حجارة الرشق ، وكيف تكون حال المقاتلة وقت القتال من شبع وري ن ، وما يعتمد ضارب الطبل ))<sup>٦٣٤</sup> إلى غير ذلك . وغالباً ما يكون تلقي تلك المعارف ، وغيرها بشكلها الأولي في المدارس العسكرية ، والتي سيتم التحدث عنها فيما بعد .

ب - إكساب المتدربين المهارة اللازمة لاستخدام الأسلحة التي هي بحوزتهم عند اللزوم واستيعابها . إن تحقيق المهارة لا يكون إلا بالتدريب . قال الأقسرائي : كيف يكون الرجل فارساً جريئاً على ركوب الخيل ؟ الجواب في الكينونة في من يذل الصعاب ، ويخلع المهارة ويتعلم الرياضة<sup>٦٣٥</sup> ، والمهارة تأتي نتيجة لتعلم علم البنود ، وإتقانه ، والانتقال منه إلى علم الميادين الذي يجعل من الفارس فارساً ، وبعد أن تتمرن أعضاؤه للدخول ، والخروج مع الفرسان ، والانعطاف يمناً ويسرة ، إقبالاً وإدباراً ، ويعلم مقامه ( مكانه ) مع مقدمه ( زمن وجوده في ذلك المكان ) ، ومقام غيره إلى غير ذلك فيصير بصيراً بذلك<sup>٦٣٦</sup> ، وبعدها ينتقل المقاتلون إلى مسائل جديدة في التعلم .

والتدريب على استخدام الأسلحة من أجل ايجاد المهارة عندهم والأمثلة كثيرة على ذلك منها - لبس الأسلحة ، وفيها اثنتي عشرة مسألة ، ومنها العمل بأكثر من سلاح ، وفيها ثمان مسائل ، ومنها في الحذر والتثبت ، وفيها ثمان عشرة مسألة . ومنها في إحراز الأسلحة على التعاقب ، وفيها ست مسائل ، ومنها في قطع الأنهار الكبيرة مثل الفرات وغيره في الحرب وفيها سبع مسائل<sup>٦٣٧</sup> ، وهكذا يتم تعليم الجنود لأنه وكما قال محمد بن منكلي : (( ليس ينال العلم إلا بالتعلم ، ولا ينتفع المتعلم من العلم إلا بالمتقن المحتاط به ))<sup>٦٣٨</sup> . أي وكما قال البكلميشي : (( بالتعلم الصحيح مع إتقان ما تعلم وتصير له عادة ))<sup>٦٣٩</sup> وهذا يحتاج إلى مثابرة ، وتدريب وجهد وصولاً إلى المهارة المطلوبة ، ولذلك قال ابن منكلي : إن هذا العمل صعب جداً ، وكان أحياناً يترك لصعوبته ، وضرورة إتقان الصنعة فيه ، وعدم القدرة على المثابرة والاكتفاء بالناقص منه ،

٦٣٤ - ابن منكلي : التدبيرات السلطانية ، ص ٢٣٤ - ٣٣٥ .

٦٣٥ - الأقسرائي : نهاية السؤل ، ص ٤٣٧ .

٦٣٦ - الأقسرائي : نهاية السؤل ، ج ١ ، ص ١٩١ .

٦٣٧ - الأقسرائي : ج ١ ، ص ٣٦٤ - ٣٧٨ .

٦٣٨ - ابن منكلي : الحيل في الحروب ، ص ٧١ .

٦٣٩ - البكلميشي : بغية المرام : ص ١٨ .



حتى يرمي الرامي فيهم ، فيخطئ خطأ فاحشاً فلا يدري من أين أتاه ويصيب فلا يدري كيف أصاب ، فأى جهل أظهر من هذا<sup>٦٤٠</sup> .

هذا النقد لما كان عليه حال البعض هو الطريق الصحيح لتجاوز الأخطاء ، وتصحيح مسارها والحديث عن الخطأ هو الخطوة الأولى لتصحيحه ، وتجاوزه وهذا ما نتحدث عنه أحدث النظريات في التدريب ، والتعليم في العصر الحاضر .

ج- إكساب المتدربين الخبرة اللازمة ليكونوا فرساناً قادرين على حل ما يستجد من المسائل في ميادين التدريب ، أو في ميادين القتال ، ولا تتكون الخبرة عند المقاتلين إلا من خلال التعرض للكثير من الصعوبات ، والمسائل الجديدة في الميادين سواء التدريبية ، أو في ساحات القتال ، وفي المعارك ، وعندها يتم التعرف على العيوب ، والنواقص ، والآفات التي ارتكبتها الرماة سواء أكانت من خلال عيوب النظر ، أو عيوب البدن ، أو كانت نتيجة لعيوب صنعية في العتاد أو السلاح مثل : الوقوف على علل القسي ، والنشاب ، ومعرفة إصلاحها وهذا يساعد الرامي على تقويم قوسه ، ونشابهه ، وعقد أوتاره ، وإصلاح عيوبها فضلاً عن معرفة أحكام الرمي ، والسباق ، والمناضلة ، فإذا عرف ذلك صار رامياً ، أو دخل في تعداد الرماة<sup>٦٤١</sup> .

د - إكساب المتدربين المعارف الضرورية عن العدو (( تسلحه ، وتنظيمه ، وتدريبه )) .

ذكر ابن يعقوب الخثلي صاحب كتاب (( علم الفروسية )) : أنه من فنون الفروسية وضرورياتها أن تعرف أنواع السيوف التي عند الأعداء<sup>٦٤٢</sup> ، وعندما يعرف المقاتل عدوه وما هو سلاحه ومواصفاته ، ومقدرته على استخدام هذا السلاح ، وتكتيك قتاله ، فإنه يستطيع تجنب الكثير من الأخطاء التي يمكن أن يقع فيها مسبقاً ، ويوفر عليه الكثير من الدماء ، والوقت ، والجهد .

السؤال الآن كيف كان يتم تدريب الجيوش في العصر المملوكي الأول ؟

هل كان التدريب ممنهجاً في الجيش المملوكي ؟

حتى يستطيع الباحث الإجابة عن هذه التساؤلات المهمة يجب البحث عن الإجابة عن سؤال آخر هو : هل تحدث المؤرخون عن التدريب في العصر المملوكي الأول ؟ .

قد يتبادر إلى الذهن أن المملوك يتعلم كل شيء في الطباقي ثم يتخرج منه جندياً مقاتلاً يزج به في المعارك ، أو في تشكيلات القوات المسلحة .

المصادر أشارت إلى أن المملوك لا يتعلم في الطباقي كل مهارات الفروسية ، وفنونها إنما يتعلم بالإضافة إلى العلوم النظرية المبادئ الأولية لبعض التدريبات كركوب الخيل ، واستعمال الرمح ، والقوس ، والسيوف على أيدي المعلمين الموجودين في الطباقي ، وما عدا ذلك من فنون الفروسية ، وما تبقى من صقل مهاراتها ، فيتم بعد خروج المملوك من الطباقي .

<sup>٦٤٠</sup> - ابن منكلي : الحبل في الحروب ، ص ٧٢- ٧٣ .

<sup>٦٤١</sup> - البكلميشي : بغية المرام ، ص ٢٧ .

<sup>٦٤٢</sup> - ابن يعقوب الخثلي ( أبو حزام ) : علم الفروسية ، ص ٩٨ .

كيف كان يتم ذلك وأين ؟

الأمر يحتاج إلى مزيد من البحث في المصادر التي أرخت للدولة المملوكية الأولى ، وهي كثيرة بشكل عام لكن من تحدث منهم بتفصيل عن التدريب ليس كذلك ، لكن المتتبع لتلك المصادر يرى أنها تحدثت عن كيفية تنفيذ التدريب على أنواع الأسلحة ابتداءً من الأسلحة الفردية كالسيف ، والدرع ، والترس ، والرمح إلى الخيل ، وأنواعها ، وألوانها وأشكالها وتدريبها ، والاعتناء بها وصولاً إلى أسلحة الحصار ، وأخيراً الأسلحة النارية .

وكان هذا بحكم الضرورة لأن السمة العامة للدولة المملوكية الأولى أنها عسكرية بامتياز . لذلك كان الاهتمام كبيراً بصناعة الجندي ابتداءً من السلطان إلى الأمراء ، والقادة وصولاً إلى الفارس ، والراجل الفرد ، والجماعة في الداخل كما في الثغور ، وقد لا يحتاج الباحث إلى الكثير من الجهد لكي يكتشف أنّ التدريب في الدولة المملوكية الأولى كان عملية مستمرة لا تتوقف عند حد معين في الزمان ، والمكان ( كما هو مخطط لها في الطباقي ) ، فقد كان السلطان ، والأمير ، والقائد يستغل كل وقت ممكن ( المهرجانات ، والأعياد والمناسبات والاستعراضات إلى غير ذلك ) من أجل إجراء التدريبات ، واستعراض المهارات ، وإبراز القدرات ، وتعميم الخبرات ، وكان معظم الملوك والسلاطين ، والأمراء من الفرسان المعدودين ، والأبطال الشجعان العارفين بفنون القتال وباستخدام الأسلحة المعروفة بذلك العصر<sup>٦٤٣</sup> . أما أسماء المصادر التي تحدثت عن التدريب بشكل عام لكن دون تفصيل ، فهي كثيرة ، وقد ذكر منها عدد لا بأس به أثناء التحدث عن السلاح ، وتقنياته وليس من المفيد إعادة ذكرها في هذا المجال تجنّباً للتكرار ، ويمكن ذكر ذلك أثناء الحديث عن التدريب الاختصاصي ، وقد أورد الدكتور إحسان هندي في الكتاب الذي حققه ، وهو بعنوان الأنيق في المنجنيق قائمة كبيرة من هذه المصادر<sup>٦٤٤</sup> .

منهجياً التحدث عن القاعدة التدريبية يعطي فكرة عن كيفية تنفيذ منهج ومواد التدريب في أية ظروف تنفذ وما هي الاستعدادات المتخذة لتنفيذ تلك المناهج ، وهذا ما سيتم البحث فيه .

## ٥ - القاعدة التدريبية ( الطباقي ) :

أمكنة التدريب هي جزء من العملية التدريبية ، وبمقدار ما تكون هذه الأماكن تحقق الشروط المناسبة والتي يجب أن تراعي ظروف التدريب ونوعيته وأهدافه بمقدار ما تكون العملية التدريبية ناجحة أو العكس . لذلك من المفيد عند الدراسة العلمية للتدريب الوقوف على نوعية أماكن التدريب ، وهل هيأت الظروف المناسبة لإنجاح العملية التدريبية ؟

تذكر المصادر التاريخية أنّ البدايات الأولى لتعليم الفارس وتدريبه كانت تتم في أمكنة أطلق عليها اسم الطباقي ، ثم ينتقل بعدها إلى مرحلة أخرى يستكمل فيه التدريب في الميادين والساحات ، وأماكن المناسبات الاجتماعية ، والدينية التي كانت غالباً ما تستغل لتدريب العساكر ، والفرسان ، والقادة ، والأمراء على حد سواء .

<sup>٦٤٣</sup> - ابن أبياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٠٥ .

<sup>٦٤٤</sup> - ابن أرنيجا : الأنيق في الناجنيق ، ص ٢٣٧ - ٢٥٥ .

## والآن ما هو الطباق ومتى بنيت الطبقات ؟

الطباق أبنية أقيمت بساحة الإيوان في القلعة لتكون سكناً لمشتريات السلطان من المماليك حيث يتم فيه تعليم هؤلاء المبادئ الأولية للكتابة بالإضافة إلى مبادئ الفروسية<sup>٦٤٥</sup> ، وهي بالتالي أشبه ما تكون بثكنات الجيش ، والطباق جمع طبقة والطبقة تشتمل على عدة مساكن تتسع لألف مملوك<sup>٦٤٦</sup> . لم تكن الطباق فوق بعضها بارتفاع كبير كما يفهم من المعنى الحرفي لكلمة الطباق ، بل كانت متجاورة بجانب بعضها ، أو على ارتفاع دورين ( على علو الإسطبلات عادة ) . وكان يجاور طباق المماليك ميسأة ، وبئر ماء معين<sup>٦٤٧</sup> . لكن السؤال الذي يبقى طرحه مشروعاً هو : من الذي بنى الطباق ؟ .

قال المقرئزي : إنَّ السلطان الناصر محمد بن قلاوون هو الذي بنى الطباق بساحة الإيوان بالقلعة ، وأسكن فيها المماليك السلطانية سنة ٧٢٩هـ / ١٣٢٩م وذلك بعد أن أمر بهدم السجن الذي أنشأه أبوه قلاوون الألفي ليكون سجناً للأمراء ، وهو سجن الجب<sup>٦٤٨</sup> ، وتم بناء الطباق مكانه لكن الحقيقة غير ذلك ، فقد ذكرت المصادر التاريخية أنَّ السلطان الظاهر بيبرس بنى بالقلعة طبقتين مطلتين على رحبة الجامع ، وأنشأ برج الزاوية المجاور لباب القلعة ، وأنشأ جواره طبقة للمماليك<sup>٦٤٩</sup> . وهناك دليلاً آخر على أن الطباق كان قد بني قبل زمن الناصر محمد بن قلاوون وهو أن والده كثيراً ما كان يخرج إلى هذه الطباق في موعد حضور الطعام للمماليك ليشرّف بنفسه على طعامهم ، وإقامتهم لشدة حرصه ، واهتمامه بهم وكذلك السلطان خليل أجاز للمماليك النزول من القلعة في النهار بشرط أن لا يبيتوا إلا فيها<sup>٦٥٠</sup> ( وكان قبل ذلك ممنوع عليهم النزول من القلعة إلى المدينة ) . وفي سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٤م وبعد أن انتهت الفتنة التي أدت إلى مقتل الأشرف خليل أنزل من كان ساكناً من المماليك السلطانية في الأبراج والطباق بقلعة الجبل الذين اتهموا بإثارة تلك الفتنة وأسكنوهم في أماكن متفرقة من المدينة<sup>٦٥١</sup> عقاباً لهم . أما ما هو متفق عليه في المصادر التاريخية أنه في سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م قد نشب حريق في طباق الجمдарية الواقعة بالقرب من البرج المنصوري<sup>٦٥٢</sup> نتيجة لاحتراق ذلك البرج فعزم الناصر على تجديد البرج ، وبناء الطباق الجديدة بحيث تكون كلها في مكان واحد ، وجمع فيها فئات المماليك السلطانية جميعها ، فبلغ عدد الطباق اثني عشرة طبقة . كل طبقة منها قدر حارة تشتمل على عدة مساكن تتسع لسكن ألف مملوك<sup>٦٥٣</sup> حسب ما جاء عند خليل بن

<sup>٦٤٥</sup> - المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٣٢٧ .  
- القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٢٦ .  
<sup>٦٤٦</sup> - المقرئزي : المواعظ والاعتبار : ج ٣ ، ص ٣٤٦ - ٣٤٧ .  
- القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٧٥ - ٣٧٦ .  
- ابن الفرات : تاريخ الدول والملوك ، ج ٩ ، ص ٨٨ .  
<sup>٦٤٧</sup> - النباهين ( علي سالم ) : نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك ، دار الفكر العربي ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ص ١٥٨ .  
<sup>٦٤٨</sup> - المقرئزي : المواعظ والاعتبار : ج ٣ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ . أنشأ هذا السجن بقلعة الجبل ليسجن فيه الأمراء . أبتدى عمله في سنة ٦٨١هـ / وهدم سنة ٧٢٩هـ / . انظر : المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٣٧١ .  
- ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ٩ ، ص ٧٤ . المقرئزي : السلوك : ج ٣ ، ص ١١٨ .  
<sup>٦٤٩</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٩٠ - ١٩١ .  
<sup>٦٥٠</sup> - المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٣٤٦ .  
<sup>٦٥١</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ .  
<sup>٦٥٢</sup> - المقرئزي : ج ٢ ، ص ٥١١ .  
<sup>٦٥٣</sup> - الظاهري ( غرس الدين خليل بن شاهين ) : زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، اعتنى بتصحيحه بولس راويس باريس ، ١٣١١هـ / ١٨٩٤م ، ص ٢٧ .

شاهين . بينما بعض المصادر المملوكية الأخرى ذكرت أكثر من ذلك فعلى سبيل المثال ذكر ابن تغري بردي ثماني عشرة طبقة<sup>٦٥٤</sup> وهذا يؤكد مرة أخرى أن الطباقي لم تبين في زمن واحد بل في أزمنة متعددة وحسب الظروف والحاجة ومن هذه الطباقي :

- ٨- طبقة الرفرف<sup>٦٥٥</sup> - طبقة الطازية<sup>٦٥٦</sup> .
- ٩- طبقة الزمام<sup>٦٥٧</sup> - طبقة الأشرفية<sup>٦٥٨</sup> وهي أعلى طباق القلعة<sup>٦٥٩</sup> .
- ١٠- طبقة الحوش<sup>٦٦٠</sup> - طبقة الغور<sup>٦٦١</sup> .
- ١١- طبقة المقدم<sup>٦٦٢</sup> - طبقة الصندلية<sup>٦٦٣</sup> .
- ١٢- طبقة الخازندار<sup>٦٦٤</sup> .
- ١٣-
- ١٤- طبقة الميدان<sup>٦٦٥</sup> - طبقة المستجدة<sup>٦٦٦</sup> .
- ١٥- طبقة القاعة<sup>٦٦٧</sup> - طبقة قراجا<sup>٦٦٨</sup> .
- ١٦- طبقة الأربعين<sup>٦٦٩</sup> - طبقة الطواشي مرجان الخازندار<sup>٦٧٠</sup> .
- ١٧- طبقة فيروز الخازندار<sup>٦٧١</sup> . طبقة صواب<sup>٦٧٢</sup>
- ١٨- طبقة الخروب<sup>٦٧٣</sup> .
- ١٩- طبقة البرانية<sup>٦٧٤</sup> .

من خلال هذه اللائحة لأسماء الطباقي يتبين أن عدد منها سمي بأسماء أصحاب وظائف تولاها أشخاص معينون أشرفوا على شؤون هذه الطباقي ، ومثال ذلك طبقة الزمام ، وطبقة الخازندار ، وطبقة الطواشي مرجان الخازندار ، وطبقة فيروز الخازندار .

- 
- ٦٥٤ - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ٦ ، ص ٢٧ .
- ٦٥٥ - ابن تغري بردي : ج ٦ ، ص ٢١٧ .
- ٦٥٦ - ابن تغري بردي : ج ٧ ، ص ٨٧١ . ابن إياس : بدائع الزهور : ج ٥ ، ص ١٠٧ . السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ ، ص ٢٠١ .
- ٦٥٧ - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ٧ ، ص ٢٤ . ابن تغري بردي : المنهل الصافي : ج ١ ، ص ٢٢٣ . ابن إياس : بدائع الزهور : ج ٢ ، ص ٢١٦ .
- ٦٥٨ - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٤٩٩ . ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ٣٠٨ .
- ٦٥٩ - الظاهري : زبدة كشف الممالك ، ص ٣١-٣٢ .
- ٦٦٠ - ابن إياس : بدائع الزهور : ج ٤ ، ص ١٨٨ .
- ٦٦١ - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٢ . السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٧ ، ص ٢١٠ .
- ٦٦٢ - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣١٥ .
- ٦٦٣ - ابن تغري بردي : ج ٦ ، ص ١٤٠ . ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٢ ، ص ١٧ .
- ٦٦٤ - ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٤٩ .
- ٦٦٥ - ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٤٢٨ .
- ٦٦٦ - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٦٩٥ .
- ٦٦٧ - السخاوي : الضوء اللامع ، ج ١٠ ، ص ٢٨١ .
- ٦٦٨ - ابن إياس : بدائع الزهور : ج ٤ ، ص ٤٣٨ .
- ٦٦٩ - ابن إياس : ج ٣ ، ص ٣٠٩ .
- ٦٧٠ - ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٢ ، ص ٩٢ .
- ٦٧١ - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ٧ ، ص ٣٨٧ . ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٢ ، ص ٥٢٤ \_ ص ٥٢٥ .
- ٦٧٢ - ابن تغري بردي : ج ٦ ، ص ٢٥٥ .
- ٦٧٣ - ابن الفرات ( محمد بن عبد الرحيم ) : تاريخ الدول والملوك ، منشورات الجامعة الأمريكية ، ط ١ ، بيروت ، ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م ج ٩ ، ص ٦ .
- ٦٧٤ - السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٦ ، ص ١٤٨ .

كما نسبت بعض الطباق إلى مجموعات من المماليك مثل طباق الأشرافيه الذي نسب إلى مماليك السلطان الأشرف شعبان بن حسين<sup>٦٧٥</sup> . كما سميت بعض الطباق بأسماء بعض الأمراء مثل :

طبقة صواب نسبت إلى صواب بن عبد الله السهيلي الخازندار المتوفى سنة ٧٠٦هـ / ١٣٠٧م الخازندار<sup>٦٧٦</sup> .

أما طبقة المقدم فنسبت إلى مقدم المماليك ، أو مقدم الطبقة ، وهكذا نسب كل الطباق إلى اسم هذا الأمير ، أو ذاك وهذا يدل على أن الطباق بنيت في أزمنة متعددة وليس في زمن واحد .

ثم إن وجود الطباق يدل بشكل أو بآخر على مدى اهتمام السلاطين المماليك بتربية ، وتعليم وتدريب مماليكهم الذين سيشكلون في المستقبل عدة جيوشهم ، والعمود الفقري فيها كما يدل على أن سلاطين الدولة المملوكية الأولى كانوا على معرفة عميقة بأهمية القاعدة التدريبية وأهميتها في إعداد الجيش ، وتأهيله التأهيل اللازم . لكن الملاحظ أن المصادر التاريخية لم تقدم الكثير عن أساليب التعليم ، ومنهجيته في هذه الطباق<sup>٦٧٧</sup> .

والسؤال الآن هو : كيف كان يتم تعليم وتدريب المماليك في الطباق ؟

أول إجراء كان ينفذ على المماليك الذين اشتراهم السلطان ، وقبل أن يضعهم في الطبقة التي تناسب كل منهم هو : عرضهم على طبيب يقرر وضعهم الصحي ، ومدى سلامة أجسادهم وقابليتها للخدمة العسكرية ، وفي الحالة الايجابية أي السلامة الصحية يتم توزيعهم على الطباق كل في طبقة جنسه ، أو تقارب موطنه . بحيث لا تجمع الطبقة الواحدة سوى المماليك ذوي الأصل المشترك ، أو المجلوبين من بلد واحد ليتلقوا التعليم والتدريب فيه<sup>٦٧٨</sup> ، وفي هذا الإجراء حكمة ، وله آثار ايجابية هي سرعة التكيف لكافة مماليك الطبقة ، فعوامل اللغة والعادات ، والثقافة ، وغير ذلك عند أبناء الجنس الواحد ، أو المنطقة الواحدة تجعلهم أكثر انسجاماً وتآلفاً ، وأكثر قدرة على التكيف لكن هذا الانسجام ، والتآلف قد يشكل نوعاً من الخطر على السلطان نفسه في المستقبل ، وهذا ما كان يحدث أحياناً .

بعد توزيعهم على الطباق يتم تسليم كل مجموعة إلى الإدارة المسؤولة عن الطباق ، وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي : من هي الإدارة المسؤولة عن التدريب في الطباق ؟

### إدارة التدريب في الطباق :

التدريب ، والتعليم في الطباق لم يكن دون إدارة في الدولة المملوكية الأولى لأنها وكما يبدو كانت تدرك أن التعليم ، والتدريب جهد منظم يتمثل في علاقة قائمة على ثلاثة ركائز هي : المدرب ، والمتدرب ، ووسائل التدريب .

<sup>٦٧٥</sup> - كان يسكن فيها مماليك الأشرف شعبان ، ونسبت إليهم . ابن تغري بردي : المنهل الصافي : ج ٦ ، ص ٢٣٣-٢٤٩ .

<sup>٦٧٦</sup> - السخاوي : الضوء اللامع : ج ٦ ، ص ٢١٥ .

<sup>٦٧٧</sup> - ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٣٤٧-٣٤٨ .

<sup>٦٧٨</sup> - المقرئ : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٤٨ . كاشف (سيده إسماعيل وآخرون) : تاريخ مصر عبر العصور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، ص ٣٩٩ .

هذه الركائز الثلاث تتفاعل فيما بينها للوصول إلى بناء شخصية ناضجة متوازنة مثقفة عقائدياً وعسكرياً . وهذا بالضرورة يحتاج إلى إطار إداري ، وتنظيمات إدارية تحقق لهذه التفاعلات نوعاً من التنظيم ، والتدبير ، والتوجيه من أجل ترجمة ما تصبو إليه من أهداف<sup>٦٧٩</sup>

ما هو شكل تلك الإدارة في الدولة المملوكية الأولى ؟

تكونت إدارة الطباق في العصر المملوكي الأول على شكل هرمي قاعدته طواشية<sup>٦٨٠</sup> الطباق وهؤلاء كانوا هم المسؤولين عن سلوك المماليك في الطباق ، وتربيتهم والحيلولة دون اختلاط الكبار بالصغار .

أما قمة الهرم فكانت مقدم المماليك السلطانية ، ونائبه ، وبين القمة والقاعدة طوائف ودرجات من أولئك الطواشية<sup>٦٨١</sup> ، وعلى رأسهم مقدموا الطباق ، وهم الذين يكون مقدم المماليك ونائبه في الترتيب الهرمي ، ثم يأتي بعدهم طواشية المماليك الكتابية ، وهم المكلفون بالسهر على شؤون صغار المماليك ، ثم يأتي بعدهم الكنانية الذين كانوا يتصرفون بالأشغال ، ولهم شأن وأبهة ، ثم يأتي بعدهم السواقون وهم المكلفون بحفظ النظام ، ثم البوابون المكلفون بحفظ الأبواب .

وبلغت عدة الهيئة الإدارية للطباق في وقت من الأوقات ستمائة طواشي من جميع المراتب والدرجات<sup>٦٨٢</sup> ، وهذا العدد الكبير إن دلّ على شيء فإنما يدل على مدى اهتمام سلاطين المماليك والدولة المملوكية الأولى بضرورة الإشراف على الطباق ، ودقة تنظيم العمل فيه وأهمية التدريب ، ومقدار ما **علقت** عليه القيادة في العصر المملوكي الأول من أهمية في تربية المماليك تربية ثقافية ، وعلمية ، وعسكرية عالية المستوى .

وكان مقدم المماليك هو المسؤول الأول عن شؤون الإدارة كلها من تنظيم ، وضبط وفصل في الخصومات ، وكانت صلاحياته كاملة في هذا الموضوع بحيث يستطيع الإشراف على كل صغيرة ، وكبيرة فيما يتعلق بشؤون مماليك الطباق<sup>٦٨٣</sup> ، فإذا ركب السلطان ، ومعه المماليك السلطانية ركب مقدم المماليك خلفهم ، ومن وظائفه ، أو صلاحياته ترتيب مقدمي الطباق ودرجاتهم حسب ترتيبهم في الوظائف السلطانية .

٦٧٩ - عفيفي ( محمد الهادي ) : في أصول التربية ( الأصول الثقافية ) ، مكتبة الأنجلو ، ط ١ ، القاهرة ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م ، ص ٨٠ .  
٦٨٠ - الطواشي : كلمة كانت تستعمل للدلالة على كلمة خصي ، ويقول المقرئزي : أنها تركيبة الأصل لكنها تشير عنده وخاصة أيام تركيا العثمانية للدلالة على معنى كلمة بابونجي ، ومعناها خادم وهي لا تشير بشكل ، أو بأخر إلى الخاصية التي يعرف بها الخصي من حيث وظائف الأعضاء ، بل تشير إلى الخادم ، ومن ثم طرأ عليها تغيير في المعنى لتصبح بمعنى عامل من عمال الدولة يشغل وظيفة محددة جرت العادة أن يتولاها خصي ، ولذلك استعملت هذه الكلمة في لغة الإدارة المملوكية حيث ندل على رتبة حربية في الحرس ( خواصي ) ولا تستعمل بالمعنى اللغوي لكلمة خادم . المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٣٤٧ .  
القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ص ١٨ . ماجد ( عبد المنعم ) : نظم دولة سلاطين المماليك ، ج ٢ ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، ج ٢ ، ص ١٦ . ويبدو أن كلمة طواشي قد أخذت معنى الرتبة العسكرية قبل العصر الأيوبي فقد ذكر ابن مماتي : أن اسم طواشي من بين المسؤولين لوحدة الجيش الأيوبي . ابن مماتي : قوانين الداوين ، تح عزيز سوريال عطية ، مطبعة الجمعية الزراعية القاهرة ، ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م ، ص ٣٥٦ .

٦٨١ - الظاهري : زبدة كشف الممالك ، ص ١٢٢ .

- العربي : المماليك ، ص ٩٨ - ٩٩ .

٦٨٢ - الظاهري : زبدة كشف الممالك ، ص ١٢٢ .

٦٨٣ - ابن فضل الله العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٩٨ - ٩٩ .

بالإضافة إلى ذلك هو المسؤول عن توزيع الكساوى في المماليك ، وينظر في أمر الصغير منهم والكبير ، وهو المسؤول عن ركوب المماليك في المناسبات والدخول إلى مكان الخدمة<sup>٦٨٤</sup> . وكان مقدم المماليك يعين من بين الطواشية ... ، والطواشي يبدأ حياته في بعض الأحيان خادماً صغيراً في البيوت السلطانية ، ثم مربياً لأبناء السلطان ، أو زماماً ، أو جمداراً في الحريم السلطاني ، ثم ينتقل بعد ذلك في الوظائف الطباقية المختلفة حتى يصل إلى وظيفة مقدم المماليك<sup>٦٨٥</sup> .

وعُرف أولئك الطواشية في الدولة المملوكية الأولى بالحزم والشدة ، وأعمال البر والصدقة فضلاً عما اشتهروا به من التقوى<sup>٦٨٦</sup> ، وظلت وظيفة مقدم المماليك في أيدي الطواشية ، ولم تخرج عن هذه القاعدة طوال عصر المماليك حتى تولاهما أمير من أمراء المماليك هو الأستاذار<sup>٦٨٧</sup> أقبغا عبد الواحد<sup>٦٨٨</sup> ، وشغلها مدة طويلة من سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م - ٧٤٠هـ / ١٣٤٠م ، وعينه السلطان الناصر محمد بن قلاوون مقدماً للمماليك بالإضافة إلى وظيفة الاستاداريه ، وكان سبب ذلك أنه وجد أن بعض المماليك نزل من القلعة إلى القاهرة فضرب كثيراً من طواشية الطباق ، وطرد جماعة منهم ، وأنكر على مقدمهم ، وهو يومئذ الطواشي شجاع الدين عنبر السحرتي<sup>٦٨٩</sup> بسبب تهاونه في هذا الموضوع ، وكان أقبغا صارماً في ضبط الطباق قال المقريزي : (( وضرب عدداً من المماليك والطواشية ضرباً مبرحاً ، وبلغ في إهانتهم فلم يجرؤ أحد منهم أن يتجاوز طبقتة ))<sup>٦٩٠</sup> ، ومثل هذه الإجراءات كانت ضرورية جداً لخلق الانضباط الصارم ، والدقيق لأنّ الانضباط في الجيوش يشكل القاعدة الأساسية ، والتي لا بد منها لتحقيق الجاهزية الدائمة التي من خلالها يمكن تحقيق النصر على الأعداء .

أما نائب مقدم المماليك عادةً ما يكون برتبة أمير عشرة<sup>٦٩١</sup> ، والطواشية كانت غالبيتهم من الأحباش والروم وكانوا قد جلبوا إلى مصر مع المماليك<sup>٦٩٢</sup> ، وعرف هؤلاء بالحزم ، والشدة وعدم التسامح مع المماليك الذين خالفوا التعليمات والقوانين . وعلى الرغم من هذا التشكيل الإداري المنظم ، والدقيق لم تكن عين السلطان نفسه تغفل عن مراقبة مقدمي المماليك وغيرهم من الطواشية ، ولا يتردد السلطان في معاقبة المقصرين في أداء واجباتهم ، فقد حدث مرة أن أمر السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦٣هـ / ١٢٦٥م بقطع أيدي جماعة منهم بسبب إهمالهم في مراقبة المماليك ، وتواطؤهم مع نواب الولاة ، والخفراء في التغاضي عما ارتكبه بعض المماليك من المفاصد في بعض أنحاء القاهرة<sup>٦٩٣</sup> ، ومما يؤكد اهتمام سلاطين المماليك بأمر الطباق أنّ السلطان المنصور قلاوون كان يخرج في غالب أوقاته إلى الرحبة عند استحقاق

<sup>٦٨٤</sup> - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١١ ، ص ١٧٣ .

<sup>٦٨٥</sup> - القلقشندي : ج ٤ ، ص ٢١ .

<sup>٦٨٦</sup> - المقريزي : السلوك : ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٨٠ ، حاشية رقم ٣ ، ج ٥ ، ص ٤٥٦ .

<sup>٦٨٧</sup> - ابن تغري بردي : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، ج ١ ، ص ٣٠٤ ، ج ٢ ص ١٢ .

<sup>٦٨٧</sup> - الأستاذار : وظيفة من وظائف أرباب السيوف يتولى صاحبها شؤون بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلان . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠٥ ، ج ٥ ، ص ٤٥٧ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ص ٢٣٢ .

<sup>٦٨٨</sup> - عن أقبغا عبد الواحد : ابن حجر : الدرر الكامنة ، م ١ ، ص ٢٢٨ .

<sup>٦٨٩</sup> - شجاع الدين عنبر السحرتي ترقى في الخدم حتى أمر بطلبخاناه واستقر مقدم المماليك ثم صرف في سنة ٧٣٥هـ / ١٣٣٥م = وأعيد إليها سنة ٧٤٧هـ / ١٣٤٧م . ابن حجر : الدرر الكامنة ، م ٢ ، ج ٣ ، ص ١١٨ .

<sup>٦٩٠</sup> - المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٣٤١ - ٣٤٢ .

<sup>٦٩١</sup> - المقريزي : ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٨٠ ، الحاشية رقم ٣ .

<sup>٦٩٢</sup> - السخاوي : الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٣٤٠ .

<sup>٦٩٣</sup> - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٠ .

حضور الطعام ، ويأمر بعرضه عليه ، ويتفقد لحمهم ويختبر طعامهم في جودته ورداءته ، فمتى رأى فيه عيباً اشتدّ على المشرف ، و الأستاذار ، ونهرهما<sup>٦٩٤</sup> ، وكذلك السلطان محمد بن قلاوون ففي سنة ٧٢٢هـ / ١٣٢٢م عندما حاول بعض المماليك الاعتراض على تأخر جوامكهم ( رواتبهم الشهرية ) لمدة شهرين (( تجمعوا يوم الخميس ٢٨ من صفر قبل الظهر ووقفوا بباب القصر ، وكان السلطان في الحريم ، فلما بلغه ذلك خشي منهم وبعث إليهم بكتمر الساقى فلم يلتفتوا إليه ، فخرج السلطان إليهم ، وقد صاروا نحو ألف وخمسمائة فعندما رآهم السلطان سبهم وأهانهم ، وأخذ العصا من مقدم المماليك ، وضرب بها رؤوسهم وأكتافهم وصاح فيهم اطلعوا مكانكم فعادوا بأجمعهم إلى الطباقي ، وعدت سلامة السلطان في هذه الواقعة من العجائب<sup>٦٩٥</sup> ، فإنه خرج عليهم في جماعة يسيرة من الخدام ، وهم غوغاء لا رأس لهم ولا عقل ومعهم السلاح ))<sup>٦٩٦</sup> ، وعندها اتخذ السلطان عدة إجراءات منها : أنه أخرج مائة وثمانين إلى البلاد الشامية ، وفرقهم على الأمراء ، وأخرج جماعة منهم من الطباقي وضرب بعضهم بالمقارع ، ثم أنقص جوامك من بقي منهم في الطباقي ، وأخرج جماعة من خدام الطباقي الطواشية ( مقدمي الطباقي ) من القلعة ، وقطع جوامكهم لكونهم قصرُوا في تربية المماليك<sup>٦٩٧</sup> .

وتشير المصادر المملوكية إلى أن التطبيق العملي للناحية السلوكية داخل الطباقي كان في غاية الحزم والجديّة ، وكانت الأوامر تقضي بالأبدا يبرح المماليك الطباقي أبداً فلما تسلطن الملك الأشرف خليل بن قلاوون تساهل في ذلك ، وسمح للمماليك أن ينزلوا من القلعة في النهار ولا يبيتوا إلا فيها ، فكان لا يقدر أحد منهم أن يبيت غيرها . ثم إن الملك الناصر محمد بن قلاوون سمح لهم بالنزول إلى الحمام يوماً في الأسبوع ، فكانوا ينزلون بالنوبة مع الخدام ثم يعودون آخر النهار ، ولم يزل هذا حالهم إلى أن انقرضت أيام بني قلاوون<sup>٦٩٨</sup> ، وقد كانت المراقبة الشخصية لمماليك الطباقي دقيقة بحيث شملت كل كبيرة وصغيرة ، فكان المسؤول فيه يتفحص حال الواحد منهم بشكل كامل ، ويعاقبه أشدّ العقوبات إن هو اقترب أو أخلّ برسم أو ترك أدباً من آداب الدين أو الدنيا ، وبلغ من تأديبهم أنّ مقدم المماليك كان إذا جاءه بعض مقدمي الطباقي في السحر يشاور على مملوك أنّه يغتسل من جنابة ، فيرسل من يكشف عن سبب جنابته إن كان من احتلام ، فينظر في سراويله فإن لم يجد فيه جنابة جاءه الموت من كل مكان<sup>٦٩٩</sup> ، ويعقب المقرّبي على نتائج هذا الأسلوب فقال : (( فلذلك كانوا سادة يدبرون الممالك وقادة يجاهدون في سبيل الله ، ويبالغون في إظهار الجميل ، ويردعون من جار أو تعدّى ))<sup>٧٠٠</sup> .

مما سبق يتضح إنّ إدارة المماليك للطباقي كانت تقوم على الصرامة ، والشدة ، ولعل هذه الإجراءات تنسجم مع الفلسفة التربوية للمماليك ( فلسفة القوة ) ، وكانت هذه الإجراءات تجد

<sup>٦٩٤</sup> - المقرّبي : المواعظ والاعتبار : ج ٣ ، ص ٤٨ .

<sup>٦٩٥</sup> - ذكر النويري في نهاية الأرب أن السلطان عالج هذه الفتنة بأن طلب من الثائرين أن يختاروا من أعيانهم من يعبر إليه ويشكو ضررهم ، ويشافهوه بحالهم ، فامتنعوا من ذلك وكانوا في جمع كثير فخرج السلطان إلى الرحبة وسمع شكواهم ولطف بهم وقابل جهلهم بحلمه وسياسته ووعدهم بإزالة ضررهم وأنه يتولى ذلك بنفسه ، وصرّفهم إلى أماكنهم فانصرفوا ، وكشف عن حملهم على الجراة من المماليك أرباب الاقطاعات فرسم بإخراجهم من القلعة وأسكنهم المدينة المقرّبي : السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٢٢٩ حاشية عن النويري .

<sup>٦٩٦</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٦١ .

<sup>٦٩٧</sup> - ابن تغري بردي : ج ٩ ، ص ٦٢ .

- المقرّبي : السلوك ، ج ٣ ، ص ٤٦ .

<sup>٦٩٨</sup> - المقرّبي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٤٨ .

<sup>٦٩٩</sup> - المقرّبي : ج ٣ ، ص ٤٩ .

<sup>٧٠٠</sup> - المقرّبي : ج ٣ ، ص ٤٩ .



استحساناً لا بل قبولاً من الناس في ذلك العصر لدرجة أنّ المؤرخ ابن تغري بردي الذي عاصر الدولة المملوكية الثانية تحسّر على أيام الشدة ، والحزم في تربية المماليك في العصر المملوكي الأول عندما قال : (( ... لله در ذلك الزمان وأهله ما كان أحسن تدبيرهم ، وأصوب حدسهم من جودة تربية صغيرهم وتعظيم كبيرهم حتى ملكوا البلاد ، ودانت لهم العباد ، واستجلبوا خواطر الرعية فنالوا الرتب السنية ))<sup>٧٠١</sup> . إضافة إلى أنها تنسجم مع أحدث النظريات التربوية العسكرية التي تؤكد على أهمية الضبط والربط في بناء الجيوش القوية والقادرة على تحقيق الأهداف الإستراتيجية المرسومة لها .

## ٦- مناهج التعليم والتدريب في الطباق :

أشارت المصادر المملوكية أنه كان هناك منهجان دراسيان لمرحلتين من التعليم والتدريب في الطباق هما :

- مناهج المرحلة الأولى وتمارس على المماليك قبل مرحلة البلوغ .
- مناهج المرحلة الثانية وتمارس على المماليك بعد مرحلة البلوغ .

أ - مناهج المرحلة الأولى ( قبل البلوغ ) : لم تعط المصادر التي عاصرت الدولة المملوكية الأولى تفصيلات وافية عن المناهج التعليمية التي كانت توضع لتعليم صغار المماليك في الطباق ، بل أكتفي في كثير من الأحيان بالإشارة تلميحاً إلى هذه المناهج ، فعلى سبيل المثال أورد المقرئزي نصاً أشار فيه إلى تعليم المماليك في الطباق فقال : (( أول ما بدأ به : تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم ، وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليه كل يوم يأخذ في تعليمها كتاب الله تعالى ، ومعرفة الخط ، والتمرن بآداب الشريعة ، وملازمة الصلوات والأذكار . كان الرسم إذ ذاك ألا تجلب التجار إلا المماليك الصغار ، فإذا شبّ الواحد من المماليك علمه الفقيه شيئاً من الفقه ، وأقرأه مقدمة فيه ))<sup>٧٠٢</sup> .

عند تحليل هذا النص يستنتج منه : أنّ المواد التعليمية المقررة في الطباق لهذه المرحلة هي - القرآن الكريم وعلومه من تفسير ، وقراءات ، وفقه ... الخ .

- اللغة العربية ، وعلومها ، والكتابة بها .

- التأكيد على بعض أنواع السلوك لغرس العقيدة الإسلامية عند الطلاب .

- إنّ التعمق في دراسة بعض هذه المواد يستوجب دراسة مواد أخرى . فمثلاً الفقه يستوجب دراسة الحساب ، والتعمق فيه ، وهذا أمكن استنتاجه من نص آخر ذكره المقرئزي عندما قال : (( وربما كان بعض هذه العلوم يدرس بتعمق لدرجة أنّ منهم من يصير في رتبة فقيه عارف أو أديب شاعر ، أو حاسب ماهر ))<sup>٧٠٣</sup> .

<sup>٧٠١</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٢٨ .

<sup>٧٠٢</sup> - المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٤٩ .

<sup>٧٠٣</sup> - المقرئزي : ج ٣ ، ص ٤٩ .

ويفهم من هذه العبارة أنّ علم الحساب كان أحد المواد الدراسية المقررة في مدارس الطباقي وربما كان يُدرّس على مستوى جيد بحيث يصل بعض المتعلمين إلى درجة المهارة فيه ويبدو أنّ هناك مواد أخرى كانت تدرس في الطباقي مثل اللغات الأجنبية حيث أنّ بعض المماليك الذين تخرجوا من هذا الطباقي كانوا يتقنون أكثر من لغة<sup>٧٠٤</sup> ، وبالتالي ما يمكن استنتاجه كهدف للتعليم في هذه المرحلة هو : تهيئة المماليك ، وتسليحهم بالثقافة العامة والدينية ، والعلمية ليكونوا جاهزين للمرحلة اللاحقة ، وهي التدريب على الفروسية بحيث تكون الدوافع جاهزة لديهم لتمثل تلك العلوم ، وليكونوا أعمدة قوية في بنيان الدولة . وهذه منطلقات علمية أثبتت من خلال التجربة في عصور لاحقة للعصر المملوكي الأول وأصبحت قوانين علمية ثابتة قاعدتها : أن الدوافع أساس لتلبية الاحتياجات ، وهو قانون علمي بحت .

## ب - مناهج المرحلة الثانية ( بعد البلوغ ) :

تختلف مناهج هذه المرحلة عن سابقتها باختلاف الهدف المرسوم ، وهو : تخريج الفارس المتكامل الشخصية ، وقد أشار المقريري إلى ذلك بقوله : ((... فإذا صار إلى سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ، ولعب الرمح ، ونحو ذلك فيتسلم كل طائفة منهم معلم ، حتى يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه ))<sup>٧٠٥</sup> .

هذه الإشارة الموجزة لبعض مناهج التدريب زادا وضوحاً ما جاء عند ، مؤلفوا كتب الفروسية ومعظمهم أساتذة في فنونها المختلفة ، وكذلك كتب التاريخ ، والتراجم ، ولاسيما في العصر المملوكي الأول ، وقد تمت الإشارة إلى ذلك . حيث ألقوا ضوءاً جديداً على هذا النوع من التعليم عند المماليك .

ومن الطبيعي أنّ مهارات الفروسية كان لا يتم تعلمها جميعها داخل مدارس الطباقي إنما كانت فيه تبنى اللبنة الأولى لشخصية الفارس ، وعماد الفروسية أربعة أشياء : الأول ركوب الخيل والكر والفر ، والثاني : الرمي بالقوس ، والثالث : الطعن بالرمح ، والرابع : الضرب بالسيف<sup>٧٠٦</sup> ويستكمل بناء الفارس في ميادين اللعب والتدريب ، وقد كانت كثيرة ، ومتعددة ومنها : ساحة بولاق<sup>٧٠٧</sup> ، وميدان الرميلة تحت القلعة<sup>٧٠٨</sup> ، وميدان الحبش<sup>٧٠٩</sup> ، وغيرها من الميادين التي كان ينفذ فيها تمارين الفروسية بشكل منتظم ، وقوي ، ففي زمن حكم الظاهر بيبرس كانت زيارة ميدان السباق<sup>٧١٠</sup> بشكل يومي يعدّ أمر أساسي في حياته ، وهذا أوجد حالة من الحماسة تجاه الفروسية ليس لها مثيل حيث صار كل الأمراء يتسابقون لإظهار مهاراتهم في

<sup>٧٠٤</sup> - المقريري : السلوك : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٩ .

<sup>٧٠٥</sup> - المقريري : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٤٩ .

<sup>٧٠٦</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٥ ، ص ٥١٣ .

<sup>٧٠٧</sup> - ابن قيم الجوزية : الفروسية ، ص ٢١ .

<sup>٧٠٨</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٥٢٤ .

<sup>٧٠٩</sup> - المقريري : السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٣٨ .

<sup>٧١٠</sup> - المقريري : ج ٢ ، ص ٥٦٧ .

<sup>٧١٠</sup> - ميدان السباق : هو نفسه ميدان القيق وهو شرق القاهرة فيما بين النقرة التي ينزل من قلعة الجبل إليها وبين قبة النصر التي تحت الجبل الأحمر ، ويقال له أيضاً ميدان العيد ، والميدان الأخضر والميدان الأسود وهو ميدان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري . المقريري : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٢٠٠ - ٢٠٤ . الميدان الأسود ويقال له أيضاً ميدان القيق وميدان العيد وميدان السباق والميدان الأخضر وهو ما بين قلعة الجبل إلى قبة النصر تحت الجبل الأحمر . أنظر : المقريري : المواعظ والاعتبار لمعرفة الخطط والآثار : ج ٤ ، ص ٣٦٠ .

وكان هذا الميدان اليوم الأرض المشغولة بتراب جبانة الوزير وقرافة المجاورين وجبانة المملك

الفروسية ، واستخدام الأسلحة . قال ديفد أيلون عندما تحدث عن الألعاب العسكرية المملوكية :  
( ( لم يكن هنالك أماكن كافية تتسع لكل المتدربين في الميدان ))<sup>٧١١</sup>

وهكذا كان الطلبة يتلقون النظرية العسكرية ( العلوم النظرية ) ، وبعض القواعد الأخرى داخل مدارس الطباق على أن تتم التدريبات العملية في الميادين .

وهذا يتضح أنّ مناهج التعليم ، والتدريب في العصر المملوكي قد حققت التوازن بين الروح والجسد وضرورة تغذية كل منهما بالثقافة والعلوم ، والقوة البدنية اللازمة لتكوين الشخصية المتوازنة القوية القادرة على إيجاد الحلول ، وابتكار ما سمي في ذلك الوقت الحيل للتعامل مع أيّة مسألة مستجدة في المعارك .

بالإضافة إلى ذلك فإنّ مناهج التعليم هذه تجنبت الكثير من الأخطاء التربوية التي كانت أحياناً تركز على التربية الجسدية ، وأهملت الروحية فكان نتيجة ذلك جهلاً في الأهداف ، وغلظة في الطباع ، وإن ساعد ذلك في إعداد الأجسام القوية القادرة ، لكن القوّة بدون علم غالباً ما تؤدي إلى التهور ، بل أنها تنهار عند اصطدامها بأول حاجز أقوى منها<sup>٧١٢</sup> . لذلك جاء التكامل في المناهج معتمداً على المرحلتين الأولى ، والثانية ، ففي الأولى إعداد معرفي ثقافي وفي الثانية تدريب عملي غايته الوصول إلى المهارات ، والخبرات التي تحتاجها كل جيوش الدنيا

فكل العلوم إذا لم تجد طريقها إلى التطبيق العملي على أرض الواقع يكون أثرها محدوداً بل ضعيفاً لا قيمة لها بشكل فعلي ، لذلك لا بد من أن تلقى العلوم النظرية العسكرية طريقها إلى التنفيذ ، ولا يكون ذلك ممكناً بغير التدريب عليها بشكل عملي في ميادين التدريب لتشكيل المهارات المطلوبة في ساحات القتال ، لذلك كان التدريب يتم في كافة الأوقات والمناسبات الدينية منها ، وغير الدينية ، فقد أورد ابن تغري بردي نصاً تحدث فيه عن الاحتفال بسوق المحمل ، وكيف كان يطاف بكسوة البيت العتيق بمصر ، والقاهرة ، وكانت ممالك السلطان تلعب بالرمح ، والأسلحة الأخرى أمام الكسوة<sup>٧١٣</sup> .

ففي شهر رمضان سنة ٦٧٢هـ / ١٢٧٤م رسم للعسكر بالتأهب للعب القبق<sup>٧١٤</sup> ، ورمي النشاب فركب من كل عشرة فارسان في أحسن زيهم وقت الحرب ، وركب السلطان في مماليكه ودخلوا في الطعن بالرمح ، ثم أخذ السلطان الحلقة ، ورمى النشاب ، وجعل لمن أصاب من الأمراء فرساً من خيله الخاص بتشاهيره<sup>٧١٥</sup> ، والبحرية بغلطاق<sup>٧١٦</sup> ، واستمر ذلك أياماً تارة يكون للعب بالرمح ، وتارة بالنشاب ، وتارة بالدبابيس ، وساق السلطان على عادته في اللعب

<sup>٧١١</sup> - Nettles (Isolde Betty) : Mamluk cavalry practices – Evolution And - degree arizona Uni , Influence , I solds, for Dph degree arizona Uni , p٧٧ .

<sup>٧١٢</sup> - عبد الدايم ( عبد الله ) : التربية عبر العصور ، دار العلم للملايين ، ط١ ، بيروت ، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م ، ص٥٤ .

- أمين ( مصطفى ) : تاريخ التربية ، القاهرة ، مطبعة دار المعارف ، ط٢ ، ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م ، ص٣٦-٤٢ .

- القطن ( أحمد فهمي ) : تاريخ التربية ، مطبعة مدرسة طنطا الصناعية ، ط١ ، طنطا ، ١٣٤٢هـ / ١٩٢٣م ، ص١٧٢ .

<sup>٧١٣</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص١٨١ .

<sup>٧١٤</sup> - القبق : نبات تركي معناه القرعة ، وقد أطلق في العربية على الهدف الذي كان مستعملاً في لعب الرماية وهو عمود من خشب منصوب في رأسه شكب قرعة بمثابة هدف . المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج٢ ، ص١١١ .

<sup>٧١٥</sup> - التشاهير هي الأشرطة التي توضع حول صدر الحصان . أنظر : دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص٣٦ .

<sup>٧١٦</sup> - بغلطاق : لفظ فارسي يعني الثوب بدون أكمام أو بأكمام قصيرة وهو يغطي الصدر فقط ( بغل = بطن ) وصدر ، ( وطاق = ثياب ) يلبس تحت الفرجية ( صدرية مفتوحة الصدر ، وكان يصنع من القطن البعلكي الأبيض أو من جلد السنجاب أو من الحرير اللامع وكثيراً ما يزين بالجواهر الثمينة ثم سمي سلاري . دهمان معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص٣٦ .

وسل سيفه فسُلت مماليكه الخواص سيوفهم ، وحملوا على بعضهم ، واصطدموا فكان منظراً مهولاً ، وبعدها وزعت التشاريف<sup>٧١٧</sup> . كما كان يتم التدريب أيضاً بمناسبة الأعياد الدينية ( عيد الأضحى - عيد الفطر ... ) ، فقد جاء في النجوم الزاهرة أنه في سنة ٦٧٣هـ / ١٢٧٥م خرج السلطان في ٢٥ رمضان ، وأمر العسكر أن يركب الزينة الفاخرة ، ويلعب بالميدان تحت القلعة ، واستمر ذلك كل يوم إلى أيام عيد الفطر<sup>٧١٨</sup> . كما كان يتم ذلك بالمناسبات الاجتماعية مثل زواج أبناء السلاطين ، والأمراء ، ففي سنة ٦٧٤هـ / ١٢٧٦م عندما أراد الملك الظاهر بيبرس أن يزوج ابنه الملك السعيد أمر العسكر بالركوب إلى الميدان الأسود<sup>٧١٩</sup> تحت القلعة في أحسن زي ، وأقاموا يركبون كل يوم ، ويتراكمون في الميدان والناس تزدهم للفرجة عليهم خمسة أيام ، وفي اليوم السادس افترق الجيش فرقتين ، وحملت كل فرقة على الأخرى ، وجرى اللعب والزينة بما لا يوصف<sup>٧٢٠</sup> ، وكان التدريب يتم أحياناً من خلال إجراء عروض لمختلف أنواع القوات أمام الناس .

### التدريب خلال الاستعراض لمختلف أنواع القوات :

استعراض القوات كان يتم من قبل السلطان للوقوف على جاهزية جيوشه لتنفيذ أعمال قتالية متعددة الأشكال وبعد أن يتم الاستعراض تكون القوات جاهزة بلباس الحرب ، وتنزل إلى الميدان حيث تتم تدريبات اشبه ما تكون إلى الأعمال التي سيتم تنفيذها ، أو التي خططها القائد . ففي سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٤م بدأ عرض للقوات من طلوع الشمس ، حيث أخذ كل أمير طلبه ( كتيبته ) ، وهي في أتم الجاهزية ، وبعثها الكامل ، وكان الهدف من ذلك الاستعراض أمور عديدة منها :

- استعراض القوة ، والتباهي بها لرفع الروح المعنوية عند الجنود ، وعند الناس ، وهذا هو الغاية ، والهدف لأن الروح المعنوية تشكل القناعة بالهدف ، وطرق تحقيقه .

- استعراض الأسلحة بأنواعها ، ومدى الاستكمال بها بعد أن عرف السلطان أن بعض العسكر يستعير عتاداً ، وأسلحة من أجل تنفيذ الاستعراض ، فأمر السلطان بعرض جميع القوات في وقت واحد في الميدان حتى يتم التأكد من استكمال جميع الجنود بعثاتهم وأسلحتهم<sup>٧٢١</sup> .

- إجراء التدريب العملي للفارس ، والراجل على حد سواء ، فعلى سبيل المثال تم نصب القبق<sup>٧٢٢</sup> ، وتم التدريب على إصابته من قبل الفرسان ، ومن قبل الجنود ، وكان يتم تحفيزهم على الجدية بالعمل ، وإصابة الهدف بتخصيص الهدايا والجوائز<sup>٧٢٣</sup> .

<sup>٧١٧</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٨٦ .

<sup>٧١٨</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٧ .

<sup>٧١٩</sup> - الميدان الأسود ويقال له أيضاً ميدان القبق وميدان العيد وميدان السباق والميدان الأخضر وهو ما بين قلعة الجبل إلى قبة النصر

تحت الجبل الأحمر . المقرئزي : المواعظ والاعتبار لمعرفة الخطط والآثار : ج ٤ ، ص ٣٦٠ .

ومكان هذا الميدان اليوم الأرض المشغولة بتراب جبانة الوزير وقرافة المجاورين وجبانة المملك .

<sup>٧٢٠</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٨ .

<sup>٧٢١</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

<sup>٧٢٢</sup> - القبق : عبارة عن خشبة عالية جداً تُنصب في براح من الأرض ويُعمل في أعلاها دائرة من خشب وتقف الرماة بقسيها وترمي

بالسهام جوف الدائرة لكي تمر من داخلها إلى غرض هناك تمريناً لهم على إحكام الرمي . المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣

ص ٢٠٠ .

<sup>٧٢٣</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١١ .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى عندما يرى الفرسان ، والجنود أنّ السلطان يصول ويجول ويرمي بالنشاب ، وغيره من الأسلحة يُعطي دافعاً جديداً للجندية ، والاقْتداء ، وبذل الجهود مضاعفة ، وكان هذا التدريب يستمر أياماً ، وكان الناس يخرجون لمشاهدة حركات العسكر وتدريباتهم ، ومهاراتهم في الرمي ، والطعن ، والضرب ، وغير ذلك من فنون الفروسية<sup>٧٢٤</sup> . وفي سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٩م احتفل السلطان برمي النشاب ، وأمور الحرب وبنى مصطبة بميدان العيد خارج باب النصر في القاهرة ، وصار كل يوم ينزل من وقت الظهيرة ويرمي بالنشاب ، ولا يعود من الميدان حتى العشاء ، وأخذ السلطان يُحرّض الناس على الرمي والرهان مما شجع الجميع ، فما بقي أمير ، ولا مملوك إلا وكان يحرض الناس على لعب الرمح ، ورمي النشاب<sup>٧٢٥</sup> .

- وأحياناً كان القصد من تنفيذ مثل تلك العروض العسكرية إيصال رسالة إلى جهة خارجية كاستعراض القوة ، والمهارة ، والسلاح ، والعدد الكبير من المقاتلين أمام حضور من دول أخرى كما حدث في سنة ٦٧٠هـ / ٢٣٧٢م وعندما حضر رسل المغول ، وطلبوا أن يذهب السلطان الظاهر بيبرس ، أو من يأتي بعده في المنزلة إلى أبغا ليتحدث معه في الصلح فقال السلطان للرسول : بل أبغا إذا أراد الصلح عليه أن يأتي إلينا بنفسه ، أو يرسل أحد إخوته ليتحدث بذلك ، وأمر السلطان بلبس العسكر ، فلبسوا عدد الحرب ، ولعبوا في الميدان خارج دمشق والرسول تشاهد ذلك ، بعدها غادروا ليتحدثوا عن ما شاهدوه من قوّة وبأس<sup>٧٢٦</sup> . وفي سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٧م قام السلطان الظاهر بيبرس باستعراض الجيوش أمام الأمراء الروم وبعض الرسل من الدول الأخرى ، ونزلت القوات بكامل عتادها ، وعدتها ولباسها الحربي من جواشن ، وخوذ ، وعملت الأبراج من الخشب ، وحملت على الفيلة ، ودخلوا في الحلقة ، وساقوا ، ثم نصب القبق في الميدان تحت القلعة ، ورموا بالنشاب ، وأنعم السلطان على كل من أصاب القبق من الأمراء بفرس من الجنائب الخاص بسرجه ، ولجامه ، وتشاهيره ، وأنعم على كل من أصاب القبق من المماليك ، والأجناد بالخلع<sup>٧٢٧</sup> .

- كان عرض القوات يتم أحياناً بقصد التأثير على موقف بعض الدول لاستمالتها وعقد تحالفات إستراتيجية لخلق توازنات معينة تمهيداً لخوض أعمال قتالية ناجحة ( تأمين متطلبات نجاح الحرب ) ، ففي سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٤م حضر رسل الملك المغولي القفجاقي بركه خان عرضاً لعساكر السلطان الظاهر بيبرس ، فشاهدوا من كثرة العساكر ، وحسن زيهم واهتمام السلطان ، وبهجة الخيول ، وجلالة الفرسان ما بهر عقولهم ، ووقفوا إلى جانب السلطان يشاهدون التناسق والجمال في حركات الجند ، ودقة إصابة رمايته<sup>٧٢٨</sup> ما جعلهم يتوقنون إلى عقد تحالف معهم

- يستطيع الفارس أثناء العرض أن يقوم بتدريب الفرسان على بعض الحركات المهمة أو يستكمل الخبرة في الفروسية ، أو يتعلم مهارات قتالية جديدة ومهارات المناورة ، أو أن يضع خطط تكتيكية نظرية ، وإستراتيجيات لاختبار مواجهات تدريبية تمثيلية تشبه إلى حد كبير ما سيكون في ساحة المعركة ، أو أن يطبق بشكل عملي معلومات نظرية تعلمها من كراس

<sup>٧٢٤</sup> - المقرئزي : ج ٢ ، ص ١٢ .

<sup>٧٢٥</sup> - المقرئزي : ج ٢ ، ص ٥٤ .

<sup>٧٢٦</sup> - المقرئزي : المصدر المتقدم ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٥ .

<sup>٧٢٧</sup> - المقرئزي : المصدر المتقدم ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

<sup>٧٢٨</sup> - المقرئزي : المصدر المتقدم ، ج ٢ ، ص ١٢ .

الفروسية ، أو أن يدرب ، أو يتدرب على الرقص على الخيل ، وخاصة اثناء تنفيذ الاستعراضات العامة ، أو كما كان مفضلاً عند السلاطين المشاركة في المبارزات ، فكان الجندي يقضي ساعات طويلة في الميدان دون كلل أو ملل وكانت هذه الأنواع من التدريبات هي الأكثر فائدة للتخضير للحروب<sup>٧٢٩</sup>

وهكذا كان التدريب والتعليم في كل الأوقات وفي كل الظروف حتى عندما كان السلطان يذهب إلى الصيد كان التدريب حاضراً ، ففي سنة ٦٦٣هـ / ١٢٦٥م ذهب السلطان الظاهر بيبرس إلى الصيد ، وأقام بالعباسة<sup>٧٣٠</sup> ، وهناك رمى بالبندق ، وتدريب ، ودرب من كان معه<sup>٧٣١</sup> وكانت الغاية من ذلك زيادة تعزيز الثقة بالنفس ، والثقة بالسلاح ، وتعزيز اللياقة البدنية عند المقاتلين ويقوي أجسامهم ، ويجعلهم قادرين على تحمل المصاعب الناجمة عن عملية الإعداد والتدريب ، والتأهيل . لكن كيف كانت تتم عملية تعزيز اللياقة البدنية بشكل فعلي هذا ما سيناقش في الفقرة التالية .

### تدريب اللياقة البدنية :

وهو من أهم أنواع التدريبات لأنه يتعلق مباشرة ببناء القوة البدنية اللازمة للجندي سواء كان رجلاً أو فارساً وبالتالي قدرته على تحمل المصاعب الناجمة عن أعمال الحرب واستخدام الأسلحة بمختلف أنواعها وتحمل المصاعب الناجمة عن التغيرات المفاجئة للطقس والمناخ التي قد تختلف من منطقة إلى أخرى وقد كان المماليك يعتقدون بهذه التدريبات كل العناية انطلاقاً من إدراكهم لأهمية اللياقة البدنية للجندي في تنفيذ المهام الموكلة ومن أهم هذه التدريبات الصيد ، ولعب الصولجان ، واللبخة ، فأما الصيد فهو في نظر الجيش المملوكي رياضة مهمة لها أكثر من هدف منها : بناء اللياقة البدنية العالية ، وترويض النفس والصبر وتعلم الهدوء وتعليم الجندي الرمي ضد أهداف تتحرك بسرعة ( الغزلان – الأرناب ... ) وعلى الرامي أن يصيب الهدف من الحركة ، فلا ينتظر الطريدة حتى تقف ، أو يقف الصياد حتى يرمي بل يسدد من على ظهر الفرس العادية على الغزال الذي يركض بسرعة تفوق سرعة الفرس ، وفي هذا تدريب كبير ومشقة الغاية منه الوصول إلى الخبرة اللازمة ، والمهارة العالية التي يجب أن يمتلكها الفارس . وكان الأمراء يكثر من الصيد ، ويعتنون بتربية الطيور الجارحة التي كانوا يطلقون عليها (الكواهي) وهي الصقور المعدة ، والمدربة للصيد وكان للطير مطعم خاص به يهياً فيه الطعام ويدرب في هذا المكان ، وله أناس يقومون على خدمته وتدريبه<sup>٧٣٢</sup> ومما يشبه تدريب الصيد السباق الذي يجري في ميادين عديدة بين الفرسان الذي يعتمد على تدريب الفارس والفرس بأن واحد وهو من التمارين التي كانت شائعة في أيام المماليك ومنتشرة انتشاراً واسعاً<sup>٧٣٣</sup> . أما اللعب بالكرة و الصولجان<sup>٧٣٤</sup> فهو رياضة وصفها الحكماء والفضلاء أنها

<sup>٧٢٩</sup> - Nettles (Isolde Betty) : Mamluk cavalry practices – Evolution And Influence , Op ,Cit , p٧٧ .

<sup>٧٣٠</sup> - العباسية : هي قرية مصرية تقع فيما بين بليبس والصالحية من أرض السدير كان متنزها لملوك مصر ، وفيها ولد العباس بن أحمد بن طولون فسماه لذلك أبوه العباس . المقرئزي : المواظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٢٨ .

<sup>٧٣١</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٧ .

<sup>٧٣٢</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٦٣ .

- المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٣ .

<sup>٧٣٣</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٦٩ .

<sup>٧٣٤</sup> - الصولجان : الجوكان – أو المحجن – الذي تضرب به الكرة وهو من الألفاظ الفارسية المعربة . أنظر : القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ، ص ٤٥٨ .

ورجالهم<sup>٧٣٥</sup> لما اجتمع فيها من فوائد عظيمة منها التدريب على ركوب أصناف الخيل و الانفتال والخفة والرشاقة، ومنها السرور والفرح بالظفر ، ومنها تعود الاجتماع والتدريب ومساعدة الأصحاب لبعضها ، أو تعاضد الأولياء وتعاونها على الخصوم والأعداء<sup>٧٣٦</sup> ، وبالتالي فهو نوع من التدريب للفارس ، وهو على فرسه بيده عصا يضرب الكرة ، ويسوقها .

ويجري هذا في ميادين أعدت خصيصا لهذه الرياضة ، وعدها البعض أنها من أعظم أصول الفروسية منفعة لكل من طلب فنا من فنون الفروسية لاسيما العمل بالسيف ، والرمح والرمي بالقسي لما يقع فيه من الكر ، والعطف ، والاختلاس ، والجولان ، والمناوشة ، وتأديب الدواب<sup>٧٣٧</sup> ، ولهذه اللعبة قواعد منها ضرب الكرة خلسة ، وبرفق ، ومن تحت مخرم الفرس ووسط صدرها ، ونحرها ، والحذر من الجري السريع غير المتزن ، ومن الصدمات ، وأذى المشاهدين ، والابتعاد عن السب والشتم<sup>٧٣٨</sup> ، وهذه التدريبات تمهد للفارس أن يصل إلى مرتبة الفارس ، وأن يحصل على لياقة جسمية تؤهله للدخول في القتال ، وهي من أفضل أنواع الرياضة لكثرة حركاتها ، وسرعة الانعطاف للفارس في كل الاتجاهات ، ورفع الكرة من الأرض ، وبعقب الصولجان ، وغير ذلك<sup>٧٣٩</sup> ، وبالتالي فهو تدريب للحرب ، وتمارين للقلوب على القتال لما فيها من الملاحاة ، والجد ، ولعب فيها السلطان الظاهر بيبرس وكانت لعبته المفضلة كما لعبها الناصر محمد بن قلاوون<sup>٧٤٠</sup> ، ويلحق بهذه الرياضة (الطبقات) وهي الكرة التي يلعب بها الأولاد ، فيجرون ( يركضون ) خلفها ، ويحاولون ولوجها في مكان حفرة في الأرض لهذه الغاية<sup>٧٤١</sup> .

أما المصارعة فهي رياضة بدنية انتشرت في عصر سلاطين المماليك لأنها تفيد البدن كله ( يتحرك لها حركات مختلفة ، والبصر ، والرأس يلتفت إليها ، والأصوات ، والصيحات ترفع إليها ... ، وفيها تحريك القوة الغضبية لما فيها من طلب المغالبة )<sup>٧٤٢</sup> .

والمصارعة أيضا هي : تمارين القوة ، واللياقة ، والتحمل يشهدها جمهور كبير من الجنود والناس ، ويحضرها الأمير ، وتندق لها الطبول والزمر ، ولها مراسيم خاصة كما نشاهدها اليوم في ميادين المصارعة المختلفة المنتشرة بصورة خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا والعالم .

وقد كان للمنفذ مكافأة يقدرها السلطان ، أو الأمير وفي كثير من الأحيان تؤدي هذه المصارعة إلى أذى يلحق بالمتصارعين .

وهناك لعبة اللكم<sup>٧٤٣</sup> ( الملاكمة ) ، وهي رياضة يبتدئ تعلمها بأن يأخذ الطالب مخللة ويملاها رملا ، وفيها خيط وثيق ويعلقها في السقف إلى عند صدره ، ويحذفها تروح عنه فإذا جاءت إليه

<sup>٧٣٥</sup> - ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ١٩٥ .

<sup>٧٣٦</sup> - عبد العزيز (نبيل محمد) : الملاعب في عصر سلاطين المماليك ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ص ١٠ .

<sup>٧٣٧</sup> - عبد العزيز : ص ١٠ .

<sup>٧٣٨</sup> - وتر ( محمد ضاهر ) : معركة عين جالوت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م ، دراسة في الجيش المملوكي والمغولي ، ط ١ ، دمشق

١٤٠٩هـ/١٩٨٩م ، ص ٢٦٨ .

<sup>٧٣٩</sup> - الأقسراي : نهاية السؤل ، ص ٨٣ .

<sup>٧٤٠</sup> - Nettles (Isolde Betty) : Mamluk cavalry practices – Evolution And Influence , Op ,Cit , p٧٧ .

<sup>٧٤١</sup> - الأقسراي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٨٤ .

<sup>٧٤٢</sup> - عبد العزيز : الملاعب في عصر سلاطين المماليك ، ص ١٠٤ .

لكمها بيده تروح عنه ، ويصير كلما جاءت إليه لكمها<sup>٧٤٤</sup> وهي لعبة تحتاج إلى الصبر ، والمثابرة ، وهذا أهم ما يتعلمه اللاعب من التدريب عليها إضافة إلى القوة البدنية الهائلة التي يحصل عليها المتدرب .

أما (اللبخة)<sup>٧٤٥</sup> ، أو لعبة المطرق ، أو التحطيب ، أو العصا فهي لعبة لأهل مصر ويقال : أنها أول ما ظهرت في جوجر<sup>٧٤٦</sup> سنة ١٢٤٩/هـ ٦٤٧م لكنها انتشرت انتشارا كبيرا في العصر المملوكي الأول ، ومن السلاطين الذين شجعوا هذه اللعبة الكامل شعبان بن الناصر محمد<sup>٧٤٧</sup> والسلطان حاجي ابن السلطان الناصر محمد أيضا<sup>٧٤٨</sup> ، واللبخة تدريب جماعي وهي عبارة عن عدة شجعان يتقابلون بالعصي ، ويقوم أحدهم فيمسك عصاه من وسطها ، ويفرق عشرة من زملائه الذين يلعبون معه ، وأساس اللعبة أن تعمل حلقة ليتبارى في داخلها رجلان ، أو أكثر ويكون قصد كل واحد منهما ضرب رجل منافسه فضرب الرجل أقوى من أي ضرب سائر الجسد ، وعلى المضروب صد ضربات منافسه ، ومع هذا مسموح الضرب على الرأس شريطة أن تكون الضربة خفيفة<sup>٧٤٩</sup> ، وتؤدي هذه اللعبة في بعض الأحيان إلى أن يقتل اللاعب زميله . ( حصل مثل ذلك سنة ١٣٤٥/هـ ٧٤٦م بحضور السلطان الكامل شعبان الذي خلع على بعضهم ، وأنعم على كبيرهم بخبز من الحلقة )<sup>٧٥٠</sup> . إنها لعبة تدل على القوة والرشاقة ، واستخدام العصي بكل خفة ومهارة .

## ٧ - التدريب الاختصاصي :

أما التدريب الاختصاصي فكان يتم تعليم المملوك على استخدام أنواع الأسلحة بالتدريب على كل نوع منها على حده ، واختيار ما يناسب جسمه ، وإمكانياته ، وقدراته الذهنية ، والعقلية والعضلية ، ويتم الفرز على هذا الأساس حيث كان لكل سلاح مدربون يقومون بتعليم الطالب وتدريبه المبادئ الأولية لفنون العمل بهذا السلاح ، وقواعد رميه ، أو العمل عليه واستخدامه في ميادين القتال ، وكان يتم ذلك وفق خطة منهجية تبدأ من تعلم المبادئ الأولية ، وتتطور لتصل إلى معالجة حالات خاصة ودقيقة في استخدام كل سلاح من الأسلحة وصولا إلى إيجاد المهارة في استخدام هذا السلاح ، أو ذلك وهذا ما سيتم التحدث عنه في الفقرات التالية :

- التدريب على الخيل ( أو تدريب الفارس ) :

وكان تدريب الفارس يتم على مراحل .  
المرحلة الأولى : التدريب على ركوب الخيل ، وهو أمر أساسي في أن يتعلم من يود أن يكون فارسا كيفية ركوب الخيل ، وقد أكد هذا جميع من كتبوا في الفروسية منطلقين من أن من لم

<sup>٧٤٣</sup> - اللكم : في اللغة هو الضرب باليد مجموعة وقيل : هو اللكز في الصدر والدفع علما بأن اللكز هو الضرب بالجمع في جميع

جسد المنافس . أنظر : لسان العرب مادة اللكم .

<sup>٧٤٤</sup> - عبد العزيز : الملاعب في عصر سلاطين المماليك ، ص ٩٩ .

<sup>٧٤٥</sup> - اللبخة : حطبه مأخوذة من شجر اللبخ الذي كان منتشرا بكل من جزيرة الروضة ، والحطب ما أعد من الشجر مشبويا بالنار

المقريزي : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٣٠٢ .

<sup>٧٤٦</sup> - جوجر : بليدة بمصر من جهة دمياط في كورة السمودية . البغدادي ( صفي الدين عبد المؤمن ) : مراصد الإطلاع ، ج ١

ص ٣٥٥ .

<sup>٧٤٧</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٢٨ .

- المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٠٢ .

<sup>٧٤٨</sup> - المقريزي : ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٢٩ .

<sup>٧٤٩</sup> - عبد العزيز : الملاعب في عصر سلاطين المماليك : ص ٨٨ .

<sup>٧٥٠</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١٠ ، ص ١٢٨ .

- المقريزي : السلوك ، ج ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٠٢ .



يمتلك ناصية الخيل لا يصح أن يكون فارساً<sup>٧٥١</sup> ، ومن لم يعرف جواده لا يصح أن يكون فارساً ممن عرف جواده استطاع أن يعرف آلات ركوب هذا الجواد فإن كان قوي الرأس اختار لجأماً ثقيلًا ، أو لين الرأس اختار لجأماً خفيفاً<sup>٧٥٢</sup> ..... الخ ، ومن عرف جواده استطاع أن يؤهله لما يحتاج إليه هو في ميدان القتال ، وهكذا حتى قال أحدهم :

إن المماليك كانوا يدرّبون الخيل كما يدرّبون الفرسان فيعلمون الفرس المشي في الغابات والخوض في الوحول ، وصعود الجبال ، والهضاب ، والمشى في الأزقة الضيقة ، ويعلمونه عبور الأنهار ، ويعودونه على رؤية الأسلحة ، وعلى سماع الأصوات ، وتعويده على قعقة السلاح ، ومقابلة الشباب لأن الخيل تنفر من هذه الأشياء ، وتبتعد عنها لذلك كان لا بد من أن تتعود عليها<sup>٧٥٣</sup> ، ويعلمونه ( إيجاد الوسائل ) لمنع الخيول من الصهيل عند اللزوم كتغطية العينين ، وسد الأذنين<sup>٧٥٤</sup> .... الخ ، وكان من جملة التدريبات أنهم كانوا يعرقون الخيل ثلاث مرات في الأسبوع حتى إذا جاء الأسبوع الثاني انزلوه إلى السبق ، وهو نوع من التدريب منذ القدم ، وهكذا بالرياضة ، والاعتناء ، والتدريب المتواصل يؤهلون الخيل لتكون على درجة عالية من الاستعداد والجاهزية<sup>٧٥٥</sup> .

أمّا تعليم الفارس الركوب على الخيل كان يتم على مرحلتين وهما :  
المرحلة الأولى : ركوب الخيل بدون سرج . قال صاحب مخطوطة « الكمال في الفروسية وأعمال السلاح » : ابدأ بتعلم الركوب على الخيل بدون سرج ، وهذا الركوب يظهر فيما يظهر عيوب الفرس ( إذا ما كان فيه عقر ) ، ويظهر قوة الظهر ، ولينه ، وقوة العنق ، ولينه كما يظهر من خلال حركة الدوران ثبات الفارس ، وسرعة حركة الفرس ، وثباته على الأرض<sup>٧٥٦</sup> أما الرحلة الثانية : هي ركوب الخيل مع السرج لتعليم الفارس بنفسه أن يشد فرسه بيده وقد وصف ابن بكتوت وصفاً دقيقاً ما يجب على الفارس أن يتعلمه عندما يود أن يتعلم الركوب على الفرس المسروجة<sup>٧٥٧</sup> .

لكن كيف كان يتم ذلك سواء على الخيل بدون سرج أو على الخيل المسروجة ؟

كان المدرب يقيم تمثالا من الطين على هيئة حصان ، وأحيانا من الخشب ، أو الحجارة ويأتي بالمدرّبين ، ويعلمهم على كيفية الركوب ، والجلوس بحيث يقوم الجندي بتكرار ما يعلمه إياه المدرب ، وفي الإعادة يتم تلافي الملاحظات ، والنصائح التي يبديها المدرب ، وذلك عندما يأتي دوره في أداء الحركات التي يتم التدريب عليها . وعندما يتم إتقان هذه الحركات من جميع المتدربين يقوم المدرب بوضع السرج على ظهر التمثال ، ويأخذ في التدريب على كيفية

<sup>٧٥١</sup> - مؤلف مجهول : الكمال في الفروسية وأعمال السلاح ، مخطوط موجود في معهد التراث العلمي بحلب تحت رقم ٣٠٥ وموجود

صورة مكرو فيلم عنه في مكتبة الأسد الوطنية تحت رقم م ف / م / ١١٥٥ ، الورقة ٥-٤ .

- الرماح ( محمد بن بكتوت بن عبدا لله ) : كامل الصناعة في الفروسية والشجاعة ، مخطوط يوجد صورة مكرو فيلم عنه في مكتبة الأسد الوطنية تحت رقم // ورقة ٤-٩ و - ظ .

<sup>٧٥٢</sup> - الرماح بن بكتوت : كامل الصناعة في الفروسية ، ورقة ٧ ظ .

<sup>٧٥٣</sup> - ابن منكلي : الحيل في الحروب ، ص ٢٥٣ .

<sup>٧٥٤</sup> - الرماح نجم الدين : عمل الرمح على الأرض والفرس ، مخطوط موجود صورة عنه في معهد التراث العلمي العربي بحلب تحت رقم ١٣٤ ، ورقة ٢٠ وما بعدها .

<sup>٧٥٥</sup> - الرملي ( نجم الدين بن خير الدين الحنفي الرملي ) : إسبال الذيل في ذكر جياذ الخيل ، مخطوط ، موجود في المركز الثقافي العربي بحماه تحت رقم ٩٨ .

<sup>٧٥٦</sup> - الرماح بن بكتوت : كامل الصناعة في الفروسية : ورقة رقم ٧ ظ .

<sup>٧٥٧</sup> - الرماح بن بكتوت : ورقة رقم ٨ و . الرماح نجم الدين : علم الفروسية برسم العمل به ، مخطوط ، يوجد صورة عنه في معهد التراث العلمي العربي بحلب تحت رقم ٢٦٧ ، ورقة ٧١-٧٤ .

الركوب على الفرس وهي مسروجة ، وهذه الأمور ، أو الحركات تتم بدون سلاح حتى يتم إتقان عملية الركوب على الفرس بدون سرج ، ومع السرج<sup>٧٥٨</sup>

ثم تبدأ عملية اكتساب المهارة ، والخفة عن طريق التمرن بالتدرج على السوق قليلا قليلا ومنه إلى الركض ( العدو ) بالفرس ، فإن استقام جريه تمرن على النزول ، والركوب على الفرس أثناء الجري ، أو الارتداد خلف فارس راكض ، وما أشبه ذلك فإن امتلاك المهارة بذلك ينتقل المدرب إلى الخطوة التالية ، وهي التمرن على الركوب ، والعمل بالأسلحة ، وتمرن على طريقة أخذها من الأرض ، والفرس تعود .

فإن تم كل ذلك ساق الفارس فرسه بعد تأديبه إلى العمل في الناوردات ، ومرنه على دخول البرجاس<sup>٧٥٩</sup> ، وهذا ما سيتم التحدث عنه في الفقرة التالية :

المرحلة الثانية : تدريب الفارس على استخدام السلاح .

بعد أن انتهت المرحلة الأولى ، وهي أن يمتلك الفارس مهارات الركوب على الفرس والمهارات الأخرى التي تكسب جسمه الليونة ، والحركية ، ومهارات القفز على الفرس في كافة الحالات يتم الانتقال إلى التدريب على استخدام الأسلحة ومنها :

أ- الرمي على القوس : قال الرماح : الرمي هو رأس الميدان ، وما استطاع أحد الوصول إلى هذا العلم إلا بالتعلم<sup>٧٦٠</sup> ، وقال صاحب كتاب غنية الطلاب في معرفة الرمي بالنشاب : « النجاح في التعامل مع القوس لا يتأتى إلا بالمران المستمر والعمل الدؤوب »<sup>٧٦١</sup> ومن المفيد الإشارة إلى أن أفضل المعدات تكون قليلة النفع ما لم يصل الرامي إلى مستوى عال من المقدرة ، ولا يمكن للرامي أيضاً في العادة أن يفعل أكثر مما تدرّب عليه وعند البدء في تعليم الرماة هذا العلم بشكل عملي بعد أن يكونوا قد أتقنوا ذلك نظرياً لا بد من إحضار قوسين يأخذ المدرب واحداً ، والمتدرب الثاني ، ثم يبدأ المدرب بتعليم الجندي كيفية أخذ القوس ، وحمله ويتم هذا أيضاً أمام الجميع حتى تعم الفائدة ، فإن أتقن المتدرب عملية الأخذ للقوس ، وحمله<sup>٧٦٢</sup> يتم الانتقال إلى فقرة جديدة ، وهي العقد على الوتر من غير سهم ويقوم المتدرب بتقليد المدرب ، ويقول صاحب كتاب نهاية السؤل والأمين في تعلم أعمال الفروسية : أن للعقد على الوتر هي خمسة وجوه<sup>٧٦٣</sup> فإن أتقنت الحركة ينتقل المدرب إلى تعليم الجندي على كيفية إطلاق السهم بدون ريشة ، وذلك في خمسة أقواس متدرجة الليونة ، وهنا يتم الرمي العشوائي بدون هدف حيث يخرج الجندي إلى الصحراء ، ويرمي في الفضاء ، وينظر إلى مسيرة السهم فإن رآها ضعيفة مضطربة رجع إلى مدربه ليديره على الرمي منفردا وبعدها يتم التدريب على رمي السهم على الهدف .

جاء في مخطوطة الرمي للطبري عدة أبواب :

<sup>٧٥٨</sup> - القرمانى : أخبار الدول آثار الأول ص ١٧٧ . عدوان : العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي ، علم الكتب ، ط ١ ، الرياض ص ١١٧ - ١١٩ .

<sup>٧٥٩</sup> - البرجاس : هدف خشبي مكون من سبع قطع يركب بعضها فوق بعض حتى يوازي ارتفاعها رأس الفرس وينتهي هذا الهدف بحلقة من معدن فإذا دنا الفارس من البرجاس صوّب رمحه إلى الحلقة المعدنية بقصد إسقاطها عن قاعدتها .

<sup>٧٦٠</sup> - الرماح نجم الدين : الفروسية والمناصب الحربية ، ص ٢٩ .

<sup>٧٦١</sup> - البكلميشي : غنية الطلاب في معرفة الرمي بالنشاب ، ص ٣ .

<sup>٧٦٢</sup> - الأقسراي : نهاية السؤل والأمينية ، ص ٧٢-٧٣ .

<sup>٧٦٣</sup> - الأقسراي : ص ٧٨ .

- كيف تضرب الهدف بالنشاب

- صفة القبضة

- صفة القفلة – صفة إفلات السهم . وقالوا في الرمي ثلاث مسائل .

أولها الإنسان ، والثاني في القوس ، والثالث في السهم ، وهناك باب في أسرار الرمي في يوم الرمي . باب في الرمي على البعيد ، والقريب - باب رمي الحصون – باب الرمي من فوق الحصون<sup>٧٦٤</sup> ، وهناك الرمي من الصعود إلى الهبوط والعكس ، والرمي على الهدف الثابت والجندي متحرك يليها الهدف متحرك ، والجندي متحرك في الاتجاه المضاد<sup>٧٦٥</sup> ، وقد شرح صاحب مخطوطة (( الكمال في الفروسية )) كيفية التعلم على الرمي بالقوس ، والنشاب في مختلف الحالات سواء كان المقاتل راجلا ، أو فارسا<sup>٧٦٦</sup> ، ومن الأمراء الذين اشتهروا بحسن الرمي : الأمير بكتمر الظاهري السلاح دار ( ت ٧٠٣ هـ / ١٣٢٣ م ) ، فقد اشتهر هذا الرجل بحسن الرمي ، وكان يرمي على قوس زنته ستة وثلاثين رطلاً بالدمشقي ، أو خمسة وخمسون رطلاً في رواية أخرى<sup>٧٦٧</sup> .

ب- التدريب على استخدام الرمح : للرمح أهمية كبيرة في المعارك العسكرية حتى قيل : لا تحسن صفات الفارس وتتم إلا بالعمل بالرمح ، أو كما قيل : وهو من الفروسية كالرأس من البدن<sup>٧٦٨</sup> ، وتدريب الرمح كان يتم على طريقتين الأولى بدون استخدام الخيول أي الجندي الراجل وتبدأ بتعليمه على كيفية مسك الرمح ودخوله من تحت الإبط الأيمن على أن يكون الجندي معتدل القامة ويكون طرف أسنان الرمح في إبهامه اليسرى ويجعله على ساعده ثم يقوم بتنفيذ الحركات التي يعلمه إياها المدرب<sup>٧٦٩</sup> .

الطريقة الثانية : التدريب على استخدام الرمح أثناء ركوب الخيل وتبدأ عملية التدريب بتعليم الفارس مسك الرمح أقل من قامته وبسطه ويمسك عنان الفرس بشماله ، ويقصر العنان ويستند إلى الرمح ، وينهض للركوب ، فإذا ركب عمل على تسوية ركوبه على السرج<sup>٧٧٠</sup> .

وهكذا تتم إعادة الحركات حتى يتم إتقانه ، وقد ذكر ابن هذيل طريقة لتعليم ، أو تدريب الجندي على الرمح فقال : تعمل درينة وهي عود ، أو شيء قائم على الأرض قدر ارتفاع الفارس يشد في أعلاه حلقة ، أو حبلاً ملوياً يشبه الحلقة ، ثم يتباعد منه ، ويجري بفرسه تجاهه ، فإذا اقترب من الدرينة تأبط رمح ، وأخرج منه عن إبطه بقدر ما يخف عليه حملة وتحتمله قوته ، ثم يتوجه برمحه إلى الحلقة محاولاً إدخاله منها ، وربما احتاج أن يقلب رمحاً إلى خلفه ، أو أن يتجاوز هو الحلقة فعندها عليه أن يأخذ رمحاً لققاً من خلفها وربما كانت الحلقة تدور حيث أدارها ، ويداوم العمل على ذلك حتى يخف عليه العمل فلا يُخطئ الإصابة<sup>٧٧١</sup> . بعد ذلك يتم الانتقال إلى التدريب في الميدان على حركات القتال ، ويبدأ الجندي في تسيير فرسه أولاً في

<sup>٧٦٤</sup> - الطبري : الرمي بالنشاب ، مخطوط ، غير مرقم ( النص مأخوذ من كتاب العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي ، ص ١٢٠ )

<sup>٧٦٥</sup> - الأقسرائي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٨٦ .

<sup>٧٦٦</sup> - مؤلف مجهول : الكمال في الفروسية وأعمال السلاح ، ورقة ٧٩ .

<sup>٧٦٧</sup> - ابن حجر : الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ١٦ .

<sup>٧٦٨</sup> - ابن منكلي : التدبيرات السلطانية ، ورقة ١٢ - ١٣ و - ظ .

<sup>٧٦٩</sup> - عدوان : العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي ، ص ١٢١ .

<sup>٧٧٠</sup> - الطرابلسي : الفروسية برسم الجهاد ، ص ١٣ .

- الرماح الأحدث نجم الدين : الفروسية والمناصب الحربية ، ص ١١٥ . الطرابلسي : الفروسية برسم الجهاد ، ورقة ٢٢ .

ابن بكتوت : كامل الصناعة في الفروسية : مصدر متقدم ، ورقة ٨ - ٩ . مرلف مجهول : الكمال في الفروسية وأعمال السلاح ورقة ١٨ و .

<sup>٧٧١</sup> - ابن هذيل ( علي بن عبدالحمن الأندلسي ) : حلية الفرسان وشعار الشجعان ، تح محمد عبدالغني حسن ، دار المعارف ، القاهرة ١٣٧١ هـ / ١٩٥١ م ، ص ٢٣ .

الدائرة الواسعة ، ثم يتدرج إلى الدخول في الدوائر الضيقة ، وهذه العملية تحتاج من الفارس وفرسه إلى تدريب طويل ، و شاق كما يحتاج الفارس إلى فرس قوي ، ومطيع<sup>٧٧٢</sup> . بعد ذلك ينتقل المدرب إلى تعليمه طرق الفر والكر ، ومواجهة الخصوم والأقران ، وإبطال طعناتهم بعد تعلمه لطرق ، وشروط الطعن الصحيح ، والأماكن القاتلة وقد قال ابن لاجين : أن طرق الطعن أكثر من سبعين طريقة ، وقد فصل فيها تفصيلا كاملا معتمدا على خبرته ، وإحاطته ، وتمكنه من هذا العلم ، فإذا نظرنا إلى أي طريق من الطرق نراها مفصلة فيها كل ما يحتاج الفارس المتدرب ، وما عليه ألا أن يطبق تلك المعلومات حتى يخرج عالما بالرمح<sup>٧٧٣</sup> يدرّب في أكاديمية عسكرية ليشغل الحواس في إدراك تلك المعلومات ( التفكير والتخيل والرؤية إلى غير ذلك ) لدرجة أن الطاعن بالرمح بإمكانه التصويب إلى حد السيف ، وإصابته<sup>٧٧٤</sup> ، وقد شرح الحسامي الطرابلسي بأكثر من ثلاثين بابا طرق الطعن والتبطين بالرمح<sup>٧٧٥</sup> ، وقد شرح صاحب مخطوطة الكمال في الفروسية وأعمال السلاح في أبواب عديد أخذ الرمح من قبل الفارس راجلا ، وراكبا<sup>٧٧٦</sup> ، ومحمد بن بكتوت تحدث عن ذلك ووصف الرمح الذي يجب أن يتم التدريب عليه ، وكيفية ملاقاته الخصم ، وأنواع الملاقاة والتبطين وأكد أن ذلك علم من علوم الفروسية التي يجب تعلمها<sup>٧٧٧</sup> .

وقد كان جهاز التدريب على الرمح من الأجهزة العديدة التي اختصت بالتدريب ، فكان له رئيس وعنده مدربون اختصوا بالأبواب والبند<sup>٧٧٨</sup> .

### ج- التدريب على استخدام السيف :

السيف الذي يستخدم للتدريب هو غير السيف الذي يستخدم للقتال في الميدان ، فالسيف الذي يستخدم في التدريب ذا مقبض دقيق خفيف الوزن ، وعند بدء التدريب على استخدام السيف يعمل المدرب على بناء حائط من الطين ، ويأمر المتدرب أن يضرب هذا الحائط في أول يوم خمس وعشرين ضربة ، وفي اليوم الثاني خمسين ضربة مرة واحدة ، وهكذا وبالنسبة نفسها حتى يستطيع المتدرب أن يضرب ألف ضربة دفعة واحدة ، وبعدها تبدأ مرحلة أخرى وهي محاولة قطع اللباد مفرق ذلك الحائط ، فيقطع المبتدئ ذلك اللباد طبقة بعد الأخرى ويزداد عدد الطبقات من اللباد يوما بعد يوم حتى يصل عدد الطبقات إلى مئة طبقة ، وهو بكامل هيئة العمل الميداني .

فإذا أتم الجندي ذلك انتقل إلى مرحلة قطع الورق بالسيف على المخدة ، وذلك بأن يقوم الجندي بوضع ورقة على المخدة ، ويأخذ في ضربها ثم يأخذ عشرين طبقة من الورق ثم يأخذ صفيحة ، ويكسوها بهذا الورق ، ويأخذ في ضربها حتى تنقطع طباق الورق ، ويصل إلى الصفيحة ، فإذا أتم الجندي هذه المرحلة من التدريب انتقلوا إلى التدريب على استخدام السيف أثناء الركوب على الخيل .

وهنا يشرح المدرب الطريقة من خلال نصب عود من القصب الرطب ، أو أي عود رطب طول الفارس ، ثم يبتعد عنه ، ويجعل الفارس ذلك العود عن يمينه ، ثم يجري بفرسه بسرعة فإذا حاذى هذا العود ضرب بسيفه بشكل يوازي منكبه ، ويكرر ذلك عدة مرات حتى يبقى من

٧٧٢ - مؤلف مجهول : الكمال في الفروسية وأعمال السلاح ، ورقة ٣٠ .

٧٧٣ - عدوان : العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي : ص ١٢١ .

٧٧٤ - الطرابلسي : غاية المقصود ، ورقة ١٦ ظ .

٧٧٥ - ابن منكلي : الفروسية والمناصب الحربية ، ص ١٢٢ .

٧٧٥ - الطرابلسي : الفروسية برسم الجهاد ، ص ١٣ .

٧٧٦ - الكمال في الفروسية وأعمال السلاح : الورقة ٣١ - ٤١ و - ظ .

٧٧٧ - الكمال في الفروسية وأعمال السلاح : ورقة ١١ و .

٧٧٨ - وتر : معركة عين جالوت ، ص ٢٦٥ .

العود طول ذراع<sup>٧٧٩</sup> ، ثم يعيد الجندي التدريب نفسه ، فإذا أتقنه وضع خمس نشابات عن يساره ليضربها بسيفه ، ويكرر ذلك عدة مرات ، ثم يضع خمس نشابات عن يمينه ويقوم بطعنها بيمينه ، ويساره ، وأخيراً يشرح المدرب في تدريب الفرسان على العمل بالسيف بمفرده ثم يدرّبهم على طرق ، وأساليب استخدام السيف من الأسلحة الأخرى كيف يمسك السيف وأين يجب أن يضرب الخصم في أية مواقع من جسمه ، أو فرسه .

وكيف يمكنه أن ينقل السيف من اليمين إلى الشمال ، ومن الشمال إلى اليمين ، وهذا الطريقة للتدريب على السيف وفق شروط ، وحركات تدل على ضرورة خلق المهارة للوصول إلى تحقيق الهدف<sup>٧٨٠</sup> ، وهذا يدل على إتباع طرق ، وأساليب علمية في التدريب أشبه ما تكون بأساليب التدريب الحديثة ، فعملية التدرج من السهل إلى الصعب من أحدث طرق ، ووسائل التدريب الحديثة ، وتعليم الجندي كل ما يلزمه في الحرب ينطبق تماما على ما كان المماليك يمارسونه لتأمين المقاتل بالمهارات اللازمة للتغلب على الخصم .

#### د - التدريب على الرمي :

النجاح في التعامل مع القوس لا يتأتى إلا بالمعرفة العميقة بالقسي ، وبالمران المستمر والعمل الدؤوب فبغير هذان العاملين لا تتكون درجة من المهارة التي تتيح للرامي أن يشد الوتر بكامل قوته<sup>٧٨١</sup> ، ولا يكون ذلك إلا بمعرفة وجوه الرمي ، وما يجب أن يقوم به الرامي عند استخدام أي منها ، وما هي علل كل وجه من هذه الوجوه<sup>٧٨٢</sup> ، وكيفية التغلب على هذه العلل من خلال دراسته المفصلة لعتاده وكيفية عمل كل جزء من أجزائه ، وما يناسب الرامي طويل الجسم من القسي أو القصير ، أو متوسط الطول منها .

بعد ذلك يتم الانتقال إلى خطوة أخرى مهمة ، وهي تعليمه إيتار القسي ، وهي على عدة أوجه منهم من قال : أنها ثلاثين وجها ، وآخرين قالوا : أنها ستين وجها ، ومنهم من زعم أنها مائة وعشرون وجها<sup>٧٨٣</sup> . ويجب الانتباه لأنه لا يصح الإيتار إلا بستة خصال لا بد منها لمن أراد أن يدخل مدخل العلماء ، والرماة ، وهي : تقديم الرجل اليماني بعوج ، ووضع الدستار الأعلى على الركبة اليماني ، والدفع بالزند ، والسوق بالإبهام ، والسبابة ، واستواء المرفقين وتحريف الرأس إلى اليسار . عندها فقط يكون الإيتار صحيحاً ، بعدها يتم تعلم مسك القبضة ، وما يصلح لكل يد من أنواع القبضات بعددًا لكيفية النظر إلى الهدف ، أو بما يسمى اليوم التسديد ، ومن أراد الاستزادة في هذا الموضوع الرجوع إلى كتاب نهاية السؤل والأمنية في تعلم أعمال الفروسية<sup>٧٨٤</sup> ، ومع كل ذلك على الطالب المتعلم لهذا العلم دراسة تجارب من سبقه من أصحاب الخبرة لأن فيها من الفوائد الكثير ، فإذا ما شاهد الإنسان رامياً محترفاً يجد حركاته تبدو ناعمة متناسقة ، وبغير مجهود ، وهو ما يفترض بالفعل ، لكن هذا قد يعطي المشاهد انطباعاً خاطئاً ، لأن الجهد الكبير الذي تستلزمه عملية شد القوس تخفيه المهارة في العمل التي لا تتكون أبداً إلا نتيجة المران الطويل ، والشاق ، والتطلع الدائم إلى التعلم ، وأخذ الخبرات ممن يمتلكها .

هـ - في الحقيقة فإن هذا النوع من التدريب لم يهتم به قادة الجيش المملوكي إلا بعد معركة عين جالوت إذ كانت البحرية المملوكية قبل المعركة ضعيفة التدريب وفي زمن الظاهر بيبرس ،

<sup>٧٧٩</sup> - الكمال في الفروسية وأعمال السلاح : ورقة ٧٣ و .

<sup>٧٨٠</sup> - الأفرائي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٧٣ .

<sup>٧٨١</sup> - باترسن ( و ، ف ) : رماة الإسلام - دراسة في غنية الطلابي معرفة الرمي بالنشاب ، مانشستر ، منشورات جامعة مانشستر

د . ط ، د . ت ، ص ٢١ .

<sup>٧٨٢</sup> - الأفرائي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٧٠ .

<sup>٧٨٣</sup> - الأفرائي : ص ٧٤ .

<sup>٧٨٤</sup> - الأفرائي : ص ٦٦ - ٨٢ .

وبعد أن استلم القيادة اثر مقتل قطز اهتم اهتماما زائدا بتدريب ذلك السلاح ، وأولاه أهمية كبرى<sup>٧٨٥</sup> ، ولعل هذا الاهتمام من قبل هذا القائد أت من دافعين : الأول شعوره بضرورة تقوية هذا السلاح ، وتطويره بعد المعركة الفاصلة ( عين جالوت ) ، الثاني هو طموحه لان يسيطر على البحار ، وبخاصة البحر الأبيض المتوسط ، وليكون هناك توازنا مع القوة البرية ، وهناك أمر ثالث هو أن قبرص ، وقوتها البحرية كانت تشكل حاجسا للدولة المملوكية الناشئة إضافة إلى تهديدها المباشر لموانئ التجارة ، من أجل كل ذلك لابد من الإهتمام بالقوات البحرية ، وتدريبها تدريباً نوعياً .

إن التدريب كان يجري على شكل بيانات عملية في النيل يشهده المقاتلون ولاسيما القطع التي صنعت حديثا ، وللتأكد من كفاءتها كانت تجري تدريبات مختلفة عليها<sup>٧٨٦</sup> وفي بعض التمارين كانت تغرق بعض المراكب أثناء التدريب ، لذلك كان هناك سباحين يقومون بإنقاذ الغرقى ، أو الذين لم يدرّبوا على السباحة ، ومع ذلك فقد يموت غرقا بعض الجنود ، أو القادة<sup>٧٨٧</sup> لا يكتفي أثناء التمارين البحرية بالعرض ، والاستعراض إنما هناك مشروع تدريب بالرمي الحقيقي ، وبالمناورة كما لو كان ذلك في قتال حقيقي إذ تستخدم جميع الأسلحة البحرية التي تحتويها السفن القتالية<sup>٧٨٨</sup> ، وكانت الشواني ، والغريان من أهم المراكب التي يجري عليها التدريب ، وتختبر قدرتها ، ومناورتها ، وقوة رميها المدفعي ، والنفطي<sup>٧٨٩</sup> ومما يشار إليه أن الجيش المملوكي كان يجري تدريباً مشتركاً قبل العمليات الحربية التي ينوي القيام بها ، وهذه التمرينات كانت تجري في جو يشبه جو المعركة المتوقعة حيث يشترك السلطان ، وأتابك العساكر ، وجميع قادة التشكيلات ، والقطعات ، والوحدات العسكرية بلباس الميدان الكامل يبتدئ هذا النوع من التدريب بعرض الجيش أمام القائد الأعلى بعدها تتفرق الوحدات من جميع المستويات وينصب (القبو) ، ويتنافس الجنود ، وقادتهم بالرمي ، وجميع أنواع التمارين حتى إذا كان اليوم الثالث من المشروع انقسم الجيش بالكامل إلى كتلتين كتلة تمثل العدو ، وكتلة تمثل الصديق ، ويباشر الطعان ، وتصطدم الكتلتين ببعضهما ، ويتناوش الفرسان ، والرماة كما لو كانوا في أرض المعركة الحقيقية ، والقائد الأعلى يشاركهم ويعطيهم التوجيهات حتى إذا أنهى التدريب بعد ثلاثة أيام أنعم القائد الأعلى على الفائزين وعلى المبرزين في المشروع بإنعامات مختلفة مادية ، ومعنوية ، ثم أمر فجهز الطعام والحلوى ، فأكل القادة ، والجنود بعد هذا ما كان يفعله الظاهر ببيرس عندما تولى الحكم حيث أمر بتحريك الجيش بعد التمرين نحو بلاد الروم .

وكان هناك تدريبات كانت تجري أثناء العمليات الحربية بقصد شد الجندي إلى الانضباط وتذكيره بأنواع الرماية ، وأصول فن الحرب من خلال لعب الرمح وضرب السيف وحركات الفرسان . كما كانت تقام بيانات ، وعروض مختلفة أمام الوفود الأجنبية التي تحضر البلاد وأمام الرسل ، والسفراء بقصد إدخال الرعب في قلوب الأعداء ، والهيبة أمام المجتمع الدولي لكن كيف كان يتم كل ذلك ؟ وما هي الطرق ، والأساليب المستخدمة في العصر المملوكي الأول ؟ هذا ما سيتم بحثه في الفقرة التالية .

<sup>٧٨٥</sup> - مبارك ( علي ) : الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدتها وبلادها القديمة والشهيرة ، دار الكتب ، ط ١ ، القاهرة

١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ، ج ١ ، ص ٨١-٨٢ .

<sup>٧٨٦</sup> - المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٥١ .

<sup>٧٨٧</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٥٦ .

<sup>٧٨٨</sup> - ماهر : البحرية في مصر الإسلامية وكنوزها الباقية ، ص ٢٠٣ .

<sup>٧٨٩</sup> - ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٤٢ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ٨ ، ص ١٥٦ .

## ٨ - طرق وأساليب التدريب في العصر المملوكي الأول :

أما أساليب وطرق التعليم والتدريب التي كانت مستخدمة في العصر المملوكي الأول فهي التالية

أ - طريقة الإقناع : استخدمت هذه الطريقة كأساس لا بدّ منه لتعديل سلوك المقاتل عبر خلق دوافع ذاتية عند المتدرب لانجاز ما يرغب به المدرب من القيام بأعمال سواء في الميدان ، أو غير ذلك . قال أحد المشتغلين بفنون الفروسية : (( الترغيب في الشيء وذكر فضله حامل على محبته والاشتغال بفعله ، وتوفير الدواعي ، والبواعث على طلبه والاهتمام به ))<sup>٧٩٠</sup> . كان يتم إقناع المتدربين بما يرغبه المدرب بثلاثة أساليب هي :

الأول - بالأقوال ، وذلك عن طريق التحدث مثلاً عن أهمية الجهاد ، وما أعدّه الله للمجاهدين من فضل ، وخير ، وتهوين أمور التعليم ، وأنّ كل شيء في بدايته صعب ، وأن التعليم يأتي بالتدرج . قال **تعالى** عز وجل : (( .. والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ))<sup>٧٩١</sup>

قال الحسامي الطرابلسي : (( .. وما جاء أحد من بطن أمه مُعَلَّم ))<sup>٧٩٢</sup> .

لذلك جعل الكثير من الأساتذة في الفنون الحربية المعارف شرطاً لازماً لمن يطلب تلك الفنون وبغير المعرفة ، وإتقانها لا ينال كائنًا من كان هذا الشرف<sup>٧٩٣</sup> .

الأسلوب الثاني : بالأفعال أي التدريب العملي ، وهذا الأسلوب يُشرك فيه المدرب أكثر من حاسة لإيصال المعلومة ، فعلى سبيل المثال قال الأقسراي وهو يتحدث عن استخدام الرمح : (( لا بدّ للعامل بالرمح من ابتداء للوصول إلى هذا المقام ... ، وحتى تستقيم بذلك أعضائه وتتعلم على العمل به ... ، وإن لم يفعل ذلك كان عند أخذ الرمح كحامل خشبة ... لذلك فالمتدرب يحتاج إلى علم العمل بالرمح ))<sup>٧٩٤</sup> .

الأسلوب الثالث : بالقول والعمل معاً ، وهو أفضل الأساليب وأنجعها ، وأقصرها للوصول إلى الهدف المرسوم من قبل المدرب . كيف لا يكون ذلك والسيوف والقلم عُدتّي العمل والقول وعُمدتّي الدول ، فإن عدمتهما دولة فلا حول<sup>٧٩٥</sup> ، فالسيوف للعمل وتنفيذ ماخطه رجال الفكر ومن أجل ذلك يجب أن يكون القائد جندياً واسع الثقافة كثير الخبرة ماهراً في القول ، والعمل وعندما تتوفر فيه تلك الصفات يكون مقنعاً لمن هم في أمرته قال الحسامي الطرابلسي : (( لا تخرجنّ لأحد حتى تتيقن أنك تقهره إمّا بجودة فرسك ] ولا يكون ذلك إلا بمعرفة أنواع الخيول وصفاتها وطرق تربيها والعناية بها [ ، وإمّا بجودة سلاحك ] ولا يكون ذلك إلا بمعرفة أنواع الأسلحة وميزاتها وصفاتها وقدراتها ... ] ، أو بفضل عمالك<sup>٧٩٦</sup> . [ والمقصود هنا بفضل العمل هو التدريب والجهود المبذولة للارتقاء بمستوى الفارس إلى المستوى اللائق بالفروسية ] .

<sup>٧٩٠</sup> - مؤلف مجهول : السبق والرمي وأسلحة المجاهدين ، عن مجلة المورد ، العدد الخاص ، ص ٣٩١ .

<sup>٧٩١</sup> - سورة النحل : آية ٨٧ .

<sup>٧٩٢</sup> - ابن لاجين : الفروسية برسم الجهاد ، ص ١٥ .

<sup>٧٩٣</sup> - الأقسراي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٧٠ .

<sup>٧٩٤</sup> - الأقسراي : ص ٩٩ .

<sup>٧٩٥</sup> - ابن لاجين ( : الفروسية برسم الجهاد ، ص ٣٧ .

<sup>٧٩٦</sup> - ابن الوردي : رسالة السيوف والقلم ، عن مجلة المورد ، م ٢ ، العدد ٤ ، عدد خاص عن التراث العسكري ، ص ١١٨ .

وكان الأستاذ يقوم في نهاية التدريب بشكر تلاميذه ، ويشجعهم ليزدادوا رغبة ، فيكون بذلك قد رؤّضهم ، وألف بينهم ، وحرّضهم على العمل ، ولا يوبخهم إلا في خلوة ليجتهدوا في الطلب ويكثرُوا من احترام مكان التدريب وزمنه<sup>٧٩٧</sup> .

ب - التمرين والتمرن :

وهي طريقة أخرى للتدريب استخدمها المماليك ، لكن ما الفرق بين التمرين ، والتمرن ؟  
التمرين هو إعادة الحركة المراد إتقانها أكثر من مرة من قبل المتدرب ، وبمساعدة المدرب أما التمرن فهو ترك المتدرب يقوم بإعادة الحركة ، والتدرب عليها لوحده من أجل إتقانها .  
والتمرين كما قال الأقسرائي : ضرورة لمن يريد أن يتقن سلاحه ، ويكون جاهزا للعمل عليه فمن يريد أن يكون رامحا لا بد من أن يتمرن لتكون أعضائه جاهزة في الدخول ، والخروج مع الفرسان ، والانعطاف عندما يتطلب ذلك ، والكسرات يمنة ، ويسرة اقبالا ، وإدباراً ، ويعلم مقامه مع مقدمه ، ومقام غيره إلى غير ذلك ، فيصير بصيراً<sup>٧٩٨</sup> ، ومن أجل تحقيق ذلك يجب على المدرب أن يقوم بمساعدة المتدرب على الوصول إلى إتقان العمل على السلاح ، وإرشاد المتدرب على تسلسل العمل وصولاً للإتقان الكامل له . فعلى سبيل المثال كان الأستاذ عندما يبدأ في تعليم الرمي يأخذ قوسين لئنين ويعطي أحدهما إلى المتدرب ، ويكون الثاني معه ويبدأ أولاً تعليمه كيف يقبض ، وكيف يمد الأصابع الثلاثة حتى يكون قبضه صحيح ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى نقاط أخرى ، وبالتسلسل حيث يعقد على الوتر من غير سهم ، ويشد أصابعه عليه ثم يطلق الوتر فارغاً ، ويتدرب على ذلك أياما حتى يصح إطلاقه ، ثم ينتقل إلى تعليمه على العقد مع السهم وكيفية إطلاقه من القوس . بعد ذلك يتم تعليمه التفويق والإحكام في الرمي وذلك بالتدرج<sup>٧٩٩</sup> ، وهذا يحتاج إلى صبر وتمارين مستمر . لذلك قال البكلميشي (( .. واصبر على الإدمان يا حكيم - فكل صعب هان بالإدمان ))<sup>٨٠٠</sup> . [ والمقصود بالإدمان هو تكرار أداء الحركة ، أو التدريب المستمر ، أو ملازمة الرمي ] .

أما التمرن فهو أن يقوم المتدرب نفسه بالعمل بعيداً عن المدرب بعد أن أعطاه ، أو علّمه المبدأ في العمل يذهب بعيداً ، ويدرب نفسه ليصل إلى المهارة في أداء الحركة ( الرمي مثلاً ) فكثيراً ما كان يخرج الرامي إلى الصحراء ، ويتدرب على الرمي في الفضاء على غير علامة ( دون دريئة أو هدف ) فإذا رأى سهامه صحيحة مستوية غير مضطربة رجع إلى الأستاذ ليعلمه الرمي على علامة ، أو هدف<sup>٨٠١</sup> .

ج - طريقة المكافأة :

المكافأة هي اعتراف من القائد بالجدارة وتكريم منه لمروسيه ولها نتائج كبيرة في نفوس المتدربين من أهمها :

<sup>٧٩٧</sup> - البكلميشي : بغية المرام وغاية الغرام في الرمي بالنشاب ، ص ٧١ .

<sup>٧٩٨</sup> - الأقسرائي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ١٩١ .

<sup>٧٩٩</sup> - البكلميشي : بغية المرام وغاية الغرام في الرمي بالنشاب ، ص ٨٧-٨٨ .

<sup>٨٠٠</sup> - البكلميشي : ص ٣٠ . البيت من بحر الرجز .

<sup>٨٠١</sup> - ابن القيم ( محمد بن ابي بكر الذري ) : الفروسية ، تح السيد عزت العطار ، دار الأنوار ، القاهرة ، ١٣٦٠هـ / ١٩٤١ م ، ص ١٠٧-١٠٨ .



تنمية روح المنافسة بين الجنود .

تشجيع المتدربين الضعفاء وتحفيزهم على اللحاق بركب المتفوقين .

وللمكافأة نتائج عامة من أهمها : الارتقاء بالعملية التدريبية إلى مستويات أفضل ، وبالتدريج لذلك اهتم سلاطين المماليك بهذه الطريقة في التدريب بشكل ملحوظ ، وكانوا يشجعون ويحرضون على بذل الجهود ، وتحسين المستوى . قال المقرئزي : (( .. وأخذ السلطان يحرض الناس على الرمي ، والرهان ، فما بقي أمير ولا مملوك إلا وهذا شغله تحريض الناس على لعب الرمح ورمي النشاب ))<sup>٨٠٢</sup> .

ولم تقف الأمور عند حدود التحريض والتشجيع بل تعداه إلى المكافأة المادية ، ففي سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٧م (( أنعم السلطان الظاهر بيبرس على كل من أصاب من الأمراء بفرس من الجنائب الخاص بسرجه ، ولجامه ، وبتشاهيره ، وأنعم على كل من أصاب القبق من المماليك والأجناد بخلع ))<sup>٨٠٣</sup> .

وقد وصف ابن تغري بردي تطور اللعب بالرمح ، وغيره من الفنون ، والملاعب ، والعلوم وقال : أن ذلك جاء بشكل متدرج (( إن مبدأ كل أمر ليس كنهائته ))<sup>٨٠٤</sup> إنما اجتهد المعلمون في ذلك حتى وصل هذا الفن إلى ما وصل إليه من تطور ، وأوعز ابن تغري بردي أن هذا التطور والارتقاء ما كان لولا تشجيع الأمراء ، ولمحبة الملوك وتعظيمهم لهذا الفن<sup>٨٠٥</sup> .

## ٩ - صفات التدريب في العصر المملوكي الأول :

التدريب هو المقدمة الأولى والصحيحة لخوض العمليات الحربية الناجحة . لأن استخدام الأسلحة بشروطها الفنية والتعبوية يحتاج إلى تدريب ، وإن خوض التكتيكات الناجحة يحتاج إلى تدريب ، وإن تنظيم المعارك يحتاج إلى تدريب ، وإن الالتزام بالتعليمات والأوامر وتطبيقها في الأوقات المحددة يحتاج إلى تدريب ، وإن ضبط السلوك للفرد والجماعة يحتاج إلى تدريب ، وتعاون الوحدات والتشكيلات لتنفيذ المهام يحتاج إلى تدريب . لذلك كله اهتمت الدولة المملوكية الأولى بتدريب جيوشها ، واعتبرت التدريب هو المعادل الطبيعي لجاهزية هذه الجيوش وقدرتها على تحقيق النصر ، وقد تمّ الحديث عن أهمية التدريب وصفات المدرب والمتدرب وأنواع التدريب ، ومن الضروري الآن الإجابة عن سؤال هو : ما هي الصفات الأساسية للتدريب في العصر المملوكي الأول ؟

من الصفات الأساسية للتدريب في العصر المملوكي الأول :

أ - التلازم بين التدريب العقائدي والقتالي : وقد تمّ **التعرض لذلك** أثناء دراسة التعليم والتدريب في الطباقي حيث تعليم القرآن والفقاه والقراءات وأصول العقيدة ونظرة الإسلام إلى الجهاد وفضائله للوصول إلى بنية نفسية متوازنة تعوض المملوك ما افتقده نتيجة لفقدان

<sup>٨٠٢</sup> - السلطان هو الظاهر بيبرس البندقداري وكان ذلك سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٩م . المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٥ .

<sup>٨٠٣</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

<sup>٨٠٤</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٦٣ .

<sup>٨٠٥</sup> - ابن تغري بردي : ج ٧ ، ص ٢٦٤ .

تربية الأهل له ، وتجعله قادراً على الانسجام التام مع الآخرين لذلك كان المماليك يختارون لهذه المهمة أفضل المدربين مثل ابن الشحنة<sup>٨٠٦</sup> ، وابن حجر العسقلاني<sup>٨٠٧</sup> ، والقلقشندي<sup>٨٠٨</sup> ، وبيبرس المنصوري<sup>٨٠٩</sup> وغيرهم . حيث كان يتم توظيف الثقافة الدينية للإعداد العسكري ، وذلك بتذكير المتدرب بما أعدّه الله للمجاهدين من نعيم<sup>٨١٠</sup> ، وبعد أن يتمكن المتدرب من أمور العقيدة يبدأ التعليم العسكري . أي كيف يكون مقاتلاً عقائدياً قوياً قادراً ، وذلك بتدريبه على مختلف أنواع الأسلحة ، وفنون القتال في الميدان ليتخرج من بعد ذلك مقاتلاً راسخ العقيدة متمكن في الميدان<sup>٨١١</sup> ، لأن للحرب لوازم لا بدّ للمتصف بالشجاعة منها<sup>٨١٢</sup> ، وجوازم لا يستغنى عنها ، فالمعرفة سواء كانت ثقافة عامّة تنمي الروح ، أو إدراك يعمق بناء الشخصية ، أو خبرة في الإقبال ، والإدبار ، والإيراد والإصدار ، والكر والفر والتصويب بالسنان ، والإقدام والإحجام . كل ذلك ينصهر في بوتقة الفارس المقاتل الذي يراد إعداده ليوم النصر . لأنه وكما قال ابن منكلي : (( ... الزناد الواري أقتبس من الفيض الإلهي نوراً يتلألأ بكل برق ساطع على كل ذي يقظة متبصر ))<sup>٨١٣</sup> ، وانطلاقاً من هذا الفهم عند السلاطين ، والأمراء والقادة جعلوا التلازم بين التدريب العقائدي والقتالي حقيقة واقعة كل منهما يكمل الآخر لبناء شخصية المقاتل .

-الشمولية في التدريب :

قد يأخذ هذا العنوان عدة اتجاهات منها :

- أن يشمل التدريب التشكيلات والوحدات العسكرية في مصر وفي الولايات وصولاً إلى الفرد المقاتل فارساً أم راجلاً وصولاً إلى كل الاختصاصات .
- أن يشمل التدريب القوات البرية والبحرية باختصاصاتها المختلفة والمتنوعة<sup>٨١٤</sup> .
- أن يشمل التدريب علم البنود وعلم الميادين ، والمقصود بعلم البنود هو الابتداء بالأمور النظرية وتعلمها حسب ما جاء عند الكثير ممن برعوا في فنون الحرب فيقال على سبيل المثال هناك عدّة بنود لتعلم كيفية الضرب بالسيف نبدأ ببند فلان ويكون عادة هذا الفلان هو من الأساتذة في هذا الفن<sup>٨١٥</sup> ، وبعد الاطلاع على هذه العلوم النظرية يتم الانتقال إلى علوم

<sup>٨٠٦</sup> - ابن الشحنة : هو محب الدين محمد ، ت ٨٨٥ هـ / ٤١٢ م ، من آثاره روضة المناظر فب أخبار الأوائل والأواخر .

<sup>٨٠٧</sup> - ابن حجر العسقلاني ، ت سنة ٨٥٢ هـ / ٤٤٨ م وهو قاضي القضاة شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن محمود بن أحمد العسقلاني الأصل ثم المصري المولد والنشأة القاهري الدار ويعرف بابن حجر وهو لقب لبعض آبائه . ترك آثاراً مهمة منها : انباء الغمر في أبناء العصر ، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة . الضوء اللامع : ج ٢ ، ص ٣٦ .

<sup>٨٠٨</sup> - القلقشندي : هو القاضي شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندي نسبة إلى قرية قلقشندة وهي إحدى قرى قليوب ، ت سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ .

<sup>٨٠٩</sup> - بيبرس بن عبد الله المنصوري الخطائي - ٧٢٥ هـ / ٣٢٤ م ، الأمير ركن الدين ، أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون اشتراه ورباه مع أولاده ثم ترقى إلى أن تولى الداودية . ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٣ ، ص ٤٧٧ - ٤٧٨ .

<sup>٨١٠</sup> - الأقسرائي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٦٦ - ٦٨ .

<sup>٨١١</sup> - مؤلف مجهول : السبق والرمي وأسلحة المجاهدين ، تح عيد ضيف العبادي ، بغداد ، مجلة المورد ، م ١٢ ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٣٨٩ . ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٣٧١ . السلوك : ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٥١٨ .

<sup>٥٢٤</sup> - المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٤٨٩ .

<sup>٨١٢</sup> - الطرابلسي : تحفة المجاهدين في العمل بالميادين ، مخطوطة ، ورقة رقم ٢ .

<sup>٨١٣</sup> - ابن منكلي : التدبيرات السلطانية ، ص ٣٢٥ .

<sup>٨١٤</sup> - المقرئزي : السلوك : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١٨ .

<sup>٨١٥</sup> - الأقسرائي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ١٠١ .

الميدان لتتمرن أعضائه على الدخول والخروج مع الفرسان ( أي يتم البدء بالتطبيق العملي لما تعلمه من علوم نظرية ) في الميدان<sup>٨١٦</sup> .

- الشمولية أيضاً تعني الفارس والفرس ، فالخيل على ما كان لها من أهمية في حسم المعارك كان لا بدّ من ما كان يسمّى تأديب الخيل ، أو تدريبها على مختلف أنواع المعارك والحالات التي قد تتعرض لها في ميادين القتال ( ... عبور الأنهار ، عبور المناطق الموحلة ، والوعرة ، والجبلية ، تعويدها على الأصوات والضجيج والجلبة .. ) فأداب الخيل لا تُحصى وتحتاج إلى تأديب كثير وتعليم<sup>٨١٧</sup> . ويتعلق ذلك بعبوبها وهي كثيرة لكنها تداوى ليصلح ركوبها ولها ذنوب يؤدب كل واحد منها بوجه من الآداب يستقيم به ولها أخلاق منكرة تحيد بها عن الاستعداد للقاء لم تكن تعرفه من قبل ذلك من ضرب الطبول والكوسات والصياح والنداء وحلقة العسكر وأمثال ذلك حتى أنّ ركبها لا يمكنه أن يمسك نفسه عليها إلا بالجهد فكيف يحارب عليها ، فهذه العيوب التي ذكرت يمكن إصلاحها بالتدريب على مثل ذلك قبل اللقاء<sup>٨١٨</sup> .

- كما تعني الشمولية في التدريب تنفيذه في كل الأوقات في الليل والنهار وفي كل الفصول ، وفي مختلف أنواع الطقس كي يكون الجندي مستعداً لخوض المعارك إذا فرضت في أي وقت وفي أي فصل<sup>٨١٩</sup> .

- كما تعني الشمولية أيضاً التدريب على مختلف أنواع الأسلحة المستخدمة في القتال بالإضافة إلى التدريبات التي تؤدي إلى المحافظة على اللياقة البدنية وترفع القدرة القتالية للمقاتلين<sup>٨٢٠</sup> .

### ج – الاستمرارية في التدريب :

لماذا الاستمرارية في التدريب ؟ وهل كان التدريب مستمراً في العصر المملوكي الأول ؟ باعتبار أنّ الصفة العامة للدولة المملوكية الأولى أنها دولة حرب وقتال اقتضى ذلك أن تكون قواتها المسلحة في جاهزية قتالية دائمة ، وهذه الجاهزية لا يمكن أن تتحقق أبداً دون الاستمرارية في التدريب ، فالمقاتل نفسه يجب أن يحافظ على لياقته البدنية العالية كي يكون جاهزاً لخوض الأعمال القتالية بفاعلية ونجاح ، وهذا ما كان القادة في ذلك العصر يسعون إليه من خلال تشجيع الألعاب التي كانت تمارس على كل المستويات بالإضافة إلى التدريبات ، والعروض ، والمشاريع ، وغير ذلك من أنواع التدريب .

قال ابن منكلي : « من لوازم الجندي المواظبة على الرياضات مع تنوع الآلات ، ولا بأس أثناء تنفيذها أن يكون الجندي بلباس الحرب »<sup>٨٢١</sup> .

ثم إنّ العلوم العسكرية تتطور باستمرار نتيجة التطور العام للعلوم ، ونتيجة الحاجة التي تفرض نفسها بناء على ذلك التطور تخلق مسائل جديدة لا بدّ لها من حلول ، والأمثلة على

<sup>٨١٦</sup> - الأفسرائي : ص ١٩١ .

<sup>٨١٧</sup> - ابن منكلي : التدبيرات السلطانية ، ص ٣٥٧ - ٣٦١ .

<sup>٨١٨</sup> - الأفسرائي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ١٧٨ - ١٧٩ .

<sup>٨١٩</sup> - المقريزي : المواعظ والإعتبار ، ج ٣ ، ص ١٩ .

<sup>٨٢٠</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٢٨ .

<sup>٨٢١</sup> - ابن منكلي : التدبيرات السلطانية ، ص ٣٦٧ .

ذلك كثيرة منها : خلال التدريبات التي تنفذ يسجل القادة المدربون مجموعة من السلبيات ، والملاحظات التي لابدّ من تلافيها ، أو التخلص منها ، أو إيجاد الحلول المناسبة لها ومنها خلال المعارك في الميدان تظهر الكثير من السلبيات في الإعداد ، أو في التنفيذ فعلى سبيل المثال في معركة الخزندار عندما اكتشفت طلائع الجيوش المملوكية قوات المغول أمر غازان أن تبقى قواته في أماكنها بينما اتخذ القائد المملوكي قراره بعد أن قدر أنّ قواته ستلتقي مع قوات العدو في مكان محدد معتبراً أن القوتين تتحركان بالسرعة المعروفة ( قرر ) إشعال النفط ، وكان قراراً خاطئاً لأن النفط انطفاً قبل وصول القوات التي كانت إحداها تتحرك ، والأخرى ثابتة ، فعانت القوات المملوكية نتيجة هذا القرار الخاطئ ، ولم تستفد من هذا السلاح الفعال والمعولّ عليه كثيراً ، وكان سبباً من أسباب خسارة تلك المعركة ، أو من خلال تفوق العدو في الأعداد ، والتسليح والتدريب ، أو التعرض لحالات قتالية دفاعية ، أو هجومية لم تلاحظ من قبل ، وعلى سبيل المثال أيضاً ، وفي معركة الخزندار ذاتها ، وعندما اكتشفت طلائع الجيوش المملوكية قوات المغول أمر القائد المملوكي جنوده برمي الرماح ، والقتال بالسيوف مما حرم قواته من سلاح آخر بعد سلاح النيران ، وكان ذلك القرار خاطئاً أيضاً عانى الجيش المملوكي من خلال نتائجه الكثير .

أو تطور في أساليب القتال لم ير مثله في الميادين سابقاً ، أو خلل ما في التنظيم والإعداد . كل ذلك يفرض على القادة رحلة جديدة من الإعداد ، والتدريب ، والتسليح لتلافي تلك الحالات ، والتغلب عليها ، فالتعليم المستمر ، والتدريب الدائم هو : الكفيل بتدارك الأخطاء ، وتلافي الاختلال ، والارتقاء بجاهزية الجندي المقاتل ، والوحدة المقاتلة إلى المستوى اللائق .

#### د - التخصص في التدريب :

عندما تتنوع الأسلحة وتتوزع بين دفاعية وهجومية ، وبين أسلحة خفيفة وأسلحة ثقيلة ، وفردية وجماعية يصبح من الضروري التخصص في التدريب لاستيعاب هذا التنوع وبالتالي لكل سلاح مدرب ، وأحياناً للسلاح الواحد أكثر من مدرب ، وخاصة في الأسلحة الجماعية مثل المنجنيقات والمدافع .

والمتتبع لتاريخ العصر المملوكي الأول يلاحظ ذلك من خلال التفصيل في تعلم العمل على هذه الأسلحة وانطلاقاً من القاعدة التي لا بدّ منها كما قال محمد بن منكلي : (( يجب أن يكون الجندي يعلم كيف يقاتل بسلاحه ))<sup>٨٢٢</sup> ، وهذا العلم له مقوماته ، وأسسها ، وطرائقه التي لا بدّ من إتباعها للوصول إلى معرفة السلاح ، والخبرة في القتال به .

لذلك ذكر محمد بن منكلي باباً كاملاً في السيوف وأنواعها وكيفية تطبيقها بالحمائل وكيفية سلّ السيوف ، وإغمارها وذكر في ذلك طرائق عدة بالإضافة إلى كيفية القتال فيه وتعليم المبتدئين ذلك<sup>٨٢٣</sup> .

<sup>٨٢٢</sup> - ابن منكلي : التدبيرات السلطانية ، ص ٣٤١ .  
<sup>٨٢٣</sup> - ابن منكلي : الحيل في الحروب ، ص ٢١ - ٤٦ .

وأفرد الطرابلسي معظم مخطوطته (( الفروسية برسم الجهاد وما أعده الله للمجاهدين من العباد )) لتعليم الفروسية ابتداءً من تعليم الفارس كيفية الركوب على الفرس إلى الركوب والنزول بسلاح وبدون سلاح وصولاً إلى تعليمه أنواع الرماية وهو على ظهر الفرس<sup>٨٢٤</sup> والنشاب اختص به قادة عسكريون عرفوا به فهم يقومون بتدريبه للمبتدئين وصولاً لتعليمه للفرسان ورميه من على ظهر الفرس ، وأفوا بذلك الكتب التي شرحت ذلك بالتفصيل ، وأظهرت قواعد رمايته ، وأصوله وأجزائه التي يتألف منها وعمل كل جزء واستخدامه في الميدان<sup>٨٢٥</sup> .

وكذلك الرمح ، والمنجنيق ، وبقية الأسلحة كان لكل منها مدربيه ومعلميه ، وكتب عن كل منها كتب تحدثت عن تفاصيلها ، واستعمالاتها وكيفية تعليمها والتدريب عليها<sup>٨٢٦</sup> .

ولهذا التخصص مزايا عديدة منها :

- زيادة المعرفة والخبرة والمهارة في العمل على السلاح المدروس .
- اكتساب المتدربين الدقة في العمل والسرعة في أداء الحركات واستعمال السلاح المدروس .
- خلق القدرة عند المتدربين لاكتشاف الخلل أو العطل في السلاح لمجرد النظر إليه ، أو بعد الرمية الأولى .
- اكتساب القدرة على إجراء بعض التصحيحات ، وإجراء بعض الإصلاحات المطلوبة نتيجة ما اكتسب من معرفة وخبرة في العمل عليه ومعرفة جميع أجزاءه .
- اكتساب الثقة بقدرة السلاح أو العتاد المدروس وإمكانياته .
- إكساب المدربين الثقة بقدرة المتدربين ومهاراتهم في استخدام السلاح .

وكان أهم العلماء الذين تخصصوا بالأسلحة والقتال هو الرماح نجم الدين حسن للرمح وطبيغا الأشرفي للنشاب ، والزردكاش للمناجنيق وغيرهم ، ومما يلفت النظر أن هؤلاء العسكريين كانوا على قدر كبير من العلم ، والمعرفة بأسلحتهم وطرق قتالها<sup>٨٢٧</sup> .

هـ - الانتقال في تناول المعارف واكتساب الخبرات من الأسهل إلى الأصعب :-

إن سير التدريب عبارة عن سلسلة متكاملة متعاقبة ، وإنّ حلقات هذه السلسلة هي الدروس بما فيها من مسائل دراسية محددة لكل موضوع يتم التدريب عليه . قال السبكي : (( وحق عليه [ المدرس - المدرب ] أن يحسن إلقاء الدرس وتفهمه للحاضرين ، ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقي عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات بل يدرّبهم ويأخذهم بالأهون بالأهون إلى أن ينتهوا إلى درجة التحقيق ))<sup>٨٢٨</sup> .

<sup>٨٢٤</sup> - الطرابلسي : الفروسية برسم الجهاد ، ص ١٣ - ٣١ .

<sup>٨٢٥</sup> - البيكلميشي ( طبيغا ) : رمي النشاب ، مخطوطة موجودة في المكتبة الوقفية بحلب تحت رقم ٨٠٢ خاص ، نسخ محمد عبد الرحيم التلواني سنة ٨٠٥هـ / ١٤٢٨م ، ص ٧-١٥ .

<sup>٨٢٦</sup> - الزردكاش : الأنبيق في المنجنيق ، ص ٨ ، ص ١٦ ، ص ٢٤ ، ص ١٠٣ .  
الطرسوسي : تبصرة أرباب الألباب ، ص ١٦٣ .

<sup>٨٢٧</sup> - وتر : معركة عين جالوت ، ص ٢٥٣ .

<sup>٨٢٨</sup> - السبكي ( تاج الدين عبد الوهاب ، ت ٧٧١هـ / ١٣٧٠م ) : معبد النعم ومبيد النقم ، مؤسسة الكتب الثقافية ، ط ١ ، بيروت

لذلك كان يخطط للتدريب بحيث تعطى المعارف والمعلومات وتكتسب الخبرات وفق تسلسل منطقي سليم يؤمن إدخال المتدرب في المسألة السهلة قبل المسألة الصعبة فعلى سبيل المثال قبل أن يتعلم الجندي القتال بالسيف عليه أن يعرف أولاً أنواع السيوف وميزات كل نوع وكيف يعلق السيف وكيف يسدل وكيف يغمد ومن ثم يتم الانطلاق بعد كل تلك المعارف إلى التعلم كيفية الضرب بالسيف راجلاً ، ومن ثم فارساً ومن بعدها يتم تعلم القتال بسيفين وهكذا .

بعد هذا الاستعراض للمسألة التدريبية في العصر المملوكي الأول يتضح أن هذه المسألة استحوذت على قدر كبير من اهتمام القادة والمسؤولين في ذلك العصر ، حيث تم التركيز فيها على ثلاث مسائل هي : المدرب – المتدرب – مادة التدريب والوسائل المساعدة . وهذا يماثل ويحاكي ما توصلت إليه أحدث النظريات العلمية في تدريب الجيوش الحديثة وكان الجيش في الدولة المملوكية الأولى كان جيشاً محترفاً بمعنى الكلمة .

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤالاً على قدر كبير من الأهمية هو : هل كان اللباس موحداً في هذا الجيش ؟

قال ابن شاهين عن ملابس القتال ، أو ما يعرف باسم الهيئة الميدانية : إذا دعي الجنود إلى القتال لبسوا ملابس الحرب وهي بخلاف الملابس العادية التي كانوا يلبسونها في الأوقات العادية مثل الخدمة والاستعراض وخلاف ذلك<sup>٨٢٩</sup> . كما اختلفت ملابس الأمراء عن ملابس الجنود ، ونبدأ بلباس الرأس الذي حافظ المماليك عليه من أيام الأيوبيين وهو الكلوتة<sup>٨٣٠</sup> الصفراء ، وكذلك الكليبندات وهو لباس للرقبة تشد الكلوتة التي فوق الشعر وتمنعها من السقوط ، أو الحركة ، وظل ذلك متبعاً حتى أيام الناصر محمد بن قلاوون وقد أخذت طريقة لبس الكلوتة أشكالاً مختلفة كما كان لونها يتغير حسب ما يراه السلطان ، ففي أيام السلطان قلاوون أضيف لبس الشاش<sup>٨٣١</sup> ، وفي أيام ابنه خليل تغير لون الكلوتات من الصفرة إلى الحمرة ، وأصبحت العمائم تلبس فوقها ، وفي أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون استحدثت العمائم الناصرية ، وكانت عمائم صغيرة حتى لا تعيق الجندي أثناء القتال وبطل تطوير الشعر حينما حلق الناصر محمد رأسه فقام الأمراء والجنود بتقليده<sup>٨٣٢</sup> ، وفي أيام الأشرف شعبان صارت الكلوتة والمنديل الذي يلف حولها أكبر حجماً سميت في ذلك الحين طرخانية<sup>٨٣٣</sup> ، وذلك للتمييز بينها وبين الموضة القديمة من الكلوتة الصغيرة التي كانت تسمى الناصرية<sup>٨٣٤</sup> .

كما ظهر أيضاً في العصر المملوكي لباس آخر للرأس عرف باسم الشربوش وكانت له المكانة الأولى إذ اعتبر بصفة خاصة الطابع المميز لطبقة الأمراء ، وقد وصفه المقرئ بقول أنه

١٤٠٧ هـ / ١٩٨٦ م ، ص ١٠٥ .

<sup>٨٢٩</sup> - ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ٤٠ .

<sup>٨٣٠</sup> - الكلوتة : هي طاقية صغيرة من الصوف مخلوطة بالقطن . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٣ . المقرئ :

المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٩٨ . ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ، ص ١٨٨ .

<sup>٨٣١</sup> - المقرئ : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٩٨ .

<sup>٨٣٢</sup> - ماير : الملابس المملوكية ، ص ٥٣ .

<sup>٨٣٣</sup> - المقرئ : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٧ . ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٢٠ .

<sup>٨٣٤</sup> - ابن إياس : ج ٤ ، ص ١٠٠ .

يشبه التاج ، وكان له شكل مثلث يوضع على الرأس بدون عمامة ، وكان يعطى عندما يمنح المملوك رتبة فارس ، وقد أبطل لبسه أيام السلاطين الشراكسة<sup>٨٣٥</sup> .

أما لباس الجسم معظمه الأقبية التتيرية ، وكانت خفيفة الأكمام ن ومصنوعة من مختلف أنواع الأقمشة<sup>٨٣٦</sup> ، ويذكر ابن شاهين عن زيهم أنه اختلف من طائفة إلى أخرى حتى بلغ المائة وذلك على عكس ما يقال : كان لبس سلطانهم أو أميرهم أو خدمهم واحد<sup>٨٣٧</sup> ، ويذكر القلقشندي : أن زي الأمراء ، أو العسكر اختلف في دولة المماليك<sup>٨٣٨</sup> ، وإن كان يبدو أن زيهم قد بدأ يأخذ شكلاً متجانساً منذ أيام السلطان قلاوون الألفي<sup>٨٣٩</sup> ، وفوق الأقبية كانت تلبس التكلوات ، ثم القباء الإسلامي ، وكان يلبس فوق القباء كمران<sup>٨٤٠</sup> بخلق وإبزيم كما كانوا يشدون الوسط بحزام يعرف باسم ( منطقة ) ، أو ما يعبر عنه بالحياسة جمعها حوائص<sup>٨٤١</sup> ، حيث يعلق بالجانب الأيمن منها حقيبة كبيرة ( جولق ) جمعها جولق<sup>٨٤٢</sup> تثبت فيها مناديل ، وكان زي الأمراء والمقدمين وأعيان الجند يختلف بعض الشيء عن زي الجند<sup>٨٤٣</sup> ، فكان الأمراء يلبسون السلاريات التي كانت تصنع من الأقمشة القطنية أو الحريرية أو الصوفية الملونة وكثيراً ما يطرز عليها بالأحجار الثمينة ، والسلاري مع التخفيفة يكونان زي الأمراء بشكل عام<sup>٨٤٤</sup> .

أما في أرجلهم ، فكانوا يلبسون خفاً فوق آخر يقال له البكمان<sup>٨٤٥</sup> ، وهذا البكمان يصنع من الجلد البلغاري الأسود<sup>٨٤٦</sup> ، وكان يثبت فيه مهاميز كانت في البداية تصنع من الحديد ، ولما زادت ثروت الجند أصبحت من الفضة المكففة بالذهب<sup>٨٤٧</sup> ، ثم اتخذت المهاميز من الذهب الخالص<sup>٨٤٨</sup> ، وكان يوجد نوع آخر من الأحذية كان على ما يبدو أكثر ثقلاً من الخف أطلق اسم برجيل<sup>٨٤٩</sup> ، أو مركوب<sup>٨٥٠</sup> ، وكان يصنع من جلد مراكشي أحمر اللون له مقدمة رفيعة تلتوي نحو الأعلى<sup>٨٥١</sup> ، وبناء على ما تقدم أمكن القول : بأن زي الجندي في العصر المملوكي بشكل عام والبحري بشكل خاص قد بلغ درجة كبيرة من حسن الرونق وبديع التنسيق

أما إذا تجهز للحرب فكان يلبس آلة الحرب<sup>٨٥٢</sup> ( وهو ما يسمى بلباس الميدان في هذه الأيام ) حيث كانوا يلبسون الخوذات على رؤوسهم<sup>٨٥٣</sup> منها الفارسية خوذ ، والعربية بيض لأنها على

٨٣٥ - ابن تغري بردي : حوادث الدهور ، ص ٣٧ . ماير : الملابس المملوكية ، ص ٥٩ .

٨٣٦ - المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ .

٨٣٧ - ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٧ ، ص ٣٣١ .

٨٣٨ - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٣٩-٤١ .

٨٣٩ - ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ، ص ١٩٠ .

٨٤٠ - ماير الملابس المملوكية : ص ٢١ .

٨٤١ - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .

٨٤٢ - ماجد : نظم سلاطين المماليك ، ج ١ ، ص ١٦٣ .

٨٤٣ - المقرئزي : الواعظ والاعتبار ، ج ٣ ، ص ١٥٢ .

٨٤٤ - ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ .

٨٤٥ - المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٩٨ .

٨٤٦ - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤١ .

٨٤٧ - المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .

٨٤٨ - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤١ .

٨٤٩ - القلقشندي : ج ٤ ، ص ٤١ .

٨٥٠ - المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٧ .

٨٥١ - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٤١ .

٨٥٢ - ابن اياس : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٣٠ .

٨٥٣ - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٢٥٦ .

شكل البيض ، وتصنع من الجلد أو الحديد ، واستخدموا الترس أو الدرقه بجانب القفاز لاتقاء ضربات العدو ، وتصنع هذه من جلد البقر أو الملط وهو حيوان يعيش في الصحارى ، ويمكن أن تكون الدرقه من الخشب أو من الحديد ، وعلى أجسادهم تلبس الدروع وتسمى بالفارسية زرديات جمع زرد وهي تغطي الجسم كله<sup>٨٥٤</sup> ، أو قرقلات وتعني دروع ، أو كز اغندات وتعني أيضا دروع ، أو بكائز وهي بنفس المعنى .

---

<sup>٨٥٤</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٦٠٨ .



## الفصل الرابع

فن الحرب في العصر المملوكي الأول :

- ١- مقدمة .....
- ١- مكونات فن الحرب .....
- ٢- الإستراتيجية في الجيش المملوكي .....
- أ - مجلس الحرب .....
- ب - إستراتيجية الجيش المملوكي في معاركه مع الصليبيين .
- ج - إستراتيجية الجيش المملوكي في معاركه مع المغول ....

## ١ - مقدمة :

شهد تاريخ البشرية الكثير من الحروب ، ولعلّ تاريخ البشرية هو تاريخ حروبها المختلفة والمتنوعة من حيث الأهداف ، والأبعاد ، والنتائج، وتأثيراتها على حياة البشر ، ومع ظهور الحروب بدأت بالظهور أيضاً أشكال طرق تنفيذها ، وظهر فن الحرب الذي شكل الأساس النظري والعملي لتحضير ، وتنفيذ الحرب<sup>٨٥٥</sup> ، وكان ظهوره نتيجة للكثير من التجارب والنجاحات ، والإخفاقات، ووضعت أسسه بناءً على الاحتياجات ، والمتطلبات المباشرة لما تحتاجه تلك الحروب<sup>٨٥٦</sup> .

لذلك يُعدّ فن الحرب عند أي أمة من الأمم مظهراً من مظاهر تطورها العلمي ، والحضاري وقد قال بعض المؤرخين : إن مقياس الحضارة عند الأمم هو : مدى تطور قوتها الحربية وبالتالي مدى تطور فن الحرب عند هذه الأمة ، أو تلك ، وعندما تمت مناقشة مدى تطور العلوم في العصر المملوكي الأول في فصل متقدم ، حيث تم التعرّيج على مدى تطور فن الحرب في ذلك العصر الذي كان يتمثل بثلاثة مظاهر هي : الإستراتيجية ، فن العمليات والتكتيك ، وقبل أن يُفصل في هذا الموضوع لما كان عليه في العصر المملوكي الأول ويقارن بفن الحرب عند الصليبيين ، أو عند المغول للوصول إلى مدى التقدم العلمي عند كل من تلك الأمم ، وبالتالي الوقوف من خلال التحليل العلمي ، والموضوعي لتفسير الحوادث التاريخية ، والأسس التي استندت إليها النجاحات ، أو الأسس المفقودة في البناء الاستراتيجي ، والتكتيكي ، والتي كانت نتيجتها الإخفاقات التي حصلت عند أي من الجيوش المتحاربة .

## ٣- مكونات فن الحرب .

يتكون فن الحرب من ثلاث ركائز أساسية هي :

- الإستراتيجية .
- التكتيك .
- التأمين .

في البداية يجب الوقوف عند بعض التعاريف المهمة ، والمسلمات العلمية ليكون البناء الذي نرغب في إشادته بناء علمياً موضوعياً يستند إلى أسس صحيحة ، ومن هذه التعاريف :

الإستراتيجية : وهي كلمة قديمة مشتقة من الكلمة اليونانية (stpatos) ، وتعني بالمعنى العام كلمة جيش ، ومنها كلمة (stateyous) وهي باللغة الانكليزية strategos ، وتعني جندي ، وقد اشتق منها (stpteyia) ، وتعني باللغة الانكليزية (strategia) ، وتعني خطة القائد ، أو الخطة العسكرية .

من خلال ما تقدم يتضح أن كلمة إستراتيجية يرجع أصل استخدامها إلى المجال العسكري – لكن لهذا المصطلح امتداداته في السياسة ، والاقتصاد والاجتماع إلى غير ذلك ، لكن المهم أكثر وببساطة هو التوصل إلى تعريف مبسّط للإستراتيجية قريب إلى الفهم ، ويضع بين يدي القارئ

<sup>٨٥٥</sup> - الجنرال جيلين ( ن ) : تطور فن الحرب ، تر محمد حسن حافظ ، مركز الدراسات العسكرية ، دمشق ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ص ٥ .

<sup>٨٥٦</sup> - اوغاركوف ( ن . ف ) : التاريخ يعلمنا اليقظة مركز الدراسات العسكرية ، دمشق ، ١٩٨٩م ، ص ٥٨ .

عنان التحكم بالموضوع . ولهذا الأمر يجب الوقوف عند بعض الذين كتبوا تعاريف عامة للإستراتيجية ، وهم كثر ، منهم : ميكافيلي في كتابه فن الحرب ، والكاتب الانكليزي هنري لويدي<sup>٨٥٧</sup> في كتابه تاريخ حرب السنوات السبع<sup>٨٥٨</sup> ، والكاتب الألماني كلاوزفيتز<sup>٨٥٩</sup> في كتابه فن الحرب ، وليدل هارت<sup>٨٦٠</sup> في كتابه الإستراتيجية ، وتاريخها في العالم ، واندرية يوفر<sup>٨٦١</sup> في كتابه الردع ، والإستراتيجية ، وغيرهم الكثير . لكن ما يهم في هذا المجال هو الوقوف على تعريف مبسط للإستراتيجية و الانتقال من هذا المفهوم إلى المفهوم الذي كان يستخدمه المماليك في العصر المملوكي الأول .

فالإستراتيجية : هي أعلى مستويات الفن الحربي تبحث في طرق إعداد الجيوش للحرب وخوضها<sup>٨٦٢</sup> وبالتالي هي علم ، وفن . تتكون من مجموعة من العوامل التي تساهم بوجدتها في تحقيق التوافق ، والانسجام بين الأهداف ، والخطط الموضوعية ، وبين الإمكانيات المتاحة واستخدامها أفضل استخدام لتحقيق الهدف العام للحرب (الهدف العام للدولة) ، أو بشكل مبسط أكثر هي : إدارة الحرب بالمعنى العام .

أما مهمة الإستراتيجية فهي : إعداد الخطط العسكرية العامة القابلة للتطبيق على أرض الواقع والتي تؤدي إلى أفضل استخدام للجيوش بأفضل الأساليب من أجل تحقيق الهدف النهائي الذي يتم السعي إليه<sup>٨٦٣</sup> وتحديد الإمكانيات اللازمة لذلك . ومنه يمكن استنتاج أن الإستراتيجية بهذا المعنى تتعلق بالتحضير للحرب بعد تحديد الأهداف ، ثم مقارنتها بالإمكانيات المتاحة ، وبالتالي معرفة الاحتياجات ، والطلبات اللازمة من أجل النجاح ومن ثم يتم تحديد الأساليب الممكنة لخوض الحرب .

أما أنواع الإستراتيجية فهي :

الإستراتيجية غير المباشرة (العمل على تحقيق الهدف دون اللجوء إلى أسلوب المجابهة المباشرة)<sup>٨٦٤</sup> وهذا يعني أن الإستراتيجية لا تعني بالضرورة استخدام القوة بل يمكن التهديد باستخدامها كما أنها لا تهتم بالحرب فحسب بل بالتهديد بنشوبها ، وأحياناً ، وعند تعادل ميزان القوى العسكري يمكن اللجوء إلى العمل الدبلوماسي .

- 
- <sup>٨٥٧</sup> - هنري لويدي : ضابط وكاتب عسكري ألماني ، من كتبه تاريخ الحرب الأخيرة في ألمانيا ، ومذكرات عسكرية . عنه هواردي ( مايكل ) : نظرية الحرب وممارستها ، مركز الدراسات والأبحاث العسكرية ، ط ١ ، دمشق ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ص ١٩ .
- <sup>٨٥٨</sup> - حرب السنوات السبع امتدت ما بين سنة ١٧٥٦م وسنة ١٧٦٣م ودارت ما بين بروسيا وبريطانيا من جهة وما بين النمسا وفرنسا والسويد من جهة أخرى ، وانتهت بانتصار بروسيا .
- <sup>٨٥٩</sup> - كلاوزفيتز : هو من أشهر من كتبوا في فن الحرب في ألمانيا في القرن التاسع عشر ، خدم في الجيش البروسي وحارب الجيش الفرنسي مدة أربع سنوات من ١٢٢٧-١٢٣٠هـ / ١٨١٢-١٨١٥م . بعدها تفرغ للكتابة مدة خمس عشرة سنة . من أشهر كتبه فن الحرب وهو عشرة أجزاء . هواردي : نظرية الحرب وممارستها ، ص ٢٤-٢٦ .
- <sup>٨٦٠</sup> - ليديل هارت : ضابط بريطاني . ظهر اسمه في الكتابات العسكرية الفرنسية بعد سنة ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م من كتبه الحروب الحاسمة في التاريخ ، والمشاهير . هواردي : ص ١٥٨ .
- <sup>٨٦١</sup> - اندرية يوفر : ضابط فرنسي ولد سنة ١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م . أصبح ضابطاً في فرقة القناصة الجزائرية سنة ١٣٤٠هـ / ١٩٢١م في سنة ١٣٧٦هـ / ١٩٥٦م كان قائداً للقوات الفرنسية التي استخدمت في التدخل العسكري في قناة السويس ، ثم عين مديراً للمعهد الفرنسي للدراسات الإستراتيجية . من كتبه : المدخل في الإستراتيجية ، الردع والإستراتيجية . هواردي : ص ١١٩ .
- <sup>٨٦٢</sup> - جيلين : تطور فن الحرب ، ص ٥ .
- <sup>٨٦٣</sup> - محفوظ (محمد جمال الدين) : العسكرية في الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م ، ص ٤٩ . شذود ( ماجد محمد ) : الإستراتيجية ، مطبعة ابن حبان ، ط ١ ، دمشق ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م ، ص ١١٢ .
- <sup>٨٦٤</sup> - شذود : ص ١١٤ .
- هارت ( ليديل ) : الإستراتيجية وتاريخها في العالم ، تر الهيثم الأيوبي ، دار الطليعة ، ط ١ ، بيروت ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ص ٤١٣ .

الإستراتيجية المباشرة : (العمل على تحقيق الهدف باعتماد أسلوب المجابهة المباشرة) <sup>٨٦٥</sup>  
ومن المفيد هنا الذكر أن الإستراتيجية ، والتخطيط الاستراتيجي يتعلقان بعوامل عديدة منها ---  
الوضع السياسي : (استقرار الدولة ، وعلاقتها مع الدول الأخرى) .

- الوضع الاقتصادي : من حيث القوة ، والضعف ، والقدرة على تلبية احتياجات التخطيط  
الاستراتيجي .

- ومدى تطور الأسلحة ، والأعتدة القتالية <sup>٨٦٦</sup> في الدولة .

- الوضع المعنوي : للمجتمع ، والجيش لان العامل المعنوي يتحول إلى قوة فاعلة ومستقرة  
أثناء المعركة ، وهذا يؤدي إلى إضافة قوة مادية جديدة إلى القوة المادية الموجودة أصلا ، أو  
تؤدي إلى أفضل استخدام للقوى ، والوسائط العسكرية الموجودة .

أما نجاح الإستراتيجية فله علاقة بالتقدير السليم للوسيلة من جهة ، والغاية ، والهدف المراد  
الوصول إليه ، وتحقيق التناسب بينهما <sup>٨٦٧</sup> ، وهذا يؤكد مقولة ليدل هارت أن الحل للحرب يجب  
أن لا يبحث عنه في التكتيك بل في الإستراتيجية <sup>٨٦٨</sup> .

أما فن العمليات فيبحث في طرق تحضير وتنفيذ عمليات الجيوش والأسطول البحري وتنسيق  
العمل فيما بينهم .

**التكتيك** : أن تحقيق الانتصارات في المعركة يرتبط بشكل أساسي بقوة الأسلحة المستخدمة  
وبكيفية استخدامها ، وكل ما كانت هذه الأسلحة ذات فعالية عالية ، وتستخدم في الزمان والمكان  
المناسبين سهل ذلك تحقيق الانتصار ، وكسب المعركة .

وان الاستخدام الأمثل لهذه العوامل بالإضافة إلى عوامل أخرى مثل : التشكيل المناسب وطريقة  
، وأسلوب استخدام الأرض ، وقيادة الجيش على أرض المعركة تمثل التكتيك في أرض  
المعركة ، وتطور هذه العوامل عبر الزمن يعني تطور التكتيك . مما تقدم يمكن تلخيص هذا  
المصطلح بالقول : انه يعني كيفية خوض الأعمال القتالية على الأرض ، وبالتالي إذا كانت  
الإستراتيجية هي قيادة الحرب فإن التكتيك هو قيادة المعركة . وبالتالي فهو يعتمد على التنظيم  
الصحيح والقوي والمتماسك للجيش والإدارة وعلى تسلسل القيادة وقوتها وانضباطها والتدريب  
العملي في الميدان <sup>٨٦٩</sup> في ظروف مشابهة لظروف الحرب ، وبالتالي فالتكتيك هو : التنفيذ  
العملي للخطط أي للإستراتيجية على أرض الميدان .

**التأمين** :

أن القدرة على خوض الحروب والنجاح فيها يتعلق إلى حد كبير بقدرة القيادة على تأمين  
الجيوش للأسباب التالية :

<sup>٨٦٥</sup> - شدود : الإستراتيجية ، ص ١١٥ .  
- هارت : الإستراتيجية وتاريخها في العالم ، ص ٤١٥ .  
<sup>٨٦٦</sup> - جيلين : تطور فن الحرب ، ص ٤١٥ .  
<sup>٨٦٧</sup> - جيلين : ص ٤٠١ .  
<sup>٨٦٨</sup> - هوارد : نظرية الحرب وممارستها ، ص ١٢٥ .  
<sup>٨٦٩</sup> - شفيق ( منير ) : علم الحرب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط ١ ، بيروت ، ص ١٣٠ .

- أثناء خوض المعارك تحصل خسائر ، وأحيانا تكون كبيرة ، وحتى يتم الاستمرار بخوض الأعمال القتالية بالفعالية نفسها لا بد من استعواض الخسائر سواء كانت من المقاتلين ، أو من الأسلحة والعتاد .

- أن المقاتلين في ساحة المعركة لهم متطلبات كثيرة لا بد من تأمينها (طعام- مياه - أدوية أسلحة... الخ) ، وعملية التأمين في المعارك عملية شاقة ومكلفة لذلك لا بد من دراستها بعناية ودقة والتخطيط للاستفادة من منطقة الأعمال القتالية وما يمكن أن تقدمه ، فعندما هزم الروم أمام الجيوش الإسلامية في معركة اليرموك قال ملك الروم وهو ينظر إلى بلاد الشام : (( ويحك أرض ما أنفعك لعدوك لكثرة ما فيك من الأعشاب والخير ))<sup>٨٧٠</sup>

- وهناك مواقف طارئة تحتاج إلى وجود قوات اختصاصية لحل معضلاتها ( بناء جسور - حفر آبار للمياه - تسوية طرق - ردم حفريات - تأمين آلات للحصار .. الخ ) فمن واجبات القادة قبل نشوب المعركة تأمين مثل هذه القوات من خلال إدراجها في الخطط الموضوعية أثناء اتخاذ قرار الحرب .

بعد هذا الوقوف اللازم والضروري عند بعض التعاريف يجب العودة إلى الموضوع الأساسي وهو : فن الحرب عند المماليك .

أما فن الحرب عند المماليك فكان يعني الأسس ، والقواعد الحربية التي مارسها الجيش المملوكي ، أو طبقها في المعارك التي خاضها سواء ضد الصليبيين ، أو ضد المغول ، وهو لم يخرج عما ذكر سابقا من مبادئ ، وأسس في الخطوط العامة . وإن كانت مثل تلك المصطلحات غير معروفة آنذاك عند المماليك ، لكن مضامينها كانت تطبق بشكل ، أو بآخر . لذلك لا بد من تتبع تلك التفصيلات من خلال ما كان يقوم به القادة المماليك من إجراءات وتفصيلات قبل القيام بالحرب ، وخلالها ، وبعد انتهائها ، ثم إعادة صياغة تلك التفاصيل وتركيبها من جديد لمقارنة ذلك مع ما تمت الإشارة إليه من مصطلحات ، و تعاريف للتعرف فيما إذا كانت الجيوش المملوكية كانت تمارس الإستراتيجية ، والتكتيك الحربي ، وتقوم على تطويره أم لا وما هو وجه الخلاف بذلك مع الجيوش التي كانت طرفا آخر في الحروب التي خاضها الجيش المملوكي

### ٣ - الإستراتيجية عند الجيش المملوكي في العصر المملوكي الأول:

مرة أخرى نعاود التأكيد على أن الصفة العامة للدولة المملوكية الأولى هي أنها قامت على الحرب ، وخاضت عدداً كبيراً من المعارك حققت في معظمها انتصارات هائلة .

لذلك من المفيد أن يدرس فن الحرب المستخدم عند الجيوش المملوكية ، والجيوش الأخرى التي كانت طرفا آخر في تلك الحروب ، والمعارك للتعرف على الأسباب الحقيقية للنجاحات أو الإخفاقات التي حصلت . ويجب الانتباه إلى أن هذه المصطلحات ( الإستراتيجية والتكتيك ) لم يكن يعرفها ذلك العصر كمصطلح لكن كانت تمارس بعض الأمور الوثيقة الشبه بما تعنيه هذه المصطلحات ، لذلك لن يتم الخروج عن المنهج المتبع في الدراسة وهو تحليل الموضوع إلى عناصره الأولية ، ومن ثم إعادة تركيب تلك العناصر وصولاً إلى الحقيقة التي كانت تقف خلف كل جيش من الجيوش في نجاحاته ، وإخفاقاته .

<sup>٨٧٠</sup> - ابن أبيك : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج٨ ، ص١٣٣ .

وبالتالي يمكننا الإجابة على السؤال التالي : ما هو فن الحرب في العصر المملوكي الأول ؟  
تم التعرف على أنّ الإستراتيجية هي المسؤولة عن التخطيط للحروب ، وعن تحديد أهدافها ثم  
تحديد الطرق ، والوسائل الكفيلة بتحقيق تلك الأهداف .

ولكن المهم هو : كيف كان يتم تحقيق الهدف المرسوم ؟ هل كان يتم تحقيقه بالإستراتيجية  
المباشرة(المواجهة العسكرية) ، أو الإستراتيجية غير المباشرة ( الدبلوماسية ، والتهديد بالحرب  
( . الآن يجب العودة إلى تلك الأمور الوثيقة الشبه بهذه المصطلحات ودراستها وتحليلها  
وذلك من خلال البحث في الحروب ، والمعارك التي خاضتها تلك الجيوش .

أظهرت المصادر التاريخية أنه قبل خوض بعض المعارك المهمة في تاريخ ذلك العصر كان  
سلاطين المماليك يعقدون اجتماعاً موسعاً سموه مجلس الحرب . أما عند المغول فكان يعقد  
مجلس القوريلتاي : وهو بمثابة مجلس شورى يضم الأمراء وقواد الجيش المغولي ، وقيل أنه  
كان يعقد قبل الخروج إلى الغزو ، فإذا ما انعقد يتم فيه تبادل وجهات النظر المختلفة ويدلي كل  
برأيه ، والخان من ورائهم جميعاً يعقب على الآراء يأخذ رأياً ، ويدفع رأياً حتى إذا ما انتهوا  
إلى شيء انتهوا إليه مدروساً بكل ما يضمن له النجاح ، ومن قبل ذلك يستأنس القوريلتاي بما  
انتهى إليه من أخبار الجواسيس ، والعيون الذين كانوا بين تجار جاسوا خلال أرض العدو  
يتظاهرون بالبيع والشراء وهمهم الوحيد ما عند الأعداء من جديد على كل الأصعدة ، ولاسيما  
العسكرية<sup>٨٧١</sup> ، وأثناء المناقشة كانت توضع فيه خطط الغزو والبلد المقصود غزوه وتدميره  
حيث يشترك الجميع في المناقشة ، وبحرية تامة ، وقد اتصفت خطط التتار التي كانت توضع  
في القوريلتاي بالدقة من جهة ، والعنف<sup>٨٧٢</sup> من جهة أخرى . وعند الصليبيين كان يعقد مجلساً  
للحرب بقيادة ملك القدس ، وحضور كل القيادات العسكرية والدينية ، ومثال ذلك عندما  
سقطت الإسكندرية بيد ملك قبرص بطرس لويزنيان ، وكان ذلك سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٦م عقد  
الصليبيون مجلساً حربياً للتشاور في الموقف الجديد ، وكان رأي الملك آنذاك أن يبقى الجيش  
الصليبي في المدينة لكن أغلبية القادة فضلوا الاكتفاء بما حققته الحملة ، والانسحاب<sup>٨٧٣</sup> . وبعد  
هذه اللحظة المختصرة عن مجالس الحرب عند كل الأطراف يجب العودة إلى الجيش المملوكي  
للقوف عند مجلس الحرب في الدولة المملوكية الأولى .

من كان يحضر هذا المجلس ؟

ما هي مهامه ؟

وكيف كان يعالج الأمور ؟

سيتم بحث ذلك بشي من التفصيل في هذا الموضوع لأهميته ، وعلاقته المباشرة بالإستراتيجية .

<sup>٨٧١</sup> - عكاشة ( ثروت ) : إحصار من الشرق ، دار الشروق ، طه ، القاهرة ، ١٢٨٣هـ / ١٩٩٢م ، ص ١٥٥ .  
<sup>٨٧٢</sup> - الهمداني ( رشيد الدين فضل الله ) : جامع التواريخ - تاريخ المغول ، تر محمد صادق نشأت وآخرون ، منشورات وزارة الثقافة  
والإرشاد القومي ، دمشق ، ٢م ، ج ٢ ، ص ٩-١٠ .  
- ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١٤٠ .  
- الصياد : المغول في التاريخ ، ص ١٦٦ .  
<sup>٨٧٣</sup> - النويري السكندري : الإمام ج ٢ ، ص ١٦٠ . أبو عليان ( عزمي عيد ) : مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد  
المماليك ، دار النفائس ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م ، ص ١١٣ .

## أ - مجلس الحرب في الدولة المملوكية الأولى :

لم تكن الدولة المملوكية الأولى سباقة في هذا المجال ، ولا مخترعة له لأنّ مثل هذا الإجراء قديم جداً استخدم في كافة الجيوش المنظمة حيث عدّه الصينيون القدماء انه أول الخطوات اللازمة لتحقيق النصر<sup>٨٧٤</sup> والعرب أيضا فعلوا مثل ذلك حتى قبل الإسلام ، فكانوا يجتمعون قبل أية حرب ، ويتبادلون الأفكار ، ويقررون ، ويحشدون القوى ، والوسائط ، ومثل ذلك مؤتمر ذي قار الذي حضره قادة بكر العربية ، ومن معها من القبائل بعد أن حشد لهم كسرى ، وأرسل لهم النعمان بن زرعة التغلبي الذي توجه إلى أخواله من بني بكر قاتلا : ( أن الرائد لا يكذب أهله .. ] لكنه في الحقيقة كان يرغب في هلاكهم [ ، فقد أتاكم ما لا قبل لكم به من أحرار فارس ) ، والنتيجة أنهم عقدوا مؤتمراً للحرب ، وقرروا فيه التصدي لكسرى ، ومن جمع معه ، وبات المؤتمرون على إقرار الحرب حتى يتحقق لهم النصر<sup>٨٧٥</sup> .

وفي الإسلام أيضا فعل الرسول العربي الكريم صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، ففي وقعة بدر الكبرى ندب الرسول أصحابه ، وحدثهم بما مع قريش من الأموال ، ويقلّة عددهم ، وتدارسوا الأمر ، وبعد أن تكلم الجميع قرروا الخروج يريدون أبا سفيان ، والركب الذي معه ، وكذلك في غزوة احد ، وفي كل الغزوات كل ذلك على الرغم من ما أمّد الله به رسوله ( صلى الله عليه وسلم ) من التوفيق ، وأعانه من التأييد ، وكانت الغاية من ذلك ما يلي :

١ - تشريع المشاورة في الحروب (( ليستقر عند القائد الرأي الصحيح ، فيُعصم إلى حد ما من الخطأ ، ويسلم من الزلل ، ويكون من الظفر أقرب ))<sup>٨٧٦</sup> ، وبالتالي يعمل الجميع على تبني ذلك الرأي من أجل تحقيقه . قال الحسن بن علي رضي الله عنهما : (( ما تشاور قوم قط إلا هُدُو لأرشد أمورهم<sup>٨٧٧</sup> ))

٢ - المشاورة في الأمور الصعبة ، ولاسيّما في الحرب تؤلف القلوب ، وتطيّب النفوس والتآلف في الحرب أدعى للنصرة ، وأقرب إلى الغرض<sup>٨٧٨</sup> .

٣ - ثم إنّ الرسول ( ص ) مارس ذلك لتكون سنةً يتبعها المسلمون بعده لما فيها من الفضل والمنفعة<sup>٨٧٩</sup> ، وأنّ المشورة ليست نقيصة ، أو سبّة ، أو دليل ضعف ، فقد جاء في آداب ابن المقفع (( لا يُقدن في روعك أنك إنّ استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأي غيرك فيقطعك ذلك عن المشاورة فإنك لا تريد الرأي للفخر به ، ولكن للانتفاع به ، ولو أنك أردت الذكر كان أحسن الذكر عند الألباء أن يقال : لا ينفرد برأيه دون ذوي الرأي من إخوانه ))<sup>٨٨٠</sup>

<sup>٨٧٤</sup> - زي ( سون ) : فن الحرب ، تر ، وتح العماد حسن توركماني ، الأولى للنشر والتوزيع ، ط ١ ، دمشق ، ١٤٢٣ / ٢٠٠٣ م ، ص ٢٣ .

<sup>٨٧٥</sup> - الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١ ، ص ٤٧٨ - ٤٧٩ .

<sup>٨٧٦</sup> - أبو يعلى ( محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد بن الفراء ، ت ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م ) : الأحكام السلطانية ، صححه وعلق عليه محمد حامد الفقي ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ن ط ١ ، القاهرة ، ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٨ م ، ص ٢٩ .

- الهروي : التذكرة الهروية ، ص ٧٢ .

<sup>٨٧٧</sup> - الماوردي ( أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي ، ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ) : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط ١ ، القاهرة ، ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م ، ص ٤٤ .

<sup>٨٧٨</sup> - الرشدي : تفريغ الكروب في تدبير الحروب ، ص ٢٦ .

<sup>٨٧٩</sup> - الماوردي ( أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب ) : الأحكام السلطانية ، أخذ النص عن مجلة المورد ، بغداد ، وزارة الثقافة والإعلام ، م ١٢ ، العدد الرابع ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م ، ص ٤٤ .

<sup>٨٨٠</sup> - ابن قتيبة : عيون الأخبار ، م ١ ، ص ٣١ .

ولم يخرج القائد العربي المسلم أيام الأمويين ، والعباسيين ، ومن جاء بعدهم عن هذه القاعدة لما في ذلك من الخير ، والساد ، لأن المشورة ترس مانع ، والحزم حصن حصين ، فالقائد الحقيقي هو من يستشير قبل أن يفعل ، ويفكر قبل أن يعمل ، وفي ذلك فائدتين كما قال الهروي : (( إحداهما لحفظ نفسه من الزلل ، والخلل ، والاعتیاد على الحركات الفاسدة والأخرى استيلاء فضله ، وطبعه على الصواب ، وعصيان التخيل – أي عدم إتباع الهوى والخيال ، ومحبة وأصالة الرأي ))<sup>٨٨١</sup> .

لكن فضل الدولة المملوكية في هذا الإطار هو تنظيم هذه الاجتماعات ، وجعلها عرفاً عاماً . له أطره التنظيمية المحددة مثل من يحضره ؟ ما هي مهامه ؟ وماذا يناقش ، ومتى يعقد إلى غير ذلك . قال الهروي : (( يجب على السلطان إذا دهمه أمر ، أو قصده عدو ، أو نزلت به شدة ... أن يشاور أصحاب الآراء ، وأهل التجارب من خواصه ، وحاشيته وأرباب مملكته ، فمن شاور الرجال شاركهم في عقولهم ))<sup>٨٨٢</sup> .

وقال الرشدي ، وهو المعاصر للدولة المملوكية الأولى : (( سئل بعض الحكماء : أي الأمور أشد للملك تأييداً ؟ قال : ثلاثة أشياء هي : مشاورة العلماء ، وتجربة الأمور ، وحسن التثبيت . ))<sup>٨٨٣</sup> من الوقوف عند هذا النص المهم وتحليله يمكن استنتاج الآتي :

- أن للعلم ، والعلماء دور لا يمكن تجاوزه ، أو استثنائه بل هو دور محوري يمكن البناء عليه في العسكرة ، والاقتصاد ، والسياسة إلى غير ذلك ، والعلم لا يكون بغير التنظيم لأن لغته لغة الأرقام .

- أما الاستنتاج الثاني فهو التأكيد على الاستفادة من تجارب الماضي التي يجب قراءتها قراءة علمية ، وموضوعية ، والوقوف عند الدروس المستفادة منها ( سواء من نجاحاتها ، أو إخفاقاتها ) للبناء على النجاح ، ومعالجة أسباب الإخفاق لضمان عدم الوقوع في الأخطاء ذاتها .

- أما حسن التثبيت فلا يكون إلا بالمناقشة المعمقة للآراء ، ومراجعة المعلومات المتوفرة ، وتدقيقها بشكل مستمر ، فلا حياة مع السكون ، ولا سكون مع العمل الطموح ، والمعلومات العسكرية الصحيحة مئة بالمائة اليوم قد تكون خاطئة بالنسبة نفسها في اليوم التالي لذلك لا بدّ من تدقيقها من عدة مصادر صحيحة ، ومتنوعة قبل التعامل معها

لذلك فالغاية من مثل تلك الاجتماعات هي : التداول في الوضع العام ، وخاصة الوضع العسكري ، وقدرات الدولة ، وإمكاناتها ، وإجراء **تقويم** شامل للموقف السياسي والاقتصادي ، والعسكري ، ووضع الخطط اللازمة لمواجهة خطر ما محتمل ، أو قائم بالفعل .

أما الجيوش الصليبية فهي بدورها كانت تذهب إلى مثل ذلك العمل ، فكثيراً ما تحدث مؤرخوا الحروب الصليبية عن قيام الملك الذي كان يعد القائد العام لتلك الجيوش بالدعوة إلى مجلس

<sup>٨٨١</sup> - الهروي : التذكرة الهروية ، ص ٧٤ .

<sup>٨٨٢</sup> - الهروي : ص ٧٣ .

<sup>٨٨٣</sup> - الرشدي : تقريغ الكروب في تدبير الحروب ، ص ٥٤ .



للحرب يحضره كبار القادة ، والبارونات ، والبطيريك يناقشون في ذلك المجلس أمور الحرب وإعداد الخطط الحربية<sup>٨٨٤</sup> .

والآن لنعد إلى مصادر العصر المملوكي الأول لرصد مثل تلك الحالات ، وكيف كانت تجري الأمور وكيف كانت تتخذ القرارات وتحدد الأهداف ؟

الإجابة عن هذا السؤال تحتاج إلى الكثير من البحث ، و التفكير ، والتبصر ، والعودة إلى ذلك العصر ، ليعيش الإنسان تلك اللحظات التي شكلت مفصلاً من مفصلات التاريخ .

في هذا الإطار تحدثت بعض المصادر التاريخية عن : اجتماعات كانت تسبق المعارك الكبيرة ناقشت الكثير من الأمور والقضايا واتخذت بصدها القرارات المناسبة ، فعلى سبيل المثال :

- ذكر ابن أبيك أنه في سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م تم عقد مجلساً للحرب عندما علم المماليك أنّ الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز بن الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي قد تحرك بجيشه تجاه مصر لاستعادة ملك الأيوبيين منتهزاً فرصة الخلاف بين الأمراء المماليك حول تولي شجر الدر السلطنة في مصر ، وتقرر في ذلك المجلس هدم أسوار مدينة دمياط ، بل المدينة كلها ، وعللوا ذلك بالخوف من أن يغتتم الصليبيون الفرصة ويستولوا عليها<sup>٨٨٥</sup> . لذلك قرروا هدم مدينة دمياط ، وهدموها فعلاً ، وبنوا مدينة أخرى بالقرب منها بعيداً عن شاطئ البحر حتى لا تكون عرضة لهجوم الصليبيين عليها وسموها المنشية<sup>٨٨٦</sup> .

- وتحدث ابن تغري بردي في كتاب النجوم الزاهرة عن اجتماع برئاسة السلطان قطز<sup>٨٨٧</sup> في سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م للتدارس في الخطر المغولي الذي كان يهدد الأمة ، ومحاولة استكشاف قوة هؤلاء القوم ، ومدى استعدادات الجيوش المملوكية للتصدي لها<sup>٨٨٨</sup> ، وذكر مثل ذلك المقرئ في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك<sup>٨٨٩</sup> ، والذهبي في كتابه تاريخ الإسلام<sup>٨٩٠</sup> ، والنويري في كتابه نهاية الأرب<sup>٨٩١</sup> ، وابن دقماق في كتابه الجوهر الثمين<sup>٨٩٢</sup> -- وذكر المقرئ في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك أنه : كان الظاهر بيبرس حريصاً على استشارة الملوك قبل الدخول في أية واقعة ، وعلى سبيل المثال عندما ذهب إلى دمشق سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م وفد إليه بعض أمراء الروم ، واخبروه بخروجهم على حاكمهم ، فأراد استغلال هذا

<sup>٨٨٤</sup> - الصوري (وليم) : تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار ، تر وتح سهيل زكار ، عن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ط١ ، دمشق ، ج٧ ، ص٢١٣ . شيبوب : معارك الإسكندرية ، ص٩٧ .

<sup>٨٨٥</sup> - ابن أبيك : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج٨ ، ص١٥ .

- الذهبي (محمد بن أحمد ، ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م) : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تح عمر عبد السلام التدمري دار الكتاب العربي ، ط١ ، بيروت ، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م ، ج٤٧ ، ص٦٢ .

<sup>٨٨٦</sup> - العيني : عقد الجمان ، ج١ ، ص٣٧ .

<sup>٨٨٧</sup> - عن ترجمة السلطان قطز . المقرئ : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص٤١٧ . المواعظ والاعتبار ، ج٢ ، ص٢٣٨ . ابن إياس : بدائع

الزهور ، ج١ ، ق١ ، ص٣٠٣ .

<sup>٨٨٨</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٦٧ - ٦٨ . حسين (احمد) : موسوعة تاريخ مصر ، ج٢ ، ص٦٨٤ .

موير (السير ولیم) : تاريخ دولة المماليك في مصر ، تر محمود عابدين و سعيد حسين ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م ، ص٤٤ .

<sup>٨٨٩</sup> - المقرئ : السلوك ، ج١ ، ص٥١٥ .

<sup>٨٩٠</sup> - الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج٤٧ ، ص٨ .

<sup>٨٩١</sup> - النويري : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص٤٧٤ .

<sup>٨٩٢</sup> - ابن دقماق (ابراهيم بن محمد ، ت ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م) : الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين ، تح سعيد عبد الفتاح عاشور ، جامعة أم القرى في السعودية ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢ م ، ص٢٥٣ .

الخلافة ، وتعميقه أفقياً ، و عامودياً ، فعقد مجلساً للحرب ، واستشار به الأمراء فحددوا الهدف - الذي كان - الهجوم على بلاد الروم<sup>٨٩٣</sup> .

وذكر المقرئزي أنه في سنة ٦٧٦هـ/٢٧٧م سمع الظاهر بيبرس بخروج أبغا ملك التتار إلى بلاد الشام، فعقد مجلساً للحرب ، واتفقوا على الخروج من دمشق ، وملاقاة أبغا<sup>٨٩٤</sup> . وذكر مثل ذلك اليونيني في كتابه ذيل مرآة الزمان<sup>٨٩٥</sup> ، وابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة<sup>٨٩٦</sup> .

وكذلك عقد السلطان المنصور قلاوون الألفي سنة ٦٧٩هـ/٢٨٠م مجلساً للحرب عندما أدرك أن خطر التتار قد أصبح حقيقي يهدد بلاد الشام ، فاتفق رأي الأمراء على إن يكون اللقاء في مرج حمص ، فلما علم التتار بتحريك جيش المماليك ، وخروجه إليهم فروا ، وخرجوا من بلاد الشام ، فكان من أسباب فرارهم اتحاد المماليك ، واتفقهم على قتال التتار كونهم يشكلون الخطر الأساسي على الجميع كما ذكر المؤرخ ابن عبد الظاهر<sup>٨٩٧</sup> . وذكر مثل ذلك السلمي في كتابه مختصر التواريخ<sup>٨٩٨</sup> . وتحدث عن ذلك اليونيني<sup>٨٩٩</sup> ، وابن أبيك الداوداري<sup>٩٠٠</sup> .

وفي سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م عندما علم السلطان بيبرس الجاشنكير<sup>٩٠١</sup> بتحريك الفرنجة لغزو دمياط عقد مجلساً للحرب ، واتفقوا على عمل طريق مرتفع من القاهرة إلى دمياط خوفاً من هجوم الفرنجة أيام فيضان النيل ، فتنقطع الطرق<sup>٩٠٢</sup> مما يمنع القوات المملوكية من الوصول إلى دمياط في الوقت المناسب ، وبالفعل تم تنفيذ هذا الطريق . الذي يبدأ من قليوب ، وينتهي بدمياط . مما ساعد على سرعة التحرك إلى دمياط لتحقيق الهدف ( القرار ) المتخذ بالتصدي للفرنجة .

وتحدث ابن إياس في كتابه بدائع الزهور عن عقد مثل تلك المجالس ، وأنها ناقشت الخطط الحربية ، والتحصير للحرب<sup>٩٠٣</sup> . وهذا يدل دلالة قاطعة على أن القادة في العصر المملوكي الأول كانوا يتمتعون بتفكير إستراتيجي راق جعلهم يتفوقون على أقرانهم من الجيوش الصليبية ، والمغولية من خلال وضع الخطط المدروسة بعناية فائقة ، وبما يتناسب مع كل حالة من حيث الزمان ، والمكان ، والتحصير للجيوش ، والتطوير للأسلحة وصولاً إلى التكتيك الذي يتناسب

<sup>٨٩٣</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٢٥ .

<sup>٨٩٤</sup> - أبغا بن هولكو بن جنكيز خان ملك التتار استولى على الملك بعد موت أبيه ، هاجم بلاد الشام سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٦م وكانت = وفاته سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م . انظر : المنهل الصافي ، ج ١ ، ص ١٩٨ .

<sup>٨٩٥</sup> - اليونيني ( قطب الدين موسى بن محمد ، ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م ) : ذيل مرآة الزمان ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ط ١ ، الهند حيدر آباد الدكن ١٣٧٤ - ١٣٨١هـ / ١٩٥٤ - ١٩٦١م ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ .

<sup>٨٩٦</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٧٤ .

<sup>٨٩٧</sup> - ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ص ٧٨ .

<sup>٨٩٨</sup> - السلمي ( شهاب الدين أحمد ، ت ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م ) : مختصر التواريخ مخطوط ورقة رقم ٦٨ و ، موجود في دار الكتب المصرية تحت رقم ١٤٣٥ .

<sup>٨٩٩</sup> - اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ٢٣٣ .

<sup>٩٠٠</sup> - ابن أبيك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١٥ .

<sup>٩٠١</sup> - هو بيبرس بن عبد الله ، الملك المظفر ركن الدين بيبرس البرجي المنصوري الجاشنكير . أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون ، وعقبائه ، وتنقل في الخدم حتى صار من جملة الأمراء بالديار المصرية ، وتولى الأستدارية للملك الناصر محمد بن قلاوون عن ترجمته .

- ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٣ ، ص ٤٦٧ - ٤٧٣ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٣٢ . المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٥ . أبو الفداء : التبر المسبوك في تواريخ الملوك ، ص ٨٧ .

- المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٢٣ - ٤٢٤ .

<sup>٩٠٢</sup> - المقرئزي : ج ٢ ، ص ٤٢٥ .

<sup>٩٠٣</sup> - ابن إياس : بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٣ .

مع طبيعة كل معركة مع ملاحظة أن السلطان لم يكن ملزماً بدعوة المجلس ، أو الأخذ برأيه بل كان مقتنعاً بأهمية ذلك وضرورته<sup>٩٠٤</sup> ، لذلك كان من يحضر هذه المجالس هم عليّة القوم وكبار القادة ، فمن هم هؤلاء :

كان مجلس الحرب يعقد في العصر المملوكي الأول برئاسة السلطان ، والذي كان القائد الأعلى للجيش ، وبالإضافة إلى أتاك العسكر ، والذي يمثل رئيس أركان الجيوش المملوكية وحضور الخليفة المسلم الذي كان يسدل الشرعية على الحكم ، والحاكم ، وقضاة المذاهب الأربعة وأمراء المئات مقدمي الألوف ، والذين يبلغ عددهم ٢٤ أميراً<sup>٩٠٥</sup> ، وهم قادة التشكيلات المقاتلة . هذا العدد الكبير له دلالاته التي تؤشر إلى أهمية الهدف ، أو الأهداف التي ستناقش أو التي ستعالج ، وأهمية القرارات التي ستتخذ ، فما هي الأمور وما هي المشاكل التي كانت تناقش في مجلس الحرب في العصر المملوكي الأول :

- النظر في مشروعية الحرب التي ستشن ، وهو أمر في غاية الأهمية ، فان اتفق الجميع توحدت الكلمة ورُصّت الصفوف وارتفعت الروح المعنوية التي قد تشكل في وقت من أوقات الحرب العمود الفقري للجيش لأن السلاح كتلة مادية جامدة تحركه الإرادة ، والقناعة ، والمهارة ، والخبرة ، فإذا ما توفرت تلك العوامل عندها يبذل الجميع الغالي ، والنفيس من أجل الغاية والهدف .

والسؤال المهم لماذا البحث في مشروعية الحرب ؟

إن الحروب التي خاضتها الدولة المملوكية الأولى لم تكن دائماً ضد عدو خارجي فكثيراً ما كانت تضطر إلى خوض معارك ضد جيوش مسلمة على أرضية الصراع على السلطة ، ومثل هذه الحروب تحتاج إلى إعداد نفسي خاص ، ففي أبسط الحالات قد يطرح المقاتل على نفسه سؤال لماذا يقاتل المسلم مسلماً مثله . الإجابة على مثل ذلك السؤال هو الذي يستدعي في البحث في مشروعية الحرب ، ويجب على سؤال آخر هو : ما مسوّغ حضور قضاة المذاهب الأربعة لمؤتمر الحرب .

- تحديد الهدف : تحديد الهدف في الفكر الاستراتيجي يتعلق بأمور عديدة سياسية واقتصادية ، واجتماعية ، وعسكرية بالإضافة إلى المعرفة التامة بالعدو (قوته -إمكاناته - تحالفاته - قاداته - فكره الاستراتيجي...الخ) ، ومقارنة كل ذلك بالإمكانات المتاحة (قوة الصديق- تحالفاته - أسلحته - تدريبه - قاداته...الخ) ، وهنا يجب الوقوف عند أمر مهم جداً وهو : قد لا يتوفر الكثير من الوقت لإجراء هذه الدراسة عند القائد العسكري الذي قد يتعرض لهجوم مفاجئ . لذلك يُعوّل على عبقرية القائد وقدراته ، وفكره ، وتدريبه ، وثقافته التي من المفترض أن تكون عالية المستوى ولاسيّما في مجال معرفة قواته ، وتسليحها ، وإمكاناتها وحالتها المعنوية . بالإضافة إلى معرفة عميقة بالجيوش الأخرى المعادية تنظيمها - تسليحها- معنويات جنودها - قاداتها . لذلك اعتنى المماليك

<sup>٩٠٤</sup> - ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ، ص ١٠٦ . المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٩٨ .  
<sup>٩٠٥</sup> - المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢١٧ . كاشف ( سيدة إسماعيل وآخرون ) : تاريخ مصر عبر العصور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، ص ٤٢٨ .

بتدريب القادة كل العناية لدرجة أن ابن منكلي قال : من لوازم القائد ، أو الأمير سعة الصدر ...، وكتمان السر .. ، والأمانة ..والصدق والقوة في استخدام السلاح والمبارزة ، و أنّ الوفاء صفة يجب أن تكون ملازمة للقادة وهي لا تصح على تمامها إلا لرجل واحد قد اختاره الله على غيره<sup>٩٠٦</sup> . وهذه الفقرة تؤكد بالإضافة إلى التركيز على تدريب القائد ضرورة توفر صفات ذاتية أودعها الله عنده ميزته عن غيره من الآخرين كقوة الجسد وقوة القلب وقوة النفس وقوة بعض الحواس .. الخ . لكن يجب الانتباه إلى أن كل ذلك يتحسن ويصقل بالتدريب ويسوء ويضعف بالإهمال .

لذلك قال العرب : (( قد أنصف القارة من رامها )) ، والقارة قوم من اليمن يقال : أنهم من الهون ابن خزيمة بن مدركة<sup>٩٠٧</sup> ، ويقال الهون بضم الهاء ، ويقال : أنهم كانوا مع ثُبَع الحميري<sup>٩٠٨</sup> ، وكانوا يرمون الحَدَقَ<sup>٩٠٩</sup> لحذقهم في الرمي، وكانوا مهرة - والمهارة لا تأتي إلا بالتدريب النوعي والمستمر - في الرمي ، فضرب بهم المثل<sup>٩١٠</sup> . لذلك كان السيف الذي يُعد رمزا للقوة والعنفوان هو الذي يحدد من هو السلطان (الذي هو القائد العام للجيش في الحالات الطبيعية) لذلك كان على القائد ( السلطان - أو من يكلفه السلطان كقائد في الحالات الاستثنائية) أن يحدد الهدف كأن يكون التصدي لعدو محتمل (أو قائم بالفعل) ، وعملية التصدي هذه في الفكر الاستراتيجي قد تكون بشكل مباشر (التصدي العسكري للعدو) سواء عبر الهجوم ، أو التصدي عبر الدفاع في حال عدم توفر القوة الكافية للهجوم ، أو تقرير الهدنة مع العدو ، أو نقضها .

أو قد يكون بشكل غير مباشر (التهديد بالقوة) كما حصل قبل معركة عين جالوت، حيث قام السلطان المظفر قطز بتهديد الصليبيين . وقال لهم : في حال التعرض لقواته من قبلهم سيترك المغول ويعود لمقاتلة الصليبيين الأمر الذي رتب اتفاقاً بين الطرفين . تعهد الصليبيون بموجبه بعدم التعرض لقوات المماليك ، بل تسهيل مرورها<sup>٩١١</sup> . وفي معركة عين جالوت استخدم المماليك الطريقتين معا المباشرة ، وغير المباشرة عندما عقدوا مجلساً للحرب وقرروا فيه التصدي للمغول بطريقة الهجوم . أي السير إلى العدو وملاقاته<sup>٩١٢</sup> . كما قرر استخدام الطريقة غير المباشرة مع الصليبيين لأنهم كانوا يشكلون في ذلك الوقت خطراً ثانوياً بينما شكل المغول الخطر الرئيسي الداهم ، وهذا ينم عن فكر استراتيجي رائع استطاع تقدير الموقف تقديراً

<sup>٩٠٦</sup> - ابن منكلي : التدبيرات السلطانية ، ص ٣٦٩ .

<sup>٩٠٧</sup> - ابن هشام ( أبي محمد عبد الملك ، ت ٢١٨هـ / ٨٣٣م ) : السيرة النبوية ، تح سعيد محمد اللحام ، دار الفكر للنشر والتوزيع ، دمشق ، ج ٣ ، ص ١٠٨ .

<sup>٩٠٨</sup> - تبع الحميري : لقب ملوك مملكة حمير التي قامت في اليمن في المئة الثانية قبل الميلاد ، وقد ورد اسم تبع لعدة أشخاص وأهم هؤلاء تبع الأقرن الأكبر بن عمرو بن شمر ملك من ملوك اليمن حكم ١٦٣ سنة وهو الذي غزا حتى حدود الصين . أبو حنيفة الدينوري ( أحمد بن داود ، ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥م ) : الأخبار الطوال ، تح عبد المنعم عامر ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، الإدارة العامة للثقافة ، القاهرة ، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م ، ص ٢٨ . البعقوبي ( أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ، ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م ) : تاريخ البعقوبي ، دار صادر ، بيروت ، م ١ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

الطبري : تاريخ الطبري ، ج ١ ، ص ٤٢٦ - ٤٥٢ . شلبي ( أحمد ) : موسوعة التاريخ الإسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ، ط ٢ القاهرة ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م ، م ١ ، ص ٩٧ - ٩٩ .

<sup>٩٠٩</sup> - الحدق : في السلاح بشكل عام وهو كناية عن دقة الإصابة لحدة العين عندما يصوب عليها . انظر : البكلميشي : بغية المرام وغاية الغرام في رمي سهام ، ص ٣٢ الحاشية رقم ٥ .

<sup>٩١٠</sup> - البكلميشي : ص ٣٢ .

<sup>٩١١</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ق ١ ، ص ٤٣٠ .

<sup>٩١٢</sup> - المقرئزي : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٨ - ٤٢٩ .

صحيحاً ، فكانت القرارات المبنيّة على تلك التقديرات قرارات صحيحة ، فكان النجاح حليف المماليك في تلك المعركة .

أما آلية تحديد الهدف فقد حددها الرشيد بثلاثة أمور هي :

الأمر الأول : ضرورة عقد مثل تلك الاجتماعات للتشاور بين القادة وأصحاب الحكمة والمعرفة

الأمر الثاني : الاستفادة من التجارب السابقة بنجاحاتها وإخفاقاتها ( الاستفادة من التاريخ ) والاستفادة أيضاً من أصحاب التجارب والخبرة في هذا المجال سواء كانوا قادة أم جنود .

الأمر الثالث : ضرورة التأكد والتثبت من المعلومات المتاحة أمام القادة<sup>٩١٣</sup> ويكون ذلك بالاستطلاع المستمر ومقاطعة المعلومات مع ما يتم الحصول عليه من العيون والجواسيس لتكتمل الصورة عن القوات المعادية – عددها - تسليحها - توضعها – تدريبها ... الخ

- تحديد الإمكانيات اللازمة من أجل تحقيق الهدف ، والإمكانيات متعددة الأوجه منها : ماهو عسكري - السلاح- **العتاد** - التدريب ، ومنها ما هو اقتصادي (الأموال اللازمة لتغطية نفقات الحرب) حيث كانت تناقش هذه المسائل في مجلس الحرب ويتخذ بشأنها القرار المناسب ومنها ما هو سياسي (التحالفات الدولية – جبهة الأصدقاء ، وجبهة الأعداء ) وكانت تدرس باعتناء ، ويتخذ بصدد الإجراءات المناسبة .

بعد ذلك يستدعي السلطان الجنود مع أمرائهم ، حيث يقوم الأمراء بحلف يمين الطاعة بحضرة السلطان<sup>٩١٤</sup> بعدها يتم البدء بتوزيع ما يلزم هؤلاء الأمراء ، والجنود من عتاد حربي وأسلحة من الزرد خاناه ، وكان مقرها الإيوان الكبير الذي يجلس فيه الخليفة تحت القبة التي هدمت سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥م (نكر المقريري أن خزائن السلاح كانت موجودة في أيامه بجوار دار الضرب خلف المشهد الحسيني<sup>٩١٥</sup> .

- تعيين القادة : أسهم القادة في الحروب بدور مهم سواء في النجاحات ، أو الإخفاقات وهذا أمر بديهي فكلما رئيس مشتقة لغويا من الرأس ، وعندما يكون الرأس سليماً يكون الجسم مستجيباً قادراً سليماً، فالقادة هم الذين يضعون الخطط الحربية ، وهم الذين يتخذون القرارات وعندما تتجلى القدرة في تحويل تلك القرارات إلى واقع لتصبح ذات قيمة – إذ لا قيمة على الإطلاق للقرارات إذا بقيت على الورق . لذلك تعد عملية اختيار القادة في المعارك هي الخطوة الأولى لتحقيق الانتصار على العدو ، وبناءً على ذلك كان السلطان هو القائد في المعارك المهمة يساعده قادة آخرون يختارهم من ذوي الخبرة والتجربة والعلم والمهارة في قيادة الحروب ، فعلى سبيل المثال في معركة عين جالوت كان القائد العام هو السلطان قطز ، وعند تنظيم المعركة (تحضير المعركة) قام بالإجراءات التالية عين الظاهر

<sup>٩١٣</sup> - الرشيد : تفريغ الكروب في تدبير الحروب ، ص ٢٥ .

<sup>٩١٤</sup> - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ١٤٧ .

<sup>٩١٥</sup> - المقريري : المواعظ والاعتبار ، ج ١ ، ص ٤٠٧ - ٤١٧ .

ببييرس على رأس قوات استطلاعية تقدمت القوات للحصول على المعلومات اللازمة عن العدو ، وفي ذات الوقت حددت لها مهمة الاشتباك مع قوات العدو ضمن خطة متفق عليها أيضاً عندما قرر السلطان الظاهر بيبرس أن يحرر أنطاكية قرر أن يقود المعركة بنفسه وأن يساعده بذلك قائدان كبيران هما : - بدر الدين الخاندار : مقدم الجيوش المصرية - وعز الدين ايغان الركني صاحب التجارب الكبيرة في قيادة الحروب والتخطيط لها<sup>٩١٦</sup> . وليس من الضرورة أن يكون السلطان هو القائد في كل المعارك ، ففي سنة ٦٩٧هـ / ١٢٨٠م عين السلطان قلاوون الألفي الأمير بدر الدين بكتاش النجمي<sup>٩١٧</sup> على عسكر من مصر ، وعين الأمير علاء الدين ايدكين البندقاري الصالحي<sup>٩١٨</sup> على رأس عسكر آخر ، وسيرهم إلى الساحل لحفظ البلاد من الفرنجة عندما ازداد خطر المغول على البلاد الشامية<sup>٩١٩</sup> ، والأمثلة كثيرة على ذلك .

- التحضير للحرب (تحضير الدولة – الجيوش- مسرح الأعمال القتالية ) لتحقيق هدف الحرب .

تحضير الجيوش – بعد أن تم تحديد الهدف ( التصدي لعدو ما يريد احتلال الأرض ، أو تحرير أرض محتلة من قبل عدو ما ) ، وتحديد الإمكانيات اللازمة ، والضرورية لتحقيق ذلك الهدف ( استخدام القوة أو التلويح باستخدامها – السياسة ) تبدأ عملية التحضير للجيوش التي هي الأداة لتحقيق الأهداف المرسومة ، ويعد تحضير ، وإعداد هذه الجيوش عاملاً بالغ الأهمية لان قوتها وقدرتها تكمن في نوعية إعدادها وتحضيرها الذي يتم في مرحلتي السلم والحرب معا ويشمل :

- ١- إعداد الجيش من حيث التشكيل والتكوين ونوعية التنظيم والتدريب وضمان استمرار قدرتها على التطور ومواكبة تطور الأسلحة .
- ٢- التأمينات المادية والفنية (الطعام – المياه – المواد الطبية – الأسلحة والمعدات القتالية والوسائط المستخدمة... الخيول – الجمال... الخ)
- ٣- التدريب العملي للحفاظ على درجة عالية من التأهب ، والجاهزية ، وإتقان استخدام مختلف الأسلحة الموجودة ، والتعامل معها بسهولة ومرونة ودقة وجرافية ، واستيعاب كيفية خوض المعركة والأساليب التي تؤمن التفوق على تكتيكات العدو ، فقد ذكر بيبرس الداودار :

<sup>٩١٦</sup> - الذهبي : دول الإسلام ، ص ٣٧٠ .

<sup>٩١٧</sup> - بدر الدين بكتاش النجمي : هو الأمير بدر الدين بكتاش بن عبد الله الفخري الصالحي النجمي أمير سلاح . أصله من مماليك الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ . ترقى في الخدم حتى صار من أكابر الأمراء ، عرف بالخير ، وعلو الهمة ، وسداد الرأي وكثرة المعروف ، ولما قتل الملك المنصور لاجين أجمعوا على سلطنته ، فامتنع . انظر : ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ج ٨ ، ص ١٧٥ . ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٣ ، ص ٣٨٥ . المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٤١١ . ابن أبيك الداوداري : كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ١٤٦ .

<sup>٩١٨</sup> - الأمير علاء الدين ايدكين البندقاري : كان من أعيان الأمراء الصالحية ، وكان الملك الظاهر بيبرس البندقداري مملوكه اشتراه عندما كان بحماة ، وكان أصل ايدكين هذا مملوكاً للأمير جمال الدين موسى بن يغمور ، ثم انتقل إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فراه وجعله بندقاره مأموره على عجلون ، ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م . ابن تغري بردي : المنهل الصافي ، ج ٣ ، ص ١٥٦ . ١٥٥ . المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٩٠ .

<sup>٩١٩</sup> - الداودار : زبدة الفكرة ، ص ١٣٤ .

في سنة ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م و بعد أن أصبح قرار التصدي للمغول جاهزاً عندما حاولوا دخول البلاد أنه (( أمر السلطان أن يلبسوا في كل يوم عَدَدَ الحرب ، ويصطفوا ، ويتشالشوا<sup>٩٢٠</sup> ، ليتمرنوا على الحرب ))<sup>٩٢١</sup>

وسيتم التحدث عن هذه النقاط بشيء من التفصيل لبعضها وبالاختصار للبعض الآخر .

- إعداد الجيش المملوكي : تم التحدث في فصل سالف عن التدريب والإعداد للجيش المملوكي وبقي التحدث عن تنظيم الجيش في الدولة المملوكية الأولى والذي كان يتألف الجيش من ثلاث فئات رئيسية وهي:

الفئة الأولى : المماليك السلطانية وهي أعظم الأجناد شأناً وأرفعهم قدراً وأشدّهم إلى السلطان قرباً وأوفرهم إقطاعاً ، ومنهم يتم تعيين الأمراء رتبة بعد رتبة<sup>٩٢٢</sup> وهم ينقسمون إلى عدة فئات :

\* الخاصكية<sup>٩٢٣</sup> : وهم الذين يلزمون السلطان في كل تحركاته ، ويقومون بالمهمات الشريفة ويمتازون عن غيرهم من المماليك السلطانية بان السلطان نفسه يشرف على تربيتهم وعتقهم ، ولذلك فهم أكثر قرباً منه ، ومن بينهم كان الترشيح للإمارة ، ونيابة الأقاليم .

\* الاجلاب : وهم مماليك يشتريهم السلطان ويضعهم في الطباقي ، ويشرف على تربيتهم الطواشية ، ومقدمي المماليك الذين عرفوا بالصرامة ، والورع ، وشدة الانضباط ، فمقدم المماليك في عهد السلطان قلاوون كانت له سطوة ، ومهابة لا يجرؤ أن يسير أمامه احد دون استئذان<sup>٩٢٤</sup> ، وبعد أن تتم تربية المماليك في الطباقي كانوا يُعتقون ويُنعَّم عليهم بالخيل والأسلحة والقماش ، والجامكية<sup>٩٢٥</sup> ، و الاقطاعات<sup>٩٢٦</sup> .

\* السيفية<sup>٩٢٧</sup> : وهم على نوعين :

- مماليك منسوبون إلى السلطان السابق .

- مماليك منسوبون إلى الأمراء ، وقد نقلوا إلى الديوان الشريف .

وكانت المماليك السيفية ضعيفة الترابط لأنها لم تكن تنتمي فيما سبق لأمير واحد . لذلك كانوا لا يعرفون بعضهم البعض الآخر .

\* القرانيص<sup>٩٢٨</sup> : وهم المماليك الذين لم يمض على وفاة أساتذتهم مدة طويلة ومعنى هذا إن القرانيص لم يكونوا فرقة عسكرية واحدة وذلك لانتساب كل جماعة منهم إلى السلطان الذي اعتقهم لكن بصفة عامة كان موقفهم من الاجلاب المشتريات موقفاً غير منسجماً وكان الواحد من هؤلاء برتبة أمير خمسة .

<sup>٩٢٠</sup> - يتشالشو : يصطفوا خلف الرايات والأعلام المخصصة والمشالشة من الشاليش أو الجاليش وهو علم كبير أبيض حيث كان السلطان يركب في المواكب في زمن السلم بالسناجق فقط أما زمن الحرب فيخرج بالأعلام الثلاثة العصابة والجاليش والسنجق .

القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٧ ؛ المقرئزي : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٤٢٣ .

<sup>٩٢١</sup> - الداودار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٤١ .

<sup>٩٢٢</sup> - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٥ - ١٦ .

<sup>٩٢٣</sup> - القلقشندي : ج ٤ ، ص ١٥ ، الحاشية رقم ٣ .

<sup>٩٢٤</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٢ .

<sup>٩٢٥</sup> - الجامكية : جمعها جوامك وهي الرواتب . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٥٧ .

<sup>٩٢٦</sup> - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٤ - ١٥ .

<sup>٩٢٧</sup> - القلقشندي : ج ٤ ، ص ١٥ ، الحاشية رقم ٣ .

<sup>٩٢٨</sup> - القلقشندي : ج ٤ ، ص ١٥ ، الحاشية رقم ٣ .

هذه هي فئات المماليك السلطانية ويلاحظ أنهم لم يكونوا جميعا على مستوى واحد من المعاملة الأمر الذي زرع في صفوفهم نوعا من الغيرة والحسد .

الفئة الثانية : أجناد الحلقة<sup>٩٢٩</sup> - وكانوا يعدون قلب الجيش المملوكي وهم الذين كان ينشئهم السلاطين دون فئات مماليك الأمراء ، وانضم إلى هذه الفئة ما يسمى بالوافدية<sup>٩٣٠</sup> من التتار . كما ضمت هذه الفئة بعض أرباب الصنائع ، والحرف على اثر الضعف الذي أصاب الجيش حين أصاب أفراده ، فصاروا يبيعون اقطاعاتهم إلى أهالي البلاد ، وأضيف إلى أجناد الحلقة أحيانا مماليك الأمراء الذين انحلت اقطاعات أستاذهم ، أو صودرت ، وكانوا يسمون بالأميرية وقد نظم أجناد الحلقة في الحرب ، والسلم إذ جعل على كل أربعين جندي مقدم ، وهذا المقدم لم يكن له عليهم أية سلطة إلا أثناء الحرب ، وعند ما كان يدعى أجناد الحلقة للقتال كان ينضوي كل ألف منهم تحت أمرة أمير منه<sup>٩٣١</sup> .

وكان لكل مائة جندي منهم أيام السلم نقيب يأترون بأمره ، وكانت مرتباتهم تصرف من ديوان الجيش ، وهذه الفئة تآتمر بأمر السلطان دون أن تكون ملكا له ، ومعنى هذا أنهم كانوا بمثابة الجيش الدائم للدولة ، وكانوا يقسمون من حيث المهام الموكلة لهم إلى أربعة أقسام :

- البحرية : وهم حرس السلطان في القلعة ، وكانوا ينامون في الدهاليز<sup>٩٣٢</sup> المحيطة بالقلعة<sup>٩٣٣</sup>

- الشرفية : وهم الذين كان السلطان يرسلهم في سفارته .

- مماليك الغيبة : الذين كان السلطان يعينهم في مراكز محددة أبان غيابه .

- والباقي فرق تخدم في بيوت الأمراء .

الفئة الثالثة: أجناد الأمراء هم المماليك الذين يتبعون أمراء هم مباشرة وعدد هؤلاء يختلف حسب الحالة المادية لهذا الأمير ، أو ذاك وبالعكس فان مقام الأمير بمماليكه .

ومن مجموع هذه الفئات الثلاث تتكون الجيوش المملوكية والتي يقودها السلطان أو من يكلفه بذلك ، وهناك فئة أخرى كانت تسمى أولاد الناس وقد شملت هذه الفئة أبناء الأمراء فقط وهي نوع من الاحتياط الحربي يدعى إلى السلاح في حالة الحرب وتدفع لهم مرتبات سنوية نقدية أو اقطاعات .

أما عن رواتب الجند بشكل عام فكانت تعتمد إلى حد كبير على الاقطاعات التي كان يوزعها السلطان على الأمراء ، والأجناد ، والتي كان يخرج بها منشورات من ديوان الجيش التي ترسلها إلى ديوان الإنشاء فتسجل عند المدير المختص ، ويكتب بها منشور يجعل الإقطاع شرعا على من كتب له .

<sup>٩٢٩</sup> - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٦ .  
<sup>٩٣٠</sup> - الوافية: هم قبائل من المغول وفدوا إلى دولة المماليك والتجأوا إليها وتوطنوا في بلاد الشام ومصر . دهمان : معجم المصطلحات التاريخية ، ص ١٠٥ .  
<sup>٩٣١</sup> - القلقشندي : ج ٤ ، ص ١٦ .  
<sup>٩٣٢</sup> - الدهليز : هو خيمة السلطان ترافقه في الحرب ، أو الصيد ، أو التنزه . دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ٧٧ .  
<sup>٩٣٣</sup> - القلقشندي : ج ٤ ، ص ١٦ .



أما المماليك السلطانية فكانت تدفع لهم مرتبات من مال السلطان أحياناً ، ومن بيت المال أحياناً أخرى

وبهذا يستفيد المماليك السلطانية بدفع رواتبهم شهرياً ، وبشكل منتظم بالإضافة إلى استفادتهم من النفقة السلطانية ، وكذلك الهدايا والخلع . لكن من المفيد أن يتم التنويه إلى أن هذه الرواتب لم تكن ثابتة بل تخضع لرغبة السلاطين ، وأهوائهم ، وكفاءة ، وقدرات الجندي ولاسيماً في استخدام الأسلحة .

هذه القدرة والكفاءة في استخدام الاعتدة ، والأسلحة ، والتي تتطور باستمرار نتيجة لمتطلبات واحتياجات التغلب على كل حالة تكتيكية مفترضة ، أو حقيقية ، أو لمواكبة تطور جيوش العدو الذي يسعى باستمرار إلى إيجاد حالة واقعية يستطيع من خلالها فرض إرادته في أرض الميدان حل تلك المسائل العملية لا يكون إلا بالسعي المستمر ، والدائم لتطوير الأسلحة ، والأعتدة من جهة ، ومن جهة أخرى من خلال التدريب عليها ، والقدرة على استخدامها بأفضل الحالات هذا وقد تم التحدث عن التدريب في الفصل السالف ولا حاجة للإعادة والتكرار .

أما الجيش الصليبي ، فإن الملك ( ملك مملكة القدس ) هو القائد العام الذي يقف على رأس الجيش ، وهو القائد الأعلى للجيش الصليبية حسب النظام الاقطاعي الأوروبي ، ويساعد الملك ثلاثة موظفين كبار هم : الكند سطل ( الكونستابل - **Connestable** ) ، والمارشال **Marechal** والقهرمان ( السنجال - **Senechal** )<sup>٩٣٤</sup>

الكندسطل يمثل رئيس هيئة أركان حرب الجيش ، فهو الذي يجهز للملك رؤساء ، أو قادة الجماعات ، وينوب عن الملك في قيادة الجيش ، وتنظيمه من أجل القتال في حال غياب الملك عن المعركة .

ويأتي المارشال في المكانة بعد الكندسطل ، وعليه أن يقدم للأخير واجب الطاعة ، والاحترام ومهمة المارشال هي : الاعتناء بتموين الجيش ، والتفتيش عليه ، وترتيب المعسكرات ، وتوزيع الغنائم بين أقسام الجيش المختلفة ، كما أنه في حال غياب الكندسطل عن المعركة فعليه الوقوف إلى جانب الملك حاملاً الراية الملكية .

أما القهرمان ، فكانت اختصاصاته العسكرية تقل في الأهمية عن اختصاصات الكندسطل والمارشال ، والواجبات الملقاة على عاتقه هي : فحص القلاع ، والحصون ، والعمل على أن تكون حاميات تلك الأماكن على أهبة الاستعداد ومعدة إعداداً كاملاً فضلاً عن توفير المؤن لها وقد عرف عند الصليبيين ثلاثة أشكال من الجنود هم : الفرسان من طبقة النبلاء<sup>٩٣٥</sup> ، والسيرجنديون الذين يكوّنون المشاة ، والخيالة الخفيفة في جيوش القوات الصليبية ، وهم ليسوا من طبقة النبلاء<sup>٩٣٦</sup> ، وذكر يوشع براور أن السيرجندية هم رجال المشاة في بعض الأحيان

<sup>٩٣٤</sup> - الحويري ( محمود محمد ) : الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص ١٥٧ .

<sup>٩٣٥</sup> - بالار ( ميشيل ) : الحملات الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحادي عشر إلى القرن الرابع عشر ، تر بشير السباعي دار عين ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م ، ص ١٤٠ .

<sup>٩٣٦</sup> - السيرجندية : ذكر العماد الأصفهاني في حوادث سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م أن السيرجندي كرار ويفهم من كلامه أنه فارس خفيف يستخدم للهجوم . الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٤٠٣ . بينما يرى جروسية بأن السيرجندية كانوا يشكلون الجنود المشاة . جروسية ( رينيه ) : ملحمة الحروب الصليبية ، تر سامية زغيب ، مراجعة وتقديم إبراهيم بيضون ، دار الهادي ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م ، ص ٥٦ .

وأحيانا أخرى يكونون من الفرسان<sup>٩٣٧</sup> . والتركبولية وهي : قوات من الخيالة الخفيفة يتم تجنيدها من بين أهالي البلاد الأصليين الذين ينتمون بأصولهم إلى العرب ، أو الأتراك، وهم يعينون تحت إمرة المارشال الذي ينظم صفوفهم خلال المعركة ، وهناك ملاحظة يجب التوقف عندها وهي : أن التركبولية كانوا يستخدمون بوجه خاص في مهام الاستطلاع<sup>٩٣٨</sup> ، ولحماية القوات أثناء الزحف .

أما الجيوش المغولية فكان على رأسها الخان الأعظم ، وكان تنظيمها على الشكل التالي :  
التوكان **Tukan** : ويتألف من مائة ألف شخص<sup>٩٣٩</sup> .

التومان **Tuman** : يتكون من عشرة آلاف شخص محارب ، ويسمى قائده نويان أو نويين<sup>٩٤٠</sup> . فقد ذكر بيبرس الداودار ما يدل على أن التومان تنظيم عسكري مغولي عندما قال : أن هولاكو عندما ذهب إليه ركن الدين البرواناه وشكا إليه ما فعله السلطان عز الدين ونائبه يوتاش ... قرر هولاكو تجهيز تومان من عسكريه وإرساله معه<sup>٩٤١</sup> ، وذكر النويري ما يدل على مثل ذلك ، وجاء ذلك في نص الأمان الذي أرسله غازان لأهالي دمشق ، وجاء فيه (( بقوة الله تعالى ليعلم أمراء التومان والألوف والمائة وعموم عساكرنا المنصورة .... ))<sup>٩٤٢</sup> . أما المقريري فقد أتى على ذكر أن غازان أرسل إلى أهالي دمشق نص أمان دون الخوض في التفاصيل لكن محقق كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك محمد زيادة ثبت ذلك النص كملحق في نهاية القسم الثالث من الجزء الأول<sup>٩٤٣</sup> .

المنجان **Mingan** : ويتألف من ألف شخص .

الدين **Don** : وتتألف من مائة شخص<sup>٩٤٤</sup> .

الكوكبة : تتألف من خمسين شخصا محاربا ، ويسمى أمرها يوزباشي .

المقدمة : وتتألف أيضا من خمسين شخصا محاربا ، ويسمى أمرها اونباشي .

الجماعة ويسمونها أربان **A rban**: وتتألف من عشرة أشخاص محاربين ، وتعد أصغر وحدة مقاتلة في الجيش المغولي<sup>٩٤٥</sup> . والجيوش المغولية تتألف من خيالة وصنوف تأمين ( مثل الهندسة والأسلحة الثقيلة المنجنيق .. ) .

<sup>٩٣٧</sup> - براور ( يوشع ) الاستيطان الصليبي في فلسطين - مملكة القدس الصليبية ، تر عبد الحافظ البنا ، عين للدراسات =

= والبحوث الاجتماعية والإنسانية ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م ، ص ١٦٣ .

<sup>٩٣٨</sup> - الحويري : الأوضاع الحضارية ، ص ١٥٩ .

<sup>٩٣٩</sup> - بدر ( مصطفى طه ) : محنة الإسلام الكبرى - أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدي المغول ، الهيئة

المصرية العامة للكتاب ، ط ٢ ، القاهرة ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م ، ص ٨٩ .

<sup>٩٤٠</sup> - الجويني ( عطا ملك ) : تاريخ فاتح العالم جهانغشاي - في تاريخ جنكيز خان وأعقابته حتى كيوك خان وحروبهم مع

الخوارزميين ، تر محمد التونجي ، دار الملاح للطباعة والنشر ، ط ١ ، دمشق ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م ، ج ١ ، ص ٦٦ .

- ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٣٤ .

<sup>٩٤١</sup> - الداودار : زبدة الفكرة ، ص ٤٩ .

<sup>٩٤٢</sup> - النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣٢٥ - ٣٢٦ .

<sup>٩٤٣</sup> - المقريري : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ١٠١١ . وقد أورد بعض المؤرخون أن التومان ، أو الطومان نقد إيراني من ذهب أو فضة

حسب قال أبو الفداء : أن التومان هو البدره ويساوي عشرة آلاف درهم ، وذكر مثل ذلك اليوسفي . أبو الفداء : المختصر ، ج ٣

ص ٩٠ . اليوسفي ( موسى بن محمد بن يحيى ، ت ٧٥٩هـ / ١٣٥٨م ) : نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر ، تح أحمد حطيط

عالم الكتب ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، ص ١٧١ . والعامل المشترك بين من قال أن التومان تنظيم عسكري مغولي

وبين من ذكر أنه عملة فارسية هو الرقم عشرة آلاف وأترك الإنتاج لمن يرغب .

<sup>٩٤٤</sup> - بدر : محنة الإسلام الكبرى ، ص ٨٩ .

<sup>٩٤٥</sup> - أمين ( محمد فتحي ) : الغزو المغولي لديار الإسلام ، دار الفكر ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ص ٨٦ ..

والخيالة مقسمة في الجيش المغولي إلى :

السرايا الفدائية واجبها فتح المعركة وذلك بالشروع بالقتال ، والاشتباك مع العدو .  
سرايا الصاعقة وهي الخيالة الثقيلة واجبها التغلغل في صفوف الأعداء واستثمار الفوز  
السرايا الخفيفة واجبها المطاردة وحماية الجناحين اثناء القتال<sup>٩٤٦</sup> .

- التأمينات القتالية والفنية:

التامين في العلم العسكري بشكل عام تفكير استراتيجي فالجيوش تحتاج إلى تأمينات مادية (قوى بشرية وطعام- مياه- لباس) ، ويحتاج أيضا إلى تأمينات فنية (أسلحة - اعدته - إصلاح المعطل منها في الميدان - بناء الجسور- تسوية الطرق - حفر خنادق ، أو ردمها- تهديم أسوار ، أو نخبها... الخ) .

وفي المعارك تحصل خسائر في القوى البشرية وفي الأسلحة ووسائل النقل ، عملية تامين الجيوش بذلك هو ما يسمى التامين والقوى التي تقوم بذلك العمل تسمى قوات تامين وفي الجيوش الحديثة تسمى قوات اختصاص أو قوات تامين .

فهل اعتنى العقل الاستراتيجي بالتأمينات القتالية والفنية في العصر المملوكي الأول ؟

خاضت الجيوش المملوكية الكثير من المعارك ، واستطاعت إن تحقق انتصارات كبيرة على أرضية تفكير استراتيجي عالي المستوى ، فعلى سبيل المثال لا الحصر :

في معركة عين جالوت قرر مجلس الحرب الذي اجتمع قبل المعركة جمع الأموال اللازمة لتامين الأسلحة و الأعددة اللازمة لتحقيق الهدف المخطط في مواجهة الغزو المغولي<sup>٩٤٧</sup> .

وعندما تدارس مجلس الحرب موضوع تامين وسائل النقل ، والخيول وما يلزمها من

العلف كان أمامه عدة خيارات منها : نقل تلك المواد من مصر إلى أرض المعركة

وكان هذا يحتاج إلى إمكانيات كبيرة ، ولاسيما وسائل النقل ، وهذا أمر إضافة إلى

أنه مكلف ، هو مرهق ، لذلك قرر مجلس الحرب اختيار البديل الذي يحقق الغاية

بتكلفة أقل ، فقرر الاستفادة من المناطق المحلية وما تحويه من أعشاب وغيرها .

وقد اختير سهل عين جالوت مسرحاً للأعمال القتالية والعمليات الحربية وهو غني

بالأعشاب والمياه ، وهذا يوفر الكثير من الجهد ، والأموال لا سيما وإن أحد القادة

الاستراتيجيين قال : ((إن تكلفة وحدة وزن من العلف تحصل عليها من ارض

المعركة تعادل تكلفة عشرون وحدة وزن مشحونة من مناطق التعسكر ( الإقامة )

<sup>٩٤٦</sup> - الصلابي ( علي محمد ) : المغول بين الانتشار والانكسار ، المكتبة العصرية ، ط١ ، بيروت ، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م ، ص٧٩ .

<sup>٩٤٧</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص٦٧- ٦٨ .

إلى المنطقة التي ستدور فيها المعركة))<sup>٩٤٨</sup> .

كما ذكر المقرئزي أنّ السلطان جهز بعض الإمدادات الضرورية ولاسيّما من الخيول ( الجنائب ) : وهي الخيول التي كانت تسير وراء الجيوش في الحروب لاحتمال الحاجة إليها<sup>٩٤٩</sup>

ولم يكن ذلك في معركة عين جالوت فقط إنما في الكثير من المعارك التي خاضها الجيش المملوكي مع الصليبيين وعلى سبيل المثال - وقبل أن يحاصر السلطان الظاهر بيبرس قلعة قيسارية سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م كتب إلى القلاع بطلب المجانيق ، وفي السنة نفسها عندما حاصر أرسوف [ كان مسبقاً قد جهز فرقا خاصة أو قوات اختصاصية ] ، أحضر المهندسين وعملوا له سرباً تحت الأرض<sup>٩٥٠</sup> .

و سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٦م أثناء فتح مدينة صفد عسكر الجيش المملوكي في سهل عين جالوت وفيه الكثير من الأعشاب التي تحتاجها الخيول والدواب الأخرى ، وجّه فرقة من الحجارين لنقب الأسوار [ وحدات هندسية وهي تسمى وحدات تأمين أيضاً حتى في هذه الأيام ] . كما اهتم المماليك بعملية التأمين الطبي والمادي - الإمداد بالطعام والمياه إلى غير ذلك ، حيث (( نصب خيمة فيها حكماء و جراحية ، و أشربة ومأكّل ))<sup>٩٥١</sup> . ولأن السلاطين المماليك كانوا يدركون أهمية الإمداد فقد أولوه كل العناية والرعاية وكانوا يهتمون بحراسته لكي يصل إلى المكان المحدد في الزمان المحدد ففي سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م وأثناء الإعداد لمعركة تحرير أنطاكية من الصليبيين بعث السلطان الأتقال إلى دمشق<sup>٩٥٢</sup> ولم يدعها تمشي في الطرقات نفسها التي كانت سوف تسلكها القوات خوفاً من أن تُمس بأذى .

وفي سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م رتب السلطان قلاوون الألفي كل الأمور لاستعادة عكا من الصليبيين ولم ينس أبداً مسألة التأمين المادي والفني والطبي ، ومن أجل ذلك فرض على قرى المرج وغوطة دمشق قدراً محدداً من المال ، على كل رجل مابين ألفين إلى خمسمائة درهم ، وجمع أيضاً من ضياع بعلبك والبقاع الذي أرسل إليه رجالاته من أجل تأمين الأخشاب اللازمة للمنجنيقات<sup>٩٥٣</sup> .

وفي سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م عندما أرسل السلطان لاجين المنصوري قواته لغزو سيبس كان قد أرسل معها مجموعات كبيرة من التأمينات والدليل على ذلك أن القوات عندما عادت من أذنه إلى المصيصة بعد الغارة أقاموا عليها ثلاثة أيام حتى نصبوا جسراً مرت عليه العساكر إلى بغراس<sup>٩٥٤</sup> .

وهكذا في كل المعارك كان العقل الاستراتيجي يلحظ ضرورة الاهتمام بجميع أنواع التأمينات ولاسيّما منها التأمين الإداري الذي يهدف إلى تحضير الأموال والطعام والمياه ، واللباس

<sup>٩٤٨</sup> - زي سون : فن الحرب ، ص ٢٣ .

<sup>٩٤٩</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ص ٥١٦ .

- الداودار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٧٥ .

<sup>٩٥٠</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٠ .

<sup>٩٥١</sup> - المقرئزي : ج ٢ ، ص ٣٤ .

<sup>٩٥٢</sup> - المقرئزي : ج ٢ ، ص ٤٩ .

<sup>٩٥٣</sup> - المقرئزي : ج ١ ، ق ٣ تح محمد زيادة ، ص ٧٥٤ .

<sup>٩٥٤</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٣٩ .

والتأمين الفني الذي يهدف إلى تجهيز العتاد والسلاح للمشاركين في المعارك ، وفتح وتسوية و تعزير الطرقات والممرات الجبلية وحفر الأنفاق والسروب ... الخ .

## ب - إستراتيجية الجيش المملوكي في معاركه مع الصليبيين :

أظهرت جميع المعارك التي خاضتها الجيوش المملوكية مع الصليبيين مدى عمق الفكر الإستراتيجي المتميز لقادة هذه الجيوش على السواء في ذلك العصر . فعلى سبيل المثال

ما أن انتهت الحملة الصليبية السابعة التي اقترنت أحداثها بسطوع نجم دولة سلاطين المماليك البحرية حتى أبحر أتباع لويس التاسع<sup>٩٠٥</sup> من عكا في صفر ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م<sup>٩٠٦</sup> لكن لويس أستغل الصراع الدائر بين بقايا الدولة الأيوبية والمماليك على السلطة ، فأستطاع أن يحصل على ما لم يستطع الحصول عليه في الحرب حيث تمكّن من إطلاق عدد كبير من أسرى جيشه الذين كانوا أسرى عند المماليك بعد أن أفندى نفسه بمبلغ كبير من المال دفع جزءاً منه فوراً ، ويدفع الباقي قبل إطلاق سراح باقي أسراه وذلك باتفاقية عقدها مع شجر الدر زوجة أبيك التي كان لها نفوذ كبير لأن هذه الحملة قد علمته أنه عندما تكون الجيوش ضعيفة تكون الحاجة إلى وجود علاقة دبلوماسية مع الخصم وهكذا يمكن تحقيق الهدف كلياً ، أو جزئياً باستخدام الإستراتيجية غير المباشرة .

لكن جاء تدخل الخليفة العباسي في الوقت المناسب الذي حسم النزاع بين الطرفين المتنازعين لمصلحة المسلمين ، و مخيباً لآمال الصليبيين<sup>٩٠٧</sup> ، عندها اضطر لويس التاسع أن يعود إلى بلاده يجر أذيال الهزيمة لمشروعه الكبير الذي كان من المفترض أن يبدأ بتغيير الأوضاع السياسية في فلسطين وصولاً إلى حرمان المسلمين من الحصول على نتائج نجاحهم الإستراتيجي بعد أن كادوا أن يحققوا نجاحاً سياسياً في التفرقة بين المسلمين<sup>٩٠٨</sup> ، وتدعيم مركز الصليبيين فيها وكان ذلك سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م ، ومع ذلك فقد استطاع لويس التاسع بإقامته هناك أن يرفع الروح المعنوية بين الصليبيين في الشام بعد انقطاع سبل الإمداد العسكري عنهم من أوروبا ، لكن بعد رحيله استطاع بيبرس البندقداري أن يتولى السلطة على مصر والشام ، وفي تلك الأيام بين رحيل لويس التاسع ، ووصول بيبرس إلى كرسي السلطنة في مصر ساد الهدوء والسلام بين الطرفين الصليبي ، والإسلامي بسبب انشغال كل طرف منهم في مشاكله الداخلية .

لكن الأمور قد تغيرت تماماً بعد وصول الظاهر بيبرس إلى السلطة سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م وما بعد ذلك حيث بدأت تتوضح ملامح الإستراتيجية العسكرية المملوكية نحو الصليبيين في الشام وكان أهم ما يميزها هو طابع العنف ، والقسوة وذلك لعدة أسباب :

<sup>٩٠٥</sup> - لويس التاسع : - لويس التاسع ملك فرنسا : هو ابن لويس الثامن ملك فرنسا أيضاً ، وحفيد الملك فيليب أغسطس . مات والده عندما كان في الثانية عشرة ، وأصبحت أمه الملكة بلانش أف كاستيل التي تعلق بها تعلقاً شديداً وصية على العرش خلال سن قصوره وقد نشأ ليصبح رجلاً دنيئاً بشكل عميق . عندما أبحر إلى الشرق كان عمره ٣٤ سنة ، وبالتالي تكون ولادته سنة ١٢١٤م ، وكان فارساً مغواراً في القتال وبطلاً عنيداً وناسكاً مكرساً ، لكنه كان مستبداً مع أطفاله وقمعياً مع زوجته مرغريت أف بروفانس ذات الروح السامية . بردج ( أنتوني ) : تاريخ الحروب الصليبية ، تر أحمد غسان سبانو ونبيل الجبرودي ، دار قتيبة ، ط ١ ، دمشق ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م ، ص ٢٦٢ .

<sup>٩٠٦</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٣٦٨ .

<sup>٩٠٧</sup> - المقرزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٨٥ - ٣٨٦ .

<sup>٩٠٨</sup> - من الممكن أن تنجح أية قوات تكتيكياً وتفشل إستراتيجياً ومثال ذلك العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦م ، ومثال آخر في حرب تشرين ١٩٧٣م نجحت القوات الإسرائيلية في فتح ثغرة في القطاع الشمالي على جبهة الجولان لكنها فشلت في تحقيق أهدافها .

- تعاون الصليبيين مع مغول فارس ضد المماليك حيث كان المغول قد اجتاحتوا الشرق الإسلامي منذ أيام جنكيز خان<sup>٩٥٩</sup> . بل زاد عن ذلك أنهم كانوا يعملون كإدلاء ومرشدين لجيوش المغول على الأراضي الشامية لأنهم على معرفة بالأرض ومسارها ، والمغول لا يعلمون عنها إلا ما قد سمعوا عنه ، وبالتالي سهل هذا التعاون عليهم الكثير من الصعوبات .

- ولم يقتصر الأمر عند ذلك الحد بل أن بعض الإمارات الصليبية قد سمحت لعدد من الحاميات المغولية أن تفرض إرادتها على الصليبيين في كثير من الأحيان ، وصارت تابعة بشكل ، أو بآخر للمغول تحكمها أرادة الخان المغولية المقيم في تبريز<sup>٩٦٠</sup> . فالقائد المغولي كان يطلب والصليبيون كان عليهم الاستجابة والتنفيذ ، وكل ذلك كان نتيجة لقراءة الصليبيين الخاطئة لإستراتيجية المغول العامة تجاه هذه المنطقة [ تجاه الصليبيين ، وغيرهم في الشرق ] . هذه الإستراتيجية التي لخصها هولانكو عندما قال لباجو نونين : « يجب أن تعود لكي تستولي على تلك الأولوية حتى شاطئ البحر من يد أبناء الفرنج ، ومن الكفار »<sup>٩٦١</sup> والمقصود بالكفار هنا هم المسلمون .

وهذه الأسباب ، وغيرها من التصرفات من جانب الصليبيين كانت تقف خلف اللجوء إلى الإستراتيجية الجديدة تجاههم ، وهي إستراتيجية القوة التي أخذ ببيرس ، وحلفاؤه في تطويرها .

إذ أنّ رد الفعل الطبيعي عند المماليك لما حصل من الصليبيين هو : التفكير بشكل جدّي بالعمل على التخلص من هؤلاء ، وطردهم ، وتحرير البلاد من شرورهم ، وفي أسوأ الأحوال أي في حالة وجود خطر أكبر يواجه المماليك يجب العمل على اللجوء إلى تحييدهم كقوة مؤثرة ، أو ذات فاعلية ، ومنعهم من الحصول على معلومات عن أوضاع الجيوش المملوكية حتى لا يكونوا عيناً للمغول عليهم . وقد بدأت الحرب مع الصليبيين على شكل مناوشات محلية ، حيث ذهب ببيرس بنفسه إلى الشام سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م<sup>٩٦٢</sup> ، وكانت تحركاته تدل على عمق في الفكر الإستراتيجي العسكري ، وبدا وكأنه يتفقد قواته ويعيد توزيعها توزيعاً إستراتيجياً<sup>٩٦٣</sup> ليتمكن من القيام بمهام كبيرة [ عملية إعادة التوزيع للقوات عادة ما تأتي بعد اتخاذ قرار بالهجوم ، أو الدفاع من قبل القائد ، وتأتي بعد ذلك عملية التخطيط للمعركة ] . لكن القادة الصليبيون استطاعوا قراءة ذلك قراءة صحيحة فساروا إلى إرسال الوفود من الإمارات الصليبية في الشام تطلب منه السلام ، والمهادنة ، لكنه قابلها بمنتهى القسوة مما يدل على اقتناعه بتلك الرؤية و تصميمه على تحقيق أهدافه في قتال الفرنجة<sup>٩٦٤</sup> وترجم ببيرس ذلك في

<sup>٩٥٩</sup> - جنكيز خان : ورد اسمه تيموجين في بعض المصادر أو ( تمرجين ) . الجويني : تاريخ فاتح العالم جهانكشاي ، م ١ ، ص ٦٩ - ٧٤ .

<sup>٩٦٠</sup> - تبريز : مدينة في خراسان من عمل أدريجان . انظر : الحموي : معجم البلدان ، مصدر متقدم ، ج ٢ ، ص ١٣ .

<sup>٩٦١</sup> - كان ذلك سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م . الهمداني : جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٢٦٠ - ٢٦١ . أما الكفار فقد عنى بهم المسلمون .

<sup>٩٦٢</sup> - المقرزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٨٤ .

<sup>٩٦٣</sup> - القائد عندما يتفقد القوات ويعيد توزيعها من وجهة نظر العلم العسكري فهو قد استلم مهمة جديدة وبعد أن قام بتفهمها عليه أن يقدر الموقف التي يصاحبها إعادة تنظيم وتشكيل القوات لوضعها بالتشكيل المناسب للمهمة الجديدة .

<sup>٩٦٤</sup> - كان رد ببيرس على رسل الصليبيين ( ردوا ما أخذتموه من البلاد وفكوا أسرى المسلمين جميعهم فاني لا أقبل غير ذلك ) المقرزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٥٣٨ .

غزوات حربية واسعة النطاق ضد الإمارات الصليبية الساحلية ، فاستولى على مدينة قيسارية سنة ٦٦٣هـ / ١٢٦٥م ثم على مدينة أرسوف في جنوبها<sup>٩٦٥</sup> .

وفي السنة التالية هاجم بيبرس قاعدة إستراتيجية مهمة في الشام ، وهي (قلعة صغد) التي كانت القاعدة الأساسية لفرسان الداوية<sup>٩٦٦</sup> ، وبعد قتال عنيف تمكن بيبرس من الاستيلاء عليها ، وبذلك أصاب الصليبيين بضرحة قاسية ، وحطم معنوياتهم إلى حد كبير بدليل مسارعة بعضهم إلى عقد الهدنة مع السلطان بيبرس على أساس مبدأ المناصفة ، أو المشاركة معه في غلال بلادهم ومنتجاتهم<sup>٩٦٧</sup> ، وكانت النتيجة أن أبرمت معاهدة بين بيبرس وملكة بيروت ازابيل<sup>٩٦٨</sup> Izabella ابنة الملك جون الثاني أبلين John II ibelin والتي أطلقت عليها المصادر العربية اسم الدبونة ، وهو تعريب لأسم البيت الحاكم في بيروت D,ibelin (دي ايبيلين) ، وكانت قد خلفت أباهما بعد وفاته سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٤م في الحكم على بيروت ، وجبالها- جبال لبنان- باعتبارها أبنته الكبرى .

ولقد عقدت الملكة ازابيل هدنة مع السلطان بيبرس ، وكان ذلك سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م مدتها عشر سنوات ، ولقد أورد القلقشندي نصوص هذه الهدنة ، والتي بينت حدود مملكة بيروت ونواحيها ، وأظهرت أيضاً ما كان للسلطان بيبرس من نفوذ في تلك البلاد<sup>٩٦٩</sup> ، ويضيف المؤرخ ابن الفرات في تاريخه عن هذا النفوذ قائلاً : (( أن هذه الملكة كانت كلما عزمتم على السفر ومغادرة بيروت ذهبت إلى السلطان بيبرس بنفسها ، واستودعته بلادها إلى أن تعود ))<sup>٩٧٠</sup> .

وهذا مثال واضح على إظهار نتائج السيطرة الإستراتيجية لدولة المماليك البحرية على مملكة بيروت التي أظهرت عجزاً كاملاً على فعل أي شيء خارج حدود بلادها دون استشارة المماليك البحرية ، وكل ذلك يعني التفوق ، والسيطرة من جانب ، والضعف ، والتبعية من جانب آخر وأستطاع بيبرس في بدايات سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م أن يستولي على مدينة يافا في أقصى الجنوب ، ثم وجه ضربة حاسمة في السنة **نفسها** إلى أهم إمارة صليبية ، وهي أنطاكية في أقصى الشمال الشرقي ، فقد روى المؤرخون أنه هاجمها بثلاث فرق . الفرقة الأولى اتجهت إلى ميناء (السويدية)<sup>٩٧١</sup> . والفرقة الثانية سدت الممرات بين أرمنية الصغرى ، والشام والفرقة الثالثة بقيادة بيبرس - قوة الضربة الرئيسية هذا يعني بالمعنى الإستراتيجي القوة التي قامت بمهاجمة العدو ، وتدميره ، والقضاء عليه واحتلال مواقعه ، وقد هاجمت المدينة نفسها ، واستولت عليها في رمضان سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م<sup>٩٧٢</sup> ، ولقد بلغ من كثرة الغنائم التي غنمها المسلمون من

<sup>٩٦٥</sup> - ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، ج ٥ ، ص ١٦٦ . المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ١٩ - ٢٤ .

<sup>٩٦٦</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٣ - ٣٤ . العيني : عقد الجمان ، م ٣ ، ص ٥٤ .

<sup>٩٦٧</sup> - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩ والتي تليها . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٥ . العبادي : قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام ، ص ٢٢٤ .

<sup>٩٦٨</sup> - الملكة ازابيل هي الابنة الكبرى للملك جون دي ابلين الثاني وقد خلفته بعد وفاته واصبحت ملكة بيروت سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٤م - ٦٨٠هـ / ١٢٨٢م وساعدوا في حكم مدينة بيروت همفري دي مونتفرت زوج اختها أشيفا والذي عرف يصاحب بيروت بعض المراجع العربية تطلق على هذه الملكة اسم الدبونة وهو تعريب لاسم البيت الحاكم في بيروت آنذاك دي ابلين ويسميتها ابن عبد الظاهر الملكة زابيل . الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، ص ٣٥٨ .

<sup>٩٦٩</sup> - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٤٣ - ٥٦ .

<sup>٩٧٠</sup> - ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

<sup>٩٧١</sup> - ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ، ج ٥ ، ص ١٦٦ .

<sup>٩٧٢</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٨ . العبيدي ( عبد العزيز بن راشد ) : من

أنطاكية أن قسمت النقود بالطاسات كما بلغت من كثرة الأسرى أنه لم يكن هناك غلام إلا وله غلام . وبيع الصغير باثني عشر درهم ، والجارية بخمسة دراهم<sup>٩٧٣</sup>

ولقد بين قرار بيبرس الخاص بخطته الحربية نحو أنطاكية من وجهة النظر الإستراتيجية العسكرية طبقاً لما جاءت به المصادر المعاصرة ، والتي تتناول عادة الخطط الحربية المملوكية أنه قائد **امتلك** عقلاً إستراتيجياً متميزاً ورؤية حربية رائعة استطاعت أن تحل المشكلات ، وتبتكر الحلول ضمن معطيات الواقع ، واستثماره أفضل استثمار ، وأفصحت عن فهم عميق للمهمة والهدف وتقدير الموقف السياسي والعسكري لقوات الصديق ، وقوات العدو ، ومعرفة تامة بمسرح الأعمال القتالية ، فجاء القرار المتخذ لمعالجة تلك الحالة غاية في الانسجام والقوة والدقة في هيكله العام وجزئياته المعبرة عن ذاته ، وكان النجاح في كل جزئية يخدم الهدف الأساسي الكبير ويؤدي بالضرورة إلى تحقيقها والأمثلة على ذلك كثيرة منها : ما أورده (محمد بن منكلي) مبدع الفن الحربي المملوكي في كتابه (الأدلة الرسمية في التعابي الحربية) عن نوع التعبئة التي استخدمها قائد تلك المعركة حيث أوضح هذا المؤرخ أن الظاهر بيبرس القائد الأعلى لهذه الحملة قد استخدم نوعاً من التعبئة الحربية سماها التعبئة المتقاطرة ، أو المتماطرة وهذا النوع من التعابي يعتمد بشكل أو بآخر على العلوم الرياضية والهندسية ، وهذا دليل على مدى تطور العلوم بشكل عام ، والعلم العسكري بشكل خاص من جهة ، وعلى ارتكاز القادة المماليك على تلك العلوم من جهة أخرى ، مما جعل القائد المملوكي متفوقاً على أقرانه في الجيوش الأخرى ، وبذلك حقق تلك الانتصارات الكبيرة على جيوش لها سمعتها وتاريخها العسكري . ولم يصف ابن منكلي هذا النوع من التعبئة إنما ذكر : أن الظاهر بيبرس استخدمها في تلك المعركة لا بل ذكر ما ترتب على استخدامها عندما قال : (( أن قلوباً ، أو كثروا من شروط أصحاب هذه التعبئة أن يتباعدوا عن أخوانهم لتخليص رماحهم ، وليكن الشجعان الكهول في الأمام ، وفي الخلف ، والشبان في الوسط لئلا يصبح الشبان في ذهول ، ويتقهقروا )) . وهذا يدل على معرفة بعلم النفس وتأثيراته على الجنود في المعركة ، فالكهول أصحاب الخبرة هم الأكثر ثباتاً ومقدرة على معالجة الأمور الصعبة من الشباب الأقل خبرة . لكن الذي قام بشرح هذا النوع من التعبئة العسكرية هو محمد بن عيسى الاقسرائي في كتابه نهاية السؤل والأمنية في تعلم أعمال الفروسية<sup>٩٧٤</sup> وكانت معركة أنطاكية أوضح مثال طبق فيه بيبرس – كما أشار إليه المؤرخ ابن منكلي في كتابه – ما ذكره عن تشكيلات القتال في هذا المجال .

وقد أظهرت خطة الهجوم على أنطاكية نوعاً راقياً من التخطيط الإستراتيجي ، وأوضحت ما وصل إليه الفن الحربي من تقدم في الإستراتيجية العسكرية المملوكية ، ولقد ظهر في قرار القائد الظاهر بيبرس الذي جعل يافا نقطة انطلاق بعد الاستيلاء عليها ، ونفذ مسيراً تكتيكياً عالي المستوى قام خلاله بإجراءات كثيرة تتم عن إدراك عميق بالعلم العسكري ، وخاصة ما يتعلق بالتأمينات ، واستعراض القوة ، وإخفاء المقاصد ، وإجراء الاستطلاع اللازم وتقسيم الجيوش لتنفيذ الخطة المرسومة والتي يبدو أنها كانت تستند على تنفيذ مجموعة من الإجراءات أهمها : الالتفاف والتطويق من الجناحين الأيمن والأيسر من تشكيل القتال المكون من ثلاثة اتجاهات وإبقاء القوة الأساسية في الوسط بهدف عزل الهدف من اتجاهين ، ومهاجمته من

معارك المسلمين في رمضان ، مكتبة العبيكان ، ط ١ ، الرياض ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م ، ص ٧٢ - ٧٤ .

<sup>٩٧٣</sup> - رانسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ٣٤٢ - ٣٤٦ .

<sup>٩٧٤</sup> - الاقسرائي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٤٧٠ - ٤٧١ .



الاتجاه الثالث<sup>٩٧٥</sup> ، حيث استطاعت قوات الأجناب- الجناحين - من القيام بحركة تطويق كاملة للمدينة (أنطاكية) وعزلها من أي إمداد بحري ، أو بري – وهذا يظهر مدى القدرة على إيجاد حالة صحيحة واكلب فيها التكتيك المناسب تطبيق التخطيط الاستراتيجي في هذه المعركة وهذا يدل على ما وصل إليه تطور الفن الحربي في الدولة المملوكية الأولى .

ومن المفيد في هذا المجال التوقف عند قرار بيبرس في المعركة ، ودراسة مدى تطبيق مضمون هذا القرار على أسس ، وقواعد الإستراتيجية الحديثة ، فلقد كان قراره هو التقدم في ثلاثة اتجاهات :

(أ) الاتجاه الأول (قوة العزل) : تتقدم إلى ميناء السويدية لقطع الطريق بين أنطاكية والبحر وتمنع وتدمر أي محاولة إمداد تحاول أن تقوم بها قوات العدو عن طريق البحر (تسمى حالياً عمليات منع الإنزال البحري ، أو صد الإنزال البحري إذا حدث الإنزال) .  
(ب) الاتجاه الثاني (قوة القطع) : تقوم بالتقدم ، وسد الممرات بين أرمنية الصغرى والشام بهدف منع وصول أية إمدادات ، أو معونة إلى أنطاكية عن طريق البر .

(ج) الاتجاه الثالث (القوة الضاربة) : وهي القوة الرئيسية بقيادة بيبرس نفسه وتقوم بمهاجمة المدينة ، والاستيلاء عليها ، وتدمير أية قوات للعدو فيها .

على أن يبدأ الهجوم للقوة الرئيسية بمجرد وصول مجموعتي القطع ، والعزل إلى أماكن تمركزها ، وإعلان جاهزيتها .

ولقد نجحت القوة الرئيسية في الاستيلاء على المدينة ، وتدمير مقاومة العدو بها والاستيلاء على عدته ، وعتاده ، وأسر أفرادها .

وكان تأثير سقوط أنطاكية كارثة كبيرة على القوة الرئيسية للقوات الصليبية حيث أنها بحكم موقعها كانت تعد سندا قويا للدول الصليبية في هذه المنطقة منذ أوائل الحروب الصليبية ، وأماكن تمركز احتياطي قواتها الإستراتيجية ، وقد أشارت المصادر المعاصرة إلى الرسالة التي كتبها بيبرس إلى الأمير بوهيموند السادس BOHAMAND الذي كان مقيم وقتئذ في إمارته الثانية طرابلس في جنوب أنطاكية ، وكانت رسالته مليئة بعبارات السخرية ، والتهكم ، ويمكن منها استنتاج ما وصلت إليه أحوال الصليبيين من ضعف مما أدى لتوجيه مثل تلك العبارات اللاذعة إلى صاحب أكبر إمارة صليبية في الشام في ذلك الوقت<sup>٩٧٦</sup> ، ثم بدأ بيبرس في مهاجمة طرابلس ، واستولى على المنافذ المؤدية إلى المدينة وكذلك الحصون المحيطة بها ، ومن أهمها حصن الأكراد ، وحصن عكار .

ولكن كانت هناك أنباء بخروج الحملة الصليبية الثامنة من فرنسا بقيادة لويس التاسع<sup>٩٧٧</sup> ولم يُعرف أين ستكون وجهتها مما جعله يترك حصاره لطرابلس ويسرع إلى مصر وبذلك

٩٧٥ - ابن منكلي : الأدلة الرسمية في التعابي الحربية ، مخطوط ، ورقة ٢١ و .

٩٧٦ - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ٧ ، ص ١٤٧ .

٩٧٧ - لويس التاسع ملك فرنسا : هو ابن لويس الثامن ملك فرنسا أيضاً ، وحفيد الملك فيليب أغسطس . مات والده عندما كان في الثانية عشرة ، وأصبحت أمه الملكة بلانش أف كاستيل التي تعلق بها تعلقاً شديداً وصبية على العرش خلال سن قصوره ، وقد نشأ ليصبح رجلاً دينياً بشكل عميق . عندما أبحر إلى الشرق كان عمره ٣٤ سنة ، وبالتالي تكون ولادته سنة ١٢١٤ م ، وكان فارساً مغواراً في القتال وبطلاً عنيداً وناسكاً مكرساً ، لكنه كان مستبداً مع أطفاله وقمعياً مع زوجته مرغريت أف بروفانس ذات الروح السامية . بروج ( أنتوني ) : تاريخ الحروب الصليبية ، تر أحمد غسان سبانو ونيل الجيرودي ، دار قتيبة ، ط ١ ، دمشق ، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م ، ص ٢٦٢ .

أنقذت طرابلس<sup>٩٧٨</sup>. لذلك عاد بيبرس إدراجه مسرعاً إلى مصر بقصد التعبئة ، والاستعداد في الموانئ ، والثغور المصرية حتى لا يعيد لويس التاسع قصة المنصورة مرة أخرى .

ومن المحتمل أن ملك فرنسا كان يريد أن يكون اتجاه الحملة الصليبية<sup>٩٧٩</sup> نحو عقر دار المعقل الإسلامية في المشرق الإسلامي لولا أن أخاه شارل دي أنجو CHARLES DE ANEGO الذي كان ملكاً لأنجو ، وهو الذي صار فيما بعد ملكاً على جزيرة صقلية أراد استخدام تلك الحملة في تدعيم ملكه ، وذلك بالاستيلاء على مملكة تونس الإسلامية التي كانت تحت حكم الحفصيين في ذلك الوقت ، ولقد أشار المؤرخ التونسي ابن أبي دينار أن أسباب تلك الحملة هو : الانتقام الشخصي ، حيث يقال : أن اسم لويس التاسع ذكر في حضرة المستنصر ، فاستهزأ به فقرر الانتقام ، ويقال : أن أحد التجار من رعاياه ادّعى أن له في ذمة أحمد اللياني<sup>٩٨٠</sup> وزير أمور البحر في دولة المستنصر الحفصي مبلغ ثلاثمائة ألف دينار قد اقترضها منه حينما نكبه المستنصر ، وصادر أمواله<sup>٩٨١</sup> وشكا ظلامته إلى الملك لويس الذي قرر الانتصار لرعيته .

والواقع أن السبب يرجع إلى أهمية موقع تونس بالنسبة لملك صقلية ، وإلى تهديد المملكة التونسية لملكه في صقلية التي كان يحكمها شارل أخو الملك لويس التاسع كما هو معروف ، وأن معارضي شارل يقيمون في تونس ، و يُسببون له المتاعب ، ويكفي في هذا الصدد أن نشير إلى أن غزو المسلمين لصقلية قد تم من تونس في عصر الأغالبة على يد قاضي القيروان أسد بن الفرات سنة ٢١٢هـ/٨٢٧م<sup>٩٨٢</sup> ، وكل هذا يفسر مدى خطورة موقع تونس بالنسبة لصقلية . لذا فقد نجح شارل في أقناع أخيه بتحويل تلك الحملة إلى تونس ، والتي من الممكن كذلك أن تكون مصدر من مصادر التهديد لهم مثل مصر وذلك من جهة الغرب كما فعل الأجداد .

ولكن لم تكد مراكز الفرنسيين تصل إلى الشواطئ التونسية حتى أصيب الملك لويس التاسع بحُمى شديدة مات على أثرها ، وتولى أخوه شارل قيادة الحملة ، فأخذ يسيّرهما وفق أغراضه حتى أزال عنها صفتها الصليبية ، وانتهى أمر هذه الحملة بأجراء مفاوضات مع الخليفة الحفصي الملقب بالمنصر الذي تعهد بدفع مبلغ من المال مقابل انسحاب الفرنسيين

<sup>٩٧٨</sup> - سالم : طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي ، ص ٢٦٩ .

- بردج : تاريخ الحروب الصليبية : ص ٢٦٢ - ٢٦٣ .

<sup>٩٧٩</sup> - كرامب ( ج ، أ ، أ ) : تراث العصور الوسطى ، ترقيم الترجمة لألف كتاب ، مراجعة محمد بدران ومحمد مصطفى زيادة مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م ، ج ١ ، ص ٢٢ .

<sup>٩٨٠</sup> - أحمد اللياني : هو الفقيه العالم أحمد بن إبراهيم القيسي اللياني ، ينسب إلى قرية ليسانه من أعمال الهدية ، كان أبوه يتولى أمور المهديّة ، وقد نشأ أحمد في طلب العلم ، فلزم الإمام أبو زكريا البرقي وأخذ عنه ، وبرع في علوم كثيرة ، ثم نهض إلى تونس فولي بها الأعمال الجليلة حتى أصبح وزيراً لأمور البحر للمستنصر ، غير أنه كان يحدث نفسه في أمور كثيرة ، وأعمال خطيرة حتى خشي منه المستنصر فنكبه ، وأمر المحتسب بحاسبته وتعذيبه ، وطولب بأموال كثيرة في سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦١م فكان يدفعها شيئاً فشيئاً حتى أستخلص منه مال جليل ، ثم غدب بعد ذلك حتى مات . انظر : ابن قنفذ ( أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيبين القنفذ القسنطيني ، ت ٨١٠هـ / ١٤٠٧م ) : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تح محمد الشاذلي وعبد المجيد التركي ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، ص ١٢٥ . ابن أبي الضياف ( أبو العباس أحمد بن الحاج بالضياف بن عمر بن أحمد بن نصر ، ت ١٢٩١هـ / ١٨٧٤م ) : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، الدار التونسية للنشر ، ط ٢ ، تونس ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ، ج ١ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

<sup>٩٨١</sup> - ابن أبي دينار ( أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني ) : المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس ، تح وتعليق محمد شمام ، تونس ، المكتبة العتيقة ، ط ٣ ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧ ، ص ١٢٠ . غنيمي ( عبد الفتاح مقلد ) : موسوعة تاريخ المغرب العربي ، مكتبة مدبولي ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م ، ج ٥ ، ص ٤٤ - ٤٦ .

<sup>٩٨٢</sup> - مقديش ( محمود ) : نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، تح علي الزواري ومحمد محفوظ ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م ، ص ٢١١ .

وهكذا عادت الحملة تجر أذيال الخيبة بتلك القيمة المالية الضعيفة<sup>٩٨٣</sup> التي حصلت عليها ، حيث تحدث ابن الشمام عن ذلك قائلاً (( ... على أن يدفع السلطان ما قيمته ألف قنطار ومائة قنطار وعشرة قناطير من الفضة الخالصة في مدة خمسة عشر عاماً ))<sup>٩٨٤</sup>

أما عن السلطان الظاهر بيبرس فبعد أن اطمأن على نتائج الحملة الصليبية ، وعدم وصولها إلى مصر . غادر إلى الشام ، وعاد إلى مقابلة الصليبيين في طرابلس من جديد عام ٦٦٩هـ/١٢٧١م ، فأرسل أميرها بوهيموند السادس يطلب الصلح والمصالحة ، وذلك في الوقت التي وصلت فيه حملة صليبية انجليزية بقيادة الأمير ادوارد إلى عكا ، فأجاب السلطان بيبرس صاحب طرابلس على طلبه ، وعقد معه صلحاً لمدة عشر سنوات<sup>٩٨٥</sup> ومن الطريف ما ترويه المصادر الإسلامية في هذا الصدد من أنه في أثناء المفاوضات التي دارت بين رسل بيبرس ، وبوهيموند السادس أن بيبرس نفسه كان مندس بين أعضاء الوفد الممثل لبلاده ، ومنتكر في زي لا يدل على أنه السلطان لكي يتاح له حرية التنقل بين حصون طرابلس ، ومعرفة مواقع القوة ، والضعف منها تمهيداً لفتحها فيما بعد ، وأن كان قد اشترط في الصلح أن موت أحد الطرفين المتعاقدين ينقض ما أبرم من صلح بينهما وأستمر على هذه الحال إلى وفاة بيبرس .

ولقد كانت المهارة الحربية التي أظهرها السلطان الظاهر بيبرس في تطبيق الفن الحربي في غاية الوضوح ، حيث أستخدم إستراتيجية الخرشوفة كما يطلق عليها الكتاب العسكريون في وقتنا الحالي حيث يشبهون الأهداف العسكرية مثل نبات الخرشوفة جاهزة للطهي .

لم يكن خلفاء الظاهر بيبرس كلهم على السوية نفسها في القيادة لكن كان منهم قادة عظام استطاعوا أن يقودوا هذه الدولة بما امتلكوه من فكر إستراتيجي ، وتابعوا مسيرة البناء والتصدي للمغول ، واقتلاع الدويلات الصليبية ، ومن هؤلاء القادة : المنصور قلاوون الألفي الذي كان جندياً مقاتلاً في صفوف جيوش الظاهر بيبرس تعلم في مدرسته ، ونهل منها الكثير من العلوم العسكرية ، والسياسية ، والتقنية . لذلك عندما حاول التصدي للمغول الذين أرادوا الاستفادة من الوضع الداخلي للدولة المملوكية بعد وفاة الظاهر بيبرس هيأ الظروف السياسية ليكون قادراً على خوض هذه المعركة بنجاح ، فعمل على تحييد الدويلات الصليبية في عملية الصراع الدائر ، وعقد معهم هدنة قررت أولاً بين السلطان ، وبين الاسبتارية ، وكان ذلك يوم السبت ثاني عشر من شهر محرم سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م ، ومع صاحب طرابلس بوهيموند السادس<sup>٩٨٦</sup> بن بوهيموند الخامس مدة عشر سنين أولها سبع عشر من ربيع الأول سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م<sup>٩٨٧</sup> .

<sup>٩٨٣</sup> - ابن الشمام ( أبو عبد الله محمد بن أحمد ) : الأدلة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، تح الطاهر بن محمد المعموري الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، ص ٦٩-٧٢ . ديب ( جوزيف نسيم يوسف ) : العدوان الصليبي على مصر وهزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور ، دار الكتب الجامعية ، الإسكندرية ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧م ص ٦٠ .

<sup>٩٨٤</sup> - ابن الشمام : الأدلة النورانية ، ص ٢٧ .

<sup>٩٨٥</sup> - المقرئزي : السلوك : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٨ .

- غروسية : ملحمة الحروب الصليبية ، ص ٣١٢ .

<sup>٩٨٦</sup> - بوهيموند السادس Behomond VII : خلف أباه Behomond VI على طرابلس منذ سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥

<sup>٩٨٧</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٨٥ .

أما خصوم الداخل فقد اجتهد في استمالتهم واستدراجهم للعودة إلى الصف الواحد ، فعفا فيما بعد عن خصمه العنيد سنقر الأشقر ، وأجزل له العطاء وعينه حاكما على إقليم أنطاكية<sup>٩٨٨</sup> .

بهذه الاتفاقيات تفرغ المماليك لمواجهة المغول ، وبعد أن فرغ السلطان من أمر المغول عاود إلى الصليبيين في حصونهم مستخدما إستراتيجية القوة ، والتهديد بها لاقتلاعهم من هذه الحصون لأنه وكما قال ابن عبد الظاهر : ( ... تحقق أنه بين أحشاء تلك الحصون داء دخيل وأنه لا يحصل راحة ، ولا أمن بوجوده ، وبقائه )<sup>٩٨٩</sup> لذلك عمل على اقتلاع ذلك الداء بمبضع الجراح الماهر ، وبعزم القائد المتمرس ، وبعقل العالم العارف ، وبعد أن لقن المغول درسا مفاده : ( أنه على العاقل أن يبذل الجهد ويترك الإهمال ، ويجهد النفس في معرفة أن الملك عقيم ... وأن العاقل هو الذي لا يسعى للخلاف ولا إلى المشاحنة، بل لحفظ العهد... وإصلاح ذات البين )<sup>٩٩٠</sup> . استدار إلى ذلك الداء الذي لا راحة للنفس بوجوده ، ولا أمن ببقائه ، ولا ازدهار مع ازدهاره . لأنه قام بالأصل على مبدأ خاطئ [ إقامة إمارات ودول بعد الاستيلاء على الأرض وطرده أصحابها منها ] ، وما بني على باطل فهو باطل يجب إزالته ، لذلك وفي سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م جهز السلطان أمور الغزو وحضر له أدواته ، وأقام بدمشق إلى الثاني من صفر ، وطلب الجيوش فتداعت إليه العساكر من كل جهة ، واندفعت اندفاع السيول من كل مملكة ، وتم المسير من دمشق لكن لا أحد يعلم أين المصير ، ولا إلى أين المسير إلى أن وصلوا إلى عيون القصب<sup>٩٩١</sup> ، وسار منها مجددا حتى نازل حصن المرقب<sup>٩٩٢</sup> ، وحاصره ثمانية وثلاثون يوما ، واستخدم بمحاصرته كل أنواع الأسلحة بما فيها أسلحة جديدة لم يفصح عن اسمها إنما قال ابن عبد الظاهر أنه لا يوجد مثلها إلا بالخزائن السلطانية<sup>٩٩٣</sup> ) يعتقد أنها المدفعية ، وقد سلف التحدث عن ذلك في الفصل الثالث ) ، وما إن فرغ السلطان من موضوع المرقب حتى شرع في تحرير حصن مرقبه<sup>٩٩٤</sup> ، وأعمل الرأي في افتتاحه [ عقد مؤتمرا للحرب ] وإعمال الرأي مع القادة هو عمل إستراتيجي كبير لتحديد وسائل تحقيق هدف افتتاح هذا الحصن ، وبعد مناقشات طويلة أظهرت : ( أن الحصن قوي منيع ، وأن البرج المبني قبالاته ضرر بانبيه ، وما نفعه ، وأن حصاره لا يمكن لكونه في البحر ، وما للمسلمين مركب تقطع عنه الميره ، ولا تمنع الداخل إليه ، ولا الخارج منه ، وأن أمره يطول ، ومسألته تعول ، وإن الأمر الذي منه بدأ إليه يعود ، وأن افتتاحه بجنود التدبير لا بالجنود )<sup>٩٩٥</sup> . إذا الحصار ، والقتال لا يعطي نتيجة في مثل هذه الحالة ، والحل هو بجنود التدبير [ أي بالحيلة ، أو الإستراتيجية غير المباشرة ] ، حيث أرسل السلطان إلى صاحب طرابلس ، وقال له : ( العساكر تفرغت ، وما بقي لها إلا أنت وهذا البرج أنت الذي عمرته .. ولولا إعاتتك لما بني .. وأنت المؤاخذ به فيما أن

<sup>٩٨٨</sup> - النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٣٧٠ .

<sup>٩٨٩</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٨٧ .

<sup>٩٩٠</sup> - جاء ذلك في الكتاب الذي أرسله الخان أحمد تكودار على يد الشيخ عبد الرحمن عن ذلك . المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٧١-٦٩ .

<sup>٩٩١</sup> - عيون القصب : لم يتم العثور على تعريف لها في المصادر المتوفرة .

<sup>٩٩٢</sup> - حصن المرقب من الحصون المشهورة بالمنعة والحصانة وهو كبير جدا لم يفتح صلاح الدين الأيوبي فيما فتح فأبقاه السلطان الملك المنصور بعد أن أشير عليه بهدمه واستناب فيه بعض أمرائه ورتب أحواله . ابن تغري بردي : النجوم ، ج ٧ ، ص ٣١٧ . المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٢٨ .

<sup>٩٩٣</sup> - ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ص ٧٨ . - ابن أبيك : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٦٨ .

<sup>٩٩٤</sup> - كان حصن مرقبه من حصون فرسان التملار أي طائفة الداوية المشهورة . أما اسم تملار فمعناه فرسان الهيكل وكان لهم شأن كبير في الحروب الصليبية . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣١٦ .

<sup>٩٩٥</sup> - ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعصور ، ص ٨٨ .

يهدم ، أو نأخذ من قبالتة من بلادك .. وعندها تندم حيث لا ينفع الندم )<sup>٩٩٦</sup> وهكذا تم تحديد الوسائل الإستراتيجية لتحقيق الهدف وهي : التهديد باستخدام القوة في مكان ما بغية التأثير على مكان آخر ، وهذا ما حصل فعلا حيث قرر بوهيموند السادس صاحب طرابلس إرضاء صاحب الحصن بالمال ، وأعطاه أملاك أخرى ، وضياع للموافقة على هدم الحصن ، وكفى الله المؤمنين شره ، وكف ضرره ، وهكذا نجحت الإستراتيجية التي استخدمها السلطان قلاوون في هدم ذلك الحصن<sup>٩٩٧</sup> ، ولم يتوقف الفكر الإستراتيجي المملوكي عند القوة ، واستخدامها أو التهديد باستخدامها ، بل تعداها إلى الإعداد الإستراتيجي للجيش المملوكية ، وهذا قمة في التفكير العسكري الراقي ، والعلمي ، فالقائد يجب أن يعد جيوشه قبل أن يهدد بها ، أو يخوض بها المعارك ، فالعدو عندما يعرف ، أو يتأكد من ضعف جيوش عدوه لن يأبه للتهديد ، ولن يتوقف عنده بل سيسخر منه أما عندما يعرف أن وراء تلك التهديدات أفعال مناسبة ومساوية لها بالقوة سيفكر ملياً بأي قرار سيتخذه ومن أجل الوصول إلى تلك الحالة اهتم المماليك بالإعداد ، والتدريب النوعي للجيش ، وقد تم الحديث عن التدريب ، والأعداد لكن التدريب الاختصاصي ، والاهتمام به حسب الهدف الذي سيحققه في المستقبل ( ماهي أدواته ؟ وماذا يحتاج من أجل التغلب على الصعوبات التي ستعرض القوات لها ) ، وانطلاقاً من هذا التفكير الإستراتيجي ، فقد حضر السلطان المنصور قلاوون على سبيل المثال عددا كبيرا من الحجارين ، والزرايين ( أكثر من ألف وخمس مائة عنصر ) عندما أراد فتح طرابلس<sup>٩٩٨</sup> - بعد أن أجرى ذلك القائد دراسة موضوعية لموقع طرابلس ، وقلعتها التي بنيت فوق جرف كان على بعد ثلاثة كيلو مترات عن المدينة القديمة وكانت القلعة مفصولة عن المدينة بنطاق من البساتين ، وبالتالي فالقلعة محصنة بشكل طبيعي ، ومهارة الذين شيدها<sup>٩٩٩</sup> . لذلك كان لا بُد من الاعتماد على كبير من الحجارين والزرايين من أجل الوصول إلى تلغيم الأسوار ، وكان هذا العمل يحتاج إلى براعة في القدرة على الأداء التكتيكي ، وجهود كبيرة في الإعداد الإستراتيجي ، كما يتطلب أعدادا كبيرة من الجنود المدربين ، والمؤهلين على فعل ذلك العمل<sup>١٠٠٠</sup> بينما في حصار قلاع أخرى مبنية على الصخور يصعب الوصول إليها ، وإن تم الوصول كان من الصعب جداً تلغيم أسوارها لذلك يجب الاعتماد على المنجنيقات ، والأسلحة الأخرى التي يجب تأمينها قبل ، وأثناء إعداد الخطط الإستراتيجية .

### ج - إستراتيجية الجيش المملوكي في معاركه مع المغول :

في البداية كانت إستراتيجية الجيش المملوكي مع المغول مبنية على النظر في كيفية التصدي لذلك الموت القادم من الشرق بأية طريقة [ أي إستراتيجية دفاعية ] ، وهنا **اختلف** الأمر عما كان عليه مع الصليبيين حيث اعتمدت الإستراتيجية على قاعدة اقتلاعهم من البلاد [ من خلال الهجوم ] . لذلك اقترح بعض الأمراء أن لا يقاتلوا المغول . ففي مؤتمر الحرب الذي عقده قطز

<sup>٩٩٦</sup> - ابن عبد الظاهر : ، ص ٨٩

<sup>٩٩٧</sup> - ابن عبد الظاهر : ص ٨٩ - ابن أبيك الداودار : كنز الدرر : ج ٨ ، ص ٢٧١ .

<sup>٩٩٨</sup> - ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٢٨٣

<sup>٩٩٩</sup> - كندي ( هيوج ) : القلاع الصليبية، عن زكار ( سهيل) : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ط ١ ، دمشق

١٤٢٨هـ/٢٠٠٨م، ج ٥٢، ص ٩٤-٩٥

<sup>١٠٠٠</sup> - كندي : ج ٥٢، ص ١٥١

لمناقشة كيفية التصدي للمغول ، وتحضير الجيوش ، والبلاد للحرب قال أحد الحاضرين وهو ناصر الدين القيمري : (( إنّ هولاءكو فضلاً عن أنه حفيد جنكيز خان ، وابن تولوي وأخو منكو خان ، فإنّ شهرته ، وهيبته في غنى عن الشرح ، والبيان ، وإنّ البلاد الممتدة من تخوم الصين إلى باب مصر كلها في قبضته الآن ، وقد اختص بالتأييد السماوي ، فلو ذهبنا إليه لطلب الأمان لأعطانا إياه ، وليس في ذلك عيب ، وعار ، ولكن تناول السم واستقبال الموت أمران بعيدان عن حكم العقل ))<sup>١٠٠١</sup> ، وقالوا : حتى إذا أردنا محاربتهم ليس لنا طاقة ، ولا قدرة على مقارعتهم ، وقال آخر : أيضاً ليس لنا مصلحة في مصالحتهم ، إذ أنه لا يوثق بعهودهم . إذا كانت الآراء منقسمة بين معارض بقوة للحرب مع المغول ، وبين مؤيد بضعف ليست لديه ثقة بقوة جيشه لكنه يدرك أن المغول لاعهود لهم ولاذمة . لكن كان للسلطان رأي آخر استند إلى معارف ومهارات وخبرات صقلها فكر عسكري إستراتيجي ورؤية قائد موهوب ، وإيمان لايتزعزع بالهدف ، وإنّ النصر من عند الله ، فكان قوله الفيصل ، وهو الذي قال عندما وثب على الملك واعترض عليه بعض الأمراء : (( نجتمع على قتال التتر .. فإذا خرجنا ، وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم أقيموا في السلطنة من شتم ))<sup>١٠٠٢</sup> فتجلت صورة الهدف واضحة في ذهن ذلك القائد الإستراتيجي ، وأفصح عنه بصورة لا لبس فيها ، فليست السلطة هي الهدف ، ولا قيادة الجيوش بحد ذاتها هي الهدف بل التصدي للمغول والانتصار عليهم . وقال الهمذاني : إنّ قطز قد جمع أمراءه ، وشرح لهم الوضع قائلاً : (( يجب أن نختر مع هذه الجماعة التي تريد بلادنا واحداً من ثلاثة : الصلح ، أو القتال أو الجلاء عن الوطن . أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر ذلك لأنه لا يمكن أن نجد لنا مفر إلا إلى المغرب ، وبيننا وبينه مسافات بعيدة ))<sup>١٠٠٣</sup> أما الصلح فإنّ القوم لا عهود لهم . إذا لم يبق أمامهم إلا الحرب . من خلال الوقوف عند هذا النص نرى مقدار ما امتلك ذلك القائد من عبقرية ، وفكر ، وقدرة على الإقناع بالحجة والبرهان بعيداً عن الإكراه . وعندما يقتنع القادة والمقاتلون بالهدف يتبنون الدفاع عن تلك القناعات بكل قوة ، وعزم .

وظهرت الإستراتيجية العسكرية للجيش المملوكي في العصر الأول بصورة واضحة في المعارك مع المغول قبل خوض معركة عين جالوت ، وبعدها حيث بقيت عزيمة التصدي لهذا الخطر مستمرة ، فواجه السلطان الظاهر بيبرس منذ وصوله إلى السلطة مشكلة مغول فارس لأنه أدرك خطرهم على هذه المنطقة ، فهو الذي قال للأمير زين الدين الحافظي الذي عظم شأن

<sup>١٠٠١</sup> - الهمذاني : جامع التواريخ ، ٢م ، ج ١ ، ص ٣١٢

<sup>١٠٠٢</sup> - كندي : القلاع الصليبية ، ص ١٤٣ .

<sup>١٠٠٣</sup> الهمذاني : ٢م ، ج ١ ، ص ٣١٢ .

هولاكو ، وأشار على الناصر صاحب حلب ، ودمشق : بأن لا يقاتل ، وأن يحاول ويجتهد في الدخول في طاعته ، فأجابه قائلاً بعد أن ضربه وسبّه : (( أنتم سبب هلاك المسلمين ))<sup>١٠٠٤</sup> .  
ومثل هذا التصرف واقعي مقبول حتى في أيامنا هذه ، فمن يثبط عزيمة القتال عند الجنود ، والقادة أمره مشين ، ويجب أن يحاسب .

ثم تتابع الأمر في عين جالوت التي كانت بداية النهاية لزوال هذا الخطر على هذه المنطقة لأنها بنيت على خطة هي نتيجة طبيعية للعقل الإستراتيجي العسكري المتطور عند قادة المماليك ، ومنهم قطز ، و بيبرس الذي لم ينس الكلمات الجريئة ، والقوية التي تفوه بها كتبغا نوين القائد المغولي الأسير ، والذي انهزم جيشه قائلاً لقطز الذي انتصر عليه : (( إني وإن هلكت على يدك فإنني أعلم أن الله لا أنت هو الذي أراد قتلي ، فلا تتدع بهذا النصر المؤقت . لأنه لا يكاد يصل هذا الخبر إلى هولاكو خان حتى يغلي غضبه كالبحر المضطرب فتطأ أرجل الخيل المغولية أرض البلاد من أذربيجان إلى أبواب مصر ))<sup>١٠٠٥</sup> . تلك الإرادة التي امتلكها ذلك القائد المغولي يجب أن تُدرّس في كل المعاهد والأكاديميات العسكرية ، فلا بدّ أن الظاهر بيبرس قد استفاد من ذلك الدرس ، وأدرك أنّ تلك الإستراتيجية التي اعتمدت القوة والقوة فقط للاستيلاء على المنطقة ، وقهر شعوبها . ازدادت خطورتها عندما ارتبط الخطر المغولي بخطر الصليبيين الذين حاولوا استمالة المغول ، ومحالفتهم طمعاً في الاستعانة بهم ثم الطمع في نشر المسيحية بينهم ، لكن الصليبيين لم يستطيعوا قراءة الإستراتيجية المغولية بشكل صحيح ، والتي لا تحتل قبول وجود أي أمير ذا سيادة غير الخان الأعظم في العالم . وكانت إستراتيجية الخان الخارجية بسيطة في أساسها أن الأصدقاء يجب أن يكونوا أتباعاً وأما الأعداء ، فكان يتعين إزالتهم ، أو إخضاعهم إلى حالة التبعية<sup>١٠٠٦</sup> هذا التحالف الإستراتيجي استوجب البحث عن إجابة للسؤال التالي – كيف تعاملت الدولة المملوكية الأولى معه ؟

**ردت** الدولة المملوكية الأولى على التحالف الإستراتيجي المغولي الصليبي بتحالف إستراتيجي بين المماليك ، ودولة مغول القفجاق التي تقع جنوب روسيا ، فقد استطاع العقل الإستراتيجي للظاهر بيبرس من قراءة الخارطة السياسية للقوى المتصارعة في المنطقة آنذاك ، وعمل على إنشاء نوع من التوازن السياسي [ تحالف مقابل تحالف آخر ] مستغلاً الخلاف الذي حدث بين هولاكو خان ، وبركه خان سنة ١٢٦٠هـ/١٢٦٢م وسنة ١٢٦١هـ/١٢٦٣م ، فأرسل في السنة نفسها وفداً إلى الملك بركه خان لاستمالاته ، وحثه على الانضمام إلى الجهاد ضد هولاكو الذي

<sup>١٠٠٤</sup> - كندي : الفلاح الصليبية ، ص ١٥٦ . المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤١٩ .

<sup>١٠٠٥</sup> - الهمذاني : جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ١ ، ص ٣١٥ .

<sup>١٠٠٦</sup> - رانسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٣٥١ .

دمر المدن الإسلامية ، وهدر كرامة المسلمين . ( حصل اتفاق على ذلك )<sup>١٠٠٧</sup> وهنا تظهر القدرة الفائقة على بناء التحالف الإستراتيجي عند بيبرس ، وهذا يعنى تهيئة الظروف المناسبة لتحقيق النجاح ، وجمع الإمكانيات المادية ، والمعنوية للدول المتحالفة لمواجهة خطر مشترك ، أو تحييد بعض القوى من أجل التصدي ، و تدمير عدو مشترك ويظهر هذا بجلاء من الرسالة التي بعث بها بركة خان إلى السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م ، وقال فيها : (( فليعلم السلطان أنني حاربت هولاءكو الذي من لحمي ، ودمي لإعلاء كلمة الله العليا تعصبا لدين الإسلام ))<sup>١٠٠٨</sup> ولم يتوقف بيبرس عند هذه الإجراءات المهمة بالتفكير الإستراتيجي عند لخوض المعارك بل تعداه إلى استحضر عناصر القوة ، والصمود ، فعمل على استمالة التركمان ، والعربان ، فنظر في أمر التركمان ، وخلق على أمرائهم ، وعلى أمراء العربان ، وضمّنهم البلاد ، وألزمهم القيام بالعداد<sup>١٠٠٩</sup> ، وشرط عليهم خدمة البريد ، وإحضار الخيل ، وأرسل إليهم الرسل ليستحثهم على مقاتلة هولاءكو<sup>١٠١٠</sup> ، إضافة إلى أنه قام بالتخلص من بعض الأمراء الذين يتعاونون مع المغول بشكل ، أو بآخر . وعلى سبيل المثال استدعى المغيـث ملك الكرك ، وقبض عليه ، وأحضر الملوك والأمراء وقاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان ، وكان قد استدعاه من دمشق ، والشهود والأجناد ، ورُسِل الفرنجة ، وأخرج السلطان إليهم كتب الملك إلى التتار ، وكتب التتار إليه وأخرج أيضا فتاوى الفقهاء بقتاله ، وأحضر أيضا القصد الذين كانوا يسفرون بينه ، وبين هولاءكو وهكذا تخلص منه .

**وواقع الحال** كان الفكر الإستراتيجي عظيما عند بيبرس حيث كان يعمل على تهيئة كافة الظروف من أجل إنجاح صراعه الرئيسي مع المغول [ كان بحسه الإستراتيجي يدرك أن هناك أخطارا رئيسية يجب مواجهتها بكل الإمكانيات المتاحة ، وفي الوقت الحاضر ، وأن هناك أخطارا ثانوية يجب تحييدها لكن يجب أن لا تُنسى لأنها في لحظة من اللحظات قد تقفز وتتحوّل إلى خطر رئيسي ، وأساسي يهدد البلاد والعباد ] ، ومن أجل ذلك أحسن السياسة مع الخصوم حتى لا يتحولوا إلى خطر قاتل في اللحظات الحرجة ، فعلى سبيل المثال كان عندما يتخلص من أحد خصومه ( الخطر الثانوي هنا تحول إلى خطر رئيسي وأصبح لا بد من التخلص منه ) وفي الوقت ذاته كان يحسن إلى أبنائه ، ومماليكه ، وحاشيته ، ولم يتعرض

<sup>١٠٠٧</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٧٧-٤٨٠ .

- ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٢ .

<sup>١٠٠٨</sup> - العيني : عقد الجمان ، ج ٣ ( ج الخاص بحوادث ٦٥٦-٦٧٣هـ ) ، ص ٤٩٤ .

<sup>١٠٠٩</sup> - العداد هنا زكاة مفروضة للسلطان سنويا على قطعان القبائل العربية والتركمانية وعلى سبيل المثال أنه كان يتحصل من

التركمان في كل سنة عشرات الآلاف من الغنم، تؤخذ منهم زكاة أغنامهم يقال لها العداد. المقرئزي : السلوك، ج ١ ، ق ١

ص ٤٨١ - الحاشية رقم ٦ .

<sup>١٠١٠</sup> - المقرئزي : ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٨١ .



لبيوت الأمراء ليكسب ودهم . ومثال ذلك بعدما استطاع القبض على المغيـث أمير الكرك أعطى ابنه العزيز إمرة مائة فارس ، وخلق عليه ، وأعطاه طبل خاناه ، وأطلق لأخويه وحرّم أبيه كل ما يحتاجون إليه هم وغلـمانهم ، وأنزلهم بدار القطبية بين القصرين في القاهرة<sup>١٠١١</sup> ] عمل على تحييد الخطر الثانوي ، وهو صراعه مع المغيـث ، وأولاده لصلح الخطر الرئيسي وهو صراعه مع المغول [ . ثم توجه إلى الفرنجة ، وعمل معهم على اتجاهات متعددة لتجميد خطرهم ، والتخلص منهم استعدادا لمواجهة الخطر الرئيسي ، وهو الخطر المغولي . وقام بعدة إجراءات منها : - مباغتتهم في كثير من الأماكن في الزمان والمكان المناسبين ، وزرع الرعب في قلوبهم ، فعلى سبيل المثال عندما لم يحترم الصليبيون أمور الهدنة المعقودة مع السلطان الظاهر بيبرس لم يشعروا إلا وخيول المسلمين صارت على أبوابهم قالوا: (( ما عرفنا بوصول السلطان ، فكتب إليهم من يريد أن يتولى أمرا ينبغي أن يكون فيه يقظة ، ومن خفي عنه خروج هذه العساكر من كثرتها التي لعل بيوتكم ما فيها موضع إلا ويكنس منه التراب الذي أثارته خيل هذه العساكر ، ولعل وقع سناكبها قد أصم أسماع من وراء البحر من الفرنجة فكيف وصلت إليكم ))<sup>١٠١٢</sup> .

- دق إسفين ما بين القادة الفرنجة لإضعافهم ، وتفريق صفوفهم ، وإضعاف ريحهم ، وتعميق الخلافات فيما بينهم ، أو العمل على إيجادها ، وتعميقها ، فعلى سبيل المثال أرسل السلطان الظاهر بيبرس رسالة إلى الفرنجة جاء فيها : (( فإن كان صاحب قبرص من أهل ملتكم يخرق حرمتكم ، ولا يفي بعهدكم ، ولا يحفظ ذممكم ، ولا يقبل شفاعتكم فأى حرمة تبقى لكم ، وأي ذمام يوثق به منكم ))<sup>١٠١٣</sup> .

وبعد أن عمل تلك الإجراءات أخذ في تحصين أطراف دولته لمواجهة دولة مغول فارس على نهر الفرات ، ولاسيما قلعة البيرة حيث أمر بعمارة ما خرب منها ، وحمل آلات القتال والأسلحة إليها من مصر ، والشام ، وأن يعبأ فيها كل ما يحتاج إليه أهلها في الحصار لمدة عشر سنين<sup>١٠١٤</sup> .

وكتب للأمراء ، ولصاحب حماه بالإقامة على البيرة حتى يُنظف الخندق من الحجارة التي ردمها العدو فيها .

<sup>١٠١١</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٩٣

<sup>١٠١٢</sup> - المقرئزي : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٣

<sup>١٠١٣</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٥ .

<sup>١٠١٤</sup> - العيني : عقد الجمان : ج الخاص بحوادث ٦٥٦-٦٧٣هـ ، ص ٤٩٤

وكتب السلطان إلى القاهرة (( كان وقتها واقف على سور قيساريه ليهدمه ))<sup>١١٥</sup> باستدعاء مائتي ألف درهم ، ومائتي تشريف ، وكتب إلى دمشق بتجهيز مئة ألف درهم ، ومائة تشريف وحمل ذلك كله إلى البيرة ، وطلب من الأمير إيغان بأن يوزعها على سائر من فيها من أمير وأمور ، وجندي ، وعامي دون استثناء حتى الحراس ، وأرباب الضوء (الأشخاص المكلفون بأعمال الإضاءة)<sup>١١٦</sup> حتى تبقى هذه القلعة قوية صامدة قادرة على رد هجمات المغول . لا بل شوكة في جنب دولتهم تسبب لهم الأذى كذلك عمل على إفساد الطرق ، والوديان المؤدية إلى الشام كي لا يجد المغول أثناء زحفهم ما يحتاجون إليه من أقوات ، وأعشاب لدوابهم وهذه هي أعلى درجات الرقي في التفكير الإستراتيجي لتحقيق أسس الفن الحربي ، وهي التنبؤ بمتطلبات سير المعركة ، ومعالجة قضاياها ، وتهيئة أسباب إنجاحها على كل الصعد.

أما موت هولوكو في سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م لم يؤثر في الرؤية الإستراتيجية عند المغول تجاه المنطقة بل تابعوا بالاتجاه نفسه الذي بدأه هولوكو بل أن الخان الجديد (أبغا)<sup>١١٧</sup> كان أشد شراسة في تطبيق هذه الرؤية خلال سنوات حكمه من ٦٦٣-٦٨٠هـ/١٢٦٥-١٢٨١م حيث اهتم بمسألة التحالف مع الصليبيين من خلال إظهار العطف على المسيحيين ، وتبادل السفارات والهدايا مع الباباوات ، وملوك أوروبا ، بينما كان هدف الصليبيين والبابوية هو تنظيم حملة مشتركة مع المغول للقضاء على دولة المماليك ، والاستيلاء على بيت المقدس ، وهذا يؤكد ضعف الرؤيا ، والقراءة الخاطئة من قبل البابوية لإستراتيجية المغول التي تم الحديث عنها . ولقد ظهر أثر هذا التحالف واضحا عندما انتهز أبغا خان فرصة انشغال بيبيرس بمحاربة الصليبيين على الحدود الإسلامية مثل ما حدث عندما أغارت الجيوش المغولية على مدينة الرحبة في الوقت الذي كانت فيه جيوش المماليك تهاجم الصليبيين .

في هذا الجو حاول أبغا خان أن يفرض سيطرته على دولة المماليك عن طريق الدبلوماسية حيث أرسل إلى الظاهر بيبيرس رسالة يطلب منه الخضوع ، والرضوخ حيث قال له فيها : (( فأنت لو صعدت السماء ، أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا ، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا ))<sup>١١٨</sup> . ردّ الظاهر بيبيرس على التحدي بالتحدي ، وصعدّ اللهجة حيث رد عليه قائلا: (( أعلّمه أنني وراءه بالمطالبة ، ولا أزال انتزع من يده جميع البلاد التي استحوذ عليها من البلاد الحليفة ، وسائر أقطار الأرض ))<sup>١١٩</sup> .

<sup>١١٥</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٥

<sup>١١٦</sup> - المقرئزي : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٥

<sup>١١٧</sup> - أبغا هو الابن الأكبر لهولوكو وولي عهده. جلس على سرير الملك في رمضان سنة ٦٦٣هـ/١٢٦٥م . الهمذاني ( رشيد الدين ) : جامع التواريخ ، ج ٢ ، ص ٩-١١ . إقبال ( عباس ) : تاريخ ايران ، تر علاء الدين منصور ، دار الثقافة للنشر بيروت ، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م ، ص ٤٤٥ .

<sup>١١٨</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٧٤ .

- البرزالي ( علم الدين أبي محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي ، ت ٧٣٩هـ / ) : المقتفي على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي ، تح عمر عبد السلام التدمري ، ٤ أجزاء ، المكتبة العصرية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م ، ج ١ ، ص ١٩٢ .

<sup>١١٩</sup> - المقرئزي : السلوك : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٧٤ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٤٤-١٤٥ .  
- العيني : عقد الجمان ، ج ٤ : عصر سلاطين المماليك ، ص ٥٤٩ .

**وكان** عنصر القوة في إستراتيجية الظاهر بيبرس هو : القدرة على التنفيذ لما كان قد خطه أو هدد به ، وكان هذا يكسب تلك الإستراتيجية عنصر المصدقية ، ولاسيما عند الأعداء . وهذه النقطة تسجل للظاهر بيبرس بأنه كان يدرك تماماً أهمية التأثيرات النفسية على قادة العدو وعلى جيوشه ، لذلك قام ببناء تلك الجسور العظيمة بين ما يريد ( إستراتيجيته ) وبين أساليب وطرق تحقيقها ، ولاسيما فيما يتعلق بالعدو ، فشكل عنصر المصدقية في سياسته ما يدعى بقطب الرحي ، وبالمناسبة أكدت أحدث الدراسات في فن الحرب أنّ القائد الذي يستطيع ربط خطة الحرب ، أو التهديد بالحرب مع القدرة على التنفيذ في الوقت المحدد يكسب الدولة نصف الحرب . لأنّ العدو عندما يسمع بتهديد ما ، ويعرف بأنّ التنفيذ سيتبع ذلك التهديد في المحدد يدرك مدى جدية أي تهديد ، أو تلويح بالحرب ، وقد برع العدو الصهيووني بهذا الأسلوب ، فكان دائما ما يقرن تهديداته بضرب المقاومة الفاسطينية بالفعل المباشر ، وقد استخدمت الأسلوب نفسه المقاومة الإسلامية في الجنوب اللبناني ، فأرعبت العدو وصار الشعب الإسرائيلي يأخذ معلوماته من إعلام المقاومة .

والسلطان الظاهر بيبرس كان من القادة الكبار الذين أدركوا أهمية ذلك الربط بين التهديد ، وبين التنفيذ ، لذلك وبعد أن قال لأبغا خان : ((إني وراءك أطالبك بما أخذت من أرض حلفائي )) . ربط ذلك بالتنفيذ مباشرة ، فتوجه في سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧٢م لمهاجمة المغول في الأراضي التي استولوا عليها ( في العراق ) ، وحمل معه المراكب مفككة الأجزاء على ظهور الجمال ، وانزلها في نهر الفرات ، وشحنها بالمقاتلين الأشداء المؤمنين بتحقيق النصر وتراموا مع المغول ، واقتحم الأمير قلاوون الألفي الفرات ، وخاض معه عدد كبير من الجنود وصدّم التتار صدمة مزقت صفوفهم ، وضربت أولهم ، وآخرهم ، فكان الحماس لا يوصف فحاضوا النهر بخيولهم ، وكان لقعقة السلاح ، وأمواج المياه هَوّل مفرع<sup>١٠٢٠</sup> . وطلع السلطان في أولهم ، وحققوا نصرا كبيرا على المغول . الأمر الذي جعل الكثير من كبار رجال الدولة المغولية يطلبون الود ، والتقرب من السلطان ، وقد روى مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذاني (( أن أبغا خان اتهم الأسرة التي كانت تحكم في العراق في زمنه بتهمة الخيانة والاتصال بملك مصر بيبرس البندقداري ، والاتفاق معه على تسليم العراق له ، ومن بين هؤلاء المؤرخ ملك الجويني الذي عُيّن من قبل المغول حاكما للعراق ، وأخوه ووزيره شمس الدين محمد ، وأبناءهم كلهم أهل فضل وأدب ، وأرباب جود وكرم ، وكانت مجالسهم محطاً للأدباء ، والكتاب والشعراء .

- البرزالي : تاريخ البرزالي ، ج ١ ، ص ١٩٢ .  
- ابن أبيك الداوداري : كنز الدرر - الدرّة الزكية في أخبار الدولة التركية : ص ١٣٩ - ١٤٠ .  
- النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ١٦١ .  
- المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٠٦ - ٦٠٧ .

هؤلاء بذلوا كل ما في وسعهم لتعمير ما خرّبه المغول ، ولم يتأخروا عن تنفيذ كل ما هو نافع  
وصالح<sup>١٠٢١</sup> ، وهذه النكبة لحكام العراق المكلفين من قبل المغول تشبه إلى حد ما نكبة البرامكة  
أيام هارون الرشيد .

وهكذا تأمنت إستراتيجية الحدود الشرقية للدولة ، وانتقل بعدها ببيرس لتأمين الحدود الشمالية  
واستدعى هذا الأمر عملا مركبا حيث أصبحت الدول في شمال بلاد الشام تابعة بشكل ، أو  
بآخر للمغول عندما استسلم سلطان سلاجقة الروم كيخسرو ، وقبل السيادة المغولية على أرضه  
، وكان ذلك سنة ٦٤٠هـ / ١٢٤٣م<sup>١٠٢٢</sup> .

ولم يتخلف عن ذلك جاره ملك أرمينية على الرغم من اختلاف الدوافع ، فالأخير كان يأمل أن  
يكون المغول سنداً له ، ونصيرا للمسيحية ضد القوى الإسلامية الموجودة في المنطقة<sup>١٠٢٣</sup> . إذا  
على ببيرس مواجهة التتار ، ومعهم عسكر الروم ، ومقدمهم معين الدين البراواناه<sup>١٠٢٤</sup> . الذين  
اتفقوا على محاربته . ماذا عمل ببيرس؟

من أجل تنفيذ خطته الإستراتيجية كلف نائب حلب نور الدين علي بن مجلي ليقم على الفرات  
بعسكر حلب ، ويحفظ معابر الفرات كي لا يدخل أحد من التتار إلى بلاد الشام<sup>١٠٢٥</sup> . أي ( قام  
بعزل المنطقة من جهة الشرق كي لا تأتي نجدة التتار من هذه الجهة ) .

يجب التنويه إلى أن مؤرخ المغول رشيد الدين بن فضل الله الهمذاني اتهم البراواناه بالخيانة  
وأنه ذهب إلى ركن الدين البندقداري ، وحرصه على السير إلى بلاد الروم<sup>١٠٢٦</sup> . لكن المقرئزي  
قال : لقد اختلفت أمراء الروم على البراواناه ، ففارقه جماعة من قيساريه وذهبوا إلى  
السلطان<sup>١٠٢٧</sup> . ومهما كان فإن ما قام به السلطان الظاهر ببيرس عمل ينم عن فكر إستراتيجي  
عظيم استطاع من خلاله تأمين حدود دولته من جهة الشمال بعد أن دخل مدينة قيساريه سنة  
٦٧٥هـ / ١٢٧٧م ، وكبّد المغول ما يقارب من ٧٠٠٠ نفس عند استيلائه على عاصمة الروم

<sup>١٠٢١</sup> - الصياد : المغول في التاريخ ، القاهرة ، ط١ ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص ٥٨

<sup>١٠٢٢</sup> - رانسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص ٣٠٣

<sup>١٠٢٣</sup> - رانسيان : ج٣ ، ص ٣٠٣-٣٠٤

<sup>١٠٢٤</sup> - البراواناه : لفظ فارسي معناه الحاجب ( الفراش ) ، وقد أطلق في دولة سلاجقة الروم بأسيا الصغرى على الوزير الأكبر .

دهمان : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي ، ص ٣٣ .

<sup>١٠٢٥</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٦٢٧-٦٢٨

<sup>١٠٢٦</sup> - الهمذاني : جامع التواريخ ، م٢ ، ج٢ ، ص ٦١-٦٢

<sup>١٠٢٧</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج١ ، ق٢ ، ص ٦٢١ .

حيث نزل بدار السلطنة ، وجلس على عرش السلاجقة الروم ، وخطب له على المنابر ، واستقبله الأهالي استقبالا حافلا ، ثم عاد إلى الشام<sup>١٠٢٨</sup> .

ولا شك أبدا في أن السلطان الظاهر بيبرس استطاع بأعماله ، وفكره الإستراتيجي الرائع وما أظهره من إبداعات في فن الحرب ، والإستراتيجية العسكرية الحازمة أن يحول دولة المماليك من دولة ناشئة إلى دولة قوية ثابتة الأركان مما عبّد الطريق لخلفائه كي يسلكوه ويتمموا تلك الرسالة في التصدي لخطر المغول ، والقضاء على الدويلات الصليبية ، وتأمين الإسلام ، والمسلمين من جميع الأخطار الداخلية ، والخارجية . فهل استطاعوا تحقيق ذلك؟

الإجابة عن هذا السؤال المهم يستدعي الخوض في كثير من التفاصيل . لكن ببساطة يمكن القول : إنّ بعض السلاطين كانوا قادة كبار تزودوا من علوم من سبقهم ، وأبدعوا في فن الحرب ، وزادوا الكثير على ما عرفوا من نظريات نتيجة خبرتهم الطويلة في هذا المجال ومن هؤلاء : السلطان قلاوون الألفي الذي سار على الطريق نفسه الذي رسمه بيبرس البندقداري ، فاهتم بإستراتيجية التصدي لخطر المغول ، انتصر عليهم في حمص سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م . تلك المعركة التي أفصحت عن تفكير ، وقدرة إستراتيجية عند السلطان قلاوون الألفي ، فما أن سمع بأنّ التتار سوف يقصدون البلاد حتى عقد مؤتمراً للحرب ، وكان ذلك في سلخ ربيع الآخر سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م<sup>١٠٢٩</sup> ، حدد فيه هدف إستراتيجيته ، والتي تتلخص أيضاً بالتصدي للعدو عن طريق القوة ، واتفق في ذلك المؤتمر أن يكون مكان اللقاء في مرج حمص<sup>١٠٣٠</sup> ، وهذا أرقى أنواع التفكير الإستراتيجي ، فاختيار المكان على سبيل المثال له دلالات في الفكر الإستراتيجي ومن هذه الدلالات في هذه الحالة :

١ - المكان وفيه ضريح خالد بن الوليد سيف الله المسلول ، وما يعطيه للمقاتلين من شحذ للهم واستنكار للانتصارات العربية الإسلامية الكبيرة ، ودلالاتها ، ودروسها ، والافتداء بقادتها وشجاعتهم ، وتضحياتهم قال ابن أبيك : (( ... )) ، وجلسوا عند ضريح خالد بن الوليد ووضعوا بينهم الكتاب العزيز ، وتحالفوا أنهم لا يؤذي بعضهم بعضاً ، وأن لا يهزموا ، وأن يموتوا تحت ظلال السيوف ))<sup>١٠٣١</sup> .

<sup>١٠٢٨</sup> - ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج٧ ، ص ٨١-٨٣ . ابن أبي الفضائل : النهج السديد ، ص ١٥٢ .

<sup>١٠٢٩</sup> - ابن أبيك : كنز الدرر ، ج٨ ، ص ٢٤١ .

<sup>١٠٣٠</sup> - ما أن عرف السلطان أنّ المغول قد جاؤوا بأعداد كبيرة حتى طرح فكرة جديدة ملخصها أن يكون اللقاء بمرج دمشق . لكن بعد مشاورات مع القادة تم الاتفاق على مرج حمص . المقرئزي : السلوك ، ج١ ، ق٣ ، ص .

<sup>١٠٣١</sup> - ابن أبيك : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج٨ ، ص ٢٤١-٢٤٢ .  
- ابن أبيك : ج٨ ، ص ٢٤٢ .

٢ - الوضع الجغرافي للمكان ، حيث الأرض مفتوحة ، والمرج يؤمن ساحة كبيرة للقتال ، ثم إن وادي العاصي عن يسار ذلك المرج ، ومن خلفه يؤمن المياه اللازمة للمقاتلين وخيولهم .

٣ - طبغرافية المكان : مرج كبير أمامه و إلى اليسار بعض التلال التي يتخللها نهر العاصي - أمطار المنطقة غزيرة لذلك فالمنطقة كثيرة الأعشاب تؤمن الأكل المطلوب للخيول وبقية الحيوانات المستخدمة .

٤ - الطبيعة السكانية للمنطقة : السكان عرب مسلمون ومسيحيون يمكن أن يشكّلوا غطاءً مناسباً للأعمال القتالية بأن يكونوا عيوناً ، وأداء لقوات المماليك بالإضافة إلى تأمين الطعام ومياه الشرب ، ومداواة الجرحى إلى غير ذلك من الخدمات .

وكان السلطان المنصور قلاوون قد هباً الأرضية المناسبة ، والقوية للتصدي لخطر المغول الذي لم يهدأ يوماً ، فقد تغلب بسرعة على أعدائه في الداخل ، وجدد الهدنة مع الصليبيين كل على حده ، فالاستتار في عكا ، ومع بوهيموند السادس صاحب طرابلس ، وكان ذلك في شهر المحرم من سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م ١٠٣٢ قبل معركة حمص بأشهر عديدة .

وهكذا اجتمع التخطيط الصحيح المتمثل بتحديد الهدف ، ووسائل تحقيقه ، والعمل على اختيار المكان المناسب لملاقاة العدو بعد تهيئة الظروف السياسية ، والإعداد الجيد ، وهذا كله يدل على فكر عسكري إستراتيجي قاد جنوده إلى النصر .

في الوقت نفسه قال فيه مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذاني : (( إن سوء التدبير من القائد ( منكوتر ) الذي كان طفلاً ، ولم يشاهد المعارك الطاحنة أدّى إلى تقهقر كبار الأمراء وهزيمة الجيش الذي ولى الأدبار )) ١٠٣٣ . في الوقت الذي قال فيه إحد المؤرخين الصليبيين وهو السير جوزيف دي كانسي ، وقد كان فارساً من فرسان مشفى القديس يوحنا في القدس في رسالة كان قد أرسلها إدوارد الأول (( .. منكو تمر الذي كان شجاعاً وجريئاً وفارساً معتمداً ومحارباً مجرباً )) ١٠٣٤ .

إذاً المسألة ليست كما قال مؤرخ المغول رشيد الدين الهمذاني إنما تكمن في التخطيط الصحيح والإعداد لهذه المعركة ، قالمؤرخ الصليبي نفسه يقول : إن منكو تمر كان قد أرسل قسماً من

١٠٣٢ - ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام ، ص ٨٢-٨٣ .

- المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٨٥ .

١٠٣٣ - الهمذاني : جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

١٠٣٤ - دي كانسي ( جوزيف ) : الرسائل الملكية ، تح و تر سهيل زكار ، عن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية ج ٣٦ ، ص ٣٦٥ .

قواته لملاقاة أخيه أبغا الذي ظنه قادما عبر الأراضي الصحراوية ، وأنه سيصل إلى دمشق قبله<sup>١٠٣٥</sup> ، فبذلك هم كانوا فاقدى أبسط أنواع التنسيق بين جيوشهم لسبب ، أو آخر .

---

<sup>١٠٣٥</sup> - دي كانسي ( جوزيف ) : ص ٣٦٥ .

الفصل الخامس ..... ص ٢٠٩ - ص ٢٤٤

فن إدارة العمليات في الميدان ( التكتيك القتالي ) .

١- تعريف التكتيك .....

٢- المسير التكتيكي عند المماليك .....

٣- الاستطلاع عند الجيش المملوكي .....

أ - الاستطلاع في مواجهة الغزو المغولي ....

ب- الاستطلاع في مواجهة الغزو الصليبي ....

٤- الاستطلاع عند الجيش الصليبي .....

٥- الاستطلاع عند المغول .....

٦- القتال من المسير عند المماليك .....



## فن ادارة العمليات القتالية ( التكتيك القتالية ) .

### ١- تعريف التكتيك .

وهو الجزء الثاني والأهم من فن الحرب . لأن الإستراتيجية بدون التكتيك لا تساوي شيء في هذه الحالة لأنها تبقى في إطار الأفكار النظرية والخطط ، فالأعمال التكتيكية التي تنفذ في الميدان هي وحدها التي تترجم الإستراتيجية إلى واقع عملي من خلال التطبيق ( الحركة والنار ) . هذا لا ينطبق على العصر المملوكي فقط ، ولكن يعد في وقتنا الحاضر من المبادئ الأساسية في فن الحرب المعاصر .

والتكتيك كمفهوم في المصطلح الحربي : هو فن استخدام القوات ، والأسلحة ، والمعدات في ميدان القتال لتحقيق هدف معين ، أو أهداف معينة رسمتها الإستراتيجية ( تطبيق الخطة الموضوعية ) وهنا يجب التنويه إلى أن الجيوش قد لا تستطيع تنفيذ تلك الخطة لسبب أو لآخر ( تغيير في المعطيات ، أو عدم صحة أو كفاية المعلومات التي بنيت على أساسها الخطة ... ) لذلك يعتمد القادة إلى وضع أكثر من خطة ، أو خطة رئيسية وأخرى بديلة يضعها القائد تطبق في حال إخفاق الخطة الأساسية<sup>١٠٣٦</sup> وهذا الأمر يعتقد أنه كان معروفاً ، بل مطبقاً في العصر المملوكي قال الرشدي : « .. واعلم أن أحوال الحرب لا تجري على نظام واحد بل تختلف أحوالها وتتغير ، ربما دبر صاحب الجيش ، أو بعض قواده أمراً - أي وضع خطة - فأتى الحال بخلافه - أي غيرت المعطيات على الأرض لسبب أو لآخر - فيعمل حينئذ بما يقتضيه رأيه .. »<sup>١٠٣٧</sup> ومثل هذا العمل ما زال يطبق ويعتمد في أيامنا هذه لا بل يُعد من أكثر الأمور علمية وموضوعية . ( تطبيق نظريات علم الاحتمالات ) .

إنّ التطبيق التكتيكي للمعطيات الإستراتيجية يأخذ أشكالاً مختلفة تتجسد بأفكار ، وأعمال يتحقق من خلالها أفضل استخدام للقوى ، والوسائط في ميادين القتال ، وهذه الأفكار هي نتيجة طبيعية لتجارب كثيرة ، وأعمال قتالية ، ودراسات معمقة لأعمال قتالية سألقة جرت في أماكن مختلفة ، وأزمنة مختلفة قام القادة بدراساتها واستخلاص النتائج ، والعبر منها لتوظيفها في أعمال قتالية يمكن أن تنشأ في مكان ما وزمان ما ، أو لتجنب أخطاء وقعت يوماً ما ، وكان من نتائجها الخسارة ، والإخفاق . لذلك في اللحظة التي يستلم القائد المهمة يقوم وبشكل سريع جداً بإجراء بعض الحسابات الذهنية التي تسهل عليه تنفيذ المهمة بنجاح حيث يقوم بتصور كامل للمعركة التي سينفذها ، واستعراض القوى الصديقة ، والمعادية ( ذهنياً ) ، وما يمكن أن يحتاج إليه من قوى ، ووسائط للتنفيذ الناجح للمهمة إضافة إلى تصور مكان التنفيذ ، والطرق الموصلة إليه ، وما هي الصعوبات ، وزمن الوصول<sup>١٠٣٨</sup> وهذا أمر في غاية الأهمية في التكتيك العسكري ، فبعض المعارك كان نصيبها الإخفاق لأن حسابات الوقت لم تكن دقيقة مثال ذلك ما حصل في معركة وادي الخزندار سنة ٦٩٩هـ / ١٣٠١م حيث انطفت مشاعل النفاطين ،

<sup>١٠٣٦</sup> - الرشدي : تفريغ الكروب في تدبير الحروب ، ص ١٠٤ .

<sup>١٠٣٧</sup> - الرشدي : ص ١٠٤ .

<sup>١٠٣٨</sup> - الرشدي : ص ٥٧ .

وتعبت الخيول ، والفرسان لما أصابهم من الاجهاد قبل الدخول في المعركة<sup>١٠٣٩</sup> نتيجة لإجراء حسابات خاطئة ، أو إهمال إجراء تلك الحسابات.

قال صاحب كتاب مختار الأخبار (( كان التتار مكنون في الوادي المذكور ، حتى إذا قاربت العسكر الوادي المذكور بعد ركض شديد ، وسير عنيف ، وعطش كاد يهلكهم ، ويهلك خيلهم ... ))<sup>١٠٤٠</sup>. أما دراسة الفصل ، والطقس ، واليوم فهي أمور في غاية الأهمية في علم التكتيك العسكري ، فكم من القادة خسر الكثير من القوى ، والوسائط نتيجة إهماله دراسة الفصل والطقس ، واليوم ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، ومنها كما سلف القول : (( أن السلطان الظاهر بيبرس أراد السوق إلى جهة المرقب وحصلت أمطار عظيمة ، فعاد إلى حماة ، فأقام تسعة عشر يوماً بظاهاها ثم قصد الإغارة على المرقب مرة أخرى ، ووصل إلى قرب بلاد الإسماعيلية ، فأعاقته الأمطار والثلوج ))<sup>١٠٤١</sup>. قال المقرئ في موضع آخر مدلاً على أهمية دراسة الفصل والطقس : (( ... وفي هذه المنزلة سالت الأودية ، وأتلف السيل كثيراً من أثقال العسكر وافترق عدة منهم لذهاب جمالهم وأثقالهم ))<sup>١٠٤٢</sup>. ولو أن القائد المملوكي كان قد أجرى دراسة لمعرفة الفصل ، والطقس ، واليوم لو فر الكثير من الجهد ، والعناء ، والإمكانات إلى موضع آخر قد يكون بحاجة لها هنالك ، ولكن في مرات أخرى كان يجري مثل تلك الدراسة ، وتُتخذ الاستعدادات اللازمة لمواجهة ما يحتمل أن يحدث في ذلك المكان ، والزمان ، ومثال ذلك ما قام به السلطان الظاهر بيبرس عندما أراد الذهاب إلى منطقة سيس ، وذلك في الحادي عشر من شهر رمضان سنة ٦٧٣هـ / ١٢٧٥م ، وكان الفصل شتاء مما جعل السلطان يأمر بتجهيز ثلاثين قارباً لاجتياز النهر<sup>١٠٤٣</sup> الذي قد يكون في مثل تلك الأيام [ شهر آذار سنة ١٢٧٥م ] في أوج قوة جريانه ، وهذا مثال آخر : أن معرفة قوة الرياح ، واتجاهها أمر ضروري لرمية الشباب من أجل تحقيق أفضل الإصابات قال البكلميشي : (( قال الإمام الشافعي : لا بأس أن يرموا أرساقاً معلومة كل يوم من أوله إلى آخره ، ولا يفترقا حتى يفرغ منها إلا من عذر بمرض أحدهما ، أو حائل يحول دون الرمي ، والمطر عذر لإفساده السهام ، ولا يليق - أن يكون - الحر عذراً ولا الريح الخفيفة ، وإن تصرّف السهم كان لكليهما أن يقفا حتى تسكن ، أو تخف ، وإن غربت الشمس لم يكن عليهما أن يرميا إلى الليل ))<sup>١٠٤٤</sup> ، إذا المطر ، والرياح الشديدة ، والمتوسطة الشدة له تأثير كبير على نتيجة رمي القسي ، وذلك أن السهم كأى قذيفة أخرى تخضع لمجموعة من القوى التي تؤثر عليها بشكل أو بآخر ، ومن هذه القوى : قوة الدفع الناتجة عن قوة شد الوتر ، وهذه القوة تؤثر ايجابياً أما قوة الجاذبية الأرضية ، وقوة الاحتكاك مع الهواء ، أو مع المطر ، فهي قوى سلبية تؤثر على مسافة الوصول ، وعلى اتجاه الرمي ، وبالتالي على نتيجة الرمي ، ودقته ، وهذا ليس كل شيء إنما يحتاج القادة إلى مثل تلك الدراسة ، أو [ المعلومات ] لاختيار وقت المصاف ، حتى لا تكون الرياح عامل إعاقة والشمس عاملاً

<sup>١٠٣٩</sup> - المقرئ : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ . ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ١٦ . ابن أبيك الداودار : مختار الأخبار ص ١١١ .

<sup>١٠٤٠</sup> - ابن أبيك الداودار : ص ١١١ .

المقرئ : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٢ .

<sup>١٠٤١</sup> - ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٦٤ .

- المقرئ : السلوك ، ج ٢ ، ص ٦٥ .

<sup>١٠٤٢</sup> - المقرئ : ج ٢ ، ص ٣١٨ .

<sup>١٠٤٣</sup> - ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٦٧٣ .

- المقرئ : السلوك ، ج ٢ ، ص ٩٠ . ابن أبيك الداودار : مختار الأخبار ، ص ٥٣ .

<sup>١٠٤٤</sup> - البكلميشي : بغية المرام ، ص ١٣٥ .

مساعداً لكشف الجيوش عندما يقع شعاعها على السلاح المصقول مثل السيوف ، والخوذ ، أو يضرّ على أبصار المقاتلين<sup>١٠٤٥</sup> ، - وقد يستفيد القائد تكتيكياً من اتجاه الرياح في ميدان المعركة كما حصل مع صلاح الدين في معركة حطين ، فبعد أن عرف اتجاه الرياح قام بإشعال الأعشاب ليعمي بالدخان الناتج عن حرقها أعين الصليبيين ، وفي الوقت نفسه يمكن الاستفادة من الدخان كستارة تخفي وراءها قواته<sup>١٠٤٦</sup> - لذلك على القائد أن يختار الوقت المناسب ، والفصل المناسب ، وهذه الأمور غاية في الأهمية من منطلق علمي حتى في أيامنا هذه ، ففي ظل كل التقدم العلمي ، والتكنولوجي الذي حصل على الأسلحة ، والأعتدة التي تستخدمها الجيوش في الشرق ، وفي الغرب مازال عامل الرياح ، ودرجة الحرارة ، واتجاه الشمس ، ورطوبة الجو ، والمطر ، والغيوم عوامل لها حساباتها الخاصة في العلوم العسكرية وخاصة في علوم الصواريخ والرادارات ، ورميات المدفعية في هذه الأيام .

بعد ذلك كان القادة يقومون بشرح ، وتوضيح لطبيعة الأعمال المقبلة ، وتفهم القوات لها [ بان قواتنا ستقوم بالهجوم على القوات الصليبية ، أو التصدي لقوات المغول ... الخ ] ومثل هذا العمل كان ينفذ أحيانا بعد قطع مسافة معينة ، والقوات لا تعرف أين وجهتها ، وكان ذلك بدافع المحافظة على السرية التامة ، وضمان عدم وصول أية معلومات عن طبيعة ذلك التحرك إلى العدو ، وهذا الأمر في غاية الأهمية أيضا .

عادةً ، أو غالباً كان العمل التكتيكي يبدأ بتجميع القوات بطلب من السلطان ، أو بأمر منه في منطقة يحددها هو . - هذه المنطقة تسمى في أيامنا هذه [ منطقة الانتشار ] يليها المسير الذي من خلاله يتم إيصال الجيوش إلى أرض المعركة لتنفيذ الأعمال القتالية التكتيكية التي هي محور هذا البحث . أما عن التجميع ، فكان يتم بطلب من السلطان إلى حكام الولايات وذلك حسب طبيعة المهمة التي سيتم تنفيذها حيث كانت ترسل إلى المركز ، أو تتهيأ للانضمام إلى القوات الرئيسية .

## ٢ - المسير التكتيكي عند الممالك :

في أكثر الحروب كان ، وما زال يسبق تنفيذ الأعمال القتالية مسير تكتيكي هدفه وصول القوات المتقاتلة إلى ميدان المعركة ، فهل كانت الجيوش في العصر المملوكي الأول خارج هذا السياق المتتبع لهذا الموضوع يلاحظ أن الجيوش المملوكية لم تخرج عن ذلك النسق ، فلم يخل مصدر سواء أكان معاصراً أم لاحقاً إلا وتحدث عن مسير الجيوش المملوكية إلى مناطق الحرب ، والقتال . قال الأقسراي : (( .. من حين تبدأ بالمسير إلى حين الوصول واللقاء ))<sup>١٠٤٧</sup> وقد قال بعضهم : إذا كان العدو منك على خمس مراحل<sup>١٠٤٨</sup> أو نحوها فلا يكوننّ مسيرك ونزولك إلا على تعبئة<sup>١٠٤٩</sup> .

<sup>١٠٤٥</sup> - الرشيدى : تفريخ الكروب في تدبير الحروب ، ص ٨٧ .

<sup>١٠٤٦</sup> - زكار ( سبيل ) : حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس ، دار حسان ، ط ١ ، دمشق ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م ، ص ١٥٦ .

<sup>١٠٤٧</sup> - الأقسراي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٤٤١ .

<sup>١٠٤٨</sup> - المرحلة ج مراحل ، والمرحلة مسافة تقدر من خمسة إلى ستة فراسخ ، والفرسخ ثلاثة أميال

<sup>١٠٤٩</sup> - الهرثمي : مختصر في سياسة الحروب ، ص ٢٤ .

إذا كان هدف المسير هو : الوصول بالقوات وهي على أتم الاستعداد ، والجاهزية لملاقاة العدو كان لابد من تنفيذ عدة إجراءات منها :

- قبل تنفيذ المسير كان القادة المماليك يرسلون طلائع ( طليعة ) تقوم بكشف أخبار العدو وإرسال المعلومات عنه في الوقت المناسب . قال الأقسراي : (( .. ، ومن الولايات المختصة بالعاكر أن يُقدم أميراً من أعيان الأمراء ، ويجعله يرسم ارسال الطلائع ، والسرايا ، وإقامة الجواسيس ، وأصحاب الأخبار ، ويكون هذا الأمير شديد الاهتمام بذلك حتى يقف على حالة الطرق .. ))<sup>١٠٥٠</sup> ، إذا أهم المعلومات التي يجب الحصول عليها هي حالة الطرق لذلك كانوا يجهزون مجموعة أخرى اختصاصية تسمى في أيامنا هذه مجموعة هندسية مهمتها : إصلاح الطرق ، وتسويتها ، وردم الحفر ، وقطع الأشجار التي قد تعيق المسير ، وإقامة الجسور والقناطر على الأنهار حتى يتأمن وصول الجيوش في الوقت المناسب لأن أي تأخير قد يتسبب بأمور لا يحمد عقباها . قال الرشيدى : (( فإن في ذلك تسهيل الطريق على العسكر وربما أوجبت تقصيراً في السير ، أو تأخيراً في بلوغ القصد الذي يريده في وقت معين ))<sup>١٠٥١</sup> ، وفي العصر المملوكي الأول كان رتل المسير يقسم تكتيكياً إلى أربعة أقسام :

الأول – أصحاب المقدمة وعلى رأسها أمير معين لمنصب الحل والارتحال ، و أصحاب المقدمة عادة هم الخيالة التي تكون في أول العسكر<sup>١٠٥٢</sup> .

الثاني – أصحاب الساقة ، وهم الذين يسيرون في المؤخرة يراعون المنقطعين ، والمقصرين من القوات ، ويحافظون عليهم ، ويمنعون الدخول ، والخروج إلى أرتال المسير<sup>١٠٥٣</sup> .

الثالث والرابع – هم الميمنة ، والميسرة ، ويكون هؤلاء مسؤولين عن حماية الجوانب .

ويكون في وسط الأقسام الأربعة أي خلف أصحاب المقدمة ، وأمام أصحاب الساقه ، وبين الميمنة والميسرة<sup>١٠٥٤</sup> التجار والساقه ، والرحالة ثم تتلوهم خزائن السلاح ، والأموال والحمولات من الثقل ، وأصحاب المؤن ، وأصحاب الأعمال ، والكتاب ، والنظار ، وأصحاب الدواوين ، وما يتعلق بهم ، ثم يتلو ذلك الحجاب ، والأساورة يعني الأماره يقدمون قائد الجيش فتكون العساكر محيطة بهؤلاء من كل الاتجاهات من الأمام ، والخلف ، ومن الميمنة والميسرة<sup>١٠٥٥</sup>

ثم تقوم فرقة خاصة بعزف الموسيقى ، وقرع الكوسات منذرة بأن المسير قد بدأ ، ويكون المسير أكثر ما يمكن في الليل ويمكن أن يكون في النهار<sup>١٠٥٦</sup> ، وكان المماليك يفضلون يوم الخميس تيمناً بالرسول صلى الله عليه وسلم حيث كان يُسَيَّر غزواته يوم الخميس ، فإن لم يتهيأ لهم ذلك فيوم السبت<sup>١٠٥٧</sup> ، وحتى يكون المسير آمناً كانت ترسل أمامه مجموعات استطلاعية

<sup>١٠٥٠</sup> - الأقسراي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٤٤١ .

<sup>١٠٥١</sup> - الرشيدى : تفریح الكروب في تدبير الحروب ، ص ٧٤ .

<sup>١٠٥٢</sup> - الرشيدى : ص ٧٤ . الأقسراي : السؤل والأمنية ، ص ٤٤٢ .

<sup>١٠٥٣</sup> - الأقسراي : ص ٤٤٢ .

<sup>١٠٥٤</sup> - الأقسراي : ص ٤٤٢ .

<sup>١٠٥٥</sup> - الأقسراي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٤٤٢ .

<sup>١٠٥٦</sup> - المقریزی : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٢٩ ، ص ٤٨٨ ، ص ٥٢٦ .

<sup>١٠٥٧</sup> - الأقسراي : نهاية السؤل والأمنية : ص ٤٤٣ . النووي : رياض الصالحين ، ص ٢٩٦ .

لتدقيق المعلومات التي كان القائد [ أو السلطان ] قد حصل عليها ، من قبل عناصر الاستطلاع ، والعيون ، والجواسيس الذين أرسلوا سالفاً بهدف جمع المعلومات <sup>١٠٥٨</sup>.

### ٣- الاستطلاع عند الجيش المملوكي :

و لا شك في أن للاستطلاع ، والجاسوسية قبل قيام الحرب دور مهم في الوقوف على ومعرفة أخبار العدو السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والعسكرية تلك المعرفة هي التي تؤمن للقادة كمّاً من المعلومات ، والمعطيات المتنوعة ، والتي هو بأمس الحاجة إليها لاتخاذ القرار الصحيح ، وكلما كانت تلك المعطيات دقيقة ، وموثقة المصادر كلما كان القرار معللاً وصحيحاً ، وهذه القاعدة في العلم العسكري صحيحة في كل زمان ومكان تتبناها جميع المدارس العسكرية في الشرق والغرب قديمها وحديثها .

فالمعلومات السياسية تعطي القائد فكرة عن تحالفات الدولة ، أو الجيوش التي سيقاؤها وطبيعة تلك التحالفات ، وهل هناك أهداف مشتركة بين البلدين المتحالفين ، وقدرة الحليف على دعم حليفه بما يلزمه من أسلحة ، أو قدرته على الدخول المباشر إلى جانبه في القتال .

أما المعلومات الاقتصادية فهي أكثر ضرورة لأن قوة الاقتصاد تعني قوة الدولة ، وقدرتها على تلبية احتياجات القوات المسلحة من أسلحة ، وأعتدة ، وتدريب في أيام السلم ، وتغطية نفقات الحرب في المعارك .

أما المعلومات الاجتماعية فهي مهمة أيضاً لمعرفة طبيعة السكان المحليين ، ومدى تعاطفهم أو عداوتهم لأحد طرفي الجيوش المتحاربة ، ومدى القدرة على الاستفادة منهم في جمع المعلومات إضافة إلى معرفة مدى ولاء الشرائح الاجتماعية المختلفة إلى الدولة ، وهذه منافذ مختلفة لولوج الجواسيس إلى قلب المجتمع ، وربما إلى قلب الجيوش هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى تكون تلك المعرفة نافذة مهمة لتوجيه الحرب النفسية التي كان القادة المماليك يراعون في استخدامها .

أما المعلومات العسكرية عن قوات العدو حالتها الراهنة - عتادها - تسليحها - تدريبها - أدوات نقلها المتنوعة سواء أكانت خيول ، أو جمال ، أو حيوانات أخرى ، أو حمام زاجل الذي كان يعتمد عليه في نقل الأخبار - ومدى جاهزية هذه الوسائط ، ومدى تدريبها ... - أو عن القادة ( أجناسهم - ولاءهم - قدراتهم الذاتية - ثقافتهم العسكرية والعامة - تدريبهم .. ) والأهم من ذلك هو معرفة نوايا العدو المستقبلية ماذا سيعمل ؟ ما هي استعداداته ؟ ما هي أهدافه ؟ كيف سيعمل على تحقيق تلك الأهداف ؟ ... هل سيحارب أم أنه لا يستطيع .

ومن عرف كل ذلك فإنه : (( يعلم حال العدو وما هو عليه من قصده ، أو الكف فيكون على علم من أمره )) <sup>١٠٥٩</sup> ، وهناك طرق متعددة للحصول على تلك المعلومات الضرورية لبناء قرار القائد العسكري قبل خوضه للمعركة من هذه الطرق وأهمه :

### المجموعات الاستطلاعية :

<sup>١٠٥٨</sup> - الرشيدى : تفريغ الكروب في تدبير الحروب ، ص ٧٤ .  
<sup>١٠٥٩</sup> - الرشيدى : ص ٢٥ .

كان الاهتمام بجمع المعلومات عن العدو ، والحصول عليها كبيراً في العصر المملوكي الأول . قال الرشيدى : (( وقد كان في أول الدولة التركية عند وقوع الحرب بين ملوك الديار المصرية ، وبين النتر أناس مرتبون على رؤوس الجبال مُرصدون لذلك بمرتببات على السلطان من الفرات إلى غزة حدث حادث من جهة التتار أوقدوا نارا ، ودخنوا فيصل ذلك في أسرع وقت من الفرات إلى غزة ، فيعلم أنه حدث حادث في الجملة ، ثم يرسل الحمام من غزة إلى مصر ، فيعلم خبر ذلك في في اليوم الواحد ))<sup>١٠٦٠</sup> .

هذا الاهتمام لم يتوقف عند نوع المعلومات ، و نقل الأخبار في وقتها على ما له من قيمة كبرى بل تعداه إلى التنوع في طرق جمعها والحصول عليها لتدقيقها ، والتأكد من صحتها ووثوقيتها ، وهذا أدى إلى الاهتمام بالمجموعات التي تكلف بالاستطلاع ، وجمع المعلومات من حيث : نوعية الأفراد وكيفية انتقائهم ، ونوعية التدريب ، والتتقيف ، وتعدد المهام إلى غير ذلك ، وضرورة أن يكونوا قريبين من القادة ، وتلبية احتياجاتهم باستمرار ، وذلك نابع من طبيعة الأهداف التي ستنفذها تلك المجموعات .

أهداف ومهام مجموعات الاستطلاع :

أ - الوقوف على حالة الطرق ، ومدى صلاحيتها للمسير<sup>١٠٦١</sup> ، وعلى الرغم من أن المماليك كانوا ذوي خبرة في معرفة أوضاع الطرق والممرات إلا أن العدو كان يقوم بأعمال حفر ووضع عوائق ، وعراقيل تعيق مسير الجيوش . قال المقرئزي : (( في سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٣م ركب السلطان .. ، وساق إلى عكا ، فإذا الفرنجة قد حفروا خندقا حول تل الفضول وجعلوا معائر<sup>١٠٦٢</sup> في الطريق ))<sup>١٠٦٣</sup> وقد أكد الأقسرائي الذي كان معاصرا للدولة المملوكية الأولى ضرورة استطلاع الطرق قبل إرسال الجيوش للمسير عليها لمعرفة حالتها العامة ، وعدم وجود صعوبات تعيق التحرك عليها<sup>١٠٦٤</sup> ، ومقدار ما تؤمنه تلك الطرق من الإخفاء ، والتمويه ، والحماية ، والدفاع ، والموارد المائية المتوفرة ، أو حفر الآبار لتلبية احتياجات الجيوش من المياه ، ومعرفة حاجة تلك الطرق إلى ترميم الجسور المبنية عليها وقيل : أنه في العصر المملوكي كان هناك كاشف للجسور يُسمى الأمير كاشف الجسور في العمل الفلاني وكان يعاونه عدد من الخوله – جمع خولي – والمهندسين في مراقبة الجسور ، وكانت تؤخذ خطوطهم ، وتواقيعهم بأن الجسور قد أتقن عملها على الوضع المرسوم به ، وبأنه لم يبق بها خلل ، ولا ما يخشى عاقبته بعد الإصلاح<sup>١٠٦٥</sup> ، أو إذا كان بها حفر ، أو انهدام ردم الحفر الموجودة ، وتسوية الإنهدامات .

<sup>١٠٦٠</sup> - الرشيدى : تفريج الكروب في تدبير الحروب ، ص ٢٥ . ابن فضل الله العمري : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ٢٠٠ -

٢٠١ . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٤ ، ص ٣٩٩ .

<sup>١٠٦١</sup> - الأقسرائي نهاية السؤل والأمنية ، ص ٤١

<sup>١٠٦٢</sup> - معائر : ج العاثر وهو ما يعد في الأرض من حفرة ونحوها ليقع فيها أحد ، وتأتي أيضا بمعنى المهلكة من الأرض ، وبمعنى

البئر . المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٨ .

<sup>١٠٦٣</sup> - المقرئزي : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٨٨ .

<sup>١٠٦٤</sup> - الأقسرائي : نهاية السؤل ، ص ٤١ . الرشيدى : تفريج الكروب في تدبير الحروب ، ص ٧٤ .

<sup>١٠٦٥</sup> - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٩٥ .

ب - تقصي أخبار العدو ، وإرسال المعلومات الضرورية إلى القادة في الوقت المناسب دون تأخير . قال الأقسراي : (( يجب الوقوف على حالة القوات المعادية بشكل دقيق ))<sup>١٠٦٦</sup> وإيصال ذلك إلى القادة المسؤولين في الأوقات المحددة . لأن معرفة حال العدو ، وما هو عليه [ جيوشه - أعدادها - تدريبها - أهدافها - إستراتيجيتها - تكتيكها ... ] يؤدي بالضرورة لاتخاذ القرار الصحيح لمواجهة ذلك العدو . أما السرعة في إيصال الخبر عن العدو أي إيصاله إلى القائد في الوقت المحدد يؤدي إلى اتخاذ الإجراءات الوقائية اللازمة ، وإن أي تأخير في تبليغ القائد له عواقبه ، وانعكاساته السلبية المهمة . قال الرشيدى : (( إن من يطلع على خبر من أخبار العدو ، ولا يُبلّغه لصاحب العسكر يكون قد ارتكب خطأ كبيراً لأن تأخير الخبر ساعة قد يعقب تعب سنة ))<sup>١٠٦٧</sup> .

ج - يضاف إلى مهام مجموعات الاستطلاع مهمة أخرى تتلخص بأن لا تقوم المجموعات المكلفة بهذه المهمة بالاشتباك مع العدو إلا في حال الضرورة القصوى لأن المهمة الأساسية لها هي الحصول على المعلومات عن العدو . لكن إذا تعرضت لخطر هجوم مباغت تقوم بمشاغلة قوات العدو ، والاشتباك معه كراً ، وقرأ بهدف : تأمين وصول القوات الأساسية ، أو جر العدو إلى منطقة الكمين ، أو ما يسمى في أيامنا هذه (مناطق قتل) كما حصل قبيل معركة عين جالوت<sup>١٠٦٨</sup> ، وهذا يكون مخطأ له سالفاً ، وموضوعاً ضمن الاحتمالات الواردة الحدوث وكيفية حلها .

د - وكان من مهام المجموعات الاستطلاعية أيضاً اختيار المنازل [ المنطقة التي سوف تنزل بها القوات للمبيت ، أو لتنفيذ الاستراحات سواء كانت طويلة ، أو قصيرة ] وهذا أمر ضروري ، فإذا ما بدأت القوات بالمسير على القائد أن يعلم أين ينزل فإذا نزل بأرض قليلة الماء ، والعلف ، فإن ذلك سيكلف المزيد من النفقات هذا من جهة ومن جهة ثانية يجب أن تؤمن الحماية والوقاية والدفاع للقوات الصديقة ، وأن لا تعطي أية ميزة إيجابية للقوات المعادية<sup>١٠٦٩</sup> . لذلك يجب أن يستطلع المكان مسبقاً من قبل مجموعات الاستطلاع ، أو الجواسيس التي يجب أن تدرس المكان دراسة وافية بحيث تؤمن مياه الشرب ، ومواضع الإخفاء ، والكمائن ، وأن تكون أراضي قليلة المدر<sup>١٠٧٠</sup> سهلة لحركة الجنود والخيول ، وأن تؤمن إمكانية تحرك العسكر اتجاه العدو ، أو باتجاه معاكس أي الانسحاب إذا اقتضت المصلحة ذلك<sup>١٠٧١</sup> ولا ينزل في المواضع المنخفضة خوفاً من السيل ومن دواهي الليل ، وقد أورد الهروي في تذكرته الهروي شروطاً كثيرة يجب أن تؤمنها منطقة النزول<sup>١٠٧٢</sup>

هـ - إن أمكن تحديد المكان الذي ستدور فيه المعركة ، ويجب أن يؤمن الكثير من الميزات منها :

<sup>١٠٦٦</sup> - الأقسراي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٤٤١ .  
<sup>١٠٦٧</sup> - الرشيدى : تفريغ الكروب في تدبير الحروب ، ص ٦٣ .  
<sup>١٠٦٨</sup> - المقريزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٠ .  
<sup>١٠٦٩</sup> - زي سون : فن الحرب ، ص ٢٦ . الرشيدى : تفريغ الكروب في تدبير الحروب ، ص ٧٦ .  
<sup>١٠٧٠</sup> - المدر : الطين الذي لا تحالطه رمال ، ثم أصبحت تعني المدن والقرى لأن بنيتها غالباً من المدر . الهروي : التذكرة الهروية في الحيل الحربية ، ص ٨٧ .  
<sup>١٠٧١</sup> - الرشيدى : تفريغ الكروب في تدبير الحروب ، ص ٧٦ .  
<sup>١٠٧٢</sup> - المدر : الطين الذي لا تحالطه رمال ، ثم أصبحت تعني المدن والقرى لأن بنيتها غالباً من المدر . : الهروي : التذكرة الهروية في الحيل الحربية ، ص ٨٧ .  
<sup>١٠٧٣</sup> - الهروي : ص ٨٧ - ٨٨ .

١٦ - أن يؤمن إخفاء وتمويه القوى والوسائط

٢٦ - أن يؤمن سرعة الحركة ولاسيما للخيل .

٣٦ - أن يؤمن القدرة على زج القوات بالمعركة في الوقت المحدد .

٤٦ - بالإضافة إلى ذلك من المستحب أن يكون موضع المصاف للقتال فيه امكانية حماية ظهر الجند كأن يسندوا ظهورهم إلى جبل ، أو نهر ، أو تل بحيث يتعذر هجوم العدو عليهم من الخلف ، أو أن يخرج كمين عليهم من تلك الجهة أي من خلف ظهورهم ، وإن تعذر وجود مثل تلك الموانع الطبيعية عليهم العمل على إيجاد موانع صناعية كأن يحفروا خندقاً من جهة الخلف يحمي ظهور العسكر إن قصد العدو مهاجمتهم من الخلف ، أو أن يقوموا بإجراء تكتيكي يتأكدوا من خلاله أن هذا الاتجاه آمن ، أو غير آمن يتخذوا بعده الإجراءات المناسبة مثلما حصل سنة ٦٨٢هـ / ١٢٨٣ عندما أرسل السلطان قلاوون قوة لمعاينة صاحب سيس على ما أبداه من سوء تجاه حلب أيام نوبة حمص . فلما وصلت هذه القوة إلى إياس قتلت ونهبت وخربت ، وعندما عزموا على الخروج ، وصلت إليهم كشافة كانوا قد أرسلوها إلى اتجاهات مختلفة فعاتت ، وأخبرت أن سوادا عظيما مقبلا نحوهم ، فأخذوا من أجل ذلك الاحتياطات اللازمة ، وما أن وصلوا إلى قرب باب اسكندرونة إذ هم بعسكر سيس قد أقبل في طلبهم فتناوشوا القتال ، واستطاعت هذه القوة أن تكسر عسكر سيس ١٠٧٣ .

بينما يجب أن يكون موضع قلب العسكر لإي جيش يستند إلى جبل ، أو شرف مرتفع صلب ليس فيه غبار ، وصاحب العسكر في الوسط ليشرف على الجميع ، ويكون قادرا منه على إيصال ما يقرر من الأوامر إلى الجند ، أو يجيبهم على طلباتهم ، فمثلاً أن أرض عين جالوت تقع في سهل مرج ابن عامر ، وتحديداً في الجزء الجنوبي الشرقي منه ، وهذا السهل من أهم السهول في المنطقة حيث يبلغ طوله شرقاً وغرباً بحدود ٤٢ كم وعرضه شمالاً جنوباً ٢٠ كم وهو من أغناها بالتربة ، والمياه يحيط به المرتفعات من الجنوب والجنوب الغربي ، والشمال والشمال الغربي فيه الكثير من الطرقات التي تؤمن سهولة الحركة ، وبالتالي فهو مكان مناسب جداً للقتال لاسيما ، وأن المنطقة الغربية منه فيها بعض المستنقعات التي تعيق حركة الفارس كما أن المنطقة الشرقية فيها وديان ، وأحجار كبيرة ، وأخاديد تحد من الحركة ١٠٧٤ لذلك استندت إليها ظهور المقاتلين فحمتهم من الخلف - لذلك جاء اختيار السهل كأفضل مكان لتفنيذ الأعمال القتالية حتى من السهول القريبة .

أما التلال والغابات المحيطة فتؤمن الإخفاء ، والتمويه للقوات التي تربصت في الكمين جاهزة للانقضاض على قوات المغول التي جرتها قوات الاستطلاع بقيادة بيبرس إلى مناطق القتل المعدة مسبقاً . بينما في معركة الخزندار سنة ٦٩٩هـ / ١٣٠١م كان العكس تماماً حيث أختار غازان منطقة المعركة بما يؤمن جيوشه . ولم يحرص الجانب المملوكي هذه المرة على اختيار المكان ، والزمان ، فتعرض إلى الكثير من المصاعب التي أثرت بشكل ، أو بآخر على نتيجة المعركة ، فالوصول إلى المكان المحدد في الوقت المحدد في التكتيك العسكري أمر في غاية

١٠٧٣ - الداودار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٨٠ .

١٠٧٤ - خمار ( قسطنطين ) : موسوعة فلسطين الجغرافية ، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ص ١٨٨ .



الأهمية ، وهذا مثال آخر ( معركة مجمع المروج ) ، ففي الوقت الذي كان فيه غازان قد اختار المكان وأعطى التعليمات الدقيقة بعدم المغادرة ، أو المبادرة إلى أية حركة إلا ضمن تعليمات دقيقة أعطى القائد المملوكي تعليماته بإشعال النفوط ، والتقدم باتجاه العدو مفترضاً أن العدو هو الآخر سينفذ التقدم باتجاه الجيش المملوكي لكن هذا لم يحصل أبداً مما جعل مشاعل النفط تنطفئ بالإضافة إلى أن الخيول التي كانت قد استنفذت معظم قوتها في العدو قبل الوصول إلى أرض المعركة ، وهذا أدى بشكل ، أو بآخر إلى أن المغول استفادوا من عامل المكان ، والزمان تكتيكياً لمصلحتهم هذه المرة<sup>١٠٧٥</sup> .

لذلك كانت أجهزة الاستطلاع في الجيش المملوكي بحق تعد ركيزة الفن الحربي في العصر المملوكي الأول ، فقد كان القادة يولونه عناية خاصة ، ويحددون له أهداف على قدر كبير من الأهمية بتحققها ترسم الخطوة الأولى في لوحة النصر العظيم ، وفي إخفاؤها تكون الخطوة الأولى للانزلاق إلى الهاوية .

صفات قائد مجموعة الاستطلاع :

وبناء على ما تقدم ، فقد كان القادة يهتمون بما كان يسمى صاحب الاستطلاع [ أي قائد مجموعة الاستطلاع في أيامنا الحاضرة ] ، ويقومون بتأهيله تأهيلاً خاصاً من أجل أن يكون جاهزاً للقيام بعمله ، وتنفيذ واجباته على أكمل وجه ، وحتى يستطيع القيام بذلك يجب أن يكون :

أ- عارفاً بأصول الحروب ، وميادينها ، وأسلحتها ، وتكتيكاتها ، والدروس المستفادة منها<sup>١٠٧٦</sup> .

ب - ارفاً بأحوال العدو إلى ما يقارب العيان<sup>١٠٧٧</sup> ( جيوشه ، وتسليحه ، وتكتيكة - طرق قتاله قاداته..).

ج - عارفاً بالأرض ، وجغرافيتها جبالها ، وسهولها طرقها ، وشعابها أنهارها ومياهها<sup>١٠٧٨</sup>.... الخ.

لذلك كانوا يختارون لتلك المهمة رجلاً بصيراً ناضجاً أميناً جسوراً حذراً ، ومن أهل الخبرة والتجربة<sup>١٠٧٩</sup> .

د - عارفاً لصور الحيوان عن بعد ، والتمييز بين بعضها البعض ، ومعرفة كيفية سيرها ووقوفها ، وعاداتها ، وأخلاقها ، ومراتعها ، ومتى كان صاحب الاستطلاع حاد البصر لم يقئه إلا ما كان بين الصغير والكبير<sup>١٠٨٠</sup> . وإن عرف عاداتها ، وأخلاقها فانه وبكل تأكيد استطاع أن يعرف نوعها ، فالوحوش على سبيل المثال لا تسلك طولا ، ولا تلتزم منهجاً ، وإن أكثر سلوكها عرضاً بينما الحيوانات الأهلة قد دُجَّنت ، وصار لها سلوك محدد .

<sup>١٠٧٥</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٢٠ .

<sup>١٠٧٦</sup> - الأقسرائي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٤٤١ - الرشيدى : تفريج الكروب في تدبير الحروب ، ص ٦٩ .

<sup>١٠٧٧</sup> - الأقسرائي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٤٤١ .

<sup>١٠٧٨</sup> - الرشيدى : تفريج الكروب في تدبير الحروب ، ص ٧٤ .

<sup>١٠٧٩</sup> - ابن منكلي : الحيل في الحروب ، ص ٤٨ . الأقسرائي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٤٤١ .

<sup>١٠٨٠</sup> - ابن منكلي : الحيل في الحروب ، ص ٣٨٤ .

هـ - عارفاً بأنواع الرهج<sup>١٠٨١</sup> : ينفذ الاستطلاع في كل الظروف ، والفصول ، وفي الليل والنهار . لذلك كان لابد من تدريب المكلف بهذه المهمة على كل الحالات وفي كل الظروف .  
ففي فصل الشتاء يكون الاعتماد على الصور أي الرؤية للأشياء ، وأشكالها ، أنواع سلوكها أما في فصل الصيف ، فيمكن اعتماد الرهج أيضاً للدلالة على الأشياء لذلك يجب التدريب على معرفة الرهج .

إذا كان الرهج منخفضاً قريباً من الأرض لاصقاً بها بطيئاً فذلك رهج الغنم السيارة .

إذا كان الرهج أعلى من ذلك ، وكان بطيئاً كثيفاً ، فذلك رهج البقر .

إذا كان أعلى ، وبطيئاً منتشراً كالضباب ، فذلك رهج الإبل .

إذا كان الرهج ساطعاً كثيفاً ، فذلك رهج الخيل الراعية .

إذا كان الرهج تاماً متصلاً ، فذلك رهج الخيل السيارة ، وإذا كان متقطعاً في موضع عالياً متصاعداً في موضع هابطاً لم يعل فذلك رهج الخيل الركاضة .

ويجب أن يعلم : أن الفرق بين رهج الخيل الركاضة ، وبين رهج الوحوش النافرة ركضان : أن ركض الخيل يأخذ قصراً<sup>١٠٨٢</sup> ، وطولاً ، وركض الوحش يأخذ حوراً<sup>١٠٨٣</sup> ، وعرضاً<sup>١٠٨٤</sup> .

أما عن التعليمات التي كانت تعطى لمجموعات الاستطلاع :

- المشي على الأرض الصلبة حتى لا يثير تحركها الغبار ، فتنكشف من قبل العدو .

- أن لا تباشر القتال مع العدو أبداً إلا في حالة الدفاع عن النفس ، أوفي حالة التخطيط لجره إلى كمين<sup>١٠٨٥</sup> .

- أن تكون خيولهم كلها ذكوراً ، أو كلها إناثاً ، فإن اجتمع ذكور الخيل وإناثها ربما أوجب إثارة جلبية وصهيل يؤدي إلى اكتشافها وبالتالي اكتشاف مجموعة الاستطلاع من قبل العدو<sup>١٠٨٦</sup> ، وإخفاق مهمتها ، وأن لا يتركوا في دوابهم أجراساً<sup>١٠٨٧</sup> . وكانت خيولهم تُختار من الخيول السوابق جيدة الظهور سالمة الحوافر ليس بها جماح<sup>١٠٨٨</sup> ، ولا منها حرون<sup>١٠٨٩</sup> ولا منها الخوار . قال ابن منقذ : (( الخيل فيها الصبور كالرجال وفيها الخوار ))<sup>١٠٩٠</sup> . كما أورد المقرئ نسا في رسائله عن صفات الخيول جاء فيه : (( الأصايل من الخيول لها نكاء وحسن أدب ، وكرم

<sup>١٠٨١</sup> - الرهج : ما أثير من الغبار ، وبين القوم هيج بعضهم على بعض ، والرهج أيضاً هو الفتنة والشغب ، والرّهوجة ضرب من السير . انظر : معلوف : المنجد في اللغة والأدب والعلوم ، ص ٢٨٢ .

<sup>١٠٨٢</sup> - قصراً : التقدم إلى الأمام .

<sup>١٠٨٣</sup> - حوراً : الرجوع إلى الخلف .

<sup>١٠٨٤</sup> - ابن منكلي : الحيل في الحروب ، ص ٣٨٦-٣٨٧ .

<sup>١٠٨٥</sup> - الرشيدى : تفريخ الكروب في تدبير الحروب ، ص ٧٠ .

<sup>١٠٨٦</sup> - الرشيدى : ص ٨٨ .

<sup>١٠٨٧</sup> - ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٤٤٦ .

<sup>١٠٨٨</sup> - الجماح : مشاكسة - صعوبة القيادة .

<sup>١٠٨٩</sup> - الحرون : الفرس الذي لا ينقاد ، وإذا اشتد به الجري وقف .

<sup>١٠٩٠</sup> - ابن منقذ : الاعتبار ، ص ٩٦ .

أخلاق ، حتى أنها لا تروث ما دام المالك ركبها ، ولها أقدام في الهيجاء وصبر على الطعن (( ١٠٩١ . لأن المقصود من الطليعة ، والغاية منها سرعة رد الخبر ١٠٩٢ لاتخاذ الإجراءات المناسبة . أما تسليحهم فيجب أن يكون خفيفا لا يعيق تحركهم السريع ١٠٩٣ ( القوس ، وجعبة النشاب التابعة له ) .

- أن لا يكثر من الكلام ، وأن يكونوا مصغين بأسماعهم إلى ما يحدث في كل الاتجاهات فإذا كثرت الأصوات ، وعلت الزعقات فلعلة يحدث مع ذلك في أطراف العسكر مما يحتاج إلى الاهتمام ما لا يبلغ ضجهم وضجيجهم إلى وسطه ، ولا إلى غيره من الأطراف ، وأيضا من خلال ارتفاع الأصوات قد يعرف العدو بعض الأسماء ، أو الشعار ، أو اللغات ويستفيد من ذلك بدس جواسيسه داخل الجيش ١٠٩٤ .

إرسال المعلومات التي عرفوها عن العدو في وقتها المحدد دون تباطؤ ، ومن أجل تحقيق ذلك كانوا يدرّبون على أشارات عن خبر العدو ، وحالاته من الخوف ، والأمن ، أو القرب والبعد وذلك إذا لم تتمكن الطليعة من الوصول إلى المعسكر ، وتخشى فوات الفرصة فيكون من المحتم عليها إرسال هذه المعلومات بالإشارات المتفق عليها ١٠٩٥ ، وهذا العمل يشبه هذه الأيام عمل الحرس الأمامي سواء أثناء المسير ، أو في نطاق الدفاع .

وكان الجيش المملوكي يمتلك فرقة تسمى السرايا ، وهي مجموعة مختارة من الجيش ترسل قبل اللقاء مع القوات المعادية لمشاغلتها ، وإرسال المعلومات عنها في الوقت نفسه ، وقد تكون هذه المجموعة مشاة ، وقد تكون من الخيالة ١٠٩٦

(في الوقت الحاضر إما أن تكون راجلة ، أو محمولة بالطائرات للإنزال خلف خطوط العدو بعد تهيئة الظروف المناسبة) . لكن في الحقيقة إن الهدف ، واحد وهو الحصول على معلومات عن العدو ، أو مشاغله ، وإلهائه بغية تحقيق هدف آخر قد يكون وصول القوات الرئيسية .

و هناك طريقة أخرى مهمة جدا للحصول على المعلومات الدقيقة ، وهي عن طريق الجواسيس . لذلك كان على القائد الاهتمام بهذا الموضوع ، وإعداد الجواسيس ، وأن يفيض عليهم من العطاء الشيء الكثير . بحيث يضمن ولاءهم التام ، وبعدها ينشرهم في البلاد وهو مطمئن بأنهم قادرين على تنفيذ المهام الموكلة ، و الحصول على المعلومات المطلوبة ١٠٩٧ . ولذلك ذكر بعض المؤرخين شروطاً يجب أن تتوفر في الجاسوس وهي :

١٠٩١ - المقرئزي ( أحمد بن علي ، ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م ) : رسائل المقرئزي ٧٧٦ - ٨٤٥ هـ / ١٣٦٤ - ١٤٤١ م ، تح رمضان البدي وأحمد مصطفى قاسم ، دار الحديث للطباعة والنشر ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م ، ص ٢٣٧ . ابن فضل الله العمري : مسالك الأَبصار ، ج ٢٠ ، ص ٢٢ .  
١٠٩٢ - الرشيدى : تفريج الكروب في تدبير الحروب ، ص ٦٩ .  
١٠٩٣ - الرشيدى : ص ٧٠ .  
١٠٩٤ - الأقسرائى : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٤٤٦ .  
١٠٩٥ - ابن منكلى : التدبيرات السلطانية ، ص ٣٤٣ .  
- الهرثمى : مختصر سياسة الحروب : ص ٤٨ .  
- الرشيدى : تفريج الكروب في تدبير الحروب ، ص ٧١ .  
١٠٩٦ - ابن منكلى : التدبيرات السلطانية ، ص ٣٤٣ .  
١٠٩٧ - الهروي : التذكرة الهروية ، ص ٧٩ .

أ - أن يكون ممن يوثق بنصيحته ، وصدقه ، وإلا فإنه عندما يتوجه إلى العدو قد لا يعطي خبراً صادقاً ، وبالتالي يوقع القائد ، ومن ثمة الجيوش في مطبات قد تؤدي إلى كوارث ، وفي أحسن الأحوال أنه بمجرد الشك في أخباره ، فسوف لن يعمل على أساسها<sup>١٠٩٨</sup> ، أو يؤخذ بها.

ب - أن يكون ذا حدس صائب ودراسة تامة وثقافة عالية ليدرك بوافر عقله ، وصائب حدسه من أحوال العدو بالمشاهدة ما حاول هذا العدو إخفائه ، أو كتمانته عن النطق ، ويستدل ببعض الأمور على بعضها الآخر .

ج - أن يكون ذا خبرات كبيرة قادراً على استدعاء الحيل ، واستخدام الخديعة ليتوصل بدهائه إلى ما كتم العدو ، ويدخل من خلال حيلته في كل مدخل ، ويدرك مقصده من كل طريق .

د - أن يكون عارفاً بلسان أهل البلاد التي سيتوجه إليها .

هـ - أن لا يكون من جنس العدو ، أو من دينه حتى لا يميل إليه<sup>١٠٩٩</sup> . حكى الجاحظ في بعض مصنفاته : أن كسرى أبرويز أحد ملوك الفرس وجه إلى قتال ملك الروم أميراً من أمرائه فعصى عليه وانحاز إلى ملك الروم ، وشجعه على محاربة أبرويز فخرج ملك الروم لقتاله في أربعمئة ألف فلما بلغ ذلك أبرويز عمد إلى كتاب كتبه إلى أميره الذي عصى ببلاد الروم يقول فيه : إذا وافاك كتابي هذا فاحرق ديار الروم ، وأنا وأنت نملك الروم في يوم كذا . أرسل ذلك الكتاب مع رجل نصراني كان قد اختاره من أجل تلك المهمة ، وعرفه بمضمون الكتاب ، وقال له : اذهب إلى أمير فلان في بلاد الروم ، وادفع له بهذا الكتاب ، فخرج الرجل حتى أتى إلى ديار الروم ، فسمع نحو عشرة آلاف ناقوس تضرب ، فادركته حمية النصرانية ، ومال إلى دينه ، فأتى إلى ملك الروم ، واستأذن عليه ، فأذن له ، فسلمه ذلك الكتاب<sup>١١٠٠</sup> .

وكان الجواسيس يحصلون على المعلومات عن الجيوش الصليبية من قبل السكان الفقراء المقيمين المقهورين في الدولة اللاتينية حيث كان اللاتين أقلية صغيرة جداً في أراضيهم<sup>١١٠١</sup> ] هذه المجموعة من السكان المحليين كانوا متعاطفين مع أبناء جلدتهم العرب رغم الاختلاف في المعتقدات الدينية ] . قال جاك دي فتري : (( وكم كان يؤلمنا ، ويحزننا أن نسمع أن أناساً يبيعون المسيح كما باع يهوذا الاسخريوطي سيده ))<sup>١١٠٢</sup>

أو من السكان المحليين المسلمين الذين كان تعاطفهم يزداد حسب روابطهم الدينية مع أخوانهم المسلمين مع العلم إن الصليبيين كانوا يستخدمون بعضهم ضمن جيوشهم<sup>١١٠٣</sup> .

<sup>١٠٩٨</sup> - الهرثمي : مختصر سياسة الحروب ، ص ٢٣ .

<sup>١٠٩٩</sup> - الرشيدى : تفريغ الكروب في تدبير الحروب ، ص ٣١-٣٢ .

<sup>١١٠٠</sup> - الجاحظ ( عمر بن بحر ، ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م ) : التاج ، بيروت ، دار الفكر ، ط ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م ، ص ٢٩٤ . البيهقي ( إبراهيم ، ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م ) : المحاسن والمسائى ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر القاهرة ١٣٨١هـ / ١٩٦١م ، ج ١ ، ص ٢٠٩-٢١١ .

<sup>١١٠١</sup> - مارشال ( كريستوفر ) : فن الحرب في الشرق اللاتيني ، تر سهيل زكار ، عن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ج ٥٢ ، ط ١ ، دمشق ، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م ، ص ٣٨٥ .

<sup>١١٠٢</sup> - دي فترى ( جاك ) : رسائل جاك دي فترى ، تر عبد اللطيف عبد الهادي السيد ، المكتب الجامعي الحديث ، ط ١ ، غريان ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م ، ص ١٥٥ .

<sup>١١٠٣</sup> - ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ج ٢ ، ص ٧٢٥ .

وهناك طرق أخرى للحصول على المعلومات ، وهي التسلل إلى داخل معسكرات الجيوش المعادية ، أو بالإغارة على معسكرات العدو [ الصليبيين – المغول ] ، والحصول على أسرى وبالتالي على معلومات [ وهذا ما يسمى اليوم بالاستطلاع عنوة ] . فقد ذكر بيبرس الداودار أنه في سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٨م عند التحدث عن ذكر وصول التتار إلى البلاد : (( .. توجه كشافة من عينتاب<sup>١١٠٤</sup> للكشف فوقعوا بفرقة للتتار قرب صحراء هوني [ .. وهي الصحراء التي كسر الملك الظاهر التتار عليها ] فظفروا منهم بشخص يسمى جلتار بهادر أمير آخور جيوش أبغا ، وكان قد توجه لكشف المروج ، والمراعي ، فضربوه ضربة سيف وأمسكوه وأحضره إلى السلطان في دمشق ، فوانسه ، وسايسه ، وسأله عن أخبار القوم ، فذكر : (( أنه في عدد عظيم يزيد على ثمانين ألف فارس من المغول ، وأنهم يقصدون البلاد قولا وجزماً ويركبون من منزلتهم في أول شهر رجب ))<sup>١١٠٥</sup> ، ومن هذا استطاع القائد العسكري المملوكي أن يعرف عدد قوات المغول ، ومن أي جنس هم ، وعرف نواياهم ، وعرف أنه تنقصهم الإمدادات المادية ، وخاصة علف الخيول ، وهذا أمر في غاية الأهمية ، وعرف أيضاً الزمان الذي سوف يتوجهون خلاله إلى المنطقة ، وهو أمر مهم أيضاً . لذلك استطاع أن يبني قراره على تلك المعلومات الصحيحة ، فكان قراراً صحيحاً انعكست معطياته في أرض المعركة [ التقليل ما أمكن من الخسائر مقابل إيقاع أكبر ما يمكن من الخسائر في صفوف العدو ] .

#### أ- دور الاستطلاع والجواسيس في مواجهة الغزو المغولي :

لاشك في أنه كان للاستطلاع ، والجاسوسية دوراً كبيراً ، ومهما في جمع المعلومات الصحيحة والدقيقة عن مكونات الجيوش المعادية ، وقدرات دولها ، وحلفائها ، وغير ذلك من المعلومات التي تخدم القرار الإستراتيجي بشكل عام ، والتكتيكي في الميدان بشكل خاص في تحقيق النصر ، والابتعاد عن الإخفاق . لذلك حرص سلاطين دولة المماليك الأولى وخاصة الظاهر بيبرس البندقداري<sup>١١٠٦</sup> ، والمنصور قلاوون الألفي<sup>١١٠٧</sup> على إيلاء هذه المسألة جل الاهتمام لأنه وكما قال المقرئزي : (( إن أعجاز الأمور لا تزال أبداً تالية لصدورها والأسافل من كل شيء لأعلىها . ))<sup>١١٠٨</sup> ، فلحرب قوانينها التي لا يمكن للقائد إلا وأن يقف عند معطياتها ، ومحدداتها لكي يتخذ القرار المناسب للحالة القائمة لأن لعبة الحرب ليست كغيرها ، فالفلكي يحتاج إلى علم الفلك ليفسر ظاهرة فلكية محددة ، والجغرافي يحتاج إلى علم الجغرافيا لمعرفة مناخ منطقة معينة ... ، وهكذا ، أما القائد العسكري ، فيحتاج إلى معرفة علوم كثيرة ليتخذ قراراً صحيحاً معللاً لحالة واحدة في معركة ما ، فهو على سبيل المثال يحتاج إلى العلم العسكري ، وعلم

<sup>١١٠٤</sup> - عينتاب : قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية وكانت تعرف بـدُلوک ، ودُلوک رستاقها ، وكانت من أعمال حلب هي الآن غازي عينتاب في تركيا . : الحموي : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ١٧٦ .

<sup>١١٠٥</sup> - الداودار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

<sup>١١٠٦</sup> - بيبرس البندقداري : هو السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقداري الصالحي التركي الجنس ، جلس على تخت السلطنة بقلعة الجبل في القاهرة في ١٧ ذي القعدة سنة ٦٥٨هـ / ٢٠ أيلول ١٢٦٠م ، وتوفي في دمشق في ٢٧ محرم سنة ٦٧٦هـ / ٣٠ حزيران ١٢٧٧م . ابن عبد الظاهر: تشریف الأيام والعصور ، ص ٢٦٢ . وترجم له ابن شاکر في فوات الوفيات . قال عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد : أخبرني الأمير بدر الدين أن مولد الملك السلطان الظاهر بيبرس بأرض القبيحاق سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٨م على وجه التقريب . ابن شاکر الکتبي ( محمد بن شاکر بن أحمد ، ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م ) : فوات الوفيات ، بولاق ، ط ١ ، القاهرة ، ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م ، ج ١ ، ص ١٥٨ .

<sup>١١٠٧</sup> - السلطان المنصور قلاوون الألفي : توفي ليلة السبت سادس ذي القعدة من سنة ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م ، وكانت مدة سلطنته إحدى عشرة سنة وشهرين وأربعة وعشرون يوماً ، وعمره نحو سبعين سنة ، وترك ثلاثة أولاد ذكور . المقرئزي : ج ٢ ، ص ٢١٧ .

<sup>١١٠٨</sup> - المقرئزي : النزاع والتخاصم ، ص ٧١ .

النفس ، والجغرافيا ، والرياضيات ، وعلوم أخرى لمعالجة حالة معينة مفترضة ، أو على أرض الواقع ، ومعرفته لهذه العلوم تحتاج إلى تدقيق معطياتها المعروفة لديه بشكل دائم أيضا ، فالمعطيات العلمية تتطور ، وتتغير باستمرار ، فما هو صحيح اليوم قد يكون غير صحيح في اليوم التالي ، فعلى سبيل المثال : إن معرفة الطرق ، والممرات التي توصل إلى أرض المعركة يحتاج إلى معرفه بعلم الجغرافيا ، لكن هذه المعرفة لا تكفي ، فقد تكون هذه الطرق قد لعبت بها عوامل الطبيعة ، والإنسان ، وغيرت من معالمها ، أو أصبح في مكان منها انهيارا ، أو غمرها سدا ، أو تهدم فيها جسرا ، أو حفر فيها معائرا إلى غير ذلك هذه الأمور تحتاج إلى تجديد ، وتدقيق في المعرفة ، ولا يكون ذلك إلا بالاستطلاع ، وهناك معارف كثيرة يحتاج القائد إلى تجديدها ، وتدقيقها ليعالج مسألة ما أو يتخذ قرارا في حالة مستجدة ، أو لمعركة ما . فكم من المعارك تم خسارتها نتيجة لعدم تدقيق المعلومات الاستطلاعية القديمة ، أو لعدم التقدير الصحيح لقدرات العدو ، أو حتى لقدرات قواته هو ( قوات الصديق ) ، أو نتيجة إهمال معارفه للمناخ ، أو نتيجة لضعف معرفته بتضاريس المنطقة ، أو امتلاك العدو لنوع جديد من السلاح إلى غير ذلك من الأمور التي يجب أن تكون على رأس اهتمامات القائد العسكري ، وكم من المعارك التي تم فيها تحقيق انتصارات عظيمة على جيوش كبيرة لها سمعتها ، وتاريخها كانت نتيجة لاهتمام القائد بالعلم ، والمعرفة لكل صغيرة ، وكبيرة في جيشه ، وجيوش عدوه ، وفي مسرح القتال لذلك اهتم سلاطين المماليك البحرية بجمع المعلومات عن المغول بحيث أصبح هذا الأمر ( جمع المعلومات ) حربا حقيقية بين الطرفين لم تنطفئ نيرانها حتى اللحظة الأخيرة من وجود المغول على هذه الأرض ، فامتألت البلاد بالقصاد ، والعيون ، والجواسيس التي صارت ترسل الأخبار ، والمعلومات التي كان السلاطين المماليك بأمس الحاجة إليها لمواجهة الإغصار القادم من الشرق<sup>١١٠٩</sup> ، وبالمقابل كان المغول أشد إصرارا على جمعها لتنفيذ مشروعهم في هذه البلاد ، ففي سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢م أرسل المغول جماعة منهم إلى الملك المنصور صاحب حماة لاستمالاته إلى جانبهم ضد الظاهر بيبرس الذي وصلت إليه خيوط تلك المحاولة عن طريق عيونه ، فأمر بالقبض عليهم في الحال<sup>١١١٠</sup> ، وأحبطت تلك المحاولة في الوقت المناسب .

وفي سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣م قدم ثلاثة أشخاص من بلاد المغول ، وقرروا اختراق خيمة الظاهر بيبرس ، واغتياله . لكن أخفقت مهمتهم ، وتم القبض عليهم ، وعندما قابلهم الظاهر بيبرس ، ودرس شخصياتهم بما امتلك من معارف شاهد عليهم علامات النجاسة والشجاعة ففكر في الاستفادة منهم ، وتوظيف ما شاهد عندهم في خدمة أهدافه ، فعمل على استمالهم إلى جانبه عن طريق إغداق الأموال الطائلة عليهم ونجح بذلك ، حيث جندهم فيما بعد لقتل أمراء المغول ، وقد قاموا بتنفيذ بعض المهام في هذا الإتجاه ، ولكن دفعوا حياتهم ثمنا لذلك . ومثل تلك الحالات كثيرة جدا لكن ، وبالعودة إلى سياق الموضوع للوقوف على طرق جمع المعلومات عن الجيوش المغولية التي تعددت أشكالها ، فكانت : إما بالاستطلاع المباشر قبيل العركة ، أو عن طريق العيون والجواسيس .

<sup>١١٠٩</sup> - ابن علي ( شافع ، ت ٧٣٠ هـ / ١٣٣٠ ) : حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ، تح عبد العزيز

خويطر ، ط ، الرياض ، ١٣٩٦ هـ / ١٩٧٦م ، ص ١٠ .

- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٥٨ .

<sup>١١١٠</sup> - الداودار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٩٢ . ابن علي : حسن المناقب السرية ، ص ١٠ .

- ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٥٨ .

<sup>١١١٠</sup> - الداودار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٩٢ . ابن علي : حسن المناقب السرية ، ص ٥٠ .

ففي سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م أرسل السلطان المظفر قطز<sup>١١١١</sup> الأمير ركن الدين بيبرس في عدد من فرسان الحرب المدربين تدريباً خاصاً كمقدمة استطلاعية للقوات الرئيسية ، وما أن وصلت إلى غزة حتى أُخبرت بالمعلومات التي حصلت عليها عن قوات المغول إلى السلطان وحسب ما هو متفق عليه بدأ الظاهر بيبرس بمناوشة القوات الرئيسية للمغول لتأمين وصول قوات المماليك الرئيسية ، وأخذ يستدرجهم ، ويقاثلهم كراً ، وفرأ إلى أن استطاع أن يدخلهم في منطقة الكمين المتفق عليها مع السلطان<sup>١١١٢</sup> ، وكان لهذا العمل فوائد كبيرة على نتيجة المعركة منها : أنه استطاع انهالك قوات المغول في معارك الكر والفر لا سيّما وأنها كانت قد نفذت مسيراً تكتيكياً طويلاً مدته لا تقل عن أربعة أيام في الوقت الذي كانت فيه قوات المماليك تقوم بالاستعداد ، وتعبئة الصفوف ، وتدقيق المعطيات الاستطلاعية التي حصل عليها الظاهر بيبرس مع ما تم الحصول عليه من معلومات من خلال العيون والقصاد والجواسيس<sup>١١١٣</sup> .

أخذ الظاهر بيبرس على عاتقه منذ اعتلائه لعرش السلطنة المملوكية سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م وضع ( إعداد ) نظام عام دقيق ، ومحكم لإمداد المسؤولين بالمعلومات التي تكفل لهم وضع سياسة أمنية تحقق الاستقرار وقت السلم ، والاستعداد الصحيح ، والكامل للحرب ، وتدقيق المعلومات التي تم الحصول عليها ، والتي ربما أصبحت قديمة ، أو غير صحيحة .

تمثل هذا النظام أول ما تمثل في نظام البريد الذي يكفل للعاصمة معرفة دقيقة ، وكاملة للمعلومات عن تحرك عمالها ، وما يقع في النيابات ، والولايات المختلفة التي امتدت لتشمل بلاد الشام ، والحجاز ومصر وبلاد النوبة ، وصار السلطان قادراً على معرفة ما يجري في تلك البقاع الشاسعة وهو جالس في قلعة الجبل<sup>١١١٤</sup> .

أما على الصعيد الخارجي فقد كان خطر المغول هو الشغل الشاغل له ، والركيزة الأساسية في سياسته الخارجية ، ويمكن القول أنه استطاع إلى حد كبير من التقليل من خطورتهم بفضل هذا الجهاز إضافة إلى بث العيون ، والقصاد ، الذين صاروا لا يقطعون أبداً عن بغداد وغيرها من بلاد الشرق<sup>١١١٥</sup> ، وقد وصل في سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤ م قصاده ، وجواسيسه إلى مقر حكم مغول فارس ، وأرسلوا إليه بعض المعلومات عن قيام هولاءكو بتجهيز جاسوسين من قبله للتغريب بأمره بيبرس ، وقد أخذ السلطان تلك الأخبار على محمل الجد ، وبدأ في متابعة ، وملاحقة ، وتعقب أية معلومات حول تلك المسألة ، حيث أخذت الأخبار ترد عنهما إليه بكرة ، وعشياً ، وعرف خط سيرهما ابتداءً من بلاد سبب<sup>١١١٦</sup> وصولاً إلى ثغر دمياط وعندما وصلوا إليها أصدر بيبرس أوامره بالقبض عليهما وأعدمهما<sup>١١١٧</sup> ، وفي السنة نفسها وصل إلى السلطان معلومات استطلاعية مفادها أن المغول يودون النزول على البيرة وحصارها ، فاتخذ

<sup>١١١١</sup> - قطز : ضبط اسم قطز على منطوقه من ( Enc . ici .Art ,Cutuz ) ، ومن المرجح أن اسم قطز الأصلي هو محمود بن ممدود ، وأنه كان حفيد ( Nephew ) الملك جمال الدين خوارزمشاه ، وقد أسر في حرب التتر ، وبيع في دمشق للسلطان الملك المعز أيلك . المقريري : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤١٧ ، الحاشية رقم ٢ .

<sup>١١١٢</sup> - ابن أيلك الداودار : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٤٩ . الانطاكي ( محمد ) : عين جالوت ، دارالشرق العربي ، بيروت ، ص ٤٩ . نتنج ( أنتوني ) : العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام ، تر راشد البراوي ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ، ص ٢٧٣ .

<sup>١١١٣</sup> - زكار ( سهيل ) : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر ، دمشق ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٩ م ، ج ٣٦ تاريخ سمباط ، ص ٣٣٢ .

<sup>١١١٤</sup> - علي السيد : الجاسوسية في عصر السلاطين المماليك ، ص ١٣٢ .

<sup>١١١٥</sup> - ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٥٨ .

<sup>١١١٦</sup> - سبب : هي عاصمة أرمينية الصغرى أو كليكييا وتقع بي أنطاكييا وطرسوس . دهمان : معجم الألفاظ التاريخية ، ص ٩٤ .

<sup>١١١٧</sup> - ابن عبد الظاهر : ص ٢٧٣ . الداودار : زبدة الفكرة ج ٩ ، ص ١٠٥ . ابن علي : حسن المناقب السرية ، ص ٧٥-٧٦ . النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٩٨ . المقريري : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١١ . العيني : عقد الجمان ، ج ١ ، ص ٣٨٨ .

كل الإجراءات التي من شأنها أن تحبط خطط المغول ، فجهز السلطان عسكريا كثيفا ، ورسم لعاكر الشام بالتوجه بصحبة الجيش المصري ، فاجتمعت العسكر وتوجهوا إلى الحدود الشرقية حتى قطعوا الفرات ، ونتيجة لهذه المعلومات الاستطلاعية أيضاً نفذ مجموعة من الأعمال التكتيكية الإستباقية لمباغطة العدو حيث أمر السلطان الأمير عيسى بن مهنا<sup>١١١٨</sup> بالركوب ، والغارة على حرّان ، فلما بلغ المغول قدوم العساكر الشامية والمصرية ، وغارة العرب على حرّان أدركوا أن المماليك على استعداد ويقظة ، فانسحبوا منهزمين دون أن يحققوا أيّا من أهدافهم<sup>١١١٩</sup> .

هذا وقد استخدم الظاهر بيبرس طرقاً متعددة ، وأساليباً متنوعة من أجل كشف الأشخاص المقربين من المغول ، والذين يمكن أن يستخدموهم كجواسيس . تنوعت تلك الأساليب ما بين بث بعض المعلومات الزائفة عن بعض الأشخاص المقربين من القادة المغول وإيصالها بطريقة ، أو بأخرى إليهم لزرع بذور الشك ، والريبة فيما بينهم ، وبين عملائهم من رعايهم من المماليك ، ففي سنة ٦٦٢هـ / ١٢٦٤م تسبب الظاهر بيبرس في قتل أحد الجواسيس المغول وهو الزين الحافظي<sup>١١٢٠</sup> الذي كان مقرباً من هولاء ، وذلك عن طريق دس بعض المعلومات الزائفة على يد قُصاده بهدف زرع بذور الشك في قلب هولاء تجاه الحافظي وقد أتت تلك المكاتبات الزائفة أكلها إذ سرعان ما أوقعت بيد هولاء ، وتم على أثرها اتهام الحافظي بالخيانة ، والتجسس لصالح المماليك ، وأمر بإعدامه<sup>١١٢١</sup> . وفي سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م وصلت أخبار إلى الظاهر بيبرس ، وكان وقتها بدمشق عن تسلل أحد جواسيس المغول إلى مدينة البيرة ، فتم القبض عليه ، وأرسل إلى السلطان ، لكنه أنكر ما نسب إليه من تُهم ، وظل بيبرس وراءه حتى أقر بأنه يعمل لحساب المغول<sup>١١٢٢</sup> .

وفي سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٩م وصلت أخبار مؤكدة من قبل القصاد إلى بيبرس بقيام المغول بالإغارة على حدود الدولة المملوكية ، فأسرع بيبرس بتجهيز الجيش ، وخرج لمواجهتهم .

وفي سنة ٦٧١هـ / ١٢٧٣م قصد المغول الرحبة فتجهز السلطان ، وسار إلى حمص وتوجه منها إلى حلب حاملاً معه مراكب ، وعندما وصل إلى بزاعة من أعمال حلب بعث جماعة من العسكر لكشف أخبار المغول - [ وهنا ظهرت براعة القائد العسكري ، فهو لديه معلومات لكنه أراد تدقيقها من خلال الاستطلاع لأن كل شيء يمكن أن يتغير ] ، فساروا إلى منبج ، وأخبروا السلطان أن جماعة من المغول مقدارها ثلاثة آلاف مقاتل على شط الفرات مما يلي الجزيرة [ إذا المغول ليسوا في الرحبة ، أو حولها ] ، فاستعد لذلك ، ومشى حتى وصل شط الفرات ، وأمر

<sup>١١١٨</sup> - عيسى بن مهنا : هو عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة بن غضية بن فضل بن ربيعة أمير عشيرة آل فضل . انظر : المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧٨٤ . وجاء عند النويري بدلاً من حديثة / حذيفة / النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٩ ، ص ٢٠٣ .  
<sup>١١١٩</sup> - ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١٠٧ .  
<sup>١١٢٠</sup> - الزين الحافظي : هو سليمان بن المؤيد بن عامر العقرباني ، وكان من المقربين إلى هولاء . انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٣ ، ص ٢٤٤ . ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .  
<sup>١١٢١</sup> - النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ١١٠ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٤٤ . ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ج ٧ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .  
<sup>١١٢٢</sup> - ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٧٣ . ابن علي : حسن المناقب السرية ، ص ١١٧ .



بعمل جسر وبعد أن عاين الطبيعة على الأرض ، ودرس الموقف مباشرة انتهز الفرصة ، وأمر العساكر بخوض الفرات<sup>١١٢٣</sup> .

وفي سنة ٦٧٢هـ / ١٢٧٣م استطاع المغول القبض على الأمير شمس الدين بهادر صاحب لأنه كان يتجسس عليهم وينقل أخبارهم إلى بيبرس ، ومن الطريف أنه استطاع الفرار . وتجلت أروع صور نقل الأخبار السرية عندما قام بيبرس بالقبض على شبكة جواسيس مغول تتكون من ثلاثة عشرة أميراً كانوا يرسلون المغول ، ويحرضونهم على غزو البلاد ، وقد أحضر البريدية تلك المراسلات ، وكان نائب غزة قد أمسك ثلاثة أشخاص منهم ، وتبين أن أحدهم كان إعرابياً ، فتم إعدامهم<sup>١١٢٤</sup> . وفي السنة نفسها اتفق الظاهر بيبرس مع أحد عيونه لدى المغول ، وهو شمس الدين بهادر على قتل الجاثليق النصراني رئيس طائفة النصاري صاحب الكرسي الرسولي للأرمن الأرثوذكس ، والمشرف عليهم الذي أهان المسلمين في بغداد وأفسد أمورهم ، فبعث بيبرس إليه برسائل واهية يشكره فيها على نقله لأخبار المغول السرية ثم أرسل تلك المعلومات بصحبة أحد القصاد الأرمن ، وهناك جاء دور شمس الدين بهادر قبل أن يقبض عليه من قبل المغول ، حيث أمسك القاصد الأرميني ، وأرسله إلى أبغا الذي لم يكذب على تلك المعلومات حتى جن جنونه ، وأمر بقتل الجاثليق بتهمة التجسس لصالح المماليك<sup>١١٢٥</sup> .

ولم يجد الظاهر بيبرس حرجاً في أن يذهب إلى عقر دار أعدائه لاستطلاع الأخبار بنفسه ودراسة مسرح العمليات القتالية ، ومعرفة الطرق إلى تلك البلاد ، ومشاهدة القادة مباشرة الذين سيلتقي بهم في الميدان ، فجميع تلك المعارف ستساعده فيما بعد في حربه ضدهم ففي سنة ٦٧٣هـ / ١٢٧٥م ذهب ثلاثون شخصاً من فقراء المماليك من بلاد الشام إلى كليكية لزيارة قبر الخليفة المأمون في طرسوس<sup>١١٢٦</sup> ، وأغلب الظن أن بيبرس كان متتكرراً بينهم لدراسة الطرق ، والمداخل ، والمخارج ، ومعرفة الناس ، وطريقة حياتهم ، والأوضاع العامة والإقتصادية منها على وجه الخصوص إلى غير ذلك من المعلومات التي يحتاجها القائد العسكري . ( ورغم حكمة هذه الروايات إلا أنها لا تخلو من مسحة ملحمية ) .

وفي سنة ٦٧٥هـ / ١٢٧٧م عندما أراد السلطان غزو بلاد الروم أرسل إليها مجموعات استطلاعية ، ومن المعلومات التي حصلت عليها : أن المغول رتبوا عساكرهم أطالبا كل طلب مائة فارس ، وعزلوا عسكر الروم إلى ناحية محددة حتى لا يكون مخامراً عليهم ، وجعلوا عسكر الكرج طلباً واحداً<sup>١١٢٧</sup> .

هذه المعلومات كان لها دوراً كبيراً في القرار الذي اتخذته الظاهر بيبرس لهذه المعركة فقد استطاع أن يرتب عساكره وفقاً لتلك المعلومات ، و لطبيعة معرفته السابقة لجيوش المغول

<sup>١١٢٣</sup> - ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١٦٨-١٧٠ .

<sup>١١٢٤</sup> - النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٢١٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٣ ، ص ٢٦٨ . كانت غزة في مطلع العصر المملوكي تتبع إدارياً لنيابة دمشق التي قسمت إلى أقسام أطلق عليها حسب تعبير القلقشندي اسم النيابات الصغار وكانت غزة من بين تلك النيابات ، ثم صارت نيابة قائمة بذاتها أيام سلطنة الناصر محمد الثالثة ٧٠٩-٧٤١هـ / ١٣١٠-١٤٤١م وذلك سنة ٧١١هـ / ١٣١١م . انظر القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ١٢ ، ص ٦ . ابن فضل الله : مسالك الأبصار ، ج ٢٩ ، ص ١٧٧ .

<sup>١١٢٥</sup> - ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، ص ٤٢٢ . النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٣٠ ، ص ٢٠٨ .

<sup>١١٢٦</sup> - طرسوس : من الثغور الشامية في الشمال ، واسمها بالرومية كما قال ابن خرداذبة هو : تارسوس ، بين طرسوس وأذنة خمس سكك ، مناخها طيب وهواءها عليل ويها نهر . قال أبو سعيد : خلفوه بعرضتي طرسوس مثل ما خلفوا أباه بطوس . انظر : ابن خرداذبة: المسالك والممالك ، ص ١٣٧-١٣٨ .

<sup>١١٢٧</sup> - ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١٩٩ .

والروم ، والكرج التي عرف موضع كل منها في مصاف العدو ، ثم أدرك أن قتاله سيكون منسقا في العمق لذلك رتب احتياطا كبيرا جعله تحت يده يتصرف به في الوقت المناسب والدليل على صحة ذلك القرار أنه عندما حملت ميسرة المغول على ميمنة جيشه وحقت نجاحا أشار لصاحب حماة أن يردف الميمنة ، وكان في الاحتياط ، فتغيرت موازين القوى وطحنوا قوات المغول ، وبدلوا فرحهم حزنا<sup>١١٢٨</sup> .

وجدير بالذكر أن خدمة الاستطلاع ، والجاسوسية لم تفقد أيا من أهميتها في عهد المنصور قلاوون الذي شهد عهده نشاطا واسعا في إرسال ، واستقبال القصاد حتى أصبحت كلمة القصاد تطلق بصفة خاصة على جميع العاملين بالجاسوسية ، والمهمات السرية ، ويكفي دليلا على ذلك ما قاله شافع بن علي : (( والأخبار من جهة النصحاء تتأكد والقصاد منه وإليه تتردد ))<sup>١١٢٩</sup> .

عندما كان المنصور قلاوون في دمشق سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م كان القصاد يتواترون عليه لنقل أخبار تحركات المغول الذين كثفوا من شن غاراتهم على حدود الدولة المملوكية من ناحية الشرق ، فأخذ قلاوون يبيث القصاد ، والكشافة للتأكد من صحة تلك الأخبار وتدقيق المعلومات ليكون على أهبة الاستعداد لمواجهةهم<sup>١١٣٠</sup> .

كان أوج النشاط الاستطلاعي المملوكي أيام المنصور قلاوون في معركة حمص حيث بدأت الأخبار تتوارد عن دخول منكوتر إلى بلاد الروم ، فأرسل السلطان الكشافة ، فلقوا طائفة من التتر واشتبكوا معهم ، وأسروا منهم شخصا ، وبعثوا به إلى السلطان ، فقدم إلى دمشق في العشرين من جمادى الأولى من سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م ، فأنسه السلطان ، ولم يزل به حتى أعلمه أن المغول في ثمانين ألفا ، وأنهم يريدون بلاد الشام في أول رجب من السنة نفسها<sup>١١٣١</sup> فشرع السلطان في التحضير للمعركة استندا إلى المعلومات التي استطاع الحصول عليها إلى ذلك الوقت . أول إجراء قام به هو : عقد مؤتمرا للحرب للتشاور مع كبار الأمراء في كيفية المواجه أي ( تحديد الهدف ) ، (( واستدعى الناس ))<sup>١١٣٢</sup> وتم الاتفاق على الملاقاة في مرج حمص . الإجراء الثاني هو البدء في استعراض العسكر وتجميعهم .

بعدها وردت أخبار بمسير المغول بعدة فرق بقيادة أبغا هذه المرة<sup>١١٣٣</sup> ، فأرسل السلطان الكشافة لتدقيق المعلومات ، وجاءت معلومات أخرى أن تعداد المغول القادمين إلى الشام مائة ألف ، فعقد السلطان مجلسا حربيا جديدا للتشاور ، وأراد السلطان أن يكون الملتقى في مرج دمشق لكن الأمراء أصروا على أن يكون في مرج حمص ، وساروا وتبعهم السلطان إلى حمص<sup>١١٣٤</sup> ، وبينما كان العسكر المملوكي ، والمغولي يستعدان لخوض المعركة إذ بأحد

<sup>١١٢٨</sup> - ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٠٠ .

<sup>١١٢٩</sup> - ابن علي ( شافع ) : الفضل المأثور سيرة الملك المنصور ، تح عبد السلام التدمري ، المكتبة العصرية ، ط ١ ، بيروت ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م ، ص ٦٦ .

<sup>١١١٦</sup> - الداودار : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، ج ٩ ، ص ١٧٨ . العيني : عقد الجمان ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٤١-٢٤٢ .

<sup>١١٣١</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٦٩٠ .

<sup>١١٣٢</sup> - الناس بمعنى الرؤساء ، أو الزعماء ، أو الأمراء في مصطلح المؤرخين في العصر المملوكي ، ويوضح ذلك أنه كانت هناك فرقة من فرق الجيش المملوكي تسمى باسم أولاد الناس وقد شملت تلك الفرقة أبناء أمراء المماليك .

<sup>١١٣٣</sup> - ابن حبيب ( الحسن بن عمر ، ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م ) : تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، تح محمد محمد أمين الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م ، ج ١ .

<sup>١١٣٤</sup> - ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٤٢ .

جواسيس الملك المنصور قلاوون داخل صفوف المغول يتسلل إلى نائب السلطنة بحماة ويطلب منه إرسال بطاقة على جناح الحمام الزاجل إلى السلطان في معسكره يخبره بعدد المغول ، وخطتهم القتالية<sup>١١٣٥</sup> وهذه الأخبار على قدر كبير من الأهمية سواء كانت حول العدد وكان قد حصل على معلومات سابقة عنه أو عن الخطة القتالية للمغول التي هي في غاية السرية ، حيث اتخذت جميع الإجراءات المضادة ، ومُنِيَ المغول بالهزيمة على الرغم من كل الحشود الكبيرة التي حشدوها ، وهذا دليل على أن المماليك كانوا قادرين على زرع الجواسيس داخل صفوف القوات المعادية .

وفي سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م أرسل خان المغول الجديد أحمد توكودار<sup>١١٣٦</sup> رسالة إلى المنصور قلاوون من أجل إحلال السلام بين الدولتين أخبره فيها بأن حراس الطرق المغولية قد قاموا بالقبض على أحد جواسيس المماليك متكررا بزى الفقراء ، وفي هذه الحالة كان يجب أن يكون مصيره الموت المحتم ، لكن المغول لم يريقوا دمه ، وأعادوه سالما إلى السلطان المملوكي وغالبا ما رأى جنود المغول الكثير من هؤلاء الجواسيس المتكرون بزى الفقراء ولكن قد يختلط الأمر عليهم حين يرون النساك ، وأهل الصلاح فتساورهم الشكوك بشأنهم فيضطرون إلى قتلهم ، ومن الطريف أن المنصور أجاب أن المماليك طالما أيضا قاموا بالقبض على العديد من جواسيس المغول ، وأنهم لم يريقوا دماءهم بل أطلقوا سراحهم<sup>١١٣٧</sup> .

وفي سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م وصلت الأخبار بمقتل أحمد توكودار خان المغول واعتلى العرش بعده ابن أخيه أرغون بن أبغا<sup>١١٣٨</sup> . ومن المعلوم أنه في تلك الأيام لم تكن أجهزة إعلامية متطورة تنقل الأخبار كما هو الحال في أيامنا هذه . بل كانت تنقل الأخبار عن طريق العملاء ، والجواسيس ، والعيون والقصاد ، ومعنى أن تنقل مثل تلك الأخبار في وقتها يدل على أن عيون المماليك كانوا متواجدين في داخل البلاط المغولي ، أو على الأقل ليسوا بعيدين عن ذلك

وَحَقَّت حدة التوتر بين المغول ، والمماليك نسبيا بعد الهدنة المؤقتة بين المنصور قلاوون وأحمد توكودار عدا بعض المناوشات البسيطة على الحدود ، لكن في مطلع القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي بدأ القصاد ينشطون مرة أخرى مع كثرة شن المغول لغاراتهم على الحدود ، وخاضوا معركةين كبيرتين هما : معركة مجمع المروج ، ومعركة شقحب .

أما عن معركة مجمع المروج سنة ٦٩٩هـ / ١٣٠٠م ، أو الخزندار نسبة إلى وادي الخزندار الذي جرت المعركة قربهِ ، فقد تواترت المعلومات الاستطلاعية عبر البريد ، وغيره عن نزول غازان على الفرات ، وأنه في عسكر عظيم للغاية ، ثم جاء الخبر عن عبور جاليش غازان للفرات<sup>١١٣٩</sup> . وبناء على تلك المعلومات تحركت القوات الإسلامية لكن كما قال ابن أبيك : دون

<sup>١١٣٥</sup> - الداودار : زبدة الكرة ، ج ٩ ، ص ١٨٠ . المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٦٩٢ .

<sup>١١٣٦</sup> - أحمد توكودار : هو الإبن السابع لهولاكو ، ولم يكن قد صحب أباه في حملته على إيران والعراق حيث أنه كان صغيرا وفي فترة طفولته عُمدَ كما يعمد النصارى ، وعندما أنشأ أبوه هولاكو دولة الإلخانيين في إيران جاء إلى تلك البلاد وأقام فيها واختلط بالمسلمين ، وأعجب بالدين الحنيف وما لبث أن اعتنقه في نهاية الأمر وسمي أحمد . النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٥ ص ١٢٩ .

<sup>١١٣٧</sup> - ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٩١-٢٩٤ .

الداودار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٢٠٥-٢٠٨ . الداودار : مختار الأخبار : ص ٧٧-٨١ . النويري : نهاية الأرب ، ج ٣١ ص ٩٠ . ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٢٤٩ .

<sup>١١٣٨</sup> - ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٦٣ . ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٥ .

<sup>١١٣٩</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٨٨٦ .

اكتراث ، وكان العدو غير موجود<sup>١١٤٠</sup> . هذه اللامبالاة إضافة إلى معلومات استطلاعية أخرى مفادها أن المغول عندما سمعوا بالحشود الإسلامية الكبيرة ولوا هاربيين ، وعندها ظن المسلمون أن ذلك حقا ، وتبين فيما بعد عدم صحة تلك المعلومات التي كان لها أثرا كبيرة على عدم صحة القرارات المتخذة ، وبالتالي إخفاقها ، وعلى كل الأحوال لبست الجيوش قبل الملتقى بثلاثة أيام وبقوا على ظهور الخيل ليلا ونهارا ، حتى تعبوا وتعبت خيولهم<sup>١١٤١</sup> ، أما قوات المغول فكانت في حالة الانتظار منعها غازان من التحرك مهما كان الأمر حتى يتحرك هو ، ونتيجة للتقديرات الخاطئة أمر الناصر محمد بن قلاوون : أن ارموا الرماح واعتمدوا على ضرب السيف ، والدبوس ، ومشوا ساعة ، ورتبوا العساكر ، وقدموا خمسمائة مملوك من الزراقيين في مقدمة العسكر ، وأمرهم بإشعال النيران ، واندفعت الخيالة التي لم تر أمامها شيء ، وانطأفت النيران قبل أن يصلوا إلى العدو ، وهكذا خاضوا معركة غير متوازنة بالمعلومات ، والفكر التكتيكي ، وكانت النتيجة خسارة غير قليلة .

أما معركة شقحب سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٣م ، فقد اختلف الأمر ، ويبدو أن التحضير لها بدأ بشكل أكثر واقعية ، وعقلانية ، فبعد ما جرى في مجمع المروج ، وعودة السلطان اهتموا بأمر السفر ، وجمعوا صناعات السلاح ، وأخذوا بجمع الأموال ، وكتبوا إلى عمال مصر بطلب الخيل ، والجمال ، والهجن ، والرماح ، والسيوف من الوجهين القبلي ، والبحري ، ونودي بحضور الأجناد البطالين فحضر خلق كثير .

ثم أراد السلطان الاستفادة من الحرب النفسية في تحقيق هدفه ، فأرسل إلى غازان رسالة حاول فيها اختراق القيادة المغولية وشق صفوفها ، فكما يقال : أن أحصن القلاع لا تؤخذ إلا من الداخل وقد جاء في تلك الرسالة : (( .. ولا يظن أنه ساعة واحدة عن أعيننا يغيب وليعلم أنه لو تقلب في مضجعه من جانب إلى جانب ، أو خرج من منزله راجلا كان ، أو راكب لكان عندنا علم ذلك على البريد ، ونطلع على جميع أخباره على ما نحب ، ونريد ممن هو إليه أقرب من حبل الوريد ، فإن أقرب بطانته إليه هو العين لنا عليه ))<sup>١١٤٢</sup> .

ويبدو أنه كان لهذه الرسالة دورا في استفزاز غازان في اتخاذ قرار التحرك إلى بلاد الشام إضافة إلى المعلومات الاستطلاعية غير الدقيقة التي حصل عليها غازان ، وفي النهاية تحركت قوات المغول ، و تواردت الأخبار بنزولها على الفرات ، ووصولها إلى الرحبة ، لكن نائبها ناور معهم ، فأقنعهم أنها قريبة منهم ، ومتى أخذوا مدن الداخل تكون هي تحصيل حاصل ، ورجع غازان إلى بلاده ، وأرسل جيشا كبيرا مؤلفا من ثمانين ألفا بقيادة قطلوشاه إلى الشام ، وتجمع عسكر حلب ، وحماة ، وحمص ، وطرابلس ، وكبسوا مجموعة من عسكر قطلوشاه في القريتين ، وهزموهم ، لكن استطلاع المغول قدم معلومات غير صحيحة إلى قطلوشاه ، ومفادها أن السلطان لم يخرج بجيوشه من مصر ، وأن ليس بالشام غير عسكرها فجد بالسير باتجاه الشام ، ووصل إلى قرون حماة ، واندفع العسكر أمامه باتجاه دمشق واجتمع الكل في دمشق ، واختلف الرأي في أن يخرجوا للقاءه ، أو ينتظروا السلطان<sup>١١٤٣</sup> الذي أعد للأمر عدته ، واجتهد

<sup>١١٤٠</sup> - ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٩ ، تح هانس روبرت روبر ، ص ١٥ .

<sup>١١٤١</sup> - الداودار : مختار الأخبار ، ص ١١١ .

<sup>١١٤٢</sup> - ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٦٧ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ١٤٣ .

<sup>١١٤٣</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٣٠ .

في جمع المعلومات عن عدوه مقابل غرور ، ونقص واضح في المعلومات الاستطلاعية عند المغول ، فكان النصر حليف المماليك في معركة شقحب<sup>١١٤٤</sup> .

## ب - دور الاستطلاع في مواجهة الصليبيين :

أسهم الاستطلاع المملوكي بواسطة القصاد ، والجواسيس دوراً هاماً ، وفعالاً أيضاً ضد الصليبيين ، ولكنه لم يكن بنفس حجم مواجهتهم للمغول ، ومرجع ذلك إلى أن الوجود الصليبي في بلاد الشام اقتصر على الشريط الساحلي ، ومن جهة أخرى كان الصليبيون هم الطرف الأضعف .

وبشكل عام كانوا في حالة دفاعية في معظم الأحيان ، وقد ساعد هذا الجهاز على تصفية معظمه في عهد كل من الظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون ، بحيث لم يتبق من هذه المعاقل الحصينة سوى عكا ، وقلعة الروم ، واللذان تم فتحهما في عهد الأشرف خليل بن قلاوون .

ومما لا شك فيه أن الظاهر بيبرس حينما ولى وجهه شطر المعاقل الصليبية في بلاد الشام لإسقاطها الواحد تلو الآخر ، كان لابد له من معرفة متجددات أخبارهم باستمرار ، لذا حاول الاستفادة من سكان المنطقة العرب ، وذلك بالتعاون معهم ليمدونه بالمعلومات الوافية عن الصليبيين حتى يأمن طوارقهم على حدود الدولة المملوكية ، ولكن النجاح لم يكن في جانبه على وجه العموم في هذه المسألة ، فكثيراً ما استطاع الصليبيون توظيف بعض السكان المحليين في مهمة التجسس على الدولة المملوكية ربما كان السبب هو العقاب الجماعي الذي كانت تتعرض له القبيلة في مثل تلك الحالات، وعلى سبيل المثال : وصلت السلطان أخباراً عن قيام جماعة من العربان من قبيلة "زبيد"<sup>١١٤٥</sup> في سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م بالتجسس لصالح الصليبيين بإرشادهم إلى مواطن الضعف في الدولة المملوكية ، فأرسل إليهم جزءاً من الجيش المملوكي فقتل أغلبهم وسويت مساكنهم بالأرض .

وفي سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م شغل الاستطلاع المملوكي دوراً فعالاً بإمداد الظاهر بيبرس بمعلومات وافية عن عزم ملك الأرمن القيام بشن هجوم قوى على مناطق شمال بلاد الشام هنالك ، وبفضل هذه التحذيرات وضع بيبرس الخطط الفورية موضع التنفيذ لمواجهة ذلك الخطر الصليبي<sup>١١٤٦</sup> .

وفي سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ ، وبعد أن استولى الظاهر بيبرس على أرسوف أراد مهاجمة عكا ، غير أن المعلومات الاستطلاعية التي وردت إليه أفادت بأن هيو ملك قبرص<sup>١١٤٧</sup> قد هبط إلى عكا وشحنها بالمقاتلين ، فتغيرت المعطيات ، ولم يهاجم عكا وعاد إلى مصر<sup>١١٤٨</sup> .

<sup>١١٤٤</sup> - الذهبي : دول الإسلام ، ص ٣٩٩ .

<sup>١١٤٥</sup> - زبيد : اسم لقبيلة عربية وهم بطن من القحطانية كانت مساكنها حول دمشق ، وانتشرت أيضاً قرب الرحبة بجوار منازل آل فضل . انظر : القلقشندي ( أحمد بن علي ) : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، تج إبراهيم الأبياري ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ط ١ ، القاهرة ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٥٩ م ، ص ١٠٧ . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢١٣ - ٢١٤ . السيد ( محمود ) : تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي ، مؤسسة الشباب الجامعي ، الإسكندرية ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص ٥١ .

<sup>١١٤٦</sup> - الداودار : زبدة الفكرة ، ص ٢٠ . النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٤٨ .

<sup>١١٤٧</sup> - هيو ملك قبرص : هو هيو الثاني ابن هيو بن إمري اخو غي لويزتيان حكم قبرص من سنة ٦٥١ هـ - ٦٦٥ هـ / ١٢٥٣ - ١٢٦٧ م . أدبوري ( بتر ) : قبرص والحروب الصليبية ، دار الملتقى للطباعة والنشر ، ط ١ ، ليماسول ١٤١٧ هـ / ١٩٩٨ م ، ص ٣٩ - ٥٥ .

<sup>١١٤٨</sup> - رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٤٧ .

وفي سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م وصلت الأخبار إلى نائب السلطنة بحمص عن قيام صاحب طرابلس بالتحالف مع بعض الملوك الصليبيين للإغارة على حمص ، فقام بوضع بعض "العيون" عليه لموافاته بالأخبار باستمرار ، وجعل الجيش المملوكي على أهبة الاستعداد ، فألحق بهم خسائر فادحة ، وخرج البريدية حاملين بشرى هذا النصر إلى الظاهر ببيرس<sup>١١٤٩</sup> .

وفي سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م خرج الظاهر ببيرس لحصار حصن الشقيف، وفي أثناء توجهه قبض على بعض جواسيس الصليبيين ، ووجد معهم رسالة من أهل عكا إلى أهل الشقيف يخبرونهم بزحف ببيرس إليهم ، ويأمرونهم بتحسين البلد ، ففطن ببيرس إلى مفاتيح دخول البلد ، وعرف من أين يوكل الكنف، وكتب رسالة أخرى إلى أهل الشقيف تتضمن تحذير الملك من الوزير، والوزير من الملك ، فوقع الخلاف بين رجال البلدة ، وانقسموا على أنفسهم في الوقت الذي أشد فيه حصار المماليك عليهم حتى تم تسليم الحصن<sup>١١٥٠</sup> .

وحيثما ساورت ببيرس فكرة السيطرة على حصن طرابلس - أقوى حصون الصليبيين - سافر إليه متكرراً في صورة أمير سلحداري بصحبة محي الدين بن عبد الظاهر في سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م ، ولم يستطع صاحب طرابلس أن يكشف الظاهر ببيرس الذي أخذ يدور بعينه بين أرجاء الحصن حتى يعرف مواطن الضعف ، والقوة فيه<sup>١١٥١</sup> .

وغالبا ما وصل الأمر بالقصاد إلى مطالعة السلطان بكل ما يتجدد من أحوال الصليبيين في عقر دارهم ، فمثلا وصلت الأخبار من قبل القصاد في سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٤ م إلى الظاهر ببيرس تخبره بأن الفرنج أقاموا أنبرورا ( امبراطورا ) في بلدة "الألمانية" اسمه المركيس رودلف دفريركو<sup>١١٥٢</sup> .

كما واصل القصاد نشاطهم ضد الصليبيين في عهد المنصور قلاوون ، الذي قام بتأمين طرقهم وجعل العقاب الشديد لكل من تسول له نفسه باعتراض طريقهم ، ففي سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م قام الأرمن بقطع الطرقات على القصاد ، والاستيلاء على رسائلهم فارتفعت السنة القصاد بالشكوى منهم ، حينئذ أرسل قلاوون إلى نائب حلب يأمره بتأديبهم<sup>١١٥٣</sup> .

ومن الجدير بالذكر أنه كان لبعض سلاطين العصر المملوكي البحري قصاداً داخل البلاط الصليبي نفسه لإمدادهم بأدق الأخبار عن الملوك ، والأمراء الصليبيين مما يسهل تعقبهم ومعرفة ما يستجد من أخبارهم ، بل والقبض عليهم وقت الضرورة ، ففي سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م أرسل القصاد بعض المعلومات إلى الظاهر ببيرس تفيد بأن ملك الكرج قد حضر إلى القدس متكرراً ، فأمر ببيرس برصد تحركاته أولاً بأول إلى أن تم القبض عليه<sup>١١٥٤</sup> كما قام أحد

<sup>١١٤٩</sup> - ابن علي : حسن المناقب السرية ، ص ١٠٤ - ١٠٥ .

<sup>١١٥٠</sup> - ابن شداد : تاريخ الملك الظاهر ، ص ٢٦٩ - ٢٧٠ ؛ ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٩٧ .

- النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٣٠٢ . ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٥١ .

<sup>١١٥١</sup> - ابن علي : الفضل المأثور ، ص ١٤٥ .

<sup>١١٥٢</sup> - ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٣٨٢ . الدوادار ، زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٣٣ .

<sup>١١٥٣</sup> - ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعصور ، ص ٦٧ .

<sup>١١٥٤</sup> - ابن شداد : تاريخ الملك الظاهر ، ص ٧٤ . الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٣٢ . الداودار : مختار لأخبار ، ص ٥١

ابن علي : حسن المناقب ، ص ١٥٣ . اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، ج ٣ ، ص ٣٢ . ابن كثير : البداية والنهاية ، ج

ص ٢٦٥ . العيني : عقد الجمان ، ج ٢ ، ص ١١٣ . ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٧ ، ص ٥ .

كبار أمراء الكرج بتكرار المحاولة نفسها في سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م في عهد المنصور قلاوون الذي أصدر أوامره بمراقبته ، فكان لا يظاً موضعها إلا وأخبره تعرض على المنصور قلاوون ، حتى دخل مدينة القدس ، فتم القبض عليه ، وأرسل إلى قلعة الجبل بالقاهرة<sup>١١٥٥</sup> .

وكما ساعد القصاد ، والجواسيس في القبض على بعض جواسيس المغول ، وكان لهم دورا في القبض على بعض جواسيس الصليبيين داخل معسكرات الجيش المملوكي ، ففي سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م قام المماليك بالقبض على أحد الجواسيس الصليبيين حيث كان يتجسس على الجيش المملوكي لصالح صاحب "صافيتا" - تابعة لنيابة طرابلس - وتم إعدامه<sup>١١٥٦</sup> .

وفي سنة ٧١٥هـ/١٣١٦م وصلت الأخبار إلى الناصر محمد بأن المسلمين "بملطية" اختلطوا بالنصارى ، وقاموا بنقل أخبار المماليك إلى المغول ، فقام في الحال ، وجهاز الجيش المملوكي ، وتم فتحها ، وقبض على أحد أشخاصها ، ويدعى الشيخ مندو" الذي كان يقوم بتتبع قصاد المماليك ، والقبض عليهم من ناحية ، ويستقبل قصاد وجواسيس المغول لإمدادهم بما يحتاجونه من معلومات من ناحية أخرى<sup>١١٥٧</sup> .

وفي المعارك كان على الجواسيس أن تتقدم القوات ليكشفوا الأخبار ، ويرسلونها إلى القائد أما عن طرق إيصال المعلومات الاستطلاعية ، فقد كان المماليك يستخدمون النار في اتصالاتهم في نقل الأخبار عن العدو وقواته ، واتجاه مسيره ، وسرعة تحركه ، وكان للنار محطات مرتفعة على رؤوس الجبال ، وعلى قمم التلال ، إذ كانت الأخبار تنقل عن الجيش المغولي من الفرات إلى مصر في أقل من نصف يوم عبر المحطات المتتابعة التي عادة ما يكلف رجال اختصوا برموز النار في الليل ، أما في النهار فتستبدل النار بالدخان<sup>١١٥٨</sup> كما استخدموا الحمام الزاجل<sup>١١٥٩</sup> .

#### ٤ - الاستطلاع عند الصليبيين :

لم تميّز الروايات المعاصرة للحروب الصليبية بوضوح بين إرسال الاستطلاع أمام الجيوش للحصول على المعلومات وبين الجاسوسية ، ويبدو أن كلمة **coreors** كانت تعني كشافاً وجواسيس وبالتالي كان الاصطلاحين متداخلين إلى حد كبير .

وقد استخدمت الكشافة من قبل الجيوش الصليبية في معظم المعارك ، و الغارات قال الشارترى : (( وعندما عرفنا بوجود كشافهم من قبل استطلاعنا تأكدنا على الفور .. ))<sup>١١٦٠</sup> وقال توديبود وكان شاهد عيان عند الاستيلاء على بيت المقدس : (( وبعد تحديد أضعف جزء من دفاعات بيت المقدس حرك القادة آلات الحرب ، والأبراج الخشبية نحو القطاع الشرقي من الحصار ))<sup>١١٦١</sup> ،

<sup>١١٥٥</sup> - ابن عبد الظاهر : تشریف الأيام والعصور ، ص ٢٣ . الدوادار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ٢١٢ . النويرى

: نهاية الأرب ، ج ٣١ ، ص ٩١-٩٢ . المقریزی : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٧١٠ .

<sup>١١٥٦</sup> - ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٥٢ .

<sup>١١٥٧</sup> - أبو الفدا : المختصر ، م ٢ ص ٧ ، ص ٨٨ .

<sup>١١٥٨</sup> - ابن منكلي : الحيل ، ص ٣٨٣ .

<sup>١١٥٩</sup> - الرشيدى : تفريخ الكروب في تدبير الحروب ، ص ٢٥-٢٨ .

<sup>١١٦٠</sup> - الشارترى ( فوشيه ) : الاستيطان الصليبي في فلسطين ، تر قاسم عبده قاسم ، دار الشروق ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م ، ص ١٧٤ .

<sup>١١٦١</sup> - توديبود ( بطرس ) : تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس ، تر حسين محمد عطية ، دار المعرفة الجامعية ، ط ١ ، القاهرة ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م ، ص ٣١٧ .

وكانوا يذهبون بحجة الإحتشاش ، وجمع الأعلاف ، ولكنهم كانوا يتجسسون على القوات المعادية ويقومون بتقديم تقرير حول كل المشاهدات ، ولاسيما أي حضور معادي جديد في المنطقة<sup>١١٦٢</sup> والتأكيد على حجمه ، ونوعه ، وتسليحه ، وتحديد مكان وجوده .

أما الجواسيس فقد أسندت إليهم بالإضافة إلى جمع المعلومات عن الجيوش المعادية إعداد تقارير حول الخطط البعيدة المدى سياسياً - واقتصادياً ، وعسكرياً لكل من الأعداء والحلفاء<sup>١١٦٣</sup> ، وبالتالي فقد توجب عليهم الحصول على معلومات أكثر أهمية مما يمكن أن يكون متوفراً للكشافة ، فالكشافة يمكنهم فقط تبيان موقع جيش ما في وقته ، ولكن الجاسوس يحاول أن يعرف إلى أين سيتحرك هذا الجيش ، وما هي الأمور التي سينفذها ، وقد كان الصليبيون بارعين في اختيار الجواسيس لدرجة أنهم استطاعوا توظيف أمراء في الجيش المملوكي ، ومنهم على سبيل المثال بدر الدين بكتاش الفخري الذي كان عميلاً لفرسان المعبد وكان قد أرسل كلمة السر في تحرك قلاوون سنة ٦٨٨هـ/١٢٨٩م عندما تحرك من مصر إلى سوريا دون أن يكشف عن هدف تحركه آنذاك ، (( فأرسل بكتاش هذا إلى وليم أف بوجو أن وجهة التحرك هي إلى طرابلس ))<sup>١١٦٤</sup> .

بالإضافة إلى ذلك إن الاستطلاع ، أو ما كان يسمى بالكشافة عند الصليبيين كانوا قادرين على التسلل إلى معسكرات الجيش المملوكي ، ففي سنة ٦٦٩هـ/١٢٧١م ، وأثناء حصار الظاهر بيبيرس **قلعة القرين**<sup>١١٦٥</sup> تمكن أحد الجواسيس الصليبيين من التسلل إلى الجيش المملوكي وسعى لإرسال المعلومات التي استطاع الحصول عليها إلى الصليبيين ، ولكن تم كشفها وأخفقت خطته .

وقدم الكشافة ، والجواسيس معلومات مهمة أيام الحروب الصليبية لكنهم كما يبدو - أن القادة لم يكونوا مهتمين في جمع هذه المعلومات ، ودراستها ، وتصنيفها ، والاستفادة منها والدليل على ذلك أنهم لم يستطيعوا أن يُعدوا أنفسهم الاستعداد اللازم ، أو أنهم أخفقوا بمعظم الأعمال الهجومية التي تمت في هذا العصر . يمكن أن يكون سبب إهمال المعلومات التي كان يتم الحصول عليها من الكشافة ، أو الجواسيس هو : انشغالهم بصراعاتهم الداخلية ، وفقدان الثقة المتبادلة بين القادة الصليبيين من جهة ، وبينهم وبين كشافيتهم ، أو جواسيسهم لا سيما أن معظم الجواسيس كانوا من المسيحيين الوطنيين أبناء المنطقة .

## ٥ - الاستطلاع عند المغول:

أيضاً كان يسبق المعارك التي كانت تخوضها الجيوش المغولية مسير ميداني تكتيكي يهدف إلى وصول القوات إلى أرض الميدان لتحقيق الهدف ، وكان المغول يرسلون ألفين من الرجال في المقدمة للاستكشاف ، ويضعون مثلهم في المؤخرة ، وفي كل جانب من جوانب الجيش<sup>١١٦٦</sup>

<sup>١١٦٢</sup> - مارشال : فن الحرب في الشرق اللاتيني ، ج٢ ، ص ٣٨٤ .

<sup>١١٦٣</sup> - مارشال : ج٢ ، ص ٣٨٥ .

<sup>١١٦٤</sup> - رانسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج٣ ، ص ٤٦٨ .

<sup>١١٦٥</sup> - عن قلعة القرين . كندي : القلاع الصليبية ، ص ٦٠ - ٦١ .

<sup>١١٦٦</sup> - بدر : محنة الإسلام الكبرى ، ص ٨٩ .



وبالطريقة نفسها كان المغول يقسمون قواتهم إلى أقسام بغية تنفيذ المسير بشكل آمن وعندما قرر هولاء احتلال بغداد أمر أن تتحرك الجيوش على الشكل التالي :

- الميمنة وعلى رأسها جرماغون وبايجونونين ، وحدد لها طريق المسير عبر اربل إلى جسر الموصل ، وتسكر في الجانب الغربي من بغداد<sup>١١٦٧</sup> .

- الميسرة وعلى رأسها كتبغا نونين ، وحدد لها طريق من حدود لرستان ، وبيات ، وتكريت وخورستان حتى ساحل عمان .

- القلب ويسمى عند المغول (قول) ، وكان فيه هولاء ، ومعه نصير الدين الطوسي ، وحدد له طريق كرمناشاه<sup>١١٦٨</sup> . تشبه هذه الترتيبات إلى حد كبير ما يسمى بأمر المسير الذي يصدره القادة في أيامنا هذه حيث تم فيه تحديد أسماء القادة ، والطرق التي يجب إتباعها للوصول إلى منطقة الأعمال القتالية ، ومنطقة التسكر .

وأرسل أمام هذه القوات طليعة ، وجعل على رأسها مرشدين [ أدلاء ] كان قد قبض عليهما وهما أبيك الحلبي ، وسيف الدين قلج بعد أن أستمالهم إليه ، وكتب رسالة إلى قراسنقر الذي كان على رأس الطليعة التي أرسلها الخليفة قال فيها (( أنني وأنت من جنس واحد وبعد البحث والتدقيق التحقت بخدمة هولاء بسبب الفقر ... ، وهو الآن يعاملني معاملة طيبة ، فأنقذ أنت أيضاً حياتك ، وترفق بها ، وأشفق على أولادك ، وقدم الطاعة حتى تأمن على دارك ، وأولادك ومالك ، وروحك من هؤلاء القوم ))<sup>١١٦٩</sup> . وهنا يمكن ملاحظة أن القائد المغولي قد ركز على الجانب العاطفي ، والنفسي في استدراج قراسنقر إلى الجانب المغولي من خلال التركيز على موضوع الجنسية من جهة ، ومن خلال الإيحاء بأن جيوش المغول لن تهزم ، فحافظت أنت على حياتك ، وحياة أولادك .

أما عندما أراد كتبغا نونين إرسال القوات إلى مصر ، فأرسل منها طليعة بقيادة بيدرا<sup>١١٧٠</sup> وكان القادة المغول عندما يعطوا تعليمات المسير يؤكدون على موضوع التخفي والالتفات على حركات الجيوش ، ولاسيما الطلائع<sup>١١٧١</sup> . وهناك إشارات إلى استخدام الجواسيس للحصول على المعلومات فقد أورد المقرئزي أنه في سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٤م (( وفي جمادى الآخرة قبض على جاسوسين من التتار ))<sup>١١٧٢</sup> .

بالإضافة إلى وضع رجال ، وقادة خبراء في قراءة طبيعة الأرض ، ومعرفة أحوالها وطرقها ويبدو أنهم كانوا يهتمون بدراسة هذه القضايا لذلك عندما أراد هولاء أن يتوجه إلى بغداد قرر وضع مرغاول ، وهو قائد مظفر ، وخبير بالطرق على رأس مقدمة جيشه أبان تنفيذ المسير التكتيكي للوصول إلى بغداد<sup>١١٧٣</sup> .

<sup>١١٦٧</sup> - الهمذاني : جامع التواريخ ، ٢م ، ج ١ ، ص ٢٨١ .

<sup>١١٦٨</sup> - الهمذاني : ٢م ، ج ١ ، ص ٢٨١ .

<sup>١١٦٩</sup> - الهمذاني : ٢م ، ج ١ ، ص ٢٨٣ .

<sup>١١٧٠</sup> - الهمذاني : ٢م ، ج ١ ، ص ٣١٣ .

<sup>١١٧١</sup> - الهمذاني : ٢م ، ج ٢ ، ص ٢٩-٣٠ .

<sup>١١٧٢</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥١١ .

<sup>١١٧٣</sup> - الهمذاني : جامع التواريخ ، ٢م ، ج ٢ ، ص ٣٢ .

وكان جيش المغول مثل غيره يعتمد على الكثير من الأساليب للحصول على المعلومات فأعتمد على التجسس ، وخط مابين التجسس ، والاستطلاع ، وكان أيضاً هذان المصطلحان يستعملان بالمعنى نفسه ، وربما كان تسويغ ذلك هو الهدف من كل منهما ، وهو معرفة أكبر قدر من المعلومات عن جيوش الأعداء ، وأوضاعها ، فكثيراً ما كان يرد أرسل فلان على رأس مجموعة للاستطلاع ، والتجسس للحصول على المعلومات ، وهناك أدلة أخرى كثيرة على استخدام الجيوش المغولية للجواسيس ، ومنها ما جاء عند المقرئزي : أنه في سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣م تم إلقاء القبض من قبل الجيش المملوكي على جاسوسين من التتار<sup>١١٧٤</sup> .

كما كان المغول أيضاً يعملون على زرع جواسيس داخل الجيش المملوكي ، فقد أورد بيبرس الداودار أنه قبيل معركة حمص سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١م ((.. قفز إليهم - إلى الجيوش المغولية - مملوك من ممالك الأمير ركن الدين بيبرس النجمي الجالق ، فدلهم على عورات المسلمين ، وأخبرهم بعددهم))<sup>١١٧٥</sup> ، والملفت للنظر أيضاً أنهم كانوا يلجؤون إلى الاستطلاع بالقوة إذا انعدمت مصادر المعلومات ، أو إذا اضطرت تلك المجموعات إلى ذلك (( في حال اكتشافها أو مداومتها ))<sup>١١٧٦</sup> .

لذلك كان يقود مجموعات الاستطلاع قادة كبار متمرسين قادرين على التعامل مع مثل تلك الظروف ، وعلى سبيل المثال ((عندما علم أبا خان أن أهل الشام يسرون إلى حدود الروم وديار بكر ، ويهاجمونها ، ويدمرون ، ويأكلون الغلال ، ويثيرون الفتن كان يتألم من أعمالهم وصمم على السير إلى تلك البلاد ، وقصد الخابور ، ورحبة الشام متصيدياً لكنه لم يعبر الفرات وأرسل أخيه منكوتر في الطليعة))<sup>١١٧٧</sup> .

أما هدف الاستطلاع أيضاً بالإضافة إلى جمع المعلومات عن العدو فهو أيضاً

أ - اختبار حالة الطرقات ، ومدى صلاحيتها لمسير الجيوش ، وتجهيز المخرب منها وتسويته وتجهيزه .

ب - إقامة الجسور على الأنهار العميقة ، وعلى مجاري المياه السريعة<sup>١١٧٨</sup> .

ج - اختيار الميادين المناسبة (الميدان المناسب للقتال) .

د - معرفة أنظمة تكوين الجيوش المعادية - نظام الأمراء ، والجنود - .

هـ - معرفة أسلحة العدو أنواعها ، وما يملكون منها ، والدواب التي يستخدمونها ، وأنواعها

و- الروح المعنوية لقوات العدو ، ومدى تدريبهم ، وقوتهم البدنية<sup>١١٧٩</sup> .

<sup>١١٧٤</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٨ .

<sup>١١٧٥</sup> - الداودار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٤٢ .

<sup>١١٧٦</sup> - الهمذاني : جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٣٤ .

<sup>١١٧٧</sup> - الهمذاني : م ٢ ، ج ٢ ، ص ٨٢ - ٨٣ .

<sup>١١٧٨</sup> - الهمذاني : م ٢ ، ج ٢ ، ص ٢٣٥ .

<sup>١١٧٩</sup> - الهمذاني : جامع التواريخ ، م ٢ ، ج ٢ ، ص ٣٩ - ٤٠ .

ز- معرفة الطرق ، ومصادر المياه فيها ، ومقدار ما تؤمنه لجيوشهم ، وهل هذه المصادر مسيطر عليها من قبل العدو أولاً ، وإرسال ذلك فوراً إلى القادة<sup>١١٨٠</sup> .

وكان الاستطلاع في الجيش المغولي مستمراً ، بمعنى أن إرسال المجموعات الاستطلاعية لم يتوقف عند زمن محدد قبل المعركة ، أو خلالها بل كان ينفذ بعد المعركة أيضاً ، فعلى سبيل المثال : معركة حمص سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م ، وعندما ظنّ التتار أنهم هزموا القوات الإسلامية نزلوا عن خيولهم عند سد حمص منتظرين قدوم رفاقهم ، ولم يكونوا يعلموا أنهم قد كسروا ، وولوا الأدبار ، فلما طال بهم الانتظار (( أرسلوا من يكشف لهم الأخبار ))<sup>١١٨١</sup> . وبالتالي فهم كانوا يطبقون القاعدة الأساسية للاستطلاع في العصر الحديث وهي : استمرارية الاستطلاع في الزمان ، والمكان ، وضرورة الاستطلاع التحقيقي - التحقق من تحقيق الهدف أو تدمير منشأة - إلى غير ذلك .

وقد استخدم الجيش المغولي الجواسيس لأغراض أخرى غير جمع المعلومات عن جيوش العدو كما حصل في سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٤ م حيث تم قبض جاسوسين ، ومعهما فرمان من هولانكو إلى فارس الدين أقطاي يحرّضه فيه على السلطان ، ويدعوه - أي أقطاي - إلى التقرب من المغول ، فعلم السلطان أن ذلك مكيدة من التتار<sup>١١٨٢</sup> ، وأنهم بهذا العمل يحاولون إيجاد شرخ وجو من عدم الثقة ، والشك بين قيادات الجيش المملوكي لإضعافها وتآكلها من الداخل لكن السلطان الظاهر بيبرس وبحس القائد العسكري الخبير أدرك تلك المكيدة ، وأغلق دونها الأبواب .

## ٦ - القتال من المسير عند المماليك :

قد تضطر القوات وهي في حالة المسير إلى القتال لسبب ، أو لآخر ، فعلى سبيل المثال قد تصادف وهي في حالة المسير مجموعات استطلاعية معادية ، أو قد تتعرض لهجوم من قبل قوات معادية غير كبيرة<sup>١١٨٣</sup> ، فتقوم هي بالهجوم على العدو مهاجم ، وهذا ما يسمى في العصر الحاضر (المعركة التصادمية) ، وهذه الميزة التكتيكية استخدمت في الجيش المملوكي لأنه كان يمتلك من المؤهلات التي جعلته قادراً على التحرك بسرعة أكثر بسبب :

- خفة المعدات التي يحملها إذا ما قورنت بجيوش الصليبيين الذين كانوا يلبسون دروع معيقة من كثير من الجوانب .

ذلك أن القتال يتطلب جهوداً جسدية هائلة ، وقد جعلته الدروع مرهقاً نوعاً ما بالمقارنة مع الخصم المسلم ، والمغولي<sup>١١٨٤</sup> .

- امتلاكه للخيول خفيفة التجهيز<sup>١١٨٥</sup> أيضاً إذا ما قورنت بخيول جيوش أعدائه أكانوا صليبيين أم مغول التي كانت محملة بالأثقال .

<sup>١١٨٠</sup> - الهمذاني : م ٢ ، ج ٢ ، ص ٤٢ .

<sup>١١٨١</sup> - الداودار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٤٥ .

<sup>١١٨٢</sup> - الداودار : ج ٩ ، ص ٦٦ .

<sup>١١٨٣</sup> - الرشيدى : تفريغ الكروب في تدبير الحروب ، ص ١٠٠ .

<sup>١١٨٤</sup> - مارشال : فن الحرب في الشرق اللاتيني ، ص ٢٣٤ ، ص ٢٤٢ .

- وأخيراً التدريب الخاص للفرسان ، والخيول على الخفة والحركة ، وهنا يجب الإشارة إلى أن خيول المغول هي الأخرى كانت على درجة عالية من التمرين حتى قال أحد المؤرخين عنها : أنّ خيولهم متمرنة أحسن تمرين حتى أنها كانت تجري هنا وهناك كالكلاب<sup>١١٨٦</sup> . لكن وبإعتراف الجميع كانت الخيول العربية هي الأفضل . قال دي كانسي عندما كان يقدم وصفاً لمعركة حمص بين المماليك والمغول « وكان قد خيل للتار بأن المسلمون قد هزموا تماماً ولذلك اندفعوا نحو السلب ، والنهب ، وحصل التتار على كميات هائلة من الأسلاب بسبب سرعة تحركهم المذهلة ، ولجشعهم العظيم كرجال ، فقد امتطوا خيول المسلمين ، وكانت أفضل من خيولهم ، وتركزا خيولهم التعيسة خلفهم<sup>١١٨٧</sup> »

أكسبت هذه الميزات جيش المماليك سرعة التحرك ، والمناورة ، والقدرة على الدخول بالمعركة من المسير ، وكان ذلك جديداً في القتال مما أربك القوى المعادية في ذلك العصر وبصفة خاصة قوات الفرنجة الذين كانوا يميلون قبل القتال إلى الوقوف ، وتنظيم قواتهم واتخاذ تشكيل قتال المعركة<sup>١١٨٨</sup> . أما جيوش المغول فهي الأخرى تفاجأت بتلك الميزة التكتيكية ، فقد تعودت قواتهم أن تُهاجم ، والآخرون يدافعون ، أو يستسلمون دون قتال بسبب العوامل النفسية الرهيبة التي اجتاحت العالم آنذاك من بطش المغول<sup>١١٨٩</sup>

وهناك حالة أخرى ، وهي أن قوات الاستطلاع قد تفاجأ بهجوم قوات معادية أقوى ، وأكثر عدداً منها ، ففي هذه الحالة قال الرشدي : « فالطريق في ذلك أن يجثو أهل العسكر على الركب ويشرعوا الأسنة في نحورهم ، ويستتروا بالدرق ، والطوارق ، ويكونوا صفا واحدا متعاضدين إلى أن يندفع العدو، أو يتهيا الركوب واللقاء<sup>١١٩٠</sup> » ، وتفسير ذلك تكتيكياً عند الجيوش المعاصرة هو اللجوء إلى حالة الدفاع ، ومثل ذلك القرار هو من القرارات العلمية المعللة على أرقى المستويات ، وهذا دليل على مستوى تطور التكتيك القتالي عند المماليك .

والحالة الثالثة هي ضعف إمكانية صمود الدفاع أمام هجوم كاسح متفوق بالقوى والوسائط . مثل تلك الحالة كانت تعالج في ذلك العصر باتخاذ قرار الانسحاب باتجاه القوى الرئيسية قال الرشدي : « وإن كثرت العدو على العسكر ، وعجزوا عن دفع صولته رجعوا إلى عسكرهم على حميتهم<sup>١١٩١</sup> » [ وتعريف الانسحاب في أيامنا هذه هو نوع من أنواع الأعمال القتالية تلجأ إليه القوات في حالة مواجهة عدو متفوق بالقوى والوسائط ] .

ومن الميزات التكتيكية التي تتم عن فكر قتالي رائع في الجيش المملوكي ، ولاسيما عندما يكون متفوقاً بالقوى ، والوسائط كان يركز من أجل القيام بالهجوم على المناطق التي تتوضع فيها مراكز الثقل [ الشؤون الإدارية ] ، وهذا في المفهوم الحربي الحديث يعتبر أرقى أنواع التكتيك لأن الهجوم على المؤخرة يحرم القوات من كثير من الميزات التكتيكية الضرورية لتنفيذ المهام

<sup>١١٨٥</sup> - الشار تري : الاستيطان الصليبي في فلسطين ، ص ١٢١-١٢٢ .

<sup>١١٨٦</sup> - بدر : محنة الإسلام الكبرى ، ص ٩١ .

<sup>١١٨٧</sup> - كانسي : الرسائل الملكية ، ص ٣٦٦ .

<sup>١١٨٨</sup> - سميل ( ر . س ) : فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر ١٠٩٧-١١٩٣م ، تر محمد وليد الجلاذ ، دار طلاس للدراسات والنشر ، ط ١ ، دمشق ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م ، ص ٧٩ .

<sup>١١٨٩</sup> - الخالدي ( إسماعيل عبدالعزيز ) : العالم الإسلامي والغزو المغولي ، مكتبة الفلاح ، ط ١ ، الكويت ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ص ٣٩ .

<sup>١١٩٠</sup> - الرشدي : تفريغ الكروب في تدبير الحروب ، ص ١٠٠ .

<sup>١١٩١</sup> - الرشدي : ص ١٠١ . حميتهم : تعني شجاعتهم واندفاعهم .

( .... أماكن توضع الثقل ولا مهامّ للعسكر إلا بثقله<sup>١١٩٢</sup> ) ، ومثل ذلك الهجوم يؤدي إلى نوع من الارتباك فعندما يشعر القادة ، والجنود أنّ القوات المعادية قد أصبحت تقاتل خلفهم ، أو تقاتلهم من خلفهم ، وبمجرد هذا الشعور يصبح الجندي في المعركة عرضة لتوارد الأفكار غير المحسوبة ، وتصبح الروح المعنوية للجيش في مهبط الريح ، وقد تنهار الأمر الذي قد يؤدي إلى الهزيمة ، وخسارة المعركة .

إضافة إلى ذلك أن وجود قوات العدو خلف القوات الصديقة يحرم القوات من الإمداد بشتى أنواعه ( الطعام - المياه- الطبية - الاحتياط من الأسلحة ، والأعتدة ... الخ ) .

ومعنى أن يقطع الإمداد عن صفوف قوات الميدان هو : وجود موقف قتالي جديد يتطلب من القائد المباشر العمل على حل الكثير من المسائل العاجلة ، والتي لا تحتمل التأجيل ، ومن هذه المسائل إستعواض خسائر الميدان لتأمين القدرة على الاستمرار في القتال ، والمحافظة على السيطرة ، والقيادة لقواته ، وتأمين الطعام ، والمياه للمقاتلين ، والعلف للخيل ، والدواب الأخرى وهذا عمل كبير ويحتاج إلى جهود استثنائية قد تكون غير محسوبة .

لذلك كان القادة المماليك مدركين خطورة ذلك الموضوع ، ويقومون بمعالجته بعلمية وموضوعية وحزم ، وبما يتناسب مع كل موقف تكتيكي على حده ، والدليل على ذلك ما قاله بيبيرس الداودار عند التحدث عن أحد القادة : (( أنه قد مارس الخطوب ، وبأشهر الحروب وشهد المواقف ، وخاض المتالف .. لم تتم عليه الحيلة ، ولا نشب فيما نصب خصمه من الأحبولة ، وهي : أنه قرر مع العربان الذين جمعهم ، أن يقاطعوا ساعة الملتقى على العساكر المصرية ويجنئوهم - يأتونهم - من ورائهم ويحطوا أيديهم في نهب الأثقال ، والغلمان والجمال ، ليثنوا إليهم عنانهم ، فيركب أكتافهم ، ففعل العرب ما أوصاهم ، وجاؤوا من ورائهم ، وشرعوا في النهب ، فقال له العسكر : إنّ العرب قد نهبت الأثقال ، والقماش والأحمال ، فقال : لا تلتفتوا إليهم ، ولا تُعَرِّجوا عليهم ، وشأنكم ومن قدامكم ، فإننا إذا هزمناهم استرجعنا الذي لنا وغنمنا الذي لهم ))<sup>١١٩٣</sup> ، ومن خلال التوقف عند هذا النص يدرك القارئ الثقافة العسكرية العالية المستوى عند القادة في العصر المملوكي الأول ، ومدى اعتمادهم على العلم العسكري والخبرة التكتيكية في معالجة المسائل المستجدة في الميدان ففي النص محاولة من القائد الخصم التأثير النفسي على القوات المملوكية من خلال نهب الثقل في مؤخرة القوات ، لكن خبرة ، وثقافة القائد المملوكي جعلته يتصرف بثبات ، وروية لأن القائد يجب أن يقاتل قتال الصلوك ، ويسوس سياسة الملوك عندها فقط تسكن إليه النفوس<sup>١١٩٤</sup> .

أما عندما تريد الجيوش الاشتباك مباشرة مع القوات المعادية ، فغالباً ما كانت قوات المماليك تستخدم الحيل الحربية ، فتتظاهر بالارتداد [ استدراج القوات المعادية إلى المكان المناسب في الزمان المناسب ] ، وهذا ما حصل في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م عندما تظاهر الظاهر بيبيرس الذي كان على رأس الطليعة بالهزيمة ، واستطاع أن يجر قوات المغول إلى مناطق متفق عليها مع القائد العام (السلطان) ، وعندها أنقض الجيش المملوكي على قوات المغول من

<sup>١١٩٢</sup> - الرشيدى : تفريغ الكروب في تدبير الحروب ، ص ٩٤ .

<sup>١١٩٣</sup> - الداودار : زبدة الفكرة ، ج ٩ ، ص ١٢٧ .

<sup>١١٩٤</sup> - ابن أعمش الكوفي ( أبو محمد أحمد ، ت ٣١٤هـ / ٩٢٦م ) : كتاب الفتوح ، تح علي العباسي و عبد الوهاب البخاري ، الهند حيدر آباد الدكن ، ١٣٨٨ - ١٣٩٥هـ / ١٩٦٨ - ١٩٧٥م ، ص ٢٣١ .

ثلاث اتجاهات ، وعمل فيه قتلاً وأستطاع أن يهزمه<sup>١١٩٥</sup> . وهذه المناورة قد تكون خفيفة ، أو تكون عميقة تستغرق عدة أيام ، والغرض من ذلك هو أنهاك العدو ، واستدراجه بعيداً عن قواعده ، وعن المناطق التي خطط أن تكون معركته فيها<sup>١١٩٦</sup> .

وكانت هذه المناورات مخططة ، وعن معرفة ، وتصميم كما في معركة عين جالوت ، وأحياناً تكون وليدة اللحظة ، والحاجة ، والضرورة كما حدث في معركة شقحب سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٣م عندما حملت التتار على ميمنة المسلمين ، وكسروها ، وتراجع أصحابها ، فلاحقهم التتار ، وعندما أصبحت مجنبتهم على مضرب ميسرة المسلمين التي صارت كالكمين قامت وقتلتهم تقتيلاً ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة<sup>١١٩٧</sup> ، ولم يكن استخدام الكمين أمراً مفضلاً ضد قوات صليبية جيدة التنظيم لأنّ القوات الصليبية كانت في الغالب حذرة من أمكانية وجود كمين فعند يافا في سنة ١٢٥٤هـ / ١٢٥٦م أقنع غيودفري أحد قادته العسكريين بعدم مطاردة المسلمين المنهزمين بسبب مخاطر وجود كمين<sup>١١٩٨</sup> .

وقد ذكر ابن منكلي ، وهو المعاصر للدولة المملوكية الأولى باباً في الميزات التكتيكية وكيفية ملاقاتة الجيوش لبعضها ذكر من خلاله عدة حالات من المفيد الوقوف عندها والتعلم من دروس الآخرين ذوي التجربة ، والخبرة ، وعادة خبرات الجيوش لا تأتي إلا من خلال التجارب ، والحروب عبر الزمن الطويل تسطره الكتب ، و تنتقله الأجيال للاستفادة منه ومن تلك الحالات :

- يجب على القائد الانتظار على مسافة مناسبة من العدو حتى يعرف تعبئة الجيوش المعادية وبعدها يبني تعبئة جيشه بحيث يضللهم قبل الوصول إليهم ، وفي الوقت نفسه يحتفظ بحريته في اختيار زمان ومكان المعركة ، وما أن يصل حتى يعالج الوضع من خلال السلاح اللازم والذي قد يكون الأكثر تأثيراً على قوات العدو<sup>١١٩٩</sup> .

- بالترتيب ، والتعبئة التي سيفاجئهم به .

فإن قدموا الناشبة ، أي إن كان رماة النشاب في الصف الأول متقدمين على غيرهم ، فإن القرار يجب أن يكون بالاستتار منهم بالجنن ، والسراويل أي اتخاذ وضع الدفاع .

وإذا دنو [ أي اقتربوا ] ، ودفعوا أول رشقتهم [ أي قاموا بتنفيذ الرشقة الأولى من قسيهم ] صدمناهم في اللحظة الفاصلة بين الرمييتين مستعملين الخيول السريعة ، وأخذنا زمام المبادرة منهم ، وبدلاً من أن نكون مدافعين نصبح مهاجمين ، وخير وسيلة للدفاع هو الهجوم .

وأن تقدمت الخيالة حملة الرماح سبقناهم إلى الحمل عليهم قبل أن يحملوا علينا<sup>١٢٠٠</sup> أي الهجوم على عدو مهاجم [ المعركة التصادية ]

<sup>١١٩٥</sup> - ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٢٥ . المقرئبي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣٠ .  
ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٤٩ . أبو الفداء : التبر المسبوك ، ص ٨٠ . مارشال : فن الحرب : ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .  
<sup>١١٩٦</sup> - سميل : الحروب الصليبية ، ص ٧٧ .  
<sup>١١٩٧</sup> - الأقسراي : نهاية السؤل والأمنية : ص ٤٥١ . المقرئبي : السلوك : ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٣٤ .  
<sup>١١٩٨</sup> - مارشال : فن الحرب ، ص ٢٤٨ .  
<sup>١١٩٩</sup> - الهمذاني : جامع التواريخ ، ص ٣١٣ .  
<sup>١٢٠٠</sup> - ابن منكلي : الحيل في الحروب ، ج ٢ ، ص ٣١٠ .

وإن تقدم حملة الرماح ( الرماحة ) زحفنا أليهم بالرجالة ، وفي أثرها الخيل أي نجعل الخيل خلف المشاة الرجالة لكي لا يكون تأثير الرماح على الخيل كبيراً .

وأن تقدم الرجالة حملة الأقواس [ الرجالة رماة النشاب ] ، ورامحتها في صف واحد زحفنا إليهم بالرجالة أيضاً . لأنه وكما قال محمد بن عيسى الأقسرائي : لا يجوز للفارس الرماح أو الزارق ، أو الناشب الدخول على الرجل المصلت ، ولذلك لابد من تقديم الرجالة<sup>١٢٠١</sup> .

وأن قدموا ناشبة الخيل [ الخيالة رماة النشاب ] لم نشك في الحملة عليهم برامحة الخيل إذا كان وراءهم صف آخر فإن لم يكن صف آخر ، وكانوا ناشبة لهم ثقافة بالرمي ، والفروسية لم يتقدم عليهم إلا الرجالة أمامنا .

فإن استطردو لنا [ جاؤوا مسرعين على خيلهم ] لزمننا الموضع على تعبتنا ، واستدعينا منهم الزلة ، والعجلة ، والتصددع على أنهم طالبي طمع مادي فهم حتماً إلى الفوضى ، ونحن في نظام من تعبتنا .

وأن كانوا ممن لا حذق لهم بالرمي والفروسية [ ضعيفي التدريب لا خبرة لهم ولا مهارة عندهم ] أمرنا رامحة الخيل بالحملة عليهم<sup>١٢٠٢</sup> ، لكن العبرة ليست في أن يعرف القادة الممالك تلك المسائل فهي موجودة في أمهات الكتب ، لكن العبرة في التطبيق وتهيئة الظروف المناسبة لنجاح تطبيقها ، والمعارك التي خاضتها الجيوش المملوكية ضد أعداءها دلت على أنهم ذوي خبرة ومهارة في القتال والتكتيك القتالي ، وقد استخدمت الحيل الحربية في التكتيك القتالي ، وكان لها نتائج كبيرة على سير المعارك منها : أنه في سنة ١٢٦٥هـ/١٢٦٧م وصل الظاهر بيبرس إلى أمام عكا ، ورفع الرايات التي استولى عليها من فرسان المعبد ، والمستشفى ، وتمكن بذلك من الاقتراب حتى الأسوار مباشرة قبل اكتشاف الخدعة<sup>١٢٠٣</sup> ، وفي سنة ١٢٦٦هـ/١٢٦٨م رحل السلطان الظاهر بيبرس طالباً للشقيف فنزل عليها يوم الثلاثاء ثامن عشر من رجب ، فوقع على كتاب من جهة الفرنجة الذين بعكا يتضمن أعلام النواب بالشقيف أن المسلمين لا يقدرّون على أخذ الحصن أن احتفظتم به مجدداً في أمركم ، فلما أطلع السلطان على ذلك أنفتح له باب في أخذه ، فاستدعى من يكتب بلغة الفرنجة وأمره أن يكتب كتاباً يذكر فيه أمارات (علامات) بينهم وبين أهل عكا علمها من الكتاب الذي وقع في يده ويحذر الكمندور **commandeur** أي المقدم المقيم بالشقيف من الوزير المقيم عنده ومن بعض الرجالات الموجودة عنده وكانت أسماؤهم في الكتاب .

كما كتب كتاباً آخر للوزير (كليام) يحذره من الكمندور ويأمره إن احتاج إلى من يأخذه من ملك كان اسمه في الكتاب ، وأوصل الكتب إلى أصحابها بحيلة ، عندها وقع الخلاف بينهم ، وزاد من ذلك شدة الحصار الذي كانوا فيه ، فقرروا تسليم الحصن الأمر الذي تم في التاسع والعشرين من رجب في السنة نفسها<sup>١٢٠٤</sup> .

<sup>١٢٠١</sup> - الأقسرائي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٣٧٠ .

<sup>١٢٠٢</sup> - ابن منكلي : الحيل في الحروب ، ج ٢ ، ص ٣١٠ .

<sup>١٢٠٣</sup> - رانسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٣٧٧ .

<sup>١٢٠٤</sup> - ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

- المقرئزي : السلوك : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٦٥ ، الحاشية رقم ٣ .

وقد ذكر الرشدي باباً كاملاً في الخديعة والحيل المغنية عن الحرب ، وقال أنها مطلوبة شرعاً وعقلاً وفصل ذلك من خلال فصول ثلاث . الأول : في الحث على الخديعة في الحرب والحيل فيه<sup>١٢٠٥</sup> ، والثاني : في كيفية التحيل والمخادعة<sup>١٢٠٦</sup> ، والثالث : في ذكر طرف من تلك الحيل التي وقعت لأهل تدبير الحروب<sup>١٢٠٧</sup> .

وقال الرشدي : « ومن أحسن ما يحكى في ذلك أنّ الملك الناصر محمد بن قلاوون رحمه الله في آخر زمنه بعد الصلح مع التتر<sup>١٢٠٨</sup> كان يحاسنهم ، ويراسلهم ، ويهاديهم ما بين كبير وصغير ، حتى يهادي العجائز في البيوت كسراً للفتنة ، واطفاء لنار الحرب ، وأنه سمع ذات يوم بعض خاصكته يتحدثون ويقول بعضهم لبعض : أن السلطان يهادي التتر خوفاً منهم فنهروهم وقال : إنّ الذي أهادي به جميعه ما يجيء في نظير كلفة إنعال خيولكم عند خروجكم لقتالهم ، فأذعنوا لمقاتله ، واعتقوا بالحق في ذلك »<sup>١٢٠٩</sup> .

ومن الميزات التكتيكية المهمة للجيش المملوكي أنه كان يتحرى نقاط الضعف في مواقع العدو ويكتسب لنفسه ميزات يتفوق بها على خصمه قبل أن يقرر نهائياً خوض المعركة طبقاً لمصلحته التكتيكية<sup>١٢١٠</sup> . وهذا يعتمد بشكل ، أو بأخر على قدرة الاستطلاع بأشكاله المختلفة على جمع المعلومات عن الجيوش المعادية هذا من جهة ، ومن جهة ثانية على قدرة القادة على تحليل تلك المعلومات ، وتوظيفها في الزمان ، والمكان المناسبين .

في سنة ٧٠٢هـ / ١٢٩١م حصل القادة المماليك على معلومات من المغول الذين تم أسرهم وبعد تحليل تلك المعلومات تبين أن التتار قد أجمعوا على النزول عن التل الذي كانوا عليه في صبيحة اليوم التالي ومصادمة الجيش المملوكي ، وأنهم في شدة من العطش ، فاقتضى الرأي أن يفرج لهم عند نزولهم ، ثم تركب السيوف رقابهم من الخلف<sup>١٢١١</sup> .

ومن التكتيكات التي عدت من أعظم التطبيقات للفن الحربي في العصر الملوكي الأول هي القدرة على استخدام الجيوش ، وأسلحتها ومعداتها في الزمان ، والمكان الذي كان قد حددهما القائد مسبقاً ، وبهذا كان يخلق لنفسه ميزات تفوق بها على خصمه حيث تتوقف الجيوش في مكان ما يختاره القائد لتدقيق المهام المرسومة وفقاً لمعطيات الاستطلاع .

أما الميزة التكتيكية الأكثر إلفاً للنظر هي : الرمي بالنشاب من الحركة عن الخيول دون توقف ، أو تباطؤ ، وكان يمكنهم من الجمع بين الرمي بالنشاب أثناء التحرك في وثبات تكتيكية مما يدل على مستوى تدريبي عالي ، وبين الرمي أثناء الانسحاب وهو ما يسمى بالرمي التعطيلي ، أو رمي الإعاقة<sup>١٢١٢</sup> ] يتحولوا من فوق الخيول ، ويصوبوا سهامهم نحو مطارديهم بقتال

- النويري : نهاية الأرب ، ج ٢٨ ، ص ٩٢-٩٣ .  
١٢٠٥ - الرشدي : تفريخ الكروب في تدبير الحروب ، ص ٤١-٤٢ .  
١٢٠٦ - الرشدي : ص ٤٣-٤٤ .  
١٢٠٧ - الرشدي : ص ٤٥-٤٩ .  
١٢٠٨ - وقع الصلح بين السلطان الناصر محمد بن قلاوون وبين المغول سنة ٧٢١هـ / ١٣٢١م . ابن حبيب : تذكرة النبيه ، ج ٢ ص ١١٥ .  
١٢٠٩ - الرشدي : تفريخ الكروب في تدبير الحروب ، ص ٤٢ .  
١٢١٠ - سميل : الحروب الصليبية ، ص ٧٦-٧٧ .  
١٢١١ - النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠ ، ص ٣٤٣ . المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٣٦ .  
سرور ( محمد جمال الدين ) : دولة بني قلاوون ، ص ٢٠٢ .  
١٢١٢ - سميل : الحروب الصليبية ، ص ٧٩ .



تراجعي ، وهو شكل متطور جداً من أشكال القتال تستطيع من خلاله الجيوش إعاقة العدو ، ومنعه من أخذ زمام المبادرة ، وخلق الظروف المناسبة لإعادة التجميع وصد هجوم العدو المتفوق ، وهذا ينم عن فكر تكتيكي راقى ، وخبرة قتالية عالية التكنيك [ . وقد كانت جيوش المغول تتمتع بمثل تلك الميزة حيث كانوا يستطيعون الرمي إلى الخلف من فوق رؤوسهم ويؤثرون تأثيراً كبيراً على القوات التي تلاحق فلولهم في حالة التراجع والانسحاب<sup>١٢١٣</sup> .

ومن الميزات التكتيكية للجيش المملوكي القدرة على نقل المعركة إلى أرض العدو ، وقد حصل مثل ذلك أيام الظاهر بيبرس عندما قطعت قواته نهر الفرات لمهاجمة قوات المغول<sup>١٢١٤</sup> .

ومن الميزات التكتيكية الرائعة عند الجيش المملوكي هي القدرة على التأمين القتالي والمادي والطبي ، فالمعركة فيها خسائر وفيها قتلى وجرحى ، والقادة العسكريون شخصياً ليس لديهم الوقت الكافي في المعارك لمعالجة تلك الأمور سواء أكانت إمداد ، أو إخلاء ، أو معالجة الجروح في أرض الميدان .

ومن أجل معالجة مثل تلك المسألة تكتيكية كانت العادة ان يصطحب السلطان أو الأمير (المكلف بقيادة الجيوش) خيمة فيها حكماء وأطباء جراحين يعرفون علم التشريح ، وأعضاء الإنسان ، وما فيه من عضل ، وعروق ، وشرابين ، وأعصاب ، وكان لديهم خبرات كبيرة ومهارة مشهودة في استخدام أدوات الجراحة بحيث كانوا ينفذونها دون أية مضاعفات<sup>١٢١٥</sup> . وأطباء اختصاصيين بالعظام ، وكانوا يعلمون عدد عظام جسم الإنسان ، وشكل كل واحدة منها ، وصورته وقدره ، حتى إذا انكسر منها شيء ، أو انخلع رده إلى موضعه على هيئته التي كان عليها<sup>١٢١٦</sup> ، واصطحبوا معهم نقالات [ محفات ] لنقل الجرحى والمصابين من أرض المعركة إلى تلك الخيمة من أجل معالجتهم ، ولم ينسوا أبداً الأشربة والعقاقير (شراب خاناه أو الدواء خاناه) ، وجعلوها ترافق هذه الجيوش ، وتعمل على مداواة المرضى ومعالجة الجرحى واتخاذ كل الإجراءات الطبية المناسبة للمحافظة على صحة الجنود والقادة<sup>١٢١٧</sup> . [ وهذا ما يسمى في أيامنا هذه النقاط الطبية ، أو المشافي الميدانية ] ، وهناك الكثير من الأدلة على مواكبة الأطباء للجيوش المملوكية في الحروب منها : أن السلطان الظاهر بيبرس عندما كان في إحدى الحملات ، وأراد أن يطمئن إلى أحوال ابنه الملك السعيد سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م ركب من دمشق ، ونزل خربة اللصوص ، فأقام بها أيام ، ثم ركب ليلة الاثنين الثامن عشر من شعبان ، ولم يشعر به أحد ، وتوجه إلى القاهرة مع عناصر البريد بعد أن اتفق مع الفارقاني<sup>١٢١٨</sup> على أن ينشر خبراً مفاده أن السلطان تشوش في بدنه ، واستدعى الحكماء إلى الخيمة ، ودخل الأمراء ، وشاهدوه على هيئة متألم ، وكتب إلى دمشق باستدعاء الأشربة ، ثم اتفق معه على أن يغيب أياماً معلومة ، وطلب منه أن يحضر الأطباء يومياً ويسألهم عن الأدوية التي يعالج بها متوعك يشكو تغيير مزاجه ، ويدخل الأدوية الموصوفة إلى خيمة السلطان ليوهم الناس أنه متوعك<sup>١٢١٩</sup> .

<sup>١٢١٣</sup> - بدر : محنة الإسلام الكبرى ، ص ٩١ .

<sup>١٢١٤</sup> - ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٢٦٧ . ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١٠٧ .

<sup>١٢١٥</sup> - ابن الأخوة (محمد بن محمد بن أحمد القرشي ، ت ٧٢٩هـ / ١٣٢٩م) : معالم القرية في أحكام الحسبة ، كمبردج ، ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م ، ص ٢٥٧ .

<sup>١٢١٦</sup> - ابن الأخوة : معالم القرية ، ص ٢٥٨ - ٢٥٩ .

<sup>١٢١٧</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٤ . الربيعي (عبدالله بن عبدالرحمن) : أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية ، ط ١ ، الرياض ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م ، ص ١٠٨ .

<sup>١٢١٨</sup> - عيسى (أحمد) : تاريخ البيمارستانات في الإسلام ، دار الرائد العربي ، ط ٢ ، بيروت ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ص ١٤-١٥ .  
<sup>١٢١٩</sup> - هو آق سنقر بن عبدالله الفارقاني الأمير شمس الدين المتوفى سنة ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م . ابن تغري بردي : المنهل الصافي ج ٢ ، ص ٤٩٤ .

<sup>١٢١٩</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٦ .

- ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ١٣١ .

ومن أشهر البيمارستانات في مصر :

البيمارستان المنصوري الكبير في القاهرة الذي بني سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م الذي بناه السلطان قلاوون الألفي ، وأوقف عليه من الأملاك ما يقارب ألف ألف درهم في السنة .

بيمارستان زقاق القناديل .

بيمارستان المغافر بناه الفتح بن خاقان في أيام الخليفة المتوكل .

البيمارستان العتيق أنشأه أحمد بن طولون سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٣م .

بيمارستان القشاشين .

البيمارستان الناصري أو الصلاحي الذي بناه صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٧هـ / ١١٧٢م .

بيمارستان الإسكندرية .

ومن أشهر بيمارستانات بلاد الشام :

البيمارستان الكبير النوري الذي بناه الملك العادل نور الدين محمود زنكي بدمشق ، وكان وقفا على الفقراء والمساكين .

البيمارستان النوري الذي بناه الملك العادل نور الدين محمود زنكي بحلب .

بيمارستان عكا .

بيمارستان صفد عمره الأمير تنكز نائب الشام .

بيمارستان غزة بناه الأمير علم الدين سنجر الجاولي .

بيمارستان الكرك أنشأه الأمير علم الدين سنجر المتوفى سنة ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م .

البيمارستان الجديد بحلب ، أو بيمارستان أرغون الكامل أنشأه الأمير سيف الدين الكامل سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م بحلب داخل باب فنسرين وأنفق عليه أموالا كثيرة وأوقف عليه أوقافا جمة<sup>١٢٢٠</sup> .

بيمارستان الرملة ، وبيمارستان نابلس من أعمال فلسطين ، وينسبان إلى فضل الله القبطي ناظر الجيش المتوفى سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣٢م .

وقد ذكر الأقسراي فصلاً كاملاً في الجراحات جاء فيه :

إذا كانت الجراحات طرية [ أي في الميدان ] ، ولم تكن عظيمة المقدار والغور ، فإنه يكفي أن يجمع طرفاها جمعا محكما ويشد ، ويحذر أن يمسه دهن أو شعر ، فإن ذلك يمنع من التحامها . أما إن كانت الجراحات عميقة فينبغي أن يدخل فيها المرهم المنبت للحم ويرفد ويشد . إن كان لا يمكن جمع شفتي الجرح لعظمته ، فينبغي أن يخاط في موضع ، أو موضعين أو ثلاثة .

إن بططت جرحاً [ شققته ] ، فينبغي أن تبطه في أسفل موضع فيه حيث لا تحتبس المادة ولكي تتصب بسهولة ، وتجعل الشد من فوق أقوى ومن أسفل أخف .

احم العليل وخفف طعامه ، وإذا كان الجرح قريبا من مفصل ، أو موضع فيه عروق كثيرة أو عظم ، أو وتر ، فبادر ببطه لكي لا تفسد المادة العظمية [ العظم ] .

متى كان الجرح في مكان لحيم ، فدعه حتى يستحكم نضجه ، ومتى وضعت على الجرح مرهما وأحماه وحمّره ، فعالجه بمرهم أبرد ، ومتى أجده وبيّضه ، فعالجه بمرهم أسخن ، واجعل البط نحو طول البدن<sup>١٢٢١</sup> .

<sup>١٢٢٠</sup> - ابن قاضي شهبة : تاريخ ابن قاضي شهبة ، م ٣ ، ج ٢ ، ص ٦٣ .

- ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٦٣٦ .

<sup>١٢٢١</sup> - الأقسراي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٥٩٠ .

## الفصل السادس .

فن ادارة عمليات الحصار :

- ١- حصار القلاع وأهم التطورات التي حصلت عليها
- ٢- معركة تحرير صغد من الفرنجة
- ٣- التعبئة في العصر المملوكي الأول
- ٤ - القيادة والسيطرة على الجيوش في التكتيك العسكري

## فن ادارة عمليات الحصار :

### ١ - حصار القلاع وأهم التطورات التي حصلت عليها :

أما عن التكتيك المستخدم ضد القوات الصليبية ، فهو غيره مع المغول ، فقوات المغول هاجمت ، وقوات المماليك هاجمت ، ودافعت في الوقت نفسه [ الهجوم على عدو مهاجم يسمى هذه الأيام بالمعركة التصادمية ] ، وحققت بهذا النوع من أنواع القتال نتائج أبهرت الجميع بما فيهم المغول أنفسهم الذين أدركوا عدم قدرتهم على شن هجمات نوعية قوية ضد المماليك ، ولكن مع الصليبيين اختلف الأمر لأسباب منها : أصبح وضع الدويلات الصليبية في الشرق ضعيفاً بعد أن خسروا الكثير من القوى والوسائط ، ولم يعد لدى أوروبا القدرة على إرسال حملات جديدة بسبب انشغالها بأمورها الداخلية . كل ذلك رتب أمور كثيرة على أطراف الصراع في المنطقة ، ومن هذه الأمور : أنّ الصليبيين اعتمدوا على إستراتيجية الدفاع والتحصن في المدن المسورة والحصون والقلاع ، لما تمتلكه تلك التحصينات من وسائط وقاية وحماية ، حيث كان لها ثلاث وحدات دفاعية رئيسية هي : الدفاعات الخارجية وهي عبارة عن الأسوار المحيطة ، والأبراج والحصن المركزي<sup>١٢٢٢</sup> ، لذلك اعتنى الصليبيون في بنائها والإعتماد عليها ، حيث قيل : إنّ ما بني من قلاع وحصون في زمن الحروب الصليبية بلغ من ضخامة العدد ما لم يبلغه من قبل سواء في العصر الروماني أو البيزنطي أو خلال الحكم العربي للشام<sup>١٢٢٣</sup> . وقد صمموا قلاعهم لمقاومة هجوم مسلح كبير ، وحصار قد تطول مدته<sup>١٢٢٤</sup> . واختاروا بعناية فائقة الدقة مواقع تلك القلاع والحصون أخذين بعين الاعتبار عدداً كبيراً من المسائل منها أن يكون المكان حاكماً ومسيطرًا على الطرق والممرات ، فقد بنيت القلاع في المناطق الجبلية عند الممرات التي تربط مناطق الساحل مع الداخل وفي المناطق الأخرى بنيت القلاع بحيث تكون قادرة على الكشف ولمسافات بعيدة ، ومثال ذلك بنيت قلعة الصبيبية في جنوب جبل الشيخ لكشف أي تقدم من جهة دمشق ، وهياً موقع حصن الكرك السيطرة على الطرق الوحيدة السالكة الممتدة من مصر وغربي شبه الجزيرة العربية إلى بلاد الشام<sup>١٢٢٥</sup> . بينما كانت إستراتيجية المماليك تجاه الصليبيين تعتمد على الهجوم والحصار لاقتلاع بقاياهم من المنطقة العربية . هذه الأمور وغيرها رتب على الجيش المملوكي إتباع أساليب تكتيكية تتناسب مع تطور الفكر الذي أبدع تلك القلاع والحصون بل ويجب أن يتفوق عليه ولا سيما إذا أدركنا أن ذلك الفكر الإبداعي لم يتوقف عند حد معين ، بل كان دائم التوجه حاضراً للاستجابة على أي تحد عن طريق :

أأعمل على معرفة نوعية الأسلحة المعادية ، وقدرتها ، وأمديتها ، وتأثيرها ، ومن أجل ذلك عملوا على إبداع أساليب وطرق لمقاومة تلك الأسلحة ، وتقنياتها ، وذلك بالتخلي عن بعض الأشكال النمطية المعروفة ، فعلى سبيل المثال عندما أعيد بناء قلعة صغد ( وقد أقيمت في منتصف الطريق بين مدينتي دمشق ، وعكا في الجليل على قمة محاطة بالجبال ،

<sup>١٢٢٢</sup> - براور ( يوشع ) : عالم الصليبيين ، تر قاسم عبده قاسم ومحمد خليفه حسن ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ط١ ، القاهرة ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م ، ص١٥٢ .

<sup>١٢٢٣</sup> - زكي ( عبد الرحمن ) : القلاع في الحروب الصليبية ، المجلة التاريخية المصرية ، م١٥ ، سنة ١٩٦٩م ، ص١٩ . براور ( يوشع ) : الاستيطان الصليبي في فلسطين - مملكة بيت المقدس اللاتينية ، تر عبد الحافظ البنا ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ط١ ، القاهرة ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م ، ص٣٣٩ . حسين : موسوعة تاريخ مصر ، ص٦٩٧ .

<sup>١٢٢٤</sup> - كندي : القلاع الصليبية ، ج٥٢ ، ص١٣٨ .  
<sup>١٢٢٥</sup> - الحويري : الأوضاع الحضارية ، ص١٨٣ .

والهضاب ، وبجروف ، ومنحدرات شديدة . ) كانت أهمية الموقع هو الدافع الأول لإعادة البناء ، فهي من معظم الاتجاهات لا يمكن الوصول إليها ، واستجابة لأسلحة الحصار المملوكية التي تطورت باستمرار تقرر بناء مجموعة من الأسوار الضخمة والعالية الارتفاع [ السور الداخلي ارتفاعه ٤٤ م وسماكة جدرانه ٣,٣ م عند الرأس أما السور الخارجي ، فارفعه ٢٢ م ] ، وحفر خندق بجانب السور الخارجي ، كما حفرت مجموعة من الأنفاق تحت الأرض تصل بين السور الخارجي وبين الخندق الداخلي ، كما عملت غرف تحت الأرض حول القلعة ، وأنشأت كوى لرمي القسي العقارة للدفاع عن الخنادق ، والأشياء القريبة والبعيدة ، والموجودة دون أية وسائل حماية أخرى ، كما بنيت سبعة أبراج عالية (( ارتفاع البرج ٤, ٤٨ ، وعرضه ٢٢ م ، وسماكة جدرانه في الذروة ٤, ٤ م ))<sup>١٢٢٦</sup> .

ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل تعداه إلى طريقة البناء ، ونوع الحجارة ، وبنائها بطريقة تقاوم أساليب النقب ، واللغم استجابة لتحديات الحصار المفروضة ، وعلى

سبيل المثال عندما بنيت قلعة قيسارية

نقلت إليها أعمدة الصوان وبنيت بشكل متصلب قال ابن عبد الظاهر : (( ولم ير أحسن منها عمارة ، ولا أمنع ، ولا أرفع لأن البحر المالح حاف بها ، وجائز في خنادقها والنقوب لا تعمل فيها بسبب وجود الأعمدة الصوان المصلبة في بنائها ، حتى إذا علقت لاتقع ))<sup>١٢٢٧</sup> .

ب - ضرورة ملاحظة التطورات التي حصلت على أسلحة العدو ، وتقنياتها ، والعمل على إيجاد الحلول المناسبة لتلك التطورات لتلافي أخطارها ، وهكذا ، وكانّ العملية هي محاكاة بين الهجوم ، والدفاع ، بحيث عندما تتطور أدوات الحصار للتغلب على العوائق والموانع لفتح الحصون ، والقلاع يكون القادة ، والمهندسون ، والبنائون في حالة استنفار دائم للرد على التحدي القائم باستمرار ، وهكذا تكون الاستجابة ليعود ويقابلها تحدٍ جديد بين تطوير القلاع والحصون ، وأدوات حصارها ، وكأنه قدراً مقدوراً. هذه الإشكالية كيف تعاملت معها الدولة المملوكية الأولى ؟

تعامل القادة في الدولة المملوكية الأولى مع هذه الإشكالية بطريقة علمية غاية في الدقة والموضوعية ، فعملوا باتجاهين :

الأول : الاهتمام بزيادة المهارة الاحترافية عند عناصر الجيش المملوكي ، وذلك من خلال التدريب المستمر ، وإيجاد أفضل الطرق ، والأساليب لتبقى العملية التدريبية تواكب التطور التقني الذي حصل على السلاح ، والعتاد ، وأدوات الحصار و الذي سيحصل أيضاً في المستقبل

الثاني : العمل على زيادة الفعالية لأدوات الحصار عبر تطوير تقنياتها وأدواتها لتواكب التطور الحاصل على القلاع والحصون ، والأدوات ، والأسلحة المدافعة عنها . قال الرشيدى عندما

<sup>١٢٢٦</sup> - كندي : القلاع الصليبية ، ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

<sup>١٢٢٧</sup> - ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

تحدثت عن كيفية حصار القلاع والحصون: (( ... وعليه أن يعد من أصناف المقاتلة والصناع كل ما يحتاج إليه من الحديد والخشب ونحوها وصانع كل آلة تتعلق بالحرب ، ويأخذ الصناع بعمل الآلات والسلاح ))<sup>١٢٢٨</sup> . وفي هذا دلالة أكيدة على أن استجابة المماليك - تطوير تقنيات الهجوم - يجب أن تكون حاضرة في الزمان والمكان ، ومن أجل أن يتحقق ذلك يجب أن يكون ذوي الخبرة والمهارة في صناعة السلاح وأدوات الحصار مع القوات التي تحاصر القلعة أو الحصن لحل أية مسألة مستجدة .

أسست تقنيات الحصار في الدولة المملوكية الأولى على عدة أمور منها : أن يكون الحصار محكما بحيث لا يستطيع من في القلعة أو الحصن أن يخرج منه ، أو أن يدخل إليه أحد ، أو أن يستطيعوا أن يرسلوا بالصوت أو بالإشارة أية رسائل إلى الخارج<sup>١٢٢٩</sup> . وان يكون القائد وجنوده على معرفة أكيدة بالحصن ، والمواقع الصعبة والسهلة والممتعة والممكنة ومواضع المخارج والمغائر والجسور والقناطر التي يمكن أن يُعبر منها إلى ما يختار من أماكن الحصن<sup>١٢٣٠</sup> . لأن ذلك يتعلق بحفر الأنفاق تحت الأسوار ، ولغمها وكانت عملية اللغم فعالة جداً في بداية العصر المملوكي لكنها تراجعت لأعدة أسباب منها : - أنها تحتاج إلى أعداد كبيرة من الاختصاصيين باللغم ، فقد جلب السلطان قلاوون ألف وخمسمائة نقابا وزراقا عندما أراد مهاجمة قلعة طرابلس في سنة ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م<sup>١٢٣١</sup> كما لا يمكن أن تهاجم القلاع وفق هذه الطريقة ، فبعضها بني على صخور قاسية ، وعلى سبيل المثال قلعة الكرك بنيت على أرض صخرية يصعب الحفر فيها للوصول إليها ولغمها ، والأمر الأخير أن الصليبيين كانوا قد طوروا تقنيات البناء في قلاعهم وحصونهم فعلى سبيل المثال قلعة قيسارية عندما أُعيد بناءها وضعت أعمدة كلاسيكية بشكل أفقي في داخل الأسوار<sup>١٢٣٢</sup> لذلك صار من الصعب لغمها وباختصار كان اللغم فعالاً إذا ما كانت الظروف مناسبة . بينما يمكن استخدام آلات الحصار الأخرى مثل البرج المتحرك الذي كان يتكون من عدة طوابق ليصل ارتفاعه إلى مستوى أكبر من ارتفاع الاستحكامات المحاصرة ، ويتكون من سلسلة من المنصات يقف عليها الهاجمون ويجهز الطابق العلوي بمنجنقيات صغيرة ، وجسر يمكن خفضه إلى مستوى الشرفات التي يقف عليها المدافعون<sup>١٢٣٣</sup> ، لكن مثل تلك الأبراج هي الأخرى لها مساوئها فهي من ناحية باهضة التكاليف ، ويحتاج نصبها ، وإنشاءها إلى أعداد كبيرة من النجارين والفنيين والمهندسين الخبراء ، إضافة إلى أن نقلها إلى جانب أسوار القلعة أو الحصن محفوفاً بأنواع المخاطر ، وفي الوقت نفسه هو عمل شاق ومرهق . ومن الأسلحة المستخدمة أيضا في الحصار المنجنقيات ، والأكباش وهي ذات فاعلية كبيرة في دك الأسوار لكنها تشترك مع الأبراج المتحركة في صعوبة النقل وإيصالها إلى مقربة من الأسوار في مثل تلك الأوضاع وقد برهن المماليك أنهم كانوا في هذين المجالين متفوقين كثيراً على أعدائهم الصليبيين ففي حصار صغد سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م أمر بيبرس البندقداري النقابين بحفر عدداً من الأنفاق ، قال ابن عبد الظاهر (( .. لكن الفرنجة خاسفت المسلمون في النقوب ، فوقع خسفهم فوق خسف الأمير سيف الدين قلاوون

<sup>١٢٢٨</sup> - الرشدي : تفريغ الكروب في تدبير الحروب ، ص ١١٣ .

<sup>١٢٢٩</sup> - الرشدي : ص ١١٢ .

<sup>١٢٣٠</sup> - الرشدي : الصفحة نفسها .

<sup>١٢٣١</sup> - ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ٢٦٨ .

<sup>١٢٣٢</sup> - كندي : القلاع الصليبية ، ص ١٥١ .

<sup>١٢٣٣</sup> - براور : عالم الصليبيين ، ص ١٥٤ .

الألفي ، فقاتلهم بالأيدي ، وعمل بعد ذلك جسراً على باب القلعة يُتوصل منه إليها ))<sup>١٢٣٤</sup> .  
لكن المثال الأوضح على استخدام النقاين ، ولغم الأسوار كان سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧١م أثناء  
حصار حصن الأكراد ، حيث تمكن النقاين المسلمون من هدم واحد من الأبراج الضخمة التي  
كانت بين خطي الدفاع الداخلي ، والخارجي

كذلك إن السقوط النهائي لقلعة المرقب سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م قد تحقق بواسطة اللغم ، حيث  
حفرت عدة أنفاق تحت القلعة بإشراف السلطان قلاوون ، وهكذا يتضح أن اللغم قد كان فعالاً  
جداً في بعض المناسبات لكن في بعضها الآخر أصبح غير قادر على إعطاء النتائج المطلوبة  
بسبب التطورات الكبيرة التي أجريت على خطوط الدفاع ، ومنها الأسوار ، ومنها طبيعة بعض  
القلع التي بنيت على كتل صخرية يصعب الحفر فيها ، وعلى سبيل المثال إن قلعة قيسارية من  
غير الممكن لغمها ، لأنّ القديس لويس عندما أعاد بنائها وضع أعمدة كلاسيكية بشكل أفقي في  
داخل الأسوار [ يمكن ملاحظة تلك التقنية أيضاً في أسوار قلعة جبيل التي ما زالت قائمة إلى  
الآن ] ، وأيضاً بسبب موقعها على البحر الذي كان يفيض حول الخندق ، وبالتالي إذا ما  
حفرت أية أنفاق ستطوف بالمياه .

وهنا لا بدّ من تطوير أدوات الحصار ووسائله ، ومن ضمنها الأنفاق التي صارت تحفر قصيرة  
جداً، وحتى لا تكشف تلك الأعمال ، وتدمر فوراً من الدفاع صار لا بدّ من تغطيتها بأعمال  
أخرى كالرمي بالمنجنيق ، والرمي بالسهم إلى غير ذلك وفي هذا المجال قال الرشيد الذي  
عايش العصر المملوكي : (( .. وإذا وقع الحصار فلا يرفع عنهم رمي المجانيق ، ولا يفتر  
عنها ساعة واحدة من ليل أو نهار ))<sup>١٢٣٥</sup> .

ولكن تلك الأسلحة معرضة هي الأخرى للرميات من قبل المدافعين عن القلاع والحصون  
لذلك لا بد من إجراء التطوير لها سواء من حيث الأمدية ، أو من حيث القدرة على التدمير  
وبناء على ذلك فقد جرى تطوير نسخة جديدة من آلة الذراع المتحرك للمجانيق ، واستخدمت  
أوزان معاكسة ثقيلة أكبر قدرة من الطاقة البشرية لجذب الذراع القصير نحو الأسفل<sup>١٢٣٦</sup> وفي  
البداية كان الوزن المعاكس عبارة عن شبكة مليئة بالحجارة لكن في أيام الدولة المملوكية الأولى  
صارت عبارة عن صندوق خشبي مليء بالرمال ، أو الصخور ، وبالتالي أصبحت إمكانية نقله  
أكثر سهولة ، وصار استخدامه لا يتطلب كما كان يحتاج إلى عدد كبير من المستخدمين ،  
فأصبح يحتاج إلى عدد أقل ، وصار يمكن ضبطها ( المنجنيق ) في التسديد نحو الهدف<sup>١٢٣٧</sup> من  
خلال آلية خاصة ذكرها أرنيجا الزردكاش في كتابه الأنيق في المنجنيق بالإضافة إلى ذلك فإن  
وزن ذلك الصندوق يتعلق بمسافة الرمي فكلما زاد وزن الصندوق كلما زادت مسافة الرمي  
وكلما نقص وزنه قلت مسافة الرمي<sup>١٢٣٨</sup> . وقال كندي هيوغ عن مسافة رمي المنجنيق أنها

<sup>١٢٣٤</sup> - ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٥٩ .

<sup>١٢٣٥</sup> - الرشيد : تفريخ الكروب في تدبير الحروب ، ص ١١٣ .

<sup>١٢٣٦</sup> - ابن أرنيجا : الأنيق في المنجنيق ، ص ٤٤

<sup>١٢٣٧</sup> - ابن أرنيجا : ص ١٣٧ .

<sup>١٢٣٨</sup> - ابن أرنيجا : ص ٤٤

أصبحت مرعبة وقوتها هائلة ، حيث وصل وزن القذيفة من ٥٠- ٣٠٠ كغ ووصل مدى رميها إلى ٢٠٠م وهناك أدلة واضحة على ذلك<sup>١٢٣٩</sup> .

وهذا أدى بشكل أكيد إلى اختلال بين الدفاع والهجوم الذي ظل مستمراً طيلة عصر هذه الحروب ، وكان دائماً يتمثل بالتحدي من قبل أحد الأطراف ويستجاب لذلك التحدي من الطرف الآخر الأمر الذي يؤدي في كل مرة إلى إتباع تكتيك جديد كي يتحقق الهدف المرسوم فتكون الإضافات الجديدة سواء أكانت في الدفاع أو في الهجوم سطر إضافي في تقدم التقنية والعلوم العسكرية .

لذلك اهتم صناع الأسلحة وخاصة المهتمين بالمنجنيق بتطويره بما يتلاءم مع تطور الحصون والقلاع ، أو بما يتلاءم مع تطور الأسلحة المعادية سواء من حيث التقنية أو زيادة الفاعلية .

وفي الوقت نفسه استمر إبداع مهندسي الحصون والقلاع في تصميم أنواع الإعاقة المختلفة فعلى سبيل المثال عندما احتاجت الجيوش المملوكية إلى مناطق مستوية قريبة من الأسوار لنصب المنجنيقات عليها لأن الصليبيين كانوا قد بنوا قلاعهم على جروف صخرية عالية يصعب الوصول إليها لذلك اضطر المهندسون المماليك إلى تطوير مدى المنجنيق ، وعندما حُلت تلك المسألة اضطرّ الصليبيون مرة أخرى إلى العمل لتطوير أنواع الإعاقة ، فطوروا آلات رميهم وقسيهم ، وأوجدوا أماكن دفاعية للرماة وفتحات رمي إضافة إلى زيادة عدد الأسوار ، وحفر الخنادق ، وبرك المياه التي كان لها هدفا مزدوجا تمثل الأول في تأمين الإمدادات بالمياه في الأوضاع العادية ، والثاني في إيجاد خط دفاعي إضافي في أوقات الطوارئ والحروب .

وأظهر صراع الملك الظاهر بيبرس من أجل الاستيلاء على قلعة أرسوف في سنة ٦٣٣هـ / ١٢٦٥م<sup>١٢٤٠</sup> كم كان جدياً ، ومهماً طم الخندق المحفور حول القلعة قبل القيام بالهجوم<sup>١٢٤١</sup> ] حتى لا يُملأ بالمياه ويصبح خط دفاعي إضافي يحتمي خلفه المدافعون عن الأسوار هذا من جهة ، ومن جهة أخرى حتى يسهل مرور جنوده النقبون ، والحجارون ، والنجارون والمهندسون إلى الأسوار ، أو بالقرب منها ] .

كما جرت محاولات في بعض الأماكن الأخرى لاستخدام الأعمال الترابية التي أقيمت أمام وبالقرب من بعض القلاع والحصون لتكون خطوط دفاعية إضافية ، وعلى سبيل المثال في قلعة الشقيف ، وقلعة الفرسان حيث جرى بناء دفاعات خارجية منفصلة على الرابية المقابلة لكل منهما ، ويبدو أنّ تلك الدفاعات بُنيت من حجارة ، وطين ، وليس من حجارة منحوتة لكن وفي كلا الحالتين تبين أن ذلك العمل دون فاعلية ، وليس له قيمة ليس بسبب العمل نفسه إنما بسبب سوء التقدير ، فقلة عدد الطاقة البشرية جعلت ذلك الإجراء دون حماية وبالتالي لا قيمة له على الإطلاق ! بل استطاع بيبرس أن يستخدم تلك الدفاعات كمصاطب من أجل آلات الحصار التي كانت من المفترض أن تبقى بعيدة على مسافة آمنة من أسلحة العدو<sup>١٢٤٢</sup> .

<sup>١٢٣٩</sup> - كندي : القلاع الصليبية ، ص ١٥٤ .

<sup>١٢٤٠</sup> - ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١٠٧ .

<sup>١٢٤١</sup> - كندي : القلاع الصليبية ، ص ١٥٨ .

<sup>١٢٤٢</sup> - كندي : ص ١٦٢ .



لذلك كان لا بدّ من أن يركز مهندسو الحصون ، والقلاع على موضوع تعدد الأسوار ، فقد دلت الأوصاف الأدبية ، وفتات الأدلة الأثرية على أنّ قلعة صغد امتلكت سورين مستديرين وامتلكت المرقب خطأ خارجاً من الأسوار أحاطت بجميع قمة الجرف ، وقلعة داخلية عند النهاية ، وقد كان للأسوار الخارجية أهمية خاصّة ، حيث مثلت خطوط الدفاع الأساسية التي قاد سقوطها إلى استسلام القلاع والحصون التي خلفها ، فقلعة صغد التي اجتهد الظاهر بيبرس في نقب أسوارها وحرّض عساكره وعمل على تأجيج الروح الهجومية باتباعه أسلوب الترغيب [ وهو أسلوب مازال مستخدماً حتى أيامنا هذه باعطاء الوعود بالعلوات والرتب والأوسمة والنياشين والمكافآت العينية ] ، حيث (( دفع الزراقون النفط ، ووعد السلطان الحجارين أنه من أخذ أول حجر كان له مئة دينار ))<sup>١٢٤٣</sup> ، وما أن سقطت الأسوار حتى طلب أهل القلعة الأمان لأنفسهم ، وحدث مثل ذلك من قبل في أرسوف<sup>١٢٤٤</sup> ، ومن بعد في قلعة حصن الفرسان<sup>١٢٤٥</sup>

لذلك كان من الضروري التوجه إلى حماية تلك الأسوار لكي تحقق الغاية المرجوة منها وبالتالي لا بدّ من التفكير بطرق تجعل أسلحة الحصار ( المنجنيق ، والعرادات ، ورماة النشاب ، و النفايين ... الخ ) أبعد مسافة ممكنة لضمان عدم مقدرتها في التأثير على الأسوار وكان هناك عدة طرق لانجاز ذلك العمل ، ومن تلك الطرق :

١ - بناء أبراج تمكن من تنفيذ رميات جانبية على طول جوانب الأسوار يقوم بها الرماة من الأسلحة المتنوعة التي يجب أن تتواجد داخل البرج .

٢ - إحكام دفاعات أعلى كل سور بعمل شرافات للرمية داخل أسوار الستارة ، وبصنع مصاطب للمناجنيق في أعلى الأسوار .

٣- تطوير أممية رمي الأسلحة المدافعة وخاصة المنجنيق والقسي بغية التأثير على أسلحة الحصار ودفعها إلى الخلق ما أمكن .

وفي الحقيقة إن هذه الأفكار ليست أفكاراً جديدة ، لكن كان لا بد من العمل ، أو البناء على ما هو موجود وتطويره ، ليواكب التطور الكبير لأدوات الحصار ، ولكي يصبح الدفاع فعالاً وأكثر صموداً ، وحيوية ، ففكرة بناء الأبراج كانت موجودة ، ولكنها أصبحت غير قادرة على الصمود أمام أدوات الهجوم التي تطورت بشكل ملحوظ . لذلك أصبح من الضروري تطوير تلك الأبراج التي لم تكن أكثر من دعائم في السور نفسه إلى نموذج أبراج بارزة على درجة من التميز شكلها مربع مع غرف داخلية وطلاقات سهام على الجوانب ، وفي الواجهة الأمامية ومثل هذا النوع من الأبراج يمكن رؤيته في قلاع ( الكرك ، وصهيون ، والعريمة ، وبرزية ) وبعد مدة من الزمن ، ومن خلال المحاكاة بين الهجوم والدفاع ظهرت بعض العيوب والتحديات في العمل الجديد نفسه أهمها تحديان :

الأول : هو أنّ الزوايا البارزة للأبراج أكثر عرضة للنقب ، واللغم .

<sup>١٢٤٣</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٤ . ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١١٧ .

<sup>١٢٤٤</sup> - المقرئزي : ج ٢ ، ص ٢٠ . ابن أبيك الداودار : ج ٨ ، ص ١٠٧ .

<sup>١٢٤٥</sup> - المقرئزي : ج ٢ ، ص ٦٩ . ابن أبيك الداودار : ج ٨ ، ص ١٥٢ .

الثاني : إنّ الأبراج المربعة توفر مساحة واسعة من الأرض الميئة أمام البرج [ الميئة بمعنى التي لا يمكن الرمي عليها من قبل القوات المدافعة وبالتالي لا يمكن حمايتها بالأسلحة الموجودة على السور ] ، وهي التي تقع مباشرة أمام الوجه الخارجي ، وهي مساحة كان من غير الممكن تغطيتها برمايات النبال المتواجدين على سور الستارة ، لذلك فهي أكثر عرضة للتلغيم كما جاء في النقطة الأولى ، كما أنّ هذه المساحة الميئة تسمح للمهاجم بنصب أدوات حصاره دون التعرض لأخطار رمايات دفاعات القلعة .

أمام هذه العيوب والتحديات كان لابدّ من الاستجابة للتحدي الجديد من قبل القادة والمهندسين المختصين وصولاً إلى حلول ناجعة تقلل من الخسائر ، وتؤدي الغرض المطلوب في إحباط الهجوم المعادي ، وخلق الظروف المناسبة لسحقه . وهنا ظهرت مجموعة من الأفكار منها :

الفكرة الأولى : تقليل واجهة البرج مما يقلل مساحة الأرض الميئة أمامه ، وبالتالي يحرم القوات المهاجمة من الاستفادة من الميزات التي سلف الحديث عنها ، وبالتالي استخدمت الأبراج المستطيلة ، وفي هذه الحالة ازداد بروز البرج إلى الأمام وسمح بزيادة المساحة المغطاة برمايات المنجنيق والسهم التي سترمي على القوات المهاجمة لكن في هذا المثال تزداد الزوايا الضعيفة القابلة للتلغيم ، ومن الممكن رؤية مثل هذه الأبراج في قلعة عثليت وقلعة طرطوس .

الفكرة الثانية : هي بناء الأبراج المستديرة التي يندم فيها وجود زوايا ضعيفة قابلة للتلغيم دون وجود أخطار ، وانعدمت المساحة الميئة أمام البرج تقريباً ، وبالتالي أصبح من الممكن تغطيتها بسهولة أكبر من قبل الرماة المتواجدين على الأسوار .

وفكرة الأبراج المستديرة ليست إبداعاً حديثاً بل قديم ، وربما عرف قبل الحروب الصليبية بكثير لكن بعض القلاع التي بنيت في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي على سبيل المثال بنيت أبراجها مربعة وليست مستطيلة أو مستديرة مثل : قلعة حصن الفرسان وكان فيها ثلاثة أبراج مستديرة كان كل واحد منها عبارة عن قلعة صغيرة ، وكانت الأبراج على مسافات متقاربة مما مكن جناح واحد من الدفاع عن القلعة<sup>١٢٤٦</sup> ، وقلعة المرقب<sup>١٢٤٧</sup> ولكن ونتيجة الحاجة إلى دفاع قوي يواكب الهجوم القوي ، ويصمد أمامه تم التعديل إلى الأبراج المستديرة<sup>١٢٤٨</sup> .

الطريقة الثانية : هي إحكام دفاعات رؤوس الأسوار .

كان المبدأ الأساسي في ذلك هو وضع أبنية على أعلى السور تكون بارزة تمكّن المدافعين من تغطية قواعد السور من أي اعتداء من دون تعريض أنفسهم إلى رمايات العدو ، وجرى تطوير ثلاثة أنماط من تلك الدفاعات هي :

١- أسيجة خشبية .

٢- متاريس حجرية .

<sup>١٢٤٦</sup> - سميل : فن الحرب ، ص ٢٢٤ .

<sup>١٢٤٧</sup> - مقامي ( نبيلة ابراهيم ) : فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام ، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي ، القاهرة

١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م ، ص ٧٠-٧٧ .

<sup>١٢٤٨</sup> - كندي : القلاع الصليبية ، ص ١٧٢ .

## ج - شرافات مغطاة .

أما الأسيجة الخشبية ، فقد استخدمت في ذلك العصر بشكل كبير ، لكن وكونها أكثر عرضة للحريق والتلف من المتاريس الحجرية ، فمن الصعوبة التعرف على نماذج منها كما كانت في العصر المملوكي . بينما الأمثلة على المتاريس الحجرية كثيرة منها على سبيل المثال ما هو موجود فوق الأبواب في قلعة صهيون ، وبرزية ، والشقيف ، وفي أسوار قلعة عتليت وقلعة صغد<sup>١٢٤٩</sup> ، وفي قلعة حصن الأكراد يمكن تتبع التطور الحقيقي لمتاريس الكوى الحجرية ، حيث حل محل فتحات المتاريس شرافات متاريس مع طنف امتدت على طول رأس السور . ويلاحظ ذلك أيضاً على طول السور الجنوبي ، وفوق الباب الجانبي في السور الشمالي صناديق واسعة موزعة بانتظام لمتاريس الكوى كل واحد منها قائم فوق ثلاث طنف بارزة وله فتحتين في الأرضية فوق قاعدة السور وطلاقة نبال في الوجه ، وتطور الأمر ليحل بدلاً من المتاريس شرافات أكثر مساحة حمت رؤوس الأسوار ، ويمكن ملاحظة ذلك في قلعة صهيون في منطقة اللاذقية ، ويمكن رؤيته أيضاً في قلعة يحمور في طرطوس ، وفي قلعة عتليت في فلسطين ، والمرقب في بانياس الساحل .

ودعمت الدفاعات الجديدة لرؤوس الأسوار بدفاعات أخرى من داخل الأسوار ، فقد حل محل سور الستارة البسيط سور بتصاميم أكثر دقة ، وأصبح منصة دفاعية ، وكان الهدف من كل ذلك تجهيز رميات خارجية مباشرة ، أو إلى قرب السور من مركز مغطى<sup>١٢٥٠</sup> ، وقد استخدمت تلك التقنيات في الكثير من الأماكن ، فاستخدمت في قلعة ياقا على الرغم من حقيقة أنهم كانوا في حالة صلح مع الظاهر بيبرس ، وامتلكت قلعة صغد مجموعة لم يكن عددها أقل من ثلاثمائة منجنيقي لتشغيل آلات الحصار ، وصممت القلعة في صغد بشكل تكون فيه آلات المدافع غير مرئية من خارج القلعة .

وفي أثناء حصار قلعة الشقيف سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٨م قتل ثلاثة رجال كانوا إلى جانب السلطان الظاهر بيبرس برماية حجر منجنيق من قبل المدافعين<sup>١٢٥١</sup> ، وفي حصار حصن عكار سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧١م ألحقت آلات الفرنجة ضرراً كبيراً بالمهاجمين<sup>١٢٥٢</sup> ، وحدث سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م أثناء حصار قلعة المرقب تبادل للرميات بين آلات المهاجمين ، وآلات المدافعين<sup>١٢٥٣</sup> وهكذا كانت الحاجة للدفاع عن الحصون والقلاع على رأس اهتمامات القادة والمهندسين المختصين ، فاستجابوا لكل التحديات ، وقاموا بتصميم الدفاعات ، وعدّلوا على ما هو قائم على ضوء التجربة والحاجة ، فكان لكل سمة مقصدها ولكل تحد استجابة ، ولكل إجراء غاية ، لكن دائماً في لعبة الحرب لا بد من رابع في النهاية .

وفي هذا الإطار سيتم البحث في معركة تحرير صغد من الفرنجة سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٦م كنموذج لمعارك الحصار التي خاضها الجيش المملوكي ضد القوات الصليبية .

<sup>١٢٤٩</sup> - كندي : القلاع الصليبية ، ص ١٧٤ .

<sup>١٢٥٠</sup> - كندي : ص ١٧٦ .

<sup>١٢٥١</sup> - ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١٢٥ .

<sup>١٢٥٢</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٠ . ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١٥٥ .

<sup>١٢٥٣</sup> - المقرئزي : ج ٢ ، ص ١٨٩ . ابن أبيك : ج ٨ ، ص ٢٦٩ .

## ٢ - معركة تحرير صفد من الفرنجة سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م :

لماذا صفد ؟ الإجابة عن هذا السؤال مهم جدا لأمرين : الأول هو نموذج لمعارك الحصار الثاني : يمكن استنتاجه مما قاله ابن عبد الظاهر الذي تحدث عن أهمية صفد بالنسبة للمسلمين الذين كانوا يتطلعون إلى فتحها مهما كانت التضحية لما لها من فوائد على من تكون بيده ، وأضرار في الوقت ذاته على من يخسرها .

قال ابن عبد الظاهر : (( اهتم السلطان الظاهر ببيبرس بأمر صفد لأنها الغصة في حلق الشام والشجا في صدر الإسلام ))<sup>١٢٥٤</sup> . ومن خلال الوقوف عند هذا النص ودراسته لا يمكن الوصول إلى معرفة أن صفد غصة في حلق الشام إلا من خلال دراسة موقع صفد الجغرافي الذي يعد مسرح العمليات في هذه المعركة .

### الموقع الجغرافي لصفد :

تقع مدينة صفد فوق تلة تلتصق بالسفح الجنوبي الغربي لجبل كنعان في الجليل الأعلى وترتفع ٨٣٨ م عن سطح البحر<sup>١٢٥٥</sup> ، وهي أعلى منطقة مأهولة بالسكان في فلسطين<sup>١٢٥٦</sup> وإلى الشمال منها جبل الجرمق حيث تبلغ مرتفعات الجليل ذروتها في الارتفاع<sup>١٢٥٧</sup> ، وتشرف صفد من الجهة الجنوبية الشرقية على بحيرة طبريا ، وتطل من الشرق على أراضي الجولان وهوران في سوريا<sup>١٢٥٨</sup> ، و صفد كغيرها من المدن الفلسطينية تعود بتاريخها إلى الكنعانيين وعرفت بالعصر الروماني باسم **Seppht** كقلعة حصينة<sup>١٢٥٩</sup> لكنها اندثرت فيما بعد وطواها الإهمال ولم يرد لها ذكر في المؤلفات الإسلامية الأولى التاريخية منها والجغرافية<sup>١٢٦٠</sup> ، ويبدو أن أول إشارة لذكر صفد في المصادر العربية تعود إلى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي حين دفن فيها أحد شيوخ الصوفية<sup>١٢٦١</sup> ، وقد اعتمد ابن العماد في ترجمته على ما ذكره الذهبي في كتاب العبر في خبر من غبر ، وبمقارنة ما ذكره ابن العماد مع ما ذكره الذهبي وهو الأصل ، فإننا لا نجد ذكر لصفد ، فالذهبي قال : (( في سنة ٣٦٩ هـ / ٩٨٠ م توفي أحمد أبو عبد الله الروذباري نزيل صور ))<sup>١٢٦٢</sup> ، ولم يذكر أين توفي ، وأين دفن . إزاء هذا الاختلاف بين ما ذكره ابن العماد وما ذكره الذهبي وهو الأصل ، فإننا نستبعد ما جاء عند ابن العماد لأنه ربما خلط بين صور وبين صفد في ضبط اللغة ، وقد يكون هذا الخلط قد وقع فيه بعض النساخ لاسيما وأنه في كتابة الاسمين بعض التشابه .

<sup>١٢٥٤</sup> - ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٥٤ . براور : الاستيطان الصليبي ، ص ٣٤٩ .

<sup>١٢٥٥</sup> - الدباغ ( مصطفى ) : بلادنا فلسطين ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م ، ج ٦ ، ق ٢ ، ص ٧٥ .

<sup>١٢٥٦</sup> - الدباغ : ج ٦ ، ق ٢ ، ص ٦٤ .

<sup>١٢٥٧</sup> - حتي ( فيليب ) : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، تر جورج حداد وعبد الكريم رافق ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٣٧٨ هـ .

<sup>١٢٥٨</sup> - العبادي ( محمود ) : صفد في التاريخ ، جمعية المطابع التعاونية ، عمان ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ، ص ١٢٤ .

<sup>١٢٥٩</sup> - الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ٦ ، ق ٢ ، ص ٧٦-٧٧ .

<sup>١٢٦٠</sup> - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج ٣ ، ص ١٤٦ .

<sup>١٢٦١</sup> - هو أحمد بن عطاء أبو عبد الله الزاهد شيخ الصوفية نزيل صفد شيخ الشام في وقته . أقام ببغداد ، ثم انتقل إلى صور وتوفي في قرية منوات من عمل عكا ، وحمل إلى صفد ودفن فيها . ابن العماد : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ج ٣ ، ص ٦٨ .

<sup>١٢٦٢</sup> - الذهبي ( شمس الدين محمد بن أحمد ، ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م ) : العبر في خبر من غبر ، ٥ أجزاء ، تح فؤاد سيد ، الكويت

١٣٨١ هـ / ١٩٦١ م ، ج ٢ ، ص ٣٥٠ .

وقد انقطع ذكرها بعد ذلك حتى القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي حيث عادت إلى الظهور من جديد أيام الحروب الصليبية ، ولعل أوضح إشارة عن صفد هي التي ذكرها ابن شداد في كتاب الأعلام الخطيرة حيث قال : « صفد قلعة حصينة على جبل يحتف به جبال وأودية . كانت أولا تلا ، وكان على التل قرية عامرة ، وما زالت في أيدي المسلمين إلى أن استولى عليها الفرنجة فيما استولوا عليه من البلاد الشامية ، فبناها الداوية في سنة ٤٩٥ هـ / ١٠٢١ م )<sup>١٢٦٣</sup> . بينما ياقوت الحموي لم يكن دقيقا في تحديد موقع المدينة والتعريف بها حيث ذكرها أنها مدينة في جبال عاملة المطل على حمص بالشام<sup>١٢٦٤</sup> ، ثم أجمعت مصادر الجغرافيين العرب بعده أن منشأها تلا كانت عليه قرية عامرة تحت برج اليتيم ، ثم بني مكانها قلعة حصينة سميت صفت ، ثم تحولت إلى صفد<sup>١٢٦٥</sup> ، وأسهب المؤرخون في أصل التسمية ومعناه<sup>١٢٦٦</sup> ، لكن ما يهم هو موقع صفد وتضاريسها الجبلية ، فهي على جزء من جبال الجليل التي تمتد من أطراف جبل عامل ومناخها المتوسطي كثير الأمطار الجنوبية حتى الأطراف الشمالية لمرج ابن عامر ويقسمه وادي الشاغور إلى قسمين شمالي ويدعى الجليل الأعلى وجنوبي ويدعى الجليل الأدنى<sup>١٢٦٧</sup> ، وكما سلف القول : أن صفد تقع على قمة تله ملتصقة بجبل كنعان في الجليل الأعلى وينحدر جبل كنعان نحو الغرب لتصل بجبل بيريا يرتفع ٩٥٠ م عن سطح البحر في الغرب وميرون في الجنوب الغربي وهو شديد الانحدار باتجاه الشرق والشمال الشرقي ، وهنا تكون الطرق المحتملة للوصول إلى صفد هي من الغرب والجنوب الغربي ، أو من الشمال الغربي عبر الأودية التي تتشكل من التقاء الجبال مع بعضها البعض ، فالقادم إليها من جهة الشرق عليه الالتفاف نحو الجنوب ثم الجنوب الغربي ، هذا إذا ما أضيف إلى الطبيعة الوعرة للجليل الأعلى بكامله يزيد من صعوبة الحصار العسكري لهذه المدينة للأسباب التالية :

١ - عدم وجود الكثير من الطرق التي يمكن سلوكها إلى صفد .

٢ - صعوبة نصب أسلحة الحصار في أماكن يمكن التأثير منها على القلعة ومنشأتها .

٣ - عمليات نقب الأسوار أو هدمها ، أو الصعود إليها يحتاج إلى جهود استثنائية ، وأعداد كبيرة من المهندسين والحجارين والفنيين ، لأن توقع الخسائر البشرية في مثل هذه الحالة يكون كبيرا ، ويجب أن يكون البديل مؤمنا وموجودا [ عملية الامداد والتأمين ] .

في كل الأحوال إن وعورة تضاريس منطقة صفد وتحصين قلعتها التي سيتم التحدث عنها فيما بعد تعطي أفضلية بشكل واضح للقوات المدافعة فكيف إذا أضفنا إلى ذلك أن القوات المدافعة هي من قوات النخبة في الداوية .

أما مناخ منطقة صفد ، فهو مناخ متوسطي لذا يسودها فصل ممطر يبدأ أحيانا من تشرين الأول ويستمر حتى نيسان ، وفصل آخر جاف يبدأ من أيار ويستمر حتى أيلول ، وتؤثر طبيعة

<sup>١٢٦٣</sup> - ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ج ٣ ، ص ١٤٦ .

<sup>١٢٦٤</sup> - الحموي : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٤١٢ .

<sup>١٢٦٥</sup> - ابن فضل الله العمري : مسالك الأبيصار ، ج ٣ ، ص ١٦ .

<sup>١٢٦٦</sup> - أبو الفداء : تقويم البلدان ، ص ١٢٩ .

- العثماني ( محمد بن عبد الرحيم الحسيني ، ت ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م ) : تاريخ صفد ن تح سهيل زكار ، دار التكوين ، دمشق

١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م ، ص ١٠٦ .

<sup>١٢٦٧</sup> - الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٩ .

التضاريس الجبلية لصعد على كميات الأمطار ودرجات الحرارة ، ففي الوقت الذي يهطل فيه على الساحل ما معدله ٦٢٠ ملم من المطر سنويا نجد أن السلسلة الجبلية المواجهة للرياح الغربية الآتية من البحر تنال أكثر من ١٠٠٠ ملم من المطر في السنة وأخذ هذه الكمية بالتناقص كلما اتجهنا شرقاً<sup>١٢٦٨</sup> ، ونتيجة طبيعة تضاريس المنطقة ، فإن الأمطار تتحول إلى سيول جارفة ووديان .

أما عن الحرارة والرياح ، فالحرارة معتدلة صيفا تنخفض في فصل الشتاء إلى أقل من ١٠ درجات مئوية<sup>١٢٦٩</sup> ، أما الريح ففي الغالب غربية رطبة ، وفي الربيع تهب رياح الخماسين وهي رياح حارة جافة محملة بالغبار ، ومن خلال دراسة المناخ يمكن استنتاج التالي :

١- إن منطقة صفد تكثر فيها الغابات والأعشاب التي يمكن الاستفادة منها لعلف الخيول والحيوانات الأخرى.

٢- يستفاد من الغابات في تمويه وإخفاء تحركات القوات وفي تأمين الحطب اللازم لطبخ كميات كبيرة من الطعام ، ولأمور أخرى .

٣- في فصل الشتاء من الصعوبة بمكان تنفيذ أعمال قتال ، أو حصار في هذه المنطقة .

والآن يمكن العودة للإجابة على السؤال لماذا صفد؟

سلف القول أن الإجابة على هذا السؤال ممكنة من خلال قراءة واعية لما قاله ابن عبد الظاهر وهو يتحدث عن موقع صفد بأنها غصة في حلق الشام ، وبعد هذه القراءة في موقع صفد جغرافيا صار من الممكن أن نتوقف عند بعض الاستنتاجات التي يمكن أن توضح قول ابن عبد الظاهر وهي :

٢ إن موقع صفد يسيطر على الطرق البرية بين دمشق والقاهرة ، وهي طرق البريد وطرق التجارة في الوقت نفسه ، فالطريق من دمشق – القنيطرة – جسر بنات يعقوب الذي يبعد عن صفد ١٢ كم يسيطر عليه تماما ، ومكشوف من قبل قلعة صفد حتى قبل الوصول إلى الجسر . أما الطريق القادم من دمشق إلى أربد في الأردن إلى جسر الصنبرة ( المجامع ) جنوب بحيرة طبرية إلى جنين أيضا يسيطر عليه وتستطيع قلعة صفد بمن فيها قطع ذلك الطريق وقت تشاء ، لذلك لا بد من تأمين تلك الطرق المهمة جدا لتحركات الجيش المملوكي بشكل خاص ، ولتجارة الدولة المملوكية بشكل عام ، ولا يكون ذلك إلا بالسيطرة على صفد .

٣ إن موقع صفد وقلعتها الحصينة جعلها أيضا تتحكم بقلب الجليل وبالطرق المتجهة نحو ميناء عكا الكبير وبالتالي أي تفكير باتجاه تحرك الجيش نحو تلك المناطق يتطلب السيطرة على صفد لكي يكون تحركه آمناً .

<sup>١٢٦٨</sup> - النحال ( محمد سلامه ) : جغرافية فلسطين ، ط١ ، بيروت ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م ، ص ٣٦ . أبو العينين ( حسن سيد أحمد ) : دراسات في جغرافية لبنان ، دار النهضة العربية ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، ص ١٥٢ .  
<sup>١٢٦٩</sup> - الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٣٨ .

٤ شكات قلعة صغد مع قلاع كوكب ، والشقيف ، وهونين ، وتبنين ، وغيرها من الحصون خطأ دفاعياً متكاملًا عن عاصمة مملكة القدس الثانية ، وعن الممرات التي تشكل ثغرات تنفذ منها الجيوش المهاجمة لممتلكات الصليبيين في الساحل .

٥ إن عزم السلطان الظاهر بيبرس على اجتثاث بقايا الدويلات الصليبية عن الأرض العربية الإسلامية كان يمكن أن لا يشكل واقعا ملموساً إلا إذا اتبع إستراتيجية محددة واضحة المعالم قابلة للتنفيذ على الأرض من خلال عمليات التكتيك القتالي . وقد تكون إستراتيجية الخرشوفة التي سلف الحديث عنها ( اقتلاع أوراقها واحدة تلو الأخرى للوصول إلى الثمرة الناضجة ) والثمرة هنا هي : العاصمة عكا القوية المحصنة لذلك لا بد من اجتياز خطوط الدفاع الأساسية عن هذه العاصمة والسيطرة عليها ، ومنها صغد الحصن الأقوى . لذلك بدأ السلطان الظاهر بيبرس بتهيئة الظروف السياسية والعسكرية من أجل نجاح خطته .

### تهيئة الظروف لتحرير صغد :

بدأ الظاهر بيبرس بالاهتمام بصغد ومنطقتها حين جرت مفاوضات بينه وبين الفرنجة في سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٣ م حيث طالبهم باسترجاع صغد ، والشقيف ، وما كانوا قد تسلموه أثناء الخلاف ما بين الصالح إسماعيل<sup>١٢٧٠</sup> صاحب دمشق ، والصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر حين عرض عليه الفرنجة التمسك باتفاقيات الهدنة فرفض ، وبعد ما بين لهم الأحوال التي لم يتمسكوا بها من شروط الهدنة أوضح لهم مقاصده وشروطه بقوله : « أنتم في أيام الصالح إسماعيل أخذتم صغد ، والشقيف على أنكم تنجدونه على السلطان الملك الشهيد الصالح أيوب وبالجملة أنتم أخذتم هذه البلاد من الصالح إسماعيل لإعانة مملكة الشام ، وإطاعة ملكها ونصرته ، وقد صارت مملكة الشام وغيرها لي ، وما أنا محتاج لنصرتكم ، ولا إلى نجدتكم فيجب أن تردوا ما أخذتم للإسلام بهذا الطريق ، وتفكون أسرى المسلمون جميعهم ، وغير ذلك لا أقبله »<sup>١٢٧١</sup> ، ثم أمر بطرد الرسل .

وحتى يحقق مشروعه هذا من الطبيعي أن يكون أول اهتماماته هو : تأمين طرق تحرك جيوشه من مصر إلى دمشق وبالعكس ، وساعده بذلك أن شوكة المغول كانت قد انكسرت بعد موت هولاكو سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م<sup>١٢٧٢</sup> حيث بدأ هناك صراع مريز حول السلطة بين أولاده أضعف اهتماماتهم بهذه المنطقة ، وأصبحت الظروف مواتية لأن يقوم الظاهر بيبرس بتنفيذ مشروعه ضد الصليبيين ، والخطوة الأولى لتحرير الأرض هي خلق الظروف المناسبة للعمل العسكري ، وتأمين طرق التحرك من الاتجاهين الجنوبي من مصر ، والشرقي من دمشق .

أما الاتجاه الجنوبي ، فالطريق من القاهرة إلى غزة - قاقون - جنين - صغد - دمشق تعرض للكثير من الأخطار من قبل حصون يافا ، وعتليت ، وقيسارية ، لذلك لا بدّ من تأمينه ، وعندما لاحت له أول فرصة ثنى أعنة خيله باتجاه قيسارية ، ونزل عليها يوم الخميس التاسع من

<sup>١٢٧٠</sup> الصالح إسماعيل : هو

<sup>١٢٧١</sup> - زكار ( سهيل ) :مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر ، ط١ ، دمشق ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ، ص ٢٣٧-٢٤٣ .

- زكار ( سهيل ) : الحروب الصليبية ، دار حسان ، ط١ ، دمشق ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ، ج١ ، ص ١١ .

<sup>١٢٧٢</sup> - ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج٨ ، ص ١١٥ .

جمادى الأولى سنة ٦٦٣هـ / ١٢٦٥م ، وطاف بها وهاجمها الناس ، وألقوا نفوسهم في خنادقها ، وعمدوا إلى سكك الحديد التي للخيل والشبح ، والمقاود ، فتعلقوا بها وطلعوا من كل جانب ونصبت عليها الصناجق وحرقت أبوابها وهتك حجابها فهرب أهلها إلى قلعتها ، وحوصرت القلعة ، وكانت من أصن القلاع وأحسنها وتعرف بالخضراء ، وكان لويس التاسع ملك فرنسا قد حمل إليها العمد الصوان وحصنها ، لكن بيبيرس شدد الحصار وضيق الخناق على المدافعين ، وبعد اسبوع هرب الفرنجة بحرا إلى يافا وأسلموا القلعة بما فيها ، وقام بيبيرس بهد القلعة وشارك بنفسه في ذلك<sup>١٢٧٣</sup> .

أراد بيبيرس استثمار النجاح العسكري الذي تحقق، فعمل على اتجاهين متلازمين .

الأول : تصفية الممتلكات الصليبية بين قيسارية وغزة .

الثاني : التقدم إلى الأمام خطوة باتجاه الهدف النهائي (( عكا )) .

وبناء على ذلك أرسل مجموعة من قواته في ٢٦ جمادى الأولى سنة ٦٦٣هـ / ١٧ آذار ١٢٦٥م إلى حيفا ، فأغارت عليها وقتلت عدداً من الفرنجة وأسرت عدداً آخر، وألحقت أضراراً بالمدينة والقلعة وأحرقت أبوابها ، وأسرت عائدة إلى السلطان<sup>١٢٧٤</sup> وفي الوقت نفسه سار السلطان الظاهر بنفسه على رأس مجموعة أخرى إلى عتليت وبعد أن استطلعها تعرف على الثغرات ومواطن الضعف التي يمكن أن يأتيها منها ، ثم خيم بالقرب منها ، وأمر العساكر بالإغارة على البلدة ، وأغاروا عليها وهدموها ودمروا ما حولها من عمائر ، وقطعوا الأشجار والكروم إلا أنهم لم يتمكنوا من دخول القلعة ، أو إصابتها في هذه الغارة<sup>١٢٧٥</sup> .

وبعدها عاد الظاهر بيبيرس إلى أرسوف<sup>١٢٧٦</sup> ونزل عليها ، وأمر بنصب المنجنيق ورمم الخندق الذي أحاط بها ، بعد أن استكمل استعداداته هناك وبعد حصار دام أربعين يوماً استسلمت القلعة في ١١ رجب ٦٦٣هـ / ٢٦ نيسان ١٢٦٥م، وقد قام السلطان على الفور بتقسيم أبراجها على الأمرأ ليهدموها<sup>١٢٧٧</sup> .

وبعد أن انتهى السلطان من تهديم قيسارية ، وأرسوف رأى أنه بحاجة لحصن عسكري في هذه المنطقة ليس على الساحل الذي يخشى عودة الفرنجة إليه ، وإلا لاحتفظ بواحدة من القلاع التي استولى عليها ، وإنما أرادها في الداخل ، وعلى مقربة من الساحل ليراقب منها تحركات الفرنجة الذين ما زالوا في الساحل ، ولتكن مركزاً للذخيرة والمؤن والبريد ، ولهذا أمر ببناء

<sup>١٢٧٣</sup> - ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص٢٢٩-٢٣١ ؛ ابن علي : حسن المناقب السرية ، ص٨٨-٨٩ .

<sup>١٢٧٤</sup> - ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص٢٣٤ ؛ ابن علي : حسن المناقب السرية ، ص٨٨ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ص ٥٢٧ .

<sup>١٢٧٥</sup> - ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص٢٣٤-٢٣٥ ؛ ابن علي : حسن المناقب السرية ، ص٨٨-٩٠ .

<sup>١٢٧٦</sup> - أرسوف : هي بلدة ساحلية تقع بين قيسارية في الشمال ويافا في الجنوب انظر : البغدادي : مرصد الاطلاع ، ج ١ ، ص ٥٦ .

<sup>١٢٧٧</sup> - ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص٢٣٥ ؛ ابن علي : حسن المناقب السرية ، ص٨٩-٩٠ ؛ ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ق ٤ ص ٨٣٢ .

المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٨ . ابن سباط ( حمزه بن أحمد بن عمر ، ت ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م ) : تاريخ ابن سباط ، تح عمر عبد السلام التدمري ، جروس برس ، ط ١ ، طرابلس لبنان ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م ، ج ١ ، ص ٣١٤ ؛ رنسيان : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٤٧ .



قلعة قاقون . قال ابن عبد الظاهر : (( لما فتح الظاهر ببيرس قيسارية وأرسوف وهدمهما احتاج الرعية إلى مكان يحفظهم ، فرسم بعمارة قلعة قاقون ، فعمرت وجاءت قلعة حصينة ))<sup>١٢٧٨</sup> .

وهكذا أمّن الظاهر ببيرس طريق تحرك الجيوش والبريد القادم من الجنوب من القاهرة ، أما الطريق القادم من الشرق ، فكانت صنف وبعض الحصون الأخرى هي من يهدده بالأخطار وهذا ما سيتم بحثه في الفقرة التالية .

### تحرير صنف :

في سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٦م عاد السلطان الظاهر ببيرس إلى بلاد الشام لاستكمال خطته العسكرية وتحقيق الهدف النهائي وهو : اقتلاع بقايا الدولة الصليبية في الشرق ، وكان قد تم الحديث عن أنه اتبع إستراتيجية الخرشوفة في الوصول إلى عاصمة مملكة القدس الثانية ( عكا ، وقد كان الظاهر ببيرس يدرك قوتها ، وكان يهاجمها كلما سنحت له الفرصة )<sup>١٢٧٩</sup> . كما تم الحديث عن تأمين طرق تحرك القوات والجيوش المملوكية من الاتجاه الجنوبي ( القادمة من القاهرة باتجاه الشمال ) وبقي عليه أن يؤمن الطرق القادمة من اتجاه الشرق أي من اتجاه دمشق والتي كانت تتعرض للأذى والخطر من موقع صنف وبعض الحصون الأخرى ومن أجل ذلك أعد واستعد ، وبعد انقضاء موسم أمطار سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٦م جهز السلطان الظاهر ببيرس قواته ، وأخذ الطريق باتجاه الشمال يريد بلاد الشام ، ووصل إلى غزة ، وهناك كلف بعض أمراء جيشه بقيادة وحداتهم والإغارة على ممتلكات الفرنجة في الساحل ما بين طرابلس ، وصور ، ومن غزة توجه ببيرس شخصيا نحو مدينة الخليل (( فدخل مقام إبراهيم ، وزار وكشف المظالم ، واتخذ عدة إجراءات لصيانة حرمة المكان ، ثم توجه نحو القدس ، فأتى الحرم الشريف مستخفيا في نافرين ، أو ثلاثة ، وصلى الجمعة في القدس ، ورحل إلى عين جالوت نحو عكا ، وعسكر أمامها ، وأمر باجتماع قواته إليه<sup>١٢٨٠</sup> .

### لماذا الاجتماع في عين جالوت ؟

عين جالوت بما تذكر بمعاني النصر العظيم على المغول تشدذ الهمم وتشد العزائم وتقوي الإرادة وتحفز الرجال على تحقيق نصر جديد .

عين جالوت الموقع الحصين الذي يؤمن الإقامة للقوات بما تؤمنه من إمكانية إخفاء القوات وتأمين الحراسة والدفاع .

عين جالوت موقع كثير المياه كثير الأعشاب بما يؤمن كافة متطلبات الخيول وغيرها من الدواب .

وبعد ذلك قام بعدة إجراءات تكتيكية منها :

<sup>١٢٧٨</sup> - ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ، ص ٢٧٥ .  
<sup>١٢٧٩</sup> - ابن عبد الظاهر : ص ٢٥٣ . رنسيما : تاريخ الحروب الصليبية ، ج ٣ ، ص ٥٥٠ .  
<sup>١٢٨٠</sup> - اليافعي ( الامام أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان ، ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م ) : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما تيسر من حوادث الزمان ، مؤسسة الأعلمي للطبوعات ، بيروت ، ج ٤ ، ص ١٦٢ .  
زكار ( سهيل ) الموسوعة الفلسطينية ، فلسطين في عهد المماليك ، دمشق ، ٢٠٠٢ ، ص ٥٤٨ .

١ - عاد ثانية، وضغط على عكا ، وأغارت قواته على المناطق المحيطة بها بغية إضعافها اقتصاديا وعسكريا<sup>١٢٨١</sup> ، لذلك راسله مقدم الاستبائية من عكا من أجل الهدنة وفق الشروط التي يفرضها<sup>١٢٨٢</sup> .

٢ - أرسل جزءاً من قواته للتظاهر أمام حصن الشقيف لتحقيق عدة غايات منها :

٦ التمويه على الفرنجة وصرف أنظارهم عن الهدف الحقيقي .

٧ ومنها أيضا مشاغلة الحصن ، وإضعافه عسكريا لكي لا يستطيع مَد يد العون ، أو تقديم الدعم العسكري إلى صفد عند اللزوم .

٨ ومنها مراقبة الطرق والممرات وعزل مدينة صفد ومنع وصول النجدات إليها .

وهذا يدل على أن السلطان الظاهر بيبرس يتمتع برؤية إستراتيجية وعقل تكتيكي عسكري عالي المستوى وعسكرية قيادية قلّ مثيلها .

وعندما قرر حصار صفد ومهاجمتها كان قد طلب من عساكره العاملة في بلاد الشام أن تأتيه بكامل عدتها إلى صفد وكان حريصا على وصولها مع كامل المعدات والمنجنيق والأخشاب إلى غير ذلك بالدرجة نفسها من الحرص على منع وصول النجدات إلى صفد .

ويحدثنا ابن عبد الظاهر : أن الجمال التي حملت المنجنيق أصابها الوهن أثناء توجيهها نحو صفد ، فجهز بيبرس الأمراء والجنود وسائر الناس لحملها على الرقاب من جسر بنات يعقوب وهو مرحلة عن صفد ( بحدود ١٢ كم )<sup>١٢٨٣</sup> وخرج السلطان بنفسه وخواصه واشتركوا في جر الأخشاب وحملها ، ولم يسأم ولم يمل من العمل<sup>١٢٨٤</sup> .

وبعد أن استكمل الاستعدادات بدأت معركة الحصار لصفد ، وكانت قلعة حصينة للداوية على سفر يوم واحد من عكا<sup>١٢٨٥</sup> ، ومن المفيد ، وقبل الحديث عن معركة الحصار التوقف عند تحصين قلعة صفد، وخاصة ، أن سهيل زكار ومن خلال تحقيقه لكتاب تاريخ صفد للعثماني قد أورد نصاً للداوي المجهول يروي فيه قصة إعادة بناء قلعة صفد سنة ، وهو نص جديد لم ينشر من قبل جاء فيه .

إن إعادة بناء القلعة كان في سنة ٦٣٧هـ / ١٢٤٠م<sup>١٢٨٦</sup> ، وجاء ذلك في ظروف كان الصليبيون يأمّلون فيها في إعادة سلطتهم على كل أراضي فلسطين قد تمهد لاسترداد القدس . وبالغوا في تحصين قلعة صفد إلى الحد الذي عندما عاد أسقف<sup>١٢٨٧</sup> مرسيليا<sup>١٢٨٨</sup> ( ٦٢٦ - ٦٣٧هـ / ١٢٢٩ -

<sup>١٢٨١</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٦٨ .

<sup>١٢٨٢</sup> - ابن واصل : مفرج الكروب ، ج ٤ ، ص ٢٤١-٢٥٣ ؛ ابن نظيف الحموي ( محمد بن علي ) : التاريخ المنصوري ، مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م ، ص ١٧٦-١٩٤ ؛ المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٢٦٨ .

<sup>١٢٨٣</sup> - الحقيقة أن بعد جسر بنات يعقوب عن صفد هو أقل من مرحلة لأن المرحلة هي بحدود خمسة إلى ستة فراسخ والفرسخ هو بحدود ثلاثة أميال والميل بحدود ١,٧ كم .

<sup>١٢٨٤</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٦ ؛ عبد القادر ( محمد فريد ) : معارك فاصلة في تاريخ الإسلام ، دار المستقبل العربي ، القاهرة ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م ، ص ٢٦٣ .

<sup>١٢٨٥</sup> - العثماني : تاريخ صفد ، ص ٧٨ .

<sup>١٢٨٦</sup> - العثماني : ص ٥٨-٦٤ .

<sup>١٢٨٧</sup> - الأسقف : مرتبة دينية عند النصارى فوق القسيس ودون المطران ، وهي كلمة يونانية معناها الرقيب أو الناظر . ابن خردادبه :

١٢٣٧م) صاحب فكرة إعادة بناء القلعة ، وبعد عشرين سنة من زمن مقترحه رأى القلعة بهية رائعة البناء وكأنها لم تصنع بواسطة الإنسان وحده من خلال قدرة الرب . أما عن التحصين ، فقد رأى :

٩ خطأ مزدوجاً من الأسوار سور داخلي مرتفع ( ارتفاعه ٤٤ م ، وسماكة ٦ , ٧م وهذه السماكة كم احتاجت من الجهود لبنائها وكم تحتاج من الجهود والإمكانات لنقبتها ؟ ) وسور خارجي ( ارتفاعه ٢٢م ) هذه الأسوار شكلت قطعاً ناقصاً تماشياً مع موقع مغلق من كل الجوانب بجبال وهضاب وشعاب منحدره وجروف [ والقطع الناقص في الرياضيات هو عبارة عن شكل تقريبا نصف دائرة مفتوحة نحو الأعلى ] أي أن هذه الأسوار لم تكن تطوق القلعة من جميع الجهات إنما فقط من الجهة الغربية ، والغربية الجنوبية ، والغربية الشمالية ، أما الجهات المعاكسة فانحدرها شديداً تجاه الشرق والشرق الشمالي ، والشرق الجنوبي وهناك شبه استحالة لتهديد القلعة من تلك الاتجاهات . وعلى الأسوار الكثير من المنشآت مثل الكثير من المكاتب ومنشآت للقسي العقارة والأسهم المربعة الرؤوس والآلات وكل نوع من الدروع وأنواع الأسلحة<sup>١٢٨٩</sup> .

١٠ يوجد على السور سبعة أبراج مستديرة بنيت على طول السور الداخلي غطت السور بكامله، [ وقد تم الحديث عن الخصائص القتالية للأبراج المستديرة حيث تتعدم فيها الزوايا الضعيفة القابلة للغم وتتعلم أمامها الزوايا الميتة الأمر الذي يسمح للدفاع فيها من المراقبة لمساحات كبيرة من الأرض أمام السور وبجانبه والدفاع عنه بالأسلحة المتوفرة ] ارتفاع البرج ٨ , ٨م<sup>١٢٩٠</sup> . [ أي أعلى من ارتفاع السور الداخلي بحوالي خمسة أمتار وعن السور الخارجي بحوالي ٢٧م ، مما يسمح بزيادة مسافات الكشف والاستطلاع ورمي الأسلحة ] .

١١ بعد السور الخارجي من الأمام يوجد خندق ضخم طوله ٨٥٠م وعمقه ٤, ١٥م وعرضه ٢, ١٣م<sup>١٢٩١</sup> وبعد الخندق بنيت الباشورة<sup>١٢٩٢</sup> من الجهة التي من المتوقع الهجوم منها على القلعة .

هذه التحصينات إن لم يكن مبالغة في وصفها تبدو للوهلة الأولى أن اجتيازها ضرب من المحال ، أو أن مجرد التفكير في اجتيازها مع قوة الدفاع الموجودة فيها ضرب من الجنون قال هيوغ كندي : (( وامتلك قلعة صمد مجموعة لم يكن عددها أقل من ثلاثمائة منجنيقي لتشغيل آلات الحصار ))<sup>١٢٩٣</sup> . لكن العقل الإستراتيجي والتكتيكي المبدع للملك الظاهر بيبرس تعامل مع الواقع على أنه واقع لكن يجب اجتيازه والتغلب عليه ، وهنا تكمن أهم عوامل القيادة في الفن

المسالك والممالك ، ص ٢١٢ الحاشية رقم ١ .

١٢٨٨ - مرسيليا : مدينة في فرنسا حالياً .

١٢٨٩ - العثماني : تاريخ صمد ، نص الداوي المجهول ، ص ٧٢ .

١٢٩٠ - العثماني : ص ٧٢ .

١٢٩١ - العثماني : ص ٧٢ .

١٢٩٢ - الباشورة : سد من التراب لمنع وصول الخيالة والرجالة والسهم إلى موضع المحاربين انظر : المقريري : السلوك ، ج ١

ص ١٥٠ حاشية رقم ١ .

١٢٩٣ - كندي : القلاع الصليبية ، ص ١٧٧ .

الحربي وهو الإصرار على تنفيذ المهمة بشجاعة لكن دون تهور وبعقل لكن دون إهمال العاطفة ، وبقوة العلم المقترنة بالدفع الذاتي الإنساني الذي إن علم حطم الأسوار واجتاز الحواجز ليرفع راية الحق ويهزم الباطل .

وهنا نرى الظاهر ببيرس ، وبعد أن استعرض الجيوش ، وأمن الطرق ، وأضعف عكا والشقيف ، وغيرها من الجهات التي كان يمكن لها أن تمتد يد العون و النجدة إلى صغد قام بممارسة نوع من الحرب النفسية الهادئة حاول فيه استمالة قلوب أهل الحصن وهو وكما قال المؤرخ الداوي السوري وقد كان شاهد عيان في هذه المعركة : « أرسل إلى الرجال الذين كانوا في القلعة هدية حسب عادة المسلمين ، غير أن القادة ي القلعة استخدموا المنجنيق لرمي الهدايا ، وإعادتها إلى السلطان »<sup>١٢٩٤</sup> . لا بد أن هذا العمل سيكون له تأثير ما ليس بالضرورة تأثير مباشر في لحظة الاستخدام لكن في مجرى الحرب ، إنما عندما تبدأ روائح الموت ، تعبق في كل زوايا المكان وتبدأ نيران الحرب تأكل الحجر قبل البشر ، في تلك اللحظات يبدأ الآخرون في التندر للفرص الضائعة والبحث عنها من جديد .

وعندما أعادوا الهدايا بهذه الطريقة المملوءة بالتحدي غضب السلطان ، وبدأ على الفور بإعداد آلات الحصار ، وتجهيزها ، وأشرف بنفسه على تجهيز المنجنيق وتفقد العساكر وبذل لهم الأرزاق وبنى الخيام ، وأحضر إليها الأطباء والجراحين ، وأطلق الطعام والشراب وإثارة النفوس ورفع المعنوية<sup>١٢٩٥</sup> .

إذا أعدّ لكل شيء عدته ، وبدأ الزحف في ٢ شوال / ٦ تموز من سنة ٦٦٤هـ / ١٢٦٦م ، وفي اليوم التالي شن هجومه الأول على صغد لكنه لم يفلح ، وأخفق في اختراق الدفاعات الكبيرة التي سلف الحديث عنها ، وبعد مضي أسبوع من الحصار جدد الظاهر ببيرس المحاولة من جديد لأنّ المهام الكبيرة العظيمة تحتاج إلى نفوس كبيرة ، ورجال أشداء لا يعرفون طريقاً للهزيمة ، لكنه من جديد أخفق ، ومن جديد ازدادت عزمته إصراراً ، فعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم ، ففي ١٤ شوال / ١٧ تموز من السنة نفسها أعد الكرة ، وفي ١٥ شوال / ١٨ تموز شن السلطان هجومه الرابع على صغد إلى سقطت الباشورة ، وكانت بشارة خير وبركة ، وتقدمت الجيوش إلى الأسوار ، وصار النقب ممكناً .

كم كان ذلك الجهد عظيماً ، والانجاز كبيراً في ظل تلك التضاريس الوعرة والتحصينات الهائلة التي تم الحديث عنها ، لكن الإرادة تقهر الصعاب وتحقق المستحيل .

لكن الأمر لم ينته ! صحيح أن العدو تراجع لكن إلى داخل الأسوار ، والخسائر التي حصلت لقوات الظاهر ببيرس كما قال المؤرخ الداوي السوري كبيرة وثقيلة<sup>١٢٩٦</sup> ، ولا شك أبداً بأن الظاهر ببيرس كان يعرف طبيعة تحصينات قلعة صغد ، وطبيعة المقاتلين المدافعين عنها ، والهدف الذي أقيمت من أجله ، لذلك كان تصميمه نهائياً على تحرير القلعة مهما كلف من ثمن ، فبعد أن سقطت الباشورة اتبع تكتيكاً جديداً اعتمد فيه ثلاث ركائز :

<sup>١٢٩٤</sup> - العثماني : تاريخ صغد ، نص الداوي المجهول ، ص ٧٨ .

<sup>١٢٩٥</sup> - العثماني : ص ٧٨ ؛ الطراونه ( طه تلجي ) : مملكة صغد في عهد المماليك ، دار الأفاق الجديدة ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م ، ص ٥٠ ؛ يونس ( أحمد عبد الحلیم ) : مدينة صغد في عهد المماليك ، رسالة ماجستير في التاريخ - غير منشورة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ص ١٤ .

<sup>١٢٩٦</sup> - العثماني : ص ٧٢ .

الأولى : استمرار الضغط على القلعة وبالتأثير عليها بكل الأسلحة .

الثانية : استخدام طريقة التشجيع والمكافأة المتلازمة مع طريقة العقوبة للمقصرين .

الثالثة : استخدام الحرب النفسية المتلازمة مع استخدام القوة .

وسيتم التوقف قليلاً عند كل من هذه الركائز الثلاث .

الركيزة الأولى : استمرار الضغط على القلعة من خلال الرمي المستمر بكافة الأسلحة المتوفرة وخاصة المنجنيق ، وعدم إعطاء أية فرصة للمدافعين لأخذ المبادرة ، وهذا الأمر من بديهيات العلم العسكري ، ويبدو أن المماليك كانوا يدركون ذلك فقد ذكر الرشيدى ما يدل على ذلك : (( إذا وقع الحصار فلا يرفع عنهم رمي المنجنيق ، ولا عنها ساعة واحدة من ليل ، أو نهار ))<sup>١٢٩٧</sup> ، لذلك أمر السلطان بمواصلة الضغط والرمي بالمنجنيق ، وصار السلطان لازم الوقوف عندها وهي ترمي<sup>١٢٩٨</sup> .

الركيزة الثانية : من البديهي عندما يرى القائد أن المعطيات التكتيكية للدفاع الذي سيهاجمه هي معطيات غير اعتيادية عليه أن يتخذ إجراءات إضافية وقد تكون غير اعتيادية لمواجهة فمثلاً أمر طبيعياً أن يقوم القائد بمكافأة الجنود في أرض الميدان لاستنهاض الهمم وشحن الروح المعنوية ، لكن من غير الاعتيادي أن يقوم القائد بمعاينة جنوده أثناء المعركة، عدا الحالات الخاصة كالفرار والخيانة ، فماذا جرى ؟

استخدم الظاهر بيبرس الطريقتين ( الثواب ، والعقاب ) متلازمتين معا في أرض المعركة فوعد المهندسين والحجارين بمكافأة قيمتها مائة دينار لمن يستطيع نقب أول حجر من السور ومثلها للثاني ، وللثالث إلى العاشر<sup>١٢٩٩</sup> . ومن الطبيعي أن يكون قد وعد بجوائز أخرى لأنه يعرف مدى تحصين أسوار قلعة صغد . قال المقرئزي : (( تكاثرت النقوب ، ودخل النقاوبن إليها ، ودخل السلطان معهم ، وبذل السلطان في هذا اليوم من المال والخلع كثيراً ))<sup>١٣٠٠</sup> . أما عن الطريقة الثانية التي استخدمها الظاهر بيبرس في هذه المعركة وهي العقوبة ، ففي أحد الأيام اشتد الزحف ، واستمر من وقت الليل إلى وقت ( القائلة ، أو القيلولة ) ما بعد الظهر فتفرق الناس من شدة التعب ، فغضب السلطان من ذلك ، وأمر خواصه بالذهاب إلى الصواوين ( ج صيوان ) ، وإقامة الأمراء والأجناد بالدبابيس [ ضربهم بالدبابيس حتى يقوموا ] ، وقال : المسلمون على هذه الصورة وانتم تستريحون ؟ فأقيموا ، وقبض السلطان على نيف وأربعين أميراً ، وقيدهم [ جعل أيديهم في القيود ] ، وسجنهم بالزردخاناه ثم شقَّع فيهم ، فأطلقهم ، وأمرهم بملازمة مواضعهم<sup>١٣٠١</sup> .

الركيزة الثالثة : استخدام الحرب النفسية المتلازمة مع استخدام القوة :

<sup>١٢٩٧</sup> - الرشيدى : تفريغ الكروب في تدبير الحروب ، ص ١١٣ .

<sup>١٢٩٨</sup> - الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ٦ ، ق ٢ ، ص ٨١ .

<sup>١٢٩٩</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٦ .

<sup>١٣٠٠</sup> - المقرئزي : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٧ .

<sup>١٣٠١</sup> - المقرئزي : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٤٧ ؛ الدباغ : بلادنا فلسطين ، ج ٦ ، ق ٢ ، ص ٨١ .

أثبتت خبرات الحروب أن استخدام الحرب النفسية من دون قوة لا تساوي شيء بمعنى أن الجيش الضعيف الذي يستخدم الحرب النفسية قد يعطي مفعولاً عكسياً ، وأن الجيش القوي يحصد نتائج باهرة بمجرد التهديد باستخدام القوة لأن العدو يعرف أن القوة ستستخدم مباشرة بعد التهديد ، لذلك يذعن لشروط التهديد ، ويبدو أن القادة في العصر المملوكي الأول كانوا بارعين في استخدام الحرب النفسية في المعركة وقبلها وبعدها ، وهنا يجب العودة إلى المؤرخ الداوي الصوري الذي كان شاهد عيان عندما استولى رجال السلطان على التحصينات الأولى لقلعة صغد حيث قال : (( .. خشي السلطان من أنه لن يكون قادراً على الاستيلاء عليها بالقوة من دون فقدانه لعدد كبير من رجاله ، فأوقف الهجوم وأمر بالمناداة بصوت مرتفع والإعلان أنه يمكن لجميع السريان من سيرجاندية ورماء الخروج من القلعة بأمان وقد فعل هذا لإظهار عدم اتفاق بين الفرنجة والسريان ، لأن الفرنجة سوف يتهمون السريان بأنهم خونة وبذلك سوف يكون صراع فيما بينهم ، ولم يكن بإمكانهم تلقي أي عون من أي مكان لأن القلعة كانت محاطة بالمسلمين من جميع الجهات ، ولذلك نادوا إلى المسلمين بإيقاف القتال لأنهم يريدون إرسال رسول إليهم ))<sup>١٣٠٢</sup> .

إن التوقف عند هذا النص الرائع يتبين أن كاتبه حاول في البداية إظهار قوة رجال القلعة وشدتهم وبأسهم ، وأن السلطان خاف من أنه لن يستطيع دخول القلعة ، والخوف في علم النفس خوفان خوف طبيعي يحرض الإنسان على الصمود وتحقيق الهدف يكون فيه رد الفعل مساو للفعل ، وخوف مرضي تكون ردة الفعل فيه أكبر بكثير من المؤثر ( الفعل ) وبالتالي يكون هداماً ويؤدي بصاحبه إلى الانهزام والقارئ سيستنتج أي خوف كان ينتاب السلطان الظاهر ببيرس لا سيما وأن قادة القلعة قد استجابوا فوراً ، فكيف للعاقل أن يقتنع بأن القوي المتمكن يستمع ويستجيب لطلبات من هو أضعف منه في الحرب ؟

والأمر الآخر الذي لا بد من تحقيقه أو وجوده هو : الأرضية الصالحة لانتشار الأفكار التي يرسلها القائد إلى أرض العدو مخاطباً فيها العقول ، و النفوس ، والعواطف أولاً وأخيراً فكيف تتم الاستجابة إذا كانت النفوس محصنة تحصيناً كافياً ؟

إذا لابد من ثغرة تتسرب من خلالها الأفكار إلى النفوس والعقول ، ومن أجل ذلك لم يخاطب السلطان كل من في القلعة بل خاطب فئة محددة هي السريان [ المسيحيون الوطنيون ] الذين عانوا بشكل ، أو بآخر من التفارقة وعقدة الدونية بالنسبة إلى المسيحيين الكاثوليك الغربيين وعندما تلامس الأفكار شغاف العاطفة تستجيب لها العقول وهذا ما حصل ، وتخلخت الصفوف وضعفت العزيمة واتهم فيما بعد المسيحيون السريان بالخيانة<sup>١٣٠٣</sup> .

لكن صغد في النهاية سقطت بيد الظاهر ببيرس الذي وافق على طلب ليوكاسير **Lea Casalier** رسول من في القلعة إليه بطلب الأمان لنفسه ، وإلى الفرنجة مثل الأمان الذي منحه السلطان إلى السريان من خلال الإعلان الذي نودي به ، وكان سقوطها يوم الجمعة في الثامن عشر من شوال سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٦ م<sup>١٣٠٤</sup> . إن سقوط قلعة صغد في يد المسلمين أصاب

<sup>١٣٠٢</sup> - العثماني : تاريخ صغد ، نص الداوي المجهول ، ص ٧٨ - ٧٩ .

<sup>١٣٠٣</sup> - العثماني : ص ٧٨ - ٧٩ .

<sup>١٣٠٤</sup> - زكار ( سهيل ) : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، دمشق ، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م ، ج ٥٤ ، تاريخ صغد ص ١٢٩ ؛ ابن أبيك الداودار : كنز الدرر ، ج ٨ ، ص ١١٧ ؛ أبو الفداء : المختصر ، ج ٤ ، ص ٣ . النويري : نهاية الأرب ، ج ٣٠

الصلبيين بضربة قاسية حطمت معنوياتهم إلى حد كبير بدليل أن بعض القوى الصليبية سارعت إلى عقد هدنة مع السلطان الملك الظاهر بيبرس على أساس مبدأ المناصفة ، أو المشاركة معه في غلات بلادهم ، ولعل من أطرفها تلك الهدنة التي أبرمت بين بيبرس وملكة بيروت ايزابيللا [ Izabella ] بنت الملك جون الثاني ايبيلين [ Jon II Ibelin ]

بقي أن تتم معالجة أمرين أساسيين في الحرب أيًا كانت دفاعية أو هجومية وهما تعبئة الجيوش لخوض المعارك والحروب ، و أشكال قيادة القوات والسيطرة عليها في خضم الحرب وهما أمران إمّا أن يقودا إلى النصر المؤزر ، أو إلى الإخفاق والدمار .

### ٣- التعبئة في العصر المملوكي الأول : ١٢

حدثنا التاريخ العسكري بأن القادة العظام المنتصرين قادوا جيوشهم إلى النصر المبين بثلاثة أساليب :

الأول : ابتكار تعبئة جديدة لا يعرفها العدو ، ولا يستطيع معالجتها .

الثاني : استعمال سلاح جديد لا يعرف العدو مبلغ تأثيره ، ولا سلاح لديه لمقاومته .

الثالث : ابتكار تعبئة جديدة ، واستعمال سلاح جديد بأن واحد .

وهذه الأساليب الثلاثة تجعل مبدأ المباغثة إلى جانب القائد ، وهذا المبدأ هو أهم مبادئ الحرب .

قبل الحديث عن التعبئة في العصر المملوكي الأول يجب التنويه إلى أن التعبئة الجديدة هي من نتائج التدريب الجيد وإتقان العلوم العسكرية نظرياً وعملياً وهي بشكل عام تتعلق بعدة أمور منها :

المهمة المخطط تنفيذها هجومية – دفاعية ، فالقوات عندما تهاجم تُعبأ بأسلوب غيره عندما تدافع ، فلكل معركة اسس وأهداف يجب تحقيقها ، وبالتالي فالتعبئة تتعلق بطبيعة وأهداف كل معركة .

طبيعة القوات الصديقة أي التي ستقوم بتنفيذ المهمة أعدادها- أنواعها – تسليحها وتدريبها وبالتالي كيف ستكون التعبئة<sup>١٣٠٥</sup> .

طبيعة القوات المعادية قوامها - أعدادها – تدريبها بعدها وقربها إلى غير ذلك<sup>١٣٠٦</sup> .

ص ١٣٠ ؛ الذهبي : دول الإسلام ج ٢ ، ص ١٦٩ . ابن العماد : شذرات الذهب ، ج ٥ ، ص ٣١٤ ؛ ابن سباط : تاريخ ابن سباط ، ج ١ ، ص ٣١٤ ؛ ابن علي : الفضل المأثور ، ص ٥١ ؛ الياضي : مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، ج ٤ ، ص ١٦٢ . أدبوري ( بتر ) : قبرص والحروب الصليبية ، دار الملتقى للطباعة والنشر ط ١ ، ليماسول ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م ، ص ٤١ ؛ العيادي : قيام دولة المماليك الأولى ، ص ٢٢٤ ؛ عبد القادر : معارك فاصلة ، ص ٢٦٣ .  
<sup>١٣٠٥</sup> - الرشيدى : تفريغ الكروب في تدبير الحروب ، ص ٧٩ .  
<sup>١٣٠٦</sup> -- الرشيدى : تفريغ الكروب في تدبير الحروب ، ص ٨٠ .

طبيعة الأرض التي ستم التعبنة عليها ومدى قدرتها على استيعاب نوع التعبنة المراد تنفيذها .

تحدثت الكثير من المصادر عن التعبنة في العصر المملوكي الأول ومن هذه الكتب : نهاية السؤل والأمنية في تعلم أعمال الفروسية حيث أفرد لذلك أكثر من فصل ، وتحدث عن أشكال التعابي التي كانت تستخدم آنذاك ، وتحدد منها أشكال ، ووضح ذلك بالرسوم كما تحدث عن أسماء التعابي ، و إعداده مذكرا بقول المتقدمين من الحكماء في هذا المجال ، وتحدث عن حالات خاصة ، وما يناسبها من أشكال التعابي الرسمية<sup>١٣٠٧</sup> .

ومن الكتب التي تحدثت في هذا الموضوع أيضا التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية ، حيث تحدث فيه محمد بن منكلي ضرورة أن يطلع القادة على أنواع تعابي الجيوش لأن ذلك يوسع أفق القائد ، ويفتح آفاقه . كما تحدث عن التعبنة كعلم ، وإن التعابي العسكرية مبنية على علم الهندسة ، وأنه من أحسن تَعْبِنَتِه أفسد تعبنة عدوه<sup>١٣٠٨</sup> .

ومحمد بن منكلي أفرد كتابا كاملا للحديث في هذا الموضوع لاهميته سماه الادلة الرسمية في التعابي الحربية<sup>١٣٠٩</sup> ، بحث فيه واجبات كل من القائد ، والجندي قبل المعركة ، وأثناءها ، وبعدها ، وفي كتاب الحيل في الحروب وحفظ المدائن وحفظ الدروب فرق بين أربعة أشكال من التعبنة قبل لقاء العدو :

الشكل الأول تعبنة الجند أنفسهم على ما علمت من لزوم مراكزها ، والتحاق كل رجل بركنه وقائده ، وموضع علمه .

الشكل الثاني : تعبنة القادة في وقوفهم على مقدار ما بين كل رجل منهم ، وتسوية صفوفهم والضم إلى أصحاب الملاحم ، وطبولهم من الرجالة ، والفرسان ، ومن ينبغي أن يضم إليهم والتقدم إلى عرفاتهم بحفظ تعبنتهم .

الشكل الثالث : تعبنة أصحاب الأركان لمن كان في أركانهم ، وضم قوادهم إليهم ، وترتيب أصحاب أعلامهم .

الشكل الرابع : تعبنة صاحب الجيش من في ركنه على ما يحب صاحب كل ركن ثم تستقرىء الأركان صفوفها ، أو كراديسها حتى يعلم أمرهم ، أوله وآخره ، ويعلم المتقدم منهم والمتأخر والتعبنة الصحيحة تؤدي إلى السرعة في تأمين القوات بما يلزم كما تحقق مبدأ الحشد الاستراتيجي على الاتجاهات الرئيسية المحتملة لملاقاة العدو بالإضافة إلى الاتجاهات الأخرى (الثانوية) التي قد تصبح اتجاها رئيسيا في لحظة من اللحظات .

وطريق ضرب المصاف ، أو القتال بالصفوف يؤمن خفة الحركة ، والسرعة في تنفيذ التكتيكات الحربية على مستوى الجيش سيما وأن الفارس العربي يتصف بالخفة ، وحصانه بسرعة الحركة التي تؤمن حماية الأجانب ، وحماية الصفوف ، وتدب الرعب في قلب العدو .

<sup>١٣٠٧</sup> - الأقسراي : السؤل والأمنية ، ص ٤٤٦-٤٤٧ .

<sup>١٣٠٨</sup> - ابن منكلي : التدبيرات السلطانية ، ص ١٣ .

<sup>١٣٠٩</sup> - ابن منكلي : ( محمد ، ت ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م ) : الأدلة الرسمية في التعابي الحربية ، مخطوط ، يوجد نسخة مصورة عنه في مديرية التراث القديم في وزارة الثقافة تحت رقم ف ١١٨١ .



وهناك مخطوط بعنوان "أربعون حديثاً في الحث على الجهاد" لمؤلفه ابن عساكر الذي أراد من خلاله تعبئة الأمة للجهاد ضد الصليبيين ، والمخطوط محفوظ بمكتبة الأسد بدمشق ، وكذلك مخطوط بعنوان "تحفة المجاهدين في العمل بالميادين" محفوظ بمكتبة إكسفورد لمؤلفه لاجين بن عبد الله الذهبي الحسامي الطرابلسي وتوجد نسخة منه في متحف برلين ، وأخرى بمعهد المخطوطات العربية

أيضا كتب محمد بن محمد الرشيدى بابا كاملا في كتابه تفريج الكروب في تدبير الحروب عن التعبئة ووصف ذلك بالعلم<sup>١٣١٠</sup> .

وصف ابن خلدون طريقة القتال (أي التشكيلات القتالية) عند المماليك بقوله ( ... وبلغنا أن أمم الترك لهذا العهد كان قتالهم مناضلة بالسهم ، وان تعبئة الحرب عندهم بالمصاف ويقصد بها الصفوف ، وأنهم يقسمون إلى ثلاثة صفوف يضربون صفا وراء صف والمقصود بالمصاف هي تشكيل القتال فيها قبل المعركة ، وهو عبارة عن تنظيم وترتيب الجنود للسير في الصفوف القتالية للدخول في المعركة )<sup>١٣١١</sup> ، وهذا ما يسمى بالمصطلح العسكري الحديث ترتيب القتال ، وهو الترتيب الذي تستخدمه الجيوش بعد المسير والوصول إلى أقرب ما يكون من العدو ، أو إلى المنطقة التي تتوضع بها جيوش العدو .

وكانت الجيوش المملوكية تتخذ ترتيبا قتاليا قبل الوصول إلى العدو [ ترتيب ما قبل القتال ] قالت المصادر التاريخية : إذا ما وصلت الجيوش إلى مقربة تمركز العدو ترحلوا ، و ذلك بهدفين

أولهما : حتى يصبح الفارس مخنف ، ومستور من سهام العدو

الثاني : حتى يتمكنوا من رمي سهامهم بدقة ، وتلافي الاهتزازات التي يمكن أن تحدث أثناء التنشين نتيجة لحركة الخيل ، وبالتالي يضمن الإصابة بدقة ، وإيقاع أكبر الخسائر في صفوف العدو قبل الاقتحام ، وهذا ما يشبه التمهيد الناري في أيامنا هذه

وما أن ينتهي هذا الرمي حتى تعود الجيوش إلى ترتيب القتال ، وهو الصفوف ، وقد خاض المماليك كل معاركهم على وجه التقريب في ترتيب قتال الصفوف ، وليس فقط بل كانوا متشددين بذلك لدرجة أنهم كانوا يهددون كل من يخرج من الصف بأقصى أنواع العقاب قال المقرئزي : إذا نودي على العسكر : من خرج من الأجناد عن المصاف ، فاقتلوه ، ولكم سلاحه<sup>١٣١٢</sup> .

و ترتيب الصفوف هذا مأخوذ به ، حتى في العصر الحاضر ، وخاصة أثناء الهجوم على العدو فإذا كان العدو ضعيف تم الهجوم عليه على نسق ( صف واحد ) مع احتياط وإذا كان العدو قويا هوجم على نسقين مع احتياط وإن كان دفاع العدو قوي و منسق في العمق هوجم بثلاثة أنساق مع احتياط . وهذا تماما ما أوضحه ابن منكلي عند حديثه عن التعابي الحربية فالصف الأول عنده لتفتيت الاستحكامات ، والصف الثاني لتدمير البقية الباقية ، والصف الثالث لملاحقة فلول

<sup>١٣١٠</sup> - الرشيدى : تفريج الكروب في تدبير الحروب ، ص ٨٠ .

<sup>١٣١١</sup> - ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٦-٥٨ .

<sup>١٣١٢</sup> - المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٣٣ .

العدو الهارب<sup>١٣١٣</sup> . أما الصف الواحد ، أو النسق فليس على شكل واحد إنما يتخذ شكله نتيجة لطبيعة توضع العدو على الأرض ، أو المهمة التي سينفذها هذا الصف كما يتعلق بطبيعة تموضع قوات العدو وطبيعة ومدى فاعلية سلاحه، لذلك يمكن أن يكون ترتيب القتال ضمن الصف الواحد على شكل حلقة ، أو مستطيل ، أو مربع ، أو رأس سهم ، أو رأس سهم مقلوب وقد أوضح ابن منكلي في كتابه الأدلة الرسمية في التعابي الحربية جميع الأشكال التي يمكن أن تتخذ في الحرب ومنها

-الصف المستوي : وهو ما يعرف بتشكيل نسق واحد المستخدم وقتنا الحالي ( وفي هذه الحالة يكون دفاع العدو ضعيف ، أو مواقعه محضره على عجل أي بقوات قليلة وسلاحه معروف المدى والفاعلية ولدى القوات المهاجمة القدرة على التعامل معه وإبطال مفاعيله<sup>١٣١٤</sup> انظر الشكل (١) في ملحق بعض أنواع التعابي التي كانت تستخدم في العصر المملوكي الأول

- تعبئة السوران : أوردها ابن منكلي بهذا الاسم ( أي الأسوار ) وهو رأس سهم معكوس وتستخدم في عمليات التطويق ، والالتفاف على نقطة منفصلة بعيدة عن الجهد العام ، أو مستقلة بعد حصارها<sup>١٣١٥</sup> . انظر الشكل رقم (٢) .

- تعبئة الصف الخارج الصدر : وهو ما يعرف بتشكيل نسق واحد مع حماية الأجناب ويستخدم في حالة توقع هجوم مفاجئ للعدو من أحد الأجناب مع ضرورة تأمين هذه الأجناب<sup>١٣١٦</sup> . انظر الرسم التوضيحي رقم ٣ .

- تعبئة الظامتر : وهو مصطلح ذكره ابن منكلي<sup>١٣١٧</sup> ولم يذكر له معنى ولكن مضمونه يبدو من الرسم الذي أشار إليه أنه مؤلف من ثلاثة أنساق ( أي في حالة يتوقع فيها القائد أن تتعرض القوات إلى هجوم قوي جدا يقوم هذا القائد بإنشاء دفاع منسق بالعمق ..، أو في حالة أن منطقة الدفاع ليست واسعة الجبهة يقوم القائد بتنسيق قواته على كامل عمقها ، وبذلك يصبح الدفاع قويا ، لذلك يتم الهجوم عليها بثلاثة صفوف و أحيانا أكثر من ذلك مع تشكيل احتياط ) . انظر الرسم رقم ٤ .

- الظامتر المصغر : وهو حالة أخرى ذكرها ابن منكلي ويبدو أنها تشبه حالة النسقين مع الاحتياط ويستخدم هذا الشكل لزيادة السيطرة على القوات في حالة تدمير عدد كبير من قوات العدو ، أو عندما يتم الهجوم على دفاع العدو المحضر بشكل جيد ، والحالة الأخيرة عندما يركز القائد جهوده الرئيسية على نقطة يمكن تطويقها<sup>١٣١٨</sup> . انظر الشكل رقم (٥) .

- تعبئة السماوي : وهو أيضا مصطلح من كتاب ابن منكلي ، وكان هذا النوع من التعبئة يعرف بمنسوب حرف ج في ذلك الوقت<sup>١٣١٩</sup> ( ويعرف حاليا برأس السهم ) ، ويستخدم للوصول إلى العمق في دفاعات العدو . انظر الرسم التوضيحي رقم ٦ .

<sup>١٣١٣</sup> - ابن منكلي : الأدلة الرسمية ، ورقة ١٣ .  
<sup>١٣١٤</sup> - ابن خلدون : المقدمة ، ص ٥٦-٥٨ . ابن منكلي : الأدلة الرسمية ، ورقة ١٥ وما بعدها .  
<sup>١٣١٥</sup> - ابن منكلي : الأدلة الرسمية ، ورقة ١٢ . المقريري : المواعظ والاعتبار ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .  
<sup>١٣١٦</sup> - ابن منكلي : ورقة ٢١ .  
<sup>١٣١٧</sup> - ابن منكلي : ورقة ٢٢ .  
<sup>١٣١٨</sup> - ابن منكلي : ورقة ٢٢ .  
<sup>١٣١٩</sup> - اتجه بعض المؤلفين إلى القول : بأن تسمية بعض التعابي بالحروف ( كحرف ج على سبيل المثال ) هوروح العصر في ذلك الوقت بمعنى أنه نوع من السحر والشعوذة لكننا نجد أن تسمية بعض أنواع التعابي بأسماء الحروف هو أرقى أنواع التفكير

تعبئة تسعة اعشار الفرسان ، أو منسوب حرف ط ، وهو ما يعرف الآن بتشكيل رأس سهم في نسقين ، ويستخدم لسرعة الوصول إلى عمق دفاعات العدو بسبب التعزيز الكبير للقوات المهاجمة . انظر الشكل رقم (٧) .

هناك شكل آخر من أشكال التعبئة ذاكره ابن منكلي ، وهو تعبئة أربعة عشر من الأجناد الفرسان ، أو ما يسمى منسوب حرف (د) ١٣٢٠ ، وهو ما يعرف حالياً بتشكيل نسق واحد ويستخدم لتدمير عدو قليل العدد بمعنى أن هذا التشكيل يستخدم عند الهجوم على دفاع ضعيف أو محضّر على عجل أي بوقت قصير جداً . انظر الشكل رقم (٨) .

- ومن الأشكال التي ذكرها أيضا ابن منكلي ما يسمى تعبئة خمسة عشر فارسا ، أو منسوب حرف (ي) ، ويستخدم لتدمير مجموعة قليلة العدد انظر الشكل رقم (٩) .

- تعبئة الدبزان (أو حوض النجاة) ، أو ما يعرف في ذلك الوقت منسوب حرف (ز) ، وهو على شكل رأس سهم مقلوب ، ولكنه يستخدم للهجوم على أحد الأجناب فقط ، وليس الهجوم على الجانبين انظر الشكل رقم (١٠) في ملحق التعابي الحربية .

- تعبئة السفران أي رأس السهم المعكوس . انظر الشكل رقم ٢ في ملحق أنواع التعابي الحربية في العصر المملوكي الأول .

- تعبئة المنازل القمرية .

- تعبئة شهوران – انظر الشكل رقم (٩) ، وما يعرف بالتشكيل الصندوقي ( استخدم في الحرب العالمية الثانية)

- تعبئة ، أو تشكيل ذات الدوائر أي التشكيل الدائري ، ويستخدم حالياً وخاصة في الدفاع وفيه تتحقق القيادة ، والسيطرة ، والتأمين من جميع الاتجاهات ، وهذه الأنواع من التشكيلات هو أرقى أنواع العلم العسكري .

التعبئة عند الصليبيين :

أيضاً الجيوش الصليبية اهتمت بمسألة التعبئة ، وأدرك القادة الصليبيون الخطر الذي ينطوي عليه إهمال هذه المسألة . لأن القائد ومهما امتلك من مؤهلات لا يستطيع السيطرة على جنوده أثناء تنفيذ المعركة إذا لم يكن قد عبأهم ضمن نظام محدد .

وتعبئة القوات عند الصليبيين تتعلق بمسائل كثيرة منها نظام تعبئة العدو ، وكيفية مواجهته . لكن من المؤكد أنّ نظام التعبئة عند الصليبيين قد تأثر بشكل واضح عما كان عليه في الغرب فنظام الفروسية التي غالباً ما تأسست وحداتها التكتيكية على العلاقات ( الأسرية ، أو الإقطاعية ) ، حيث كان رجالها يصطفون واحداً تلو الآخر ، وبذلك يشكلون كتبية ، وقد أظهرت الكثير من المعارك التي خاضها الصليبيون تنظيم قواتهم وفق ذلك . قال الشارترى : ( .. ثم أمرنا

الذي توصل إليه العلم العسكري ، وليس كما يدعي البعض أنه روح العصر ، فيكفي أن يصدر القائد أمراً يذكر فيه الحرف اللازم لاتخاذ التشكيل ، أو نوع التعبئة دون أية إضافة ، أو شرح وهو ما يستخدم في أيامنا هذه كأي اصطلاح كودي ، أو كلمة السر للمرور أو غير ذلك ، وبذلك تنفذ أوامر القائد بالسرعة الكلية طبقاً لقرار القائد ، ويختصر الوقت اللازم لذلك في الوقت نفسه ١٣٢٠ - ابن منكلي : الأدلة الرسمية ، ورقة ٢١ .

الملك بحمل السلاح ونصطف في وضع القتال))<sup>١٣٢١</sup> ، وهذه إشارة واضحة إلى أن الصليبيين كانوا يستخدمون نظام الصفوف أو الخطوط ، فقد قال : (( وتمكن الأعداء بالفعل من دحر الخطين الأولين من جبهتنا وسيطروا عليها ))<sup>١٣٢٢</sup>

ومن الأشكال الأخرى التي عرفت من خلال حروبهم تشكيلة الإسفين التي تسمح لهم وخاصة أثناء الحركة أن يأمنوا مواجهة القوات الإسلامية من كافة الاتجاهات التي يمكن أن تظهر منها<sup>١٣٢٣</sup> ، ويبدو أنّ القوات الصليبية كانت تنظم في مقدمة وكانت تضم الجهد الأكبر الذي شكلته المنظمات العسكرية ، الداوية والاستبارية )<sup>١٣٢٤</sup> . أما الجزء الثاني فكان يسمى المؤخرة أو الساقة ، وتؤمن حمايتها من قبل مقاتلون مجربون ، وآخرون من الداوية والاستبارية<sup>١٣٢٥</sup> .

#### ٤ - القيادة والسيطرة على الجيوش في العصر المملوكي الأول :

حتى يتحقق النصر في أية معركة يجب تنظيم القيادة ، والسيطرة على الجيوش في ساحات القتال ، و إيجاد الوسائل اللازمة من أجل تحقيق ذلك ، فهناك الفرسان ، ولهم قيادة ومهام وهناك الرجالة ، ولهم مهامهم ، وهناك الزراقيين ، و النقبين ، ورماة المنجنيق ، وسلاح البحرية ، والأسلحة الأخرى ، وكل سلاح وله مهامه .

وفي المعارك قد يشترك نوع من الأسلحة ، أو أكثر ، أو كل الأنواع ، لذلك لا بد من القيادة والسيطرة على هذه الأسلحة عن طريق توجيه عملها ، وإعطاء التعليمات لقادتها ، والسيطرة على أعمالهم من أجل إنجاز القرار الذي أتخذ من قبل القائد الأعلى ( السلطان ) وصولاً إلى تحقيق الهدف الذي اتخذه مجلس الحرب ، والذي قد يكون التصدي للعدو ودحره و الانتصار عليه<sup>١٣٢٦</sup> ، أو الهجوم على عدو ، والاستيلاء على أرض ، أو تحرير جزء محتل أو غير ذلك ، وبالتأكيد لا يكون ذلك إلا بالقيادة الموحدة لكل تلك الأنواع والصنوف من القوات فهي وحدها فقط القادرة على حشد الطاقات المادية والمعنوية واستعمالها في المكان والزمان المناسبين<sup>١٣٢٧</sup> .

والسؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو : هل تحدث المؤرخون عن القيادة ، والسيطرة في العصر المملوكي الأول ؟ . الإجابة ببساطة تقول نعم .

ومن الكتب التي تحدثت عن ذلك هي :

(( الحيل في الحروب ، وفتح المدائن وحفظ الدروب )) . حيث وضح صاحب هذا الكتاب و بشيء من التفصيل في الوسائل المستخدمة في القيادة<sup>١٣٢٨</sup> .  
(( نهاية السؤل والأمنية في تعلم أعمال الفروسية )) ، وجاء فيه أهمية اختيار القادة من ذوي الخبرة ، والحزم ، وهذه الأمور هي من أولى واجبات القائد الأعلى )

١٣٢١ - الشارترى : الاستيطان الصليبي في فلسطين ، ص ١٧٤ .

١٣٢٢ - الشارترى : ص ١٧٥ .

١٣٢٣ - فترى : رسائل جاك دي فترى ، ص ١١١ .

١٣٢٤ - جوانفيل : تاريخ القديس لويس : ص ١٠٢ ؛ روثلين : ذيل تاريخ وليم الصوري ، ص ٥٩٧ والتي تليها .

١٣٢٥ - جوانفيل : ص ٩٤ .

١٣٢٦ - الأفسرائي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٤٥٤ .

١٣٢٧ - ابن شاعر الكتبي : عيون التواريخ ، السفر الأول ، ص ١١٠ .

١٣٢٨ - ابن منكلي : الحيل في الحروب ، ص ٣٣٦-٣٤٣ .

السلطان . كما جاء فيه عن أهم المعايير ، والصفات الواجب توفرها عند القادة ، بالإضافة إلى الفوائد التي يحققها القائد من عرض الجند قبل المعركة ، أو في أوقات محددة<sup>١٣٢٩</sup> .

(( التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية )) : حيث جاء فيه ، وبشيء من التفصيل ضرورة أن يطلع القائد على أنواع التعابي الحربية ، وفصل في الصفات العامة للقائد ، وأن تكون ثقافته العسكرية واسعة ، ومتنوعة لكي يكون قادراً على معرفة من يصلح من الرجال للكمين فرسانا كانوا أم رجالة<sup>١٣٣٠</sup> .  
(( الأدلة الرسمية في التعابي الحربية )) : حيث فصل في واجبات القائد قبل المعركة وأثناءها ، وبعدها .

أما عن الأدوات التي استخدمها المماليك في قيادة القوات والسيطرة عليها فهي متنوعة لكنها تنحصر في مجموعتين :

الأدوات التي يمكن سماع أصواتها . ( يقابلها في العصر الحديث الهاتف واللاسلكي واللاسلكي الموجه ومكبرات الصوت )  
الأدوات التي يمكن رؤيتها . ( يقابلها في العصر الحديث الأعلام والرايات والدخان والطلقات الخطاطة والشهب الملونة ) .

الأدوات التي يمكن سماع أصواتها : مثل الأدوات الموسيقية التي كانت ترافق القوات المملوكية في حلها ، وترحالها ، وكانت الفرق الموسيقية تتوزع في المعسكرات بحيث تشمل كل الأمراء ، فكان لكل أمير طبله الخاص استخدمت نغماته كأوامر واجبة التنفيذ عند سماعها ، وهي تشبه في وظيفتها كأجهزة اتصال أجهزة اللاسلكي ، أو السلكي في الوقت الحاضر .

إذا استخدمت الأدوات الموسيقية كطرق اتصال بين الجنود ، وبين القادة ، أو بين القادة وبين تشكيلاتهم المقاتلة ، أو بين التشكيلات ، والوحدات العسكرية بعضها مع بعض .

ومن هنا يمكن تفسير تلك الأهمية الكبيرة للأدوات الموسيقية في العصر المملوكي الأول بحيث كان لها أميرها ، أو ما يسمى بالطبلخانة الذي كان مسؤولاً عن حفظها ، والعناية بها<sup>١٣٣١</sup> . ويبدو أن الأدوات الموسيقية كانت في العصر المملوكي الأول جزءاً أساسياً من معدات الجيش .

قال محمد بن منكلي الناصري : (( .. الذي يجب على الوالي ، وجنوده أمران أحدهما يشبه الوالي ، ويليق به ، والآخر يشبه الجنود ، ويجب عليهم ، ولا يكون أحدهما إلا بصاحبه فالذي يشبه الوالي : أن لا يخل جنده ، وقواده ، وأصحاب أركانه من الأمر ، والنهي فيما يبسطوا ، ويكفون ، ويتأخرون ، ويدخلون إليه ، ويخرجون عنه ، ويبادرون و يماطلون و

<sup>١٣٢٩</sup> - الأقسراي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٤٢٨ .

<sup>١٣٣٠</sup> - ابن منكلي : التدبيرات السلطانية : ص ٣٣٥ - ٣٤٣ .

<sup>١٣٣١</sup> - القلقشندي : صبح الأعشى : ج ٣ ، ص ٤٧٣ .

= ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ٦٣

أن يضعوا لهم من الآلات التي تسمعهم كالطبول ، وما أشبهها دليلاً لهم على ما يوعز إليهم ، وما يشار إليهم ))<sup>١٣٣٢</sup> .

ويتابع ابن منكلي : (( أما الذي يشبه الجنود أن تكون أسمعهم مصغية إلى طبولهم الموضوعة لهم ، وإلى أنواع مزامير الحروب فلا يتقدموا إذا أخروهم ، ولا يتأخروا إذا قدموهم ))<sup>١٣٣٣</sup> . وهذا يكفي للدلالة على استخدام الآلات الموسيقية كواسطة اتصال تكتيكية بين القائد وبين جنوده ، وبين الوحدات مع بعضها البعض . إذ من الممكن أن تصدر منها أصوات متفق على معانيها مسبقاً مثل (( اهجم ... ترجل ... استخدم السهام ... امتط الجواد ... انطلق للهجوم ... خط التعبئة الفلاني ... الخ )) . وهذا يحتاج إلى تدريب مكثف وواعي وتفاهم بين القائد ، ووحداته ، وجنوده .

تستخدم الآلات الموسيقية للقيادة ، والسيطرة في جميع الظروف ليلاً ، ونهاراً ، وأكثر ما تستخدم في ظروف الرؤيا الصعبة وفي الليل<sup>١٣٣٤</sup> .

وقد استخدمت هذه الأدوات كوسيلة للاتصال ، والقيادة ، والسيطرة في كافة وحدات الجيش المملوكي الأول بين القادة ، وجنودهم في كل الحروب التي خاضوها ضد أعدائهم سواء أكانوا من الصليبيين ، أو المغول .

فعلى سبيل المثال لا الحصر عندما قرر السلطان الظاهر بيبرس تحرير مدن الساحل من الصليبيين استدعى كتاب الدرج<sup>١٣٣٥</sup> ، وطلب منهم أن يكتبوا المناشير ، وأن يجهزوا الطبلخانة ، واستدعى من الجشرات<sup>١٣٣٦</sup> خمسمائة فرس من أجل الطبلخانة ، وخيول الأمراء<sup>١٣٣٧</sup> .

وقال المقرئ في وصف جيش المماليك قبل التحامه بالنتار في موقعة شقحب سنة ١٣٠٣م / ٧٠٢هـ (( بات السلطان ، وسائر العسكر على ظهر خيولهم ، والطبول تضرب وهم يقصدون ضرب الطبول السلطانية ، والكوسات الحربية ))<sup>١٣٣٨</sup> .

ولم تكن هذه الوسائل حكراً على السلطان الذي هو القائد العام للجيش بل كان لكل أمير طبوله ، وموسيقاه يستخدمها لنفس الغاية للقيادة ، والسيطرة والاتصال<sup>١٣٣٩</sup> ، ولرفع الروح المعنوية عند المحاربين .

وكان المماليك يستخدمون نوعاً من الطبول اسمه النقارات ، وهو طبل ذات شكل اسطواني مجوف مشدود الجلد ، وكانت تستخدم لإصدار الأوامر ، وفي الإيذان ببدء القتال وكانت تحمل على عشرين بغلاً على كل بغل منها مثنى وثلاث ورباع<sup>١٣٤٠</sup> .

<sup>١٣٣٢</sup> - ابن منكلي : الحيل في الحروب ، ص ٣٣٣ .

<sup>١٣٣٣</sup> - ابن منكلي : ص ٣٣٣-٣٣٤ .

<sup>١٣٣٤</sup> - ابن منكلي : ص ٣٣٤ .

<sup>١٣٣٥</sup> - كتاب الدرج : من موظفي ديوان الإنشاء . انظر : القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا : ج ١ ، ص ١٣٧ .

<sup>١٣٣٦</sup> - الجشرات : جمع جشار وهو مكان رعي الماشية من خيل وغيرها . المقرئ في السلوك : ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٤٩٠ ، حاشية رقم ٢ .

<sup>١٣٣٧</sup> - المقرئ في السلوك : ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٩٠ .

<sup>١٣٣٨</sup> - ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٥٦ .

المقرئ في السلوك ، ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٣٥ .

<sup>١٣٣٩</sup> - المقرئ في السلوك ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٤٣١ .

لكن لهذا النوع مساوئه فقد يضيع الصوت في السهول الفسيحة أو في ثنايا الوديان أو سفوح الجبال وقد يستطيع العدو بطريقة أو بأخرى إلى أن يتوصل إلى حل شيفرة تلك الأصوات وأن يتعرف إلى معانيها وبالتالي يقوم بإجراءات مناسبة تفسد الخطط التي وضعت من قبل القادة وتصبح تكتيكاتهم في ميدان المعركة مكشوفة مما يعرضهم إلى الإخفاق . لذلك لا بدّ من طرق أخرى بديلة لإيصال التعليمات والأوامر .

النوع الثاني : الأدوات التي يمكن رؤيتها ، وتستخدم في ظروف الرؤية الجيدة في النهار ، وهذه الأدوات هي الأعلام ، فقد استخدم الجيش المملوكي في العصر المملوكي الأول العلم كشعار يلتف حوله الأمراء ، والجند ويدافعون عنه باعتباره رمز للوطن والشرف ، والكرامة ، والعزة ، والإباء .

كما استخدمت الأعلام أيضاً كرموز للوحدات ، والتشكيلات العسكرية ، واستخدمت أيضاً للقيادة ، والسيطرة في المعارك ، والحروب .

وذلك بتدريب الجنود على حركات معينة بالأعلام ، وكأنها إيعازات ، وأوامر واجبة التنفيذ من قبل الجميع .

وقد قسمت هذه الإيماءات ، والحركات ، والإشارات إلى أنواع منها : بين القائد ، وجنوده ومنها بين القائد الأعلى ( السلطان ) ، وبين الأمراء ، ومنها بين الوحدات ، والتشكيلات لتنظيم بما يسمى اليوم القيادة ، و التعاون .

وهكذا كانت تصدر الأوامر ، وتصل التعليمات ، أو البلاغات العكسية ( التبليغ عن أمر نفذه المرؤوسين ) ، أو المعلومات ، وكان للسلطان المملوكي من الأعلام ثلاثة أحدها من الحرير الأصفر المطرز بالذهب منقوش عليه ألقاب السلطان ، واسمه ، ويسمى العصابة يحملها العلم دار<sup>١٣٤١</sup> .

وقد تحدث محمد بن عيسى الاقسرائي عن نصب الألوية ، والرايات ، وألوانها ، وقال : (( يجب أن يتخذ كل قوم شعاراً إذا خرجوا في مغازيهم ، والشعار هو العلامة لو ضلّ رجل عن أصحابه وعن أهل رايته نادى بشعاره ))<sup>١٣٤٢</sup> ، ويستخدم أيضاً لإعطاء الأوامر والتعليمات قبل المعركة ، وخلالها ، فقال : (( إذا أراد قائد الجيش أن يغيّر في نوعية التعبئة التي كان قد عبأ فيها فعليه أن يجعل له إشارة حتى إذا أشار بها غيّر بما أراد القائد )) ، ومن هذه الإشارات (( الميل و الانقلاب ، الانفتال وتسوية الانفتال ، استدارة كبرى ، واستدارة صغرى ، استدارة مطلقة ، إتباع الميمنة ، أو الميسرة ، جيش منحرف جيش مستقيم ، جيش موارد ، تقدم .. تأخر ))<sup>١٣٤٣</sup> ، وشرح كل واحدة من هذه الإشارات بالتفصيل

<sup>١٣٤٠</sup> - القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٤٧٥ ، ج ٤ ، ص ٧ .  
<sup>١٣٤١</sup> - العلم دار : لفظ مؤلف من كلمتين الأولى علم وهو لفظ فارسي معناه الراية والثانية دار بمعنى حامل أو صاحب فيكون العلم دار حامل الراية أو صاحب الراية . القلقشندي : صبح الأعشى ، مصدر متقدم : ج ٤ ، ص ٨ ، ج ٥ ، ص ٤٥٦ ؛ ابن خلدون : المقدمة ، ص ٢٠٥ . ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ج ٦ ، ص ٤٨٣ .  
<sup>١٣٤٢</sup> - الاقسرائي : نهاية السؤل والأمنية ، ص ٥١٣ .  
<sup>١٣٤٣</sup> - الاقسرائي : السؤل والأمنية ، ص ٤٨٣ - ٤٨٦ .

، ومن يود الاستزادة عليه الرجوع إلى كتاب نهاية السؤل والأمنية في تعلم أعمال الفروسية

وتحدث محمد بن منكلي عن القيادة ، والسيطرة بواسطة البنود فقال : (( هذا يكون للأركان ، والصفوف ، و الكراديس ))<sup>١٣٤٤</sup> . وقد شرح ذلك بقوله : أن يجعل القائد لكل ركن ، أو كردوس مطرداً<sup>١٣٤٥</sup> على مثال أعلامهم ، فإذا أراد أن يحرك الناحية أو الركن ، أو الكردوس أو أحد الدعائم أمر الذي معه ذلك المطرد أن يحركه باتجاه محدد ، وحسب الأمر بحركة قد تم مسبقاً التدريب عليها من قبل الجميع فتتحرك الوحدة ، أو الركن ، أو الكردوس إلى حيث أشير بالبند إليه<sup>١٣٤٦</sup> ، قال ابن أبيك : (( ... ولاحت منه التفاتة ، فرأى الميسرة ، وقد حملت عليها ميمنة التتار ، فكادت أن تتأخر ، فأشار لصاحب حماة أن يردف الميسرة ))<sup>١٣٤٧</sup> ، وذكر ابن منكلي أن هناك حركات لتبديل الجيوش – خروج الصفوف ودخول أخرى . وحركات للتعاقب بين العصب .

(( والعصبة هنا حسب ما جاء عنده صفان متقاطران وعدد ما فيهما اثنان وثلاثون رجلاً والمقدم عليهم يسمى صاحب العصبة ))<sup>١٣٤٨</sup> ، وقد ذكر الهرثمي في مخطوطته مختصر سياسة الحروب الورقه ٢٩ : العصبة تكون من الفرسان ، والرجالة ، وتعدادها أربعون رجلاً أما ابن منكلي فقال : يمكن استخدام الطريقتين المسموعة والمرئية فيما يسمى القيادة ، والسيطرة ، فيمكن دخول ، وخروج العصب إلى الميدان باستخدام الموسيقى والرايات بمعنى أن القادة كانوا يدرّبون الجيوش على أداء حركات منضبطة منظمة دقيقة قوية ذات دلالة بمجرد سماع نغمة موسيقية ، أو رؤية راية محددة بحركة معينة ، ومثال ذلك الدخول والخروج من ، وإلى الميدان ، وكان ذلك يستخدم في ميادين التدريب والقتال على حد سواء من قبل القادة ، أو مساعديهم ، وليس فقط الدخول ، والخروج إنما إعطاء الأوامر والتعليمات ذات الدلالات العملية القتالية كالدفاع والهجوم ، والإنتظار ، والتقدم والإلتفاف كل ذلك بإشارات لمساعدة القادة ، والأركان لتحريك المقدمة ، أو الأجناب باتجاه العدو ، أو للانسحاب إلى غير ذلك<sup>١٣٤٩</sup> .

وهكذا فقد استخدم الجيش المملوكي حركات ، وإشارات ، ونغمات ، وقرع ، وأصوات بقصد قيادة الجيوش ، والسيطرة عليها ، وضبط تحركها ، وإعطاء الأوامر ، والتعليمات من المستوى الأعلى إلى المستوى الأدنى ، أو إيصال التقارير ، أو الطلبات من المستوى الأدنى إلى الأعلى ، ومثل هذه الطرق مازالت مستخدمة في عصرنا الحاضر ولكن وبالتأكيد تطورت الأدوات ، وهذا يدل على عبقرية في قيادة المعارك والتكتيك القتالي وقيادة الجيوش التي عرفها العصر المملوكي الأول .

<sup>١٣٤٤</sup> - ابن منكلي : الحيل في الحروب ، ج ٢ ، ص ٣٣٩ .

<sup>١٣٤٥</sup> - المطرد : دون العلم والبند . النويري : نهاية الأرب : ج ٦ ، ص ٢١٨ .

<sup>١٣٤٦</sup> - ابن منكلي : الحيل في الحروب ، ج ٢ ، ص ٣٣٩-٣٤٠ .

<sup>١٣٤٧</sup> - ابن أبيك الداودار : كتنز الدرر ، ج ٨ ، ( الدرر الزكية في أخبار الدولة التركية ) ، ص ١٩٩ .

<sup>١٣٤٨</sup> - ابن منكلي : الحيل في الحروب : ص ٣٤١ .

<sup>١٣٤٩</sup> - ابن منكلي : ص ٣٤٩-٣٦٦ .



## الخاتمة :

المقدمات الصحيحة تؤدي دائماً إلى الحصول على نتائج صحيحة بالضرورة . هذه القاعدة الذهبية في أم العلوم جعلت الكثير من المؤرخين على يقين من أن عصر الدولة المملوكية الأولى قد يكون في نواحي كثيرة من أزهى العصور الإسلامية في مصر ، والشام على الرغم من الحروب المتواصلة التي خاضتها البلاد ضد الصليبيين ، والمغول في عشرات من المعارك الدموية .

أظهر هذا البحث أن مصر ، والشام ظلنا مدانة لنتائج تلك المعارك في إنقاذهم من التسلط الأوروبي ومن غارات المغول الهمجية ، وما أحدثوه من الخراب ، والنهب ، وسفك الدماء . هذه النتائج الكبيرة التي أشير إليها قبل البحث لأنها علامة فارقة وإشكالية بحث كبيرة شكلت الدافع الأساسي للوقوف على المقدمات التي أفضت إلى تلك النتائج الكبيرة ، فتبين أن صورة ذلك العصر لا تتمثل فقط في تلك العمائر التي شيدها والمساجد التي عمروها ، والمدارس ، والخانقاهات ، والأسبلة ، والحمامات ، والأضرحة التي ما زالت نماذج منها باقية حتى اليوم ، بل أيضاً في ذلك التراث العلمي الرائع الذي خلفه العلماء ، والأدباء في مؤلفاتهم التي ما زالت تعد في طليعة مصادر البحوث والدراسات في شتى أنواع العلوم والثقافة ، والتي شكلت التربة الصالحة ، والأرضية الصلبة لتطور العلوم العسكرية ، وفن الحرب في العصر المملوكي الأول .

والواقع أن ما كشف من هذا التراث لضئيل جداً ، وفي رأي معظم المشتغلين في هذا الحقل إن التاريخ العلمي للدولة المملوكية الأولى لم يكتب ، ولم يدرس بعد ، ويقصد بهذا التاريخ مجالات علوم الطب ، والصيدلة ، والفلك ، والكيمياء ، والرياضيات، والهندسة ، وعلم النبات وعلم الحيوان ، وعلم الأرض ، والجغرافية بشكل عام .

وقد عالج البحث في الفصل الأول في عجالة منه هذه العلوم من خلال توضيح علاقاتها بفن الحرب المملوكي في عصره الأول ، ومدى تطورها بشكل عام ، وبكثير من الاختصار من خلال إعطاء بعض الإشارات ، والدلالات على مدى تطور كل علم من هذه العلوم .

ففي علم الهندسة كشف هذا البحث عن أشياء كثيرة ، وأظهر عدة حقائق أهمها : الأسباب المباشرة ، وغير المباشرة لتطور هذا العلم وعلاقته بالعلوم الأخرى ، وبالحياة العامة للناس واحتياج فن الحرب القتالي إلى هذا العلم لاسيما في صناعة الأسلحة ، وفي تحصين المدن والقلاع ، وفي الوقت نفسه في عمليات اللغم والنقب التي توقف على نجاحها الكثير من المعارك بعد ذلك تم إظهار مدى تطور هذا العلم من خلال سرد بعض أسماء المهندسين الذين عاشوا في العصر المملوكي الأول وذكر بعض آثارهم ، ومؤلفاتهم .

أما علم الكيمياء الذي يبدو أنه تطور تطوراً كبيراً في ذلك العصر بدليل ما قد توصلت إليه من نتائج بحوث من اشتغلوا بهذه الصنعة، فقد ذكر حسن الرماح أحد كيميائي العصر المملوكي الأول وصفاً لكيفية تنقية نترات البوتاس وهي العملية الجوهريّة بل الأساسية في صناعة البارود المتفجر ، وهي نقطة البداية في صناعة الأسلحة النارية التي حسمت الكثير من المعارك لصالح المماليك ، ولم يسبق الرماح أحد في ذلك الوصف .

كما أوضح البحث من خلال ما ذكره ابن منكلي والأقسرائي ، وغيرهم ممن عني بعلم الكيمياء عدة طرائق لاستخراج المعادن ، وصناعة الفولاذ ، وسقايته الأمر الذي مهد لقيام صناعات حربية متطورة . بعد ذلك تم عرض مجموعة كبيرة من الأسماء التي كان لها باع طويل في علم الكيمياء ، وأهم آثارهم التي تركوها ، والكتب التي ألفوها .

أما في علم الطب الذي شهد العصر المملوكي الأول ما يشبه الثورة العلمية في ميدانه لدرجة أن أحدهم علق على روعة ذلك العصر بقوله : إذا كان مؤرخوا الطب قد أطلقوا اسم العصر الذهبي على الأيام التي ظهر فيها أبي بكر محمد زكريا الرازي حق لنا بكل فخر واعتزاز أن نطلق على زمان ابن النفيس العصر الماسي للطب العربي .

وقد كشف البحث مدى تطور الطب في زمانه تطوراً هائلاً ، فاكتشفت الدورة الدموية الصغرى واكتشف أن دم الإنسان ينقى في الرئتين ، وتطورت طرق العلاج ، وصنفت الأدوية بأسمائها ومصادر فعاليتها وكمياتها ، ووضعت قواعد التداوي بالدواء من اختيار الأضداد لمقاومة المرض ، وفي ذلك الزمان ظهرت أول فكرة شرحت البعد الثالث ، وتطور طب العيون واكتشف أن الساد يقع خلف القرنية وليس أمامها ، وفي ذلك العصر وصف الساد الجزئي ووصف انخلاع العدسة الجزئي ، ووصف ازدواج الرؤية في العين الواحدة ، كما عرفت طريقة استخراج الساد بالغط والشطف .

وكثيرة هي الأسرار العلمية في مجال الطب التي اكتشفت في العصر المملوكي الأول وأميط عنها لثام الغموض ، فصارت مجالاً رحباً لشفاء الناس ، وسعادة الإنسانية جمعاء ، ولا شك أبدأ أن القائمة الطويلة بأسماء الأطباء التي ورد ذكرها في البحث ، وما تركوه من كتب لدليل على عظمة ذلك العصر وتطور العلوم الطبية فيه .

أما علم الجغرافية ، فهو الآخر قد تطور تطوراً كبيراً في العصر المملوكي الأول نتيجة للأسباب التالية :

- ١- وجود الحدود المفتوحة التي شجعت الرحالة على القوم ، أو المرور والعبور .
- ٢- ازدهار التجارة ، وتنقل التجار ، وسيطرة الدولة المملوكية الأولى على تجارة الشرق مع أوروبا .
- ٣- تشجيع السلاطين ، وحاجة القادة العسكريين لهذا العلم من أجل :
  - دراسة معالم الأرض ومسرح الأعمال القتالية .
  - معرفة طرق التقرب ، والمناورة ، والإمداد ، والمنشآت المقامة عليها .
  - توفر مصادر المياه ، والأعشاب ، وغير ذلك مما تحتاجه الجيوش في منطقة الأعمال القتالية .
  - طبيعة المناخ والفصل ، وطبيعة الرياح .

- السكان انتماءهم وديانتهم ، والطبيعة الاجتماعية لهم .

كل ذلك جعل من هذه المعارف إحدى المقومات الأساسية لتحقيق النصر على العدو . لذلك كان اهتمام البحث جدياً بتلك المعارف ، ويمكن أن نحصرها باتجاهين أساسيين :

الأول : الخطط واعتنت بالمدن وخطوطها وشوارعها وأسواقها ومنتزهاتها ومنشأتها وسكانها وهو أمر ضروري ومهم .

الثاني توسع في المعارف الجغرافية ، فتمت دراسة الأرض ، وهيناتها ، وجبالها ، وهضابها ووديانها ، ومعادنها ، وعيونها ، وآبارها ، وأنهارها ، ومناخها ، وفصولها شتاتها وصيفها ، ومطرها ، وتلجها ، ورياحها ، وطرقها ، وعن أسباب سكن المعمور منها .

وكثرة من اشتغل بهذا العلم دليل على أهميته وتطوره .

أما الفصل الثاني فقد أظهر البحث فيه أن العلم العسكري وتقنياته الحربية ، [ والتقنيات الحربية تعني مدى التطورات التي حصلت على الأسلحة في العصر المملوكي الأول ] قد تطورت تطوراً ملحوظاً ، وأسباب ذلك التطور يمكن أن تحصر في مقولة واحدة هي : لا يزال الحوار يحتدم بين الدفاع والهجوم وكل منهما يحاول أن يحقق النصر على الآخر عبر أدواته مستديماً العلم ، والثقافة ، والخبرة ، والمماليك مثلوا الحالتين ، فقد دافعوا ، وهاجموا وكانوا دائماً يستدعون العلم والثقافة والخبرة لتحقيق أهدافهم التي تحققت فعلاً في عين جالوت ، وفي معركة حمص ، وفي معركة شقحب ، وغيرها من المعارك مع المغول وفي اقتلاع بقايا الصليبيين من الأرض العربية ، وضرب المشروع الأوربي للمنطقة العربية [ ولو أن ذلك كان في زمانهم فقط ] ، فقد بين البحث أن ذلك العصر كان له قصب السبق في كثير من الأشياء منها :

١- تنظيم الدولة ، والجيش [ أحدثوا وظيفة أمير سلاح ، وأمير مجلس ، ورأس نوبة الأمراء وحاجب الحجاب ، والداودار ، والجمدار ، وأمير شكار ووظائف أخرى ] بما يحقق لهم السهولة في تحقيق الهدف ، فالنظيم أساس وقاعدة لا بد منها لتحقيق الاستقرار ، والتطور الاقتصادي ، والعلمي ، والثقافي الذي يعد الدعامة الأقوى في تطوير تقنية الأسلحة في العصر المملوكي الأول .

٢- تطوير طرق تصنيع بعض المعادن الداخلة في تصنيع الأسلحة مثل الفولاذ وتعددت أنواع السكايات لدرجة أن أحدهم قال : إذا صنع منشار وسقي بالطريقة المذكورة فإنه يقطع الزجاج كما تقطع المنشار الخشب ، وذلك دليل على جودة وقساوة المعدن والجميع يعلم أنه لا يقطع الزجاج إلا الماس نظراً لقساوته .

٣- أدخلوا علم الرياضيات في صناعة الأقواس من خلال :

٤- جعلوا ميل السيئين في القوس بالنسبة للدستارين ٦٠ درجة في القوس المغولي الفارسي ، و ٩٠ درجة في القوس الهندو فارسية ، وقالوا : بغير ذلك تكون السية ضعيفة .

٥- قالوا : أن طول الوتر يجب أن يكون ١٢/١ من طول القوس كله ، وأضافوا أن قوة شد الوتر [ حيل القوس ] يتعلق بقوة السحب إلى الخلف .

- ٤- وزن النصل الذي يركب على السهم يجب أن يكون ١ / ٧ من وزن السهم .
- ٥- وزن الوتر يتعلق بحيل القوس ، أو شدة الوتر ، وتساوي ثلث عُشر العشر من حيل القوس .
- ٦- بلغ طول السهم من ٦٠ - ١٨٠ سم ، ووزنه من ٢- ٣ كغ .
- ٧- تمكنوا من صناعة أسهم تشتعل فور إطلاقها في الهواء .
- ٨- تمكنوا من صناعة قوس آلي ميكانيكي له جهاز معقد للتريير ، والإطلاق ومن خلاله يتم التحكم بمسافة الرمي على الأهداف حسب بعدها ، أو قربها .
- ٩- تمكنوا من صناعة قوس يمكن أن يرمى منه رشقة سهام في الوقت نفسه وفي اتجاهات متعددة حسب الطلب .
- ١٠- طوروا المنجنيق الحربي وصار له ثقل معاكس ، فصار أقوى وذراعه ، أو سهمه أضخم ، وأبراجه أمتن ، ومقلعه أطول ، ولا يحتاج إلى قوة عاملة كبيرة لتنفيذ الرمي .
- ١٠- طوروا نوعاً من المنجنيق سموه المنصوري ، وصار يحمل على مائة عجلة .
- ١١- تم اختراع نوع من المدافع سموها المكاحل ، والحقيقة أن المعروف عن اختراع هذا النوع من الأسلحة ليس كثير ، فقد اكتفى بعض المؤرخون بذكر استخدام تلك الأسلحة في المعارك ، أو ذكر وجودها في مكان ما أو في مدينة ما ، ولم يتطرق لأحد أماكن صناعتها أو طرق صناعتها ، أو المصانع التي تنتجها ، أو غير ذلك من المعلومات التي كتبت عن الأسلحة الأخرى . وهذا يستدعي البحث الجدي في التراث العلمي لدولة المماليك الأولى ذلك التراث الذي ما زال بكرا يحتاج إلى من يبحث فيه .
- ١٢- إن ما ذكره ابن ارنبغا الزردكاش عن قنذاق المكحلة [ ميزان الرمي ، أو جهاز قياس الرمي ] بيّن أن هذا الجهاز يحدد مسافة الرمي على الهدف ، وذلك من خلال تحديد زوايا رمي المدفع ، وهذا أمر في غاية الأهمية والتطور العلمي .
- ١٣- استخدم المماليك البارود ، وهم أول من استطاعوا تنقية نترات البوتاس من الشوائب ، وهي العملية الجوهريّة في صناعة البارود ، والتي بدونها لا ينفجر .
- ١٤- استطاع المماليك أيام الدولة المملوكية الأولى توليف خلطة كيميائية لاشتعال النار على سطح الماء .
- ١٥- استخدموا النيران بأشكال متعددة ومختلفة ، وبأدوات مختلفة منها : المزراق والمنجنيق والمكحلة ( المدفع ) .
- ١٦- عرفوا المرايا المحرقة وكيفية صناعتها ، ولكنهم لم يستخدموها لسبب ، أو لآخر .

١٧ - عرفوا القنابل المؤقتة زمنياً [ أي صنعوا قنابل يمكن أن تحترق أو أن تنفجر بعد وقت محدد ] ، وإن كان ذلك بشكل بدائي ، لكن تلك المعرفة هي التي مهدت الطريق إلى ما وصلت إليه العلوم العسكرية في هذا المجال في أيامنا هذه .

١٨ - استطاعوا صناعة سلاح بحري فتاك هو : الرعّادة التي تتحرك على سطح الماء بقوة دفع احتراق البارود ، وتقوم بمهاجمة السفن المعادية وإحراقها ، وهذا تطور علمي بل فتح علمي جديد لا مثيل له في تلك الأيام في كل الدول التي عاصرت تلك الدولة ، فهو كما تمت مناقشته يشبه إلى حد كبير المبدأ العام للصواريخ التي تنطلق بقوة دفع البارود الجاف ، أو الوقود السائل في أيامنا هذه مع الفارق أن الرعّادة تتحرك على سطح الماء مما دعا البعض إلى تشبيهها بالطوربيد إلا أن الطوربيد يحمل أسلحة تطلق منه أما الرعّادة فهي نفسها السلاح الذي يصطدم بالسفينة الحربية المعادية ويحرقها . ومهما كان فإن ذلك يعد وسام شرف للدولة المملوكية الأولى التي كثيراً ما أصقت بها صفة الجهل والتخلف .

١٩ - استطاعت الدولة المملوكية الأولى أن تتوصل إلى صناعة ما يشبه أسلحة الدمار الشامل في أيامنا هذه ، فقد صنعوا أنواعاً من الدخاخين [ الغازات ] السامة قادرة على قتل كل من يتنشقها مباشرة ، ويبدو أنهم كانوا قادرين على صناعة أنواع من الغازات التي إذا شربت للحطب ، وتعرض ذلك الحطب للحرق ، ولو بعد مدة زمنية طويلة تنتشر منه رائحة قادرة على قتل كل من تصل إليه سواء بعدت المسافة ، أو قربت .

أما الفصل الثالث فقد أظهر التطور العلمي من خلال مسألة على قدر كبير من الأهمية هي : التدريب . لأن كل الأسلحة ومهما تطورت فهي بدون الإنسان الذي سيقاوم فيها تبقى كتل ميتة لا حراك فيها ولا أمل منها ، فالإنسان بأفكاره ، ومعارفه ، وقدراته ، ومهاراته وخبراته هو الذي يجعل من تلك الكتل الميتة من السلاح أنشودة للحياة والأمل في مستقبل واعد للتغيير والتطور المستند على المعارف والعلوم العامة والتطبيقية منها بشكل خاص وقد أوضح البحث أنّ التدريب في العصر المملوكي الأول اعتمد منهجية واضحة تستند إلى ثلاثة ركائز علمية مازالت نظريات التدريب تعتمد عليها حتى هذه الأيام :

الأولى : إعداد القادة . الثانية : إعداد الجنود والعلاقة بين المدرب والمتدرب .

أما الثالثة : تجهيز القاعدة التدريبية التي تتناسب مع مستوى الإعداد المطلوب .

بالنسبة للقاعدة التدريبية اهتم السلاطين ، والقادة بها أيما اهتمام ، فبنوا الطباق كمدارس إعداد عسكري ، وأوقفوا عليها الأوقاف .

أما القادة ، فقد اعتنوا بتأهيلهم تأهيلاً نوعياً متميزاً ، وكذلك الجنود حيث تم الاعتناء ببناء القوة البدنية ليكونوا مستعدين لمواجهة المصاعب الناجمة عن التدريب ، وتغيرات المناخ المفاجئة ، وفي ميادين القتال .

كما أظهر البحث أن ذلك العصر اعتمد طرقاً للتدريب غاية في الدقة والروعة ، والعلمية وكان من أهمها :

طريقة إقناع المقاتلين بأهمية التدريب والإعداد وبالتالي خلق دوافع ذاتية وموضوعية لتقبل تلك الصعوبات الناجمة عن العملية التدريبية ، وذلك بإتباع أساليب علمية مجربة ومن أهمها الترغيب بالشيء وذكر فضائله مما يجعل المتلقي يميل إليه والاشتغال بفعله والاهتمام به .

أما الطريقة الثانية : هي ما يسمى بالتمرين والتمرن من خلال الحث على إعادة الحركات المطلوب حفظها و إتقانها من قبل المتدرب وبمساعدة وإشراف المدرب وتعطى مساحة زمنية للمتدرب بأن يحاول لوحده بعيدا عن المدرب وهذا ما يدعى بالتمرن .

الطريقة الثالثة : هي المكافأة وهي طريقة مهمة لها فعلها المؤثر في نفوس المتدربين حيث تنمي عندهم روح المنافسة ، وتشجع الضعفاء على الارتقاء بأنفسهم ، وتحفزهم على اللحاق بالمتفوقين .

وقد كشف البحث أن العملية التربوية التدريبية في العصر المملوكي الأول كانت تتصف بالعلمية لعدة أسباب هي :

١- التلازم بين التثقيف العقائدي ، والتدريب القتالي لخلق الشخصية المتوازنة داخليا كي تكون قادرة من خلال الدوافع التي يكونها التثقيف العقائدي ، والمهارات التي يكونها التدريب القتالي على الاستجابة لصعوبات التدريب ، و للوازم الحرب ، والابتعاد عن جوارم الأنانية ، والأنا المتهورة ، و الخطأ في التقدير .

٢- الانتقال في تناول المعارف واكتساب المهارات من السهل إلى الصعب ، وهي نظرية علمية بحثة لأن الإنسان بطبيعته يميل إلى السهولة والتبسيط ، فلو واجهناه بالأمر الصعب مباشرة لأحجم وابتعد ونكص على عقبيه ، لكن عندما يبدأ بالأمر السهل ويتعلمه ثم يتدرج إلى الأصعب قليلا تتشكل لديه مجموعة من المعارف والمهارات يوظفها في حل المسائل المستجدة وهكذا .

٣- أما التخصص والشمولية ، فأمران مهمان غاية الأهمية في العملية التدريبية ، وقد اهتم المماليك بتلك المسائل لضرورات موضوعية ، وضرورة التوجه إلى التخصص في التدريب جاءت من طبيعة التطور التي حصلت على الأسلحة ، وتنوع تلك الأسلحة وبالتالي صار التخصص الاتجاه الوحيد نحو استيعاب المعارف الجديدة ، وهناك أمر آخر هو : أن التنظيم الجديد الذي اتبعه المماليك في تشكيل جيوشهم وهيكله وحداتهم العسكرية اقتضى التوجه نحو التخصص لزيادة المعرفة والمهارة وتكوين الخبرة اللازمة للعمل على السلاح ، والدقة في أداء الحركات القتالية ، والقدرة على تصحيح الأخطاء ، والوصول إلى حالة الثقة الكاملة بالنفس والسلاح .

٤- أما الشمولية ، فكانت تعني : شمول التدريب لجيوش المركز ، والأطراف ، وفي جميع الولايات ، بالإضافة إلى شمول الاختصاصات المتنوعة ، وأن يشمل التدريب علم البنود ، وعلم الميادين [ النظري في المدارس العسكرية أي الطباقي ، والعملية في ميادين التدريب ] ، وأن يشمل التدريب الفارس ، والفرس ، فتدريب الخيول صار في العصر المملوكي الأول أمراً في غاية الأهمية له أسسه ومقوماته وطرقه وأساليبه

وفي فن الحرب كشف البحث مجموعة من الحقائق منها :

- ١- لم يعرف العصر المملوكي الأول مصطلحات فن الحرب المتداولة في هذه الأيام كالإستراتيجية ، والتكتيك ، ومسائل التأمين ، وغير ذلك لكنهم مارسوها عملياً في التخطيط ، والإعداد ، والتحضير للحرب ، وفي خوض الحرب أيضاً .
  - ٢- أدركوا أن الحرب ، والاقتصاد أمران مترابطان ، فقوة الاقتصاد تعني القدرة على تلبية احتياجات الحرب ، ومتطلباتها سواء في زمن التخطيط ، والإعداد ، والتحضير ، أو خلال المعارك والحروب .
  - ٣- أدركوا أنّ الاستقرار السياسي ، وتنمية العلاقات الخارجية مع الدول والشعوب والجيوش أمران ضروريان لتحسين ، وتنمية قدرات الدولة العسكرية ، وتأمين المناخ المناسب من خلال دراسة التحالفات العسكرية بين الدول المعنية ، وإقامة التحالفات مع دول ، أو جيوش للرد على تلك المعادية ، وتقوية الموقف العسكري إستراتيجياً ، وبالتالي تهيئة ظروف كسب الحرب في الميدان ، أو لردع العدو من خلال التهديد بالحرب .
  - ٤- أدركوا أنّ التأمين هو عصب المعركة ، وعندما يقطع التأمين ، أو كان هناك اختلال في عملية الإمداد ، والتأمين ستكون النتيجة هي الإخفاق حتماً .
- هذه الأمور ، وغيرها جعلت من تنظيم الحروب في الدولة المملوكية الأولى تعدد آلية محددة في التخطيط ، والتحضير ، والتنفيذ أقلّ ما يقال فيها أنها ذات صبغة علمية تعتمد الأمور التالية :
- ٥- إنّ العلماء هم المعوّل عليهم ، وخاصة عندما تتعرض البلاد للخطر ، حيث تتعدّد مجالس الحرب التي كان العلماء ، والقادة ، والسلطين عمادها ، فهم سادة الرأي وقادة المعارك
  - ٦- ضرورة الاستفادة من تجارب الماضي وخبرات المتقدمين في بناء الحاضر والمستقبل
  - ٧- عدم الانفراد بالرأي ، أو الاستئثار بالقرار ، أو التشبث بالمقولة بل مناقشة كل الأفكار مناقشة العالم الباحث الطموح الذي يسعى للوصول إلى الأفضل .
- ثم كشف البحث عن أهم الأمور التي كان يجري مناقشتها في اجتماعات مجلس الحرب التي كانت تحدد الهدف بخطوطه العامة ، والاحتمالات الممكنة لأساليب تحقيقه من خلال التأكيد على المسائل التالية:
- ١- مشروعية الحرب ، فإن اتفق الجميع على الهدف المعلن ارتفعت الروح المعنوية التي تشكل الرفاعة الحقيقية لعطاء الناس في مثل تلك الحالات .

- ٢- معرفة الهدف النهائي للحرب ، أو المعركة ، وبالتالي تحديد كافة المعطيات اللازمة لتحقيقه .
- ٣- الإعداد بأشكاله ، وأساليبه ، وطرقه المختلفة، وتحضير البلاد بشكل عام ، والجيش بشكل خاص للحرب وهذه الأمور الإستراتيجية أخذت من الممالك جهداً ، وعملاً وتنظيماً ، واطلاعاً ، ومناقشة جعلت نتائج الحرب تكون دائماً شبه مضمونة .
- ٤- ومن الأمور التي كشف عنها البحث أن الجيش المملوكي استخدم كلا نوعي الإستراتيجية المباشرة ، وغير المباشرة في حروبه مع الصليبيين والمغول ، ويرجع ذلك إلى الفكر الإستراتيجي الذي تمتع به قادة ذلك العصر .
- ٥- إن قادة الجيش في ذلك العصر كانوا يمتلكون رؤية سياسية ذات بعد إستراتيجي تخدم الأفكار العسكرية ، فعقدوا التحالفات في الزمان ، والمكان الذي يجب أن يؤمن لهم تحقيق الأهداف .
- ٦- أن القادة كانوا يدركون أنواع الأخطار التي تهددهم ، وكانوا قادرين على فرزها إلى خطر رئيسي ، أو أساسي ، وأخطار ثانوية ، ويتعاملون معها على هذا الأساس .
- ٧- أنهم كانوا يدركون مدى تأثير العامل النفسي على المستوى الإستراتيجي والتكتيكي على مجتمعات ، وجيوش العدو ، ويتعاملون على أساس هذه المعرفة ، حيث شكل ذلك نقطة القوة في إستراتيجيتهم .
- ٨- القدرة على الربط بين التهديد باستعمال القوة ، واستعمالها بالفعل ( التهديد باستعمال القوة ثم المباشرة في استخدامها ) ، وهذا الأمر يعطي مصداقية لما يعلن أو يقال بأنه سينفذ بالفعل ، وليس مجرد كلام .
- أما في مجال التكتيك فقد أظهر البحث القضايا التالية :
- ١- قدرة القادة المماليك على تنظيم الأعمال القتالية بالشكل الذي يؤمن أفضل استخدام للقوى والوسائط في ميدان المعركة .
- ٢- القدرة على توظيف القيمة التاريخية للمكان في شحذ الهمم ، ورفع الروح المعنوية .
- ٣- استخدام طرق واساليب متعددة لجمع المعلومات عن العدو ، وتدقيقها من خلال الإستطلاع المباشر .
- ٤- القدرة الكبيرة على إيصال المعلومات الإستطلاعية للقائد المباشر من خلال استخدام طرق ، وأساليب رمزية [ كودية ] مرئية أو مسموعة ، أو عن طريق البريد والمراسلين ، أو غير ذلك .
- ٥- القدرة الهائلة على استخدام أنواع مختلفة كمن التعابي الحربية تتفق مع الموقف المتشكل ، وقدرة وتسليح الجيش المملوكي من جهة ، وقدرة وتسليح ، وأساليب قتال العدو من جهة أخرى .



٦- أظهر البحث أن هناك تطورا هائلا حصل على الحصون ، والقلاع من جهة ، وتطورا هائلا على أسلحة وأساليب الحصار من جهة أخرى [ نظرية التحدي والاستجابة ] .

٧- أظهر البحث أن هناك أساليب قتالية جديدة أبدعها الفكر العلمي في ذلك العصر فاصبحت ميزات قتالية رائعة اتصف بها الجيش المملوكي .

٨- أن القادة كانوا يدرسون بعناية جميع المؤثرات ، وخاصة المناخية على طبيعة الرمي والقدرة على التأثير ، ودقة الرمي .

٩- القدرة على القيادة والسيطرة على القوات في الميدان بطرق ، وأساليب هي أقرب ما تكون إلى الطرق والأساليب المستخدمة في الجيوش الحديثة .

وإذا كان لا بدّ من كلمة أخيرة تلخص فلسفة البحث ، فإنه لا شيء فوق النقد البناء لآراء البشر مهما علا شأنهم ، فالتسليم برأي من الآراء على أنه الحقيقة المطلقة يعني الموت لأنّ الحياة حركة مستمرة لا تتوقف ، ولا تحتل السكون ، وبالتالي لا تحتل الآراء المطلقة فما هو صحيح اليوم قد لا يكون صحيحا في اليوم الذي يليه ، فالعلم قد يفصح عن نظرية جديدة تنقض تلك التي كانت ، وتبرهن على عدم صحتها .

وما قيل في العصر المملوكي من آراء ليست كلها بعيدة عن الحقيقة ، أو منافية لها ، أو ما قيل ليس كله خطأ بالمطلق ، ففيه من الحقيقة شيء ، ولكن ليس كل شيء ، فمن قال أنّ العصر المملوكي هو عصر جهل ، وتخلف ، وانحطاط قد يكون انطلق من مقدمات ليست واضحة المعالم حتى وصل إلى هذه النتيجة التي تقطر سلبية من رأسها حتى أخصم قدميها فهو قد عدّ أنّ العلم هو اللغة ، والقوافي ، والمحسنات اللفظية التي قد تكون تراجعت شكليا في ذلك العصر ، وقد يكون سبب ذلك هو : الإبتعاد عن الإهتمام بالشكل ، والتركيز على المضمون .

صحيح أنّ اللغة ، ومحسناتها ، والشعر ، وقوافيه هي من الأمور العلمية المهمة ، ولكنها ليست كل العلم ، ثم من يستطع أن يقرر أنّ من امتلك محسنات اللغة ، وقوافي الشعر قد امتلك العلم والحضارة ، فأين العصر الجاهلي من العلم ، والحضارة ، وقد عاش فيه فحول الشعر العربي ، ورموزه ، لا بل كل ما يمكن لذلك العصر أن يفتخر به هو الشعر ، وقوافيه ، وهنا لا يمكن التقليل من أهمية ، ودور الأدب ، والشعر في المحافظة على الهوية ، لكن هذا الدور في العلوم قد لا يكون محوريا في زمان ، ومكان ما ، فكثيراً من اللغات الأوروبية كانت لهجات عامية ، واستخدمت ، وبني عليها ، وأصبحت لغات مهمة ، ووعاء لحضارة عالمية عظيمة انتشرت شرقا ، وغرباً ، مثلما كانت اللغة العربية ( لهجة قريش ) في يوم من الأيام وعاء لحضارة إنسانية ملأت الدنيا ، وشغلت الناس ، ونشرت فكر الإسلام السمح البعيد عن التعصب ، والذي يقبل الآخر ، ويقبله الآخر ، ويتعايش معه انطلاقاً من قول الله عز وجل (( آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله ))

والنقطة الأخرى هي : أنّ من اتهم العصر المملوكي بأنه عصر تجميع ، وليس عصر توليد يجب أن يراجع نفسه ، ويقف أمام محكمة العلم الموضوعية . أليس التجميع ، وكتابة الموسوعات التاريخية ، وغيرها عملاً علمياً احتاج إلى جهود مضيئة ، وعملاً كبيراً يستحق التقدير . ألم تحفظ تلك الموسوعات تلك الجهود الكثيرة ، والمبعثرة من الضياع ، والتلف

لنتصور كيف يكون الفكر الإنساني لو لم تكن تلك الموسوعات موجودة ، وأنّ ذلك الفكر بقي نتفا مبعثرة ، فكم تحتاج الأجيال التالية من الوقت ، والجهد لتجمع تلك النتف المبعثرة . هذا إذا استطاعت الوصول إليها ، أو وجدتھا .

هذا إذا تم الوقوف عند حدود التجميع ، فكيف إذا كان الأمر زيادة على المواضيع المطروحة شرحاً وتوضيحاً كما هو حاصل في كل الموسوعات ، بالإضافة إلى الكثير من الإبداعات الجديدة التي لم تكن مطروحة من قبل ، وهذا عمل علمي يستحق التقدير .

أما في العلوم التطبيقية التي لها علاقة مباشرة بالعلوم العسكرية موضوع البحث فلن يحتاج الإنسان إلى أن يقف كثيراً في منطقة الدفاع ( إن جاز التعبير ) ، فالنتائج الكبيرة في كل تلك المواضيع المطروحة تمهد الطريق ، وتجعله سهل الولوج ، ففي الطب يكفي الوقوف عند ابن النفيس مكتشف الدورة الدموية الصغرى عند الإنسان لندلل على مدى التقدم في هذا العلم .. وفي الهندسة ، والرياضيات ، فأوابد العصر المملوكي لا زالت تصارع عاديات الزمن إلى يومنا هذا ، وفي الإستفادة من تلك العلوم في خدمة تقنيات الأسلحة ما يمكن لذلك العصر أن يفخر به .

وفي الكيمياء يكفي ذلك العصر إنّ علماءه استطاعوا تنقية نترات البوتاس من الشوائب . هذه المادة تعد الأساس في صناعة البارود المتفجر ، ولم يكن معروفاً قبل ذلك .

أما في العلوم العسكرية ، وفن الحرب فقد كان المماليك متقدمين على من قبلهم ، ومن عاصرهم في هذه العلوم التي لعلها من أصعب ، وأهم العلوم على الإطلاق فهي تحتاج إلى بحث مثل غيرها من العلوم ، وجهد إضافي بعد التعلم لتطبيق ما تم تعلمه نظرياً على أرض الميدان ، وهذا بدوره يحتاج إلى قراءة علوم مختلفة للإستفادة منها ، ومن أهمها علم النفس فالتعامل مع الطبيعة البشرية المتقلبة المزاج ، والمختلفة الطباع تحتاج إلى دراسات نفسية ليشكلوا مجموعات متماسكة متناغمة منسجمة مع بعضها البعض ، وهذا بطبيعة الحال عمل علمي لاسيّما إذا كانت المجموعات البشرية متعددة الأعراق ، والمنابت ، ومختلفة الثقافات .

أما في مجال الصناعات الحربية ، وتقانات الأسلحة التي تعتمد اعتماداً كلياً على العلوم التطبيقية ، ولاسيّما الفيزياء ، والكيمياء ، والرياضيات ، فقد أظهر البحث أنّ ذلك العصر لم يقف عند حدود اجترار ما تقدم من علوم بل أبدع في مجالات متعددة ، فظهرت أسلحة جديدة لم تكن معروفة من قبل أبهرت العالم في ذلك العصر كأسلحة النيران ، وأشكالها المتعددة والمدفعية ، والدخاخين ، والغازات ، والعرادة كسلاح بحري لم يكن معروفاً انعكس ذلك في الميدان على فن الحرب ، فتطور تطورا وافق بشكل ، أو بآخر تطور العلوم ، وتقنيات السلاح الأمر الذي أسس لانتصارات عظيمة على جيوش المغول ، والصليبيين .

ما أردت أن أقوله في هذا البحث عن العلوم العسكرية في العصر المملوكي الأول هو التأكيد على مقولة لأحد المؤرخين الكبار (( أنه لا تزال نهايات الأشياء تابعة لمقدماتها )) ، وبالتالي إنّ تلك الإنتصارات الكبيرة التي حققها الجيش المملوكي في ذلك العصر استندت إلى مقدمات علمية موضوعية أفضت إلى تلك الإنتصارات ، وإن كل ما قيل عن ذلك العصر من جهل

وانحطاط يحتاج إلى مراجعة ونقد بناء ، فإن وفقت فذلك منة من الله عز وجل ، وإن اخفقت  
فحسبي المحاولة .

## Research summary

Accused Mamluk that the era of backwardness, and degeneration. But if there had to be word sumsup the philosophy of search, it Neutral above constructive criticism to the opinions of mankind, what ever ros as are valtslam the opinion on of the Consensus that the absolute truth means death. Because life acontinuous movement to stillness Athtml opinions. What is true today is not true next day, and what has been saidin tha Mamlk are not from whole truth. or not to transfer the whol error. There is the truth of something, but not every thing. It is said that the Mamluk era is the era of ignorance, and bakwardness, and denegeneration of introductionwent wrong until he arrivd at these results. Where science is considered that the language, and verbal rhymes, andupgraders. Wich fell from with out substance it,s true that language, and poetry are of scince, but it,s not all scince. From then can decide that it possessed impovers langage, and Rhymespoetry possessedcivilization, and scrence, or built acivization where pre-islamic ear of civilization, and science have lived stallrons arabic poetry and symbpls, but not everything that can be so proud of that era is the poetry, and do not understimet the impotance of the role of languagein mian taining national ideatity .bt this role may not be pivotal in time, and place as many of the European language were accounts, and slang used, and built upon, and has become animprotant language, and abowl of agreat civigization spread east, and west as they were in the Arabic language on aday abowl for awonderfull hman civilization also spread in the corners of world.

The point is that the after life of the accsed as the Mamluk era collection, and not the era of creativity should reiew himself standing in front of acont, and objectivity of science. Did not the comilation, and writing histrical encyclopedas, and other scientific work. I need to tiring efforts, and great work deserves appreciation pain kept those ency clopedias such

effort, scattered from loss, and damage consider how to be human thought if that does not exist encyclopedias, and they are small pieces scattered how much effort we need to collect and consider this, and realized then that we found that those encyclopedias were not all gathered, and the transfer of what was written on them came from the more importance of keeping that heritage of loss, and damage, but a lot of creativity, and additions that have increased subjects explanation, and clarification in addition to a lot of new creation that were not on the table by this scientific work deserves great appreciation in the Applied sciences the Applied science which has direct relationship to science military research topic will not need human to stand much in the area of defense, the results in all the big topics that make it easier for the researcher scurrying to stage a direct attack in medicine enough to stand at Ibn Al – Nafis discovered micro-circulation in humans, and that the doctor that era.

In engineering, and Mathematics effects of the Mamluk era still grappling with the long time to the present day, and in the use of these techniques in the service of science weapons, so what can be proud of in the chemistry enough that era that scientists Asttau potass nitrate purification from impurities such material in the manufacture of gunpowder the explosive was not known before.

In military science, and the art of war was the Mamluks applicants on their predecessors, and who lived in that era in this science, and which is one of the most important, and the most difficult science at all need to discuss such other of science, and the extra effort after learned in theory on the war field, and this in turn need to read different science to take advantage of them is the most important psychology dealing with human nature, and the volatile mood of different complexions need to in depth psychological studies to integrate human groups in the crucible of training on weapons and gear to make groups coherent harmonious with each

·ther , and this scientific work, especially if those human groups, multi- ethnic, and different cultures. In the field of military industries , and weapons techingues that rely entirely on applied sciences , and aprivate physics , chemistry , and mathematics . Research has shoud that age did not stop at the boundaries of what has been accomplished by science of their predecissors, but excelled in multiple areas showed the new weapons ,such as artillery fire , and gases aweapon and Arada new submarine is reflectedin the war field on the art of war these developments are established for the great victories on the armies of the Monguls and the crusaders what I wanted to say in this search for alimantery science in Mamluk first between theory and practico is to emphasize the argument uttered ahistorians still alastings aloxia subsidiary of introductions and there for , that the victories achieved by the Mamluk army at that time was based on scientific and objective introductions. And that ehat was said about that era of ignorance and , degeneration needs to see .

ملحق رقم ١ :

المقاصد السنوية في معرفة الأجسام المعدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه والتابعين  
صلاة باقية إلى يوم الدين وبعد :

فهذه مقالة وجيزة في ذكر المعادن قُدتها تذكرة لي ، ولمن شاء الله تعالى من عباده وبالله  
أستعين ، فهو المعين .

إعلم أنّ الأرض جسم بسيط طبعها بارد يابس ، وهي متحركة إلى الوسط [ تدور حول محورها  
[ ، وشكلها قريب من الكرة ، والقدر الخارج منها محدث ، وخُلقت باردة من أجل الغلظ ،  
والتماسك ، إذ لولاها لما أمكن قرار الحيوان على ظهرها ، وحدثت المعادن والنبات في  
جوفها ، وهي ثلاث طبقات : طبقة قريبة من المركز ، وهي الأرض الصرفة . وطبقة طينية  
انكشفت بعضها ، وأحاطت بالبحر ببعض الآخر . والأرض الأفلاك وهي الواقعة في الوسط ،  
والهواء والماء يحيط بها من جميع الجهات .

والإنسان في أي موقع وقف على سطح الأرض تكون رأسه مما يلي السماء ، ورجلاه مما يلي  
الأرض ، وهو يرى من السماء نصفها ، وإذا انتقل إلى موضع آخر ظهر له من السماء مقدار  
ما خفي عنه بالجانب الآخر ، ولكل تسعة عشر فرسخا في الأرض درجة من درجات الفلك ،  
والبحر يحيط بأكثر وجه الأرض ، والكشوف منها قليل ، وهو ناء عن الماء على هيئة بيضة  
غاطسة في الماء ، وقد خرج من الماء محدبها ، وليست الأرض منتصبة ، ولا ملساء ،  
ولامستديرة بل كثيرة الارتفاع ، والإنخفاض ، وأما باطنها فكثير الأودية ، والأهوية ، والكهوف  
والمغارات ، ولها منافذ وخلجانات ممتلئة مياها وبخورات ، ورطوبات دهنية ينعقد منها  
الجواهر المعدنية ، وتسلك الأبخرة ، والرطوبات دائما في الإستحالة ، والتغير ، والفساد .

وأما ظهرها فكثير الحبال ، والأودية ، والجداول ، والبطاح ، والآجام ، والرحال والغدران ،  
وفيها منفذ ، وخلجان تجري بعضها إلى بعض دائما ، والرياح ، والغيوم والأمطار لا تنقطع  
منها أبدا . إلا أن البقاع تختلف شرقا ، وغربا ، وجنوبا ، وشمالا في الليل والنهار ، والصيف  
والشتاء ، والمعادن ، والنبات ، والحيوان أبدا في الكون والفساد فما في الأرض موضع إلا  
وهناك معدن ، أو نبات ، أو حيوان بحسب اختلاف صورتها ، ومزاجها ، وأجناسها ، وألوانها  
وأنواعها لا يعلم تفصيلها إلا الله خالقها لا إله إلا هو .

فصل في الأجسام المتولدة :

إما نامية ، أو غير نامية ، والنامية إما أن تكون لها قوة الحس ، والحركة ، أو لا . أما التي لها  
الحس والحركة هي الحيوان ، والتي لا حس لها ولا حركة هي النبات [ أثبت العلم الحديث أن  
النبات يتمتع بهاتين الصفتين ] .

وغير النامية هي المعادن ، وأول ما تستحيل إليه الأركان الأبخرة ، والعصارات ، فالبخار ما يصعد من لطيف مياه البحار ، والآبار ، والأجام بواسطة تسخين الشمس ، والعصارات ما يمكث في بطن الأرض من مياه الأرض ، ويختلط بالأجزاء الأرضية ، فيغلظ ، وتتضج الحرارة المختنقة في عمق الأرض ، فتصيرها مادة للمعادن ، والنبات ، والحيوان ، وأول مراتب الكائنات تراب ، وآخرها نفس ملكية ، فالمعادن أولها متصل بالتراب ، وآخرها متصل بالنبات ، والنبات أوله متصل بالنبات ، وآخره متصل بالإنسان ، والإنسان أوله متصل بالحيوان ، وآخره متصل بالملائكة .

وبينان ذلك أن أول المعادن الجصن والملح مما يلي التراب ، فهو تراب رملي حصل له بلل من الأمطار فانعقد وصار حصى ، والملح مما يلي الماء ، وهو امتزج بأخر سبخة من الأرض فانعقد ملحا . وآخر المعادن مما يلي الكمأة ، وهي تتكون في التراب كالمعدن وتثبت في مواضع ندية أيام الربيع من الأمطار ، وأصوات الرعد ، وكما ينبت النبات من المعدنيات لكونها نامية كنمو النبات .

وأما النبات فإن أوله ، وأدونه مما يلي التراب وهو خضراء الدمن ، والكمأة ، أما خضراء الدمن فإنها غبار تلبد من الأرض فيصيبه بلل الأمطار فيصبح بالغدوات أخضر كأنه حشيش أخضر من ندوات الليل وطيب النسيم ، ولا تثبت الكمأة ولا خضراء الدمن إلا في زمن الربيع ، فأحدها نبات معدن ، والآخر معدن نباتي ، والنبات أشرفه النخلة ، فإن أحوالها مباينة لأشخاص النبات ، فإن فحولة النخل مباينة لأشخاص إنائه ، ولفحولته في إنائه لقاح كما في الحيوان ، وإذا قطع رأس النخلة جفت ، وبطل ثمرتها كالحيوان ، وغير متبين أن النخلة نبات حيوان .

وأما الحيوان ، فإن أوله ، وأدونه يشبه النبات ، ومنه ما ليس له سوى حاسة اللمس فقط وهو الحلزون ، وهو دودة في جوف أنبوبة حجرية توجد بالسواحل ، وتلك الدودة تبرز لنصف جسمها من جوف تلك الأنبوبة ، وتنسبط يمنا ، ويسرة لطلب ما تتغذى به ، فإذا أحست برطوبة ، أو لين انبسطت ، وإن أحست بصلاية انقبضت ، واستترت في جوف الأنبوبة ، وليس لها سمع ، ولا ذوق ، ولا شم إلا اللمس ، وهذا حال أكثر الديدان المتولدة من الطين فهذا النوع حيوان نباتي لأنه ينبت جسمه كما ينبت النبات ، أما الحيوان الذي يلي الإنسان فالقرد لأن شكل جسده قريب من جسد الإنسان ، ونفسه تحاكي أفعال النفوس الإنسانية ، وكذا الفرس ، فإن الأصايل من الخيول لها ذكاء ، وحسن أدب وكرم أخلاق حتى أنها لا تروث ما دام المالك راكبها ، ولها إقدام في الهيجاء ، وصبر على الطعن ، وكذا الفيل ، فإنه يفهم الخطاب ، ويمتثل للأمر والنهي كأنه إنسان عاقل . وآخر مرتبة الحيوان الإنسان ، وهما طبقتان أدناهما يلي الحيوان ، وهم الذين لا يعلمون سوى المحسوسات ، ولا يرغبون إلا في زينة الحياة الدنيا ولذاتها في الأكل ، والشرب والنكاح . قال الله تعالى : (( إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا )) ، فهم يرتقون كالخنازير ، والحمير ، ويدخرون ما يحتاجون إليه كالنمل ، ويقنتلون ، ويتخاصمون على حطام الدنيا كم تتشاجر الكلاب على الجيف ، هؤلاء ، وإن كانت صورهم صور الإنسان فإن أفعال نفوسهم أفعال حيوانية .



وأعلى مراتب الإنسانية تلي الملائكة ، وهي مرتبة الذين انتهت نفوسهم من نوم الغفلة وانفتحت أعين بصائرهم حتى رأت بنور قلوبها ما غاب عن حواسها ، وشاهدت بصفاء جواهرها عالم الأرواح الملكية ، وتبين لها سرورهم ، ونعيمهم ، فرغبت فيه ، وزهدت زخرف الدنيا الفانية ، وأقبلت على تحصيل الآخرة فهم من أصناف الملائكة ، وإن كانوا يعيشون مع البشر .

#### فصل في أقسام المعادن :

إعلم أن الأجسام المتولدة من الأبخرة ، والأدخنة المحتبسة في الأرض إذا اختلطت على من دب من الإختلاطات مختلطة في الكم ، والكيف كانت إما قوية التركيب ، أو ضعيفة التركيب ، والقوية التركيب إما متطرفة ، أو غير متطرفة هي الأجساد السبعة التي يقال لها الفلزات ، وهي الذهب ، والفضة ، والنحاس ، والرصاص ، والحديد ، والأسرب والخاصيني [ فلز كالقصدير ] .

وغير المتطرفة إما في غاية اللين ، أو في غاية الصلابة ، والتي في غاية اللين كالزئبق والتي في غاية الصلابة كاليواقيت ، وهي إما تنحل بالرطوبات ، وهي الأجسام الملحية كالزجاج ، والشب [ ملح متبلور اسمه الكيميائي كبريتات الألمنيوم ] ، والنشادر ، وإما لا تنحل وهي الأجسام الدهنية كالزرنينخ [ عنصر شبيهه بالفلز مركباته سامة ] ، والكبريت .

والزئبق يتولد من أجزاء مائية أرضية ، فإذا أنضجتها الحرارة القوية صار كالدهن ، أما الأجسام الصلبة الشفافة ، فإنها تتولد من الماء والطين إذا امتزجان وكانت فيهما لزوجة وأثرت فيها حرارة الشمس في المدة الطويلة .

وأما الأجسام المنحلة بالرطوبة ، فإنها تتولد من مياه مختلطة بأجزاء أرضية محترقة يابسة اختلاطاً شديداً ، وأما الأجسام الدهنية ، فإنها تتولد من الرطوبات المحتفنة في باطن الأرض إذا احتوت عليها حرارة المعدن حتى تحللت واختلطت بتربة البقاع ، فإذا زادت غلظا وصارت كالدهن .

والذهب لا يتولد إلا في البراري الرملية ، والجبال الرخوة ، والفضة ، والنحاس ، والحديد وأمثالها لا تتولد إلا في الأراضي الندية ، والرطوبات الدهنية ، والأملاح لا تتولد إلا في الأراضي السبخة ، والبقاع المالحة ، والجص لا يكون إلا في الأراضي اللينة ، والأسفيداج لا ينعقد إلا في الأراضي الرملية المختلط ترابها بالجص ، والزجاجات ، والشبوب لا تكون إلا في التراب العفن الناشف ، وعلى هذا القياس حُكم سائر الجواهر ، والأحجار ، وكل واحد منها يختص ببقعة من البقاع ، ويتولد من خواص تلك البقعة ، والمعادن مع كثرة أفرادها ثلاثة أنواع : الفلزات ، والأحجار ، والأجسام الدهنية ، وقد أشتهر أن الياقوت والماس ، والعقيق ، والفيروزج ، والجزع [ ضرب من العقيق له خطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان ] ، واللازورد يختص بالشرق ، وإن الذهب ، والفضة ، والحديد والنحاس ، والرصاص ، والقصدير ، والزئبق ، والزربرد [ حجر كريم يشبه الزمرد وهو ذو ألوان كثيرة أشهرها الأخضر المصري ] ، والدهن مختص بالغرب ، وإن الزمرد بمصر ، ويوجد ببلاد الهند معادن ذهب .

## القول في الفلزات :

اعلم أن الفلزات تتوالد باختلاط الزئبق والكبريت ، فإذا كان الزئبق ، والكبريت صافيين واختلطا اختلاطاً تاماً ، وشرب الكبريت رطوبة الزئبق كما تشوب الأرض نداوة الماء وكانت فيه قوة ضباغة ، ومقدارهما متناسبان ، وحرارة المعدن تنضجها في اعتدال ، ولم يعرض لهما عارض من البرد ، واليبس قبل انضاجهما ، فإن ذلك ينعقد على طول الزمان ذهباً ابريزاً ، وإن كان الزئبق والكبريت صافيين ، ونضج الكبريت والزئبق نضجاً تاماً وكان الكبريت أبيض انعقد ذلك فضة ، وإن وصل إليه قبل استكمال النضج برد عاقله تولد الخارصيني ، وإن كان الزئبق صافياً ، والكبريت رديناً ، وفيه قوة محرقة تولد النحاس وإن كان الكبريت غير جيد الاختلاط مع الزئبق تولد الرصاص ، وإن كان الزئبق والكبريت ردينيين ، وكان الزئبق رديناً متخلخلاً ، والكبريت رديناً متحرقاً تولد الحديد ، وإن كانا مع رداءتهما ضعيفي التركيب تولد الأسرب ، وبسبب هذه الاختلافات في الاختلاطات اختلف أجناس الجواهر المعدنية ، وهي العوارض التي تعرض لكيفيتها مفرطة ، أو قاصرة فالذهب حار لطيف ، ويشده اختلاط أجزاءه الترابية والمائية لا يحترق بالنار لأن النار لا تقدر على تفريق أجزائه ، ولا يبلى بالتراب ، ولا يصدأ على طول الزمان ، ولا تنقصه الأرض ، ولا يتغير ريحه بالمكث في الخبء ، وهو ألطف شيء شخصاً ، وأثقل شيء وزناً وهو لين أصفر براق حلو الطعم طيب الرائحة ثقيل رزين ، وصفرة لونه من ناريتته ولينه من دهنيتته ، وبرقه من صفاء ماهيته ، وعزته ليست لقلته ، فإنه أكثر من النحاس والحديد ، فإنهما يتلفان بطول المكث ، وإنما عزّ لأن من ظفر بشيء منه دفنه ، فالذي تحت الأرض أضعاف الذي بأيدي الناس ، ومن خواصه أنه يقوي القلب ، ويدفع الصرع إن علق على إنسان ، ويمنع الفرع ، ومن اكتحل بميل ذهب جلا عينه وقواها ، وحسن النظر ، وإن ثقت شحمة الأذن بآبرة من ذهب لم تلتحم ، وإن كوي الجرح لم ينفط وبري سريعاً ، وإمساكه في الفم يزيل البخر ، وينفع من أوجاع القلب ، والخفقان وحديث النفس ، وإن كويت به مقادم أجنحة الحمام ألفت أبراجها ، وإن طرح منه وزن حبتين في وزن عشرة أرتال زئبق غاص إلى قعره ، ولو طرح في هذا القدر مائة درهم من غيره من الأجساد الثقيلة عام فوقه ولم ينزل فيه .

والفضة أقرب الفلزات إلى الذهب ، ولولا البرد الذي أصابها قبل النضج لكان ذهباً ، وهي تحترق بالنار وتبلى بالتراب بطول المكث ، وتنتن بالمكث في الحجارة ، ولها وسخ وإذا أصابها رائحة الزئبق ، أو الرصاص تكسرت عند الطرق ، وإن أصابها رائحة الكبريت اسودت ، ومن خواصها تقطيع الرطوبات اللزجة ، وإذا اختلطت سحالتها بالأدوية المشروبة ، وتنفع من البخر ، والحكة ، والجرب ، وعسر البول ، وتنفع مع الزئبق طلاء للبواسير ، والشرب في أنية من الفضة يسع السكر .

النحاس يقال له : الشبه بسكون الباء وكسر الشين ، ويقال : بفتحها قريب من الفضة لم يباينها إلا بالحمرة ، واليبس ، فحمرته من كثر حرارته الكبريتية ، وببسه ، وغلظه ووسخه من غلظ مادته ، فمن قدر على تبييضه ، وتلينه ، فقد ظفر بحاجته ، وأجوده الشديد الحمرة وأرداه المشرب بالسواد ، وإذا أوفى النحاس من الحموضات أخرج زنجاراً ، وإدمان الأكل فيه من الأطعمة الدسمة يورث أمراضاً رديئة كداء الفيل والسرطانات ، ووجع الكبد ،

والطحال ، وفساد المزاج لاسيما ان ترك فيها الدسم ، أو الحامض يوما وليلة ، فإنه أسرع للقتل .

الحديد بعيد عن الاعتدال لكثورة مادته الكبريتية والربيعية ، وسواد لونه لافراط حرارته وهو أكثر فوائد من جميع الفلزات ، وأقلها ثمنا حتى قيل : أنه مامن صنعة إلها والحديد في أدواتها تدخل ، وهو ثلاثة أصناف : السابورقان ، والأينث ، والذكر ، والسابورقان هو الفولاذ المعدني .

وإذا علقت برادة الحديد على من يغط في نومه زال عنه ، وحمل الحديد يقوي القلب ويذهب المخاوف ، والأفكار الرديئة ، ويطرد الأحلام الرديئة ، ويسر النفس ، ويزيد هيبته حامله في أعين الناس ، وصداه لأكل أوساخ العين اكتحالا ، ويبريء جرب الأجفان والسيل ، وينفع النقرس، والتحمل به ينفع البواسير [ لابد من إعادة النظر والتدقيق العلمي بمثل تلك المقولات ] ، والماء الذي فيه الحديد ينفع من أوررام الطحال ، وضعف المعدة ، وإذا حمي مسمارا بالنار حتى يحمر وذلك به النصل ، فإنه لا يصدأ، وإن ألقيت برادة الحديد في شراب مسموم مص كل ما كان فيه من السم ، وذهب ضرره ....

الرصاص بفتح الراء قال أبو عبيد وحكى غيره الكسر وهو الانك ، وهو الأسرب والرصاص القلعي الشديد البياض ضد الفضة دخلت مادته ثلاث آفات : نتن الرائحة والرخاوة ، والصرير كما تدخل الآفة على الجنين في بطن أمه ، ومن طوق شجرة بطوق رصاص في أصلها من الأرض لم يسقط من ثمرها شيء ، وإذا شددت منه صفحة على الظهر سكن الانغاط ، وبطل الإحتلام ، وغذا ألقى شيء منه في قدر لم ينضج لحمها وإذا ذلك الرصاص بملح وذلك دلكا قويا وأخذ من السواد الحاصل منه وطلبي به السيف فإنه لا يصدأ ، وإذا خلط بدهن الورد نفع من البواسير والقروح تندمل ، وإذا لطح الاصبع بدهن ، أو شحم ، وذلك به الرصاص ، ولطح به الحاجبين قوي شعرهما .

والأسرب تولده كتولد الرصاص وهو رديء ومادته أكثر وسخا ، ومن خواصه تكليس الذهب [ التكليل ترسيب أملاح الكالسيوم غير القابلة للذوبان ] ، وتكسير الماس ، فإن الماس إذا وضع على سندان وضرب بمطرقة لم ينكسر ، وإذا شددت صفيحة أسرب على الخنازير ، والغدد ، وقروح المفاصل ذابت ، وإذا شددت على البطن أضعفت الباء ، ومنعت كثرة الإحتلام .

الخاصيني معدنه بالعين ، ولونه أسود يضرب إلى حمرة ، ويتخذ منه فصول تعظم مضرتها لاسيما إذا نشبت لاتنفصل منه إلّا بعد عناء ، ويتخذ منه مرآة تنفع صاحب اللقوة [ داء يعرض للوجه يعوج منه الشدق ] إذا أدام النظر إليها وهو في بيت مظلم .

القول في الأحجار :

إعلم أن الأحجار متولدة من مياه الأمطار ، والأنداء المحتقنة في جوف الأرض إن كانت شفافة ، أو من امتزاج الماء بالأرض إن كان بأرض لزوجة ، وأثرت فيها حرارة الشمس تأثيراً شديداً ، وهي عدة أقسام :

أما القسم الأول : إن مياه الأمطار ، والأنداء إذا احتبست في المغارات ، والكهوف و لم يخالطها شيء من الأجزاء الأرضية ، وأثرت فيها حرارة المعدن ، وطال وقوفها هناك فإنها تزداد صفاء ، وثقلاً ، وغلظاً ، فتنعقد منها الأحجار الصلبة التي لا تتأثر من الماء والنار كاليواقيت ، واختلفت ألوانها بسبب حرارة المعدن وقتها .

أما القسم الثاني : فيتولد من امتزاج الماء ، والأرض إذا كانت لزجة ، وأثرت فيها حرارة الشمس مدة طويلة . ألا ترى أن النار إذا أثرت في اللين كيف تصلبه ، وتصيره أجزاء فإن الأجر صنف من الحجر إلا أنه رخو ، وكلما كان تأثير النار فيه أكثر كان أصلب ، ثم أن هذه الأحجار تختلف باختلاف الأماكن ، فإذا كانت في بقاع سبخة تولدت منها أحجار الأملاح ، والبوارق ، والشبوب ، وإن كانت في بفاع غضة تولدت فيها أنواع الزاجات الأحمر ، والأصفر ، والأخضر ، وإذا كانت في بفاع ترابية ، وطين حار انعقدت حجراً مطلقاً ، وقد ينعقد الحجر في بعض المواقع من الماء ، ومن خاصية تلك المواضع أن ترى الماء يتقاطر من الأعلى ، فإن أخذ قبل أن يقع على الأرض بقي ماء ، وإن ترك حتى يقع على الأرض صار حجراً صلباً ، وما ذاك إلا لخاصية في ذلك الموضع يعقد بها الماء حجراً ووجد في بعض المواضع حيوانات ونبات مسخها الله حجارة ، فجاز أن يكون بهذا الطريق ، وأن يكون قد أفاض الله تعالى على تلك الأرض قوة عند غضبه على سكانها حتى ظهرت من جوف الأرض ، وصيرت عليها شبه حجر صلب ، وحكى ابن سينا أنه كان على الجبل الذي بجارم ، فرأى جردقاً [ الجيم ، والقاف لا يجتمعان في كلمة واحدة من كلام العرب إلا أن يكون معرباً ، أو حكاية جرت مثل الجرقة وهي الرغيف ] من الخبز أطرافها ذاتية ، ووسطها مقعر كما يكون بجرdaq الخبز ، وعلى ظهرها خطوط كما تكون الخبز في التنور ، فبواسطة هذه العلاقات يغلب على الظن ، ولا يشك الناظر إليه أنه كان خبزاً فمسخه الله حجراً .

والجواهر المعدنية كثيرة ، ولم يعرف الناس منها إلا القليل ، والأحجار منها صلب لا يذوب بالنار ، ولا تعمل فيه القوس كاليواقيت ، ومنها ما هو تراب رخو يذوب بالماء كالأملاح ، والزاجات ، ومنها ما هو نبات مصنوع كاقليميا الذهب والفضة ، والزنجفر والزاجات ، ومنه ما بينه وبين آخر ألفة كالذهب ، والماس ، فإن الماس إذا قرب من الذهب يشبه به حتى قيل : أن الماس لا يوجد إلا في معادن الذهب ، ومنها ما بينه وبين آخر مجاذبة شديدة حتى أن كل واحد منهما يجذب الآخر كالعاشق ، والمعشوق كما شاهده كل أحد في الحديد ، والمغناطيس ، فإن بين هذين المعدنين ملاءمة شديدة ، بحيث إذا شم أحدهما رائحة الآخر سرى إليه ، فأمسكه مسكاً شديداً ، ولم يفارقه إلا بجاذب يجذبه ومنها ما بينها وبين آخر مخالفة كالسمبادج ، وسائر الأحجار ، والأسرب يقهره ، ومنها ما فيه قوة منظفة كالنشادر ، فغنه ينظف سائر الأحجار من الوسخ .

الزاج أصناف وهو يتولد من أجزاء أرضية محرقة ، ومن أجزاء مائية تختلط بعضها ببعض اختلاطاً شديداً ، فيحدث فيه دهنية قابلة لذوبانه بسبب الحرارة الزائدة ، فما كان منه يغلب عليه قوة الحديد كان أحمر ، أو أخضر ، وما غلبت عليه قوة النحاس مال لونه إلى الخضرة ، ويقال : أن الزاجات تتولد من الزئبق الميت ، والكبريت الأخضر وهي السواء ،

فمنها الأحمر ، والأخضر ، والأصفر ، والأسود ، والأبيض ، وهو أخص أنواع الزاجات ، ويجلب من نواحي قبرص .

وإعلم أن الرطوبات المحتقنة تحت الأرض تسحق في الشتاء ، وتبرد في الصيف ، فإذا فرت الحرارة في باطن الأرض وكهوف الجبال في أيام الشتاء اكتسبت الرطوبات المنصبة إلى تلك المواضع بواسطة الحرارة دهنية ، فإذا أصابها نسيم الهوى ، وبرودة الجو انعقدت ، وربما بقيت مائعة ، فتصير كبريت ، أو زئبق ، أو نبط بحسب اختلاف البقاع وتغير الهوى .

إن أول هذه القوى أعني الحرارة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة في تكوين المعادن – الزئبق – وذلك أن الرطوبة المحتقنة في جوف الأرض ، والبخارات المحتبسة فيها إذا تعاقب عليها حر الصيف مع حرارة المعدن لطف ، وخفت ، وتساعدت إلى سقوف المغاير ونحوها ، فتعلقت بها زمانا حتى يتعاقب عليها برد الشتاء ، فتغلظ ، وتجمد ، وتتقاطر إلى أسفل المغاير ، فتختلط بتربة تلك البقاع ، وتمكث زمانا ، وحرارة المعدن تعمل دائما في انضاجها ، وطبخها ، وتصفيتها ، حتى تصير تلك الرطوبة المائية بما اختلط بها من الأجزاء الترابية ، وبما تكتسب من نقلها ، وغلظها بطول الوقوف ، وانضاج الحرارة لها كبريتا محرقا ، فإذا اختلط الزئبق ، والكبريت مرة ثانية ، وتمازجا ، والتدبير بحالة ، فإنه يتركب من مزاجها الجواهر المعدنية التي قد تقدم ذكرها .

الزئبق : يتولد من أجزاء مائية اختلطت بأجزاء أرضية لطيفة كبريتية اختلاطا شديدا حتى لا يتميز أحدهما من الآخر ، ويكون عليه غشاء ترابي ، فإذا اتصلت إحدى القطعتين بالأخرى انفتح الغشاء ، وصارت القطعتان واحدة ، والغشاء محيط بها كقطرة الماء إذا وقفت على التراب ، فإنها تبقى مدورة ، وتحيط بها الأجزاء الأرضية من التراب ، وربما أصاب تلك القطرة أخرى ، وانشق ذلك الغلاف ، وصارت القطرتان واحدة ، وأحاط الغلاف البراني ، وسبب بياض الزئبق صفاء ذلك الماء ، ونقاء التراب الكبريتي .

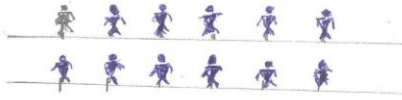
قال أرسطو : الزئبق من جنس الفضة لإزالة الآفات التي دخلت عليه ، والآفات هي الرصاص ، وتلك الآفات مخلخة ، فصار كأنه شبيه بالمفلوج ، وله أيضا صرير ، ورائحة ورعدة ، وهو يحل أجسام الأحجار كلها إلّا الذهب ، فإنه يغوص فيه ، وأصل الزئبق من أذربيجان ، وبالأندلس معدنه أيضا .

والكبريت يتولد من أجزاء مائية ، وهوائية ، وأرضية ، فإذا اشتد اختلاط بعضها ببعض بسبب حرارة قوية ، ونضج تام حتى يصير مثل الدهن ، وينعقد بسبب برودة جزئية وهو ألوان أحمر ، وأبيض ، فالأحمر معدنه في مغرب الشمس بمواضع لا ساكن بها بالقرب من بحر أقيانوس ، والأبيض قد يكون كافيا في عيون الماء الجاري ، ويوجد لذلك الماء رائحة منتنة ، ويقال : الكبريت عين تجري ، فإذا جمد ماؤها صار كبريت أصفر وأبيض ، وأكثر ، وقال الرازي : إن الكبريت يتولد من البخار اليابس الدخاني إذا مس شيء من الدخان الرطب لطبخ حرارة الشمس لرطوبة الماء حتى تحيله نارا ، أو نفطا أو ماشابه ذلك ، والكبريت من البخار الدخاني والرطب امتزجا وطبختها حرارة الشمس حتى صار ما فيه من الرطوبة دهنا لطيفا حارا خفيفا ، لأنه شديد الحرارة فتسرع إليه النار ، لأن النار

تطلب أحرها لقربها منه بدليل أن الأشياء الرطبة الباردة واليابسة لا تحترق لمضادتها النار لطرفيها ، والأشياء الباردة لا تحترق لأنها لا رطوبة فيها ، وإنما عدو النار الرطوبة لأنها صاعدة لاتقيم في الأسفل إلا معلقة بما يجذبها إلى أسفل كما لا يقيم الحجر في الجو إلا بما يغمده .

وقال الخليل بن أحمد : الكبريت عين تجري ، فإذا جمد ماؤها صار كبريتا أبيض ، وأصفر وأكثر ، والأحمر فيه الجوهر ، ومعدنه خلف التيبث في وادي النمل الذي مر به سليمان .  
قال مؤلفه أحمد بن علي المقرئ : حررته في شوال سنة احدى وأربعين وثمانمائة إلا في مواضع فهي تحتاج إلى مراجعة .

مكتوب في بعض أنواع العجايب التي كانت تستخدم في  
العصر الملكي للدولة



تصنيفات نسقين



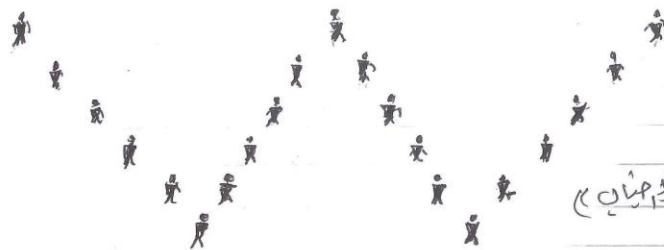
العبادة والتمطير  
انظر: الدولة البرصية في العجايب الغربية  
ورقة رقم ١١



شكل رقم ١  
عبادة نصف المستوى  
أو نصف واحد ←



شكل رقم ٢  
تصنيف رأس السهم وعكس  
«أو»  
عبادة السوران وهو نصف  
عبادة البندان



شكل رقم ٣  
عبادة نصف  
التي في المصدر  
«تخرج عند سبيل البندان»

شكل رقم ٤

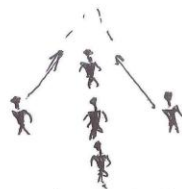


شكل رقم ٤  
تعبئة نظام  
تشكيل ملاك أخصان

شكل رقم ٥



شكل رقم ٥  
تعبئة نظام المصفر



شكل رقم ٦

تعبئة شكل الهندسي السماوي  
مستون حرف ح او  
تشكيل رأس م

شكل رقم ٧



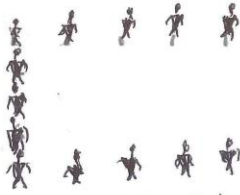
تعبئة تعبئة أخصان الفرسان  
مستون حرف ط او تشكيل رأس م

شكل رقم ٨



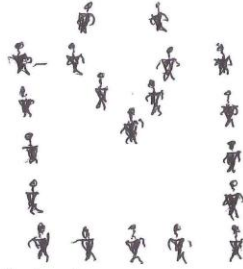
تعبئة أربعة عشر من الجناد  
مستون حرف (د)





شكل رقم ٩

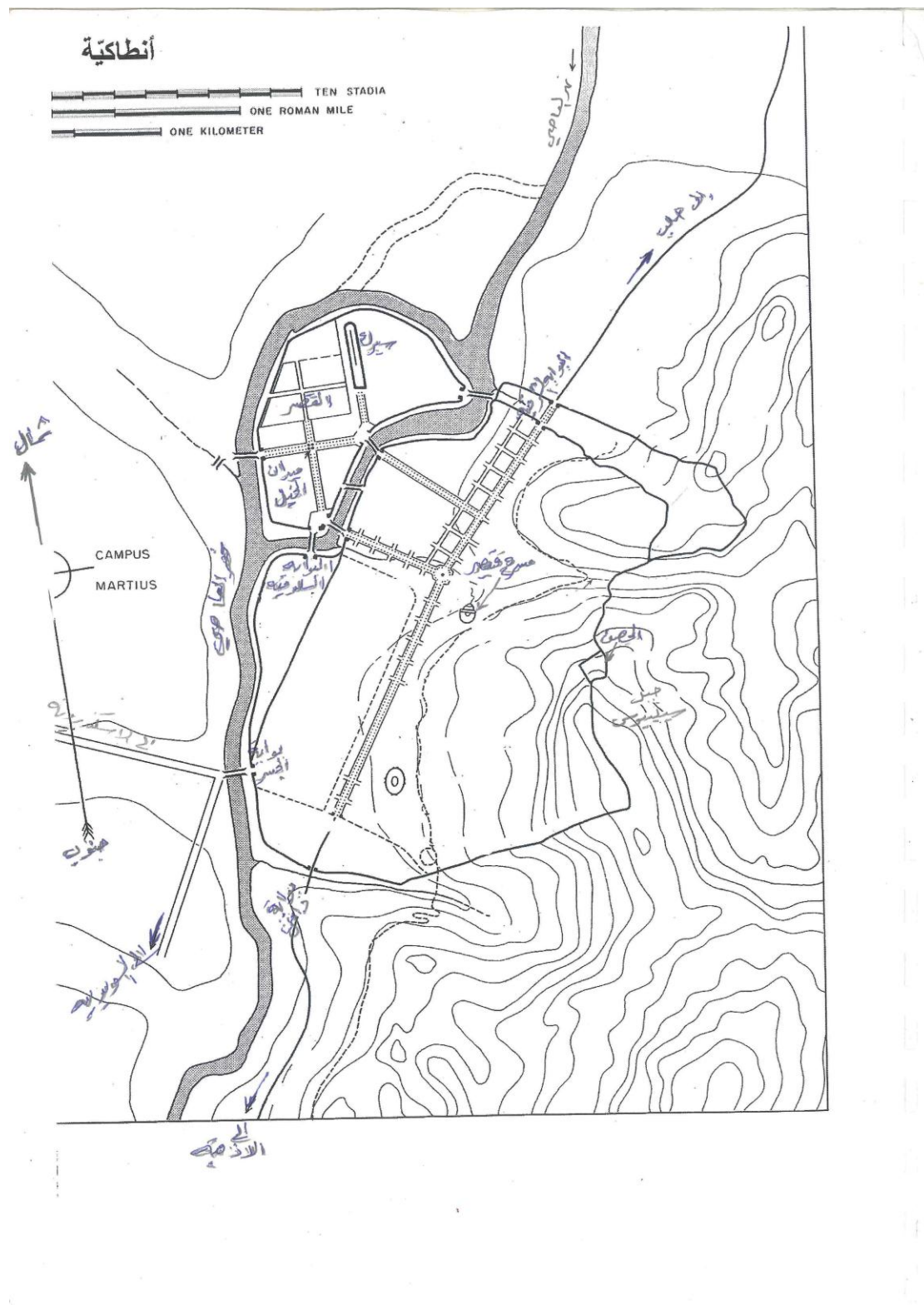
تعبئة شحروان - تخطيط هندسي



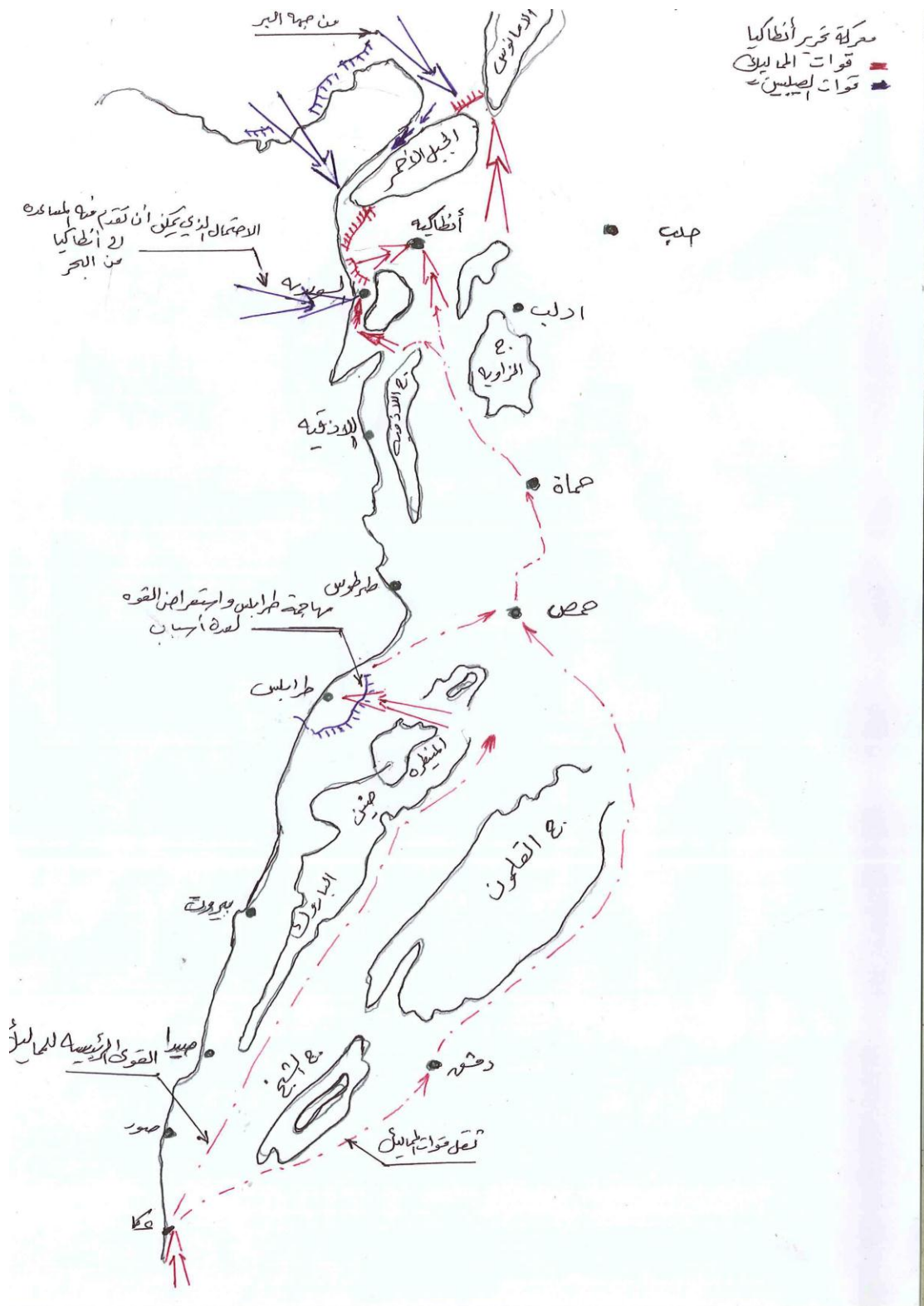
شكل رقم ١٠

تعبئة مهن التجارة أو رأس الكرم مقلوب

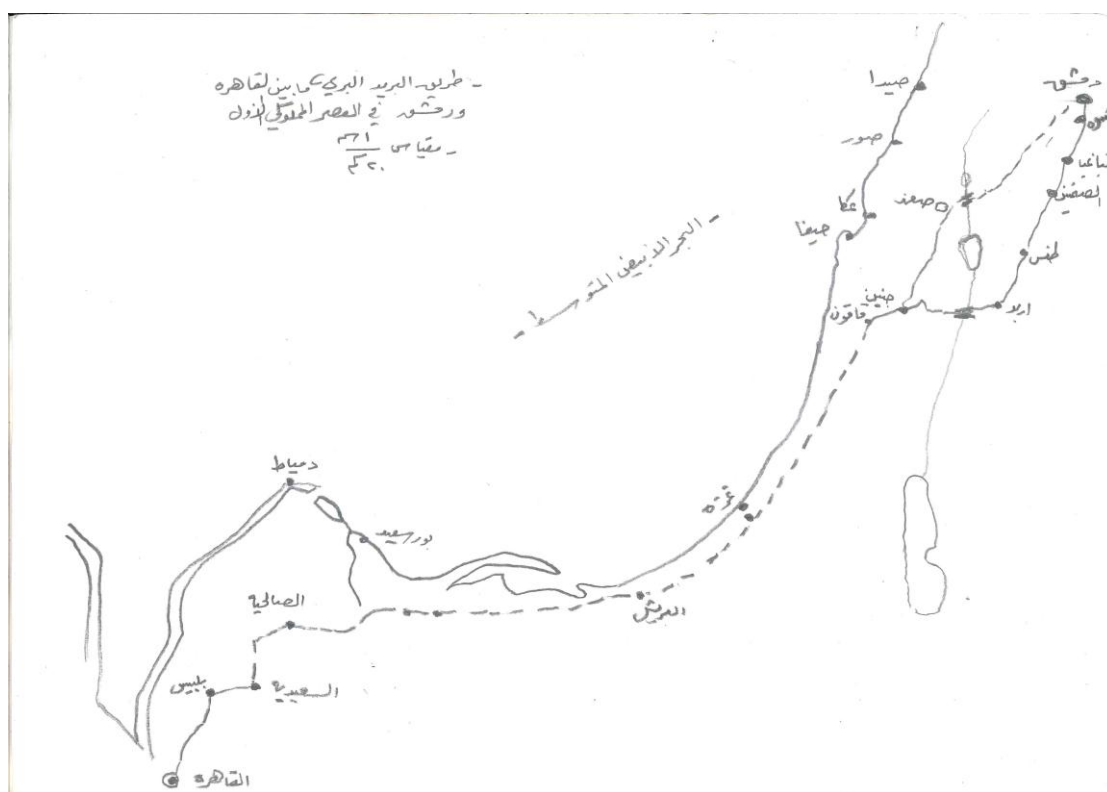
ملاحظة : يمكن أن يكون كل رأس كرم يمثل جندي أو مجرم من الجنود بقوة أمير  
 ضمة أو أمير كشرة أو أمير الكرمين و هي أمير صائغ ويكون في داخل  
 كل مجرمة تتصلب بنا حسب العدد من تشكيلات الصال للوحدة وتتناوب مع  
 تشكيل الصال للوحدة الأكبر .



ملحق رقم ٤



ملحق رقمه







## المصادر والمراجع

### أولاً : المصادر العربية والمعربة

- ١- القرآن الكريم .
  - ٢- الكتاب المقدس .
- المخطوطات
- ٣- البكري ( علاء الدين مغلطاي بن قليج بن عبد الله ، ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٤م ) : مختصر تاريخ الخلفاء ، تح آسيا كليبان علي البارح ، دار الفجر للنشر والتوزيع ، ط١ ، القاهرة ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .
  - ٤- الرماح ( نجم الدين حسن ) : عمل الرمح على الأرض والفرس ، مخطوط يوجد صورة عنه في معهد التراث العلمي العربي بحلب تحت رقم ١٣٤ .
  - ٥- الرماح ( نجم الدين حسن ) : علم الفروسية برسم العمل به . مخطوط يوجد صورة عنه في معهد التراث العلمي العربي بحلب تحت رقم ٢٦٧ .
  - ٦- الرملي ( نجم الدين بن خير الدين الحنفي الرملي ) : إسبال الذيل في ذكر خيار الخيل ، مخطوط موجود في المركز الثقافي العربي بحماة تحت رقم ٩٨ .
  - ٧- السلامي ( شهاب الدين أحمد ، ت ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م ) : مختصر التواريخ مخطوط يوجد صورة عنه في دار الكتب المصرية تحت رقم ١٤٣٥ .
  - ٨- الطبري ( أبي جعفر محمد بن جرير ) : الرمي بالنشاب ، مخطوط غير مرقم أخذ النص عن : عدوان ( أحمد محمد ) : العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي . عالم الكتب ، الرياض ، د . ت .
  - ٩- الطرابلسي ( محمد بن لاجين ) : غاية المقصود في العلم والعمل بالبنود مخطوطة موجودة في المكتبة الوطنية في باريس تحت رقم ٢٨٢٧ ، يوجد صورة عنها في مكتبة الدكتور سهيل زكار .
  - ١٠- ابن منكلي ( محمد ) الأحكام الملوكية والضوابط الناموسية في فن القتال في البحر ، مخطوط يوجد صورة عنه في مكتبة كلية الآداب بجامعة الإسكندرية تحت رقم ٩ . والمخطوط محفوظ في دار الكتب المصرية في القاهرة تحت رقم ٢٣ فروسية .
  - ١١- التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية : مخطوط منشور في مجلة المورد بغداد ، عدد خاص عن الفكر العسكري عند العرب م ١٢ ، العدد الرابع ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م .

- ١٢- الأدلة الرسمية في التعابي الحربية : مخطوط يوجد صورة عنه في مديرية التراث القديم في وزارة الثقافة بدمشق تحت رقم ف ١١٨١ .
- ١٣- مؤلف مجهول : خزانة السلاح ، تح نبيل محمد عبد العزيز ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، د . ط ، ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .
- ١٤- مؤلف مجهول : الكمال في الفروسية وأعمال السلاح ، مخطوط يوجد صورة عنه في مكتبة الأسد الوطنية ، رقم الورود م ف / م / ١١٥٥ . ويوجد صورة عنه في جامعة حلب ، معهد التراث العلمي العربي تحت رقم ٣٠٥ .
- ١٥- مؤلف مجهول : السبق والرمي وأسلحة المجاهدي ن ، مخطوط ، أخذ عن مجلة المورد ، عدد خاص ، م ١٢ ، العدد الرابع ، ص ٤٠٩ وما بعدها .
- ١٦- ابن نباته الجذامي المصري ( محمد بن محمد ، ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٧ م ) : رسالة السيف والقلم ، مخطوط عن مجلة المورد ، م ١٢ ، العدد الرابع ، ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م .
- ١٧- ابن الوردي ( زين الدين عمر ) : المفاخرة بين السيف والقلم ، مخطوط يوجد صورة عنه في مكتبة الأسد الوطنية ، رقم الورود ص م ١٧٣ .

#### المصادر المطبوعة

- ١٨- ابن الأثير ( عز الدين أبي الحسن علي بن أحمد ، ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م ) : الكامل في التاريخ ، ١١ ج ، تح عمر محمد عبد السلام التدمري ، دار الكتاب العربي بيروت ، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م .
- ١٩- ابن الأخوة ( محمد بن محمد بن أحمد القرش ، ت ٧٢٩ هـ / ١٣٢٩ م : معالم القرية في أحكام الحسبة ، تح محمد محمود شعبان وصديق المطيعي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٣٦ هـ / ١٩٧٦ م .
- ٢٠- الأدفوي ( كمال الدين أبي الفضل جعفر ، ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م ) : الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد ، تح سعد محمد حسن ، مراجعة طه الجابري ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م .
- ٢١- ابن أرنبغا ( الزردكاش ) : الأنيق في المنجنيق ، تح إحسان هندي ، جامعة حلب - معهد التراث العلمي العربي ، حلب ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
- ٢٢- الأصفهاني ( محمد بن محمد ، ت ٥٩٧ هـ / ١٢٠١ م ) : الفتح القسي في الفتح القدسي عن زكار ( سهيل ) : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، أكثر من ١٠٠ ج ، دار الفكر ، ط ١ ، دمشق ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .
- ٢٣- ابن أبي أصيبعة ( أبي العباس أحمد بن القاسم ، ت ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م ) : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٨ م .



- ٢٤- ابن الأعمش ( أبو محمد أحمد ، ت ٣١٤هـ / ٩٢٦م ) : كتاب الفتوح ، تح علي العباسي و عبد الوهاب البخاري ، الهند ، حيدر آباد الدكن ، ١٣٨٨-١٣٩٥هـ / ١٩٦٨-١٩٧٥م .
- ٢٥- اقبال ( عباس ) : تاريخ ايران ، تر محمد علاء الدين منصور ، دار الثقافة للنشر ، بيروت ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .
- ٢٦- الأقسراني ( محمد بن عيسى بن إسماعيل بن خسوشاه ، ت ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م ) : نهاية السؤل والأمنية في تعلم أعمال الفروسية ، تح سهيل زكار ، دار الفكر ، ط١ ، دمشق ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .
- ٢٧- ابن الأكفاني ( شمس الدين محمد بن إبراهيم ، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م ) : كشف اليرين في أحوال أمراض العين ، تح محمد ظافر وفائي ، ومحمد رواس قلججي مركز الملك فيصل ، ط١ ، الرياض ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .
- ٢٨- ابن إياس ( محمد بن أحمد بن إياس المصري ، ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م ) : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج ٥ ، ط٣ ، القاهرة ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
- ٢٩- ابن إياس ( محمد بن أحمد ) : نزهة الأمم في العجائب والحكم ، تح محمد زينهم محمد عزب ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ١٣٨٢هـ / ١٩٩٥م .
- ٣٠- ابن أبيك ( أبي بكر عبد الله الداوداري ، ت ٧١٩هـ / ١٣١٩م ) : كنز الدرر وجامع الغرر ، ٩ أجزاء ، ج ٨ تح أولرخ هارمان ، ج ٩ تح هانس روبرت رويمر المعهد الألماني للآثار ، القاهرة ، ١٣٩١هـ / ١٩٧٢م .
- ٣١- البرزالي ( علم الدين أبي محمد القاسم بن محمد بن يوسف البرزالي ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٩م ) : المقتفي على كتاب الروضتين المعروف بتاريخ البرزالي ٤ أجزاء ، تح عمر محمد عبد السلام التدمري ، المكتبة العصرية ، ط١ ، بيروت ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م .
- ٣٢- ابن بطوطة ( أبو عبد الله محمد ، ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م ) : رحلة ابن بطوطة - تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، دار صادر ، بيروت ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .
- ٣٣- البغدادي ( صفي الدين عبد المؤمن ، ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٩م ) : مرصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، ج ٣ ، تح محمد علي البجاوي ، دار الجيل ، ط١ ، بيروت ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .
- ٣٤- البغدادي ( عبد الله بن قاسم الحريري الاشيلي ) : نهاية الأفكار ونزهة الأبصار ، تح حازم البكري ومصطفى رشيد ، ط١ ، بغداد ، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .
- ٣٥- ابن بكتوت ( محمد ) : كامل الصناعة في الفروسية والشجاعة ، مخطوط يوجد صورة مكرو فيلم عنه في مكتبة الأسد الوطنية .

- ٣٦- البكلميشي ( علاء الدين طبيغا الأشرفي اليوناني ، ت ٧٩٧هـ / ١٣٩٥م ) : بغية المرام وغاية الغرام في رمي السهام ، تح عارف محمد عبد الغني ، وزياد محمود الفياض ، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع ، ودار كنان للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ، دمشق ، ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م .
- ٣٧- ابن البيطار ( أبي بكر بن البدر البيطار ، ت ٧٤١هـ / ١٣٤١م ) : كامل الصناعتين في البيطرة والزردقة ، تح عبد الرحمن إبريق ، جامعة حلب منشورات معهد التراث العلمي العربي ، حلب ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .
- ٣٨- البيهقي ( إبراهيم ، ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م ) : المحاسن والمساوي ، تح محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار نهضة مصر ، القاهرة ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م
- ٣٩- ابن تغري بردي ( أبو المحاسن يوسف ، ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م ) : المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، ٧ ج ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ١ ، القاهرة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م .
- ٤٠- ابن تغري بردي ( أبو المحاسن يوسف ) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ط ١ ، بيروت ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .
- ٤١- ابن تغري بردي ( أبو المحاسن يوسف ) : حوادث الدهور على مدى الأيام والشهور ، تح فهيم محمد شلتوت ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م
- ٤٢- الجاحظ ( عمر بن بحر ، ت ٢٥٥هـ / ٨٦٩م ) : التاج ، دار الفكر ، بيروت ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م .
- ٤٣- ابن جبير ( أبو الحسن محمد ، ت ٦١٤هـ / ١٢١٧م ) : رحلة ابن جبير دار الشرق العربي للطباعة والنشر ، بيروت .
- ٤٤- الجزري ( أبو العز إسماعيل ، ت ٦٠٢هـ / ١٢٠٧م ) : الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل ، تح أحمد يوسف الحسن ، جامعة حلب - معهد التراث العلمي العربي ، حلب ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
- ٤٥- ابن جماعة ( أبي الفضل سعد الله ، ت ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م ) : تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- ٤٦- جوانفيل ( جين ، ت ٧١٧هـ / ١٣١٧م ) : حياة القديس لويس ، عن زكار ( سهيل ) : الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ط ١ ، دمشق ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م . ج ٣٦ .

- ٤٧- الجويني ( عطا ملك ) : تاريخ فاتح العالم جهانغشاي - في تاريخ جنكيز خان وأعقابه حتى كيوك خان وحروبهم مع الخوارزميين ، تر : محمد التونجي ، دار الملاح للطباعة والنشر ، ط١ ، دمشق ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م .
- ٤٨- حاجي خليفة ( مصطفى ، ت ١٠٠٧هـ / ١٦٥٧م ) : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، دار الفكر ، ط٢ ، بيروت ، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .
- ٤٩- ابن حبيب ( الحسن بن عمر ، ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م ) : تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، ٣ أجزاء ، تح محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د . ط ، القاهرة ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م . ج ١ + ج ٢ .
- ٥٠- ابن حجر العسقلاني ( أحمد بن علي ، ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م ) : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ٤ أجزاء ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م .
- ٥١- الحريري ( سيد علي ) : الأخبار السنوية في تاريخ الحروب الصليبية ، الزهراء للإعلام ، ط٣ ، القاهرة ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م .
- ٥٢- الحموي ( ياقوت بن عبد الله ، ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م ) : معجم البلدان ، ٥ أجزاء ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
- ٥٣- أبي حنيفة الدينوري ( أحمد بن داود ، ت ٢٨٢هـ / ٨٩٥م ) : الأخبار الطوال تح عبد المنعم عامر ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي - الإقليم الجنوبي - الإدارة العامة للثقافة ، القاهرة ، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م .
- ٥٤- ابن خرداذبه ( أبي القاسم عبد الله بن عبد الله ، ت ٣٠٠هـ / ٨٢٢م ) : المسالك والممالك ، إعداد وتقديم خير الدين محمود قبلاوي ، منشورات وزارة الثقافة دمشق ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .
- ٥٥- ابن خلدون ( عبد الرحمن ، ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦م ) : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ٧ أجزاء ، مؤسسة الأعلمي للطباعة والنشر ، ط١ ، بيروت ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م .
- ٥٦- مقدمة ابن خلدون ، تح حامد أحمد الظاهر ، دار الفجر للتراث ، ط١ ، القاهرة ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م .
- ٥٧- ابن خلكان ( أحمد بن محمد ، ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م ) : وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان ، تح إحسان عباس ، دار صادر ، ط٤ ، بيروت ، ج ٤ .
- ٥٨- الخوارزمي ( محمد ) : مفاتيح العلوم ، تح نهى النجار ، دار الفكر ط١ ، بيروت ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٣م .
- ٥٩- الداودار ( بيبيرس ، ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م ) : زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة تح سهيل زكار ، دار الفكر ، ط١ ، دمشق ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م . ج ٩ .

- ٦٠- مختار الأخبار - تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة ٧٠٢هـ / ١٣٠٣م ، تح عبد الحميد صالح حمدان ، الدار المصرية اللبنانية ، ط١ ، القاهرة ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .
- ٦١- التحفة الملوكية في الدولة التركية ، تح عبد الحميد صالح حمدان ، الدار المصرية اللبنانية ، ط١ ، القاهرة ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م .
- ٦٢- ابن دقماق ( إبراهيم بن محمد ، ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م ) : الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين ، تح سعيد عبد الفتاح عاشور ، جامعة أم القرى في السعودية ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٢م .
- ٦٣- ابن أبي دينار ( أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني ) : المؤنس في تاريخ افريقية وتونس ، تح وتعليق محمد شمام ، المكتبة العتيقة ط٣ ، تونس ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .
- ٦٤- الذهبي ( محمد بن أحمد ، ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م ) : العبر في خبر من غير ٥ أجزاء ، تح فؤاد السيد ، الكويت ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .
- ٦٥- سير أعلام النبلاء ، تح بشار عواد معروف ويحيى هلال السرحان مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م .
- ٦٦- دول الإسلام ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م
- ٦٧- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تح عمر محمد عبد السلام التدمري ، دار الكتاب العربي ، ط١ ، بيروت ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .
- ٦٨- تذكرة الحفاظ ، تح عبد الرحمن المعلمي ، حيدر آباد الدكن ، مطبعة دار المعارف العثمانية ، ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧م .
- ٦٩- الرازي ( محمد بن أبي بكر بن عبد القادر ) : مختار الصحاح ، دار الإيمان ، ط١ ، دمشق ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
- ٧٠- الرشيدى ( محمد بن محمد ) : تفريج الكروب في تدبير الحروب ، تح عارف أحمد عبد الغني ، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م
- ٧١- الرماح ( نجم الدين حسن ، ت ٦٩٥هـ / ١٢٩٦م ) : الفروسية والمناصب الحربية ، تح عيد ضيف العبادي ، دار الحرية للطباعة والنشر ، بغداد ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
- ٧٢- زي ( سون ) : فن الحرب ، تر حسن توركماني ، الأولى للنشر والتوزيع ط١ ، دمشق ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .

- ٧٣- ابن سباط ( حمزة بن أحمد بن عمر ، ت ٩٢٦هـ / ١٥٢٠م ) : تاريخ ابن سباط ، تح  
 عمر محمد عبد السلام التدمري ، جروس برس ، ط١ ، طرابلس لبنان ١٤١٣هـ /  
 ١٩٩٣م . ج ١ .
- ٧٤- السبكي ( تاج الدين عبد الوهاب ، ت ٧٧١هـ / ١٣٧٠م ) : معيد النعم ومبيد النقم ،  
 مؤسسة الكتب الثقافية ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م .
- ٧٥- السخاوي ( شمس الدين محمد بن عبد الرحمن ، ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م ) : الضوء  
 اللامع لأهل القرن التاسع ، ١٢ جزء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط١ القاهرة ،  
 ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م .
- ٧٦- الذيل التام على دول الإسلام للذهبي ، تح حسن إسماعيل مروة ، الكويت ، مكتبة  
 العروبة ، دار ابن العماد ، ط١ ، بيروت ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .
- ٧٧- الذيل على رفع الأصر أو بغية العلماء والرواة ، تح جوده هلال و محمد محمود صبح  
 ، القاهرة ، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .
- ٧٨- السيوطي ( عبد الرحمن بن محمد ، ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م ) : حسن المحاضرة في  
 أخبار مصر والقاهرة ، ٢مجلد ، وضع حواشيه : خليل المنصور دار الكتب العلمية ،  
 ط١ ، بيروت ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م . ٢م .
- ٧٩- الشارترى ( فوشيه ) : الإستيطان الصليبي في فلسطين ، تر قاسم عبده قاسم دار  
 الشروق ، ط١ ، القاهرة ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .
- ٨٠- الشافعي ( أبي عبد الله محمد بن إدريس ، ت ٢٠٤هـ / ٨٢٠م ) : ديوان الإمام الشافعي  
 ، تح : مجاهد مصطفى بهجت ، دار القلم ، ط٢ ، دمشق ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .
- ٨١- ابن شاکر الكتبي ( محمد بن شاکر بن أحمد ، ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣م ) : فوات الوفيات ،  
 ٤ أجزاء ، تح : إحسان عباس ، دار صادر ، ط١ ، بيروت ، ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م .
- ٨٢- عيون التواريخ ، تح حسام الدين القدسي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٤٠٠هـ  
 / ١٩٨٠م .
- ٨٣- أبو شامة ( شهاب الدين عبد الرحمن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي ، ت  
 ٦٦٥هـ / ١٢٦٧م ) : الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، ٤ أجزاء ، وضع  
 حواشيه وعلق عليه : إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت ، ١٤٢٢هـ /  
 ٢٠٠١م .
- ٨٤- الذيل على الروضتين ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م .
- ٨٥- ابن شاهين الظاهري ( خليل ، ت ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م ) : زبدة كشف الممالك وبيان  
 الطرق والمسالك ، اعتنى بتصحيحه : بولس لويس ، المطبعة الجمهورية ، باريس ،  
 ١٣١١هـ / ١٨٩٣م .

- ٨٦- ابن الشحنة ( محب الدين محمد ، ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠ م ) : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، تح : عبد الله محمد درويش ، دار الكتاب العربي ، دمشق ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤ م .
- ٨٧- ابن شداد ( عز الدين أبي عبد الله محمد ، ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥ م ) : الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تاريخ مدينة دمشق ، تح : سامي الدهان المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، ط ١ ، دمشق ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤ م .
- ٨٨- ابن الشماخ ( أبو عبد الله محمد بن أحمد ) : الأدلة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية ، تح : الطاهر بن محمد المعموري ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م .
- ٨٩- الشوكاني ( محمد بن علي ، ت ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤ م ) : البدر الطالع بمن بعد القرن التاسع ، وضع حواشيه : خليل منصور ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت ١٤١٨هـ / ١٩٩٨ م .
- ٩٠- الصفدي ( صلاح الدين خليل بن أبيك ، ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٣ م ) : أعيان العصر وأعيان النصر ، تح محمد أبو زيد وآخرون ، دار الفكر ، بيروت .
- ٩١- الوافي بالوفيات ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩١هـ / ١٩٧١ م .
- ٩٢- الصوري ( وليم ) : تاريخ أعمال منجزة فيما وراء البحار ، تر و تح سهيل زكار عن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر ، ط ١ ، دمشق .
- ٩٣- ابن أبي الضياف ( أبو العباس أحمد بن الحاج بالضياف بن عمر بن أحمد بن نصر ، ت ١٢٩١هـ / ١٨٧٤ م ) : اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، الدار التونسية للنشر ، ط ٢ ، تونس ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦ م ، ج ١ .
- ٩٤- الطبري ( أبي جعفر محمد بن جرير ، ت ٣١٠هـ / ٩٥٣ م ) : تاريخ الأمم والملوك ، ٦ أجزاء ، دار الكتب العلمية ، ط ٢ ، بيروت ، ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥ م .
- ٩٥- الطرابلسي ( لاجين بن عبد الله الذهبي ، ت ٧٣٨هـ / ١٣٣٨ م ) : تحفة المجاهدين في العمل بالميادين ، تح : محمد عيسى صالحيه ، جامعة حلب ، معهد التراث العلمي العربي ، حلب ، د . ت .
- ٩٦- الطرابلسي ( محمد بن لاجين ، ت ٧٨٠هـ / ١٣٧٩ م ) : الفروسية برسم الجهاد ، تح : عارف أحمد عبد الغني ، دار كنان للطباعة والنشر ، دمشق ١٤١٦هـ / ١٩٩٥ م .
- ٩٧- الطرسوسي ( مرضي بن علي بن مرضي ، ت ٥٨٩هـ / ١١٩٣ م ) : تبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأنواء ونشر أعلام الأعلام في العدد والآلات المعينة في لقاء الأعداء ، تح كارين صادر ، دار صادر ، بيروت ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨ م .

- ٩٨- ابن الطقطقا ( محمد بن علي بن طباطبا ، ت ٧٠١هـ / ١٣٠٢م ) : الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار صادر ، بيروت ، د . ت .
- ٩٩- ابن طولون ( شمس الدين محمد ، ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م ) : إعلام الوری بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الشام الكبرى ، تح : محمد دهمان ، دار الفكر ط ٢ ، دمشق ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
- ١٠٠- ابن عبد الظاهر ( محي الدين ، ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م ) : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، تح : عبد العزيز خويطر ، ط ١ ، الرياض ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .
- ١٠١- تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تح مراد كامل ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ط ١ ، دمشق ، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م .
- ١٠٢- ابن العبري ( أبي الفرج أهرن بن غريغوريوس الملطي ، ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م ) : تاريخ مختصر الدول ، طبعه ووضع حواشيه : الأب أنطون صالحى اليسوعي ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م .
- ١٠٣- العثماني ( محمد عبد الرحمن ، ت ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م ) : تاريخ صفد ، تح : سهيل زكار ، دار التكوين ، ط ١ ، دمشق ، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م .
- ١٠٤- ابن العراقي ( ولي الدين أبي زرعه أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين ، ت ٨٢٦هـ / ١٤٢٣م ) : الذيل على العبر في خبر من عبر ، تح : صالح مهدي عباس مؤسسة الرسالة ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .
- ١٠٥- ابن عساكر ( علي بن الحسن ) : تاريخ مدينة دمشق ، تح : علي شيري دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .
- ١٠٦- ابن علي ( شافع ، ت ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م ) : حسن المناقب السرية المنتزعة من السيرة الظاهرية ، تح : عبد العزيز خويطر ، الرياض ، ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .
- ١٠٧- الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور ، تح : عمر محمد عبد السلام التدمري ، المكتبة العصرية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .
- ١٠٨- ابن العماد ( أبو الفلاح عبد الحي ، ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٩م ) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، ٨ أجزاء ، ط ١ ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م .
- ١٠٩- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الممسيرة ، ط ٢ ، بيروت ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ج ٥ ، ج ٦ .
- ١١٠- ابن العميد ( المكين جرجس ) : أخبار الأيوبيين ، مكتبة الثقافة الدينية بورسعيد ، د . ت .

- ١١١- العيني ( بدر الدين محمود ، ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١ م ) : عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تح : محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢ م .
- ١١٢- الغزي ( كامل بن حسين بن محمد ) : نهر الذهب في تاريخ حلب ، تعليق وتصحيح : شوقي شعث و محمد فاخوري ، دار القلم ، حلب ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢ م .
- ١١٣- فتري ( جاك دي ، ت ٦٢١هـ / ١٢٤٢ م ) : رسائل جاك دي فتري ، تر : عبد اللطيف عبد الهادي السيد ، المكتب الجامعي الحديث ، ط ١ ، ليبيا ، غريان ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥ م
- ١١٤- أبو الفداء ( الملك المؤيد إسماعيل ، ت ٧٣٢هـ / ١٣٣٢ م ) : المختصر في أخبار البشر ، بيروت ، د . ت .
- ١١٥- التبر المسبوك في تواريخ الملوك ، تح : محمد زينهم محمد عزب ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٥ م .
- ١١٦- تقويم البلدان ، دار الطباعة السلطانية ، ط ٦ ، باريس ، ١٢٥٦هـ / ١٨٤٠ م
- ١١٧- ابن الفرات ( ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم ، ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٦ م ) : تاريخ ابن الفرات ، ٩ أجزاء ، تح : قسطنطين زريق و نجلاء عز الدين ، المطبعة الأمريكية ، بيروت ، ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦ م .
- ١١٨- ابن أبي الفضائل ( مفضل ، ت ٦٧٢هـ / ١٢٧٤ م ) : النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد ، نشر E . Btochet ، ٢ ج ، باريس ، ١٣٣٠-١٣٥١هـ / ١٩١٢-١٩٣٢ م .
- ١١٩- ابن فضل الله العمري ( أحمد بن يحيى ، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨ م ) : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، تح : حمزة أحمد عباس ، المجمع الثقافي ، أبو ظبي ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤ م .
- ١٢٠- التعريف بالمصطلح الشريف ، تح : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م .
- ١٢١- ابن الفقيه ( أبي بكر أحمد بن محمد الهمذاني ، ت ٣٢٠هـ / ٩٣٢ م ) : مختصر كتاب البلدان ، مطبعة بريل ، ليدن ، ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥ م .
- ١٢٢- ابن قاضي شهبه ( تقي الدين أبي بكر بن أحمد بن قاضي شهبه الأسدي الدمشقي ) : تاريخ ابن قاضي شهبه ، تح : عدنان درويش ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، الجفان والجابي للطباعة والنشر ، دمشق ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٢ م .
- ١٢٣- ابن قتيبه ( أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبه الدينوري ، ت ٢٧٦هـ / ٨٩٠ م ) : عيون الأخبار، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦ م .



- ١٢٤- القرماني ( أحمد بن يوسف ، ت ١٠١٩هـ / ١٦١٠م ) : أخبار الدول و آثار الأول في التاريخ ، تح : أحمد حطييط ، و فهمي سعد ، عالم الكتب ، ط١ ، بيروت ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .
- ١٢٥- القزويني ( زكرياء بن محمد بن محمود ) : آثار البلاد و أخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، د . ت .
- ١٢٦- ابن القف ( يعقوب بن اسحق أمين الدولة ، ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م ) : العمدة في صناعة الجراحة ، تح : سامي خلف الحمارنة ، الجامعة الأردنية ، ط ، عمان ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م .
- ١٢٧- القفطي ( علي بن يوسف ، ت ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م ) : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، مكتبة المتنبى ، القاهرة ، د . ت .
- ١٢٨- القلقشندي ( أحمد بن علي ، ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م ) : صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ١٤ جزء ، تح : محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .
- ١٢٩- نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، تح إبراهيم الأبياري ، الشركة العربية للطباعة والنشر ، ط١ ، القاهرة ، ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م .
- ١٣٠- ابن قنفذ ( أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب بن القنفذ القسنطيني ، ت ٨١٠هـ / ١٤٠٧م ) : الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية ، تح : محمد الشاذلي ، و عبد المجيد التركي ، الدار التونسية للنشر ، تونس ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .
- ١٣١- ابن قيم الجوزيه ( شمس الدين أبي عبد الله بن أبي بكر بن أيوب الزرعي ت ٧١٥هـ / ١٣١٥م ) : الفروسية ، تح : عزت العطار ، دار الأنوار ، ط١ ، القاهرة ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م .
- ١٣٢- كانسي ( جوزيف دي ) : الرسائل الملكية ، مخطوطة ، تح ، وتر : سهيل زكار عن الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر ، دمشق ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م
- ١٣٣- ابن كثير ( أبي الفداء إسماعيل ، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م ) : البداية والنهاية ١٤ جزء ، تح : حامد أحمد طاهر ، دار الفجر للتراث ، ط١ ، القاهرة ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٢م .
- ١٣٤- كندي ( هيو ج ) : القلاع الصليبية ، عن زكار ( سهيل ) الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر ، ط١ ، دمشق ، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٨م .
- ١٣٥- مارشال ( كريستوفر ) : فن الحرب في الشرق اللاتيني ، تر : سهيل زكار عن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر ، ط١ ، ج ٥٢ دمشق ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م ، ج ٥٢ .
- ١٣٦- الماوردي ( قاضي القضاة أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري ، ت ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م ) : الأحكام السلطانية ، أخذ النص عن مجلة المورد بغداد ، وزارة

- الثقافة والإعلام ، عدد خاص عن الفكر العسكري عند العرب ، م ١٢ العدد الرابع ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م .
- ١٣٧- الأحكام السلطانية ، شركة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط ١ ، القاهرة ، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م .
- ١٣٨- المسعودي ( علي بن الحسين ، ت ٣٤٦هـ / ٩٥٨م ) : من مروج الذهب ومعادن الجواهر ، اختار النصوص وعلق عليها : قاسم وهب ، وزارة الثقافة ، دمشق ١٤٠٧هـ / ١٩٨٩م .
- ١٣٩- ابن معصوم ( علي صدر الدين ، ت ١١١٩هـ / ١٧٠٧م ) : أنوار الربيع في أنواع البديع ، تح : هادي شاكر شكر ، مطبعة النعمان ، النجف ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ، ج ٢ .
- ١٤٠- المقدسي ( عز الدين ، ت ٨٢٠هـ / ١٤١٧م ) : المفخرات الباهرة بين عرائس منتزهات القاهرة ، تح : محمد الششتاوي ، دار الآفاق العربية ، ط ١ القاهرة ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م .
- ١٤١- مقديش ( محمود ) : نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار ، تح : علي الزواري ومحمد محفوظ ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ، م ١ ، بيروت ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م .
- ١٤٢- المقرئزي ( أحمد بن علي ، ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م ) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، المعروف بالخطط المقرئزية ، وضع حواشيه : خليل منصور دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .
- ١٤٣- السلوك لمعرفة دول الملوك ، تح : محمد عبد القادر عطا ، دار الكتب العلمية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م .
- ١٤٤- السلوك لمعرفة دول الملوك ، تح : محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م .
- ١٤٥- إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تح : كرم حلمي فرحات ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧م .
- ١٤٦- النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم تح حسين مؤنس ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م .
- ١٤٧- رسائل المقرئزي ٧٧٩-٨٤٥هـ / ١٣٦٤-١٤٤١م ، تح : رمضان البديري و أحمد مصطفى قاسم ، دار الحديث للطباعة والنشر ، ط ١ ، القاهرة ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .
- ١٤٨- ابن ممتي ( أبو المكارم أسعد ، ت ٦٠٦هـ / ١٢١٠م ) : قوانين الدواوين جمعه ونشره وعلق عليه : عزيز سوريال عطية ، طبعة الجمعية الزراعية ، القاهرة ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣م .

- ١٤٩- ابن منقذ ( أسامة ، ت ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م ) : الاعتبار ، تح : فيليب حتي ط ١ ، الولايات المتحدة الأمريكية ، طباعة جامعة بريستون ، ١٣٤٩ هـ / ١٩٣٠ م .
- ١٥٠- ابن منكلي ( محمد ، ت ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م ) : الحيل في الحروب وفتح المدائن وحفظ الدروب ، تح : نبيل محمد عبد العزيز ، دار الكتب المصرية ، القاهرة د . ت .
- ١٥١- ابن النديم ( محمد بن اسحق بن محمد ، ت ٣٨٥ هـ / ٩٩٨ م ) : الفهرست تونس ، سوسه ، د . ت .
- ١٥٢- النووي ( الإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي ، ت ٦٧٦ هـ / ١٢٧٨ م ) : رياض الصالحين ، منشورات دار النصر ، دمشق ، د . ت .
- ١٥٣- النويري ( أحمد ، ت ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م ) : نهاية الأرب في فنون الأدب ٣١ ج ، تح : محمد مصطفى زيادة و فؤاد الصياد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ، د . ت .
- ١٥٤- النويري السكندري ( محمد بن قاسم بن محمد ) : الإمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية ، تح : سهيل زكار ، دار التكوين دمشق ، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م .
- ١٥٥- ابن هذيل ( علي بن عبد الرحمن الأندلسي ) : حلية الفرسان وشعار الشجعان تح : محمد عبد الغني حسن ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٧١ هـ / ١٩٥١ م .
- ١٥٦- الهرثمي ( أبو سعيد الشعراني ) : مختصر في سياسة الحروب ، تح عارف أحمد عبد الغني ، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع ، ط ١ ، دمشق ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .
- ١٥٧- الهروي ( علي بن أبي بكر الهروي ) التذكرة الهروية في الحيل الحربية ، تح : مطيع المرابط ، منشورات وزارة الثقافة ، ط ١ ، دمشق ، ١٣٩٢ هـ / ١٨٧٢ م .
- ١٥٨- الهمذاني ( رشيد الدين فضل الله ) : جامع التواريخ - تاريخ المغول ، تر : محمد صادق نشأت ، و آخرون ، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، دمشق د . ت .
- ١٥٩- ابن واصل ( جمال الدين محمد بن سالم بن نصر الله بن سالم بن واصل ، ت ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م ) : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ٦ أجزاء ، ج ٦ تح : عمر عبد السلام التدمري ، المكتبة العصرية ، ط ١ ، بيروت ، ١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م . ج ١-٣ تح جمال الدين الشيال وج ٤-٥ تح حسنين محمد ربيع .
- ١٦٠- ابن الوردي ( زين الدين عمر ، ت ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م ) : تتمة المختصر في أخبار البشر ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ، ١٢٨٥ هـ / ١٨٦٨ م .
- ١٦١- اليافعي ( الإمام أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان ، ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م ) : مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما تيسر من حوادث الزمان ج ٤ ، مؤسسة الأعلمي ، بيروت ، د . ت .

- ١٦٢- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما تيسر من حوادث الزمان ، دار الكتاب الإسلامي ، ط٢ ، القاهرة ، ١٣١٤هـ / ١٩٩٣م ، ج٤ .
- ١٦٣- اليعقوبي ( أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ، ت ٢٨٤هـ / ٨٩٧م ) : تاريخ اليعقوبي ، دار صادر ، بيروت ، د . ت .
- ١٦٤- أبو يعلى ( محمد بن الحسين بن محمد بن خلف بن أحمد بن الفراء ، ت ٤٥٨هـ / ١٠٦٦م ) : الأحكام السلطانية ، صححه وعلق عليه : محمد حامد الفقي شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، ط١ ، القاهرة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٨م .
- ١٦٥- أبو اليُمن ( عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العلمي المقدسي الحنبلي ، ت ٩٢٨هـ / ١٥٢٢م ) : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، المكتبة الحيدرية ، النجف ، ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .
- ١٦٦- اليونيني ( قطب الدين موسى بن محمد ، ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م ) : ذيل مرآة الزمان ، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ، ط١ ، الهند ، حيدر آباد الدكن ١٣٧٤-١٣٨١هـ / ١٩٥٤-١٩٦١م .

## ثانياً- المراجع العربية والمعربة :

- ١- أديوري ( بترو) : قبرص والحروب الصليبية ، دار الملتقى للطباعة والنشر ط١ ، ليماسول ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٨م .
- ٢- أمين ( أحمد ) : ضحى الإسلام ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، د . ت .
- ٣- أمين ( محمد فتحي ) : الغزو المغولي لديار الإسلام ، دار الفكر ط١ بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .
- ٤- أمين ( مصطفى ) : تاريخ التربية ، مطبعة دار المعارف ، ط٢ ، القاهرة ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م .
- ٥- الأنصاري ( ناصر ) : المجلد في تاريخ مصر - النظم السياسية والإدارية دار الشروق ، ط٢ ، القاهرة ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .
- ٦- أوجاركوف ( ن ف ) : التاريخ يعلمنا اليقظة ، مركز الدراسات العسكرية دمشق ، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م .
- ٧- باترسن ( و، ف ) : رماة الإسلام - دراسة قي غنية الطلاب في معرفة الرمي بالنشاب ، منشورات جامعة مانشستر ، مانشستر ، د . ت .

- ٨- باركر (ارنست) : تاريخ الحملات الصليبية ، تر : السيد الباز العريني دار النهضة العربية ، بيروت ، د . ت .
- ٩- باشا ( أحمد تيمور ) : أعلام المهندسين في الإسلام ، مطابع دار الكتاب العربي ، ط١ ، القاهرة ، ١٣٧٧هـ / ١٩٦٩م .
- ١٠- بالار ( ميشيل ) : الحملة الصليبية والشرق اللاتيني من القرن الحدي عشر إلى القرن الرابع عشر الميلادي ، تر : بشير السباعي ، دار عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية ، ط١ ، القاهرة ، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م .
- ١١- بدر ( مصطفى طه ) : محنة الإسلام الكبرى ، أو زوال الخلافة العباسية من بغداد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩ .
- ١٢- بدوي ( عبد الرحمن ) : موسوعة الحضارة العربية الإسلامية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م .
- ١٣- براور ( يوشع ) : الاستيطان الصليبي في فلسطين - مملكة القدس الصليبية تر عبد الحافظ البنا ، دار عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية ط١ ، القاهرة ، ، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .
- ١٤- براور ( يوشع ) : عالم الصليبيين ، تر : قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن ، دار عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية ، ط١ ، القاهرة ، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .
- ١٥- بروكلمان ( كارل ) : تاريخ الأدب العربي ، ٨ ج ، تر حسن محمود إسماعيل الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م .
- ١٦- بورلو ( جوزيف ) : الحضارة الإسلامية ، تر ريمة الفوال ، دار الكتاب العربي ، ط١ ، دمشق ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م .
- ١٧- جروسية ( رينيه ) : ملحمة الحروب الصليبية ، تر : ساميه زغيب ، مراجعة وتقديم : إبراهيم بيضون ، دار الهدى ، ط١ ، بيروت ، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م .
- ١٨- جقمان ( حنا عبد الله ) : جولة في تاريخ بيت لحم من أقدم الأزمنة حتى اليوم
- ١٩- جيلين ( ن ) : تطور فن الحرب ، تر : محمد حسن حافظ ، مركز الدراسات العسكرية ، دمشق ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
- ٢٠- حتي ( فيليب ) : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، تر : جورج حداد وعبد الكريم رافق ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨م .
- ٢١- تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين : تر كمال اليازجي ، دار الثقافة ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣م .

- ٢٢- العرب تاريخ موجز ، دار العلم للملايين ، ط٦ ، بيروت ، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م .
- ٢٣- الحجي ( حياة ناصر ) : صورة من الحضارة العربية الإسلامية في سلطنة المماليك ، دار القلم ، ط١ ، الكويت ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .
- ٢٤- الحداد ( محمد حمزة ) : السلطان قلاوون تاريخ أحوال مصر في عهده - منشأته المعمارية ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ، د . ت .
- ٢٥- حسين ( أحمد ) : موسوعة تاريخ مصر ، مؤسسة دار الشعب ، القاهرة ، د . ت .
- ٢٦- حمزة ( عادل عبد الحافظ ) : نيابة حلب في عصر سلاطين المماليك ، ٢ج الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م .
- ٢٧- حميدان ( زهير ) : أعلام الحضارة الإسلامية ، منشورات وزارة الثقافة دمشق ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .
- ٢٨- الحويري ( محمود محمد ) : الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد عصر الحروب الصليبية ، دار المعارف القاهرة ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .
- ٢٩- الخالدي ( إسماعيل عبد العزيز ) : العالم الإسلامي و الغزو المغولي مكتبة الفلاح ، ط١ ، الكويت ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
- ٣٠- خمار ( قسطنطين ) : موسوعة فلسطين الجغرافية ، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .
- ٣١- الدباغ ( مصطفى ) : بلادنا فلسطين ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .
- ٣٢- دجاني ( هادية ، ، وآخرون ) : الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ط١ ، بيروت ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م .
- ٣٣- الدفاع ( علي عبد الله ) : رواد علم الجغرافية في الحضارة العربية الإسلامية مكتبة التوبة ، ط٢ ، الرياض ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .
- ٣٤- دهمان ( محمد أحمد ) : معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي دار الفكر ، ط١ ، بيروت ، دمشق ، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

- ٣٥- ديب ( جوزيف نسيم يوسف ) : العدوان الصليبي على مصر وهزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكور ، دار الكتب الجامعية ، الإسكندرية ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م .
- ٣٦- رانسيان ( ستيفن ) : تاريخ الحملات الصليبية - مملكة عكا ، تر : نور الدين خليل ، القاهرة ، د . ت .
- ٣٧- تاريخ الحروب الصليبية ، تر : الباز العريني ، دار الثقافة ، ط٢ ، بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، ج ٣ .
- ٣٨- الربيعي ( عبد الله عبد الرحمن ) : أثر الشرق الإسلامي في الفكر الأوروبي خلال الحروب الصليبية ، ط١ ، الرياض ، ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م .
- ٣٩- رسلر ( جاك ) : الحضارة العربية ، تر : خليل أحمد خليل ، منشورات عويدات ، ط١ ، بيروت ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .
- ٤٠- الزركلي ( خير الدين ) : الأعلام ، ١٠ ج ، دار العلم للملايين ، ط١٤ ، بيروت ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .
- ٤١- زعرور ( إبراهيم ) : الحياة الاجتماعية في بلاد الشام في العصر المملوكي مطبعة الجمهورية ، ط١ ، دمشق ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م .
- ٤٢- زكار ( سهيل ) : حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس ، دار حسان ، ط١ ، دمشق ، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .
- ٤٣- الموسوعة الفلسطينية - فلسطين في عهد المماليك دمشق ، د . ت .
- ٤٤- الحروب الصليبية ، دار حسان ، ط١ ، دمشق ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .
- ٤٥- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، دار الفكر ، ط١ ، دمشق ، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م .
- ٤٦- المدفعية عند العرب ، دار الفكر ، ط١ ، دمشق ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ٤٧- القلاع الصليبية ، دار الفكر ، ط١ ، دمشق ، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م .
- ٤٨- الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية ، ٥٠ ج ، دار الفكر ، دمشق ، ط١ ، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م .
- ٤٩- زكي ( عبد الرحمن ) : بحوث في تاريخ الحضارة ، مجموعة بحوث ألفت في ندوة الحضارة الإسلامية ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م ، مؤسسة شباب الجامعة ، القاهرة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .

- ٥٠- الجيش المصري في العصر الإسلامي ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .
- ٥١- السلاح في الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، د . ت .
- ٥٢- زيدان ( جورجي ) : تاريخ آداب اللغة العربية ،
- ٥٣- سالم ( السيد عبد العزيز ) : تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي حتى الفتح العثماني ، دار المعارف ، الإسكندرية ، مطبعة معهد الدون بوسكو ، ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م .
- ٥٤- سالم ( السيد عبد العزيز ) : طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي دار المعارف ، الإسكندرية ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م .
- ٥٥- سبانو ( غسان ) : ابن سينا في دوائر المعارف العربية ، دار قتيبة دمشق ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٤ م .
- ٥٦- سرور ( محمد جمال الدين ) : دولة بني قلاوون في مصر - الحالة السياسية والاقتصادية في عهدها بوجه خاص ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، د . ت .
- ٥٧- سليمان ( مصطفى محمود ) : تاريخ العلوم والتكنولوجيا في العصور القديمة والوسطى ومكانة الحضارة الإسلامية فيه ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ٢ ، القاهرة ، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م .
- ٥٨- سميل ( ر . س ) : تاريخ فن الحرب عند الصليبيين في القرن الثاني عشر ١٠٩٧-١١٩٣ م ، تر محمد وليد الجلاذ ، دار طلاس للطباعة والنشر ، ط ١ ، دمشق ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م .
- ٥٩- السيد ( علي ) : الجاسوسية في عصر سلاطين المماليك
- ٦٠- السيد ( محمود ) : تاريخ عرب الشام في العصر المملوكي ، مؤسسة الشباب الجامعي ، الإسكندرية ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
- ٦١- شذود ( ماجد ) : الإستراتيجية ، مطبعة ابن حيان ، ط ١ ، دمشق ، ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م .
- ٦٢- شفيق ( منير ) : علم الحرب ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط ١ بيروت ، د . ت .
- ٦٣- شلبي ( أحمد ) : موسوعة التاريخ الإسلامي ، ١٠م ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .
- ٦٤- الشيال ( جمال الدين ) : مجمل تاريخ دمياط سياسيا واقتصاديا ، مطبعة معهد دون بوسكو ، الإسكندرية ، ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م .



- ٦٥- شيبوب ( صديق ) : معارك الإسكندرية ، الوكالة العربية للدعاية والنشر ، ط١ ، الإسكندرية ، د . ت .
- ٦٦- الصلابي ( علي محمد ) : المغول بين الانتشار والانكسار ، المكتبة العصرية ط١ ، بيروت ، ١٤٣١ هـ / ٢٠١٠ م .
- ٦٧- الصياد ( فؤاد عبد المعطي ) : المغول في التاريخ ، ط١ ، القاهرة ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
- ٦٨- الطراونة ( طه ثلجي ) : مملكة صفد في عهد المماليك ، دار الآفاق الجديدة ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- ٦٩- العائدي ( محمود ) : صفد في التاريخ ، جمعية المطابع التعاونية ، عمان ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .
- ٧٠- عبد الدايم ( عبد الله ) : التربية عبر العصور ، دار العلم للملايين ط١ ، بيروت ، ١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م .
- ٧١- عبد العزيز ( نبيل محمد ) : الملاعب في عصر سلاطين المماليك ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، د . ت .
- ٧٢- عبد العاطي ( عبد الغني محمود ) : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك دار المعارف ، ط٢ ، القاهرة ، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م .
- ٧٣- عبد القادر ( محمد فريد ) : معارك فاصلة في تاريخ الإسلام ، دار المستقبل العربي ، القاهرة ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .
- ٧٤- العبيدي ( عبد العزيز بن راشد ) : من معارك الإسلام في رمضان ، مكتبة العبيكان ، ط١ ، الرياض ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .
- ٧٥- عدوان ( أحمد محمد ) : العسكرية الإسلامية في العصر المملوكي ، عالم الكتب ، الرياض ، د . ت .
- ٧٦- العدوي ( إبراهيم أحمد ) : مصر الإسلامية درع العروبة ورباط الإسلام منشورات هيئة الآثار المصرية ، القاهرة ، ١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م .
- ٧٧- عطوي ( عبد الله ) : الجغرافية البشرية ، دار النهضة العربية ، ط١ ، بيروت ، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م .
- ٧٨- عطية الله ( أحمد ) : القاموس الإسلامي ، مكتبة النهضة المصرية ط١ ، القاهرة ، ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
- ٧٩- أبو عليان ( عزمي عيد ) : مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك ، دار النفائس ، ط١ ، بيروت ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م .

- ٨٠- عواد ( كوركيس ) : مصادر التراث العسكري ، ٣ ج ، مطبعة المجمع العلمي ط١ ، بغداد ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .
- ٨١- العيس ( سالم سليمان ) : المعجم المختصر للوقائع التاريخية - العسكرية الاجتماعية - الدينية من بدء الهجرة حتى عام ١٩٥٠ م ، دار النمير ، ط١ ، دمشق ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .
- ٨٢- عيسى ( أحمد ) : تاريخ اليمارستانات في الإسلام ، دار الرائد العربي ، ط٢ بيروت ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ٨٣- أبو العينين ( حسن سيد أحمد ) : دراسات في جغرافية لبنان ، دار النهضة العربية ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ٨٤- غنيمي ( عبد الفتاح مقلد ) : موسوعة تاريخ المغرب العربي ، مكتبة مدبولي ج٥ ، ط١ ، القاهرة ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م .
- ٨٥- غوانمه ( يوسف درويش ) : تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي الهيئة العامة السورية للكتاب ، ط١ ، دمشق ، ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٢ م .
- ٨٦- فرج ( السيد ) : قاهر العالم ، دار الفكر العربي ، ط٢ ، القاهرة ، ١٣٧٧ هـ / ١٩٥٧ م .
- ٨٧- فهمي ( نعيم زكي ) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، دار الفكر ، ط١ ، بيروت ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .
- ٨٨- القطان ( أحمد فهمي ) : تاريخ التربية ، طنطا ، مطبعة مدرسة طنطا الصناعية ، ط٢ ، ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٣ م .
- ٨٩- كاشف ( سيده إسماعيل ، وآخرون ) : تاريخ مصر عبر العصور ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م .
- ٩٠- كحالة ( عمر ) : التاريخ والجغرافية في العصور الإسلامية ، مطبعة الحجاز ، دمشق ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .
- ٩١- كراتشكوفسكي ( اغناطيوس ) : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ، تر صلاح الدين هاشم ، دار الغرب الإسلامي ، ط٢ ، بيروت ، ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م .
- ٩٢- كرامب ( ج ، أ ، أ ) : تراث العصور الوسطى ، تر : قسم الترجمة لألف كتاب في وزارة التعليم العالي بمصر ، مراجعة : محمد بدران ومحمد مصطفى زيادة ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٥ م ، ج١ .
- ٩٣- كرد علي ( محمد ) : خطط الشام ، ٦ ج ، مكتبة النوري ، ط٢ ، دمشق ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م ، ج٤ .

- ٩٤- لابيديوس ( ايرامارفين ) : مدن الشام في العصر المملوكي ، تر سهيل زكار دار حسان ، ط١ ، دمشق ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م .
- ٩٥- لويون ( غوستاف ) : حضارة العرب ، تر عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط١ ، القاهرة ، د . ت .
- ٩٦- لينبول ( ستانلي ) : سيرة القاهرة ، تر حسن إبراهيم حسن ، وآخرون مكتبة النهضة المصرية ، ط٢ ، القاهرة ، ١٣٧١ هـ / ١٩٥١ م .
- ٩٧- ماضي ( إبراهيم ) : زي أمراء المماليك في مصر والشام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٤٣٠ هـ / ٢٠٠٩ م .
- ٩٨- محفوظ ( محمد جمال الدين ) : العسكرية في الإسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .
- ٩٩- مظهر ( جلال ) : الحضارة الإسلامية ، مركز الشرق الأوسط ، ط١ ، القاهرة د . ت .
- ١٠٠- معلوف ( لويس ) : المنجد في اللغة والأدب والعلوم ، المطبعة الكاثوليكية ، ط١٥ ، بيروت ، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦ م .
- ١٠١- مقامي ( نبيلة إبراهيم ) : فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام ، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي ، القاهرة ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .
- ١٠٢- مناصير ( محمد عبد الحفيظ ) : الجيش في العصر المملوكي الأول ، عمان مكتبة مجدلاوي ، ط١ ، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م .
- ١٠٣- موير ( وليم ) : تاريخ دولة المماليك في مصر ، تر محمود عابدين وسعيد حسن ، مكتبة مدبولي ، ط١ ، القاهرة ، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م .
- ١٠٤- النباهين ( علي سالم ) : نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك ، دار الفكر العربي ، ط١ ، بيروت ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- ١٠٥- نتنج ( انتوني ) العرب انتصاراتهم و أمجاد الإسلام ، تر راشد البراوي مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .
- ١٠٦- النحال ( محمد سلامة ) : جغرافية فلسطين ، دار الفكر ، ط١ ، بيروت ١٣٨٦ هـ / ١٩٦٦ م .
- ١٠٧- نصر الله ( سعدون عباس ) : رحيل الصليبيين عن الشرق في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٤١٦ هـ / ١٩٩٥ م .

- ١٠٨- نعينع ( سهير محمد إبراهيم ) : الحروب الصليبية المتأخرة – حملة بطرس الأول لويزنيان الصليبية على الإسكندرية ، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ط١ ، القاهرة ، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢ م .
- ١٠٩- النهار ( عمار ) : الحياة الفكرية في مصر في عصر دولة المماليك البحرية رسالة أعدت لنيل درجة الدكتوراه في تاريخ العرب والإسلام ، غير منشورة ، جامعة دمشق ، كلية الآداب ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤ م .
- ١١٠- هارت ( ليدل ) : الإستراتيجية وتاريخها في العالم ، تر الهيثم الأيوبي ، دار الطليعة ، ط١ ، بيروت ، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧ م .
- ١١١- الهاشمي ( رحيم كاظم ، آخرون ) : الحضارة العربية الإسلامية – دراسة في تاريخ النظم ، الدار المصرية اللبنانية ، المكتبة الجامعية غريان - ليبيا ، د . ت
- ١١٢- هوارد ( مايكل ) : نظرية الحرب وممارستها ، مركز الدراسات العسكرية ، ط١ ، دمشق ، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠ م .
- ١١٣- وتر ( محمد ظاهر ) : معركة عين جالوت ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م – دراسة في الجيش المملوكي والمغولي ، دمشق ، ط١ ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩ م .
- ١١٤- يونس ( أحمد عبد الحليم ) : مدينة صفد في عهد المماليك ، رسالة أعدت لنيل شهادة الماجستير في التاريخ ، غير منشورة ، بيروت ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

#### المراجع الأجنبية

- ١١٥- Lane pool ( S ) : History of Egypt in the middle ages , -London , ١٩٣٦
- ١١٦- Nettles ( Isolde Betty ) : Mamluk cavalry practices – Evolution And Influence , I solds, for Dph degree arizona Uni .

